دار الكتب المصرية

الجزء الأوّل

طبع

بمطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٤٠ هـ ١٩٢٢ م

كتاب
صبح الأعشى

تأليف

الشيخ أبى العباس أحمد القلقشندى

الجزء الأوّل

طبع
بمطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة
١٣٤ هـ - ١٩٢٢ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله جاعل المرء بأصغريه، قلبه ولسانه. والمتكلمَ بأجمليه، فصاحته وبيانه. راقمِ حقائق المعاني بأقلام الإلهام على صفحات الأفكار. جامع اللسان والقلم على ترجمة ما في الضمائر، ذاك للأسماع وهذا للأبصار. الذي حفظ رسوم الخطوط ما تكلّ الأذهان السليمة عن حفظه. وتبلُغ بوسائطها على البعد ما يعسر على المتحمل تأديتُه بصورة معناه ولفظه.

أحمـده على أنْ وهب من بنات الأفكار ما يربو في الفخر على ذُكُور الصوارم. ومنح من جواهر الخواطر ما يزكو مع الإنفاق ولا ينقص بالمكارم.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة يُوقِّع لصاحبها بالنجاة من النار. ويُكْتَب داخلها في ديوان الأبرار. وأن محمدا عبده ورسوله الذي اهتزَّت لهيبته الأسرَّة وشرُفت بذكره المنابر. وضاقت عن دَرْك وصفه الطروس ونفدت دون إحصاء فضله المحابر. صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين قُلِّدوا أمورَ الدين فقاموا بواجبها. وحُمِّلوا أعباءَ الشريعة فانتشرت بهم في مشارق الأرض ومغاربها. صلاةً تُسَطَّر في الصحف. وتفوق بهجتُها الروضَ الأُنُف.

وبعـدُ فلمـا كانت الكتابة مـن أشرف الصنائع وأرفعها . وأربح البضائع وأنفعها . وأفضل المـآثر وأعْلاها . وآثَرِ الفضائل وأعلاها . لاسيما كتابة الإنشـاء التى هى منها بمنزلة سلطانها . وإنسان عينها بل عين إنسانهـا . لا تلتفت الملوكُ إلا إليها . ولا تعوِّل فى المهمات الا عليها . يعظِّمون أصحابها ويقرِّبون كُتَّابها . فخليقها أبدا حليق بالتقديم . جدير بالتبجيل والتكريم .

تَسُحُّ سَحَائِبُهـا إذا ما حَىَّ الظَّمَا   وتُروِى مَجارِيها إذا بَخِل القَطْرِ

وكانت الديار المصريه . والممالك اليوسفيه . أعز الله تعالى حماها . وضاعف عُلَاها . قد تعلقتْ مـن الثريَّا بأقراطها . ورجحت سائرَ الأقاليم بقيراطها . بشَّر بفتحها الصادقُ الأمين ، فكانت أعظمَ بُشرىٰ . وأخبر سيد المرسلين أن لأهلها ذمة وصهرا . فتوجهت إليهـا عزائم الصحابة زمَنَ الفاروق فجاسُوا خِلالَ الديار وعمروا سهلها . واقتطعها أيدى المسلمين من الكفار وكانوا أحقَّ بها وأهْلَها

ثم لم يزل يعلو قدرها . ويسمو ذكرها . إلى أن صارت دار الخلافة العباسيه وقرار المملكة الإسـلاميه . وتحَرَّتْ مملكتها خدمة الحرمين فخدمها سائر الملوك والأمم لخيارة القِبْلتيْن .

تَناهَتْ عَلاءً والشَّبـابُ رِداؤُها   فما ظَنُّكُمْ بالفضلِ والرَّأْسِ أَشْيَبُ

وحَظِيتْ من فُضلاء الكُتَّاب بمـا لم تحظَ مملكةٌ من الممـالك . ولا مصر مـن الأمصار . وحوَتْ من أهل الفضل والأدب مالم تَحْوِ قطْر من الأقطار . فما برحت متوِّجةً بأهل الأدب فى الحـديث والقديم . مطرزة من فضلاء الكتّاب بكل مكين أمينٍ ، وحفيظ عليم .

نُجومُ سَمـاءٍ كلَّما غابَ كوكبٌ   بَدا كوكبٌ تأوى إليه كواكِبُهْ

هـذا . والمؤلفون فى هذه الصنعة قد اختلفت مقاصدهم فى التصنيف . وتباينت مواردهم فى الجمع والتأليف . ففرقة أخذت فى بيان أصول الصنعة وذكر شواهدها . وأخرى جنحت إلى ذكر المصطلحات وبيان مقاصدها . وطائفة اهتمت بتدوين الرسائل ليقتبس من معانيها ويتمسك بأذيالها . وتكون أنموذجا لمن بعدهم يسلك سبيلها، من أراد أن ينسج على منوالها . ولم يكن فيها تصنيف، جامع لمقاصدها . ولا تأليف، كافل بمصادرها الجليلة ومواردها . بل أكثر الكتب المصنفة فى ابها . والتآليف الدائرة بين أربابها . لا تخرج عن علم البلاغة المرجوع فيها إليه . أو الألفاظ الرائقة مما وقع اختيار الكتاب عليه . أو طرف من اصطلاح قد رفض . وتغير أنموذجه ونقض . فلا يغنى النظر فيه المقلد من كتاب الزمان . ولا يكتفى به القاصر فى أوان بعد أوان . على أن معرفة المصطلح هى اللازم المحتم . والمهم المقدم . لعموم الحاجة إليه . واقتصار القاصر عليه .

إنّ الصَّنيعةَ لا تكونُ صَنيعةً ٭ حتّى يُصَابَ بها طريقُ المَصْنع

وكان الدستور الموسوم "بالتعريف . بالمصطلح الشريف" . صنعة الفاضل الألمعى . والمصقع اللوذعى . ملك الكتابة وإمامها . وسلطان البلاغة ومالك زمامها . المقر الشهابى "أحمد بن فضل الله العدوى العمرى" سقى الله تعالى عهده العهاد ! . وألبسه سوابغ الرحمة والرضوان يوم المعاد ! . هو أنفس الكتب المصنفة فى هذا الباب عقدا . وأعدلها طريقا وأعذبها وردا . قد أحاط من المحاسن بجوانبها . وأعقمت الأفكار عن مثله ففاز من الصنعة بأحمد مذاهبها . وكان حقيقا بقوله فى خطبته

"يا طالبَ الإنشاءِ خُذْ عِلْمَه ٭ عَنّى فعِلْمى غير مَنْكُورِ !"

"ولا تقِفْ فى بابِ غيْرى فما ٭ تدْخُله (إلا بدُسْتُورى)"

هذا . والمؤلفون في هذه الصنعة قد اختلفت مقاصدهم في التصنيف . وتباينت مواردهم في الجمع والتأليف . ففرقة أخذت في بيان أصول الصنعة وذكر شواهدها . وأخرى جنحت إلى ذكر المصطلحات وبيان مقاصدها . وطائفة اهتمّت بتدوين الرسائل ليُقتبس من معانيها ويُتمسّك بأذيالها . وتكون أنموذجا لمن بعدهم يسلك سبيلها ، من أراد أن ينسج على منوالها . ولم يكن فيها تصنيف ، جامع لمقاصدها . ولا تأليف ، كافل بمصادرها الجليلة ومواردها . بل أكثر الكتب المصنّفة في بابها . والتآليف الدائرة بين أربابها . لا يخرج عن علم البلاغة المرجوع فيها إليه . أو الألفاظ الرائقة ممّا وقع اختيار الكتّاب عليه . أو طرف من اصطلاح قد رُفض . وغيّر أنموذجه ونُقض . فلا يفي النظر فيه المقلّد من كتّاب الزمان . ولا يكتفي به القاصر في أوان بعد أوان . على أن معرفة المصطلح هي اللازم المحتّم . والمهمّ المقدّم . لعموم الحاجة إليه . واقتصار القاصر عليه .

إنّ الصّنيعةَ لا تكونُ صَنيعةً ٭ حتّى يُصَابَ بها طريقُ المَصْنع

وكان الدُّستور الموسومُ "بالتعريف . بالمصطلح الشريف" . صنعة الفاضل الألمعيّ . والمِصْقَع اللوذعيّ . مَلِك الكتابة وإمامها . وسلطان البلاغة ومالك زمامها . المقرّ الشهابيّ "أحمد بن فضل الله العدويّ العمريّ" سقى الله تعالى عهده العهاد . وألبسه سوابغ الرحمة والرِّضوان يوم المَعَاد . هو أنفس الكتب المصنّفة في هذا الباب عقْدا . وأعدلها طريقا وأعذبها وِرْدا . قد أحاط من المحاسن بجوانبها . وأعقمت الأفكار عن مثله فغار من الصنعة بأحمد مذاهبها . فكان حقيقا بقوله في خطبته

"يا طالبَ الإنشاءِ خُذْ عِلمَه ٭ عَنّي فعِلْمي غير مَنْكُورِ"
"ولا تَقِفْ في بابِ غيْرِي فما ٭ تَدْخُله إلا بدُسْتُورِي"

إلا أنه قد أهمـــل من مقاصد المصطلح أمورا لا يسُوغ تركها . ولا يحسن بالمذية لدىٰ الفوات نُسُكُها . كالبطائق . والملطفات ، والمطلقات . المكرر في جملة كثيرة من المكاتبات . فلم يقع الغنىٰ به عما سواه . ولا الاكتفاء بالنظر فيه عما عداه .

ثم تلاه المقرّ التقوى ابن ناظر الجيش (رحمه الله) بوضع دستوره المسمّى "بتثقيف التعريف" مقتفيا أثره في الوضع ، وجاريا علىٰ سننه في التأليف . مع زيادة ما أهمله في تعريفه . وذكر ما فاته من مصطلح ما كُتب أو حدث بعد تأليفه . وشهرة ذكره وعز وجوده . ووقع النصّ به حتّى بخل بإعارته من عرف كرمه وجوده . وكان مع ذلك قد ترك مما تضمنه التعريف مقاصد لا غنىٰ بالكاتب عنها . ولا بدّ للمتلبس بهذه الصناعة منها . كالوصايا والأوصاف ، التي هي عمدة الكاتب . ومن ذكر البريد وأبراج الحمام ، وغير ذلك من متمات الواجب ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . فصار كلّ من الدستورين منفردًا عن الآخر بقدر زائد . ولم تقع الغنية بأحدهما عن الآخر وإن كانا في معنًى واحد .

وكيفما كان فالاقتصار علىٰ معرفة المصطلح قصور . والإضراب عن معرفة أصول الصنعة ضَعْف همّة وفتور . والمقلّد لا يوصف بالاجتهاد . وشتان بين من يعرف الحكم عن دليل ومن جمد على التقليد مع عدم الاعتداد .

وَلَمْ أرَ في عُيوبِ النّاسِ شيئاً كنقصِ القادرينَ على التمامِ

وقد ثبت في العُقول أن البناء لا يقوم علىٰ غير أساس . والفرع لا ينبت إلا على أصل ، والثمر لا يجتنىٰ من غير غراس .

وكنت في حدود سنة إحدىٰ وتسعين وسبعمائة بعد أن حُزْت في ديوان الإنشاء بالأبواب الشريفة السلطانية . عظم الله تعالى شأنها . ورفع قدرها وأعز سلطانها

من صبح الأعشى[1]

أنشأت مقامة بنيتها على أنه لا بد للإنسان من حرفة يتعلق بها . ومعيشة يتمسك بسببها . وأن الكتابة هي الصناعة التي لا يليق بطالب العلم من المكاسب سواها . ولا يجوز له العُدُول عنها إلى ما عداها . ورجحت فيها إلى تفضيل كتابة الإنشاء وترجيحها . وتقديمها على كتابة الأموال وترشيحها . ونبهت فيها على ما يحتاج إليه كاتب الإنشاء من المواد . وما ينبغي أن يسلُكه من الجَوَادّ . وضمنتها من أصول الصنعة ما أربَتْ به على المطوّلات وزادت . وأودعتُها من قوانين الكتابة ما استولَتْ به على جميع مقاصدها أو كادَتْ . وأشرت فيها إلى وجه تعلُّقِي بحبال هذه الصنعة وإن لم أكن بمطلوبها مَلِيًّا[(1)] . وانتسابي إلى أهلها وإن كنت في النسبة إليها دَعِيًّا .

وَلَيْسَ دَعِيُّ القومِ في القَوْمِ كالَّذِي ... حَوىٰ نَسَبًا في الأكْرَمِينَ عَرِيقا

إلا أنها قد وقعَتْ موقِعَ الوَحْيِ والإشارة . ومالتْ إلى الإيجاز فاكتفَتْ بالتلويح عن واسع العبارة . فعزّ بذلك مطلَبُها . وفات على المجتني بُعْد التناوُل أطيَبُها . فأشار مَنْ رأيه مقرون بالصواب . ومَشُورته عرِيَّة عن الارتياب . أن أُتْبِعها بمصنَّف مبسوط يشتمل على أصولها وقواعدها . ويتكفَّل بحلّ رموزها وذكر شواهدِها . ليكون كالشرح عليها . والبيان لما أجملته والتتمةِ لما لم يَسْبُقْه الفكر إليها . فامتثلت أمره بالسمع والطاعة . ولم أتلكَّأ وإن لم أكن من أهل هذه الصناعة . غير أن القريحة بذلك لم تسمَحْ . وصار المقتضِي يضعُف والمانعُ يترجَّح . لأعذار قد تشابه مُحْكَمُها . وضرورات ، إن لم يعلمها الخلق فالله يعلمُها . إلى أنْ لاحتْ لي بوارقُ الفتح . وظهرت ولله الحمدُ آثار المِنْح . فعند ذلك بعثتُ النفس أملَها . وأصْفَتْ مواهبُ الامتنان حُلَلَها . وتلا لسانُ العناية على الغبي الحاسد «مايَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لهَا» .

(1) أي موسرا

فشرعت فى ذلك بعد أن آستخرت الله تعالىٰ (وما خابَ مَنِ استَخَار) ، وراجعت أهل المَشُورة (وما نَدِمَ مَنِ استَشَار) . مستوعبا من المصطلَح ما آشتمل عليه "التعريف" و"التثقيف" . موضحا لما أبهماه بتبيين الأمثلة مع قُرْب المأْخَذ وحُسْن التأليف . متبرعا بأمور زائدة على المصطلح الشريف لايسَع الكاتبَ جهلُها . مُسْتَمِدًّا من توجيه المقاصد، وتبيين الشواهد، بما يُعَرف به فرعُ كل قضية وأصلُها، آتيًا من مَعَالم الكتابة بكل معنًى غريب . ناقلًا الناظرَ فى هذا المصنَّف عن رتبة أن يَسأل ويجاب إلىٰ رُتبة أن يُسْئَل فيجيب . منبِّها علىٰ مايحتاج إليه الكاتب من المهمات التى يخرج بمعرفتها عن عُهدة الكتابة ودَرَكها[1] . ذاكرًا من أحوال الممالك المكاتبة عن هذه المملكة مايُعرف به قدرُ كل مملكة ومَلِكها . مبيِّنًا جهةَ قاعدتها التى هى بها من هذه المملكة شرقا أو غربا، أو جنوبا أو شمالا، معرِّفا الطريقَ الموصل إليها برا وبحرا، وآنقطاعا وآتصالا . ذاكرًا مع كل قاعدة مشاهيرَ بُلْدانها، إكمالًا للتعريف . ضابطًا لأسمائها بالحروف كى لايدخُلَها التبديل والتحريف .

وسمّيته (صبح الأعشىٰ فى كتابة الإنشا) راجيًا من الله تعالىٰ أن يكون بالمقصود وافيا . وللعليل شافيا .

وليَعذِرِ الواقف عليه، فنتائج الأفكار على آختلاف القرائح لا تتناهى، وإنما ينفق كل أحد علىٰ قدر سعته ﴿لا يُكَلِّفُ ٱللهُ نَفْسًا إلّا ما آتَاهَا﴾ ، ورحم الله من وقف فيه علىٰ سهو أو خطإ فأصلحه عاذرًا لا عاذلا ، ومُنيلا لا نائلا . فليس المبرَّأ من الخطل إلا من وقىٰ اللهُ وعصم . وقد قيل الكُتّاب كالمكلف لايسلم من المؤاخذة، ولا يرتفع عنه القلم، والله تعالى يقرنُه بالتوفيق، ويُرشد فيه إلىٰ أوضح طريق ، ﴿وما تَوْفيقى إلّا باللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وإليه أُنِيبُ﴾ .

وقد رتّبتُه علىٰ مقدّمة، وعشر مقالات، وخاتمة .

(١) الدَّرَك ويسكن التبعة

المقـــدّمة

فى مبادٍ يجب تقديمها قبل الخوض فى كتابة الإنشاء ، وفيها خمسة أبواب

البـاب الأوّل

فى فضل الكتابة ، ومدح فضلاء أهلها ، وذمّ حَمْقاهم ، وفيه فصلان

البـاب الثـانى

فى ذكر مدلول الكتابة لغةً واصطلاحًا ، وبيان معنىٰ الإنشاء ، وإضافة الكتابة إليه ، ومرادفة لفظ التوقيع لكتابة الإنشاء فى عُرْف الزمان ، والتعبير عنها بصناعة الترسل ، وتفضيل كتابة الإنشاء علىٰ سائر أنواع الكتابة ، وترجيح النثر على الشعر . وفيه ثلاثة فصول .

البـاب الثـالث

فى صفات الكُتّاب وآدابهم ، وفيه فصلان

أشكالها وآختلاف أوضاعها، وما يستعمل منها فى ديوان الإنشاء، وما يلتحق بذلك من النَّقْط والشكل والهجاء .

المقـــالة الثانيـــة

فى المسالك والممـالك، وفيها أربعة أبواب

البـــاب الأوّل

فى ذكر الأرض على سبيل الإجمال، وفيه ثلاثة فصول

الفصـــــل الأوّل — فى معرفة شكل الأرض وإحاطة البحر بها، وبيان جهاتها الأربع، وما آشتملت عليه من الأقاليم السبعة الطبيعية، وبيان موقع الأقاليم العرفيه كمصر والشام من الأقاليم الطبعية، وذكر حدودها الجامعة لها .

الفصـــــل الثانى — فى ذكر البحار التى يتكرر ذكرها بذكر البُلْدان فى التعريف بها والسفر إليها من البحر المحيط والبحار المنبثَّة فى أقطار الأرض ونواحى الممـالك مما هو متصل به ومنقطع عنه وما بها من الجزائر المشهوره .

الفصـــــل الثالث — فى آستخراجَ جهات البُلْدان والأبعاد الواقعة بينها .

البـــاب الثـانى

فى ذكر الخلافة ومَنْ وليها من الخلفاء ومقرّاتهم فى القديم وما انطوت عليه ممـالكهم من الأقطار، وفيه فصلان

الفصـــــل الاول — فى ذكر الخـــلافة ومَن وليها من الخلفاء الراشدين من الصحابة (رضوان الله عليهم)، وخلفاء بنى أمية بالشام، وخلفاء بنى العباس بالعراق، ثم بالديار

المصرية، وخلفاء الفاطميين بمصر، وخلفاء بنى أمية بالأندلس، والمدّعين الخلافة من بقايا الموحدين بأفريقية .

الفصل الثانى — فيما انطوت عليه الخلافة العباسية فى الزمن القديم وما كانت عليه من الترتيب وما هى عليه الآن .

الباب الثالث

فى ذكر الديار المصرية ومضافاتها من البلاد الشامية وما يتصل بها،

وفيه ثلاثة فصول

الفصل الاول — فى الديار المصرية وذكر فضائلها ومحاسنها ، وخواصّها وعجائبها وما بها من الآثار القديمة ، وذكر نيلها ومبدئه ونهايته ، وزيادته ونقصه، ومقاييسه، وما ينتهى اليه فى الزيادة وما يصل اليه فى النقص ، والخلجان المتفرّعة عنه، وجسورها الحابسة لمياه النيل على أرضها، وبحيرات الديار المصرية، وجبالها وزروعها ورياحينها وفواكهها، ومواشيها ووحوشها وطيورها ، وذكر حدودها وابتداء عمارتها وتسميتها مصر، وتفرّع الأقاليم التى حولها عنها، وذكر أعمالها وقواعدها القديمة، والمبانى العظيمة الباقية على ممر الأزمان، وقواعدها المستقرّة وما اشتملت عليه من محاسن الأبنية، وذكر مَنْ ملكها جاهليةً وإسلاما قبل الطُّوفان وبعده ، وترتيب أحوالها ، وذكر معاملاتها ونقودها ، وترتيب مملكتها فى القديم والحديث ، وبيان وظائف دُوَلها القديمة والمستقرّة لأرباب السيوف والأقلام .

الفصل الثانى — فى البلاد الشامية وما يتصل بها من بلاد الجزيرة الفراتية وبلاد الثغور والعواصم المعبر عنها الآن ببلاد الأرمن — وبلاد الدربندات المعروفة الآن ببلاد الروم مما هو مضاف الى مملكة الديار المصرية. وفضل الشام وخواصه

وعجائبــه وحدوده وآبتــداء عمارته وتسميته شاما ، وذكر أنهاره وبحــيراته وجباله المشهورة ، وذكر زروعه وفواكهه ومواشــيه ووحوشه وطيوره . وذكر أعمــاله وجهاته وأجناده وكُوَره القديمة والمســتقرّة وقواعده العظام وما كانت عليه فى الزمن السابق ومَنْ ملكها جاهليةً وإسلاما وما آســتقرت عليه الآن من النيابات ، وترتيب أحوالهــا ، وذكر معاملاتها ونقودها ، وترتيب نياباتهــا وما بها من وظائف أرباب السيوف والأقلام وما آشتملت عليه من العُربان[1] .

الفصـــــل الثالث — فى البلاد الحجازية وما ينخرط فى سلكها . وذكر فضل الحجاز وخواصّــه وعجائبه وآبتــداء عمارته وتسميته حجازا ، وذكر مياهه وعيونه وجبــاله المشهوره وزروعه وفواكــهه ورياحينه ومواشيه ووحوشــه وقواعده وأعمــاله ونواحيه ومعاملاته ونقوده وملوكه جاهلية وإسلاما .

البـــاب الرابع

فى الممـــالك والبُلْدان المحيطة بمملكة الديّار المصرية من الجهات الأربع والطرق الموصلة إليها ، وفيه أربعة فصول

الفصـــــل الأول — فى الممـــالكّ والبُلْدان الشرقية عن الديار المصرية . ومن سامت ذلك ووالاه من الجهة الجنوّبية والجهة الشمالية ، وما آشتملتْ عليه هذه الجهة من مملكة إيران التى هى مملكة الفُرْس قديما ، وما آنطوت عليه من بلاد الجزيرة الفراتية وبلاد العراق وبلاد خُوزِسْتانَ وبلاد الأهواز وبلاد فارس وبلاد كِرْمان وبلاد سجستان وبلاد أَرمينية وأَذْرَبيجان وبلاد الجبــال المعبّر عنها بعراق العجم وبلاد الدَّيْلم وبلاد الجيل المعبر عنها بكيلان وبلاد مازندران وبلاد قومس وبلاد زابلستان وبلاد الغوْر

(١) اشتهر هذا الجمع على الألسنة ولم نعثر عليه فى معاجم اللغة التى بأيدينا وإن كان القياس لا يأباه

وغيرها، ومملكة تُوران المعروفة بمملكة الترك قديما، وما آشتملت عليه من قسم ماوراء النهر من بخارىٰ وسَمَرْقند ومضافاتهما و بلاد تركستان وما مع ذلك، وقسم خوارزم ودشت القبحاق المشتمل علىٰ خوارزم والدشت وأعمال السراى و بلاد القرم و بلاد الأزق وما ينضم إلىٰ ذلك من بلاد السرب واللغار و بلاد الأولاق و بلاد الآص و بلاد الروس وغيرها، وقسم ما بيَد صاحب التخت المعبر عنه (بالقان الكبير) المشتمل علىٰ بلاد الخطا و بلاد الصين، وما آتصل بهاتين المملكتين مما يلى الجنوب من بلاد البحرين ومملكة اليمن وما منها بيد أولاد رسول وما منها بيد إمام الزيدية، وممالك الهند المتصلة ببلاد الصين والواقعة فى جزائر البحر الهندى .

الفصل الثانى — فى الممالك والبُلْدان الغربية عن مملكة الديار المصرية، من مملكة تونس المشتملة علىٰ بلاد أفريقية، ومملكة تِلِمْسان المشتملة علىٰ بلاد الغرب الأوسط، ومملكة فاس المشتملة علىٰ بلاد الغرب الأقصىٰ إلى البحر المحيط وما إلىٰ ذلك من ممالك جزيرة الأندلس وما بقى منها بيد المسلمين وما آستعاده منها ملوك الكفر.

الفصل الثالث — فى الممالك والبُلْدان الجنوبية عن مملكة الديار المصرية وما آشتملت عليه من بلاد السُّودان من مملكة البرنو ومملكة الكانم ومملكة مالى ومملكة الحبشة، و بيان ما من ذلك بيد ملوك المسلمين وما منه بيد ملوك الكفر.

الفصل الرابع — فى الممالك والبُلْدان الشمالية عن مملكة الديار المصرية مما بيد المسلمين من البلاد المعروفة الآن ببلاد الروم وما بيد ملوك النصارىٰ من جزائر بحر الروم كجزيرة قبرس و جزيرة رودس و جزيرة أَقْرِيطش و جزيرة المصطكى و جزيرة صِقِلِّيَة وغيرها وما إلىٰ ذلك مما شمالى بحر الروم من مملكة القسطنطينية ومملكة البندقية ومملكة جنوه ومملكة رومية ومملكة فرنسة وغير ذلك .

المقـالة الثالثـــة

فى ذكر أمور تشترك فيها أنواع المكاتَبات والولَايات وغيرهما من ذكر الأسماء والكُنىٰ والألقاب، وكيفية تعيين صاحب ديوان الإنشاء القصص والمرتعاب وجوهه علىٰ كُتَّاب الإنشاء، ومقادير قِطَع الورق وما يناسب كلَّ مقدار منها من الأقلام، ومقادير البياض فى أوّل الدَّرْج وحاشيته وبُعد ما بين السطور فى الكتابات. وبيان المستندات التى يصدر عنها ما يكتب من ديوان الإنشاء من المكاتبات والولايات وغيرها. وكتابة الملخَّصات، وبيان الفواتح والخواتم، وفيها أربعة أبواب .

الباب الأوّل

فى الأسماء والكُنىٰ والألقاب، وفيه فصلان

الفصـــل الأوّل — فى الأسماء والكُنىٰ ومواضع ذكرهما فى المكاتبات والولايات وما يجرى مَجْراهما .

الفصـــل الثانى — فى ذكر الألقاب وأصْل وضعها وما آستعمله الكُتَّاب منها وما كان يلقَّب به أهلُ كل دولة وما حدث من الزيادة بعد ذلك حتّى صار الأمر إلىٰ ما عليه الحال فى زماننا، والألقاب التى آصطُلِح عليها لأرباب السيوف والأقلام وغيرهم وما وُضع منها لأهل الكفر، وبيان معنىٰ كل لقب فى اللغة ومن تقع عليه فى الأصطلاح، وكيفية ترتيب بعضها علىٰ بعض .

الباب الثانى

فى بيان مقادير قِطَع الورق وما يناسب كلّ مقدار منها من الأقلام، ومقدار البياض الذى يراعيه الكاتب فى كتابته، وفيه فصلان

الفصـــل الأوّل — فى مقادير قِطَع الورق المستعملة بديوان الإنشاء فى المتقدّم حسب

الفصــل الثانى — فى بيان ما يناسب كل مقدار من مقادير قِطَع الورق المتقدّمة الذكر من الأقلام ، ومقادير البيـاض الذى يراعيه الكاتب فى أعلى الدَّرْج وحاشيته وبُعْد ما بين السطور فى الكتابة .

— — —

البـاب الثـالث

فى بيان المستندات وكتابة الملخصات ، وكيفية التعيين ، ومقادير قِطَع الورق وما يناسبها من الأقلام ، وفيه فصلان

الفصــل الاول — فى بيـان المستندات التى يصدر عنها كتابة ما يكتب من تلقى كاتب السر الأمر فى ذلك عن السلطان أو تلقيه وتلقى كتاب الدست بدار العدل ، أو شمول القصة بالخط الشريف ، أو كونه برسالة الدوادار أو بإشارة النائب الكافل أو إشارة أستاذ الدار أو إشارة الوزير أو بقائمـة من ديوان الخـاص وغيره ، وكتابة الملخَّصات التى تكتب من الكتب المطوّلات الواردة على الديوان ، وترجمة الكتب الوارده بغير العربية إلى العربيه .

الفصــل الثانى — فى بيـان كيفية تعيين صـاحب ديوان الإنشاء القصص والمربعات وما فى معناها ، وبيان مقادير قطع الورق المستعمل فى دواوين الإنشاء من الكامل والثلثين والنصف والثلث والعاده وما يناسب كل مقدار منها من مختصر الطومار وثقيل الثلث وخفيفه والتوقيعات والرقاع ومقادير البياض المرعيَّة فى الكتابة فى أعلى الدَّرْج وحاشيته وبُعْد ما بين السطور .

———

الباب الرابع

فى الفواتح والخواتم واللواحق ، وفيه فصلان

الفصل الاول — فى الفواتح من البسملة والحمدلة والتصلية والسلام فى أول الكتب والبعديّة التى يقع بها فصل الكلام، وبيان أصول ذلك وأصل مشروعيته.

الفصل الثانى — فى الخواتم واللواحق من كتابة إن شاء الله فى آخر المكتوب وكتابة التاريخ ومعرفة معناه ومعرفة التواريخ القديمة وأصل وضع التاريخ فى الإسلام والتاريخ بالهجرة والوقت الذى يؤرّخ فيه، وبيان بناء التاريخ العربى على الليالى دون الأيام، واختلاف مذاهب النحاة والكتّاب فى التعبير عن ذلك، وبناء تاريخ العجم على الأيام دون الليالى، ومعرفة استخراج كل تاريخ من تواريخ الأمم من الآخر، وكتابة المستند والحمدلة فى آخر الكتب والتصلية على النبى صلى الله عليه وسلم بعدها، والاختتام بالحَسْبَلة، وبيان مواضع ذلك جميعه من الورق وكيفية وضعه.

المقالة الرابعة

فى المكاتبات، وفيها بابان

الباب الأوّل

فى أمور كلية تتعلق بالمكاتبات، وفيه فصلان

الفصل الأوّل — فى مقدّمات المكاتبات من أصول يعتمدها الكاتب فيها من حسن الافتتاح وبراعة الاستهلال وتقديم مقدّمة تناسب المكتوب فيه فى أوّل المكاتبة، ومعرفة الفرق بين الألفاظ الجارية فى الخطاب ونحوه فى المكاتبات وما يناسب المكتوب إليه منها، ومواقع الدعاء فيها، والإتيان لكل مقصد من مقاصد المكاتبات بما يناسبه، ومخاطبة كل أحد من المكتوب إليهم على قدر طبقته

من اللغة العربية، ومراعاة الفصاحة والبلاغة فى الكتابة إلى من يتعاطاها ، ومراعاة رتبة المكتوب عنه والمكتوب إليه، ومواقع الشعر من المكاتبات وحسن الاختتام وما يجرى مجرى ذلك، وبيان مقادير المكاتبات وما يناسبها من البسط والإيجاز وما يلائمها من المعانى، ومعرفة ما يختص من ذلك بالأجوبة وبيان ترتيبها .

الفصل الثانى — فى بيان أصول المكاتبات وترتيبها وبيان لواحقها ولوازمها ومذاهب الكتّاب فيما تُفتتح به المكاتبات فى القديم والحديث، وما يخاطب به أهل الإسلام وأهل الكفر فى المكاتبات، وبيان كيفية طى الكتاب وختمه وحمله وتأديته وفصه وقراءته وحفظه فى الإضباره .

الباب الثانى

فى مُصْطَلَح المكاتبات الدائرة بين كُتّاب الإسلام فى كل زمن من الصدر الأول وإلى زماننا، وفيه ثمانية فصول

الفصل الأول — فى الكُتُب الصادرة عن النبى صلى الله عليه وسلم إلى أهل الإسلام وملوك الكفر، واختلاف افتتاحها بحسب المقاصد .

الفصل الثانى — فى الكتب الصادرة عن الخلفاء من الصحابة رضوان الله عليهم، وخلفاء بنى أمية، وخلفاء بنى العبّاس، وخلفاء الفاطميين، وخلفاء بنى أمية بالأندلس وبقايا الموحدين بأفريقية ابتداء وجوابا .

الفصل الثالث — فى الكتب الصادرة عن الملوك ومَنْ فى معناهم مما كُتب به إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، والخلفاء الراشدين من الصحابة رضوان الله عليهم ، وخلفاء بنى أميــة ، وخلفاء بنى العباس ، وخلفاء الفاطميين بالديار المصرية ، وخلفاء

بنى أمية بالأندلس، وبقايا الموحدين بأفريقية، وما كتب به عن الملوك ومَنْ فى معناهم إلى الملوك ومَنْ فى معناهم من المكاتبات الدائرة بين مُلُوك الديار المصرية ومُلُوك الشرق والغرب، ووُزَراء الخلفاء ومُقَدَّمى أمرِ الخلافة اللاحقين بشَأْو الملوك، وما يَلْتحق بذلك من المكاتبات الصادرة إلى ملوك الكفر واختلاف الافتتاح فى ذلك.

الفصـــل الرابع — فى الكُتُب الصادرة عن ملوك الديار المِصْرِيَّة على ما استقر عليه الحالُ من ابتداء الدولة التُّركيَّة وإلى زماننا على رأس الثمانمائة مما أكْثَرُه مأخوذ من ترتيب الدولة الأيُّوبية، التى هى أصل الدولة التركية مما هو صادر عنهم إلى خلفاء بنى العباس، وإلى أهــل المملكة بمصر والشام والحجاز، وإلى عظماء القانات بممالك الشرق كقان مملكة إيران الجامع لحدودها على ما كان الأمر عليـه إلى آخر أيام أبى سعيد ثم مَنْ بعده ممن بلغ شَأْوَه من القانات الصَغار كالشيخ أويس ومن بعده إلى زماننا، ومَنْ بهذه المملكة من صغار الملوك والحُكَّام، وقانات مملكة تُوران من صاحب ما وراءَ النهر من بخارىٰ وسَمَرْقند وما معهما، وصاحب خُوارَزْم والدَّشْت والقان الكبير صاحب التخت، وصاحب الهند، وصاحب اليمن وإمام الزيدية به وملوك بلاد المغرب كصاحب تُونِس، وصاحب تِلِمْسان، وصاحب فاس، وصاحب غَرْناطةَ من الأندَلُس، وملوك بلاد السُّودان كملك البرنو وملك الكانم، وصاحب مالى، وملوك الأتراك بالبلاد المعروفة ببلاد الرُّوم من الجهة الشمالية، وملوك الكفر كملك الحبشة من البلاد الجَنُوبية وملك القُسْطنطينية وسائر ملوك الفرنج وحُكَّامهم بجزائر الروم وغيرها ممن تقدّم ذكره فى الكلام على المسالك والممالك.

الفصـــل الخامس — فى الكتب الواردة على الأبواب السلطانية بالديار المصرية من ملوك الممالك المتقدمة الذكر وحُكَّامها من أهل الإسلام والكفر ممن يرد مكاتبته على هذه المملكة.

الفصل السادس — فى المكاتبات الإخوانيّات ممـا كان عليه مُصطَلَح السلف فمَنْ بعدهم فى كل زمن وما آستقرّ عليه الحال فى زماننا .

الفصل السابع — فى مقاصد المكاتَبات من الأمور الخاصة بالملوك والخُلَفاء . كالكتب بالبِشَارة بولاية الخِلَافة، والجلوس علىٰ تَخْت السلطنة، والدَّعاية إلى الدِّين، والحثّ على الجهاد، والإخبار عن الفتوحات، والأمر بلزوم الطاعة، والتنبيه علىٰ مَوَاسم العبادة، والمَوَاعظ عند حدوث الآيات السماوية، والأوامر والنواهى، والنَّهْى عن التنازع فى الدين، والكتب إلىٰ مَنْ نكث العهد أو خلَع الطاعة، والتضييق علىٰ أهل الجرائم، والبِشارة بالمواسم، والأعياد، ووفاء النيل، وركوب الميادين، والعَوْد من الغزو، والكتب بالتلقيب علىٰ ما كان الأمر عليه فى الزمن المتقـدّم، و بالإحماد والإذمام، والكتب قرين الإنعام السلطانى من الخيل والجوارح، وسائر أصناف الإنعام، والاعتذار عن السلطان فى الهزيمة ونحوها، والأجوبة عن ذلك، وما يشترك فيه الملوك ومَنْ عَدَاهم من التهانى كالتهنئة بالوظائف، وتكرمة السـلطان، وتجدّد الأولاد، والمساكن، والعَوْد من الحج، والقُدُوم من السفر، والإبلال من المرض، ورضا السلطان وعُزّة السـنة، وشهر رمضان، وعيد الفطر، وعيد الأضحى، والنَّيْروز، والمهرجان، والدخول فى دين الإسلام، والصَّرْف عن الخدمة فى سلامة، ومن التعازى كالتعزية بالأب والأم والولد والقريب والصـديق، والتشوّقات، والشّفاعات، والتهادى، والآستزارة، وآستماحة الحوائج، وآختطاب المودّة، وخِطْبة التزويج، والشـكر، والشكوىٰ، والآعتذار، والعتاب، والمداعبة، وغير ذلك

الفصل الثامن — فى معرفة إخفاء مافى الكتب من السرّ إمّا بطريق المترجم، و إمّا بالكتابة بما يظهر بالمعالجة من عرضه على النار، أو جعل دواء عليه وما أشبه ذلك .

المقـالة الخـامسة

في الولايات، وفيها أربعة أبواب

البـاب الأوّل

في بيان طبقاتها وما يقع به التفاوت، وفيه ثلاثة فصول

الفصـــل الأوّل — في بيـان طبقات الوِلايات وما يجب على الكاتب مراعاته في كتابتها ممـا يكتب في وِلاية الخلافة والسـلطنة والوِلايات الصادرة عن الخلفاء والملوك، وما يكتب عن السلطان بالديار المصرية والشام والحجاز لأرباب السُّيوف وأرباب الأقلام وأرباب الوظائف الدِّيوانيَّة والوظائف الدِّينيَّة، وغير ذلك .

الفصـــل الثاني — في بيـان ما يجب على الكاتب مراعاته في كتابة الولايات على سبيل الإجمال .

الفصـــل الثالث — في بيان ما يَقَع به التفاوُت في رُتَب الوِلايات .

البـاب الثـاني

في البَيْعات، وفيـــه فصلان

الفصـــل الأوّل — في معنى البَيْعات .

الفصـــل الثاني — في ذكر تنويع البيعات ما يكتب للخلفاء، وأصل مشروعيتها، وبيان أسباب البيعة الموجبة لأخذها على الرعيـة، وما يجب على الكاتب مراعاته في كتابة البَيْعة، وبيان صورة ما يكتب فيها، وآختلاف مذاهب الكُتَّاب في ذلك، وذكر نسخ من بَيْعات الخلفاء ممـا كان يُكتَب به في الخلافة العبَّاسـية بالعراق، وخلفاء الفاطميين بالديار المصرية، وخلفاء بني أمية بالأنْدَلُس وما يلتحق بذلك مما كتب به لخلفاء بني العباس الآن بالديار المصرية، وما يكتب من البيعات للملوك على ما آصطلح عليه كُتَّاب بلاد الغرب والأندَلُس .

الباب الثالث

فى العهود، وفيه فصلان

الفصل الأوّل — فى معنى العهد .

الفصل الثانى — فى بيان أنواع العُهُود مما يكتب به للخلفاء عن الخلفاء، ومايكتب به للملوك عن الخلفاء، ومايكتب به عن الملوك لوُلاَة العهد بالسلطنة وللملوك المنفردين بصغار البُلْدان ، ومذاهب الكُتَّاب فى ذلك ، وذكر نُسَخ من ذلك جميعه مما كتب به ببلاد المشرق والمغرب والديار المصرية .

الباب الرابع

فى الولايات الصادرة عن الخلفاء لأرباب المناصب، من أصحاب السيوف والأقلام وغيرهم ، وفيه ثلاثة فصول

الفصل الأوّل — فيما كان يُكتَب من ذلك عن الخلفاء من الصحابة رضوان الله عليهم، وخلفاء بنى أمية بالشام، وخلفاء بنى العباس بالعراق، وخلفاء بنى أميه بالأندَلُس، وخلفاء الفاطميين بمصر، ومدّعى الخلافة من بقايا الموحدين ببلاد المغرب، ومذاهب كُتّاب الدُّول فى ذلك .

الفصل الثانى — فيما يكتب من الولايات عن الملوك لأرباب السُّيُوف والأقلام وغيرهم من مصطلَح كُتّاب المشرق بعد انقراض الخلافة العباسية من العراق، ومصطلَح كُتّاب المغرب والأندلس فى القديم والحديث، ومصطلَح كُتّاب الديار المصرية فى الدولة الطُّولُونية وماوليها من الدولة الإخشيدية، والدولة الأيُّوبية وماوليها من الدولة التركية، وما استقرّ عليه الحال فيها الى زماننا، مما يكتب لأرباب السيوف

والأقلام وغيرهم عن الأبواب السلطانيــة بالديار المصرية من التقاليـد والتفاويض والمراسيم والتواقيع على اختلاف مرَاتبها .

الفصـــل الثالث — فيما يكتب عن نُوّاب السلطنة بالممالك الشاميّة لأرباب السُّيوف والأقلام وغيرهم، وذكر نسخ من ذلك .

المقـالة السادسة

في الوَصَايا الدينية، والمُسامحَات، والإطلاقات، والطرخانيات، وتحويل السنين، والتذاكر، وذكر نسخ من ذلك، وفيها أربعة أبواب

البـاب الأوّل

في الوَصَايا الدينية، وفيه فصلان

الفصـــل الأول — فيما لقُدماء الكُتّاب من ذلك

الفصـــل الثاني — فيما يكتب من ذلك في زماننا .

البـاب الثـاني

في المسامحات، والإطلاقات، وفيه فصلان

الفصـــل الأوّل — فيما يكتب في المسامحات .

الفصـــل الثاني — فيما يكتب في الإطلاقات .

الباب الثالث

في الطرخانيات، وفيه فصلان

الفصل الأوّل — في طرخانيات أرباب السّيوف .

الفصل الثاني — في طرخانيات أرباب الأقلام .

الباب الرابع

في تحويل السنين، وما يكتب في التوفيق بين السنين القمرية والشمسية، وما يكتب في التذاكر، وفيه فصلان

الفصل الأوّل — في تحويل السنين والتوفيق بين السنين الشمسية والقمرية .

الفصل الثاني — في التذاكر .

المقالة السابعة

في الإقطاعات والمُقاطَعات، وذكر نُسَخ من ذلك، وفيها بابان

الباب الأوّل

في ذكر مقدّمات الإقطاعات، وفيه فصلان

الفصل الأوّل — في ذكر أمور تتعلق بالإقطاعات من بيان معناها، وأصل وضعها في الشرع، وأوّل مَنْ وضع ديوان الجَيْش في الإسلام، ومَنْ يستحق إثباتَه في الديوان، وكيفية ترتيبهم فيه .

الفصل الثاني — في بيان حُكْم الإقطاع وانقسامه إلى إقطاع تمليك واستِغْلال .

الباب الثانى

فيما يكتب فى الإقطاعات فى القديم والحديث، وفيه فصلان

الفصـــل الأوّل — فى أصل ذلك فى الشرع، وبيان ماأقطعه النبيّ صلى الله عليه وسلم من البلاد والأرضين .

الفصـــل الثانى — فى صورة ماكان يكتب فى الإقطاعات فى الزمن المتقدّم عن خُلَفاء بنى العبّاس بالعراق، وخُلَفاء الفاطميين بمصر، وعن الملوك القائمين على الخلفاء بالعراق، وملوك بنى أيُّوبَ بالديار المصرية، وما يكتب فى الإقطاعات فى زمننا ثم استقرّ عليه الحال، ومايكتب فى ذلك من ديوان الجَيْش من المُربَّعات وماهى مترتبة عليه، ومايكتب فى ذلك من ديوان الإنشاء من المَنَاشير، وبيان مراتبها، وذكر قطع الورق الذى يكتب فيه، ومايكتب فى طُرَر المناشير ومايلتحق بذلك من الطُّغْرَوات المشتمِلة على الألقاب السلطانية التى كانت تُلصَق بأعلى المناشير بين الطُّرَّة والبسملة . وما يختص من ذلك بالزيادات والتحديدات .

المقــالة الثـامنة

فى الأيمـان، وفيها بابان

البـاب الأوّل

فى أصول يتعين على الكاتب معرفتُها قبل الخوض فى الأيمان، وفيه فصلان

الفصـــل الأول — فيما يقع به القَسَم من الأقسام التى أقسم الله تعالى بها، والأقسام التي يُقسِم بها الخلق من أقسام العرب فى الجاهلية، والأقسام الشرعية التى يحلف بها

الفصل الثانى — فى بيان اليمين الغَمُوس ولَغْو اليمين ، والتحذير من الحِنْث والوقوع فى اليمين الغَمُوس .

الباب الثانى

فى نسخ الأيمان الملوكية ، وفيه فصلان

الفصل الأول — فى نسخ الأيمان المتعلقة بالخُلَفاء .

الفصل الثانى — فى الأيمان المتعلقة بالملوك مما يحلف به المسلمون من أهل السُّنَّة وأرباب البِدَع وأهل الملل من اليهود والنصارىٰ ، والمجوس وما يحلف به الحُكماء .

المقالة التاسعة

فى عقود الصُّلْح والفُسُوخ الواردة علىٰ ذلك ، وفيه خمسة أبواب

الباب الأول

فى الأمانات ، وفيه فصلان

الفصل الأول — فى عقد الأمان لأهل الكفر .

الفصل الثانى — فى كتابة الأمانات لأهل الإسلام ، وذكر أصل ذلك من السُّنَّة ، وإيراد نسخ من ذلك .

الباب الثانى

فى الدفن ، وفيه فصلان

الفصل الأول — فى أصله وكونه مأخوذا عن العرب .

الفصل الثانى — فيما يكتب فى الدفن عن الملوك .

البـاب الثـالث

فيما يكتب في عقد الذمّة وما يتفرّع على ذلك، وفيه فصلان

الفصـــل الأوّل — في الأصول التي يرجع إليها هذا العقد .

الفصـــل الثانى — في صورة مايكتب في متعلّقات أهل الذمة، وإلزامهم بأخذهم على ما يقتضيه عقدُ الذمة لهم .

البـاب الرابع

في الهُدَن الواقعة بين ملوك الإسلام، وملوك الكفر، وفيه فصلان

الفصـــل الأوّل — في أصول يتعين على الكاتب معرفتها من بيان معنى الهدنة وما يرادفُها من الألفاظ، وبيان أصل وضعها في الشرع، وما يجب على الكاتب مراعاته في كتابتها .

الفصـــل الثانى — في صورة ما يكتب في المهادَنات واختلاف مذاهب كتّاب الشرق والغرب والديار المصرية في ذلك، وذكر نسخ منها، وبيان ما يكتب من ذلك من ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية بالديار المصرية وما يرِدُ من ذلك مما يكتب عن ملوك الكفر .

البـاب الخامس

في عقود الصلح الواقعة بين ملكين مسلمين، وفيه فصلان

الفصـــل الأوّل — في أصول تعتمد في ذلك .

الفصـــل الثانى — فيما يكتب في عقد الصلح، وذكر نسخ من ذلك مما كتب به عن الخلفاء والملوك في القديم والحديث اتباعا لمنهاجها .

المقالة العاشرة

فى فنون من الكتابة يتداولها الكتّاب ويتنافسون فى عملها ليس لها تعلّق بكتابة الدواوين السلطانية ولا غيرها، وفيها بابان

الباب الأوّل

فى الهزليات ، وفيه ستة فصول

الفصــــل الأوّل — فى المقامات وذكر نُسَخ منها .

الفصــــل الثانى — فى الرسائل من الرسائل الملوكية المشتملة على الغزو والصيد ونحو ذلك ، والرسائل الواردة مورِد المدح ، والرسائل الواردة موردَ الذمّ ، ورسائل المفاخرات بين الأشـياء النفيسة كالمفاخرة بين العلوم والسيف والقلم ونحو ذلك، والرسائل المشتملة على الأسئلة والأجوبة، والرسائل المكتتبة بالحوادث والماجَريات وذكر نسخ من ذلك جميعه .

الفصــــل الثـالث — فى قدمات البندق، وذكر نسخ منه .

الفصــــل الرابع — فى الصَّدَقات الملوكية، وصَدَقات الأعيان .

الفصــــل الخامس — فيما يُكتَب عن العلماء وأهل الأدب من الإجازة بالفتاوِى وقِراءات الكتب والمرويّات، ومايكتب على الكُتُب المصنّفة والقصائد من التقريظات، ومايكتب عن القُضاه من التقاليد الحُكْمية وإسجالات العدالة والمطلقات وغير ذلك .

الفصــــل السادس — فى العُمراب التى تكتب للحاجّ.

البـاب الثـانى

فى الهَزْليّـات، وفيه فصلان

الفصـــل الأوّل — فيما اعتنت الملوك بجمعه .

الفصـــل الثانى — فى سائر أنواع الهَزْل .

الخاتمـــة

فى ذكر أمور تتعلق بديوان الإنشاء غير أمور الكتابة، وفيها أربعة أبواب

البـاب الأوّل

فى الكلام على البريد، وفيه فصلان

الفصـــل الأوّل — فى مقدّمات يحتاج الكاتب إلى معرفتها من معرفة معنى البريد وأوّل مَنْ وضعه فى الجاهلية والإسلام، و بيان مَعَالمه .

الفصـــل الثانى — فى ذكر مراكز البريد بالديار المصرية والبلاد الشـامية على اختلاف طُرُقها .

البـاب الثـانى

فى مَطَارات الحَمام الرسائلىّ، وذكر أبراجها المقررة بالديار المصرية والبلاد الشامية، وفيه فصلان

الفصـــل الأول — فى ذكر مَطَاراته واعتنـاء الملوك بأمره فى القـديم والحديث ومسافات طَيَرانه .

الفصـــل الثانى — فى الأبراج المقررة له بالديار المصرية والبلاد الشامية .

الباب الثالث

فى ذكر مراكب الثلج الواصل من البلاد الشامية إلى الملوك بالديار المصرية، وفيه فصلان

الفصل الأول — فى مراكبه .

الفصل الثانى — فى هُجُنه .

الباب الرابع

فى المَنَاور والمُحْرِقات، وفيه فصلان

الفصل الأول — فى المناور التى كان يُستعمل بها حركة التتار إلى البلاد الإسلامية .

الفصل الثانى — فى المُحْرِقات التى كان يتوسل بها إلى إحراق زروع التتار ومراعيهم بأطراف بلادهم .

المقـــــدّمة

فى المبادى التى يجب تقديمها قبل الخوض فى كتابة الإنشاء،

وفيها خمســة أبواب

البـاب الأوّل

فى فضل الكتابة، ومدح فضلاء أهلها، وذمّ حمقاهم،

وفيــه فصلان

الفصل الأوّل

(فى فضـــل الكتابة)

أعظم شاهد لجليل قدرها، وأقوى دليل على رفعة شأنها، أن الله تعالى نسب تعليمها إلى نفسه، واعتدّه من وافر كرمه وإفضاله فقال عزّ اسمه ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ﴾ مع ما يُروى أن هذه الآية والتى قبلها مفتتح الوحى، وأوّل التنزيل على أشرف نبىّ، وأكرم مرسَل صلى الله عليه وسلم؛ وفى ذلك من الاهتمام بشأنها ورفعة محلها ما لا خفاء فيه.

ثم بيّن شرفها بأن وصف بها الحفظة الكرام من ملائكته فقال جلّت قدرته ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ ولا أعلى رتبةً وأبذخ شرفًا مما وصف الله تعالى به ملائكته ونعت به حفظته، ثم زاد ذلك تأكيدا ووفور محله إجلالا وتعظيما بأن أقسم بالقلم الذى هو آلة الكتابة وما يُسطر به فقال تقدّست عظمته ﴿ن والْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ والإقسام لا يقع منه

سبحانه إلا شريف ما أبدع، وكريم ما آخترع كالشمس والقمر والنجوم ونحوها إلى غير ذلك من الآيات الدالة على شرفها ورفعة قدرها .

ثم كان نتيجةُ تحصيلها، وأثَره تعظيمها وتحليها، أن الشارع نَدَب إلى مقْصدها الأسنى، وحَثَّ على مطلبها الأعلى، فقال صلى الله عليه وسلم "قيّدُوا العِلْمَ بالْكِتَاب" مشيرا إلى الغرض المطلوب منها، وغايتها المُجْتناة من ثمرها، وذلك أن كل ذى صَنْعة لا بدّ له فى معاناتها من مادّة جسميه تظهر فيها الصوره، وآلة تؤدى إلى تصويرها، وغرض ينقطع الفعل عنده، وغاية تُسْتَثْمَر من صنعته .

والكتابة إحدى الصنائع فلا بدّ فيها من الأمور الأربعة .

فمادّتها، الألفاظ التى تخيّلها الكاتب فى أوهامه، ويصوّر من ضمّ بعضها إلى بعض صورةً باطنة تامة فى نفسه بالقوة، والخَطُّ الذى يخطه القلم، ويقيد به تلك الصُّوَر . وتصير بعد أن كانت صورة معقولة باطنة صورةً محسوسة ظاهرة . وآلتها القلم . وغرضها الذى ينقطع الفعل عنده تقييد الألفاظ بالرسوم الخطية . فيكمل فوة النطق وتحصل فائدته للأبعد كما تحصل للأقرب، وتحفظ صُوَره، ويؤمَن عليه من التغير والتبدل والضَّياع . وغايتها الشيء المستثمَر منها، وهى انتظام جمهور المَعاون والمَرافق العظيمة، العائدة فى أحوال الخاصة والعامّة بالفائدة الجسيمة فى أمور الدين والدنيا .

ولما كان التقييد بالكتابة هو المطلوبَ، ووقع الحضّ من الشارع عليه، والحث على الاعتناء به نبهنا على أن الكتابة من تمام الكمال، من حيث إن العمر قصير والوقائعَ متسعة، وما ذا عسى أن يحفظه الإنسانُ بقلبه أو يحصّله فى ذهنه .

قال ذو الرمة لعيسى بن عمر "أَكْتُبْ شِعْرِى بالكتاب أحبّ إلىّ من الحفظ إن الأعرابىّ لينسى الكلمة قد سَهِرتْ فى طلبها ليلةً فيضَع موضعَها كلمة فى وزنها لا تساويها، والكتاب لا ينسى ولا يبدّل كلاما بكلام" .

وقد أطنب السلف فى مدح الكتابة والحث عليها فلم يتركوا شأوًا لمادح حتى قال سعيد بن العاص "مَنْ لم يكتبْ فيمينه يُسرى" . وقال مَعْن بن زائده "اذا لم تكتب اليد فهى رِجْل". وبالغ مكحول فقال "لا ديةَ ليد لا تكتُب". قال الجاحظ ولو لم يكن من فضل الكتابة إلا أنه لا يسجَّل نبى سجلًّا ولا خليفة مرضى ولا يقرأ كتاب على منبر من منابر الدنيا إلا اذا آستُفْتح بذكر الله تعالى وذكر رسوله صلى الله عليه وسلم وذكر الخليفة ثم يذكر الكتاب كما هو مشهور فى السجلات التى سجلها رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل نَجْرانَ وغيرهم وأكثرها بخط أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه فى شرفه ونبله وسابقته ونجدته .

ومن ثم قال المؤيد "الكتابة أشرف مناصب الدنيا بعد الخلافه، إليها ينتهى الفضل، وعندها تقف الرغبة" .

ومن كلام أبى جعفر "الفضل بن أحمد" فى جملة رسالة "الكتابة أُسُّ المُلك، وعماد المملكة، وأغصانٌ متفرّقة من شجرة واحدة. والكتابة قُطْب الأدب، ومِلاك الحكمة، ولسان ناطقٌ بالفضل، وميزان يدل علىٰ رَجَاحة العقل . والكتابة نور العلم، ومَدامة[1] العقول ومَيْدان الفضل والعدل . والكتابة حِلْية وزينة ولَبوس وجمال وهَيْبه ورُوحٌ جارية فى أقسام متفرّقة، والكتابة أفضل درجةً وأرفع منزلة، ومَنْ جهل حق الكتابة فقد وُسِم بوسم الغُواه الجَهَلة ، وبالكتابةٌ والكُتَّاب قامت السياسه والرياسة، ولو أن فضلا ونُبْلا تصوّرا جميعا تصوّرت الكتابة، ولو أن فى الصناعات صناعةً مربُوبة لكانت الكتابة رَبًّا لكل صنعة .

قال صاحب موادّ البيان ومن المعلوم أنّ جميع الصنائع وسائلُ إلىٰ دَرْك المطالب ونَيْل الرغائب، وأن عوائدها متفاضلة فى الكثرة والقلة بحسب تفاضلها فى الرّفعة

(١) من معانى المدامة المصفاة وهى مناسبة هنا

والصَّـنعَة، اذا كان منها ما لا يفى بالبُلغه من قِوَام العيش نحو الصنائع المَهِينة السُّوقيَّـة الداخلة فى المرافق العامية، ومنها ما يوصل إلى الثروة ويجاوز حدّ الكفاية ويُحظى بالمـال والنِّعم الخطيرة وهى الصنائع الخاصَّة، و إذا تُؤمِّل ما هذه صفته منها عُلِم أنه ليس منها ما يلحق بصناعة الكتابة ولا يساويها فى هذا النوع، ولا ما يُكْسب ما تُكْسِبه من الفوائد والمَعَاون مع حصول الرَّفاهِيَـة والتنزه عن دَناءة المكاسب ولا ما يوصل إليه من الحظوة ورَفاهِيَة العيش ومشاركة الملوك فى اقتناء المساكن الفسيحة، والملابس الرفيعة، والمراكب النبيلة، والدوابّ النفيسة، والخَدَم المستحسَنة وغير ذلك من آلات المروءة والأدوات الملوكيـة فى أقرب المُدَد وأقلّ الأزمنـة . وناهيك بذلك من فضل هذه الصناعة وشرفها وارتفاع خَطَرها وسموّ قَدْرها إذ كان لها سَعة لمثل هذه الجدوى التى لا يوجد مثلها فى غيرها من الصنائع .

وكفى بالكتابة شرفا أنّ صـاحب السـيف يزاحم الكاتب فى قلمه ولا يزاحمـه الكاتب فى سيفه .

قال فى مواد البيـان "ومن ثَمَّ صار السلطان الذى هو رئيس الناس ومستخْدم أرباب كلِّ صنـاعة ومُصَرِّفهم على أغراضه يفتخر بأن تكون صنعتها حاصلةً له مع ترفُّعه عن التلبُّس بصناعة من الصَّنائع الحسنة، وأَنفته أن يقع اسْم من أسمائها عليه" قال وذلك أنا نرى كل ملكٍ وسلطان يُؤْثر أن يكونَ له حظ من بلاغة العبارة وجَوْدة الخط، وفى ذلك ما يدل على أنها أشرف الصنائع رتبةً وأعلاها درجة، وأن المشاركين للسلطان فيها ممن تكتنفه سياسته أفضلُ من سائر المتحلِّين بغيرها من الصنائع الأُخَر فقد عُلم أن الصنائع كلَّها مَعاون ومَرافق، لا تنتظم عِمَارة العالم إلا بتضافرها ومُرافَدة بعضها لبعض . و إنها على ضربين خاصية وعاميه، فالعاميَّة صنائع المِهَنة وأهل الأسواق والحِرَف و إن شاركهم الخاصَّـة فى الحاجة إليها لأنّ بها تنتظم أمور المعاملات وتعمُر

البلاد، والخاصيّة التى تقع فى حيّز الملوك والسلاطين، ويتورعها أعوانهم وأتباعهم، وهذه الصنائع إنما يقع التمييز بين أقدارها بالنظر إلى مقدار عائدتها فى أمور الملك والسلطان والرعية مما كان معلّقا بالأمر الأهمّ، وكانت الحاجة إليه ألزم، وقدر المنفعة به أحسم، والفساد العائد بوقوع خلل فيه على أسباب المملكة أعظم، ومرتبته فى الصنائع الخاصة أشرف وألطف .

وليس من الصنائع صناعةٌ تجمع هذه الفضائل إلا صناعة الكتابة، وذلك لأن الملك يحتاج فى انتظام أمور سلطانه إلى ثلاثة أشياء لا ينتظم ملكه مع وقوع خلل فيها .

أحدها رسم ما يجب أن يُرْسَم لكلٍّ من العمال والمكاتَبين عن السلطان ومخاطبتهم بما تقتضيه السياسة من أمر ونهى، وترغيب، ووعد ووعيد، وإحماد وإذمام .

والثانى استخراج الأموال من وجوهها . واستيفاء الحقوق السلطانية فيها .

والثالث تفريقها فى مستحقها من أعوان الدولة وأوليائها الذين يحمُون حَوْزتها، ويسدُّون ثُغورها ويحفظون أطرافها، ويذُبُّون عنها وعن رعاياها، وغير ذلك من وجوه النفقات الخاصة والعامة ، ومعلوم أنّ هذه الأعمال لا يقوم بها إلا كُتّاب السلطان ولا سبيل للكُتّاب إلى الكتابة فيها إلا بالتدرب فى صنعة الكتابة، فهى إذَنْ من أشرف الصنائع لعظيم عائدتها على السلطان ودولته . قال الجاحظ "من أَبْيَن فضلها أن جُعِلت فى عِلْية الناس" قال صاحب مواد البيان "وقد عُرِف أن الذين وضعوها وابتدعُوها ورسموا رسومَها هم الأنبياء عليهم السلام" .

وقد ذكر علماء التاريخ أن يوسفَ عليه السلام كان يكتُب للعزيز، وهارونَ ويوشعَ بن نون كانا يكتبانِ لموسى عليه السلام، وسليمانَ بن داود كان يكتب لأبيه، وآصفَ بن برخيا ويوسف بن عنقا كانا يكتبان لسليمان عليه السلام، ويحيى بن زكريا كان يكتب للمسيح عليه السلام .

وقد انتقل جماعة منها إلى الخلافة . وأبو بكر كان يكتب لرسـول الله صلى الله عليه وسلم ثم صارت الخلافة إليه بعد ذلك . وعمـر بن الخطاب كان يكتب للنبي صلى الله عليه وسـلم ثم صارت الخلافة إليه . وعثمان بن عفان كان يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم ثم كتب لأبي بكر بعده ثم صارت الخلافة إليه . ومعاوية كان يكتب للنبي صـلى الله عليه وسـلم ثم صارت الخلافة إليـه بعد الحسن . ومروان بن الحكم كان يكتب لعثمان بن عفّان ثم صـار الأمر إليه فيما بعـدُ وعبد الملك بن مروان كان يكتب لمعاوية بن أبي سفيان ثم انتقل الأمر إليه . إلى غير هؤلاء من أهل هذه الصـنعة ممن فرَع الذّروة العلية من السيادة ، والسّنام البادخ من الرياسة ، على تغير الدُّول وتنقلها بين العرب والعجم ، وفي ذلك ما يدل على علو خَطَرها ، وارتفاع قدرها .

قال صاحب العقد وقد تنبّه قوم بالكتابة بعدَ الخُمُول ، وصاروا الى الرتب العليه ، والمنازل السنية . منهم سرجون بن منصور الرومي كان روميًّا خاملا فرفَعته الكتابة وكتب لمعـاوية ويزيدَ بن معاوية ومَرْوانٌ بن الحكم وعبد الملك بن مَرْوانَ . ومنهم حَسَّانُ النَّبَطيّ كاتب الحجاج ، وسالمٌ مولى هشام بن عبد الملك ، وعبد الحميد الأكبر ، وعبدالصمد ، وجَبَلة بن عبدالرحمن ، وقَحْذم جدّ الحجاج[1] بن هشام القَحْذَمي . وهو الذى قلب الدواوين من الفارسية إلى العربية ، والربيع ، والفضلُ بن الربيع ، ويعقوب بن داود ، ويحيى بن خالد ، وجعفر بن يحيى ، وابن المقفّع ، والفضل بن سهل ، وجعفر بن الأشعث ، وأحمد بن يوسف ، وابن عبدالسلام الجُنْدَيْسَابوري . وأبو جعفر محمد بن عبد الملك الزيات ، والحسنُ بن وهب ، وإبراهيم بن العباس .

(١) في العقد الفريد جدّ الوليد بن هشام

وبجاح بن سلمة، وأحمد بن عبد العزيز، وزاد صاحب الريحان والريعان[1] مروانَ ابن الحكم، وعبدَ الملك بنَ مروان . قلت وهؤلاء بعض من شرفته الكتابة ورفعت قدره . ولو آعتبر من شرُف بالكتابة وارتفع قدرُه بها لفاتوا الحصر وخرجوا عن الحدّ . وهذا الوزير المهلبيّ كان في أوّل أمره في شدّة عظيمة من الفقر والضائقة، وكان قد سافر مرة ولقى في سفره ضِيقةً حتّى اشتهى اللحم ولم يقدر عليه فقال آرتجالا

أَلَا مَوْت يُبَاع فأشْتَرِيه ! ‌ ‌ فهذا العَيْشُ ما لا خيْرَ فيه !
أَلَا موتٌ لذيذُ الطَّعْم يأتِي ‌ ‌ يُخلِّصُنِي من المَوْتِ الكريهِ !
أَلَا رحِمَ المُهَيْمِنُ نَفْسَ حُرٍّ ‌ ‌ تصدّق بالوفَاةِ علىٰ أخيه !

وكان معه رفيق له فاشترىٰ لحما وأطعمه . ثم ترقّى بالكتابة حتّى وُزِّر لمعزّ الدولة آبن بويه الديلميّ في جلالة قدره . وهذا القاضي الفاضل أصله من بَيْسان من غير بيت الوزارة رفعتْه الكتابة حتّى وُزِّر للسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، وعلَتْ رتبته عنده حتّى بلغ من رتبته لديه أنْ كان يكتب في كتب السلطان صلاح الدين عن نفسه بما أحب، فكتب مرةً السلام على الملك العزيز آبن السلطان صلاح الدين في كتاب عن أبيه، ثم كتب شعرا منه .

وعربيــةٍ قد جِئْتُ فيهــا أوّلًا ‌ ‌ ومَنِ اقْتَفَاها كان بَعْدِى الثانِى
فرَسُولىَ السُّلْطانُ فى إرسالهـا ‌ ‌ والنــاسُ رُسْلُهُمُ إلى السُّلْطان

وأبلغ من ذلك كله أبو إسحاق الصابى صاحب الرسائل المشهوره، كان علىٰ دين الصابئة متشدّدا فى دينه ، وبلغَتْ به الكتابة إلىٰ أن تولى ديوان الرسائل عن الطائع

(١) أى فيمن نَبُهوا بالكتابة وأ ا عدّهما السابق فى المكتوب لهم

والمطيع وعز الدولة بن بويه وجَهَد فيه عز الدولة أن يسلم فلم يقعْ له ،ولما مات رثاه الشريف الرضيّ بقصيدة فلامه الناس لكونه شريفا يرثى صابئيا، فقال انما رثيت فضله .

قال فى موادّ البيان "ولا عبرة بمَنْ قعد به الجَدُّ،وتخلَّف عنه الحَظُّ من أهل هذه الصناعة، إذ العبرة بالأكثر لا بالقليل النادر. على أن المبرِّز فى هذه الصناعة إن قعدتْ به الأيام فى حالٍ فلا بد أن يُرْفَع قدرُه فى أخرىٰ لأنَّ دَوْلة الفاضل من الواجبات. ودَوْلة الجـاهل من الممكنات ، خصوصا إذا صادف الكاتبُ الفاضلُ ملكا فاضلاً أورئيسـا كاملاً ، فإنه يوفيه حقه و يرقِّيه إلىٰ حيثُ ٱستحقاقُه . فمن كلام بعض الحكماء تَسْقُط الخطوط فى دولة الملك الفاضل فلا تسمّ الرتبه العليّة إلا مستوجبها بالفضيلة .

و بالجملة ففَضْل الكتابة أكثر من أن يُحصىٰ وأجلُّ من أن تُستقصىٰ. وانما حرِّمت الكتابة على النبى، صلى الله عليه وسلم ' ردّا على الملحدين حيثُ نسبوه إلى الاقتباس من كتب المتقدّمين كما أخبر تعالىٰ بقوله وقالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِين اكْتَتَبَها فهِىَ تُمْلَى عَلَيه بُكْرَةً وأَصِيلاً ' وأكد ذلك بقوله وما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ ولا تَخُطُّه بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتابَ المُبطِلُونَ '.

وقد كان، صلى الله عليه وسـلم ' يأتى من القِصَص والأخبار الماضيه من غير مُدَارسـة ولا نظر فى كتاب بمـا لا يعلمه إلا نبىٌّ، كما روى أن قريشا بمكة وجّهت الى اليهود أنْ عَرِّفونا شيئاً نسأله عنه، فبعثوا إليهم أن سَلوه عن أبناء أحد أحدهم فرمَوْه فى بئر وباعوه ، فسألوه فنزلت سوره يوسف جملةً واحده بمـا عندهم فى التوراة وزيادة .

قال العتبى "الأُمّيَّة فى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فضيلةٌ وفى غيره نَقيصة لأن الله تعالى لم يعلّمه الكتابة لتمكّن الإنسان بها من الحيلة فى تأليف الكلام، واستنباط المعانى فيتوسل الكفّار إلىٰ أن يقولوا اقتدر بها علىٰ ما جاء به" .

قال صاحب موادّ البيان "وذلك أنّ الإنسان يتوصل بها إلىٰ تأليف الكلام المنثور وإخراجه فى الصُّوَر التى تأخذ بمجامع القلوب، فكان عدم علمه بها من أقوى الحجج علىٰ تكذيب معانديه، وحسم أسباب الشك فيه" .

وقد حكىٰ أبو جعفر النحّاس أن المأمون قال لأبى العلاء المِنْقَرىّ "بلغنى أنك أُمّىّ، وأنك لاتقيم الشعر، وأنك تَلْحَن فى كلامك" فقال "ياأمير المؤمنين! أما اللحن فربّما سبقنى لسانى بالشيء منه، وأما الأمية وكَسْر الشعر فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمّيًّا وكان لايُنْشِد الشعر". فقال له المأمون "سألتك عن ثلاثة عُيُوب فيك فزدْتنى رابعا وهو الجهل، ياجاهلُ! ذلك فى النبى، صلى الله عليه وسلم، فضيلة وفيك وفى أمثالك نَقيصة" .

قال الجاحظ "وكلام أبى العلاء المنقرىّ هذا مِنْ أوابد ماتكلَّم به الجُهَّال".

علىٰ أن أصحابنا الشافعية رحمهم الله قد حكَوْا وجهيْن فى أنه صلى الله عليه وسلم هل كان يَعْلم الكتابة أم لا وصححوا أنه لم يكن يعلمها معجزةً فى حقه كما تقدّم .

قال أبو الوليد الباجى من المالكية "ولو كتب، صلى الله عليه وسلم! لكان معجزة لخَرْق العادة . قال وليست بأول مُعْجزاته صلى الله عليه وسلم!" .

وإذا كانت الكتابةُ من بين سائر الصِّناعات بهذه الرتبة الشريفة والذِّروة المُنيفة، كان الكُتّاب كذلك من بين سائر الناس. قال الزبير بن بَكّار "الكُتّاب ملوك وسائر الناس سُوقةٌ". وقال ابن المقفّع "الملوك أحوج الى الكُتّاب من الكتاب إلى الملوك". ومن كلام المؤيد "كُتّاب الملوك عيونُهم المبصرةُ، وآذانُهم الواعيه، وألسنتهم الناطقه".

وكانت ملوك الفرس تقول "الكُتَّاب نظام الأمور، وجَمَال المُلْك، وبهاء السلطان وخُزَّان أمواله، والأُمَناء على رعيته وبلاده وهم أولى الناس بالحبَاء والكرامة، وأحقُّهم بمحبة السلام" .

ومن كلام أبي جعفر الفضل بن أحمد "للكُتَّاب أقرَّت الملوك بالفاقة والحاجة، وإليهم أُلقيت الأعِنَّة والأزِمَّة، وبهم اعتصَمُوا في النازلة والنَّكْبة، وعليهم اتّكلوا في الأهل والولد والذخائر والعَقْد ووُلاة العَهْد وتدبير المُلْك وقِرَاع الأعداء، وتوفير الفيء، وحياطة الحريم، وحفظ الأسرار، وترتيب المراتب، ونظم الحروب" .

قال في موادّ البيان "وما من أحد يتوَسَّل إلى السلاطين بالأدب، ويمتُّ إليهم من العلم بسبب، إلا وهو بافْله لاينوِّل مايُنوِّلُه الا على وجه الإرفاق، خلا الكاتب فإنه يَنَال الرغائب العظيمة من طريق الاستحقاق، لموضع الافتقار إليه والحاجة. ومن المعلوم أنه لا بدَّ من واسطة تقوم بين الملوك والرعية لبُعْد ما بين الطبقتين العُلْيا والدُّنْيا. وليس من طبقات الناس من يُساهم الملوكَ في جَلالة القدر وعظيم الخَطَر، ويشاركُ العامّة في التواضع والاقتصاد سوى الكُتَّاب فاحتيج إليهم للسِّفارة في مصالح الرعيّة عند السلاطين، واستيفاء حقوق السلاطين من الرعية والتلطف في الصلة بينهما". قال "ولعلم الملوك بخطَر هذه الصِّناعة وأهلها وعائدتها في أمور السلطان صرفوا العناية إلى الكَتَبَة وخَصُّوهم بالحُظْوة وعرّفوا لهم فَضْل ما جمعوه من الرأي والصيانة. وكانت ملوك الفُرْس لرفعة رتبة الكتابة عندهم تجمع أحداثَ الكُتَّاب ونواشئهم المترشحين لأعمال الملك ويأمرون رؤساء الكتابة بامتحانهم فمن رضي أقرّ بالباب ليستعان به، ثم يأمر الملك بضمهم إلى العُمَّال، واستعمالهم في الأعمال، وينقلهم في الخدَم على قدْر طبقاتهم من حال إلى حال حتّى ينتهيَ بكل واحد منهم إلى

ما يستحقه من المنزلة ، ثم لا يُمَكَّن أحد ممن عُرض آسمه على الملك من الخدمة عند أحد إلا بإذن الملك .

وفى عهد سابور — "وليكن كاتبك مقبولَ القول عندك ، رفيع المنزلة لديك ، يمنعه مكانُه منك وما يظُنّ به من لطافة موضعه عندك من الضَّراعة لأحد والمُداهَنَة له ، ليحمله ما أوليته من الإحسان على محض النصيحة لك ، ومنابَذَة من أراد عيبك وآنتقاصَ حقك" . ولم يكن يركبُ الهماليج فى أيامهم إلا الملكُ والكاتبُ والقاضى .

قلت ولشرف الكتابة وفضل الكُتّاب صرف كثيرٌ من أهل البلاغة عنايتَهم إلى وَضْع رسائل فى المفاخَرَة بين السيف والقلم ، إشارةً إلى أن بهما قِوامَ الملك وترتيبَ السلطنة ، بل ربما فضل القلمُ على السيف ورُجِّح عليه بضروب من وجوه الترجيح كما قال بعضهم مفضلا للقلم بقَسَم الله تعالى به

إن آفتخر الأبطالُ يومًا بسَيْفهم * وعَدُّوه مما يُكْسِب المَجْدَ والكَرَمْ

كفى قَلَمَ الكُتَّاب عِزًّا ورِفْعةً * مَدَى الدَّهْر أَنّ اللهَ أقسَمَ بالقَلَمْ

وكما قال آبن الرومى

إن يخدُمِ القلمُ السيفَ الذى خضَعَتْ * له الرِّقابُ ودانَتْ خَوْفَه الأُمَمُ

فالموتُ، والمَوْتُ لا شىءٌ يعادلُهُ ، * ما زال يَتْبَعُ ما يجرى به القَلَمُ

كذا قضى اللهُ للأقلام مُذْ بُرِيَتْ * أنّ السُّيوفَ لها مُذْ أُرْهِفَتْ خَدَمُ

والمعنى فى ذلك أنها تؤثر فى إرهاب العدوّ على بُعْدٍ والسيوف لا تؤثر إلا عن قُرْب مع ما فُضِّل به القلم من زيادة الجَدْوىٰ والكَرَم ، وإلى ذلك نسر بعضهم بقوله مشيرا للقلم

فلكم يَفُلُّ الجيشَ وهو عَرَمْرَمُ ، * والبِيضُ ما سُلَّتْ من الأَغْماد

وَهَبَتْ له الآجامُ حين نَشَا بها ، * كرمَ السُّيول وصَوْلةَ الآساد

الفصل الثاني

(في مدح فضلاء الكُتّاب وذمّ حمقاهم)

أما فُضَلاء الكتاب فلم يزل الشعراء يَلْهَجون بمدح أشراف الكُتّاب وتقريظهم ويتغالَوْن في وصف بلاغاتهم وحُسْن خطوطهم . فمن أحسن ما مُدِح به كاتب قولُ ابن المعتز

إذا أخَذَ القِرْطاسَ خِلْتَ يمينَهُ تُفَتّحُ نَوْرا أو تُنَظِّم جَوْهَرا

وقول الآخر

يُؤَلِّفُ اللُّؤْلُؤَ المَنْثُورَ مَنْطِقُه وينظِمُ الدُّرّ بالأقلام في الكتُب

وقول الآخر

وكاتب يَرْقُم في طِرْسِه رَوْضًا به تَرْتَعُ ألحاظُهْ

فالدُّرّ ما يَنْظِم أقلامُه والسِّحْر ما تَنْثُرُ ألفاظه

وقول الآخر

إنْ هَزَّ أقلامَهُ يومًا لِيُعْمِلَها أنْساكَ كُلَّ كَمِيٍّ هَزَّ عامِلَه

وإنْ أقَرَّ على رَقٍّ أنامِلَهُ أقَرَّ بالرِّقِّ كُتّابُ الأنامِ لَه

وقول الآخر

لا يُخْطِر الفِكْرُ في كتابته كأنّ أقلامَهُ لها خاطِر

القَوْلُ والفِعْلُ يَجْرِيانِ مَعًا لا أوّلٌ فيهما ولا آخِر

وقول الآخر

وشادنٍ من بني الكُتّاب مُقْتَدِرٍ على البلاغة أحْلَى الناس إنشاءَ

فلا يُجارِيهِ في مَيْدانِهِ أحَدٌ يُرِيكَ سَحْبانَ في الإنْشاءِ إنْ شاءَ

وكذلك أُولِعُوا بذمّ حَمْقَى الكُتّاب ولَهِجُوا بهَجْوهم في كل زمن .

فمن ذلك قول بعض المتقدّمين يهجو كاتبًا

حمــارٌ في الكِتَابة يَدَّعِيهـا * كدَعْوَى آلِ حَرْبٍ في زِيَادِ
فدَعْ عنْكَ الكِتَابَةَ لَسْتَ منها * ولو غرِقتْ ثيابُك في المِدَاد

وقول الآخر

وكاتبٍ كَتْبُه تُذَكِّرنى الــ * ـقُرءانَ حتّى أظــلّ فى عَجَب
فاللَّفظ "قالوا قُلُوبنا غُلُفٌ". * والخَطُّ "تَبَّتْ يَدَا أبى لَهَب"

وقول الآخر

يَهِى غيرَ ما قُلْنا ويَكْتُبُ غيرَ ما * يَعِيه ويَقْــرَا غيرَ ما هو كاتبُ

وقول الآخر

وكاتبٍ أقلامُــهُ * مُعَوَّداتٌ بالغَلَطْ
يَكْشِطُ ما يَكْتُبُهُ * ثم يُعِيدُ ما كَشَطْ

وقول ابن أبى العَيْناء يهجو أسد بن جَهْور الكاتب .

أو ما تَرَى أَسَدَ بنَ جَهْوَرَ قد غَدَا * مُتَشَبِّهًا بأجِـلَّةِ الكُتَّابِ
لكِنْ يُحَرِّقُ ألْفَ طُومارٍ إذا * ما ٱحْتِيجَ منه إلى جوابِ كِتَاب

وقد أكثر الناس من الحكايات المضحكة عن هذا النوع من الكُتّاب مما صاروا به هزؤا على ممرّ الزمان وتعاقب الأيام . كما حكى عن محمد بن يحيى الكاتب أنه قرأ على بعض الخُلَفاء كتابا يذكر فيه حاضرطى " فصحّفه حاضرطى فسخر منه أهل المجالس .

ويروى إن كُتّاب الدواوين ألزموا بعضَ العمّال مالًا مجرحًّا عليه فبعث بحسابه إلى عبيد الله بن سليمان فوقَّع عليه "هذا هذا" وردّ الحساب إلى العامل فقدّر العـامل

تضْعف آدابه أنه صحّح محنتــه وقَبِل الحساب منـه كما يقال في تثنّت الشيء هو هو وأخرج التوقيع إلى الكُتّاب وناظرهم على أنّ ذلك يوجب إزالة المـال الذى لزمه عنه فلم يفهم أحد منهم ما أراد عبيد الله بن سليمان فرُدّ التوقيع إلىٰ عبيد الله فلم يرده فى الجواب على أن شدّد الكلمة الأخيرة ووقّع تحتها "الله المستعان" إعلامًا له أن لفظ هذا بالتشديد بمعنى الهذيان .

وحكى العبّاس بن أســد أن أبا الحسن عليّ بن عيسىٰ كتب إلىٰ أبى الطيب أحمد بن عيسىٰ كتابًا من مكة[1] فقرأه ثم رمىٰ به إلىّ فقال اقرأ . فقرأت كتابى إليك يوم القُرّ ، بالرفع . فقال ما معنَى يوم القُرّ " فقلت القُرّ البرد فقال انمـا هو يوم القَرّ بالفتح ، حين يَقِرّ الناس بمنًى ، وهو اليوم الثانى من النحر . ومثل ذلك كثير .

قال صاحب نهـاية الأرب "وقد اتّسع الخَرْق فى ذلك ودخل فى الكتابة مَنْ لا يعرفها البتّة ، وزادوا عن الإحصاء ، حتّى إن منهم مَنْ لا يفرق بين الصاد والطاء . قال ولقد بلغنى عن بعض مَنْ أدخل نفسه فى الكتابة وتوسّل إلىٰ أنْ كتب فى ديوان الرسائل أنه رُسِم له بكتاب يكتُبه فى حقّ رجل اسمه طربطاى فقال لكاتب إلىٰ جانبه طربطاى يكتب بالساقط أو بالقائم . قال وصار الآن حدّ الكاتب عند هؤلاء الجهّال أنه يكتب على المجوّد مدّه و يُنْقش بزعمه أسطرا فاذا رأىٰ من نفسه أنّ خطه قد جاد أدنىٰ جوده أصـلح بِزّته ، وركب بِرْذَوْنه أو بغلتــه ، وسعىٰ فى الدخول إلى ديوان الإنشاء والانضمام إلىٰ أهله ، ولعل الكتابة انمـا تحصل دناءتها بسبب هؤلاء وأمثالهم ولله درّ القائل :

تَعِس الزمانُ ! فقدْ أتىٰ بعجائبٍ[2] ومحـا فنُونَ الفضْل والآداب

وأتىٰ بكُتّابٍ لو آنْبَسَطتْ يَدِى فِيهِـــمْ رَدَدْتُهمَ إلى الكُتّابِ"

(١) سنن المسيح (ص ٥٥)

(٢) فى الأصل بعجائب وقد أخذنا ... الصور

قلت وإنما تقاصرت الهمم عن التوغل في صناعة الكتابة والأخذ منها بالحظ الأوفى لاستيلاء الأعاجم على الأمر، وتوسيد الأمر لمن لا يفرق بين البليغ والأنوك لعدم إلمامه بالعربية والمعرفة بمقاصدها، حتى صار الفصيح لديهم أعجم[1]، والبليغ في مخاطبتهم أبكم، ولم يسع الآخذ من هذه الصناعة بحظ إلا أن ينشد

وصناعتي عربيةٌ وكأنني ٭ ألقي بأكثر ما أقول الروما

فلمن أقول؟ وما أقول؟ وأين لي ٭ وأسير، لا بل أين لي فأقيما؟

وقد حكى أبو جعفر النحاس عن بعضهم أنه قال حضرت مجلس رجل فأحجمت عن مسألة حاجتي لكثرة جمعه، فرأيته وقد أملى على كاتبه "ولم أكتب بخطي إليك خوفا من أن تقف على رداوته" فكتب كاتبه "رداءته" على ما يجب فقال أما تحسن الهجاء؟ أين الواو؟ فأثبتها الكاتب فحسن حينئذ في عيني، فاجترأت عليه فدنوت منه وسألته حاجتي .

وحكى صاحب ذخيرة الكتاب عن بعض الوزراء أنه تقدم إلى كاتبه بأن يكتب ألقاب أمير ليثبتها على برج أنشأه فكتب "أمر بعمارة هذا البرج أبو فلان فلان" واستوفى ألقابه إلى آخرها، ودفع المثال إلى الوزير ليقف عليه فلما قرأه غضب حتى ظهر الغضب في وجهه، وأنكر على الكاتب كونه كتب أبو فلان بالواو ولم يكتب أبي فلان بالياء محتجا عليه بأن أبو من ألفاظ العامة فلا تعظيم بها . فقال الكاتب إن الحال اقتضت رفعه من حيث إنه في هذا الموضع فاعل، فزاد إنكاره عليه وقال متى رأيت الأمير فاعلا في هذا الموضع يحمل الطين وينقل الحجارة على رأسه حتى تنسبه إلى هذا؟ والله لولا سالف خدمتك لفعلت بك!.

---

(١) في الأصل أعجما . أبكما

قال ابن حاجب النعمان ولمّا كان أرباب الأمور وولاتُها من الخلفاء فمَنْ دونهم يَنْقُدون مايكتب به الكُتّاب عنهم وما يرد عليهم من الكُتُب، ويناقشون على ما يقع فيها من خطإ أو يدخُلُها من خلل، ويقدّمون الفاضل ويرفعون درجته، ويؤخرون الجاهل ويحطون رتبته، كان الكتّاب حينئذ يتبارَوْن على اقتناء الفضيلة، ويترفّعون عن أن يعلَق بهم من الجهل أدنى رذيلة. ويجتهدون فى معرفة ما يحسّن ألفاظهم، ويزين مكاتباتهم، لينالوا بذلك أرفع رتبة، ويفوزوا بأعظم منزلة.

ولما انعكست القضية فى تقديم من غَلِط بهم الزمان، وغفل عنهم الحدْثان، واستولَتْ عليهم شِرّة الجهْل، ونفرت منهم أوانس الرياسة والفضْل، وصار العالم لديهم حَشَفا، والأديب مُحارَفا، والمعرفة مَنْكرة، والفضيلة مَنْقَصة، والفصاحة لُكْنة، والفصاحة هُجْنة، اجتُنِبت الآداب اجتناب المحارم، وهجرت العلوم هجْر كبائر المآثم.

ولو أنصف أحد هؤلاء الجهّال، لكان بالحَنَف أولى، وبالخُرْق والمَنْقصة أجدر وأحرى، لكنه جهل الواجبات وأضاعها[1]. وسَفِه حقّ المروءة وأفسد أوضاعها ويوصف بالحىّ الناطق، والصامتُ أرجى منه عند أهل النظر وذوى الحقائق.

الباب الثانى

من المقدّمة

فى ذكر مدلول الكتابة لغة واصطلاحا، وبيان معنى الإنشاء وإضافة الكتابة إليه، ومرادفة لفظ التوقيع لكتابة الإنشاء فى عُرْف الزمان، والمعبر عنها بصناعة الترسل، وتفضيل كتابة الإنشاء على سائر أنواع الكتابة وترجيح النثر على الشعر، وفيه ثلاثة فصول.

(١) فى الاصل "واوضاعها" بواو زائده وهى من زيادة الناسخ كما هو ظاهر

الفصــــل الأوّل

فى ذكر مدلولها وبيان معنى الإنشاء وإضافتها إليه ومرادفة التوقيع لكتابة الإنشاء فى عُرْف الزمان، والتعبير عنها بصناعة الترسل

الكتابة فى اللغة مصدر كتب يقال كتب يكتُب كَتْبا وكتَابًا وكِتَابةً ومَكْتَبة وكِتْبة فهو كاتب ومعناها الجمع. يقال تكتَّبت القومُ إذا اجتمعوا، ومنه قيل لجماعة الخيل كَتِيبة، وكَتَبْت البغلة إذا جمعتَ بين شُفْريها بحَلْقة أو سير ونحوه، ومن ثَمَّ سمّى الخَطّ كتابة لجمع الحروف بعضها إلىٰ بعض كما سمّى خَرْز القربة كتابةً لضمّ بعض الخُرَز إلىٰ بعض. قال ابن الأعرابى وقد تطلق الكتابة على العلم ومنه قوله تعالىٰ ﴿ أم عِنْدَهُمُ الغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ أى يعلمون. وعلىٰ حدّ ذلك قوله صلى الله عليه وسلم فى كتابه لأهل اليمن حينَ بعث إليهم معاذا وغيره "إنِّى بَعَثْتُ إلَيْكُم كاتِبًا". قال ابن الأثير فى غريب الحديث "أراد عالما سُمِّى بذلك لأن الغالب علىٰ مَنْ كان يعلم الكتابة أن عنده علمًا ومعرفةً وكان الكاتبُ عندهم قليلًا وفيهم عزيزًا".

أما فى الاصطلاح فقد عرّفها صاحب موادّ البيان بأنها صناعة رُوحانِيَّة تظهر بآلة جُثْمانِيَّةٍ، دالةٌ على المراد بتوسط نظمها. ولم يبيّن مقاصد الحدّ ولا ما دخل فيه ولا ما خرج عنه، غير أنه فسّر فى موضع آخر معنى الرُّوحانيه فيها بالألفاظ التى تخيلها الكاتبُ فى أوهامه ويصوّرُ من ضمّ بعضها إلىٰ بعض صورةً باطنة قائمةً فى نفسه. والجُثْمانيه بالخط الذى يخُطّه القلم وتقيد به تلك الصورة وتصير بعد أن كانت صورةً معقولةً باطنة صورةً محسوسةً ظاهرة. وفسر الآلةَ بالقلم وبذلك يظهر معنى الحدّ وما يدخل فيه ويخرج عنه، ولا شك أن هذا التحديد يشمل جميع ما يُسَطِّره القلم مما يتصوّره الذهن ويتخيله الوَهْم فيدخل تحته مطلقُ الكتابة كما هو المستفاد من

المعنى اللغوىّ . على أن الكتابة، وإن كثرت أقسامها وتعدّدت أنواعها، لاتخرج عن أصلين هما كتابة الإنشاء، وكتابة الأموال وما فى معناهما على ماسيأتى بيانه إن شاء الله تعالى .

إلا أنّ العرف فيما تقدّم من الزمان قد خصّ لفظ الكتابة بصناعة الإنشاء حتّى كانت الكتابة إذا أُطْلقت لا يُراد بها غير كتابة الإنشاء والكاتب اذا أُطلق لا يراد به غير كاتبها حتّى سمّى العسكرىّ كتابه "الصناعتين الشعر والكتابة" يريد كتابة الإنشاء، وسمّى ابن الأثير كتابه "المَثَل السائر، فى أدب الكاتب والشاعر" يريد كاتب الإنشاء إذ هما موضوعان لمـا يتعلق بصناعة الإنشاء من علم البلاغة وغيرها .

ثم غلب فى زماننا بالديار المصرية اسم الكاتب على كاتب المـال حتّى صار الكاتب إذا أطلق لا يُراد به غيره وصار لصناعة الإنشاء اسمان خاصّ يستعمله أهل الديوان ويتلفظون به وهو كتابة الانشاء، وعامّ يتلفظ به عامّة النـاس وهو التَّوْقيع . وأما تسميتها بكتابة الإنشاء فتخصيص لها بالإضافة إلى الإنشاء الذى هو أصل موضوعها وهو مصدر أنشأ الشيءَ إذا ابتدأه أو اخترعه على غير مثال يَحْتذيه، بمعنى أن الكاتب يخترع ما يؤلّفه من الكلام ويبتكره من المعانى فيما يكتبه من المكاتبات والوِلَايات وغيرهما أو أن المكاتبات والوِلايات ونحوَها تنشأ عنه .

وأما تسميتُها بالتوقيع فأصله من التوقيع على حواشى القِصَص وظُهورها كالتوقيع بخط الخليفــة أو السلطان أو الوزير أو صـاحب ديوان الإنشاء أو كُتّاب الدست ومن جرى مَجْراهم بما يُعتَمد فى القضية التى رُفِعت القِصّة بسببها، ثم أُطْلِق على كتابة الإنشاء جملة .

قال ابن حاجب النعمان فى ذخيرة الكُتّاب ومعناه فى كلام العرب التأثير القليل الخفيفُ، يقال جَرْب هذه الناقة مُوَقَّع إذا أثَّرت فيه حبال الأحمال تأثيرا خفيفًا .

وحُكِى أنّ أعرابيَّة قالت لجارتها "حديثُك ترويح وزيارتُك توقيع" تريد أن زيارتها خفيفة. قلت ويحتمل أن يكون من قولهم وَقَع الأمر إذا حَقَّ ولزم ومنه قوله تعالى ﴿ووقَعَ القَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا﴾ أى حَقّ، أو من قولهم وَقَّع الصَّيْقَلُ السيفَ إذا أقبل عليه بميقَعته يجلُوه لأنه بتوقيعه فى الرُّقْعة يجلو اللَّبْس بالإرشاد إلى ما يُعتَمد فى الواقعة، أو من مَوْقَعة الطائر — وهى المكان الذى يألفه من حيث إن الموقِّع على الرقعة يألف مكاناً منها يُوقِّع فيه كحاشية القِصَّة ونحوها، أو من الموقعة بالتسكين[1] — وهو المكان المرتفع فى الجبل لارتفاع مكان الموَقِّع فى الناس وعُلُوّ شأنه أو غير ذلك.

ووجه إطلاقه على كتابة الإنشاء أنه قد تقدّم أن التوقيع فى الأصل اسم لما يُكْتَب على القِصَص ونحوها وسيأتى أن ما يكتب من ديوان الإنشاء من المُكاتَبات والولايات ونحوها إنما يبنى على مايخرُج من الديوان من التوقيع بخط صاحب ديوان الإنشاء أو كُتَّاب الدست ومَنْ فى معناهم، وحينئذ فيكون التوقيع هو الأصل الذى يُبْنَى عليه المنشئ، وقد يكون سمّى باسم أصله الذى نشأ عنه مجازا، وقد يعبر عنها بصناعة الترسُّل تسميةً للشىء باعم أجزائه إذ الترسل والمكاتَبات أعظم كتابة الإنشاء وأعمُّها من حيثُ إنه لا يَستغنى عنها ملِك ولا سُوقة، بخلاف الوِلايات فإنها مختصّة بأرباب المناصب العليَّة دُون غيرهم، وعلى ذلك بنى الشيخ شهابُ الدين محمود الحلبى رحمه الله تسمية كتابه "حُسْن التوسُّل، إلى صناعة الترسُّل".

---

(١) عبارة اللسان والقاموس والوقع بالتسكين المكان المرتفع من الجبل فلعل ما فى الأصول من تصحيف الناسخ فتأمل.

المعنى اللغوىّ . على أن الكتابة ، وإن كثرت أقسامها وتعدّدت أنواعها ، لاتخرج عن أصلين هما كتابة الإنشاء ، وكتابة الأموال وما فى معناهما على ما سيأتى بيانه إن شاء الله تعالى .

إلا أنّ العرف فيما تقدّم من الزمان قد خصّ لفظ الكتابة بصناعة الإنشاء حتّى كانت الكتابة إذا أُطْلقت لا يُراد بها غير كتابة الإنشاء والكاتب إذا أُطلِق لا يراد به غير كاتبها حتّى سمّى العسكرىّ كتابه "الصناعتين الشعر والكتابة" يريد كتابة الإنشاء ، وسمّى ابن الأثير كتابه "المَثَل السائر فى أدب الكاتب والشاعر" يريد كاتب الإنشاء إذ هما موضوعان لما يتعلق بصناعة الإنشاء من علم البلاغة وغيرها .

ثم غلب فى زماننا بالديار المصرية اسم الكاتب على كاتب المال حتّى صار الكاتب إذا أطلق لا يُراد به غيره وصار لصناعة الإنشاء اسمان خاصّ يستعمله أهل الديوان ويتلفظون به وهو كتابة الانشاء ، وعامّ يتلفظ به عامّة الناس وهو التّوْقيع . فأما تسميتها بكتابة الإنشاء فتخصيص لها بالإضافة إلى الإنشاء الذى هو أصل موضوعها وهو مصدر أنشأ الشيءَ إذا ابتدأه أو اخترعه على غير مثال يَحْتذيه ، بمعنى أن الكاتب يخترع ما يؤلّفه من الكلام ويبتكره من المعانى فيما يكتبه من المكاتَبَات والوِلَايات وغيرهما أو أن المكاتَبات والوِلَاياتِ ونحوَها تنشأ عنه .

وأما تسميتُها بالتوقيع فأصله من التوقيع على حواشى القِصَص وظُهورِها كالتوقيع بخط الخليفة أو السلطان أو الوزير أو صاحب ديوان الإنشاء أو كُتَّاب الدست ومن جرىٰ مَجْراهم بما يُعتَمد فى القضية التى رُفِعت القِصَّة بسببها ، ثم أُطْلِق على كتابة الإنشاء جملة .

قال ابن حاجب النعمان فى ذخيرة الكُتَّاب ومعناه فى كلام العرب التأثير القليلُ الخفيفُ ، يقال جَنْب هذه الناقة مُوَقَّع إذا أثَّرت فيه حبال الأحمال تأثيرا خفيفًا .

وحُكِى أنّ أعرابيّة قالت لجارتها "حديثُك تَرْويع وزيارَتُك تَوْقِيع" تريد أن زيارتها خفيفة. قلت ويحتمل أن يكون من قولهم وَقَع الأمر إذا حَقَّ ولزِم ومنه قوله تعالىٰ "ووَقَعَ القَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا" أى حَقَّ، أو من قولهم وَقَّع الصَّيْقَلُ السيفَ إذا أقبل عليه بمِيقَعته يجلُوه لأنه بتَوقيعه فى الرُّقْعة يجلو اللَّبْس بالإرشاد إلىٰ ما يُعتَمَد فى الواقعة، أو من مَوْقَعَة الطائر — وهى المكان الذى يألَفه من حيثُ إن الموقِّع علىٰ الرقعة يألف مكانًا منها يُوقِّع فيه كحاشية القِصَّة ونحوها، أو من الموقعة بالتسكين[1] — وهو المكان المرتفع فى الجبل لارتفاع مكان الموَقِّع فى الناس وعُلُوّ شأنه أو غير ذلك .

ووجْه إطلاقه على كتابة الإنشاء أنه قد تقدّم أن التوقيع فى الأصل اسم لما يُكْتَب على القِصَص ونحوها وسيأتى أن ما يكتب من ديوان الإنشاء من المُكاتَبَات والوِلايات ونحوها إنما يبنىٰ علىٰ مايخرُج من الديوان من التوقيع بخط صاحب ديوان الإنشاء أو كُتَّاب الدست ومَنْ فى معناهم، وحينئذ فيكون التوقيع هو الأصل الذى يَنْبَنِى عليه المنشئ، وقد يكون سمّىّ بأصله الذى نشأ عنه مجازا، وقد يعبر عنها بصناعة الترسُّل تسميةً للشيء بأعم أجزائه إذ الترسل والمكاتبات أعظم كتابةِ الإنشاء وأعمُّها من حيثُ إنه لا يَستغنى عنها مَلِك ولا سُوقةٌ، بخلاف الوِلايات فإنها مختصّة بأرباب المناصب العليّة دُون غيرهم، وعلىٰ ذلك بنى الشيخ شهابُ الدين محمود الحلبىّ رحمه الله تسمية كتابه "حُسْن التوسُّل، إلىٰ صناعة الترسُّل" .

---

(١) عبارة اللسان والقاموس والوقع بالتسكين المكان المرتفع من الجبل فلعل ما فى الأصول من تصحيف الناسخ فتأمل .

الفصـــل الثـــانى

(فى تفضيل كتابة الإنشاء على سائر أنواع الكتابة)

قد تقدّم فى الفصل الذى قبله أن الكتابة و إن كثرتْ أقسامها وتعدّدتْ أنواعُها لاتخرج عن أصلين كتابةِ الإنشاء، وكتابةِ الأموال .

وأما كتابة الإنشـاء فالمراد بها كل مارجع من صـناعة الكتابة إلى تأليف الكلام وترتيب المعانى من المكاتَبات والولايات والمسامحَات والاطلاقات ومناشِـــير الأقْطاعات والهُدَن والأمانات والأيمان وما فى معنى ذلك ككتابة الحكم ونحوها .

وأما كتابة الأموال فالمراد بها كل ما رجع من صناعة الكتابة إلى تحصيل المـال وصَرْفه وما يجرى مَجْرى ذلك ككتابة بيت المـال والخزائن السّلطانيـة ، وما يُجْبىٰ إليها من أموال الخرَاج وما فى معناه ، وصرف ما يصرف منها من الجارى والنفقات وغير ذلك ، وما فى معنىٰ ذلك ككتابة الجيوش ونحوها ممـا يحتاج القولُ فيه إلى صَنْعة الحُسَّاب ، ولا شك أن لكلٍّ من النوعين قدرًا عظيماً وخَطَرا جسيمًا ، إلا أنّ أهـل التحقيق من علماء الأدب ما زالوا يرجّحون كتابةَ الإنشاء و يفضلونها و يميزونها علىٰ سائر الكتابات و يقدّمونها ، ويحْتجُّون لذلك بأمور .

منهـا أن كتابة الإنشاء مستلْزِمة للعـلم بكل نوع من الكتابة ، ضرورة أن كاتب الإنشاء يحتاج فيما يكتبُه من ولاياته ومكاتَباته مما يتعلق بكتابة الأموال إلىٰ أن يُمثّل لهم فى وصاياه من صناعتهـم مايعتمدونه ، ويبينَ لهم ما يأتونه و يذَرونه ، ولا بُدّ أن يكون عالمًـا بصناعة مَنْ يكتب له . بخلاف كاتب الأموال فإنه إنما يعتمد علىٰ رسوم مقرّرة وأنْموذَجات محرّرة لا يكاد يخرج منها ، ولا يحتاج فيهـا الىٰ تغيير ولا زيادة ولا نقص .

ومنها اشتمال كتابة الإنشاء على البيان الدالّ على لطائف المعاني التي هي زُبَد الأفكار وجَوَاهِرُ الألفاظ، التي هي حِلْية الألسنة، وفيها يتنافس أصحابُ المناصب الخطيرة، والمنازل الجليلة، أكثر من تنافسهم في الدرّ والجوهر.

ومنها ماتستلزمه كتابة الإنشاء من زيادة العلم، وغزارة الفضيلة، وذكاء القريحة، وجَوْدة الرويّة لما يحتاج إليه من التصرف في المعاني المتداولة والعبارة عنها بألفاظ غير الألفاظ التي عبَّر بها مَنْ سبق إلى استعمالها مع حِفْظ صورتها وتأديتها إلى حقائقها، وفي ذلك من المشقَّة مالا خفاءَ فيه على مَنْ مارس الصِّناعة، خصوصًا إذا طلب الزيادة والعُلُوّ على مَنْ تقدمه في استعمالها، أو حذا حَذْوَ رسوم المبرِّزين الذين يتحلون الكلام ويُوقِعُونه مواقِعه مع مراعاة رَشَاقة اللفظ، وحلاوة المعنى، وبلاغته ومناسبته مع ما يحتاجه من اختراع المعَاني الأبكار للأمور الحادثة التي لم يقع مثلُها، ولا سبق سابق إلى كتابتها ـ لأنّ الحوادث والوقائع لاتتناهى ولا تقف عند حدّ.

ومن هنا تنقَّص الوزير ضياءُ الدين بنُ الأثير في المَثَل السائر المقاماتِ الحريريَّةَ وأزدراها جانحًا إلى أنها صور موضوعة في قوالب حكايات مبنيَّة على مبدإ ومَقْطَع بخلاف الكتابة فإن أهوالها غير متناهية، ولو رُوعِي حال مايكتبه الكاتب في أدنى مدّة لكان مثل المقامات مرّات.

ومنها اختصاص كاتب الإنشاء بالسلطان وقُرْبه منه وإعظام خواصّه واعتمادهم في المهمات عليه، مع كونه أحرز[1] بالسلامة من أرباب الأقلام المتصرفين في الأموال. وقد قال بعض الحكماء: الكُتَّاب كالجوارح كل جارحة منها تَرْفِد الأخرى في عملها بما به يكون فعلها، وكاتب الإنشاء بمنزلة الروح المازجة للبدن المدبرة لجميع جوارحه وحواسّه.

(١) لعله مصحف عن اجدر او أحرى ــ كما سيأتى له بعدُ.

قال فى موادّ البيان "ولا شك فى صحة هذا التمثيل لأنّ كاتب الإنشاء هو الذى يمثل لكل عامل فى تقليده ما يعتمد عليه ويتصفح ما يرد منه ويصرفه بالأمر والنهى على ما يؤدّى إلى آستقامة ماعَدق به(١)، وهو حلية المملكة وزينتها لما يصدر عنه من البيان الذى يرفع قدرَها، ويُعْلِى ذكرها، ويعظم خَطَرها، ويدلّ على فضل ملكها، وهو المتصرف عن السلطان فى الوعد والوعيد، والترغيب، والإحماد والإذمام، وآقتضاب المعانى التى تُقِرّ الوالِىَ على ولايته وطاعته، وتَعْطف العدوّ العاصىَ عن عداوته ومعصيته. على أن بعض المتعصبين قد رجّح كتابة الأموال على كتابة الإنشاء بمغالطات أوردها، وتزويرات زخرفها ونمّقها، لا تخفى على متأمّل، ولا تتغطّى على ذى ذهن سليم.

وقد أورد الحريرىّ فى "المقامة الثانية والعشرين" المعروفة بالفراتيّة ألفاظا قلائل فى المفاخرة بين كتابتى الإنشاء والأموال فقال على لسان أبى زيد السروجى.

"اعلموا أنّ صناعة الإنشاء أرفع، وصناعة الحسَاب أنفع، وقلم المكاتبة خاطب، وقلَم المحاسبة حاطب، وأساطيرَ البلاغة تُنسخ لتُدْرَس، ودساتيرَ الحُسْبانات تُنسخ وتُدْرَس، والمنشئ جُهَينةُ الأخبار، وحَقيبة الأسرار، ونَجِىّ العظماء، وكبيرُ النُّدَماء، وقلمُه لسان الدولة، وفارسُ الجَوْلة، ولُقْمان الحِكْمة، وتَرْجُمان الهِمَّة، وهو البشير والنذير، والشفيع والسفير، به تُسْتخْلَص الصَّيَاصِى، وتُمْلَك النَّواصِى، ويُقْتاد العاصِى، ويُسْتَدْنَى القاصِى، وصاحبه برىء من التَّبِعات، آمِنٌ كيدَ السُّعات، مقرّط بين الجَمَاعات، غير معرّض لنظم الجَمَاعات.

ثم عقّب كلامه بأن قال

(١) فى الضوء عزّق بالعين المهملة والزاى وهو المناسب ولعل ما فى الأصل تصحيف.

"إلا أن صناعة الحساب موضوعة على التحقيق، وصناعة الإنشاء مبنية على التلفيق، وقلم الحاسب ضابط، وقلم المنشىء خابط، وبين إتاوة توظيف المعاملات، وتلاوة طوامير السجلات، بون لا يدركه قياس، ولا يعتوره التباس، إذ الإتاوة تملأ الأكياس، والتلاوة تفرغ الرأس، وخراج الأوارج يغني الناظر، واستخراج المدارج يعني الخاطر.

ثم إن الحسبة حفظة الأموال، وحملة الأثقال، والنقلة الأثبات، والسفرة الثقات، وأعلام الإنصاف والانتصاف، والشهود المقانع في الاختلاف، ومنهم المستوفي الذي هو يد السلطان، وقطب الديوان، وقسطاس الأعمال، والمهيمن على العمال، وإليه المآل في السلم والهرج، وعليه المدار في الدخل والخرج، وبه مناط الضر والنفع، وفي يده رباط الإعطاء والمنع، ولولا قلم الحساب، لأودت ثمرة الاكتساب، ولاتصل التغابن إلى يوم الحساب، ولكان نظام المعاملات محلولا، وجرح الظلامات مطلولا، وجيد التناصف مغلولا، وسيف التظالم مسلولا. على أن يراع الإنشاء متقول، ويراع الحساب متأول، والحاسب مناقش، والمنشىء أبو براقش، ولكليهما حمة حين يرقى، إلى أن يلقى ويرقى، وإعنات فيما ينشا، حتى يغشى ويرشى ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم﴾".

قلت: وقد أوردت في المقامة التي أنشأتها في كتابة الإنشاء المشار إليها بالذكر في خطبة هذا الكتاب من فضل الكتابة ما تشدو بذكره المترنم، وأودعتها من شرف الكتاب ما تذعن له الخصم ويسلم.

الفصل الثالث

(فى ترجيح النثر على الشعر)

اعلم أن الشعر وإن كان له فضيلة تخصه ومزية لا يشاركه فيها غيره من حيث تفرّده باعتدال أقسامه وتوازُن أجزائه وتَساوِي قوافي قصائده، مما لا يوجد فى غيره من سائر أنواع الكلام، مع طُول بقائه على ممرّ الدهور وتعاقب الأزمان، وتداوُله على ألسنة الرُّواة وأفواه النَّقَلة لتمكُّن القوة الحافظة منه بارتباط أجزائه وتعلُّق بعضها ببعض، مع شُيوعه واستفاضته وسرعة انتشاره وبُعْد مَسيره وما يؤثّره من الرِّفعة والضَّعَة باعتبار المدح والهجاء، وإنشاده بمجالس الملوك الحافلة والمواكب الجامعة بالتقريظ وذكر المفاخر وتعديد المحاسن، وما يحصل عليه الشاعر المُجيد من الجاء الجسيم والمَنْح الفائق، الذى يستحقه بحسن مَوْقِع كلامه من النفوس وما تحدثه فيها من الأرْيحيَّة، وقبوله لما يرد عليه من الألحان المطربة المؤثِّرة فى النفوس اللطيفة والطباع الرقيقة وما اشتمل عليه من شواهد اللغة والنحو وغيرهما من العلوم الأدبية وما يجرى مَجْراها وما يُستَدَلُّ به منها فى تفسير القرآن الكريم وكلامِ مَنْ أُوتِيَ جوامع الكلم ومَجَامِع الحكم، صلى الله عليه وسلم، وكونه ديوانَ العرب ومجتمَع حِكَمها والمحيط بتواريخ أيامها وذكر وقائعها وسائر أحوالها — إلى غير ذلك من الفضائل الجمَّة، والمفاخر الضَّخْمة، فإن النثر أرفع منه درجة، وأعلى رتبة، وأشرف مَقاما، وأحسن نِظاما، إذ الشعر محصور فى وزْن وقافية يحتاج الشاعر معها إلى زيادة الألفاظ والتقديم فيها والتأخير، وقصر الممدود ومدّ المقصور، وصرف ما لا ينصرف ومنع ما ينصرف من الصرف، واستعمال الكلمة المرفوضة وتبديل اللفظة الفصيحة بغيرها، وغير ذلك مما تُلْجئ إليه ضرورة الشعر فتكون معانيه تابعةً لألفاظه، والكلام المنثور لا يحتاج فيه إلى شيء من ذلك فتكون ألفاظه تابعةً لمعانيه، ويؤيد ذلك أنك إذا اعتبرت ما نُقِل

من معانى النثر إلىٰ النظم وحدتَه قد انحطّت رتبته . ألا ترىٰ إلىٰ قول أمير المؤمنين علىّ كرم الله وجهه : "قيمةُ كلِّ امرئٍ مايُحْسِن" أنه لما نقله الشاعر إلىٰ قوله

فيَالائمى دَعْنِى أُغالِى بِقِيمَتِى فقِيمةُ كلِّ الناسِ مايُحْسِنُونه

قد زادت ألفاظه وذهبت طَلَاوته ، وإن كان قد أورد المعنىٰ فى نصف بيت فإنه قد احتاج الىٰ زيادة مثل ألفاظه مرّة أخرىٰ توطئةً له فى صدر البيت ومراعاةً لإقامة الوزن ، وزاد فى قوله فقيمة فاء مستكرهة ثقيلة لا حاجة إليها وأبدل لفظ امرئٍ بلفظ الناس ولا شكّ أنّ لفظ امرئ هنا أعذب وألطف ، وغيّر قوله يُحْسِن إلىٰ قوله يُحْسِنونه ، والجمع بين نونين ليس بينهما إلا حرف ساكن غير معتدّ به مستوخَم ، وإذا اعتبرت ما نقل من معانى النظم إلىٰ النثر وجدته قد نقصت ألفاظه وزاد حُسْنًا ورَوْنقا ألا ترىٰ إلىٰ قول المتنبى يصف بلدا قد عُلِّقت القَتْلىٰ علىٰ أسوارها :

وكانَ بها مِثْلُ الجُنُونِ فأصبحَتْ ومِن جُثَثِ القَتْلىٰ عليها تَمَائِمُ

كيف نثره الوزير ضياء الدين بن الأثير فى قوله يصف بلدا بالوصف المتقدّم "وكأنما كان بها جُنُون فبعث لها مِن عزائمه عزائم ، وعَلّق عليها من رءوس القتلىٰ تمائم" فإنه قد جاء فى غاية الطَّلاوة خصوصا مع التورية الواقعة فى ذكر العزائم مع ذكر الجنون ، وهذا فى النظم والنثر الفائقين ولا عبرة بما عداهما .

وناهيك بالنثر فضيلةً أن الله تعالى أنزل به كتابه العزيزَ ونورَه المبين الذى ﴿لا يَأْتِيهِ الباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ولا مِنْ خَلْفِهِ﴾ ولم ينزله على صفة نظم الشعر بل نزّهه عنه بقوله ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ﴾ وحرّم نظمه علىٰ نبيه محمد صلى الله عليه وسلم تشريفًا لمحلّه وتنزيهًا لمَقَامه منبها علىٰ ذلك بقوله ﴿وَمَا عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِى لَهُ﴾ وذلك أن مقاصد الشعر لا تخلو عن الكذب والتحويل علىٰ الأمور المستحيله ، والصفات

المجاورة للحد، والنعوت الخارجة عن العادة، وقذف المُحْصَنات، وشهادة الزُّور، وقول البهتان، وسبِّ الأعراض، وغير ذلك مما يجب التنزه عنه لآحاد الناس فكيف بالنبي صلى الله عليه وسلم! ولا سيما الشعر الجاهليّ الذي هو أقوى الشعر وأفحله. بخلاف النثر فإن المقصود الأعظم منه الخُطَب والترسُّل، وكلاهما شريف الموضوع حسن التعلق، إذ الخُطَب كلام مبنيّ علىٰ حمد الله تعالى وتمجيده وتقديسه وتوحيده والثناء عليه والصلاة علىٰ رسوله صلى الله عليه وسلم، والتذكير والترغيب في الآخرة والترهيد في الدنيا والحض علىٰ طلب الثواب، والأمر بالصَّلاح والإصلاح، والحث علىٰ التعاضُد والتعاطُف، ورَفْض التباغُض والتقاطُع، وطاعة الأئمة، وصلة الرحم، ورعاية الذمم، وغير ذلك مما يجري هذا المَجْرىٰ مما هو مستحسَن شرعًا وعقلا. وحَسْبُك رتبةً قام بها النبي صلّى الله عليه وسلم، والخُلَفاءُ الراشدون بعده. والترسُّل مبنيّ علىٰ مصالح الأمة وقوام الرعية لما يشتمل عليه من مكاتبات الملوك وسَرَاة الناس في مهمّات الدِّين وصلاح الحال وبَيْعات الخلفاء وعُهُودهم. وما يصدُر عنهم من عهود الملوك، وما يلتحق بذلك من وِلايات أرباب السيوف والأقلام الذين هم أركان الدولة وقواعدها. إلى غير ذلك من المصالح التي لا تكاد تدخل تحت الإحصاء ولا يأخذها الحصر.

قال في مواد البيان " وقد أحسَّت العرب بانحطاط رتبة الشِّعر عن الكلام المنثور كما حُكِي أن آمرأ القيس بن حُجْر همَّ أبوه بقتله حين سمعه يترنّم في مجلس شرابه بقوله

اسْــقِيَا حُجْرًا علىٰ عِلّاته   مِن كُمَيْتٍ لَوْنُها لَوْنُ العَلَق

وما يروى أنّ النابغة الجعدي كان سيدا فى قومه لا يقطعون أمرا دُونه وأنّ قول الشعر نقصه وحطّ رُتْبته". قال "ولا عبرة بما ذهب إليه بعضهم من تفضيل الشعر على النثر أتباعا لهواه بدون دليل واضح".

قال فى الصناعتين "ومع ذلك فإن أكمل صفات الخطيب والكاتب أن يكونا شاعرين كما أن من أتم صفات الشاعر أن يكون خطيبا كاتبا". قال "والذى قصّر بالشعر كثرتُه وتعاطِى كل أحد له حتّى العامّه والسِّفْله فلحقه بالنقص[1] ما لحق الشِّطْرَنْج حين تعاطاه كل أحد". وسيأتى الكلام على أحتياج الكاتب للشعر فى بيان ما يحتاج إليه الكاتب فيما بعدُ إن شاء الله تعالى.

الباب الثالث

فى صفاتهم وآدابهم، وفيه فصلان

الفصل الأوّل

(فى صفاتهم، وهى على ضربين)

الضرب الأوّل

(الصفات الواجبة التى لا يسع إهمالُها، وهى عشر صفات)

الصفة الأولى، الإسلام — ليؤمَن فيما يكتبه ويُمْليه. ويُوثَق به فيما يَذَره ويأتيه إذ هو لسان المملكة، المرهبُ للعدوّ بوقع كلامه، والجاذبُ للقلوب بلطف خطابه فلا يجوز أن يولّى أحد من أهل الكفر، إذ يكون عينا للكفّار على المسلمين، ومُطْلعا لهم على خفَايَاهم فيصلون به إلى ما لا يمكن أستدراكه، وقد قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

(١) لعله من النقص وحرر

آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ والمراد بالبطانة فى الآية من يطّلع على حال المسلمين كالاطّلاع على مقدار خرائبهم من المال، وأعداد جيشهم من الخيل والرجال .

قال أبو الفضل الصُّورى فى تذكرته "وإن من الفطرة التى جُبل كل أحد عليها حنين كل شخص من الناس إلى من يرى رأيه ويدين دينه" قال "وهذا أمر يجده كل أحد فى نفسه ، ولذلك شرط بعضهم فى الكاتب أن يكون على مذهب الملك الذى يتمذهب به من مذاهب المسلمين ليكون موافقا له من كل وجه".

ولما فتحت الصحابة (رضوان الله عليهم) مصر، بعث عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى عمرو بن العاص يأمره أن لا يستعمل فى عمل من أعمال المسلمين كافرا فأجابه عمرو بأن المسلمين إلى الآن لم يَعْرِفوا حقيقة البلاد، ولم يَطَّلِعوا على مقادير خراجها ، وقد استخدمْتُ فى نصرانيّ عارف منسوب إلى أمانة إلى حين معرفتنا بها فعزله، فغضب عمر رضى الله عنه وقال "كيف تؤمّنهم وقد خوّنهم الله" "وكيف تُعِزُّهم وقد أذلهم الله" "وكيف تقرّبهم وقد أبعدهم الله" ثم تلا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ﴾ الآية وقال فى آخر كتابه "مات النصرانيّ والسلام".

وقد روى أن أبا موسى الأشعريّ رضى الله عنه قدم على عمر بن الخطاب رضى الله عنه، ومعه كاتب نصرانيّ فأُعجِب عمرُ بخطه وحسابه، فقال عمر "أحضر كاتبك ليقرأ" فقال أبو موسى "إنه نصرانيّ لايدخل المسجد" فزبره عمر رضى الله عنه وقال "لاتؤمّنوهم، وقد خوّنهم الله، ولا تُدْنوهم، وقد أبعدهم الله، ولا تُعِزُّوهم وقد أذلهم الله".

وقد قال الشافعى رضى الله عنه فى كتابه الأم "ما ينبغى لقاضٍ ولا والٍ أن يتخذ كاتبا ذميًّا، ولا يضعَ الذميّ موضعا يَفْضُل به مسلما. ويَعِزُّ على المسلمين أن يكون لهم

حاجة إلى غير مسلم . وجزم الماوردى والقاضى أبو الطيب والديبجى وابن الصباغ وغيرهم من أصحابنا الشافعية رحمهم الله أنه يشترط فى كاتب القاضى أن يكون مسلما وهو الأصح الذى عليه الفتيا فى المذهب .

وإذا اشترط الإسلام فى كاتب القاضى والوالى فهى كاتب السلطان أولى لعموم النفع والضرر به .

قال أبو الفضل الصورى "ولا شك أن كاتب الإنشاء من أحوج الناس إلى الاستشهاد بكلام الله تعالى فى أثناء محاوراته وفصول مكاتباته، والتمثل بنواهيه وأوامره، والتدبر لقوارعه وزواجره، وهو حلية الرسائل وزينة الإنشاءات، وهو الذى يشد قوى الكلام، ويثبت صحته فى الأفهام، فمتى خلت منه كانت عاطلة من المحاسن، عارية من الفضائل لأنه الحجة التى لا تدحض، والحقيقة التى لا ترفض، وإذا كان الكاتب غير مسلم لم يكن لديه من ذلك شىء، وكانت كتابته مغسولة من أفضل الكلام . وخالية مما يتبرك به أهل الإيمان والإسلام . ومقصرة عن رتبة الكمال . ومنسوبة إلى العجز والإخلال . وإن تعاطى الكاتب الذمى حفظ شىء منه وكتبه فقد أبيحت حرمة كتاب الله تعالى وانتهكت، وأمكن منه من يتخذه هزوا ولعبا والله سبحانه يقول فى كتابه المكنون ﴿لا يمسه إلا المطهرون﴾ . فقد صح أنه لا يجوز أن يرقى إلى هذه الرتبة إلا مسلم" قال "ولا يحتج بالصابئ وأنه كتب للطيع والطائع من خلفاء بنى العباس، ومعز الدولة، وعز الدولة من ملوك الديلم، وهما يومئذ عمدة الإسلام وعضد الخلافة، وهو على دين الصابئة . فإن الصابئ كان من أهل ملة قليل أهلها، ليس لهم ذكر ولا مملكة، وليس منهم محارب لأهل الإسلام، ولا لهم دولة قائمة فتخشى غائلته وتخاف عاقبته .

الصفة الثانية، المذكورة — فقد صرّح أصحابنا الشافعية، بأنه يُشْتَرط فى كاتب القاضى أن يكون ذكرا، وإذا آشتُرِط ذلك فى كاتب القاضى فهى كاتب السلطان أولىٰ لما تقدّم من عموم النفع والضرّ به . وقد روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال فى حق النساء "جَنِّبُوهُنّ الكِتَابَةَ، ولا تُسْكِنُوهُنّ الغُرَف، وآستَعِينُوا عليهن بلا فإنّ نعم تُضَرِّيهِنّ فى المسألة" . ومرّ علىّ كرّم الله وجهه علىٰ رجل يُعلِّم آمرأة الخط . فقال " لَا تَزِدِ الشَّرّ شَرًّا " .

ورأىٰ بعض الحكماء آمرأة تتعلم الكتابة فقال "أفعىً تُسْقىٰ سُمًّا" ولله السامىّ حيث يقول :

ما للنِّســـاءِ وللْكِتَا بةِ والعِمَالة والخطابَهْ :
هٰــذا لَنَــا ولَهُنّ مِنَّـــا أن يَبِتْنَ علىٰ جَنَــابَهْ

فإن قيـــل قد كُنّ جماعةٌ من النساء يكتُبْنَ ولم يَرِد أن أحدا من السلف أنكر عليهن ذلك . فقد روىٰ أبو جعفر النحاس بسنده إلىٰ الحسن أن عائشة أمّ المؤمنين رضى الله عنها : كانت تكتُب فى مكاتباتها بعد البسملة "من المَرْأة عائشةَ بنت أبى بكرٍ حبيبةِ حبيبِ الله" . وحكى جعفر بن سعيد أنه ذُكِر لعمرو بن مَسْعَدة كاتبِ المأمون توقيعاتُ جعفر بن يحيىٰ فقال " قرأْت لأمّ جعفر توقيعاتٍ فى حواشى الكُتُب وأسافلها فوجدتها أجود آختصارا وأجمعَ للمعانى " . وذكر محمد بن علىّ المدائنى فى كتاب القلم والدواة أن عاملا لزُبَيْدَة كتب إليها كتابا فوقّعتْ فى ظهره "أنْ أصلِحْ كتابَك و إلّا صَرَفْناك عن عَملك" فتأمله فلم يظهر له فيه شىء، فعرضه علىٰ بعض إخوانه فرأىٰ فيه فى الدعاء لها وأدام كرامتَك، فقال "إنها تخيلتْ أنك دعوتَ عليها فإنّ كرامة النساء دَفْنُهنّ" فغيّر ذلك وأعاد الكتاب إليها فصلته ، ومَنْ كان هذا شأنه فكيف يقال أنه لم يؤهل للكتابة ؟ .

فالجواب أن حديث عائشة لم يصرِّح فيه بأنها كتبت بنفسها ولعلها أمرت مَنْ يكتب فكتب كذلك بإملائها أو دونه، وإن ثبت ذلك عنها فغيرها لا يُقاس عليها، ومَنْ عداها من النساء لا عِبْرة به .

الصفة الثالثة، الحُرّية — فقد شرطوا فى كاتب القاضى أن يكون حرا لما فى العبد من النقص ، فلا يُعتَمَد فى كل القضايا ، ولا يُوثَق به فى كل الأحوال، فكاتب السلطان كذلك بل أَوْلىٰ كما تقدّم.

الصفة الرابعة ، التكليف — كما فى كاتب القاضى فلا يعوّل علىٰ الصبىّ فى الكتابة إذ لاوُثوقَ به ولا ٱعتمادَ عليه .

الصفة الخامسة ، العَدَالة — فلا يجوز أن يكون الكاتب فاسقا فإنه بمنزلة كبيرة، ورتبة خطيرة، يحكُم بها فى أرواح الناس وأموالهم لأنه لو زاد أدنىٰ كلمة أو حذف أيسَرَ حرفٍ أو كتم شيئًا قد علمه أو تأوّل لفظا بغير معناه أو حرّفه عن جهته، أدّى ذلك إلى ضرر مَنْ لا يستوجبُ الضرر، ونفع مَنْ يجب الإضرار به، وكان قد موّه علىٰ الملك حتّى مدح المذمومَ وذمّ الممدوح. فمتىٰ لم يكن له دِين يحجُزُه عن ٱرتكاب المآثم وَيَزَعُه عن ٱحتقاب المحارم كان الضرر به أكثر من الأنتفاع ، وأثّر فعله من الأضرار مالم تؤثِّره السيوف، ولله القائل :

وَلَضَرْبةٌ مِنْ كاتِبٍ بِبَنَانِهِ * أَمْضىٰ وأَقْطَعُ مِن رَقِيقِ حُسَامِ
قَوْمٌ إذا عَزَمُوا عَدَاوةَ حاسِدٍ * سَفَكُوا الدِّما بِأَسِنَّةِ الْأَقْلامِ

وأيضا فإنه لا يُقْبل قول الفاسق فتضيعُ به المصالح، وربما حمله الفِسْق وعدم الاكتراث بأمور الدِّينِ علىٰ وَهْن يدخله علىٰ الدِّين بقلمه، أو ضرر يحلُه بلسانه .

وأيضا فالكتابة ولاية شرعية والفاسق لا تصح توليته شيئا من أمور المسلمين، وقد أطلق القاضي أبو الطيب والماوردي من أصحابنا الشافعية القول باشتراط العدالة في كاتب القاضي فيجب مثله في كاتب السلطان بل أولى على ما تقدم.

الصفة السادسة، البلاغة — بحيث يكون منها بأعلى رتبة وأسنى منزلة، فإنه لسان السلطان الذي ينطق به، ويده التي بها يكتب. ورب كاتب بليغ أصاب الغرض في كتابته فأغنى عن الكتائب، وأعمل القلم فكفاه إعمال البيض القواضب، وإذا كان جيد الفطنة صائب الرأي حسن الألفاظ، تتأتى له المعاني الجزلة فيحلوها في الألفاظ السهلة، ويختصر حيث يكون الاختصار، ويطيل حيث لا يجد عن الإطالة بدا ويتهدد فيملأ القلوب روعة، ويشكر فيلقي على النفوس مسرة، وإن كتب إلى ملك كبير وذي رتبة خطير عظم مملكة سلطانه وفخمها في معارض كلامه من غير أن يوجد أن ذلك قصده.

الصفة السابعة، وفور العقل، وجزالة الرأي — فإن العقل أس الفضائل وأصل المناقب، ومن لا عقل له لا انتفاع به، وكلام المرء ورأيه على قدر عقله، فإذا كان تام العقل كامل الرأي، وضع الأشياء في مكاتباته ومخاطباته في مواضعها، وأتى بالكلام من وجهه، وخاطب كل أحد عن سلطانه بما يقتضيه الحال التي يكون عليها، فيشتد ما كانت الشدة نافعة، ويلين حين يكون إلى اللين محتاجا، ويوبخ من لا يقتضي فعله أكثر من التوبيخ، ويذم من تعدى إلى ما يستوجب الذم، ويأتي بالمكاتبات التي يقتضيها اختلاف الأحوال واقعة مواقعها صائبة مراميها.

الصفة الثامنة، العلم بمواد الأحكام الشرعية، والفنون الأدبية، وغيرها مما يأتي بيانه — إذ الجاهل لا يميز له بين الحق والباطل، ولا معرفة ترشده إلى الطرق المعتبرة في الكتابة. ومن سلك طريقا بغير دليل ضل. أو تمسك بغير أصل زل.

الصفة التاسعة، قوّة العزم وعلوّ الهمة وشرف النفس — فإنه يكاتب الملوك عن ملكه. وكل كاتب يَحْذِبه طبعُه وحِيلَتُه وحِيمُهُ فى الكتابة إلى ما يميل إليه، ومكاتبة الملوك أحوجُ شىء إلىٰ التفخيم والتعظيم، وذكر التهاويل الرائعة والأشياء المرعّبة، فكلما كان الكاتب أقوىٰ نفسا وأشدّ عزما وأعلىٰ همة، كان فى ذلك أمضىٰ وعليه أقدَر، ومهما نقَص فى ذلك نقص من كتابته.

الصفة العاشرة، الكفاية لما يتولّاه — لأن العاجز يُدْخِل الضرر على المملكة ويُوجب الوَهْن فى أمر المسلمين، وربما عاد عليهم عجزُه بالوبال، أو أدّى بهم ضعفُه إلى الاضطراب والاختلال.

الضرب الثانى

(الصفات العُرْفيـــة)

قال المهذّب بن مماتى فى كتابه "قوانين الدواوين" "ينبغى أن يكون الكاتب أديبا، حادَّ الذهن، قوىَّ النفس، حاضرَ الحسِّ، جَيِّدَ الحَدْس، حُلْوَ اللسان، له جَراءة يثبت بها الأمور علىٰ حكم البديهة، وفيه تُؤَدة يقف بها فيما لا يظهر له علىٰ حدّ الروية، شريفَ الأَنَفة، عظيمَ النزاهة، كريمَ الأخلاق، مأمونَ الغائلة، مؤدبَ الخُدّام".

قال محمد بن ابراهيم الشيبانى من صفة الكاتب اعتدال القامة، وصِغَرُ الهامة، وخِفّة اللهازم وكَثَاثة اللِّحيـة، وصِدق الحِسّ، ولُطْف المذهب، وحلاوة الشمائل، وخطف الإشارة، وملاحة الزِّىّ. قال ومن حاله أيضا أن يكون بَهِىّ الملْبَس، نظيف المجلس، طاهرَ المُروءة، عَطِرَ الرائحـة، دقيق الذِّهن، حَسَن البيان، رقيق حواشى اللسان، حُلْوَ الإشارة، مليح الاستعارة، لطيف المسلك، مستَفْرَهَ المركَب،

ولا يكون مع ذلك قَصْقَاصَ الجثة، متفاوِت الأجزاء، طويل اللحية، عظيم الهامة، فإنهم زعموا أن هذه الصفات لا يليق بصاحبها الذكاء والفطنة، ولله القائل :

وشُمُولٍ كأنَّما اعتَصَرُوها ۔ مِنْ مَعَانِي شَمَائِلِ الكُتَّاب"

وقال أبو الفضل الصُّورِيُّ "ينبغي أن يكون الكاتب فصيحًا بليغًا أديبًا، سَنِيّ الرتبة، قويّ الحجة، شديد العارضة[(١)]، حَسَن الألفاظ، له مَلَكَة يقتدر بها على مدح المذموم وذم المحمود" .

قال المهذب بن مماتي "وأمّا حُسن الهيئة فإنه يرجع في ذلك إلى ما يعلمه من حال مخدومه من إيثاره إظهار نعمته على مَنْ هو في خدمته أو إخفائها" . قلت وهذا قد يخالف ما تقدّم من أنه ينبغي أن يكون الكاتب بَهِيّ الملْبَس . وبالجملة ففصاحة اللسان، وقوة البيان، والتقدُّمُ في صناعة الكتابة هو الذي يرفع الرجل و يعظّمه دون أثوابه البهية، وهيئته الزاهية . بل ربما كان التعظيم في الفضل لِرَثّ الحالة المنحط الشأن أكثرَ، وترجيحه على غيره أقرب .

وقد قال سهل بن هرون كاتب المأمون، وهو من أئمة هذه الصناعة "لو أن رجلين خَطَبا أو تحدّثا أو احتجّا أو وصَفا وكان أحدهما جميلا بهيًّا، ولَبّاسا نبيلا . وذا حسب شريف، وكان الآخر قليلا قميئًا وبادَّ الهيئة[(٢)] دميمًا، وخامل الذِّكْر، مجهولا ثم كان كلامهما في مقدارٍ واحد من البلاغة، وفي دَرْب واحد من الصواب، لتصدّع عنهما الجمع وعامّتهم تقضي للقليل الدميم على النبيل الجسيم، وللبادّ الهيئة على ذي الهيئة، ويشغَلهم التعجّب منه عن مساواة صاحبه، ولصار التعجب على مساواته له سببا للتعجب به، والإكبار في شأنه علة للإكبار في مدحه . لأن النفوس كانت له أحقر، ومن بيانه أيأس، ومن حسده أبعد، فلما ظهر منه خلاف ما قدّروه وتضاعف

(١) في الأصل المعارضة وهو تصحيف من الناسخ

(٢) هو فعل من بذ الرجل بإهمال الدال بمعنى قبح منظره و إهماله في الأصول تصحيف فيه

حسن كلامه فى صدورهم كثر فى عيونهم لان الشيء من غير معدنه أغرب، وكلما كان أبعد فى الوهم كان أطرف، وكلما كان أطرف كان أعجب، وكلما كان أعجب كان أبدع، وإنما ذلك كنوادر الصبيان وملح المجانين، فإن استغراب السامعين لذلك أعجب، وتعجبهم منه أكثر". قال "والناس موكلون بتعظيم الغريب واستطراف البديع، وليس لهم فى الموجود الراهن ولا فيما تحت قدرتهم من الرأى والهوى مثل الذى معهم فى الغريب القليل وفى النادر الشاذ، وعلى هذا السبيل يستطرفون القادم إليهم، ويرحلون إلى النازح عنهم، ويتركون من هو أعم نفعا، وأكثر فى وجوه العلم تصرفا، وأخف مؤنة وأكثر فائدة".

الفصل الثانى
(فى آداب الكتاب، وهى على نوعين)

النوع الأول
(حسن السيرة وشرف المذهب، ولذلك شروط ولوازم)

منها اعتماد تقوى الله تعالى فى الإسرار والإعلان، والإظهار والإبطان، والمحافظة عليها، والاستناد إليها فى مبادى الأمور وعواقبها. فإنها العروة التى لاتنفصم، والحبل الذى لا ينصرم، والركن الذى لا ينهدم، والطريق التى من سلكها اهتدى، ومن حاد عنها ضل وتردى، والمحافظة على شرائع الدين التى فرضها الله تعالى على خلقه، والحذر من الاستخفاف فيها بحقه، وتوقى عصمته بتأديتها، والاستجنان من شقاء الدنيا والآخرة بتوقيها[1].

---

(١) كذا فى الأصول من الوقاية ولعله بوفيها من الوفاء. تأمل.

ومنها طلب الأجر[1] بما يُنيله من عز سلطانه ويُجْديه من فواصل نعمائه، وهذا هو أصح الأعراض التي يجب على كل عاقل أن يقدّمه على كل عرض، ويحصّل منه على السهم الوافر، فلا خير في دنيا تنقطع السعادةُ عنها، وإنما السعادة بعد الموت ﴿ والدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ ﴾، ومن اختار الفاني المنصرم على الباقي الدائم، فقد خَسِرت صفقته، وبارَتْ تجارتُه .

والطريق الموصِّل إلى هـذا المقصد صلاحُ النية فيما يتولاه من أمور السلطان، وقصدُ النفع العامِّ له ولرعيته، والاجتهادُ في إغاثة الملهوف، والأخذ بيد الضعيف، والنفع بجاهه عند سلطانه، وحمله على العدل في الرعيّة، وإذا توخّى ذلك فاز بثواب الله تعالى، وقضى حقّ السلطان فيما عرضه له من الشكر والأجر، وقابل نعمة الله التي أقدره بها على هذه الأفعال الجميلة بما يرتبطها عنده ويستقر بها لديه .

ومنها مجانبة الرِّيَب والتنزهُ عنها، والطهارةُ منها . فإنها تُسْخط الله تعالى، وتذهب بمهَابة المرء، وتُسْقطُه من العيون والقلوب . وأحقُّ مَنْ راعى ذلك من نفســه مَنْ بين أتباع السلطان أهل هــذه الصناعة لاختصاصهم به، ولُطْف منزلتهم عنــده . إذ المشهور عند نَقَلَة الآثار أن الذين تقدّموا من صدورها ومسائخها كانوا من جلّة العلماء، وسادة الفقهاء، وأفاضل أهل الورع، المبرئين من الدَّنَس والطمع، المتمرّسين على القضاء والحكّام، في الاستقلال بعلوم الإسلام، المتميزين عنهم بفضل الآداب، ورواية الأشعار، والعلم بالأيام والسير، والارتياض بآداب الملوك وعشرتهم ورسوم صحبتهم، وغير ذلك مما يدخل في صناعتهم . فقد ساوَوْهم في علم الدين، وفاقوهم بما تقدّم ذكره مما لا يشاركونهم فيه . والسلطان والدين قرينان لا يفترقان، وعونان على صلاح البلاد والعباد، فلا يحتمل السلطان ما يكره الدين لأنه تابعه وردفه .

(١) أي الثواب ولعله مصحف عن الآخرة كما يدل عليه السياق .

ومنها لزوم العَفَاف والصِّيانة فيما يتولاه للسلطان من أعماله ، ويتصرف فيه من أشغاله ، والتعفف عن المطامع الدنيئة . والمَطَامع الوخيمة ، والترفُّع عن المكاسب اللئيمة ، فان ذلك يجمع القُرْبة إلىٰ الله تعالىٰ والحُظْوة عند السلطان ، وجميل السيرة عند الرعية — حتّى إن هذه الطريقة قد تقدّم بها عند السلطان المتخلفون فى الفهم والمعرفة ، وسادوا على مَنْ لا يقاربونه فى غَنَاء ولا كفاية ، وحصلوا على الأحوال السنية ، والمنازل العلية ، وقرب بها مَنْ كان بعيدا على من كان قريبا ، ومن لا مكانةَ له ولا حرمة علىٰ من له مكانة وحُرْمة ، وٱستُدْنِيَ لأجلها مَنْ لا يترشح لخدمة السلطان . ثم الذى يلزمه أن يعتمد التمسك بالصيانة والعَفَاف الذى عليه نظام معيشته ، والارتفاق فيما يحل ويطيب له من جاه خدمته — فانه قد قيل "الزم الصحة يلزمك العمل"[1]. لأنه يمتنع من المنافع التى تصل إليه من أطيب المكاسب ، وتسلم من تبعات العاجل والآجل ، وتخلُص من قبيح الأُحْدوثة وإطلاق أَلْسُن الحَسَدة بالطعن والتأنيب ، وينال بجاه السلطان ونفوذ الأمر من غير خيانة للمؤتمن ولا اشتكاء للرعية — فانه لولا هذه المنافع لغنِي الانسان بالقَنَاعة ، ورَضِي بالكَفَاف ، وسلم من المخاطرة بدينه ودنياه فى سلامة السلطان . اذ لا يجوز أن يستفرغ وُسْعه ويعرّض نفسه للخطر فيما لا تحسن له عائدة ، ولا تخلص منه فائدة ، فى جاه ولا مال . وقد عُلِم ما كان عليه أهل هذه الطبقة فى سائر الدول وما حصلوه من الذخائر وٱقتنَوْه من القُنْيات النفيسة ، التى أقدرتهم علىٰ إظهار مُرُوءاتهم ، واتخاذ الصنائع عند الأحرار ، وحراسة النعم علىٰ الدوائر[2] والأعقاب . وإنما حصلوا علىٰ ذلك من حيث معرفتهم بوجوه المكاسب ، وأبواب المرافق ، لا من الخيانة ودنيء الطعم[3] — لأنهم كانوا فى أزمنة لا يعصىٰ فيها عن متكَسِّب من رشوة ولا مصانعة ولا اغتصاب ولا سبب من أسباب الظلم وإن جلت منزلته وعظمت مرتبته

(١) هكذا بالأصل (٢) لعله على الدرارى نأمل (٣) لعله الطمع

ومنها طلب الثناء والحمد وهو من أفضل المقاصد السنية وأعلاها رتبة — لأنه يتلو الأجر فى البقاء والدوام ، وكلما كانت الهمة أعظم وأشرف ، كانت اليه أرْغَبَ و به أَكْلَفَ . ولفضل هذا رغب فيه الاشراف وعِلْية الناس حتّى قال الخليل عليه السلام ﴿وَٱجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ﴾ . وأوْلىٰ الناس باقتناء ذخائر الحمد وآفتراص فرص الشكر من عرّض الله تعالى جاهه ، وطوّل يده ، وأمضىٰ عند السلطان لسانه ، فينبغى أن يختار هذه المَكْرُمة ، ويقوم بالنصيب الأوفر منها ، ولا يَبْخَل بجاهه ولا ماله علىٰ قاصــد ولا مؤمل ولا ذى رَحِم وذِمَام ، ولا يُضَجِّع فى أمر بطانتــه وحاشيته وأصحابه ، ولا يضَيِّق عليهم مع سَعَته ، ولا يقصِّر بهم فى كِفَايته ، ويجعل آكتساب جاهه وماله دون أموال سلطانه — فإن كثيرا من المتصرفين بذلوا ماائْتُمِنوا عليه فى هذا الغرض ورَضُّوا به أهل الشفاعات والرسائل ، فأعقبهم ذلك زوالَ النعم ، وسقوطَ الرتبة وذهابَ المــال ، والوسمَ بميسم الخيانة والبَوَار إلىٰ الأبد . ولا يبالغ فى آبتناء المعالى وآقتناء المحامد وبذل الرغائب وآرتفاع الهمم ، فإن ذلك مما يختص بالملوك ولا ينبغى لأحد من أتباعهم من كان ولا غيره الإقدام عليه مُفاخِرا ولا مُكاثِرا ولا مقايسا ، فيكون قد عدا طَوْره ، وأضلّ رُشْده ، وتعرّض للعَطَب مع سلطانه ، وأوجد الطريق إلىٰ سوء الظن به ، وفوّق سهام الحَسَدة إليه ، وأطلق ألسنتهم بالطعن عليه ، وربمــا أدّى به ذلك إلىٰ سقوط المنزلة ان سلمت نفسه .

ومنها الآقتصاد فى طلب اللذة ، والآقتصار من ذلك على ما تقيم المروءة ، من أفضل الأخلاق وأشرفها بأن يكون سلوكهم ما يتناولونه من ذلك بسلوك طريقه محموده يظهر فيها أثر التدبير السديد والرأى الأصيل ، من غير خروج الى الإقبال علىٰ اللذات والانهماك فى الشهوات . فإن ذلك غيرُ مستحسن للملك ولا سُوقة لأنه جالب للأسقام ، قاطع عن الأمور المهمة التي تجب صرف العناية إليها فى صلاح المعاش

وأمر الآخرة، ولكن لا يكلّف تركَ اللذات جملة — إذ لا بد لكل أحد من ذوى الرتبة العلية من الأخذ بنصيب منها ، لما جُبلت عليه الطبائع من الميل إليها والرّغبة فى الاستمتاع بالنعم والملاذ ولكل منها حظ يضاهى رتبته .

وأهل هذه الصناعة لاختلاطهم بالملوك ومشاركتهم لهم فى آدابهم لا غنى بهم عما يقيم مروءاتهم من اللذات المشابهة لأقدارهم ومواضعهم من السلطان .

النــــوع الثــانى

حُسْن العِشْرة — التى هى من أفضل الخلائق الموجودة فى الغرائز طبعا والحاصلة بالتخلق تكسبا وتطبعا ، وأعونها لمصالح الحياة والمعاش ومحبة الخاصة والعامة وحصول الثناء والشكر والمودة من الأفاضل الأخيار، وكفاية الأراذل الأشرار، وإن لم يلتزمها الكاتب طوعا حمل عليها كرها .

واعلم أن أدب المعاشرة على خمسة أضرب

الضرب الأوّل

(عِشْرة المـــلوك والعظماء)

قال علىّ بن خلف ولا يقُوم بآدابها وأكمل رسومها إلا مَنْ علَتْ فى الأدب درجَتُه ، وسمَتْ فى رَجَاحة العقل منزلته ، وتميَّز بغريزة فاضــلة وأدب مكتَسَب ، وصبَرَ على المشاقّ فى التحلّى بالهمم الشريفة ، والسموّ إلى المنازل اللطيفة ، من عز السلطان ومساعدة الزمان ، وتمكَّنَ من تصريف النَّفْســيْن الحيوانية والشهوانية على أغراض الناطقية ومطاوعتها ، وأخْذِهما بقبول ما تُرْشِد إليه وتبعث عليه لأن صحبة السلطان أمر عظيم وصاحبَه راكب خَطَر جسيم ، بتمليكه نفسه لمتحكم فى خَيره و شَره ، قادر على نفعه

وضره، لا يردّه عن مقابلته على يسير الخيانة بكثير النّكاية إلا ما يؤمّل من صفحه ومسامحته، ويرجو من عطفه ورأفته . وأوّل ما يجب على المتصل بخدمة السلطان النظرُ فى عواقب أموره وحفظُ نفسه من جريرة يجرّها عليها بأعماله فرضا من فروض طاعته، وتضييعه المحافظة على حقوق خدمته، والعلم بأن لكل مصحوب خُلُقا يغلب عليه، ويرجع بغريزة الطبع اليه، لا يمكنه النزوع عنه ولا المفارقةُ له، إذ الانتقال عن الطّباع، شديد الامتناع، فى الخدم والأتباع، فكيف الملوكُ والرؤساءُ الذين لا يقابَلون بلوم على خُلُق مذموم، بل العادة جارية فى أدب خَدَمهم بأن يصوّبوا ما يركبونه من خطإ ويحسّنوا ما يواقعونه من قبح. فعليه أن ينزل عن أخلاقه لأخلاق سلطانه، وما خالف سجيته فى إصلاح زمانه، وأن ينزل عن هواه لهواه، ويتّبع فيما يسخطه ويأباه، ما يؤثره سلطانه ويرضاه . ويسعى أن لا يعرّض نفسه لما يُسقط منزلته ويُفسد عاقبته ولا يوجد للزمن طريقا إلى التنكر له، ويعيبه بتفويق سهامه والتصدّى لمواقعها . وقد علم أن الزمان وإن عمّ سوائه فإنه يخصّ صاحب السلطان منها بما يزيد على نصيب غيره . ومن أشق الأحوال أن يُدفع الإنسان إلى تغير السلطان مع كون السبب فى ذلك شيئا جرّه إلى نفسه بسوء اختياره، لما تجتمع عليه فى ذلك من مرارة النّكبة، وحرارة المحنة، وتقريع من يُزرى على عقله، ويؤنّبه بجهله .

ثم انه يلزمه بعد الاحتياط فيما تقدم عدّة خصال أيضا .

منها الإخلاص وهو قِوام الأمر فى المصاحبة، فإنّ من صحب سلطانا بعقيدة مدخولة فى ولايته، مشوبة فى محبته، لم ينتظم له ولا لسلطانه أمر لأن الضمائر المدخولة[1] والنيات السقيمة لا بد أن يصرّح بما فيها ويظهر ما فى دخلتها، وإذا اتضح ذلك للسلطان لم يقنع إلا بإتلاف نفسه، وإذهاب مهجته .

(١) لعله المدخولة أى غير الخالصة من فوطهم مدق ولان الود [illegible]

ومنها النصيحة، وهى ترب الإخلاص . والطريق الموصل إلى التوفية بها أن يُطالع السلطانَ بكل ما يفتقر إلى العلم به من خاصّ أموره وعامّها، وعلى مَن استخلصه السلطانُ لنفسه، وائتمنه على رعيته، وأنطقه بلسانه، وأخذ وأعطى بيده، وأورد وأصدر برأيه، وتخيَّره لهذه المنزلة من بين رؤساء دولته وأعيان مملكته أن لا يستُرَ عنه دقيقًا ولا جليلا من أحوال ما فوّضه إليه، ولا يقف عن إنهاء تفاصيله وجُمَله توقّيًا من لوم لائم، ولا يحمله فرطُ النصح له على الإضرار برعيته، ولاالرغبةُ فى إثبات حقه على تضييع حقوقها، ولا القِيام بما يجب له دون ما يجب لها — فإنها به ووهن بها .

ومنها الاجتهاد فيما يباشره من أحوال سلطانه بما يعود عليه نفعه بحيث لا يُبقِى فى ذلك ممكنا، ولا يدَع فيه شأوًا للاحق .

ومنها كِتْمان السر . وهو من أفضل الآداب فى صُحْبة السلطان وغيره، وأعْوَدِها بالفلاح على صاحبها لأن كثرة الانتشار الداخل على الدول إنما توجّه بتفريط بطائنها وصاحبها فى أسرارها، وإظهارهم بما تقرّر فى أذهان الملوك وعزائمهم قبل أن يظهروه، فيجد العدوّ بذلك الطريقَ إلى معالجة آرائهم بما ينقُضها، ومقابلتها بما يُفْسِدها . على أن إفشاء السر من الأخلاق التى طُبِع أكثرُ الناس عليها، وحِيل بينهم وبين الإقلاع عنها، فمن عَلِم من نفسه ذلك فليحذَر معاملة السلطان فى أسراره وبواطنِ أموره، ولا سيما ما وُجِد منها فى باب حروبه ومكايده، فإنه إن ظُهِر منه على خيانة فى السر، عرض نفسه للهلكة .

ومنها الشُّكْر فانه وان كان واجبا على الإنسان مع أكفائه ونُظَرائه فانه مع السلطان الذى يَستطِلُّ بظله، ويستدرّ أخلاف فَضْله أوجب . إذ المرء قد يقدر على مكافأة عارفة[1] صديقه بما يُضاهيها ويزيد عليها، ولا يقدِر على مكافأة سلطانه إلا

(١) العارفة المعروف كالعرف بالضم قاموس

شُكرِ نعمته، والمحافظة على حقوق خدمتــه . ثم الشكر القول يرتفع بين الرئيس والمرءوس، والخادم والمخدوم، إلا اليسير الذى يقضى به حقُّ الخدمة لأن الإكثار منه داخل فى حكم المَلَق والتثقيل، وإنمـا يظهر شُكر الخادم من أفعاله .

ومنها الوفاء . وهو من أهمِّ الخصال اللازمة وآكدها، إذ هو الطريق إلى صَلاح العباد وعمارة البلاد، بل هو رأس مال الكاتب ورِبْحه ودوام عمله، والسبب الذى لأجله ترغَب السلاطين فى صحبته لأنهم ما يَرِحوا يقرِّبون صاحب هذه الخَصْلة ويرَوْنه أهلا للاختصاص، موضــعًا للثِّقة، ولا أسوأ حالا ممن نزل هذه المنزلة وهو بخلافها .

ثم الوفاء يكون بإظهار النصيحة، وبذل الاجتهاد، وقصد المخالَصة، ومقابلةَ كل نعمة تُفَاض عليه بالنهضة فيما استُنِد[1] اليه ليدعوَ ذلك سلطانَه إلى رَبِّ[2] النعمة لديه، وإقرارها عليه .

ومن شروط الوفاء أن يلتزمه صاحبه لسلطانه، فى حال سعادته، وإقبال دولته، وفى حال تولِّيها عنه وعُطْلته . أمّا فى حال إقبال الدولة عليه فأن يصحبه بنفسه دون نَدِّيه ولا يتطلبَ صاحبا غيره يَنتقل إلى صحبته، ويستبدلْ بخدمتــه من خِدْمته، ولا يحدِّث نفسَــه بأنه متى وجد أنفع منه عدل إليه، ولا أن يرتِّب له جهة أخرى يجعلها مقدّمة لأمر يترقّبه لمـا فى ذلك كله من الخروج عن حدّ الإخلاص المقدّم وحوزه . وأما فى حال انصراف الدولة عن صاحبــه، فإنه لا ينبغى مباينته المساعد للزمان عليــه، الموافِق للمقادير فيه، ولا تخونه عند حاجته إليه، ولا تضييع حقوقه عنده وصنائعَه لديه، ولا يجاهر بنكايته إلى من أقدام أمور السلطان بيده، فإن ذلك

(١) فى الضوء أسند وهى أوضح

(٢) أى زيادة النعمة

ممـا يدل علىٰ خُبْث السجيَّة ومقابلتهـا علىٰ الإحسان بالإساءة ، وٱستعمال العُقُوق ، وٱطِّراح الحُقُوق .

ومنها مجانبَة الإدْلال . إذ الدالَّة علىٰ السلطان والرئيس من أعظم مَصارع التَّلَف ، وأقرب الأشياء إلىٰ زوال النعم ، ولأجلها هلك مَنْ هلك من بِطانة السلطان وخاصته ووزرائه ، وفى قَصَصهم عِبْرة لمن أنعم النظر فى تأمُّلها . وعليه أن يغوِل فى الاعتداد بخِـدَمه ونصائحه له علىٰ ٱشتهارها وظهورها ، ولا يفيض فى تعديدها وذكرها ، ولا يواصل التثقيل بأغراضه والإلحاف بأسئلته ، ولا يظهر التشحُّب عنـد التقصير به ، ولا الغضب اتِّكالا علىٰ سالِف خدمة ، وقليـل حرمة ، وأن يتناسىٰ ما أسـلفه من الخِـدْمة والصحبة ، ويكون فى كل حال عارفا بعوارفه ، معتدًا بمواصـله ، موجبا الفروضَ له لاعليه ، فإن السلطان مجبول علىٰ أنَفَة النفس وعِزَّتها ، ولا يحتمل التنازل لأحد لتنزيله الكلَّ منازل الخَدَم والأرقَّاء ، وٱعتقاده أنه سبب النعمة السابغة علىٰ الكافَّة ، وثقته بوجود العِوَض عمَّن يفقِدُه من الأعوان والأصحاب ، ومثابرة الناس علىٰ خدمته والانتساب إلىٰ متابعته لمـا يصلون إليه من الحُظوة ، وينالونه من الجاه والثروة . وإن كان فى باطن حاله علىٰ خلاف ما يؤثر ، أظهر الشكر والاعتداد وتلَطَّف فى بلوغ الغرض بأحسن تعريض ، ولم يطلق قلمَه كاتبا ، ولا لسانَه مخاطبا ، فإن ذلك إزراء علىٰ همة المصحوب ، ودلالة علىٰ إخلاله بتفقد الصاحب ، لكن يذكر النعمة وسُبُوغها ، والمِنَّة وشيوعها ، ويسأل الزيادة فيها ومضاعفتها . فإن ذلك يقتضى بلوغ آماله ، وسَدَاد أموره ، وسُهولة مطالبه . وإذا زاده السلطان رِفْعة وتشريفا ٱزداد له تعظيما وتوقيرا . وإذا بسط يديه أن ينقبض عن كل ما يَشِينه ، وإذا خَصَّه بأَثَره وتقريب أن يزيد الخاصَّة والعـامَّة بشرا وإيناسا ، وإن ٱتهمه بهَفْوة لم يبتّه فى إقامة العُذْر والاحتجاج علىٰ براءة الساحة إلىٰ الغاية القُصْوىٰ . بل يتوسط فى ذلك ويسأل

من حُسْن الصَّفح والإقالة وجميل التغمُّد[1] والعفو مايجعل للإحسان وجهًا ، ولتعقّبه للسخط سببا . فإنه اذا صدع بالحجة في براءة الساحة، فلا وجه لمعذرته وفيه تكذيب لرئيسه، وربما أدّى إلى فساد ومُعاقبة .

ومنها التمسك بآداب الخدمة بالمواظبة عليها، وصرف الاهتمام إليها، إذ هي أعظم الذرائع إلى نيل الرتب وبلوغ المآرب، والسبب الذي يقرّب البُعَداء، ويرفعهم على أهل الوسائل والحُرَم، وذوي المَوَاتّ[2] والخَدَم، ويُعمي عن كل شَيْن، ويُصِمّ عن كل طعن . وما نال أحد عند السلطان مرتبةً إلا والمواظبة على خدمته سبّبها والمواصلة موجِبها . وأولى الناس بلزوم السلطان كُتّابه الذين لاغِنى به عن حضورهم، في ليله ونهاره، وأحيان شغله وفراغه لأنه ربما بَدَهه ما يحتاج إلى استكفائه إيّاه وإسناده إليه، وإن تأخر عنه في تلك الحال استدعى من يَوْجِده واستحرّ من لائمته مالا يُزيله العذر إلا في المدّة الطويلة . وربّما اضطُرّ لغَيْبته إلى احضار من يستكفيه ماعَرَض له وأدّى ذلك إلى اصطناعه وتصييره في مَقَامه وان كان لايساويه في فضل ولا علم ولا غَنَاء، بخلاف ما إذا وجده مُسارعًا إلى أمثله . فإن ذلك يزيد في حُظْوته، ويدعو إلى استخلاص مودّته .

فيجب عليه أن يخصّ سلطانَه من زمانه بالقِسم الأوفر، والنصيب الأكبر، ولا يُؤْثِر نيلَ لذةٍ عليه، ولا بلوغَ وَطَر إذا أدّى إلى تركه، فإن استطاع أن يوافقه على وقت يفرِصه له يتمكن فيه من بلوغ أوطاره، والوصول إلى مقاصده، كان أحمد لعاقبته وأبلغ لقصده، وأحسم لأسباب اللائمة في غيبته . ولا يتهاون في الملازمة أيام الأمن

---

(١) التغمُّد الستر من قولهم تغمده الله برحمته [illegible]

(٢) جمع ماتّة — وهي الحرمة والوسيلة

بل يقف عند الحدّ الذى يُبْقِى فيه فَضْلةً لعوارض السلطان ومُهِمَّاته الحادثة فى آناء الليل، وساعات النهار . فإن نعمه فى صلاح زمانه وراحة سلطانه مستَبْقٍ لنِعْمته ، مستَدْعٍ لزيادته . ولا يشتغل بكبير الأمور عن صغيرها ، ولا يبتهج بما أصلحه منها حتّى ينظر فى عواقبه، ويسُوسَ ما رُدّ إليه بالسياسة الفاصلة فيلينُ فى غير ضَعْف، ويشتدُّ فى غير عُنْف ، ويعفُو عن غير خَوَر، ويَسْطُو من غير جَوْر ، ويقرّب بغير تدله ، ويُبْعد بغير نُكر، ويخُصُّ فى غير محاباة ، ويعُمُّ فى غير تضييع ، ولا يَشْـقى به المُحِقُّ وإن كان عدوّا، ولا يسعد به وإن كان وليا .

ومنها إذا حضر بين يدىْ سلطانه أو رئيسه فى المجلس الخاصّ أو العامّ أن يعتمد مقابلته بالإجلال والإعظام، والتوقير والإكرام، ولا يحمـله تأكد الخدمة وتطاوُل الصحبة علىٰ إهمال ذلك بل يحفظ رسْمَه ولا يغيِّر عادته .

ومنها أن يتخير لخطابه فى الأغراض والأوطار أوقاتاً يعلم خلو سِرِّه فيها، وفَرَاغَ باله ، وآنشراحَ صدره، وآرتفاعَ الأفكار عن خاطره إلا إن كان ما يخاطبه فيـه أمرا عائدا بانتظام سلطانه ، وآستقامةِ زمانه، داخلاً فى مهمات أعمـاله التى متىٰ أخّرها نُسِب إلى التقصير، فيقدّم الكلام فيها خفّ أو ثقُل . وإذا خاطبه رئيسه من سلطان أو غيره فى أمر من الأمور ، فعليه أن يُرْعِيه عيْنَه ويُنصت إليه سمعَه، ويَشْغَل به فكره، ولا يستعمله فيما يعوقه عنه حتّى يستوعب ما يلقيه إليه ، ويجيبه عنه أحسن الجواب . ولا يلتفت فى حال إقباله عليه إلى غيره، ولا يَصْغىٰ إلى كلام متكلم، ولا حديث متحدّث، حتّى لو آمتحنه باستعادة ما فاوضه فيه وجده قد أحرز جميعه، فإن التقصـير فى ذلك ممـا ينكره الملوك والرؤساء، ويستدلُّون به علىٰ ضعف المخاطَب . وإن كان فيما خاطبه فيه أمر يحتمل التأخير بادر بالاعتـذار عنه . لئلا ينسب إلىٰ التقصير بتأخيره عنـد الكشف عنه، وإن كان فيه ما يخالف الصواب

أمضاه، وإن تعـــذر السبيلُ إلىٰ فعله لم يظهر التقاعُس عنـه لتحطئته، بل يقابله بالاستصواب . ثم يتلطف فى تعريفه مكان الخطإ فيما رآه .

ومنها أن يجرى فى الحال فى مجالســه علىٰ ما يعود بوفائه وإرادته . فإن مال إلىٰ الانبساط أطلق عِنَانه فيه إطلاقَ المتحسِّن للهُجْر والفُحْش، ورَفَث القول تابعًـا لإيثاره، قاضيا لأوطاره . وإن أظهر الانقباض ذهب مذهَبَه فى ذلك، ولا ينبغى أن يخالفــه فى حال من أحواله، فإنّ من شروط هــذه الخدمة أن يتصرف صاحبها فى كل ما يُصرَّف فيه، ويُسرعَ الانقيادَ إلىٰ كل ما يُدْعى إليه، ولا يكثر من الدعاء لرئيسه والثناء عليه والشكر علىٰ ما يوليه من العوارف فإن مثل ذلك يستثقل .

ومنها أن لا يحضُر سلطانَه فى ملابســه التى جرت العادة أن ينفرد بهـا كالوشى ونحوه، إلا أن يكون هو الذى يشرِّفه بها، وأن يقتصد فى لباسه فينحطّ عما يلبَسُه سلطانه ويرتفع عما يلبسه السُّوقة، ويصرف عنايته إلىٰ التنظُّف والتعطُّر، وقطع الرائحة الكريهة من العَرَق وغيره، حتّٰى لاتقع عينْ رئيسه علىٰ دَنَس فى أثوابه، ولا يجدَ منه كريه رائحة فى حال دنوّه منه، ويواصل استعمال الطيب والبَخُور الفائق والتصمُّخَ بالمسْك، فإن الملوك ترىٰ أن مَنْ أغفل تعهُّد نفسه كان لغيرها أشدّ إغفالا .

ومنها أن يتجنب التفاصُح والتعمُّق فى مخاطبة رئيســه، والافتخارَ عليــه بالبلاغة والبيان لمـا فى ذلك من الترفع عليه فى الكلام . بل يجعل ما يُلقيه إليه ضمن ألفاظٍ تدلّ علىٰ معانيها بسهولة مع غضٍّ مــن صوته، وخفضٍ من طَرْفه، وسكونٍ من أعضائه لأنه إنما يُتَسامح بالإتيان بالفصاحة والذَّهاب بمذهب الجزالة للخطباء الذين يُثْنون علىٰ الملوك فى المواقف العـامّة ضرورةَ احتياجهم إلىٰ استعمال ألفـاظ تقع فى الأسماع أحسن المواقع .

ومنها أنه إذا تميز عند رئيسه وارتفعت رتبته لديه أن يُجْمِل القول فى خاصّته وعامّته ، ويحسن الوَسَاطة لحاشيته ورعيته ، ويتحسَّ القدحَ عنده فى أكفائه ونظرائه من بطانته ، والمقربين من حضرته ، ليكون ذلك داعيا إلى محبته والثناء عليه مكافأةً له وإمساكِ الألسُن عن الطعن فيه .

ومنها أن يبادر إلى المَشُورة عليه بالصواب فيما يستشيره فيه ، ويورده إيراد مستفيد لا مُفيد ، ومتعلم لا معلّم ، ويتلطّف فى أن يُوقِعه من نفسه موقعا يدعوه إلى العمل به . فإنّ من عادة الملوك والرؤساء الأَنَفَةَ من الآنقياد إلى ما ينتحله غيرهم من الآراء ولو كانت صائبة ، وإن تمكّن من صياغة حديث يودعه فيه فعل مخادَعة بذلك لنفسه الأبيّة وعزّته المتقاعسة .

الضرب الثانى
(آداب عِشرة الأكفاء والنُّظَــراء)

قال علىّ بن خلف ولا شك أنّ طريقة الأعتدال فى ذلك الموافاة فى الإخاء ، والمساواة فى الصّفاء ، ومقابلةُ كل حالةٌ بما يُضاهيها . أما المسامحة بالحقوق والإغضاءُ عمن قصّر ، والمحافظةُ على ودّ من فرّط ، فلا خلاف فى فضله والتمدّح بمثله ، لا سيما لمثل أهل هــذه الصناعة التى يرتفع حقُّ الأعتزاء إليها عن حقوق القرابات الدانية ، والأنساب الراسخة . ولذلك وقع فى كلام بعضهم « الكتابة نَسَب » . قال علىّ ابن خلف والمعنى فيه أن التناسبَ الحاصلَ بين أهلها تناسُبٌ نفسانىّ لاجسمانىّ ، يحصل عن تناسب الصور القائمة فى نفوسهم بالقوة ، وعن تناسبها بعد خروجها وظهورها من القوة إلى الفعل ، بدليل ما نراه من آتفاق خواطرهم على كثير من المعانى التى يستنبطونها ، وتوارُدِهم فيها . ولولا تناسُبُ الغرائز وتشابهها ، لم يمكن أن يتواطئُوا فى أكثر الأحوال على معانٍ متكافئة متوافية .

قال "وإذا كنا نحفظ من متَّ إلينا بالأسباب الجسمية التى لا تعارُف بينها فأولى أن نحفظ من متَّ إلينا بالأسباب النفسانية التى يصح منها التعارف . ولذلك قال الحسن بن وهب «الكتابة نفسٌ واحدة تجزأتْ فى أبدان متفرّقة» . وقال لا غيره بما يقع بين بعضهم من التنافر والتباين، لأن المناسبة إنما تقع عند المساواة. أما من وقع دون رتبة الآخر من الفضيلة فليس بمناسب له فيصير القاصر حاسدا لمن فوقه، للتقصير الذى فيه" .

وبكل حال فإنه يجب عليه أن يعرف لأكفائه حقهم، ويحفظ مناسبتهم، ويتوخى مساهمتهم، ويتلقّاهم بالإكرام والتمييز، ويجعلهم فى أعلى المراتب عنده، ويزيدهم على الإنصاف ولا يقصّر بهم عما يستوجبونه ويستحقونه، ويتحوّل بمثل ذلك نظراءه فى الرياسة من غير الكُتّاب . وإن تعذر عليه الوصول إلى ملتمسهم أطاب قلوبهم بالوعد الجميل فى المستقبل، واجتهد فى الوفاء به .

الضرب الثالث

(آداب عِشرة الأتباع)

قال علىّ بن خلف وهى لاحقة بعشرة الأكفاء لأن الذين تستعين بهم الكتاب يُدْعَوْن كُتّابا ولا يُدْعَوْن أعوانا، وإنما الأعوانُ خُدّام الشُّرطة ومن تجرى مجراهم . قال "وهم وإن كانوا أصحاب الكاتب ومرءوسيه وأتباعه، فاسم الكتابة يجمع بينه وبينهم، ومعاشرتهم داخلة فى باب الكرم، والتفضل، والاستئثار بمحاسن الأفعال ومكارم الشيم" .

ثم قال بعد ذلك "وينبغى أن يخصّهم بالنصيب الأوفر، من إكرامه، والقسم الأغزر، من ملاحظته واهتمامه، ويفرض لهم من التقدم والاختصاص وتفقد

الأحوال والشئون، والذى ينتهى اليه أمل المرءوس من الرئيس ليجعل خدمتهم له بذلك خدمةَ مِقَة ومودّة، لاخدمةَ خوف ورهبة ، وأن يجتنب خدمته إليهم بترك مناقشتهم ، والتضييق عليهم ، وإنالتهم من الترفيه فى بعض الأوقات ما يجدون به السبيل إلىٰ الأخذ بنصيب من لذاتهم وأوطارهم التى تميل النفوس إليها ، وتتهافت عليها ، فإنهم متىٰ لحقهم التعب والنصَب ، اعترضهم الضَّجَر والمَلَال ، فقصَّروا فى الأعمال ، وتهاونوا بالأشغال ، فلا بدّ لهم من راحة تصفو بها أذهانهم ويزول عنها الكَلَال ، ولا يفسح لهم فى مواصلة الراحة والإخلال بما يلزمهم ، فإن ذلك يحمل علىٰ سُوء العادة وقبح المذهب . وعليه أن يَحْفَظ لهم حقوقَ الصُّحْبة والخِدْمة ويُوحدهم من الإعانة مافيه صلاح حالهم ، فإنه يستعبِدُهم بذلك ويستخلص مودّتهم إذ القلوب مجبولة علىٰ حب من أحسن اليها ” .

الضرب الرابع

(آداب عِشْرة الرعيــة)

قال ابن خلف ”وهو أمر عظيم النفع ، جسيم العائدة ، قاضٍ بالسلامة . إذ لا يطيب لأحدٍ عَيْش مع بُغض الرعية له ، ونفورهم عنه ، وإن علت عند السلطان رتبتُه ، وارتفعت طبقته ، وظنّ بنفســه الاستغناء عنهم” . قال ”فينبغى أن يُوَفِّر العناية علىٰ استصلاحهم له ، واستمالة أهوائهم إليه ، ولين الجانب ، ووَطَاءة الكَنَف[1] ، وخَفْض الجَناح ، والبَسْط والإيناس وتألُّفهم كما يوفرها علىٰ استصلاح السلطان وسياسته ، لتصحَّ له رتبةُ التوسُّط بين الطبقتين ، ويسلَمَ من طَعْن الطاعن ، ولوم اللائم ، ويبرأ من البُغض والشَّحْناء ، ويقُلَهم عما تسرع إليه الطِّباع الرديئة

---

(١) أى دماثة الأخلاق كما تؤخذ من القاموس

من الحسد والإيذاء إلىٰ التألّف والمودّة . وقد أدّب الله تعالىٰ نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى ﴿ولو كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ " .

الضرب الخـامس

(آداب عِشرة من يمُتُّ إليه بحُرْمَة ، كالجار ، والقاصد ، والآمل ، والمُدِلّ بحقّ المُفاوضة ، والمطاعمة ، والمحاضرة ، والسلام والمعرفة فى الصِّبا ، والصداقة بين الآباء وغير ذلك من الحُرَم التى لايَطَّرِحها أهلُ المروءات)

قال ابن خلف . "وينبغى أن يوفيهم حقوقَهم ، وينهض بما يستنح من أوطارهم ومهمَّاتهم ، ويُعينهم علىٰ ما يحـدُث من نوائب زمانهم ، ويُسْعِد فى بلوغ مَطَالبهم من سلطانهم ، ولا يَضِنّ عليهم بجاه ولا مال ، ولا يُخيِّب أملَ آمِلهم ولا قصْدَه ، ويعرض لهم من إدعائه وأعتنائه مايُعزُّ جانبَهم ، ويسهِّل مآربهم ، ويكفّ الضيم والظلم عنهم ، ويبسُط العدل والإنصاف عليهم . فإنه اذا التزم ذلك لهم التزموا له الإعظامَ والإجلال ، وأطلقوا ألسنتهم بالثناء عليه ، والاعتداد بأياديه ، وأشاعوا ذلك بين أمثالهم فاحتلبوا له مودّتهم وتعصُّبَهم له" .

قلت ومن تمام آداب الكاتب وكمالها أن يعرف حقوقَ مشايخ الصناعة وأئمتها الذين فتَحوا أبوابها ، ودلُّوا سُبُلها ، وسهَّلوا طرقها ، ويعاملهم بالإنصاف فيما أعملوا فيه خواطرَهم ، وأتعبُوا فيه رَوِيَّاتهم فَيبْرِزهم منازلهم ولا يَبْخسهم حقوقَهم . فمن آفات هـذه الصنعة علىٰ ذوى الفضـل من أهلها أن القاصر منهم لا يمتنع من ادعاء منزلة المبرِّز بل لايعفيه من ادعاء التقدّم فى الفضـل عليه ، والمبرِّز فى الفضل لا يقدر علىٰ إثبات نقص المتحلف ﴿واللهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ .

ثم أصل هذه الآداب الذى ترجع اليــه، ويتنوعها الذى تفرَّعت منــه، رسالة عبد الحميد بن يحيى الكاتب، التى كتبها إلى الكُتّاب يوصيهم فيها . وهى

أما بعدُ، حفظكم اللهُ ياأهل صناعة الكتابة، وحاطكم ووفَّقكم وأرشدكم! فإن الله عز وجل جعل الناس بعدَ الأنبياء والمرسلين، صلوات الله عليهم أجمعين، ومِنْ بَعْدِ الملوك المكرمين أصنافًا، وإن كانوا فى الحقيقة سواءً، وصَرَّفهم فى صُنُوف الصناعات، وضُرُوب المحاوَلات إلى أسباب معايشهم، وأبواب أرزاقهم، فجعلكم معشرَ الكُتّاب فى أشرف الجهات أهلَ الأدب، والمُروءة، والعلم، والرواية . بكُمْ تنتظم للخلافة محاسنُها، وتستقيم أمورُها، وبنصائحكم يصلحُ الله للخلق سلطانهم، وتعْمُر بلادهم . لايستغنِى الملكُ عنكم، ولا يوجد كافٍ إلا منكم، فمَوْقِعُكم من الملوك مَوْقِعُ أسماعهم التى بها يسمعون، وأبصارهم التى بها يُبْصِرون، وألسنتهم التى بها ينطقون، وأيديهم التى بها يبطِشُون . فأمتعكم الله بما خصكم من فضل صناعتكم! ولا نزع عنكم ماأضفاه من النِّعمة عليكم! .

وليس أحدٌ أحوجَ إلى اجتماع خِلال الخير المحمودة، وخصال الفَضْل المذكورة المعدودة، منكم أيُّها الكتّاب، إذا كنتم على مايأتى فى هــذا الكتاب من صفتكم فإن الكاتب يحتاج من نفســه، ويحتاج منه صاحبهُ الذى يثق به فى مُهِمَّات أموره أن يكون حليمًا فى موضع الحلم، فهيما فى موضع الحُكْم، ومِقْداما فى موضع الإقدام، ومُحْجِما[1] فى موضع الإحجــام، مُؤْثِرًا للعفاف، والعدل والإنصاف، كَتُوما للأسرار، وَفِيًّا عند الشدائد، عالمــا بما يأتى من النوازل، ويضع الأمور مواضعها، والطوارق أماكنها . قد نظر فى كل فنّ من فنون العلوم فأحكمه، فان لم يُحْكِمْه أخذ منه بمقدار يكتفى به . يعرف بغَرِيزة عقله، وحُسْن أدبه، وفضل تجرِبته، مايرد عليه قبل وروده

(١) فى غير هذا الكتاب ومِحْجاما .

وعاقبةَ مايَصْدر عنه قبل صدوره، فيعدّ لكل أمرٍ عدّته وعَتاده، ويهيئ لكل وجه هيئته وعادته . فتنافَسُوا يامعشر الكُتّاب، فى صُنُوف الآداب، وتفقهوا فى الدِّين، وآبدؤا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض، ثم العربيّة فإنها ثِقَاف ألسنتكم .

ثم أجيدوا الخَطّ فإنه حِلْية كتبكم، وارْوُوا الأشعار، وآعرفوا غريبَها ومعانيها، وأيامَ العَرَب والعجم، وأحاديثَها وسيرها، فإن ذلك معين لكم على ماتسمُو إليه هِمَمُكم . ولا تضيّعوا النظر فى الحِساب فإنه قِوام كُتّاب الخراج، وآرغبوا بأنفسكم عن المطامع سنيّها ودنيّها، وسَفْساف الأمور ومحَاقرها، فإنها مَذَلّة للرقاب، مَفْسَدة للكُتّاب، ونزهوا صِناعتكم عن الدَّناآت، وآرْبَئُوا بأنفسكم عن السِّعاية والنميمة وما فيه أهل الجهالات، وإياكم والكِبْرَ والصلف والعَظَمةَ، فإنهـا عداوة مجتلَبة من غير إحْنة، وتحابُّوا فى الله عز وجل فى صناعتكم، وتواصَوْا عليها بالذى هو أليق بأهـل الفضل والعدل والنُّبْل من سلفكم .

وإن نبا الزمان برجل منكم فآعطِفُوا عليه وواسُوه حتّى يرجعَ إليه حاله، ويثوب إليه أمرُه، وإن أقعد أحدَكم الكِبَرُ عن مَكْسَبه ولقاء إخوانه، فزوروه وعظموه وشاوروه، وآستظهروا بفضل تجربته، وقِدَم معرفته . وليكن الرجل منكم على مَن آصطنعه وآستظهر به ليوم حاجته إليه أحفَظَ منه على ولده وأخيه . فإن عَرَضَتْ فى الشغل محمَدَة فلا يصيفها إلا إلى صاحبه، وإن عرضت مَذَمّة فليحملها هو من دونه . وليحذر السَّقْطة والزلّة والمَلَل عند تغيُّر الحال، فإن العيب إليكم معشر الكتاب أسرع منه إلى القرّاء، وهو لكم أفسد منه لها .

فقد علمتم أن الرجل منكم اذا صحبه الرجل، يبذُل له من نفسه مايجب له عليه من حقه، فواجب عليه أن يعتقد له من وفائه، وشكره، وآحتماله، وصبره، ونصيحته، وكتمان سرّه، وتدبير أمره، ماهو جزاء لحقه . ويصـدّق ذلك بفعاله عند الحاجة إليه، والآضطرار إلى مالديه .

فاستشعروا دلكم وفقكم الله من أنفسكم فى حالة الرخاء، والشدّة، والحرمان، والمواساة، والإحسان، والسراء، والضراء، فنعمت الشّيمة هـذه لمن وُسِم بها من أهل هذه الصناعة الشريفة ! . فإذا وُلِّى الرجل منكم أو صُيِّر إليه من أمر خلق الله وعيـاله أمر، فليراقب الله عز وجل، وليؤثر طاعته ، وليكن على الضعيف رفيقا ، وللمظلوم منصفا ، فإن الخلق عيال الله وأحبهم اليـه أرفقهم بعياله . ثم لْيَكُن بالعدل حاكما وللأشْراف مُكْرِما ، وللفىء موفِّرا ، وللبلاد عامرا ، وللرعية متألفا ، وعن إيذائهم متخلفا ، وليكن فى مجلسه متواضعا حليما ، وفى سِجِلَّات خراجه ، واستقصاء حقوقه رفيقا . وإذا صحب أحدكم رجلا وليختبر خلائقه ، فإذا عرف حَسَنها وقبيحها أعانه على ما يوافقه من الحَسَن واحتال لصرفه عمـا يهواه من القبيح بألطف حيلة ، وأجمل وسيلة . وقد علمتم أن سائس البهيمة إذا كان بصيرا بسياستها التمس معرفة أخلاقها ، فإن كانت رَمُوحا لم يَهِجْها إذا ركبها ، وإن كانت شَـبُو با اتَّقاها من قِبَل يديها ، وإن خاف منها شُرُودا توقَّاها من ناحية رأسها ، وإن كانتْ حَرُونا قَمَع برفق هواها فى طريقها ، فإن استمرت عطفها يسيرا فيَسْلَسُ له قيادُها . وفى هذا الوصف من السياسة دلائلُ لمن ساسَ الناس وعاملهم وخدَمهم وداخلَهم .

والكاتب بفضل أدبه ، وشريف صنعته ، ولطيف حيلته ، ومعاملته لمن يحاوره من الناس ويناظره ، ويفهم عنه أو يخاف سَطْوته ، أوْلَى بالرفق بصاحبه ، ومداراته ، وتقويم أوَده من سائس البهيمة التى لا تُحِير جوابا ، ولا تعرف صوابا ، ولا تفهم خطابا ، إلا بقـدر ما يصيِّرها اليـه صاحبها الراكبُ عليهـا . ألا فأمعِنوا رحمكم الله فى النظر ، واعملوا فيـه ما أمكنكم من الروِيَّة والفِكْر ، تأمنوا بإذن الله ممن صحبتموه النَّبْوة ، والاستثقالَ والجَفْوة ، ويصير منكم (١) الى الموافقة ، وتصيروا منه الى المؤاخاة والشفقة إن شاء الله تعالى .

(١) كذا فى الأصل ولعل ثبوت الياء قبل الراء من زيادة الناسخ

ولا يجاوزنّ الرجلُ منكم في هيئة مجلسه وملبسه ومركبه ومطعمه ومشربه وبنائه وخدمه وغير ذلك من فنون أمره، قدرَ حقه . فإنكم مع ما فضّلكم الله به من شرف صنعتكم خدمة لا تُحمَلون في خدمتكم على التقصير، وحفظة لا تُحتمَل منكم أفعال التضييع والتبذير . واستعينوا على عفافكم بالقَصْد في كل ما ذكرته لكم وقصصته عليكم . واحذروا متالف السرف، وسوء عاقبة التَّرَف، فإنهما يُعقِبان الفقر ويُذِلّان الرِّقاب، ويفضحان أهلهما ولا سيَّما الكُتّاب، وأرباب الآداب، وللأمور أشباه وبعضها دليل على بعض، فاستدلوا على مؤتنف أعمالكم بما سبقت إليه تجربتُكم، ثم اسلكوا من مسالك التدبير أوضحَها محجّة، وأصدقَها حجّة، وأحمدها عاقبة .

واعلموا أن للتدبير آفةً مُتْلِفة — وهي الوصف الشاغل لصاحبه عن إنفاذ عمله ورؤيته، فليقصد الرجل منكم في مجلسه قصدَ الكافي من منطقه، وليوجِزْ في ابتدائه وجوابه ، وليأخذ بمجامع حججه ، فإن ذلك مصلحة لفعله ، ومَدْفعة للتشاغل عن إكثاره . وليضرَع إلى الله في صِلَة توفيقه، وإمداده بتسديده، مخافةَ وقوعه في الغلط المضر ببدنه وعقله وأدبه، فإنه إن ظن منكم ظانّ، أو قال قائل، إن الذي برز من جميل صنعته وقوّة حركته، إنما هو بفضل حيلته، وحسن تدبيره، فقد تعرّض بظنه أو مقالته إلى أن يَكِلَه الله عز وجل إلى نفسه، فيصير منها إلى غير كاف، وذلك على من تأمله غير خاف .

ولا يقُلْ أحد منكم إنه أبصرُ بالأمور وأحملُ لعبء التدبير من مُرَافقه في صناعته ومُصاحبه في خدمته، فإن أعقل الرجلين عند ذوي الألباب مَنْ رمى بالعُجْب وراء ظهره، ورأى أن صاحبه أعقلُ منه وأحمدُ في طريقته . وعلى كل واحد من الفريقين أن يعرِف فضل نِعَم الله جلّ ثناؤه من غير اغترار برأيه، ولا تزكية لنفسه، ولا تكاثُر

على أخيه أو نظيره، وصاحبه وعشيره، وحمدُ الله واجب على الجميع وذلك بالتواضُع لعظمته، والتذلل لعزته، والتحدّث بنعمته".

وأنا أقول فى كتابى هـذا ماسـبق به المثل (مَن يلزم الصحة[1] يلزمه العَمَل) وهو جوهر هـذا الكتّاب وغُرَّة كلامه، بعد الذى فيه من ذكر الله عز وجل، فلذلك جعلته آخرا وتممته به. تولانا الله وإياكم يامعشر الطلبة والكتبة بما يتولّى به مَنْ سبق علمُه بإسعاده وإرشاده! إن ذلك اليه وبيده. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

البـاب الرابـع

من المقدّمة

فى التعريف بحقيقة ديوان الإنشاء، وأصل وضعه فى الإسلام، وتفرّقه بعد ذلك فى الممـالك، وفيه فصلان

الفصل الأوّل

(فى التعـــريف بحقيقته)

لا خفاء فى أنه اسمٌ مركّب من مضاف وهو ديوان ومضاف اليه وهو الإنشاء، أما الديوان فاسمٌ للموضع الذى يجلس فيه الكُتّاب وهو بكسر الدال. قال النحاس فى صناعة الكتّاب "وفتحها خطأ" قال "وأصله دِوّان فأبدلت إحدى الواوين ياء فقيل ديوان" ويجمع على دواوين. وآختلف فى أصله، فذهب قوم الى أنه عربىّ. قال النحاس "والمعروف فى لغة العرب أن الديوان الأصل الذى يُرجَع اليه ويُعمَل

(١) فى نسخة النصحة

بما فيه" ومنه قول ابن عباس « إذا سألتمونى عن شىء من غريب القرآن فالتمسوه فى الشّعر فإن الشعر ديوان العرب » . ويقال دوّنته أى أثبته وإليه يميل كلام سيبويه وذهب آخرون إلى أنه عجمىّ وهو قول الأصمعىّ وعليه اقتصر الجوهرىّ فى صحاحه ، فقال الديوان « فارسىّ معرّب » . وقد حكى الماوردىّ " فى الأحكام السلطانية " فى سبب تسميته بذلك وجهين

أحدهما — أن كسرى ذات يوم اطّلع على كُتّاب ديوانه فى مكان لهم وهم يحسبون مع أنفسهم فقال "ديوانه" أى مجانين فسمّى موضعهم بهذا الاسم ولزمه من حينئذ ثم حذفت الهاء من آخره لكثرة الاستعمال تخفيفا ، فقيل ديوان وعليه اقتصر أبو جعفر النحاس فى صناعة الكتّاب .

والثانى — أن الديوان بالفارسية اسم للشياطين ، وسمّى الكتّاب بذلك لحذقهم بالأمور ووقوفهم على الجلىّ منها والخفىّ .

وأما الإنشاء فقد تقدّم أنه مصدر أنشأ الشىء ينشئه اذا ابتدأه واخترعه ، وحينئذ فإضافة الديوان للإنشاء تحتمل أمرين

أحدهما — أن الأمور السلطانية من المكاتبات والولايات تنشأ عنه وتبتدأ منه .

والثانى — أن الكاتب ينشئ لكل واقعة مقالا . وقد كان هذا الديوان فى الزمن المتقدّم يعبر عنه بديوان الرسائل تسميةً له بأشهر الأنواع التى تصدر عنه لأن الرسائل أكثر أنواع كتابة الإنشاء وأعمّها ، وربما قيل ديوان المكاتبات . ثم غلب عليه هذا الاسم وشُهِر به واستمرّ عليه إلى الآن .

الفصـــل الثـانى

(فى أصل وضعه فى الإسلام وتفرّقه عنه بعد ذلك فى الممـالك)

اعلم أن هــذا الديوان أوّل ديوان وضع فى الإسلام، وذلك أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان يُكاتب أُمراءه، وأصحابَ سَرَاياه من الصحابة، رضوان الله عليهم ويكاتبُونه . وكَتَبَ إلىٰ مَن قَرُب من ملوك الأرض يدعوهم إلىٰ الإسلام، وبعث إليهم رُسـله بكُتُبه فبعث عمرو بن أميَّة الضَّمْرىّ إلىٰ النجاشىّ ملك الحبشــة، وعبـدَ الله بن حُذَافة إلىٰ كِسرى أبرويز ملك الفرس، ودِحيــةَ الكلبىّ إلىٰ هِرَقْل ملك الروم، وحاطِبَ بن أبى بَلْتعةَ إلىٰ المُقَوْقس صاحب مصر، وسَلِيطَ بن عمرو إلىٰ هَوْذةَ بن علىّ ملك اليمـامة ، والعَلاءَ بنَ الحضرمىّ إلىٰ المنــذر بن ساوىٰ ملك البحرين إلىٰ غير ذلك من المكاتبــات . وكتب لعَمْرو بن حزم عهــدًا حين وجَّهه إلىٰ اليمن . وكتب لتميم الدارىّ وإخوته بإقطاع بالشام . وكتب كتاب القَضِيَّة بعقد الهُدْنة بينه وبين قُرَيش عامَ الحديبية . وكتب الأمانات أحيانا . إلىٰ غير ذلك ممـا يأتى ذكره فى الاستشهاد به فى مواضعه إن شاء الله تعالى .

وهذه المكتوبات كلها متعلَّقها ديوان الإنشاء بخلاف ديوان الجيش ، فإن أوّل مَن وضعه ورتَّبه أمير المؤمنين عمرُ بن الخطاب رضىَ الله عنه فى خلافته .

علىٰ أنّ القضاعىّ قد ذكر فى تاريخه "عيون المعارف وفنون أخبار الخلائف" أن الزبير بن العوّام، وجُهَيم بن الصَّلْت كانا يكتبان للنبى صلى الله عليه وسلم أموالَ الصَّدَقات، وأن حُذَيفة بن اليمان كان يكتب له خَرْص النخل، وأن المُغيرة بنَ شُعبة والحُصَين بن نُمَير كانا يكتبان المداينــات والمعاملات . فان صح ذلك فتكون هــذه الدواوين أيضا قد وُضعت فى زمنه صلى الله عليه وسلم، إلا أنهـا ليست فى الشهرة وتَواتُر الكتابة فى زمانه صلى الله عليه وسـلم كما تقدّم من متعلَّقات كتابة الإنشاء .

وقد رأيت فى سـيرة لبعض المتأخرين أنه كان للنبىّ صلى الله عليه وسـلم نيّف وثلاثون كاتبا أبو بكر الصــدّيق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلىّ بن أبى طالب، وعامر بن فُهَيرة، وخالد بنُ سعيد بن العاص بن أمية، وأبانٌ أخوه، وسـعيد أخوهما، وعبد الله بن الأرقم الزُّهرىّ، وحنظلة بن الربيـع الأسـدى، وأُبَىّ بن كعب، وثابت بن قيس بن شَمَّاس، وزيد بن ثابت، وشُرَحْبِيل بن حَسَنة، ومعاوية بن أبى سُفيان، والمُغيرة بن شُعبة، وعبدُ الله بن زيد، وجُهَيْم بن الصَّلْت، والزُّبير بن العوّام، وخالد بن الوليـد، والعَلَاء بن الحضرمىّ، وعمرو بن العـاص، وعبدُ الله بن رَوَاحة، ومحمد بن مَسْلمة، وعبد الله بن عبد الله بن أُبَىّ، ومُعَيقيب بن أبى فاطمة، وطلحة بن زيد بن أبى سفيان، والأرقم بن الأرقم الزُّهرىّ، والعلاء بن عُتْبة، وأبو أيوب الأنصارىّ، وبُرَيدة بن الحصيب، والحصين بن نمير، وأبو سَلَمة المخزومىّ، وحُوَيطب بن عبد العُزّى، وأبو سفيان بن حرب، وحاطب بن عمرو، وعبد الله بن سعد بن أبى سرح، وكان ألزمَهم له فى الكتابة معاويةُ بن أبى سفيان، وزيدُ بن ثابت .

وكتب لأبى بكر عثمانُ بن عفّان، وزيدُ بن ثابت، وعثمانُ هو الذى كتب عهدَ عمرَ بن الخطاب رضى الله عنه بالخلافة عن أبى بكر رضوان الله عليه كما سيأتى فى موضعه إن شاء الله تعالى .

وكتب لعمر رضى الله عنه زيدُ بنْ ثابت، وعبد الله بن خلف .

وكتب لعثمان رضى الله عنه مَرْوانُ بن الحكم .

وكتب لعلى عبدُ الله بن أبى رافع مولىٰ رسول الله صلى الله عليه وسـلم، وسعيد ابن نَجْرانَ الهَمْدانىّ .

وكتب للحسن بن عليّ رضي الله عنهما عبدُ الله بن أبي رافع كاتب أبيه .

ثم كانت دولة بني أمية فتوالت خلفاؤهم من معاوية بن أبي سفيان فمن بعده ، وأمْر ديوان الإنشاء في زمن كل أحد مفوَّض إلىٰ كاتبٍ يُقيمه إلىٰ حين انقراض دولتهم . وكان الخليفة هو الذي يوقِّع على القِصَص ويُحْدِثها بنفسه ، والكاتب يكتُب مايَتَقرَّر إليه من توقيعه ويصرِّفه بقلمه على حُكْمه . وكان ممن اشتهر من كُتَّابهم بالبلاغة وقوّة المَلَكة في الكتابة حتّى سار ذكره في الآفاق ، وصار يُضرَب به المثَل علىٰ ممرّ الأزمان عبد الحميد بن يحيىٰ كاتب مروان بن محمد آخرِ خلفائهم .

فلما بزغتْ شمس الخلافة العباسية بالعِراق ووَلِي الخلافة أبو العبَّاس السَّفَّاح أوّل خلفاء بني العباس ، استوزر أبا سلمة الخَلَّال . وهو أوّل من لُقِّب بالوزارة في الإسلام علىٰ ما سيأتي ، وتوالت الوزراء بعده لخلفاء بني العباس من يومئذ . وكان ديوان الإنشاء تارة يُضاف إلىٰ الوزارة ، فيكون الوزير هو الذي يبعد أموره بقلمه ، ويتولّى أحواله بنفسه ، وتارة يُفْرَد عنه بكاتب ينظر في أمره ، ويكون الوزير هو الذي يبعد أموره بكلامه ، ويصرِّفها بتوقيعه علىٰ القِصَص ونحوها ، وصاحب ديوان الإنشاء يعتمد مايرد عليه من ديوان الوزارة ، ويمشي علىٰ ما يُلْقىٰ إليه من توقيعه ، وربما وقَّع الخليفة بنفسه حتّى بعد غلبة ملوك الأعاجم من الديلم وبني سلجوق وغيرهم علىٰ الأمر والأمر علىٰ ذلك تارة وتارة إلىٰ انقراض الخلافة من بغداد .

وكان ممن اشتهر من وُزَرائهم بالبلاغة حتّى صار يضرَب به المثل يحيىٰ بن خالد وزير الرشيد ، والحسن بن سهل ، وعمرو بن مَسْعَدة كاتب المأمون ، وابن المقفَّع مترجم كتاب "كليلة ودمنه" ، وسَهْل بن هرون الذي ترجمها ، والأستاذ أبو الفضل ابن العميد ، والصاحب كافي الكُفَاة إسماعيل بن عَبَّاد ، وأبو إسحاق الصابي في جماعة آخرين منهم .

ثم لمـا آنقرصت الحلافة مـن بعدادَ ى وقعـة هُولاكُو ملك التتار ى ســنة (ست وحمسين وستمـائة) وآستولت المعل والأعاحم علىٰ بعداد ، نطل رسم الكتابة المعتبرة وصار أكثر ما يُكْتَب عن ملوك التتار بالمعلية أو الفارسية ، والأمر علىٰ دلك إلىٰ رماننا علىٰ ماسيأتى بيانه فى الكلام علىٰ دواوين الأمصار فى المكاتَبات والوِلايات وعيرهما إن شاء الله تعالىٰ .

وكانت بلاد العرب والأندَلُس بأيدى نُوّاب الحلفـاء من حين الفتح الإســلامىّ فى حلافة عثمان بن عفان رضى الله عنـه ، ولا عنايةَ لهم بديوان الإنشاء للتقرّب من البَـدَاوة ، وعايته المكاتبة إلىٰ ديوان الحلافة ونحو دلك ، فلما علب بَنُو العباس علىٰ الحلافة هرب طائفة من بنى أميــة إلىٰ بلاد المعرب ، وحارت البحر إلىٰ الأندَلُس فآنتزعوه من النوّاب الدين كانوا به وملَكوه ، وصاروا ينْصِبون فيه حليفه بعد حليفة ، حارين علىٰ سَنَن ما كانوا عليه بالشأم من ألقاب الحلافة ، مضاهين لحلافه بنى العباس ببعداد من إقامة شِعار الحلافة ، واتحاد ديوان الإنشاء ، وآستحدام بُلَغاء الكُتّاب وتعدّت دولتهم إلىٰ برّ العُدوه من بلاد المعرب فحكموه . ثم تقاصر أمرهم بعد دلك شيئا فشيئا باستيلاء المســتَوْلين المستبدّين عليهم بالأمر إلىٰ أن آنقرضت دولتهم من الأندلس و بلاد المعرب ، وآستُولت عليهما طوائف من الملوك وتنقلت بهم الأحوال فى آستيلاء الملوك علىٰ كلّ ناحيــة منهما ، وتتابعت الدول فى كل حين كلمـا حَتْ دولة نَجَمَتْ أحرىٰ علىٰ ما سيأتى دكره فى مكاتبات ملوكهما إن شاء الله تعالى .

وكان حال ديوان الإنشاء فيهم بحسب ما يكونون عليه من الحَضَارة والبـداوة ، فأوائل الدول القريبون عهدا بالبادية لاعناية لهم بكتابة الإنشـاء ، وإدا آستَحْضرت الدولةُ صرفت آهتمامها إلىٰ ديوان الإنشاء وترتيبه إلىٰ أن استقر ما بقى من الأندلس بعد ما آرتجعته الفرنج منـه بأيدى بنى الأحمر ، والعربُ الأقصىٰ بيــد بنى مرِّين ،

والغربُ الأوسطُ بيد بنى عبد الواد، وإفْرِيقيَّة بيد بقايا الموحدين من أتباع المهدىّ ابن تُومَرت، وداخلتْهم الحَضَارة، فأخذوا فى ترتيب دواوين الإنشاء بهذه الممالك، ومعاناة البلاغة فى المكاتبات ونحوها، وآستمرّ الحال علىٰ ذلك إلىٰ زماننا .

وممن آشتهر بالبلاغة من كُتّاب المغاربة والوزراء به أبو الوليد بن زَيْدون، والوزير أبو حفص بن برد الأصغر الأندلسىّ، وذو الوزارتين أبو المغيرة بن حزم، والوزير أبو القاسم محمد بن الجد فى جماعة أخرىٰ من متقدّمى كتّابهم . ومن متأخريهم عبد المهيمن كاتب السلطان أبى الحسن المرينى، وأربىٰ علىٰ كثير من المتقدّمين ابن الخطيب وزير ابن الأحمر صاحب غَرْناطة من الأندلس ممن أدركه من عاصرْناه .

أما الديار المصرية فلديوان الإنشاء بها خمسُ حالات

الحالة الأولى — ما كان الأمر عليه من حين الفتح وإلىٰ بداية الدولة الطُّولونيَّة، ونُوَّاب الخلفاء تتوالىٰ عليها واحدا بعد واحد فلم يكن لهم عنايةٌ بديوان الإنشاء، ولا صرفُ همة إليه للاقتصار علىٰ المكاتبات لأبواب الخلافة، والنزر اليسير من الولايات ونحو ذلك . ولذلك لم يصدُر عنهم مايُدوّن فى الكتب ولا يتناقل بالألسنة .

الحالة الثانية — ما كان الأمر عليه فى الدولة الطولونيَّة من آبتداء ولاية أحمد بن طُولون، وآستفحال مُلْك الديار المصرية فى الإسلام، وترتيب أمرها، وإلىٰ حين آنقراض الدولة الاخشيدية، وفى خلال ذلك ترتَّبَ ديوان الإنشاء بها، وآنتظم أمر المكاتبات والولايات، وكان ممن آشتهر من كُتّابهم بالبلاغة وحُسْن الكتابة، أبو جعفر محمد بن أحمد بن مَوْدود بن عبد كان كاتبَ أحمد بن طولون، وكان مبدأَ الكُتّاب المشهورين بها . وكتب بعده لخمَارَويْه بن أحمد بن طولون إسحٰق بن نصر العبادىّ النصرانىّ، وتوالت الكُتّاب بالديوان بعد ذلك .

الحالة الثالثة — ما كان الأمر عليه من ابتداء الدولة الفاطمية وإلى انقراضها.

ولما وَلِيَ الفاطميون الديارَ المصرية، صرفوا مزيد عنايتهم لديوان الإنشاء وكُتَّابه، فارتفع بهم قدرُه، وشاع في الآفاق ذكره، ووَلِي ديوان الإنشاء عنهم جماعةٌ من أفاضل الكُتَّاب وبلغائهم ما بين مسلم وذمّي، فكتب للعزيز بالله ابن المعز أبو المنصور بن سورين النصراني، ثم كتب بعده لابنه الحاكم ومات في أيامه، فكتب للحاكم القاضي أبو الطاهر النهركي، ثم كتب بعده لابنه الظاهر. وكتب للمستنصر القاضي وليّ الدين بن خيران، ثم وليّ الدولة موسى بن الحسن قبل انتقاله إلى الوزارة، وأبو سعيد العميدي. وكتب للآمر والحافظ الشيخُ الأجلّ أبو الحسن عليّ بن أبي أسامة الحلبي إلى أن تُوفِّي سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة. فكتب بعده ولدُه الأجلُّ أبو المكارم إلى أن توفِّي في أيام الحافظ، وكان يكتب بين يديهما الشيخ الأمين تاج الرِّآسة أبو القاسم عليّ بن سليمان بن منجد المنصري المعروف بابن الصيرفي، والقاضي كافي الكُفَاة محمود ابن القاضي الموفَّق أسعد بن قادوس، وابن أبي الدم اليهودي. ثم كتب بعد الشيخ أبي المكارم بن أبي أسامة المتقدم ذكره القاضي الموفَّق ابن الخَلَّال أيامَ الحافظ، وإلى آخر أيام العاضد. وبه تخرّج القاضي الفاضل البَيْساني. ثم شَرَّكَ العاضدُ مع الموفَّق ابنِ الخَلَّال في ديوان الإنشاء القاضيَ جلالَ الملك محمودَ بن الأنصاري وكان في أيامه القاضي المؤتمن كاسيبويه. ثم كتب القاضي الفاضل بين يدي الموفَّق ابن الخَلَّال قرب وفاته في سنة ست وستين وخمسمائة في وزارة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، وكتب من إنشائه عدّة سجلّات ومكاتبات عن العاضد آخر خلفائهم.

الحالة الرابعة — ما كان الأمر عليه من ابتداء دولة بني أيوب إلى آخر انقراضها.

قد تقدّم أن القاضىَ الفاضلَ رحمه الله كان قد كتب بين يدَىِ الموفّق ابن الخَلَّال فى وزارة السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله عن العاضد آخر خلفاء الفاطميين، فلما استقلّ السلطان صلاح الدين المذكور بالمُلْك وخَطَب لبنى العبّاس علىٰ ما تقدّم فى الكلام علىٰ ملوك مصر، فوّض إلىٰ الفاضل الوزارةَ وديوان الإنشاء فكان يتكلم فيهما جميعا، وأقام علىٰ ذلك إلى أن مات السلطان صلاح الدين، فكتب بعده لابنه العزيز وأخيه العادل أبى بكر. ثم مات، وكتب للكامل بن العادل القاضى أمينُ الدِّين سليمانُ المعروف بكاتب الدَّرْج إلىٰ أن توفّى، فكتب بعده للكامل الشيخُ أمين الدين عبد المُحْسن الحلبى مدّةً قليلة، وتوالت كتّاب الإنشاء فى الولاية إلىٰ أن ولى الملك الصالح نجم الدين أيوبُ فولّى ديوانَ الإنشاء الصاحبَ بهاءَ الدين زُهيرا. ثم صرفه وولّى بعده الصاحبَ فخر الدين إبراهيم بن لقمان الإِسْعَرْدِىَّ، فبقى إلىٰ انقراض الدولة الأيوبية.

الحالة الخامسة — ما كان الأمر عليه فى الدولة التركية مما هو مستقِرّ إلىٰ الآن.

قد تقدّم أن الصاحبَ فخر الدين بنَ لقمان بقِىَ فى ديوان الإنشاء إلىٰ آخر الدولة الأيوبيـــة.

ولمـا صارت المملكة إلىٰ الدولة التركيـــة، بقى فى صَحَابة ديوان الإنشاء أيام أيبك التركمانى، ثم أيام المظفَّر قطز، ثم أيام الظاهر بيبرس، ثم أيام المنصور قلاوون. فبـاشر ديوان الإنشاء فى أيامه مدّةً، ثم نقله إلىٰ الوزارة، وولّى مكانه بديوان الإنشـاء القاضىَ فتح الدين بنَ القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر فى حياة والده، فبقى حتّى توفى المنصور قلاوون، واستقرّ بعده ابنه الأشرف خليل، واستمرّ عنده فى كتابة السرّ برهة من الزمان وسافر معــه الى الشام، فمـات بالشام فولّى الأشرفُ مكانَه القاضىَ تاج الدين أحمد بن الأثير، وقفل السلطانُ راجعا إلىٰ مصر، فمـات

القاضى تاجُ الدين فى أثناء الطريق بعصيِّ شهر من ولايتـه ، وولّى مكانه القاضىَ شرف الدين عبدَ الوهاب بنَ فضل الله فأقام بقية أيام الأشرف بن قلاوون ، وأيامَ أخيـه الناصر محمد بن قلاوون فى سلطنته الأُولىٰ ، وأيامَ العادل كتبغا ، وأيام المنصور لاجين ، وأيامَ الناصر محمد بن قلاوون فى سلطنته الثانية ، وأيامَ المظفر بيبرس الجاشنكير ، وبرهةً من أيام الناصر محمد بن قلاوون فى سلطنته الثالثه .

ثم نقله إلىٰ كتابة السرّ بدمشق المحروسـة عوضًا عن أخيه القاضى محيي الدين بن فضل الله ، وولّى مكانه بمصر علاء الدين بن الأثير لسابق وعدٍ له منه حين كان معه فى الكَرَك ، وبقى حتّى مرض بالفالج وبطلت حركته ، فاستدعىٰ الملك الناصر القاضىَ محيي الدين بن فضـل الله من الشأم ، وولّاه ديوان الإنشاء بالديار المصرية فى المحرم سنة تسع وعشرين وسبعمائة .

وكان ولدُه القاضى شهابُ الدين هو الذى يقرأ البريد علىٰ السلطان وينفّذ المهمّات إلىٰ سـنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة فأعادهما الملك الناصر إلىٰ دمشق . وولّى مكانهما القاضى شرف الدين بن الشهاب محمود فى شعبان من السنة المذكوره . فبقى حتّى حجّ السلطان وعاد إلىٰ مصر ، فأعاد القاضى محيي الدين وَولدَه القاضى شهاب الدين إلىٰ ديوان الإنشاء بالديار المصرية ، فبقيا إلىٰ سنة ثمـان وثلاثين وسبعمائة .

وفى أواخر ذلك تغير السلطان علىٰ القاضى شهاب الدين المذكـور وصرفه عن المباشَرة وأقام أخاه القاضىَ علاءَ الدين مكانَه يباشر مع والده . وبقى الأمر علىٰ ذلك مدّه لطيفة .

ثم سأل القاضى محيي الديـن السلطان فى العود إلىٰ دمشق ، وقد كبرت سنه وضعفتْ حركته ، فأعاده وصحبته ولدُه القاضى شهابُ الدين وكتب له تقليد فى قطع

الثّلثين بأن يستمرّ علىٰ صَحابة دواوين الإنشاء بالممالك الإسلامية، وأن يكون جميعُ المباشرين لهذه الوظيفة بالباب الشريف فَمَنْ دونه نُوّابَه ، وأنه حيث حلّ يقرأ القِصَص والمظالم ، ويقرِّر الولاياتِ والعزلَ والرواتبَ وغير ذلك ، ويوقِّع فيها بما يراه، وتُجهَّز إلىٰ مصر ليعلَّم عليها العلامةُ الشريفة، وفوّض أمر ديوان الإنشاء بالديار المصرية لولده القاضي علاء الدين استقلالا ، وتجهّز القاضي محيي الدين للسفر، فمرض ومات بعد أيام قلائل فى شهر رمضان سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة بالقاهرة . ثم نُقل إلىٰ دمشق سنة تسع ، وبقى ولده القاضي علاء الدين فبقى فى الوظيفة بقية أيام الملك الناصر، ثم أيامَ ولده المنصور أبى بكر، ثم أخيه الأشرف كجك، ثم أخيه الملك الناصر أحمد .

فلما خَلَع الناصر أحمدُ نفسَه فى سنة ثلاث وأربعين وتوجه إلىٰ الكَرَك ، توجه القاضي علاءُ الدين معه ، فأقام عنده ، واستقرّ الصالح إسماعيل بن محمد بن قلاوون فى السلطنة بعد أخيه أحمد ، فقرّر فى ديوان الإنشاء القاضيَ بدرَ الدين محمد بن محيي الدين بن فضل الله ، فبقى فى الوظيفة إلىٰ أن عاد أخوه القاضي علاءُ الدين من الكَرَك ، فأعيد إلىٰ منصِبه ، وبقِى بقيةَ أيام الملك الصالح إسماعيل ، ثم أيامَ أخيه الكامل شعبان ، ثم أيام أخيه المظفّر حاجّى ، ثم أيامَ أخيه الناصر حسن فى سلطنته الأولىٰ، ثم أيام أخيه الصالح صالح، ثم أيام الناصر حسن ثانيا، ثم أيام المنصور محمد بن حاجّى بن محمد بن قلاوون ، ثم أيام الأشرف شعبان بن حسين بن محمد ابن قلاوون فتُوفِّى، وولى الوظيفةَ بعده ولدُه القاضي بدرُ الدين محمد، فبقى بقيةَ أيام الأشرف شعبان ، ثم أيام ولده المنصور علىّ، ثم أيامَ أخيه الصالح حاجى بن شعبان إلىٰ أن خُلِعَ ، وجاءت الدولة الظاهرية برقوق فقرّر فى ديوان الإنشاء القاضيَ أوحد الدين عبدَ الواحد بن التركمانى ، فبقى حتّى تُوفّى فأُعيد القاضي بدرُ الدين

المذكور وبقى حتّى خُلِع الظاهر برقوق وعاد المنصور حاجّى بن الأشرف شعبان إلىٰ السلطنة وهو مستمرّ المباشرة .

فلما عاد الظاهر برقوق من الكَرَك حضر معه القاضى علاءُ الدين علىّ الكَرَكى ، وولّاه كتابة السرّ وبقى حتّى توجه صُحبة السلطان إلىٰ الشام فى طلب مِنْطاش ، فمات القاضى علاء الدين، وكان القاضى بدرالدين صحبتَه فأُعيد إلىٰ الوظيفة فى سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة ، وعاد مولّى صحبةَ الركاب الشريف السلطانىّ . ثم توجه صحبتَه إلىٰ الشام عند وُصُول تمر لبغداد ، فمرض ومات هناك ، فولّى الظاهرُ مكانَه القاضىَ بدر الدين محمود السراى الكلستانىّ فى شوّال سنة ست وتسعين وسبعمائة ، وحضر صُحبةَ الركاب الشريف إلىٰ الديار المصرية ، فبقى حتّى تُوُفِّى فى جمادىٰ الأولىٰ سنه إحدىٰ وثمانمائة ، فولّى الظاهر مكانَه المقرّ العالى الفتحى فتحَ الله ، ففتح اللهُ به من أبواب ديوان الإنشاء ما كان مُغْلَقا ، وأصفىٰ به من وِرْده ما كان مكدَّرا .

وآنتقلت السلطنة بعد وفاة الظاهر برقوق إلىٰ ولده الناصر فرج ، فأجراه من المباشرة والإجلال والتعظيم علىٰ عادة أبيه . ثم صرفه عن الوظيفة فى شهور سنة ثمان وثمانمائة ، وأقام مكانه فى الوظيفة المَقَرّ السعدىّ إبراهيم بن غراب ، وهو يومئذ مشير الدولة بعد تنقله فى وظائف الديار المصرية والمشار إليه . وأقام بها مدّة لطيفة ، وعادت إلىٰ المَقَرّ الفتحىّ فتح الله المشار إليه ، وقيل هَذِهِ بِضاعَتُنا رُدَّتْ إلينا ، يجرىٰ فيها علىٰ الأُسْلوب الأوّل والمَنْهَج السابق من العدل والإنصاف ، والإحسان إلىٰ الخلق ، وإيصال البرّ إلىٰ مستحقيه ، والمساعدة فى الله لمن عَرَف ومن لم يعرف ، والله هو المكافئ لعباده علىٰ جميل الصنيع :

مَنْ يَفْعَلِ الخَيْرَ لم يَعْـدَمْ جَوازِيَه لَنْ يذْهب العُرْفُ بين الله والناس

الباب الخامس

من المقدمة

في قوانين ديوان الإنشاء، وترتيب أحواله، وآداب أهله، وفيه أربعة فصول

الفصل الأول

(في بيان رتبة صاحب هذا الديوان ورفعة قدره وشرف محله
ولقبه الجاري عليه في القديم والحديث)

أما رِفْعة محله وشرفُ قدره، فأرفعُ محل وأشرفُ قدر، يكاد أن لا يكون عند الملك أخصُّ منه ولا ألزمُ لمجالسته، ولم يزل صاحب هذا الديوان معظّما عند الملوك في كل زمن، مقدَّما لديهم على من عداه يُلْقون إليه أسرارهم، ويخُصُّونه بخفايا أمورهم، ويُطْلعونه على مالم يطَّلع عليه أخص الأخصاء من الوزراء والأهل والولد، وناهيك رتبةٍ هذا محلها!

قال صاحب موادّ البيان "ليس في منزلة خَدَم السلطان والمتصرِّفين في مهماته أخصُّ من كاتب الرسائل . فإنه أول داخل على الملك وآخرُ خارج عنه، ولا غِنىً له عن مفاوضته في آرائه، والإفضاء اليه بمهماته، وتقريبه من نفسه في آناء ليله وساعات نهاره وأوقات ظهوره للعامة وخلواته، وإطلاعه على حوادث دولته ومهمّات مملكته، فهو لذلك لا يثق بأحد من خاصّته ثِقَتَه به، ولا يركَنُ إلى قريب ولا نسيب رُكونَه إليه، ومحلُّه منه في عائدة خدمته وأثَرة دولته محلُّ قلبه الذي يؤامره في مشكِل رأيه حتّى يتّقحَ، ويراجعُه في مهمِّ تدبيره حتّى يتصح، ولسانِهِ الذي يقرّر بترغيبه أولياءَه على الطاعة والموافقة، ويستقر بترهيبه عن المعصية والمشاقَقة، ويقر بأوامره[1]

---

(١) كذا في الأصل ولعله مصحف عن يُقَر أو يستمر كما تقتضيه المقام

ونواهيه أمور سلطانه، ويُبْرِمُها ممارِلَها فى ممهد مجالسها، ويتمكن من سياسة أجناده، وعمارة بلاده، ومصلحة رعيته، وآجتلاب مودّتهم، وآستخلاص نياتهم، وعينه التى تلاحظ أحوال سلطانه، ويُرْعيها مهمات شانه، وأذنه التى يثق بمطاوعته، ولا يرتاب بما سمعته، ويده التى يبسُطُها بالإنعام، ويبطشُ بها فى النقص والإبرام" .

قال ومن كانت هذه رتبته فالسبب الذى رتبه فيها أفضل الأسباب، وأجدرها بالتقديم على الاستحقاق والآستيجاب .

قال ابن الطوير فى ترتيب الدولة الفاطمية "وكان هذا المنصب لا يتولاه فى الدولة الفاطمية إلا أجلُّ كتاب البلاغة، ويُخاطَب بالأجلّ، وإليه تسلّم المكاتبات واردة مختومة فيعْرِضها على الخليفة من يده، وهو الذى يأمر بتنزيلها والإجابة عنها وربما بات عند الخليفة ليالىَ، وهذا أمر لا يصل إليه غيره" . قال "وهو أوّل أرباب الإقطاعات فى الكسوة والرسوم والملاطفات، ولا سبيل أن يدخل إلى ديوانه أحد ولا يجتمع بأحد من كتابه إلا الخواص، وله حاجب من الأمراء الشيوخ، وله فى مجلسه المرتبة العظيمة والمخادّ والمسْنَد، والدواة العظيمة بلا كرسى، ويحمل دواته أستاذ من خواصّ الخليفة عند حضوره إلى مجلس الخلافة" .

قلت ومرتبته فى زمننا أرفع مرتبة، ومحله أعظم محل، إليه تلقى أسرار المملكة وخفاياها، وبرأيه نستضىء فى مشكلاتها، وعلى تدبيره يعوّل فى مهماتها، وإليه ترد المكاتبات، وعنه تصدر، ومن ديوانه تُكتب تولية الولايات السلطانية كافة، ويقوم توقيعه على القصص فى نفوذ الأوامر مقام توقيع السلطان، ويحمع ما يعلمه عليه السلطان من جليل وحقير فى مرتبته حتى ما يكتب من ديوان الجيش من المناشير، وما يُكتب من ديوان الوزارة وديوان الخاص وغيرها من مرتبات ونحوها وليس

لأحد من المتولين لهذه المناصب التعرُّض لأحد علامة سلطانيّة البتةَ، وناهيك بذلك رفعةً وشرفا باذخًا .

وأمّا لَقَبه الجاري عليه في كل زمن فقد تقدّم أنهم كانوا في زمن بني أُمَيَّة وما قبله يعبِّرون عنه بالكاتب، لا يعرفون غير ذلك كما أشار إليه القُضاعيُّ في "عيون المعارف". فلما جاءت الدولةُ العباسيّة، واستقر السَّفَّاح أوّلُ خلفائهم في الخلافة، لقّب كاتبَه أبا سلمة الخَلّال بالوزارة وترك اسم الكاتب، واستقرّ لقب الوزارة على مَنْ يليها من أرباب السيوف والأقلام إلى انقراض الخلافة من بغداد . وتقدّم أيضا أن هـذا الديوان كان تارة يضاف إلى الوزارة فيكون الوزير هو الذي يباشره بنفسه أو يفوّضه إلى مَنْ يتحدّث فيه عنه، وتارة ينفرد عنها، فحيث انفرد عن الوزارة لُقِّب متوليـه بمـا يتضمن إضافته إلى صحابة الديوان وولايته بحسب ما يشتهر به الديوان في ذلك الزمن .

فحيث كان الديوان مشهورا بديوان الرسائل، كما كان في الزمن الأوّل، لقِّب متوليه بصاحب ديوان الرسائل أو متولِّي ديوان الرسائل، وربمـا قيل صاحب ديوان المكاتبات، أو متولِّي ديوان المكاتبات، وحيث كان الديوان مشهورا بديوان الإنشاء كما في زماننا بالديار المصرية لُقِّب متوليه بصاحبِ ديوان الإنشاء . وربمـا جمعوا لفظ الديوان تعظيما لمتوليه، فقالوا صاحب دواوين الإنشاء بالممالك الإسلامية . وعلى هـذا مصطلَح كُتَّاب الديوان في زماننـا في تعريفه فيما يكتب له من تقليـد أو غيره، على أنه لو قيـل ناظر دواوين الإنشـاء لكان أعلى في الرتبة لمـا اشتهر في العرف من أن لفظ ناظر الديوان أعلى من صاحب الديوان .

قال ابن الطوير "وكانوا يلقبونه في الدولة الفاطميـة بالديار المصرية كاتب الدَّسْت" .

قلت وانتهى الأمر إلىٰ أوائل الدولة التركية والحـال فى ذلك مختلف، فتارة يلى الديوان كاتبٌ واحد يعبر عنه بكاتب الدَّسْت، وربمـا عُبِّر عنه بكاتب الدَّرْج، وتارة يليه جماعةٌ يعبر عنهم بكُتَّاب الدَّسْت . ويقال إنهم كانوا فى أيام الظاهر بيبرس ثلاثة نفر، أرفعُهم درجةً القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر . وبقى الأمر علىٰ ذلك إلىٰ أن ولىَ الديوانَ القاضى فتحُ الدين بن عبد الظاهر فى أيام المنصور قلاوون علىٰ ما تقدّم ذكره، فلُقِّب بكاتب السر، ونقل لقب كاتب الدَّست إلىٰ طبقة دُونَه من كُتَّاب الديوان . واستمر ذلك لقبًا علىٰ كل من وَلِيَ الديوان إلىٰ زماننا علىٰ ماسيأتى ذكره . ويضاهيه فى ذلك من العُرْف العامّ متولى ديوان الإنشاء بدمشق، وبحلب، وبطرابلس، وبحمـاه، وبصَفَد، إلا أنه لا يقال فى واحد منهم فى مصطَلَح الديوان صاحب دواوين الإنشاء كما يقال فى متولى ديوان الإنشاء بالديار المصرية، بل يقال فى متولى ديوان دمشق صـاحب ديوان الإنشاء بالشام، وفى متولى ديوان حَلَب صاحب ديوان المكاتَبَات بحلب، وكذا فى الباقيات . أما غَزَّة، والكَرَك، والإسكندرية وغيرُها من النيابات الصِّغار فإنمـا يقال فى متولى شئ من دواوينهـا كاتب دَرْج ولا يطلق عليه كاتب سرّ بوجه .

واعلم أن العامة يبدلون الباء من كاتب السِّرّ بميم فيقولون كاتم السر، وهو صحيح المعنىٰ إما لأنه يكتُم سِرَّ الملك، أو من باب إبدال الباء بالميم علىٰ لغة ربيعة وإن كانوا لا يعرفون الثانى .

الفصـــل الثـانى

(فى صفة صاحب هذا الديوان وآدابه)

قال أبو الفضل الصورى فى مقدّمة تذكرته "يجب أن يكون صبيح الوجه، فصيحَ الألفاظ، طَلْق اللسان، أصيلًا فى قومه، رفيعا فى حَيِّـه، وقورا، حليما

مُؤْثِرا للجِدّ على الهزل، كثير الأَناة والرفق، قليلَ العَجَلة والخُرْق، نَزْر الضحك، مَهِيب المجلس، ساكن الظِّل، وَقُور النادى، شديدَ الذَّكاء، متوقد الفهم، حَسَن الكلام إذا حدَّث، حسن الإصغاء إذا حُدِّث، سريعَ الرضا، بطىء الغضب، رءوفا بأهل الدين، ساعيا فى مصالحهم، محبًّا لأهل العلم والأدب، راغبا فى نفعهم، وأن يكون محبا للشُّغْل أكثر من محبته للفراغ، مقسِّما للزمان على أشغاله يجعل لكل منها جزءا منه حتّى يستوعبه فى جميع أقسامها، ملازما لمجلس الملك إذا كان جالسا، وملازما للديوان إذا لم يكن الملك جالسا ليتأسّى به سائر كتّاب الديوان، ولا يجدوا رخصة فى الغيبة عن ديوانهم، وأن يُغَلِّب هوى الملك على هواه ورضاه على رضاه — مالم ير فى ذلك خللا على المملكة، فإنه يجب أن يُهْدِى النصيحة فيها للملك من غير أن يُوحِده فيما تقدّم من رأيه فسادا أو نقصا، لكن يتحيل لنَقْض ذلك وتهجينه فى نفسه وإيضاح الواجب فيه بأحسن تأتٍّ وألطف تلطف، وأن يَنْحَلَ الملك صائبَ الآراء ولا ينتحلها عليه؛ ومهما حدث من الملك من رأيٍ صائب أو فعل جميل أو تدبير حميد، أشاعه وأذاعه، وعظمه وفخمه، وكرر ذكره، وأوجب على الناس حمدَه عليه وشكره. وإذا قال الملك قولا فى مجلسه أو بحضرة جماعة ممن يخدُمه فلم يره موافقا للصواب، فلا يَجْبَهْه بالرد عليه واستهجان ما أتى به — فإن ذلك خطأ كبير، بل يصبر الى حين الخلوة، ويُدخل فى أثناء كلامه ما يوضِّح به نهجَ الصواب من غير تلقّ بردّه، ولا يتَبَجَّح بما عنده، ويكون متابعا للملك على أخلاقه الفاضلة، وطباعه الشريفة: من بَسْط المَعْدَلَة ومدّ رُوَاق الأَمَنة، ونَشْر جَناح الإنصاف، وإغاثة الملهوف، ونُصْرة المظلوم، وجَبْر الكسير، والإنعام على المُعْتَرّ المستحق، والتوفُّر على الصدقات، وعمارة بيوت الله تعالى، وصَرْف الهِمَم الى مصالحها، والنظر فى أحوال الفقهاء، وحَمَلة كتاب الله العزيز بما يَصْلُح، والالتفات الى عمارة البلاد، وجهاد الأعداء،

ونشر الهيبة، وإقامة الحدود فى مواضعها، وتعظيم الشريعة، والعمل بأحكامها .
فيكون لجميع ذلك مؤكِّدا، ولأفعاله فيــه موطِّدا ممهِّدا . وإن أحسَّ منه بخَلَّة تُنافى
هذه الخلالَ، أو فَعْلةٍ تخالف هذه الأفعال، نقله عنها بألطف سَعْى وأحسن تدريج،
ولا يَدَعُ ممكنا فى تبيين قُبْحها، وإصــلاح رداءة عاقبتها، وفَصيــلة مخالفتها إلا بينه
وأوضحه الى أن يعيــده إلى الفضائل التى هى بالملوك السَّــلاء أليق . وأن يكونَ مع
ذلك بأعلى مكانة من اليَقَظة والآســتدلال بقليل القول على كثيره، وببعض الشيء
على جميعه، ويستغنى عن التصريح بالإشارة والإيماء، بل الرمز والإيحاء ليبنه الملك
على الأمور من أوائلها، ويعرِّفه خواتم الأشياء من مُفْتَتَحاتها . ويحذِّره حين تبــدو له
لوائح الأمر من قبل أن يتساوى فيه العالم والجاهل — كما حكى عن خالد بن برمك
"أنه كان مع قَحْطَبَةَ فى معسكر، جالسين فى خَيْمة إذ نظر خالد إلى سِرْب من الظباء
قد أتى حتّى كاد يخالط العســكر، فأشار على قحطبةَ بالركوب فسأله عن السبب،
فقال الأمر أعجل أن أبيِّن سببه . فركب وأركب العسكر، فلم يستتمُّوا الركوب إلا
والعدوّ قد دهمهم، وقد آســتعدّوا له فكانت النُّصرة لهم على العدوّ . فلمــا آنقضى
الحربُ سأل قَحْطَبَةُ خالدا من أين أدركتَ ذلك" فقال رأيت الظّباء وقد أقبلَتْ حتّى
خالطت العسكر، فعرفتُ أنهـا لم تفعل ذلك مع نفورها من الإنس إلا لأمر عظيم
قد دهمها من ورائها" . وأن لا يكتب عن الملك إلا ما فيه مَنار دولته ويعظِّمها،
ولا يخرج عن حكم الشريعة وحدودها، ولا يكتبُ ما يكون فيه عيب على المملكة
ولا ذمٌّ لها على غابر الأيام، ومستأنَف الأحقاب، وإن أمر بشيء يخرج عن ذلك،
تلطَّف فى المراجعة لسببه، وبيَّن وجه الصواب فيه إلى أن يرجع به الى الواجب .
وأن يكون من كتمان السر بالمنزلة التى لا يُدانيه فيها أحد، ولا يقاربه فيها بشر، حتى
يقرِّر فى نفسه إماتةَ كلِّ حديث يعلمه، ويتناسى كلَّ خبر يسمعه . وأن لا يُطْلِع والدا

ولا ولدا، ولا أخا شقيقا، ولا صديقا صَدُوقا، على ما دَقَّ أو جلَّ، ولا يُعْلمه بما كثُر منه ولا قَلَّ، ويتوهم بل يتحقق أنّ في إذاعته ما يَعْلم به وَضْعَ منزلته وحَطَّ رتبته، ويجتهد في أن يصير له ذلك طَبْعا مركَّبا وأمرا ضروريًّا .

قلت وهذه الصفة هي الشرط اللازم، والواجب المحتَّم بها شُهِر، وبالإضافة إليها عُرِف . وقد قال المأمون وهو من أعلى الخلفاء مكاناً، وأوسعهم علما "الملوك تحتملُ كلَّ شيء إلا ثلاثة أشياءَ القَدْح في الملك، وإفشاءُ السِّر، والتعرّضُ للحُرَم".

ومن كلام بعض الحكماء "سرُّك من دمِك" قال صاحب العقد يعنون أنه ربّما كان في إفشاء سرك سَفْكُ دمك . وإلى ذلك يشير أبو مِحْجَن الثقفيّ بقوله

قد أَطْعَنُ الطَّعْنَةَ النَّجْلاءَ عَنْ عُرُضٍ * وأَكْتُمُ السِّرَّ فيه ضَرْبَةُ العُنُقِ

وقال الوليد بن عتبة لأبيه "إن أمير المؤمنين أسرّ إليّ حديثًا أفلا أُخْبرك به؟ قال يا بُنيّ إنّ مَن كَتَم سرّه كان الخيار له ومن أفشاه كان الخيار عليه، فلا تكُنْ مملوكا بعد أن كنتَ مالكا". وقد كانت ملوك الفرس تقول "أعظمُ الناس حقًّا على جميع الطَّبَقات مَن وَلِيَ أسرار الملوك".

واعلم أنه إذا كان إفشاء السر ربما أفضى إلى الهَلَكة خصوصا أسرارَ الملوك، فعلى صاحب هذه الوظيفة القيامُ من ذلك بواجبه وكتمانُ السِّر حتّى عن نفسه، فقد حكى صاحب "الرَّيحان والرَّيعان" أن عبدالله بن طاهر تذاكر الناس في مجلسه حفظَ السر، فقال عبد الله

ومُسْتَوْدِعِي سِرًّا تَضَمَّنْتُ سَتْرَه * فأَوْدَعْتُه في مُستَقَرِّ الحَشَا قَبْرا

فقال ابنه عبيد الله، وهو صبيّ

وما السِّرُّ من قَلْبي كَثَاوٍ بحُفْرةٍ * لأنِّي أَرى المَدْفُونَ ينتَظرُ الحَشْرَا
ولٰكِنَّنِي أُخْفِيهِ حتَّى كأنَّني * مِنَ الدَّهر يَوْمًا ما أَحَطْتُ به خُبْرَا

وعلى صاحب هـذه الرتبة الاحتياط حالة تلقّي السرّ عن الملك بأن لا يتلقّاه عنه بحضرة أحد . فقد حكى أنّ بعض ملوك العجم استشار وزيريه ، فقال أحدهما : "لا ينبغي للملك أن يستشير منّا أحدا إلا خاليا فإنه أصْوَنُ[1] للسّرّ وأحزم للرأى وأجدر بالسلامة وأعفى لبعضنا من غائلة بعض، فإن إفشاء السر إلى رجل واحد أوثق من إفشائه إلى اثنين وإفشاؤه إلى ثلاثة كإفشائه إلى جماعة ، لأن الواحد رَهْن بما أُفْشِي إليه . والثانى مُطْلَق عليه ذلك الرهن . والثالث علاوة ، وإذا كان السر عند واحد كان أحْرَى أن لا يُظْهره رغبةً أو رَهْبَةً ، وإن كان عند اثنين كان على شبهة واتسعت عن الرجلين المعاريض[2] ، فإن عاقبهما عاقب اثنين بذنب واحد ، وإن اتهمهما اتهم بريئا بجناية مُجْرِم ، وإن عفا عنهما كان العفو عن أحدهما ولا ذنْب له ، وعن الآخر ولا حجّةَ معه" .

قلت : وكما يجب عليه الاحتياط حالة تلقّي السر عن الملك فكذلك يجب عليه الاحتياط حالة إلقائه إلى كاتب يكتبه ، فلا يلقيه إلى كاتبين جميعا ، ولا يخاطب فيه أحدَهما بحضرة الآخر لتكون العهدة فى دَرَكه على واحد بعينه . على أنه ربمـا أُفْشِيَ السر مع احتراز صاحبه عن إفشائه . فقد قيـل : إن الحيطان تنقل الأخبار ، وتُفْشِي ما تَطّلع عليه من الأسرار . وقد حكى عن على بن الجَهْم أنه قال : دخلتُ على أمير المؤمنين المتوكّل فرأيت الفتح بن خاقان وزيره واقفا على غير مرتبته التي يقوم عليها ، متكئا على سيفه ، مُطْرقا إلى الأرض فأنكرت حاله ، وكنت إذا نظرت اليه نظر الخليفة إلىّ ، وإذا صرفت وجهى إلى نحو الخليفـه أطرق ، فقال لى الخليفة : "ياعلىّ أنكرت شيئا" - قلت نعم يا أمير المؤمنين ! قال : "ماهو" - قلت : وقوف الفتح بن خاقان فى غير مرتبته . - قال : سوء اختياره أقامه ذلك المقام . - قلت :

(١) فى الأصل أصون وهو تصحيف ظاهر

(٢) لعل الأظهر على

ما السبب ياأمير المؤمنين ؟ — قال : خرجتُ من عند جارية لى فأسررت إليه سرًّا فما عدانى السرّ أن عاد إلىّ . — قلت لعلك أسررت الى غيره ، — قال : ما كان هذا ! — قلت فلعل مستمعا آستمع إليكما ، — قال لا ولا هذا أيضا . قال فأطرقت مليًّا ثم رفعت رأسى ، فقلت : ياأمير المؤمنين قد وجدت له مما هو فيه مخرجا . — قال وما هو ؟ — قلت : خبر أبى الحوراء ، حدثنا أبو نُعَيم الفضلُ بن دُكَيْن قال حدّثنا المعتمر بن سليمان عن أبى الحوراء قال : طلقت آمرأتى فى نفسى وأنا بالمسجد ثم آنصرفت إلىٰ منزلى ، فقالت لى آمرأتى : طلقتنى ياأبا الحوراء ! قلت من أين لك هذا ؟ قالت حدّثتنى به جارتى الأنصاريّة قلتُ : ومِنْ أينَ لها هذا ؟ قالت ذكرتْ أنّ زوجها خبّرها بذلك قال : فغدوت علىٰ آبن عباس رضى الله عنهما فقصَصْت عليه القِصّة فقال : أمَا علمت أن وَسْواس الرجل يحدّث وَسْواس الرجل ؟ فمن هنا يفشو السر ، فضحك المتوكل ، وقال إلىّ يا فتحُ ! فصَبّ عليه خِلعة ، وحمله علىٰ فرس ، وأمر له بمال ، وأمر لى بدُونِه فآنصرفت إلىٰ منزلى ، وقد شاطرنى الفتح فيما أخذ فصار إلىّ الأكثرُ . •

قال أبو نعيم وكان فى نفسى من حديث أبى الحوراء شىء حتّى حدّثنى حمزة آبن حبيب الزيات . قال : خرجت سنةً أريد مكّة فبينا أنا فى الطريق إذ ضلّت راحلتى فخرجت أطلبُها فإذا أنا بآثنين قد قبضا علىّ أُحِسُّ حِسَّهما ولا أرى شخصهما بل أسمع كلامهما ، فأخذانى إلىٰ شيخ قاعِد وهو حَسَن الشَّيْبة فسلمت عليه فردّ علىّ السلام فأفرخ رَوْعى[1] . ثم قال من أين وإلىٰ أين ؟ قلت من الكوفة إلىٰ مكة . قال : ولِمَ تخلّفت عن أصحابك ؟ قلت ضلّتْ راحلتى فجئت أطلبُها ، فرفع رأسه الىٰ قوم عنده ، وقال : أنيخوا راحِلَتَه ، فأُنيختْ بين يدَىَّ . ثم قال : تقرأ القرآن ؟

(١) فى الأصول بالجيم وهو تصحيف وصوابه بالخاء المعجمة يقال أفرخ روعه اذا زال فزعه أنظر القاموس

قلت نعم . قال فاقرأ ، فقرأت حَم الأحقــاف حتّى أتيت ﴿ وإذْ صرَفْنَا إلَيْكَ نَفَراً مِنَ الجنِّ ﴾ فقال مكانك ، أتدرى كم كانُوا ، قلت لا . قال كُنَّا أربعــةً وكنتُ أنا المخاطِبَ عن النبى صلى الله عليه وسلم لهم ، فقلت ﴿ ياقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِىَ اللهِ ﴾ ثم قال أتقول الشعر » قلت لا . قال فترْوِيه » قلت نعم . قال هاته ، فأنشــدته قصيدة زُهَير بن أبى سُلْمىٰ «أَمِنْ أُمِّ أوفى» فقال لمن هذه» قلت لزهير بن أبى سُلْمىٰ قال الجنىّ » قلت لا بل الإنسىّ . ثم رفع رأسه الى قوم عنده ، فقال ائتُونى بزهير فأُتِىَ بشَيخ كأنه قِطعة لحم فأُلْقِى بين يديه — قال يا زهير — قال لبيك ! قال «أمن أم أوفى» لمن هى» قال لى — قال هذا حمزة الريات يذكر أنها لزُهَيْر بن أبى سُلْمىٰ ، قال صدق وصدقتُ ، قال وكيف هــذا » قال هو إلفى من الإنس وأنا تابعــه من الجنّ ، أقول الشىء فألقيه اليه فى وهمه ويقول الشىء فآخذ عنه ، فأنا قائلها فى الجنّ وهو قائلها فى الانس . قال أبو نعيم وصدق عندى حديثُ أبى الحوراء أن وَسْواس الرجل يحدّث وَسْواس الرجل .

الفصــــل الثـــالث

(فيما يتصرف فيه صاحبُ هذا الديوان بتدبيره ، ويصرّفه بقلمه .
ومتعلّق ذلك اثنا عشر أمرًا)

الأمر الأوّل

(التوقيـــع والتعييـــن)

أما التوقيع فهو الكتابة على الرّقاع والقصص بما يعتمده الكاتب من أمر الولايات والمكاتبــات فى الأمور المتعلقة بالمملكه ، والتحدّث فى المظالم ، وهو أمر جليــل ، ومنصب جليل ، إذ هو سبيل الاطلاق والمنْع ، والوصل والقطْع ، والولاية والعزل

إلىٰ عير دلك من الأمور المهمات والمتعلقات السَّنِيَّة . وآعلم أن التوقيع كان يتولاه فى آنتداء الأمر الحلفاءُ، فكان الحليفة هو الدى يُوقِّع فى الأمور السلطانيه ، ووصل المطالم، وعيرهما .

الأمر الثانى

(نطره فى الكُتُب الواردة عليه)

قال أبو الفصل الصورى ''كان الواحب أن لايقرأ الكُتُب الواردة علىٰ الملك إلا هو سفسه ، ولما كان دلك متعدرا عليه لوُفُورها ، وآتساع الدولة ، وكثرة المكاتبين من أصناف أرباب الحدَم، ووُصُول الكُتُب إليه من الأقطار النائية ، والممالك المتناعدة ، وصيق الزمان عن تفرُّعه لدلك ، وحب تفويصه إلىٰ متولّى ديوان رسائله''.

قال ''ولما كان حال متولى صاحب الديوان كدلك لأشتعاله بالحُصُور عند الملك فى نعص الأوقات لقراءة الكتب الواردة ، وتقرير مايُجاب به عن كل منها ، مع شَغْله بتصفّح مايكتَب فى الديوان والمقابلة بعد آحتاج أن يردّ أمْرَها إلىٰ كاتب يقوم مَقامَه'' علىٰ ماسيُدكر فى صفات كُتّاب الديوان فيما بعدُ إن شاء الله تعالى .

الأمر الثالث

(نطره فيما يتعلق بردّه الأحوبة عن الكُتُب الوارده علىٰ لسانه)

قال ابو الفصل الصورى ''ومن أهم ما يلزم صاحبَ هدا الديوان إشعارُ الملك مايراه من الآراء الصائبة ويعلمه أنّ من أعظمها خَطَرا أن يُصْدَر حواب كل كتاب يصل إليه فى يومه ولا يؤخَّره إلىٰ غَده ويؤرّخ فى آخره بتاريخ دلك اليوم'' فيقال ''وكُتِب فى يوم وُصُول كتابك ، وهو يوم كدا'' فإن دلك يقيم للملك هيبةً كبيرةً ، ويدل

علىٰ تطلّعه للأمور، وآنتصابه للتدبير، وقلة إهماله لأمور دولته، وكثرة احتفاله باستقامة شئونها، ويؤثّر فى نفس المكاتَبين تأثيرا كبيرا، ويستشعرون منه حَذَرا وخِيفة".
قال : "وينبغى أن يأخذ جميعَ أرباب الخِدَم فى البلاد بتاريخ كُتُبهم ويحذِّرَهم من ترك ذلك، فإن فى إهمـــاله ضررا كبيرا من حيث إنه إذا ورد غير مؤرّخ لم يعلم بُعْد العهد بما ذُكِر فيه من قُرْبه، ولا هل فات وقت النظر فيما تضمّنه أم لا، وإذا كان مؤرّخا عرف ذلك وزالت الشبهة فيه، وإذا وصل اليه كتاب آقتضى تاريخه زيادة رمنٍ علىٰ مسافة الطريق، أنكر ذلك علىٰ حامله فإن خرج عن العهدة بإقامة الحجـــة علىٰ أنه لم يتأخر به قدرا زائدا علىٰ مسافة طريقه، وأن العذر من تقدّم التاريخ قبل إرساله، أنكر ذلك علىٰ مرسله إنكارا يردَعُه عن ذلك ويزجُره عنه .

الأمر الرابـــع

(نظره فيما تتفاوت به المراتب فى المكاتَبات والوِلايات من الآفتتاح والدعاء، والألقاب، وقطع الورق ونحو ذلك)

وقد كان هذا الباب فى الزمن المتقدّم فى غاية الضَّبْط والتحرير، خصوصًا فى زمن الخُلَفاء من بنى العبـــاس والفاطميين. لا يُزاد أحد فى الألقاب علىٰ مالقّبه به الخليفة كبيرا كان أو صغيرا، ولا يُسمَح له بزيادة الدعوة الواحدة فضلا عما فوقها . أما الآن فقد صار ذلك موكولا إلىٰ نظر صاحب ديوان الإنشاء بتنزيل كل أحد من المكاتَبين وأرباب الولايات مَنْزِلتـــه علىٰ ما تقتضيه مصطلح الزمان من علوٍ وهُبوط ، وحينئذ فعليـــه أن يحتاط فى ذلك ويؤاخذ كُتّاب الإنشاء بالمسامحة فيه . والوقوف عند ماحُدّ لهم من غير إفراط ولا تفريط . فقد قال صاحب موادّ البيان "إن الملوك تسمح ببَدَرات المال ، ولا تسمَحُ بالدعوة الواحدة" وناهيك بذلك تسديدا وآحتياطا .

الأمر الخامس

(نظره فيما يُكتَب من ديوانه وتصفُّحه قبل إخراجه من الديوان)

قال أبو الفضل الصورى " علىٰ متولِّى الديوان أن يتصفح ما يُكتَب من ديوانه من الوِلايات والمَنَاشير والمُكاتَبات ، إذ الكاتب غير معصوم من الخطإ واللحن وسبق القلم ، وعيب الإنسان يَظْهر منه لغيره مالا يَظْهَر له ، فما أبصره من لحن أو خطإ أصلحه ونبه كاتبه عليه فيحْذَر من مثله فيما يستأنفه ، فإنْ تكرر منه زجَره عن ذلك ، وردَعه عن العَوْد إلىٰ مثله ، إذ الغرض الأعظم أن يكون كلُّ ما يُكتَب عن الملك كاملَ الفضيلة خطًّا ولفظًا ومعنًى وإعرابًا حتّٰى لايجد طاعن فيه مَطْعَنًا ، فربما زَلَّ الكاتب فى شىء فيَزِل بسببه متولِّى الديوان ، بل السلطان ، بل الدولة بأسرها . قال وإذا فرغ من عَرْض الكتاب والوقوفِ عليه ، كتب عليه بخطه ما يدلُّ علىٰ وقوفه عليه ليكونَ ملتزما بدَرَكه " .

وكأنه يشير إلىٰ ماتقدّم من كلامه من أنه إن كان رسالة كتب عنوانها بخطه ، وإن كان منشورًا ونحوه ، كتب تاريخه بخطه .

ثم قال " فإن كان متولِّى الديوان مشتغلا بحُضُور مجلس السلطان ومخاطَبَاته والتلقِّى عنه ، ولا يمكنه مع ضِيق الزمان توفية كلِّ ما يُكتَب بالديوان حقَّ النظر فيه وتصفُّحُ ألفاظه ومعانيه ، نصب له فى ذلك نائبًا كاملَ الصنعة حسَنَ الفِطْنة موثوقًا به فيما يأتى ويذَر، يقوم مَقَامه فى ذلك " . قال " وليس ذلك لأنه يغنى عن نظر متولى الديوان ، ولكن ليتحمل عنه أكثرَ الكل ويصيرَ إليه وقد قارب الصحةَ أو بلغها فيحصُل علىٰ الراحة من تعبها ، ويصرف نظره إلىٰ ما لعله خفى علىٰ المتصفح من دقائق المعانى وعَوِيص[1] المَدارك ، فيقلّ زمن النظر فيه ، ويظفر بالغرض المطلوب فى أقربِ وقت " .

---

(١) العويص بالصاد المهملة وهو ما يعسر فهمه ، وما عداه فى الأصول تصحيف

الأمر السادس

(نظره فى أمر البريد ومتعلقاته، وهو من أعظم مهمات السلطان، وآكد روابط الملك)

قال زياد لحاجبه . "وَلَّيتك حِجابى وعزلتك عن أربع هذا المنادى إلىٰ الله فى الصلاة والفَلاح فلا تَعُوجَنَّه عنى ، ولا سلطان لك عليه ، وصاحبُ الطعام ، فإن الطعام إذا أُعيد تسخينه فسدَ ، وطارقُ الليل فلا تحجُبْه فشرٌّ ما جاء به ، ولو كان خيرا ما جاء فى تلك الساعة ، ورسولُ الثَّغْر ، فإنه ان أبطأ ساعة أفسد عمل سنة فأدخِلْه علىّ ولو كنت فى لِحافى" . وقد تقدم أن صاحب ديوان الإنشاء هو الذى يتلقّى المكاتبات الوارده ويقرؤها علىٰ السلطان ويجاوبُ عنها ، فيجب علىٰ صاحب هذه الوظيفة أن يكون متيقِّظا لما يَرِدُ على السلطان من نواحى ممالكه وقاصيات أعمالِه فإنه المعتمد عليه فى ذلك والمعوَّل عليه فى أمره .

وقد كان أمرُ البريد فى الزمن المتقدم والدواداريّة يومئذ أمراء صغار وأجناد معدّون لصاحب ديوان الإنشاء ، تخرج رسالة السلطان علىٰ لسان بعض الدوادارية بما يرسُم به لمن يركب البريد فى المهمات السلطانيه وغيرها ويأتى بها إلى صاحب ديوان الإنشاء فيعلق رسالته علىٰ ما تقدم فى تعليق الرسالة ويعمل بمقتضاها . وكان للبريد ألواح من نُحاس كلُّ لوح منها بقدر راحة الكف أو نحوها منقوش على أحد وجهَيْه ألقابُ السلطان ، وعلىٰ الوجه الآخر لا إله إلا الله محمد رسولُ الله أرْسله بالهدىٰ ودينِ الحقِّ ليُظْهِره علىٰ الدينِ كُلِّه ولو كَرِه المُشْرِكون . وفى رقبته شَرّابة من حرير أصفر يجعلها راكب البريد فى عنقه ويرسل اللوح على صدره علامة له . فإذا حضرت الرسالة إلىٰ كاتب السر دفع إلىٰ البريدى لوحا من تلك الألواح وكتب له ورقة بخطه إلىٰ أمير آخور البريد بالإصطبل السلطانى تتضمن رسالة من الخيل .

ويكتبُ ٱسمَه فى آخر الكتاب الذى يُنْفَذ معه بين السطور، ويختِم الكتاب، ويُسَلِّم اليه، ويكتب له ورقة طريق بالتوجه إلىٰ جهة قصده، وحَمْلِه علىٰ ما رُسِم له به من خيل البريد علىٰ ما سيأتى ذكره فى الكلام علىٰ كتابة أوراق الطريق، ويترك ٱسمَه وتاريخ سَفرِه، والجهةَ التى توجه إليها، والشُّغْل الذى توجه بسببه بدفترٍ بالديوان .

فلما عظم أمر الدوادارِيَّة وٱستقرّ عند الدوادار كاتبٌ من كُتَّاب الدَّسْت يعَلِّق عنه الرسالة علىٰ ما تقدّم فى الكلام علىٰ تعليق الرسالة، رجع أكثرُ الأمر فى ذلك إلىٰ الدَّوادار، وصار كاتبُ الدَّسْت الذى يخدُمه يعلِّق الرسالة عنه بذلك كما يعلِّقها عنه فى غيره علىٰ ما تقدّم . فإن كان البريد إلىٰ جهة الشام كتب فى ورقه لطيفة برسم رسالة المقرّ المخدوم الفلانى أمير دوادار الناصرى أو الظاهرىّ مثلا أعز الله تعالىٰ أنصاره أن يكتب ورقة طريق شريفة باسم فلان الفلانى المرسومِ له بالتوجه إلىٰ الجهة الفلانية، ويُحْمَل علىٰ فرس أو فرسين أو أكثر من خيل البريد . ثم يؤرّخ . وإن كان البريد إلىٰ الوجه القبلىّ أو البحرىّ أو غير ذلك كتب أن يكتب ورقة فرس بريد باسم فلان الفلانى من غير تعرّض لذكر ورقة طريق، والباقى الكلام علىٰ نحو ما تقدّم، ويؤرّخ ويجهّز تلك الورقة صحبة البَرِيدىّ إلىٰ صاحب ديوان الإنشاء فيخلِّد الورقة بديوانه عند دواداره فى جملة أَضَابِيرِ الديوان، ويكتب له فى ورقه صغيرة أيضا ما مثاله أميراخور البريد المنصور، يُحمل فلانُ الفلانىُّ علىٰ فرس واحد أو أكثر من خيل البريد المنصور عند توجهه إلىٰ الجهة الفلانية ويؤرّخ، ويدفع إلىٰ البريدىّ ليدفعها إلىٰ أميراخور البريد تخلَّد عنده ، ويكتب اسم البريدىّ فى آخر الكتاب علىٰ ما سيأتى فى أوّل المكاتبات إن شاء الله تعالىٰ، ويُختَم الكتاب ويدفع اليه .

قلت: وقد بطل الآن ما كان من أمر الألواح وتركت، وصار كل بريدىّ عنده شُرَّابة حرير صفراءُ يجعلها فى عنقه من غير لوح. اللهم إلا أن يتوجه البريدىّ إلىٰ مملكة من الممالك النائية، فيحتاج إلىٰ اللوح لتعارف أمر المملكة القديمه. وكذلك الحكم فيمن يتوجه إلىٰ الأبواب السلطانيــة من نيــابة من نيابات المملكة فى ورقه الطريق وخيــل البريد. ولصاحب ديوان الإنشــاء التنبُّه علىٰ مصالح مراكز خيل البريد فى الديار المصرية وغيرها.

وسيأتى الكلام علىٰ مراكز البريد بمصروالشام، مفصلة فى مواضعها إن شاء الله تعالىٰ.

وٱعلم أنه يجب علىٰ الناظر فى أمر البريد من الملك فمن دونه أن يحتــاط فيمن يرسله فى الأمور السلطانية، فيوجه فى كل قضيه من يقوم بكفايتها وينهض بأعبائها، ويختصّ الملوكَ وأكابرَ النوّاب بأكابر البريدية وعقلائهم وأصحاب التَّجارب منهــم، خصوصا فى المهمات العظيمه التى يحتاج الرسول فيها إلىٰ تنميق الكلام، وتحســين العبارة، وسمــاع شبهه المُرْسَــل إليه[1]، وردّ جوابه وإقامة الحجة عليــه، فإنه يقال يُستَدَلُّ علىٰ عقل الرجل بكتابه وبرسوله. وقد قيل: من الحق علىٰ رسول الملك أن يكون صحيحَ الفِكْرة والمِزَاج، ذا بيانٍ وعارضــةٍ وأناةٍ وٱستحكامِ سمعه. وأن يكون بصيرا بمخارج الكلام وأجوبته، مؤدّيا للألفاظ عـــن الملك بمعانيها، صدوقا بريئا من الطمع. وعلىٰ مرســله ٱمتحانه قبل توجيهه فى مهماته، ولا يُرسل إلىٰ الملوك الأجانب، إلا من ٱختبره بتكرير الرسائل إلىٰ نوابه وأهل مملكته. فقــد كان الملوك فيما سلف من الفرس إذا آثروا إرسال شخص لمهم، قدموا ٱمتحانه برسالة إلىٰ بعض خواص الملك ممن فى [illegible] داره، [illegible] ثم جعل عليه عينا [illegible] من حيث لا يشــعر، فإذا أدّى الرسول رسالته رجع جوابها وسأل الملك عينه، فإن

(١) [illegible]

طابق ما قاله الرسول ما أتىٰ به من هو عَيْن عليــه وتكرر ذلك منه، صارت له المِيزةُ والتَّقْدِمة عند الملك ووجَّهه حينئذ فى مهمّات أموره .

وكان أردشير بن بابك آخرُ ملوك الفرس يقول "حقٌّ علىٰ الملك الحازم إذا وَجَّه رسولا إلىٰ ملك أن يُرْدِفه بآخَر، وإن وَجَّه برسولين وجَّه بعدهما باثنين، وإن أمكنه أن لا يجمع بين رُسُله فى طريقٍ فعل" .

ومن الحزم أن الرسول إذا أتاه برسالة أو كتاب فى خير أو شر أن لا يُحْدث فى ذلك شيئا حتّٰى يُرْسل مع رسول آخر يحكى له كتابه أو رسالته حرفًا حرفًا ومعنًى معنًى فإن الرسول ربما فاته بعضُ ما يؤمِّله فانتحل الكُتُب، وغيَّر ما شُوفِهَ به فأفسد ما بَيْن المُرْسِل والمرسَل إليــه من ملك أو نائب ونحوهما، وربمــا أدّىٰ ذلك إلىٰ وقوع فتنة بين المَلِكين، أو خروج النائب عن الطاعة وتفاقَمَ الأمر بسبب ذلك وسرىٰ إلىٰ ما لا يمكن تداركه .

وقد حكى أن الإسكندر وجَّه رسولا إلىٰ بعض ملوك الشرق فجــاء برسالة شكَّ الإسكندر فى حرف منها فقال له "وَيْلَك ! إن الملوك لا تخلو من مقوِّم ومسـدِّد إذا مالت وقد جئتنى برسالة صحيحة الألفاظ بينة المعــانى، وقد وجدتُ فيها حرفًا ينقضُها، أفعلىٰ يقين أنت من هذا الحرف أم شاكٌّ فيه ؟ فقال بل علىٰ يقين منه أنه قاله . فأمر الإسكندر أن تُكتَب الألفاظ حرفًا حرفًا ويعاد إلىٰ الملك الذى جاء ذلك الرسول من عنده مع رسولٍ آخر فيُقرأ عليه ويتَرْجَمَ له . فلمــا وصل الرسول الثانى إلىٰ ذلك الملك وقرأ عليه ما كَتَب اليه به الاسكندر فى أمر ذلك الرســول، أنكر ذلك الحرَف الذى أنكره الإسكندر وقال للترجم "ضَعْ يدك علىٰ هذا الحرف" فوضــعها فأمر أن يُعَلَّم بعلامة وقال "إنى أُجِلّ ما وصــل عن الملك أن أقطعه بالسِّكّين، ولكن ليصَعْ هو فيه وفى قائله ما شاء" . وكتب إلىٰ الإســكندر "إن من أُسِّ المملكة صحةَ لَهْجة الرســول، إذ كان عن لسانه ينطق، وإلىٰ أذنه

يؤدّى". فلما عاد الرسول إلى الإسكندر دعا برسوله الأوّل وقال "ما حملك على كلمة قصدتَ بها إفساد ما بين ملكين؟" فأقرّ أن ذلك كان منه لتقصير رآه من الملك، فقال له الإسكندر "فأراك قد سعيت لنفسك لا لنا! فأتلفتَ ما أمّلتَ مما لا تستحقه على من أُرسلت إليه فجعلت ذلك ثأرا تُوقِعه فى الأنفس الخطيرة الرفيعة! ثم أمر بلسانه فنزع من قفاه." وكأنه رأى إتلاف نفس واحدة أولى من إتلاف نفوس كثيرة بما كان يُوقِعه بين الملكين من العداوة ويثير من الإحَن وضغائن الصُّدُور.

وقد كان أردشير بن بابك يقول "كم من دمٍ سفكه الرسولُ بغير حلّه! وكم من جُيُوش هُزِمت وقُتِل أكثرها! وكم حُرْمة انتُهِكت! وكم مالٍ نُهِب وعقد نُقِض بخيانة الرسُل وأكاذيب ما يأتون به!".

الأمر السابع

(نظر فى أمر أبراج الحمام ومتعلّقاته)

سيأتى فيما بعدُ إن شاء الله تعالى أن بالديار المصرية أبراجا للحمام الرسائلىّ يحمل البطائق فى أجنحته من مكان إلى مكان، منها برجٌ بقلعة الجبل. وأبراجٌ بطريق الشام بمدينة بِلبِيس، وأبراجٌ بطريق الإسكندرية وكان قبل ذلك يدرج إلى قوص، ومنها إلى أسوان وعَيْذاب ما نطع ذلك الآن[1]. ومن كل برج ينقل منه فى كل يوم إلى البرج الذى يليه ليطلب برجه الذى هو مستوطنه إذا أُرسل. فإذا عرض أمرٌ مهم أو ورد بريد أو غيره ممن[2] يحتاج إلى مطالعة الأبواب السلطانية به إلى مكان من الأمكنة التى فيها برج من أبراج الحمام، كتب ونبّه المتحدّث فيها بذلك للأبواب السلطانية، وبعث به على أجنحة الحمام. وقد جرت العادة

(١) كذا فى الأصل ولعله «انقطع ذلك الآن».
(٢) صوابه «مما» كما هو واضح.

أن تكتب بطاقتان وتُؤرَّخان بساعة كتابتهما من النهار، ويعلَّق كل منهما فى جناح طائر من الحمام الرسائلىّ ويُرْسَلان، ولا يكتفىٰ بواحد لاحتمال أن يعرض له عارض يمنعه من الوصول إلىٰ مقْصِده. فاذا وصل الطائر إلىٰ البرج الذى وُجِّه به اليه، أمسكه البَرَّاج وأخذ البِطاقةَ من جناحه وعَلَّقها بجناح طائر من حمام البُرْج الذى يليه أى من المَنْقول إلىٰ ذلك البرج، وعلىٰ ذلك حتّىٰ ينتهى إلىٰ برج القلعة فيأخُذُ البَرَّاج الطائرَ والبِطاقةُ فى جناحه ويُحْضِرُه بين يَدَىِ الدَّوادار الكبير فيُعرَض عليه، فينزع البطاقة عن جناحه بيده. فإن كان الأمر الذى حضرت البِطاقة بسببه خفيفا لا يحتاج إلىٰ مُطالَعــة السلطان به، ٱستقلَّ الدوادار به، وإن كان مهمًّا يحتاج إلىٰ إعلام السلطان به، ٱستدعى كاتبَ السر وطالع لقراءة البطاقة علىٰ السلطان كما يفعل فى المكاتَبَات الوارده. وكذلك الحكم فيما يطرأ من المهمَّات بالأبواب الســلطانية فإنّه يوجَّه بالحمــام من برج القلعة إلىٰ الجهة المتعلِّقة بذلك المهــم. وفى معنىٰ ذلك كل نيابة من النيابات العِظام بالممالك الشاميه كدِمَشْق، وحَلَبَ، وطَرَابُلُس ونحوها مع ما تحتها من النيابات الصغار والولايات، علىٰ ما سيأتى ذكره فى مواضعه إن شاء الله تعــالى.

الأمر الثــامن

(نظر فى أمور البــــداوية)

وهم طائفة من الإسمــاعيلية المنتسبين إلىٰ إسمــاعيل بن جَعْفرٍ الصادق بنِ محمدٍ الباقر بنِ علىّ زين العابدين بنِ الحسين السِّــبط ابنِ علىّ بن أبى طــالب كرم الله وجهه، من فاطمه بنت رسول الله، صلى الله عليه وسلم. وهم فِرْقة من الشِّيعه مُعتَقَدُهم معتقَدُ غيرهم من سائر الشِّيعة أن الإمامة بعــد النبى صلى الله عليه وســلم

انتقلتْ بالنص إلىٰ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، ثم إلىٰ ابنه الحسن، ثم إلىٰ
أخيه الحسين، ثم تنقّلتْ في بني الحُسَين إلىٰ جعفر الصادق، ثم هم يدّعُون انتقالَ
الإمامة من جعفر الصادق إلىٰ ابنه إسماعيل، ثم تنقلت في بنيه .

وسُمُّوا الفِداوية لأنهم يُفادُون بالمال علىٰ مَن يقتُلونه . ويُسمَّوْن في بلاد العجم
بالباطنية لأنهم يُبطِنون مذهبهم ويُخفُونه، وتارة بالمَلاحدة لأن مذهبهم كلَّه إلحاد .
وهم يُسمُّون أنفسهم أصحابَ الدعوة الهادية . وسيأتي الكلام عند ذكر تحليفهم
في الكلام علىٰ الأيمان إن شاء الله تعالىٰ . وكانوا في الزمن المتقدّم قد علتْ كلمتُهم،
واشتدَّتْ شَكيمتُهم، وقَوِيتْ شوكَتُهم، واستولَوْا علىٰ عِدّة قلاع ببلاد العجم وبلاد
الشأم . فأمّا بلاد العجم فكان بداية قوتهم وانتشارُ دعوتهم في دولة السلطان ملكشاه
السلجوقيّ في المائة الخامسة . وذلك أنه كان من مقدَّميهم رجل اسمه عطاش فنشأ
له ولد يسمّى أحمد فتقدّم في مذهبهم وارتفع شأنه فيهم، والتفّ به مَنْ في بلاد العجم
منهم، فغلب علىٰ قلعة بأصْبَهان، كان قد بناها السلطان ملكشاه المقدّم ذكره،
وقلعةٍ بالطالَقان تعرف بقلعة الموت . وكان من تلامذته رجل يقال له الحسن بن
الصباح ذو شهامة وتقدُّم في علم الهندسة والحساب والنجوم والسِّحر . فقام بالدعوة
للخلفاء الفاطميين . وهم من جملة طوائف الإسماعيلية . فجهّز الحسن بن الصباح نفسه
هاربًا إلىٰ مصر، وبها يومئذ المستنصر بالله خامس خلفاء الفاطميين فأكرمه وأحسن
نُزُله، وأمره بأن يخرج إلىٰ البلاد للدعوة إلىٰ إمامته فأجابه إلىٰ ذلك . وسأله من الإمام
بعده، فقال له ابني نزار وهو الذي تنسب إليه النزارية منهم . فخرج ابن الصَّبّاح من
مصر وسار إلىٰ الشام والجزيرة وديار بكر وبلاد الروم يدعو إلىٰ إمامة المستنصر .
ثم ابنه نزار من بعده . وسار إلىٰ خُرَاسان [illegible] وما وراء النهر . فدخل كاشْغَر
يدعو إلىٰ ذلك . ثم عاد إلىٰ الطالقان واستولىٰ علىٰ قلعة الموت في سنة ثلاث وثمانين

وأربعمائة ، ثم آستولى علىٰ قلعة أصْبهان وآستصاف اليها عِدّة قلاع بتلك النواحى فى سنة تسع وتسعين وأربعمائة، وقويتْ شوكة هذه الطائفة بتلك البلاد، وعَظُم أمرها، وخافها الملوكُ وسائر الناس، وبقى آبن الصباح علىٰ ذلك حتّى مات فى سنة ثمانَ عشرةَ وخمسمائة . وتنقّلت تلك القلاعُ بعدَه حتّى صار أمرها إلىٰ شخص من عقبه يسمّى جلالَ الدين بن حسن ألكيا الصبّاحىّ فأظهر التوبة فى سنة سبع وخمسين وخمسمائة، وبقِيَ علىٰ ذلك إلىٰ سنة ثمان وستمائة، فأظهر شعائر الإسلام، وكتب إلىٰ جميع قلاع الإسماعيلية ببلاد العجم والشام، فأقيمت فيها، وبقى حتى توفّى سنة ثمانَ عشرةَ وستمائة، وقام بعده آبنه علاءُ الدين محمد، وتداول مقدّموهم تلك القلاع إلىٰ أن خرج هُولاكو علىٰ بلاد العجم فى سنة ست وخمسين وستمائة باستصراخ أهل تلك البلاد من عَيْثهم وفسادهم، فخرّب قِلَاعهم عن آخرها .

وأما بلاد الشأم فكان أوّل قوتهم بها أنه دخل منهم إلىٰ الشأم رجل يسمى بَهْرام بعد قتل خاله إبراهيم الأسداباذى ببغداد فى أيام تاج الملوك بورى صاحب الشام، وصار إلىٰ دمشق ودعا إلىٰ مذهبه بها؛ وعاضده سعيد المزدغانىّ وزيرُ بورى حتّى علتْ كلمته فى دِمَشْق وسلم له قلعة بانياس[1]، فعظُم أمر بَهْرام وملك عدّة حصون بالجبال أظهرها القلاع المعروفة بهم إلىٰ الآن، وهى سبع قلاع بين حماة وحمص متصلة بالبحر الرومىّ على القُرب من طَرَابُلُس وهى مِصْياف، والرُّصافه ، والخَوَابى ، والقُدْموس، والكَهْف، والعليقه، والمينقة، ومن هنا سمّيتْ بقلاع الدعوه . وكان آخر الأمر من بهرام أنه قُتِل فى حرب جرتْ بينه وبين أهل وادى التَّيْم، وقام مقامه بقلعة بانياس[1] رجل منهم آسمه إسماعيل،وأقام الوزيرُ المزدغانىُّ عوض بهرام بدمشق رجلا منهم آسمه أبو الوفاء فعظُم أمره بدمشق حتّى صار الحكم له بها، وهمّ بتسليمها

(١) لعلها بلنياس قال ياقوت كورة ومدينة صغيرة وحصن بسواحل حمص

للفرنج على أن يسلّموا له صُوَرَ عوضًا منها، فشَعَر به نورى صاحب دمشق فقتله وقتل وزيرَه المزدغانىّ ومَنْ كان بدمشق من هـــذه الطائفة. ولم يزل أمرهم يتنقّل بالشام لواحد بعد واحد من مقدَّميهم إلى أن كان المقـــدَّمَ عليهم فى أيام الســـلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب أبو الحسن راشدُ الدين سِنانُ البصرىّ وكان بينهم وبين السلطان صلاح الدين منابذةٌ ووثبوا عليه مراتٍ ليقتُلوه فلم يظْفَروا بذلك إلى أن حاصر قِلَاعهم فى ســـنة آثنتين وسبعين وخمسمائة وضيق عليهم، فسألوه الصَّفْح عنهم فأجابهم إلى ذلك وبقى راشدُ الدين سنانُ مقدَّما عليهم حتّى مات فى سنة ثمـــان وثمـــانين وخمسمائة.

قال فى مسالك الأبصار "وهم يعتقدون أن كل مَنْ مَلك مصر كان مظْهَرا لهم، ولذلك يتولَّوْنه ويَرَوْن إتلاف نفوسهم فى طاعته لمـــا ينتقل إليـــه من النعيم الأكبر بزعمهمْ". قال "ولصاحب مصر بمشايعتهم مزيَّةٌ يخافه بها أعداؤه[1] لأنه يرسل منهم مَنْ يقتله ولا يبالى أن يُقْتَل بعده. ومَنْ بعثه إلى عدوّ له فخَسَ عن قتله قتله أهلُه إذا عاد إليهم، وإن هرب تبعوه وقتلوه".

قلت وكانوا فى الزمن المتقدّم يُسمُّون كبيرَهم المحدِّث عليهم تارة مقدَّم الفداويّة، وتارة شيخ الفِداويَّة. أما الآن فقد سَمَّوْا أنفسهم بالمجاهدين وكبيرهم بأتابك المجاهدين. وقد كانت السلاطين فى الزمن المتقدّم تمنع هؤلاء من مخالطة الناس فلا يخرجون من بلادهم إلى غيرها الا من رُسِم له بالخروج لمهمّ يتعلق بالسلطان ولا يُمكَّن أحدٌ من التجار من الدُّخُول إلى بلادهم لشراء قماش وغيره. وكان يكتب بذلك مراسيم من ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية و[illegible] إن شاء الله إيراد شيء من نسخ هذه المراسيم عند ذكر [illegible] إن شاء الله تعالى.

(١) لعله بدون إيراد

الأمر التاسع

(نظره فى أمر العيون والجواسيس)

وهو جزء عظيم من أُسِّ المُلك وعِماد المملكة . وعلىٰ صاحب ديوان الإنشاء مَدارُه وإليه رجوع تدبيره وٱختيارُ رجاله وتصريفُهم . فيجب عليه الٱحتياط فى أمر الجواسيس أكثَرَ مما يَحْتاط فى أمر البريديَّة والرُّسُل لأن الرسول قد يتوجه إلىٰ الصديق وقد يتوجه إلىٰ العدوّ والجاسوسُ لا يتوجه إلا إلىٰ العدوّ ، وإذا وَثِق بجاسوسه فإنه إلىٰ ما يأتى به صائر ، وعليه معتمد ، وبه فاعل .

وقد شرطوا فى الجاسوس شروطا

منها أن يكون ممن يُوثَق بنصيحته وصدقه ، فإن الظنين لا يُنتفَع بخبره وإن كان صادقًا لأنه ربما أخبر بالصدق فاتُّهِم فيه فتفوت فيه المصلحة . بل ربما آثر الضررَ لمن هو عَيْن له إذ المتهم فى الحقيقة عينٌ عليك لاعَوْن لك . وكيف يكون المتهم أمينا ! لاسيما فيما يصرف فيه جليلِ الأموال من القضايا العظيمة إن سلمت نفيسات النفوس .

ومنها أن يكون ذا حَدْس صائب وفِراسة تامة ليدرك بوُفُور عقله وصائب حَدْسه من أحوال العدوّ بالمشاهدة ما كتموه عن النطق به ، ويستدلّ فيما هو فيه ببعض الأمور علىٰ بعض فإذا تفرّس فى قضية ولاح له أمر آخر يعضدها قوِىَ بحثُه فيها بانضمام بعض القرائن إلىٰ بعض .

ومنها أن يكون كثير الدَّهاء والحيل والخديعة ليتوصل بدهائه إلىٰ كل موصل ، ويدخل بحيلته فى كل مَدْخَل ، ويدرك مقْصده من أىّ طريق أمكنه . فإنه متىٰ كان قاصرا فى هذا الباب أوشك أن يقع ظَفَر العدوّ به أو يعودَ صِفْر اليدين من طَلِبته .

ومنها أن يكون له دُرْبةٌ بالأسفار ومعرفةٌ بالبلاد التي يتوجه إليها ليكون أغنى له عن السؤال عنها وعن أهلها، فربما كان في السؤال تنبّه له وتيقّظ لأمره فيكون ذلك سببا لهلاكه، بل ربما وقع في العقوبة وسُئل عن حال مملكته فدلّ عليه وكان عَيْنا عليه لا له .

ومنها أن يكون عارفا بلسان أهل البلاد التي يتوجه إليها ليَلْتقط ما يقع من الكلام فيما ذهب بسببه ممّن يخالطه من أهل تلك المملكة وسُكّان البلاد العالمين بأخبارها . ولا يكون مع ذلك ممن يُتَّهم بمُمَالأة أهل ذلك اللسان من حيث إن الغالب على أهل كل لسان اتحادُ الجنس، والجنسيّةُ علة الضم .

ومنها أن يكون صَبُورا على ما لعله يصير إليه من عُقوبة إن ظفر به العدوّ بحيث لا يخبر بأحوال مُرسِله ولا يُطْلِع على وَهْن في مملكته، فإن ذلك لا يخلّصه من يد عدوّه، ولا يدفع سطوته عنه . بل ولا يعترف أنه جاسوس أصلا، فإن ذلك مما يحتّم هلاكه ويُفضي إلى حَتْفه إلى غير ذلك من الأمور التي لا يسع تتبعها . فإذا وَجَدَ من العيون والجواسيس مَنْ هو مستكمل لهذه الشروط وهو في معناه، فعليه أن يُظْهر لهم الوُدّ والمصافاة ولا يطلع أحدا منهم في زمن تخوّفه له أنه يتهمه ولا أنه غير مأمون لديه، فربما أدّاه ذلك في أضيق الأوقات أن يكون عينا عليه، فإن الضرورة قد تلجئه لمثل ذلك، خصوصا [illegible] مع ما هو عليه من الضرورة، والضرورة قد تحمل [illegible] الأمور . ويُجْزِل لهم الإحسان والبرّ . ولا يُغْفِل [illegible] فيسأل [illegible] . ويزيد في ذلك عند توجههم إلى المهمات . [illegible] في حضورهم [illegible] ليملك بذلك قلوبهم ويستقصي به خواطرهم . [illegible] على من [illegible] أحسنَ إلى من خلّفه من أهله، وجعل لهم من [illegible] من الإحسان ما كان يجعله له

ادا ورد سفسه عليه ليكون دلك داعيا لعيره علىٰ النصيحة . وإن قُدِّر أنْ عاد منهم أحد عيرَ طاوٍ بقَصْـد أو حاصل على طِلبةٍ وهو ثقة، فلا يستَوْحِش منـه بل يُوليه الجميل، ويعامله بالإحسان، فانه إن لم يحَعِ المرّةَ يحع الأخرىٰ . وعليـه أن يحترز عن أن تعرِف حواسيسُه بعضُهم بعضا لا سيما عند التوحه للمهمّات . وإن آستطاع أن لا يجعل بينه وبينهم واسطةً فعل، وإن لم يمكنه دلك جعل لكل واحد منهم رجلا من بعض خاصته يتولّى إيصاله إليه فإنه إدا علم بعضهم ببعض ربما أظهره، بخلاف ما إدا آختص الواحدَ بالسرّ . وأيضا فانه لا يؤمَن آتفاقهم عليـه وممالأتهم لعدوّه . وكدلك يحترز عن تعرّف أحد من عسكره عيونَه وحواسيسَه، فان دلك ربمـا يؤدّى إلىٰ آنتشار السرّ والعَوْدِ بالمَفْسدة . وعليه أن يصعىٰ إلى مايلقيه إليه كلٌّ من حواسيسه وعيونه وإن آختلفتْ أخبارُهم ويأخُد بالأحوط فيما يؤدّيه إليـه آجتهاده من دلك ولايجعل إختلافهم دىا لأحد منهم، فقد تختلف أخبارهم وكل منهم صادق فيمايقوله، إد كل واحد قد يرىٰ ما لا يرىٰ الآخرُ، ويسمعُ ما لا يسمعه . وإدا عثر علىٰ أحد من حواسيسه بزلّة فليستُرْها عنه وعليه، ولا يُعاقبه على دلك ولا يوبِّخه عليه فان وبَّخه فى خلوه فلطف مدكرا له أمر الآخرة وما فى ممـالأة العدو والخيانة من الوبال فى الآخره . ولا بأس بأن يُجْرى له دكر ما عليه من مصافاته ومودّته وأنه مع العدوّ على غَرَرٍ لا يدرى ما هو صائر إليه، فان دلك أدعىٰ لآستصلاحه . ولا شك أن آستصلاحه إمّا فى الوقت أو فيما بعدُ خير من ثبات فساده، فربما أدّاه دلك الى ممالأة العدوّ ومباطَنته، لا سيما اداكان العدوّ معروفا بالحلم والصفح، وكثرة البدل والعطاء . وإدا حضر اليه جاسوس بخبر عن عدوّه آستعمل فيه التثبت ودوامَ السِّتر ولا يُظْهِر بهاقا بابه بطهر معه الخفّه، ولا إعراضا عنه بفوت معه بادر المباحثه . ولا يُظْهِر له كراهة ما يأتيه به من الأخبار المكروهه فان دلك مما يستدعى فيه كتمان السرّ عنه فلا يكره فيؤدّى الى الإضرار به .

وقد حكى عن بعض الملوك أنه كان يعطى من يأتيه بالأخبار المكروهة من الجواسيس أكثَرَ مما يعطى من يأتيه بالأخبار السارّة .

واعلم أنه لا يمكن أحدا ممن[1] يمنع بلاده أو عسكره من جواسيس عدوّه . فيجب الاحتراز منهم بكتمان السرّ وسَتْر العوره ما أمكنه ، على أنه ربما دعت الضرورة فى بعض الأحيان إلىٰ أن يعرّف الملكُ عدوَّه بعض أموره علىٰ حقيقته لأمر يحاول به مكيدته . والطريق فى ذلك أن يتلطف الى أن يصيِّرَ جاسوسَ عدوّه جاسوسا له بأن يتودّد اليه بالاستمالة والبرّ وكثرة البذل حتّٰى يستخرج نصيحته ، فحينئذ يلقى إليه ما أراد تبليغه إلىٰ صاحبه الأوّل مما فيه المكيدة فيوصله إليه فيكون أقرَب لقبوله من بلوغه له من غيره ممن يتّهمه .

الأمر العاشر

(نظره فى أمور القُصّاد الذين يسافرون بالملَطّفات من الكتب
عند تعذر وصول البُرُد الى ناحية من النواحى)

وهو من أعظم مهمات السلطنة وآكدها . وقد ذكر ابن الأثير فى تاريخه أن أوّل مَن اتخذ السُّعاة من الملوك معزُّالدولة بن بويه أوّلُ ملوك الديلم بعدالثلاثين والثلثمائة

وكان سبب ذلك أنه كان ببغداد ، وأخوه ركنُ الدولة ابن بويه بأصبهان ومامعها فأراد معز الدولة سُرعةَ إعلام أخيه ركنِ الدولة بتجدّدات الأخبار فأحدث السُّعاةَ وانتشىٰ فى أيامه ساعيان اسم أحدهما فضل والآخرِ مرعوش ، وكان أحدهما ساعيَ السُّنة والآخرُ ساعى الشِّيعة ، وتعصّب لكل منهما فرقة ، وبلغ من شأنهما أن كل

---

(١) كذا فى الأصل . ولعل صوابه "لا يمكن أحدا أن يمنع الخ" مصححه

واحد مهما كان يسير فى كل يوم نيفًا وأربعين فرسخا ، واستمر حكم السعاة ببغداد إلىٰ زماننا حتى إن منهم ساعيين لركاب السلطان يمشيان أمامه فى المواكب وغيرها علىٰ قرب .

قلت "وقد رأيتهما فى خدمة السلطان أحمد بن أويس صاحب بغداد حين قدم مصر فى دولة الظاهر برقوق فارًا من تمر" . أما الديار المصرية فإنه لا يتعاطىٰ ذلك عندهم إلا حفاف الشباب من مكارية الدواب ونحوهم ممن يعتاد شدة العَدْو إلا أنه إذا طرأ مهم سلطانى يقتضى إيصال ملطف مكاتبة عن الأبواب السلطانية إلىٰ بعض النواحى وتعذر إيصاله علىٰ البريد لحيلولة عدو فى الطريق أو انقطاع خيل البريد من المراكز السلطانية لعارض ، انتدب كاتب السر بأمر السلطان مَنْ يُعْرَف بسرعة المشى وشدة العدو للسفر ليوصل ذلك الملطّف إلىٰ المكتوب إليه والإتيان بجوابه . وربما كُتِب الكتابان فأكثرُ إلى الشخص الواحد فى المعنىٰ الواحدِ ويجهز كل منهما صحبة قاصد مفرد خوف أن يُعترَض واحد فيمضى الآخر إلىٰ مقْصده كما تقدّم فى بطائق الحمام الرسائلى . وقد أخبرنى بعض من سافر فى المهمات السلطانية من هؤلاء أنهم فى الغالب عند خوف العدو يمشُون ليلا ويكْمُنون نهارا وإذا مشَوْا فى الليل يأخذون خاسا عن الطريق الجادة ، يكون بين كل اثنين منهم مقدار رمية سهم حتى لا يسمع لهم حِسّ فإذا طلع عليهم النهار كَمَنوا متفرقين مع مُواعدتهم علىٰ مكان يتلاقَوْن فيه فى وقت المسير .

الأمر الحادى عشر
(نظره فى أمر المَنَاور والمُحْرِقات)

أما المَنَاور فسيأتى أنه فى الزمن المتقدم عند وقوع الحروب بين التتار وأهل هذه المملكة ، كان بين الفُرَات آخر الممالك الشامية وإلىٰ قريب من بِلْبِيسَ من أعمال

الديار المصرية أمكنةٌ مرتّبة برءوس جبال عوالٍ، بها أقوام مقيمون فيها، لهم رزق على السلطان من إقطاعات وغيرها إذا حدث حادث عدوّ من بلاد التتار، واتصل ذلك بمن بالقلاع المجاورة للفرات من الأعمال الحَلَبية. فإن كان ذلك فى الليــل أُوقِدت النار بالمكان المقارب للفرات من رءوس تلك الجبــال فيبصره مَنْ بعده، فيُوقد النار فيبصره مَنْ بعده، فيُوقد النار وهكذا حتّى ينتهى الوقود إلى المكان الذى بالقرب من بِلْبِيس فى يوم أو بعض يوم، فيرسل بِطاقَتَه على أجنحة الحَمَــام بالإعلام بذلك فيُعْلَم أنه قد تحرّك عدوّ فى الجملة فيُؤخذ فى التأهّب له حتّى تصل البُرُد بالخبر مفصّلا .

وأمّا المُحْرِقات فسيأتى أنه كان أيضا قوم من هــذه المملكة مرتّبُون بالقرب من بلاد التتار يتحيلون على إحراق زروعهم بأن تُمسَــك الثعالبُ ونحوها وتُربط الخرق المغموسة فى الزيت بأذناب تلك الثعالب وتوقد بالنار وتُرسَل فى زروعهم إذا يبست فيأخُذُها الذُّعْر من تلك النار المربوطة بأذنابها فتذهب فى الزروع آخذه يمينا وشمالا فمــا مَرّت بشىء منه الا أحرقته وتواصلت النار من بعضها إلى بعض فتُحرق المزرعة عن آخرها .

قلت وهذان الأمران قد بطل حكمُهما من حين وقوع الصلح بين ملوك مصر وملوك التتار على ما سيأتى ذكره فى موضعه إن شاء الله تعالى .

الأمر الثــانى عشر

(نظره فى الأمور العامّة ممــا يعود نفعه على السلطان والمملكة)

قد تقدّم فى أوّل هذا الفصــل فى الكلام على بيان رُتْبة صاحب ديوان الإنشاء من كلام صاحب موادّ البيان أنه ليس فى منزلة خَدَم السلطان والمتصرفين فى مهماته

أخص منه ، من حيث إنه أول داخل على الملك وآخر خارج عنه وأنه لاغنى به عن مفاوضته فى آرائه والإفضاء إليه بمهماته ، وتقريبه من نفسه فى آناء ليله وساعات نهاره ، وأوقات ظهوره للعامة وخلواته ، وإطلاعه على حوادث دولته ومهمات مملكته ، وأنه لا يثق بأحد من خاصته ثقته به ، ولا يركن إلى قريب ولا نسيب ركونه إليه ، ومن كان بهذه الرتبة من السلطان والقرب منه ، وجب عليه أن لا يألوه نصحا فيما يعلم أنه أصلح لمملكته وأعمر لبلاده وأرغم لأعاديه وحساده وأثبت لدولته وأقوى لأسباب مملكته .

فقد حكى عن على بن زيد الكاتب أنه صحب بعض الملوك فقال للملك "أصحبك على ثلاث خلال — قال وما هى ؟ — قال لا تهتك لى سترا ، ولا تشتم لى عرضا ، ولا تقبل فيَّ قول قائل حتى تستبرئ . فقال له الملك — هذه لك عندى فمالى عندك ؟ قال لا أفشى لك سرا ، ولا أؤخر عنك نصيحة ، ولا أوثر عليك أحدا — قال نعم الصاحب المستصحب أنت ! .

وإذا انتهى إلى صاحب الديوان خبر يتعلق بجلب منفعة إلى المملكة أو دفع مضرة عنها ، أطلع السلطان عليه فى أسرع وقت وأعجله قبل فوات النظر فيه وتحلّه فيه صائب رأيه ، ثم ردّ النظر فيه إلى رأى السلطان ليخرج من عهدته . وإن ارتاب فى خبر المخبر أحضره معه إلى السلطان ليشافهه فيه حتى يكون بريئا من تبعته ، ولا يهمل تبليغ خبره بمجرد الريبة لاحتمال صحته فى نفس الأمر فيلحق بواسطة إهماله ضرر لا يمكن تداركه . وكذلك الحال فى سائر ما يرجع إلى صلاح المملكة وحسن تدبيرها .

الفصـــل الرابع

(فى ذكر وظائف ديوان الإنشاء بالديار المصرية، وما يلزم ربَّ كل وظيفة منهم فيما كان الأمر عليه فى الزمن القديم وآستقرّ عليه الحال فى زماننا)

أما فى الزمن القديم فقد ذكر أبو الفضل الصُّورىّ فى مقدّمة تذكرته أن أرباب الوظائف فيه على ضربين

الضرب الأوّل — الكُتَّاب

(وقد عدّاهـــم إلى ســـبع كتّاب)[1]

الأوّل — كاتب ينشئ ما يُكتَب من المكاتبات، والولايات، ويتصدّى للإنشاء بملكته وغريزة طبعه . قال ويجب أن يكون هذا الكاتب لاحقًا بصفات متولِّى الديوان بحيث يكون كاملا فى الصفات، مستوْفيا لشروط الكتابة، عارفا بالفنون التى يحتاج إليها الكاتب، مشتملا على التقدّم فى الفصاحة والبلاغة، قوىَّ الحجة فى المعارضة، واسعَ الباع فى الكلام بحيث يقتـــدر بملكته على مَدْح المذموم وذم المحمود وصرف عنَـــان القول إلى حيث شاء، والإطناب فى موضع الإطناب، والإيجاز فى موضع الإيجاز، فإنه أجلُّ كُتّاب الديوان، وأرفعُهم درجةً لأنه يتولّى الإنشاء من نفسه، وتلقى إليه الكلمة الواحدة والمعنى المفرد فينشئ على ذلك كلاما طويلا، ويأتى منه بالعبارة الواسعة، وهو لسانُ الملك المتكلمُ عنه، فمهما كان كلامه أبدعَ، وفى النفوس أوقَع، عظُمت رتبة الملك، وآرتفعت منزلته على غيره من الملوك . وهو الذى ينشئ العهود والتقاليد فى الولايات والكُتُبَ فى الحوادث الكبار، والمهمّات العظيمة التى

(١) الصواب تأنيث آسم العدد كما هو واضح

تتلىٰ فيها الكتب علىٰ صَيَاصِي المنابر ورءوس الأشهاد . فقد حكى أن يزيد بن الوليد كتب إلىٰ إبراهيم بن الوليد، وقد هَمَّ بالعصيان أما بعد فإنى أراك تقدِّم رِجْلا وتؤخر أخرىٰ فاعتمد علىٰ أيهما شئت والسلام، فكان سببا لإقلاعه عما هَمَّ به .

الثانى — كاتب يكتب مكاتَبات الملوك عن ملِكه، وقد شرط فيه مع ماشرط فى المتصدّى للانشاء المتقدّم ذكرُه ان كان هو الذى ينشئ المكاتَبات بنفسه عن الملك أن يكون على دِين الملك الذى يكتُب عنــه ومذهبه، لمــا يحتاج إليــه فى مكاتبة الملك المخالف من الاحتجاج علىٰ صحة عقيدته، ونصرة مذهبه، و إقامة الدلائل علىٰ صحة ذلك، ولئن يحتجَّ لملة أو المذهب مَن اعتقــد خلافه بل المخالف إنمــا تندُوله مواضعُ الطعن لا مواضعُ الحِجَاج . وكذلك أن يكون من عُلُوّ الهِمَّة، وقوّة العزم، وشرف النفس بالمحلِّ الأعلىٰ، والمكان الأرفع، فإنه يُكاتِب عن ملكه، وكل كاتب فإنه يجرّه طَبْعــه وحِليَّته وخِيمُه إلىٰ ما هو عليه من الصفات . وكلما كان الكاتب أقوىٰ جاشا وأشدّ عزما وأعلىٰ همة، كان علىٰ التفخيم والتعظيم، والتهويل والترغيب والترهيب أقدرَ، وكلما نقص من ذلك نقص مِنْ كتابته بقــدره، وأن يكون عالمــا بقدر طبقة المكتوب إليه فى معرفة اللسان العربىّ فيخاطب كل قوم علىٰ قَدْر رتبتهم فى ذلك وما يَعْرِف من فهمهم .

الثالث — كاتب يكتُب مكاتَبات أهــل الدَّوْلة وكبرائها، ووُلاتهــا، ووجوهها مــن النوّاب والقصاد والكتّاب والمباشرين والعمال، و إنشاءَ تقليدات ذوى الخِدَم الصِّغار والأمامات، وكَتْب الأيمــان والقسامات . قال وهى وإن كانت دون الرتبتين المتقدّمتين فهى جليلة الخطَر عالية القَدْر، ويجب أن يكون لاحقًا برُتَب الخِــدَمة منها، وأن يكون مأمونًا علىٰ الأسرار، كافَّ اليد، نَزِه النفْس عن العَرَض

الديوانىّ لأنه يطّلع علىٰ أكثر مايجرى فى الدولة، ويعلم بالوالى قبل توليّه والمصروف قبل صَرْفه، ويكون مع ذلك سريعَ اليدِ فى الكتابة، حَسَن الخط اذ كان هذا الفنّ أكثرَ ما يُستعمَل ولا يكاد يقلّ فى وقت من الأوقات

الرابع — كاتب يكتُب المَنَاشِير والكُتُبَ اللِّطافَ والنُّسَخ . قال وهذه المنزلة لاحقةٌ بالمنزلة التى قبلها وكأنها جزءٌ منها . ويجب أن يكون هذا الكاتب مأموناً كَتُوماً للسر، فيه من الأدب مايأمَن معه من الخطإ واللحن فى لفظه وخطه، ويكون حَسَن الخط أو بالغا فيه القَدْر الكافى . ولكن لمـا كان هذا الشغل واسعا وهو أكثر عمل الدِّيوان والذى لاينفك منه، لم يكد يستقِلُّ به رجل واحد فيحتاج إلىٰ معاضَدَته بآخر يكون دونه فى المنزلة ، ويُجْعَل برسم تسطير المناشير والفصول المتقدّمة الى المقيمين بالحضرة، وكتابة تذاكر المستخدمين، ونقلها ممـا يمليه صاحب الديوان و يصدُر عنه فى نسخ تكون مجلدة فيه لا تُغادِر المبيَّضه بحرف لتكون موجودة متىٰ آحتيج اليها .

الخامس — كاتب يبيِّض ما ينشئه المنشئ ممـا يحتاج إلىٰ حُسْن الخط، كالعهود والبَيْعات ونحوها . قال الصورىّ لمـا كانت البلاغةُ التامّةُ التى يصلح صاحبها للإنشاء وحُسْنُ الخط قلما يجتمعان فى أحد، وجب أن يُختار للديوان مبيِّض برسم الإنشاءات والسِّجلات والتقليدات ، ومكاتبات الملوك، وأن يكون حسن الخط إلىٰ الغاية الموجودة بحيث لايكاد يوجَد فى وقته أحسَنُ خطا منه لتصـدُرَ الكتب عن الملك بالألفاظ الرائقة والخط الرائع . فإن ذلك أكمل للمملكة ، وأكثر تفخيما عند مَنْ يكاتبه وتعظيما لها فى صدره . ويجب أن يكون مع ذلك فى الأمانة، وكِتْمان السر، ونَزَاهة النفس علىٰ ماتقدّم .

السادس — كاتب يتصفّح ما يُكتَب فى الديوان . قد تقدم أنه لمـا كان كلُّ واحد ممن تقدّم ذكره غيرَ معصوم من السهو والزلل والخطإ واللحن وعَثَرات القلم . وكل واحد

يتغطى عنه عيب نفسه ويظهر له عيبُ غيره، وكان زمن متولّى الديوان أضيقَ من أن يُوفِي بكل مايكتَب بديوانه حقَّ النظر. وكان القصد أن يكون كل مايكتب عن الملك كامل الفضيلة خطًّا ولفظا ومعنًى وإعرابا، حتّى لا يجد طاعنٌ فيه مطعناً، وجب أن يستخدم متولّى الديوان معيّنا يتصفح جميعَ الإنشاءات والتقليدات والمكاتَبَات وسائر مايُسَطَّر فى ديوانه .

قال أبو الفضل الصوري: وينبغى أن يكون هذا المتصفّح عالِى المنزلة فى اللغة والنحو وحفظِ كتاب الله تعالىٰ، ذكيًّا، حسَن الفطنة، عاقلا، مأموناً وأن يكون مع ذلك بعيدا من الغرض والعداوة والشحناء حتّى لا يبخس أحدا حقَّه، ولا يُحابىَ أحدا فيما أنشأه أو كتبه — بل يكون الكل عنده فى الحق علىٰ حدٍّ واحد لا يترجح واحد منهم علىٰ الآخر . وعليه أن يُلزم الكُتَّاب بعرض جميع ما يكتُبونه وينشِئونه عليه قبل عرضه علىٰ متولّى الديوان — فإذا تصفحه وحرره كتب خطه فيه بما يعرِّف رضاه عنه ليلتزم بدَرَك ما فيه ويبرأ منشئه .

السابع — كاتب يكتب التذاكرَ والدفاتر المضمَّنة لمتعلّقات الديوان .

قال الصُّورى: ويجب أن يُخْتار لذلك كلُّ مأمونٍ، طويل الروح، صبور علىٰ التَّعَب، قال: والذى يلزمه من متعلّقات الديوان أمور

أحدها — أن يضع فى الديوان تذاكر تشتمل علىٰ مهمّاتِ الأمور التى تُنهىٰ فى ضمن الكتب، ويظن أنه ربما سُئِل عنها أو آحتيج إليها، فيكون آستخراجها من هذه التذاكر أيسر من التنقيب عليها والتنقير عنها من الأضابير . قال: ويجب أن تسلَّم إليه جميعُ الكتُب الوارده بعد أن يُكتَب بالإجابة عنها ليتأملّها وينقُل منها فى تذاكره مايُحتاج إليه، وإن كان قد أجيب عنه بشيء نقله . ويجعل لكل صنفة

أوراقا من هــذه التذاكر على حِدَة، تكون على رءُوس الأوراق علاماتٍ باسم تلك الصفقة أو الجهة ، ويكتب على هــذه الصفقة فصلٌ من كتاب فلان الوالى ، أو المُشارِف ، أو العامل — ورد بتاريخ كذا — مضمونه كذا — أجيب عنه بكذا — أو لم يجب عنه إلى أن تفرُغ السنة يستجدّ للسنة الأخرى التى تتلُوها تذكِرة أخرى . وكذلك يجعل له تذكرة يسطِّر فيها مهماتِ ما تخرُج به الأوامر فى الكتُب الصادرة لئلّا تُغفل ولا يجابَ عنها ، وتكون على الهيئة المتقــدّمة من ذكر النواحى وأرباب الخِدَم . وإذا ورد جواب عن شىء مهمّ نُزِّل عنده فيقول ورد جوابه عن هذا الفصل بتاريخ كذا يتضمّن كذا ، فإنه إذا اعتمد هــذا وجد السلطانُ جميع ما يُسأل عنــه حاضرا فى وقته غير متعذر عليه .

الثــانى — أن يصنع فى الديوان دفترا بألقاب الوُلاة وغيرهم من ذوى الخِــدَم ، وأسمائهم، وترتيب مخاطباتهم، وتحت اسم كل واحد منهم كيف يخاطَب بكاف الخطاب أو هاء الكناية ، ومقدار الدعاء الذى يُدْعَى له به فى السِّجلات والمكاتَبات والمناشير، والتوقيعات لاختلاف ذلك فى عُرْف الوقت . وكذلك يَضَع فيــه ألقابَ الملوك الأباعد والمكاتَبِينْ من الآفاق وكُتَّابِهم وأسماءَهم ، وترتيب الدعاء لهم، ومقداره . ويكون هــذا الدفتر حاضرا لدى كُتَّاب الإنشاء ينقُلون منه فى المكاتَبات مايحتاجُون إليه لأنه ربمــا تعذّر حِفْظ ذلك عليهم — ومتى تغير شىء منــه كتبه تحته . ويكون لكل خِدْمة ورقة مفردة فيها اسم متولِّيها ولقبُه ودُعاؤه — ومتى صُرِف كتب عليه صُرِف بتاريخ كذا ، واستُخْدم عوضا منه فلانٌ بتــاريخ كذا وأُجرِى فى الدعاء على منهاجه، أو زيد كذا أو نقص . ولا يتغافَل عن ذلك فإنه متى أُهْمِل شىءٌ من ذلك زلَّ بزلله الكُتَّاب وصاحبُ الديوان بل والسلطانُ نفسُه .

الثالث — أن يضع بالديوان دفترا للحوادث العظيمة وما يتلوها مما يجرى فى جميع المملكة، ويذكر كلا منها فى تاريخه، فإن المنفعة به كثيرة حتى إنه لو جمع من هذين الدفترين تاريخ لاجتمع .

الرابع — أن يعمل فهرستا للكُتُب الصادرة والوارده مفصّلا مُسانَهة ومشاهَرة ومُياومة، ويكتُب تحت اسم كل من ورد من جهته "كتابٌ ورد بتاريخ كذا"، ويشير إلى مضمونه إشارةً تدل عليه أو نسخه جميعَه إن دعت الحاجة إلى ذلك، ويسلمه بعد ذلك إلى الخازن ليتولّى الاحتفاظ به على ما سيأتى ذكره .

الخامس — أن يعمل فهرستا للانشاءات، والتقاليد، والأمانات، والمناشير وغير ذلك مشاهَرة فى كل سنة بجميع شهُورها ، وإذا انقضت سنة استجدّ آخَر، وعمل فيه على مثل ما تقدّم .

السادس — أن يعمل فهرستا لترجمة ما يترجَم من الكتب الواردة على الديوان بغير اللسان العربىّ من الرومىّ والفرنجىّ وغيرهما مصرّحا بمعنى كل كتاب ومَنْ ترجمه على ما تقدّمت الإشارة إليه . قال الصورىّ فإذا رُوعيتْ هذه القوانين انضبطت أمورُه ولم يكد يخِلّ منه شىء، وكان جميع ما يُلتمس منه موجودا بأيسر سعْيٍ فى أسرع وقت .

الضرب الثانى

(غير الكتاب وهما اثنان)

أحدهما الخازن . قال الصورىّ "ينبغى أن يكون هذه الخدمة رجلٌ ذكىّ فطن عاقل مأمونٌ بالغ فى الأمانة والثّقة وزاهدٌ نفيس وقلّة تطمع من الخدمة الذى لا يزيد عليه فإن زمام جميع الديوان بيده . فمتى كان قليل الأمانة رتب أمانته لرِشوة إلى

إخراج شيء من المكاتبات من الديوان، وإفشاء سرّ من الأسرار فيصيرُ بالدولة ضرراً كبيرا . ويجب أن يكون ملازما للحُضور بين يدَىْ كُتَّاب الديوان فمتىٰ كتب المنشئ أو المتصــدّى لمكاتبة الملوك، أو المتصدّى لمكاتبة أهل الدولة ، أو لكتابة المناشير وغيرها شيئا، سلمه للمتصدّى للنَّسْخ فينسخُه حرفا بحرف، ويكتُب بأعلىٰ نسخه كتاب كذا — ويذكر التاريخ بيومه وشهره وسنته علىٰ ماتقدّم فى موضعه، ويسلمه للخازن . وكذلك يفعل بالكتب الواردة بعد أن يأخذ خَطَّ الكاتب الذى كتب جوابَها بما مثاله . «ورد هذا الكتابُ من الجهة الفلانية بتاريخ كذا، وكتب جوابه بتاريخ كذا» . وإن كان لاجواب عنه، أخذ عليه خط صاحب الديوان أنه لاجواب عنه لتبرأ ذمّتُه منه ولا يتأوّل عليه فى وقت من الأوقات أنه أخفاه ولم يُعْلِم به . ثم يجمع كلَّ نوع إلىٰ مثله ، ويجمع متعلّقات كل عمل من أعمال المملكة من المكاتبات الواردة وغيرها، ويجعل لكل شهر إضْبارَة، يجمع فيها كُتُب من يكاتَب من أهل تلك الأعمال، ويجعل عليها بطاقةً مثل أن يكتب «إضباره لما ورد من المكاتبات بالأعمال الفلانية فى الشهر الفلانى» ثم يجمع تلك الأضابير ويجعلها إضبارةً واحدةً لذلك الشهر ويكتب عليها بطاقة بذلك ليسهل آستخراج ما أراد يستخرجه من ذلك . قال ويجب علىٰ هذا الخازن أن يحتفظ بجميع ما فى هذا الديوان من الكتب الواردة ونُسَخ الكتب الصادرة، والتذاكر، وخرائط المهمّات، وضرائب الرسوم آحتفاظا شديدًا " .

الثـانى — حاجب الديوان . قال الصورىّ " ينبغى لصاحب ديوان الإنشاء أن يُقيم لديوانه حاجبًا لا يمكِّن أحدا من سائر الناس أن يدخُل إليه، ماخلا أهلَه الذين هو معذوق[1] بهم، فإنه يجمع أسرارَ السلطان الخفيــةَ فمن الواجب كتمُها ومتىٰ أُهْمل

(١) فى الضوء معذوق بهم بالعين المهملة والزاى وهى أصرح فى المقام ففى القاموس عزق به كفرح لصق .

ذلك لم يؤمَن أن يُطَّلع منها على ما يكون باظهاره سبب سقوط مرتبته وإذا كثر الغاشُون له والداخلون إليه، أمكن أهلَ الديوان معه إظهارُ الأسرار اتّكالا علىٰ أنها تُنْسَب إلىٰ أولئك، وإذا كان الأمر قاصرا عليهم آحتاجوا إلىٰ كِتمان ما يعلمُونه خشيةَ أن يُنْسَب إليهم إذا ظهر" .

وأمّا ما آستقر عليه الحال فى زماننا فكُتّاب الديوان علىٰ طبقتين

الطبقة الأولىٰ — كُتّاب الدَّسْت، وهم الذين يجلسون مع كاتب السر بمجلس السلطان بدار العدل فى المواكب علىٰ ترتيب منازلهم بالقِدْمة[1] ويقرءُون القِصَص علىٰ السلطان بعد قراءة كاتب السر علىٰ ترتيب جلوسهم ويوقِّعون علىٰ القِصَص كما يُوقِّع عليها كاتب السر . وسُمُّوا كُتّاب الدست إضافة إلىٰ دست السلطان وهو مرتبة جلوسه لجلوسهم للكتابة بين يديه، وهؤلاء هم أحقّ كُتّاب ديوان الإنشاء باسم الموقِّعين لتوقيعهم علىٰ حواشى القِصَص خلاف غيرهم .

وقد تقدّم أنهم كانوا فى أوائل الدولة التركية فى الأيام الظاهرية بيبرس وما والاها قبل أن يلقَّب صاحبُ ديوان الإنشاء بكاتب السر ثلاثةَ كتّاب، رأسُهم القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر، ثم زادوا بعد ذلك قليلا إلىٰ أن صاروا فى آخر الدولة الأشرفية شعبان بن حسين عشرة أو نحوها، ثم تزايدوا بعد ذلك شيئا فشيئا خصوصا فى سلطنة الظاهر برقوق، وبعده إلى عصرنا حتّى جاوزوا العشرين وهم آخذون فى التزايد

وقد كانت هذه [illegible] فعه ولا يسمه إلىٰ أن دخل فيها الدخيل، وقدم فيها غير مستحق، [illegible] هو دونها، وآنحطّت رتبتها وصار أهلها فى الحضيض [illegible] الأفراد ممن علَتْ رتبته وقليلٌ ماهُمْ .

(١) [illegible]

الطبقة الثانية — كُتَّاب الدَّرْج ، وهم الذين يكتُبون مايوقِّع به كاتبُ السر أو كُتَّاب الدست أو إشارةَ النائب أو الوزير ، أو رسالةَ الدوادار ونحو ذلك من المكاتبات والتقاليد والتواقيع والمراسيم والمناشير والأيمان والأمانات ونحو ذلك مما يجرى مجراه . وسُمُّوا كُتَّابَ الدَّرْج لكتابتهم هذه المكتوبات ونحوها فى دُرُوج الورق ، والمراد بالدَّرْج فى العُرف العامّ الورق المستطيل المركَّب من عدّة أوصال ، وهو فى عُرْف الزمان عبارة عن عشرين وصلا متلاصقة لاغير . قال ابن حاجب النعمان فى ذخيرة الكُتَّاب : وهو فى الأصل اسمٌ للفعل أخْذا من درَجْت الكتاب أدْرُجه دَرْجا اذا أسرعتَ طيَّه وأدرجْته إدراجا فهو مُدْرَج اذا أعدته علىٰ مطاويه وأصلُه الإسراع فى حالة ، ومنه مَدْرَجة الطريقِ التى يُسْرِع الناس فيها وناقةٌ دَرُوج اذا كانت سريعة . ويجوز أن يطلق عليهم كتاب الإنشاء لأنهم يكتُبون ما يُنْشأ من المكاتبات وغيرها مما تقدّم ذكره ، ولا يجوز أن يطلق عليهم لَقَب الموقِّعين لما تقدّم من أن المراد من التوقيع الكتابةُ علىٰ حواشى القَصَص ونحوها . وكما زاد كُتَّاب الدَّسْت فى العدد زاد كتاب الدَّرْج حتّى خرجوا عن الحدّ ، وبلغوا نحوا من مائة وثلاثين كاتبا ، وسقطت رياسة هذه الوظيفة وانحط مقدارها حتّى إنه لم يرضها إلا من لم يكن أهلا . علىٰ أن كُتَّاب الدست الآن هم المتصدّون لكتابة المهم من كتابة الدَّرْج كمتعلِّقات البريد المختصة بالسلطان من المكاتبات والعهود والتقاليد وكبار التواقيع والمَرَاسم والمَنَاشير ، وصار كتاب الدَّرج فى الغالب مخصوصين بالمكاتَبَات فى خَلَاص الحقوق وما فى معناها . وكذلك صغار التَّواقيع والمراسيم والمَنَاشير مما يكتب فى القَطْع الصغير ، وربما شارك أعلاهم كُتَّاب الدست فى التقاليد وكِبار التواقيع وما فى معناهما إذا كان حَسَن الخط ، ولا نظر إلى البلاغة جملةً بل كل أحد يلَفِّق ما تهيَّأ له من كلام المتقدّمين غيرَ مُبالٍ بتحريفه ولا تصحيفه منتهجا بذلك مطالعا

لغيره فى أنه الذى ٱبتدعه و إبتكره . وكل من لفّق منهم شيئا أو أنشأه كتبه بخطه على أىّ طبقة كان فى الخط، ما خلا عهودَ السلطنة ومكاتباتِ القانات من مُلُوك الشرق فإنه رُبّما ٱنتخب لها أعلى أهلِ الزمان خطًّا، تنويهاً بذكرها، ورفعةً لقدرها .

أما كتابة التذاكر والدفاتر فقد كان الأمر مستمرّا فى بعضها ككتابة ما فى المُكاتَبات الواردةِ والصادرةِ بدفتر فى الديوان إلى آخر مباشَرة القاضى بدر الدِّين بن فضل الله فى الدولة الظاهرية برقوق، ثم رُفِض ذلك وتُرِك وٱقتصر على ما يَرِد من المكاتَبات وما يكتب من الملخَّصات وكتابة الموقِّع الذى يكتب الجواب بسدّ كل فصل تحته ليس إلا وترك ما وراء ذلك، وٱكتفى من الخازن بدوادار كاتب السر، وصار هو المتولِّىَ لحفْظ ذلك وإيداعه فى الأَضَابير على نحو ما تقدّم، وكذلك صار أمر حِجَابة الديوان إليــه . ثم للديوان أعْوان يسمّوْن المدرا جمع مدِير(١)، شأنهم أخذُ القِصَص ونحوها وإدارتها على كاتب السر فمن دُونَه مــن كُتَّاب الديوان ليكتبَ كل منهم ما يلزمه من متعلّقها ولذلك سُمُّوا بهذا الآسم .

---

(١) كذا فى الأصل والقواعد لا تساعد

المقـالة الأولى

بعد المقدّمة

(فى بيان ما يحتاج إليه كاتبُ الإنشاء من الموادّ، وفيه بابان)

البـاب الأوّل

(فيما يحتاج إليه الكاتبُ من الأمور العِلْميّة، وفيـــه ثلاثة فصول)

الفصـــل الأوّل

فيما يحتاج إليه الكاتب على سبيل الإجمال

وقد آختلفتْ مقاصِدُ المصنّفين فى ذلك . فأمّا ابنُ قتيبة فبعد أن بنى كتابه أدبَ الكاتب على أمور من اللّغة والتصريف وطَرَف من الهجاء قال: "وليس كتابُنا هذا لمن لم يتعلّق من الإنسانيـــة إلا بالجسم، ومن الكتابة إلا بالرَّسْم، ولم يتقدّم من الأداة، إلا بالقلم والدواة؛ ولكنه لمن شَدَا[1] شيئا مـــن الإعراب فعرف الصَّدْر والمَصْـــدَر، وآنقلابَ الياء عنْ الواو، والألف عن الياء، وأشبـــاهَ ذلك من النظر فى الأشكال لمساحة الأرَضين حتّى يعرِفَ المثلّث القائمَ الزاوية، والمثلثَ الحـــادّ، والمثلّث المنفرِج، ومَساقط الأحجار، والمربّعات المختلفات، والقِسِيّ، والمدوّرات، والعمودَيْن، وتُمتَحَن معرفتـــه بالعمل فى الأرضين لا فى الدفاتر، فإن المخبَرَ عنه ليس كالمُعايَن . وذكر أن العجَمَ كانت تقولُ: من لم يكُنْ عالمـــا بإجراء المياه، وحَفْر فُرَص

---

(١) كذا فى الأصل وأدب الكاتب . وفى القاموس شدا أخذ طرفا من الأدب وهو معنى مناسب هنا والذي فى الضوء سدّد .

المَشارب وردْم المَهاوِى ، ومَجارى الأيَّام فى الزيادة والنقصان ، ودَوَران الشمس ، ومَطالِع النجوم ، وحالِ القمر فى آستهلاله وآتصاله ، ووَزْن الموازين ، وذَرْع المثلث والمربَّع والمختلف الزَّوايا ، ونَصْب القناطر ، والجُسُور ، والدَّوالِى ، والنَّواعير على المياه ، وحال أدوات الصُّنَّاع ، ودقائق الحساب ، كان ناقصا فى حال كتابتـه . ثم قال ولا بدَّ له مع ذلك من النَّظَر فى جُمَل من الفقه والحديث ، ودِراسـة أخبار الناسِ ، وحِفْظ عُيون الأخبار ليُدْخلها فى تضاعيف سطوره متمثلا بها اذا كتب ، أو يصل بها كلامه اذا حاوَرَ . وختم ذلك بأن قال ومدار الأمر فى ذلك كلِّه على القُطْب وهو العقل وجودة القريحة ، فإن القليل معهما بإذن الله تعـالى كافٍ ، والكثير مع غيرهما مقصر" .

وتابعه أبو هلال العسكرى فى بعض ذلك فقال فى بعض أبواب كتابه «الصناعتين» "ينبغى أن تعـلم أنّ الكتابة تحتاج إلى آلات كثيرة ، وأدَوات جَمَّـة من معرِفة العربيَّة لتصحيح الألفاظ وإصابة المعنى ، وإلى الحساب ، وعلم المساحة ، والمعرفة بالأزْمنة والشهور والأهِلَّة وغير ذلك ممَّا ليس هذا موضِعَ ذكره وشرحه" .

ولا يخفى أن ما ذكره بعض ما ذكره آبن قتيبة ، يتوارِدان فيه فى المعنى وإن آختلف اللفظ . وخالف أبو جعفر النحاس فى كثير من ذلك فذكر فى أوّل كتابه "صـناعة الكتّاب" فى المرتبة الثانية منه بعد ما يتعلق بالخط أن مِنْ أدوات الكتابة البلاغة ، ومعرفةَ الأضداد ممـا يقع فى الكتب والرسائل ، والعلمَ بترتيب أعمـال الدواوين ، والخِبْرة بمَجارى الأعمال ، والدُّرْبة بوجوه آستِخْراج الأموال ، ممـا يجب ويمتنِـع . ثم قال فهذه الآلات ليس لواحد منها تمُّر بذاته ، ولا آنفرادٌ باسمٍ يخصه ، وإنمـا هو جُزْء من الكتابة وأصـلُ من أركانها . أما الفِقْه والفرائض والعِلْم بالنحو واللغة وصناعة الحساب والمساحة والنُّجومِ ، والمعرفةُ بإجراء المياه ، والعلمُ بالأنساب فكل

واحد منها منفرد على حدته وإن كان الكاتب يحتاج إلى أشياءَ منها نحو ما يُكتَب بالألف والياء، وإلى شيء من المقصور والممدود. ولو كلف الكاتبُ ما ذكره مَنْ ذكره لجُعِل الأصعبُ طريقا للأسهل والأشقُّ مِفْتاحا للأهون وفى طِباع الناس النِّفَار عمـا أُلْزِمهم من جميع هذه الأشياء .

قلت والتحقيق أن ذلك يختلف باختلاف حال الكتابة بحسب تنوّعها، فكلُّ نوع من أنواعها يحتاجُ إلى معرفة فنّ أو فنون تختصُّ به .

وقد حكى أن عمرو بن مَسْعدة وزيرَ المعتصم قال لمـا خرج المعتصِم من بلاد الروم وصار بناحية الرَّقَّة، قال لى ويْلكَ يا عمرو! لم تزل تخدَعُنى حتّى ولَّيتُ عُمَر بن الفَرَج[1] الرُّخَّجى الأهوازَ، وقد قَعد فى سُرَّة الدنيا يأكُلُها خَضْما وقَضْما! فقلت يا أمير المؤمنين فأنا أبعث إليه حتّى يُؤْخَذ بالأموال ولو على أجنحة الطَّيْر— قال كَلَّا بل تخرج إليه بنفسك كما أشرتَ به— فقلت لنفسى إن هذه منزلة خَسِيسة، بعدَ الوزارة أكونُ مستَحِثًّا لعاملِ خراجٍ! ولم أجِدْ بُدًّا من الخُروج رِضًا لأمير المؤمنين— فقلت ها أنا خارج إليـه بنفسى يا أمير المؤمنين! قال فضَعْ يَدَكَ على رأسـك واحلف أنك لا تُقِيم ببغـدادَ، ففعَلْت وأحدثتُ عهدا بإخوانى ومنزلى وأُتِىَ إلىّ بزَوْرق ففُرِش لى فيه، ومضيت حتّى إذا صِرْتُ بَيْنَ دَيْرِ هِرَقْل ودَيْرِ العاقول إذا شابٌّ على الشط يقول يا ملَّاحُ! رجل غريب يريد دَيْرَ العاقول فاحملنى يأجُرْكَ الله! — فقلت يا غلامُ

(١) فى الأصل عمرو الرجحى . والصواب ما أثبتناه فقد قال ياقوت فى الكلام على رُخَّج مثال زُمَّج ويُنسب إلى الرخج فرج وابنه عُمَر بن فرج وكانا من أعيان الكتاب فى أيام المأمون إلى أيام المتوكل وكان عبد الصمد بن المعذل يهجو عمر بن فرج فمن قوله فيه يخاطب نجاح بن سلمة

أبلغ نجاحا فتى الكتّاب مألكة * تمضى بها الريح إصدارا وإيرادا

لا يخرج المال عفوا من يدى عمر * أو يغمد السيف فى فوديه إغمادا

الرُّخَّجيّون لا يوفون ما وعدوا * والرُّخَّجيات لا يخلفن ميعادا اهـ

قرِّب له — فقال جعلت فداك ! يؤذيك ويُضيِّق عليك — فقلت قرِّب له لا أمّ لك ! فقرّب له وحمله على مؤخَّر الزورق . وحضر الطعامُ ، فهمَمْت أن لا أدعُوَه إلى طعامي، ثم قلت هلُمّ يا فتى ، فوثب وجلس ، فأكل أكْلَ جائع نَهِم إلا أنه نظيف الأكل ، فلما فرغ من الطعام أحبَبْتُ أن يفعلَ ما يفْعلُ العوّام فيتنحّى ويغسلَ يديه ناحيةً فلم يفعلْ، فغمزه الغِلْمانُ ليقومَ فلم يفعلْ، فتناوَمْت عمدًا لينهَض فلم يفعلْ، فاستويت جالسا وقلت يا فتى ! ما صِناعتك ؟ فقال جعلت فداك ! أنا حائك . فقلت في نفسي أنا والله جلَبْت هذه البليةَ ، وتغير لوني ، ففطن أني آستثقلتُه، فقال جعلتُ فِداك ! انك قد سألتني عن صناعتي فأجبتك، فأنت ما صناعتك ؟ فقلتُ هذه والله أضرُّ من الأولى ألا ينظر إلى غلماني ونِعْمتي فيعلَم أن مثل هذا لا يُسْئل عن الحِرْفة؟ ولم أجد بُدًا من الجواب، فلم أذهبْ إلى المرتبــة العظمى من الوزارة لكي تَقَرّت عليــه ، فقلت أنا كاتب — فقال جعلتُ فِداك الكُتّاب خمسه فأيهم أنت ؟ فأورد عليّ مالم أسمع به قبلُ — فقلت بيِّنهم لي — قال نعم، هُم كاتبُ رسائلَ يحتاج إلى أن يَعْرِف المفصُولَ والموْصُول، والمقْصُور والممدود، والابتداء والجواب ، حاذقا بالعُقود والفتوح — قلت أجل وماذا ؟ قال كاتب خَراجٍ يحتاجُ أن يعرِف السُّطُوح[1] والمِساحةَ والتَّقسِيطَ، خبيرًا بالحِساب والمُقاسَمات . قلت وماذا ؟ قال كاتب قاضٍ يحتاجُ أن يعرِف الحَلالَ والحرام ، والتأويلَ والتنزيل — والمُتشابهَ والحُدود القائمة والفرائض، والاختلاف في الأموال والفروج، حافظا للأحكام ، حاذقا بالشروط — قلت وماذا ؟ قال وكاتبُ جُنْدٍ يحتاج أن يعرف الحُلَى والشِّيات — قلت وماذا ؟ قال وكاتبُ شُرْطة يحتاج أن يعرف القصاصَ والجِراحات، وموضِعَ الحُدُود، ومَواقِعَ العَفْو في الجنايات — قلت حَسَن . قال فأيّهم أنت ؟ فكنتُ متّكِئا فاستويت جالسًا مُتعجّبا من قوله ، فقلت

---

(١) في نسخة الطسّوح وهو كسور النواحي، وربع دانق معرب اه قاموس .

أنا كاتبُ رسائلَ — قال وإن أخًا من إخوانك واجبَ الحقِّ عليك معتنيا بأمورك لا يغفُل منها عن صغير ولا كبير يكاتبك فى كل محبوب ومكروه وأنت له على مثل ذلك تزوجتْ أمُّه كيف تكتب إليه ؟ أتُهنيه أم تُعَزيه؟ — قلت أهنيه . قال فهنِّه فلم يتَّجه لى شىء — فقلت لا أُعَزِّيه ولا أُهَنِّيه، فقال إنك لا تغفُل له عن شىء ولا تجِدُ بُدًّا من أن تكتب إليه — فقلت أقِلْنى فأنا كاتب خَرَاج — قال وإنَّ أمير المؤمنين وجَّهك إلى ناحيةٍ من عَمَله ، وأمرك بالعَدْل والإنصاف وأنك لا تَدَع شيئًا من حقِّ السلطان يذهب ضَيَاعا ، وحذَّرك الظُّـلم والجور ، فخرجتَ حتَّى قدِمْتَ الناحيةَ فوقَفُوك على قَرَاحٍ أرض خطه قائل قسيا كيف تمسَحُه — قلت آخُذ وسَطَه وآخُذ طُولَه فأضربُه فيه — قال تختلف عليك العُطُوف — قلت آخُذ طُوله وعَرْضَه من ثلاثة مواضِعَ — قال إن طرَفيْــه محدُودان وفى تحديده تقويس وذلك يختلف فأعيا بى ذلك — فقلت أقلنى فأنا كاتب قاضٍ — قال وإنَّ رجلا هلك وخلَّف زوجةً حرَّةً وسُرِّيَّةً حاملتَيْن فوضَعتَا فى ليلة واحدة وضَعتِ الحرّة جاريةً ، ووضعتِ السُّرِّيَّة غلاما ، فوضعت الجاريةُ فى مَهْد السُّرِّيَّةِ ، فلما أصبحت السُّرِّيَّة قالت الغلامُ لى ، وقالت الحُرّة بل هو لى كيف تحكم بينهما ؟ — قلت لا أدرى فأقِلْنى ، فأنا كاتب جند ، قال وإن رجُلين من أصحابِ السلطان أتياك اسمُهما واحد ، وأحدُهما مشقوق الشَّفَة العُلْيا ، والآخر مشقُوق الشفه السُّفْلى ، ورِزْق أحدهما مائةٌ والآخر ألف كيف تُحلِّيهما ؟ — قلت فلان الأعلمُ وفلان الأعلم ، قال إذَنْ يجىء هـذا ورزقه مائة فيأخُذ الألفَ ، ويجىء هذا ورِزْقه ألفٌ فيأخُذ المـائةَ — قلت أقلنى فأنا كاتب شُرْطة ، — قال فإن رجلين تواثبا فشجَّ أحدُهما صاحبَه مُوضِحةً ، وشجَّه الآخر مأمومةً كيف يكون الحكم فيهما ؟ — قلت لا أدرى فأقلنى ، . قال فقلت إنك قد سألتنى فبيِّن لى — قال نعم .

أما الذي تزوجتْ أُمُّه فتكتبُ إليه : أما بعد فإن الأمورَ تجرى على خلاف محابِّ المخلوقين والله يختارُ لعباده ، فخار اللهُ لك فى قبضها إليه فإن القبور أكرم الأكفاء والسلام .

وأما القراح من الأرض ، فإنك تمسح أعوجاجه حتى تعلم كم قبضة تكون فيه فإذا أستوى فى يدك عقد تعرفه ضربت طرفه فى وسطه . وأما الحرة والسرة فيُوزن لبنهما فأيهما كان لبنها أحقّ فالبنت لها . وأما المشقوق الشفة العليا فأعلم والمشقوق الشفة السفلى فأفلح . وأما المأمومة ففيها ثلث الدية وهى ثلاث وثلاثون من الإبل وثلث . وأما الموضحة ففيها خمس من الإبل . فقلت : ألست تزعم أنك حائك ؟ فقال : أنا حائك كلام لا حائك بساط . قال عمرو بن مسعدة : فأحسنت جائزته واستصحبته معى حتى عدت إلى المعتصم ، فسألنى عما لقيت فى طريقى ، فقصصت عليه القصة فأعجب به وقال : لم يصلح ؟ فقلت : للعمائر . فقرّره فيها وعلت رتبته ، فكنت ألقاه فى الموكب النبيل فيترجّل لى فأنهاه ، فيقول : هذه نعمتك وأنت أفدتنيها .

فقد تبين بهذه الحكاية أن لكل نوع من الكتابة مادة تحتاج إليها تفردها ، وآلة تخصها لا يُستغنى عنها .

على أن كاتب الإنشاء فى الحقيقة لا يستغنى عن علم ولا تسعه الوقوف عند فن . فقد قال الوزير ضياء الدين بن الأثير فى "المثل السائر" إن صاحب هذه الصناعة يحتاج إلى التشبث بكل فن من الفنون حتى إنه يحتاج إلى معرفة ما تقوله النادبة بين النساء والماشطة عند جلوة العروس ، وإلى مايقوله المنادى فى السوق على السلعة فما ظنك بما فوق هذا وذلك لأنه مؤهل أن يهيم فى كل واد ، فيحتاج إلى أن يتعلق بكل فن .

بل قد قيل إن كل ذى علم يسوغ أن يُنْسَب إليه ، فيقال فلان النحوىّ ، وفلان الفقيه ، وفلان المتكلِّم ، ولا يجوز أن ينسب المتعلق بالكتابة إليها ، فلا يقـال فلان الكاتب لمـا يفتقر إليه من الخوض فى كل فن .

وآعلم أن كاتب الإنشاء وإن كان يحتاج إلىٰ التعلق بجميع العلوم والخوض فى سائر الفنون فليس آحتياجُه إلىٰ ذلك علىٰ حدٍّ واحد بل منها ما يحتاج إليه بطريق الذات وهى موادّ الإنشاء التى يستمدّ منها ويقتَبِس من مقاصدها كاللغة التى منها آستمدادُ الألفاظ ، والنحو الذى به آستِقامةُ الكلام ، وعلوم البلاغة من المعانى والبيان والبديع التى هى مَنَاط التحقيق والتحسين والتقبيح ونحو ذلك مما يجرى هذا المجرىٰ . وعلىٰ هـذا آقتصر الوزير ضياء الدين بن الأثير فى "المثل السائر" وتبعه علىٰ ذلك الشيخُ شهابُ الدين محمودٌ الحلبىّ رحمه الله فى كتابه "حسن التوسل" . ومنها ما يَحتاج إليه بطريق العَرَض كالطِّبّ والهندسة والهيئة ونحوها من العلوم ، فإنه يحتاج إلىٰ معرفة الألفاظ الدائرة بين أهل كل علم ، وإلىٰ معرفة المشهورين من أهـله ومَشاهير الكُتُب المصنَّفة فيه ليبظم ذلك فى خلال كلامه فيما يكتُب به من متعلّقات كل فنّ من هـذه الفنون كالألفاظ الدائرة بين أهل الطب ومشاهير أهله وكتبه فيما يَكتُب به لرئيس الطب . ونحو ذلك من الهيئة فيما يكتُب به لمنجِّم ، ونحوه من الهَنْدسة فيما يكتُبُ به لمهندس . وربمـا آحتاج إلىٰ معرفة ماهُو دون ذلك فى الرتبة كمعرفة مصطلَح رُماة البُنْدق فيما يكتُب به فى قدمات البندق ، ومعرفة مصطلَح الفِتْيان فيما يكتب به فى دسْكرة فتوّة ونحو ذلك ، بل ربّمـا آحتاج إلىٰ معرفة مصطلح سفل النـاس لكتابة أمورٍ هَزْلِيَّة كمعرفة أحوال الطُّفيليَّة فيما يكتب به لطفيلىّ آقتراحا أو آمتحانا للخاطر أو ترويحا للنفس ، مع معرفة مايختصّ بذلك من وَصْف ما يَحتاجُ إلىٰ

وصفه كأوصاف الأبطال والشُّجعان، والجوارى والغلمان، والخيل والإبل، وحليل الوَحْش وسائر أصنافه، وجوارح الوَحْش والطير، وطير الواجب، والحمام الهدى، وسائر أنواع الطير، والسلاح بأنواعه، وآلات الحصار، والآلات المُلوكِيَّة، وآلات السفر، وآلات الصَّيْد، وآلات المعاملة، وآلاتِ اللَّهْو والطَّرَب، وآلات اللعب، وآلات الشربة، والمدن، والحصون، والمساجد، و بيوت العبادات، والرياض، والأشجار، والأزهار، والثمار، والبَرارىّ، والقِفار، والمفاوز، والجبال، والرمال، والأودية، والبحار، والأنهار، وسائر المياه، والسحب، والكواكب، والعناصر، والأزمنة، والأَنواء، والرياح، والمَطَر، والحر، والبَرْد، والثلْج، وما يتعلق بكل واحد من هذه الأشياء أو ينخرط فى سلكه، ونحو ذلك مما تدعو الحاجة إلىٰ وصفه فى حالة من حالات الكتابة علىٰ ماسيأتى بيانه فى آخر الفصل الثانى من هـذا الباب إن شاء الله تعالى .

الفصــــل الثــانى

من البــاب الأوّل من المقــالة الأولىٰ

(فيما يَحتاجُ الكاتب إلىٰ معرفته من موادّ الإنشاء، وفيه طَرَفان)

الطـــرف الأوّل

(فيما يَحتاجُ إليه من الأدَوات، ويشتمل الغَرَض منه علىٰ خمسة عشر نوعا)

النـــوع الأوّل

(المعرفةُ باللغة العربيـــة، وفيه أربعة مقاصـــد)

المقْصِـــد الأوّل

(فى فضلها وما آختصَّت به علىٰ سائر اللغات)

أما فضــلها فقد أخرج آبنُ أبى شَيْبَة بسنده إلىٰ أمير المؤمنين عمرَ بنِ الخطّاب (رضى الله عنه) أنه قال "تعلَّموا اللَّحْنَ والفَرَائِضَ فإنَّهُ مِنْ دينِكُمْ" . قال يزيد بن هارون "اللَّحْن هو اللُّغةُ". ولا خفاء أنها أمتنُ اللغات وأوضحُها بيانا، وأذْلقُها لسانا، وأمدُّها رُوَاقا، وأعذَبُها مَذَاقا، ومن ثَمَّ آختارها الله تعالىٰ لأشرف رُسُله، وخاتِم أنبيائه، وخِيرته من خَلْقِه، وصَفْوته من بَرِيَّتِه، وجعلها لغةَ أهلِ سمائه وسُكّانِ جنته، وأنزل بها كتابَه المُبين الذى لا يَأْتيه الباطِلُ من بَيْنِ يَدَيْه ولا مِنْ خَلْفِه .

قال فى صِناعة الكُتَّاب "وقد آنقادتِ اللُّغات كلُّها للغة العرب، فأقبلتِ الأمم إليها يتعلَّمونها".

وأما ما ٱختصَّتْ به علىٰ غيرها من اللغات، فقد حكىٰ فى "صناعة الكتاب" أنها اللُّغة التامَّةُ الحُروف، الكاملةُ الألفاظ، لم ينقص عنها شيء من الحروف فيَشِينها نُقْصانُه، ولم يزِد فيها شيء فيعيبَها زيادتُه، وإن كان لها فروع أخرىٰ من الحُروف فهى راجعةٌ إلىٰ الحُروف الأصلية، وسائرُ اللُّغات فيها حروف مولَّدة، وينقُص عنها حروفٌ أصليَّة كاللغة الفارسية تجد فيها زيادةً ونُقْصانا. وكذلك يُوجد فيها من الأسماء مالا يُوجَد فى الفارسية وغيرها كالحَقِّ والباطِل، والصواب والخطإ، والحلال والحرام، ولاينطق به أهلُ تلك اللغة إلا عربيا. قال الفراء "وجدنا للغة العرب فَضْلا علىٰ لغة جميع الأمم ٱختصاصًا من الله تعالىٰ وكرامةً أكرَمَهُم بها، ومن خصائصها أنه يُوجَد فيها من الإيجاز مالا يُوجَد فى غيرها من اللغات". قال "ومن الإيجاز الواقع فيها أن للضَّرْب كلمةً واحدةً فتوسَّعوا فيها، فقالوا للضرب فى الوجه لَطْم، وفى القَفَا صَفْع، وفى الرأس إذا أَدْمىٰ شَجّ، فكان قولُهم لُطِم أوجز من ضُرِب علىٰ وجهه". قال فى "المثل السائر" "حضَرْت مع رجلٍ يهودىّ عارفٍ باللُّغات فجرىٰ ذكر ٱسم الجَمَل فقال لا شَكَّ أن العَرَبيَّة أوجزُ اللغات، فانَّ اسمَ الجمل بالعِبرانيَّة كومل فسقط منه الواو وحُوِّلت الكافُ إلىٰ الجيم". قال أبو عبيد وللعرب فى كلامها علاماتٌ لا يَشْرَكُهم فيها أحدٌ من الأُمَم كعلامة إدخالهم الألفَ واللامَ فى أوّل الاسم، وإلزامهم إياه الإعرابَ فى كل وجه مع نقْلهم كلَّ ما ٱحتاجُوا إليه من كلام العجم إلىٰ كلامهم، فقد نُقِل ما قالتْ حكماء العجم والفلاسفةِ إلىٰ العربية ولم يقدر أحد من الأمم علىٰ نقل القرءان إلىٰ لغته لكمال لغة العرب. علىٰ أنَّ الكثيرَ من الناس حاولُوا ذلك فعَسُر عليهم نقلُه، وتعذَّرت عليهم ترجمته، بل لم يَصِلوا إلىٰ ترجمة البسملة إلا بنقل بعيد.

المقصـــد الثـانى

(فى وَجْه ٱحتياج الكاتب إلىٰ اللغة)

لامِرْيةَ فى أن اللُّغة هى رأسُ مال الكاتِب، وأُسُّ كلامه، وكَنْز إنفاقه، من حيثُ إن الألفاظ قوالِبُ للمعانِى التى يَقَع التصرُّف فيهـا بالكتَابة، وحينئذ يحتاج إلىٰ طول الباع فيها، وسَـعة الخَطْو، ومعرِفة بسائطها من الأسمـاء والأفعال والحروف، والتصرُّفِ فى وجوه دلالتها الظاهِرة والخفية ليقتدِر بذلك علىٰ ٱستعمالها فى محالِّها، ووَضْعها فى مواضعها اللائقة بها، ويجدَ السبيلَ إلىٰ التوسُّع فى العبارة عن الصُّوَر القائمة فى نَفْسه فتَتَّسِع عليه نطاقُ النُّطْق، ويَنْفَسِح له المَجَالُ فى العبارة، ويَنْفتِح له باب الأوصاف فيما يَحتاجُ إلىٰ وصـفه، وتَدْعو الضرورة إلىٰ نَعْته، فيستظهِر علىٰ ما يُنشِيه، ويُحيط علمًا بمـا يَذَرُه ويأتيه، إذ المعانِى وإن كانتْ كامنةً فى نفْس المعبِّر عنها فإنمـا يقوىٰ علىٰ إبرازها وإبانتها مَنْ توفَّر حظُّه من الألفـاظ، وٱقتـداره علىٰ التصرُّف فيها ليأمنَ تداخُلَها وتكريرَها المُهَجِّنيْن للمعانى — وناهيك أن ٱبن قتيبة لم يُضَمِّن كتابه "أدب الكاتب" غيرَ اللُّغة إلا النَّزْر اليسير من الهجاء، وأبا جعفر النحاس ضَمَّن كتابه "صـناعة الكتَّاب" جزءًا وافرا من اللغـة، وأبا الفتح كُشاجِمَ لم يرد فى كتابه "كنز الكتَّاب" علىٰ ذكر الألفاظ وصورة تركيبها .

المقصـــد الثالث

(فى بيان مايحتاج إليه الكاتبُ من اللغة، ويرجع المقصود منه إلىٰ خمسة أصناف)

الصنف الأوّل — الغَرِيب، وهو ماليس بمألوفِ الٱستعمال، ولادائرٍ علىٰ الألْسِنة وذلك أن مَدَار الكتَابة علىٰ ٱستخراج المعانى من القرءان الكريم، والأحاديث النبويّة، والشعر، وألفاظُها لا تخلُو عن الغَريب، بل ربَّمـا غلب الغريبُ منها فى الشِّعر علىٰ

المألوف لاسيّما الشعرُ الجاهلىُّ . وقد قال الأصمعى "توسّلت بالمُلَح وبلت بالغريب".
قال صاحب "الريحان والريعان" والغريب وإن لم ينفق منه الكاتبُ فإنه يجب أن يُعلَم ويُتطلَّع إليه ويُستَشْرَف ، فربَّ لفظةٍ فى خلال شعْرٍ أو خُطْبة أو مَثَل نادر أو حكاية ، وإن بقيتْ مُقْفَلة دون أن تُفْتَح لك ، بقى فى الصدر منها حرارة تُحوج إلى السؤال ، وإن صُنْت وجهك عن السؤال ، رضيت بمنزلة الجُهَّال . وقد عاب ابنُ قتيبة رجلا كتب فى وصف بِرْذَوْن "وقد بعثتُ به أبيضَ الظهر والشَّفَتين" فقيل له هَلَّا قلت فى بياض الشفتين أَرْثَم أَلْمَظ ، فقال لهم فبياض الظهر ، قالوا لا نَدْرِى ، فقال انما جَهِلت من الشفتَيْن ما جَهِلتُم من الظَّهر. وذمّ قوما من وُجُوه الكُتَّاب بأنه اجتمع معهم فى مجلس فتذاكَرُوا عُيوبَ الرقيق فلم يكن فيهم من يُفَرِّق بين الوَكَع والكَوَع ، ولا بين الحَنَف والفَدَع[1] ، ولا بين اللَّمَى واللَّطَع . ثم قال "وأىُّ مقام أخزى لصاحبه من رجُل من الكُتَّاب اصطفاه بعضُ الخُلَفاء ، وارتضاه لسِرِّه ، فقرأ عليه يومًا كتابا فيه مُطِرْنا مطرا كثُر عنه الكَلَأ ، فقال له الخليفة ممتحنا له وما الكَلَأ ؟ فتردّد فى الجواب ، وتعثّر لسانُه ثم قال لا أدرى ، فقال سَلْ عنه".
قال أبو القاسم الزجاجىّ فى شرح مقدّمة أدب الكاتب وهذا الخليفة هو المعتصم والكاتب أحمد بن عمَّار ، وكان يتقلَّد العَرْض عليه ، وكان المعتصمُ ضعيفَ النَّظر بالعربية ، فلما قرأ عليه أحمدُ بن عمَّار الكِتَابَ وسأله عن الكَلَإ فلم يعرفه ، قال إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون ! خليفةٌ أمّىّ ، وكاتب عامّىّ ، ثم قال مَن يَقْرُب منا من كُتَّاب الدار فعُرِّف مكان محمد بن عبد الملك الزيات ، وكان يقف على قَهْرمة الدار فأمر بإشخاصه ، فلما مَثَل[2] بين يديه ، قال له ما الكلا ؟ قال النبات كلّه رَطْبه

---

(١) هو بالفاء والدال المهملة اعوجاج الرُّسغ من اليد أو الرجل حتى ينقلب الكف أو القدم الى انسيها قاموس وفى الأصل القدع بالقاف والدال المعجمة وهو تصحيف ظاهر فيه

(٢) هو من باب دخل كما فى المختار

و يابسه ، فإذا كان رطبا قيل له خَلًا ، وإذا كان يابسا قيل له حَشِيش ، وأخذ فى ذكر النبات من ابتدائه إلىٰ اكتهاله إلىٰ هَيْجه ، فقال المعتصم "ليتقلّدْ هذا العَرْضَ علينا ." ثم خُصَّ به حتّى استوزره .

فقد ظهر أن معرفة الغريب من الأمور الضروريّة للكاتب التى هى من أهم شأنه ، وأعنىٰ مقاصده . وجُلُّ كتب اللغة المصنّفة فى شأنها راجعة إليه ، كصحاح الجوهرىّ ، ومُحْكَم ابن سيده ، ومُجْمَل ابن فارس وغيرها من المصنّفات التى لاتكاد تُحصىٰ كثرةً والصحاح أقربها مأخذًا ، والمحكم أمثلُها طريقــة ، وأكثرُها جمعا ، وأكمُلها تحقيقا . وقد صرف قوم من المصنّفين العناية من ذلك إلىٰ الاقتصار علىٰ ذكر الأسمـاء والأوصاف كأوصاف الرجال والنساء المحمودةِ والمذمومةِ ، ومايختص من ذلك بالرجال والنساء ، وأوصاف الخيل ، وأعضائها ، وألوانها ، وشِيَاتها ، وأسنانها ، وسَيْرها ، وعَدْوها وما يخص الذكورَ والإناث منها ، وأوصاف الوُحوش من السباع والظّباء والوُعُول والبَقَر والحُمُر الوحشيّيْنِ ، وأسماء الطيْر من الجوارح الصائدة والطيور المصيدة ، وبُغَاث الطير كالرخَم ، وصِغَاره كالنحْل والجراد ، وأوصاف الهوامّ كالحَشَرات من الحيّات والوَزَغ ونحو ذلك ، وأوصاف العُلْويّات من السماء والسّحاب والرّياح والأمطار ، والأزمنة كأوقات الليل والنهار ، وأوقات الشهر وفصول السنة ونحو ذلك ، وأسماء النّبات من الشجر البرّىّ كالطّلْح والأَرَاك ، والبُستانِىّ كالنخل والعنَب ، والنبات البرّى كالشّيح والقَيْصُوم ، وأنواع المَرْعىٰ ، وأسماء الأماكن من البَرارِى والقِفَار ، والرمال والجبال والأحجار ، والمياه والبِحار والأنهـار والعُيون والسُّيُول ، والرّياض والمَحَالّ والأبنية ، وأسماء جواهر الأرض من اليواقيت ونحوها ، وسائر مستخرجات المعادن ، كالنُّحاس والرَّصَاص وما يجرى مجراها ، ومستخْرَجات البحر من اللّؤلؤ والعَنْبر والمَرْجان وغيرها ، وأسمـاء المأكولات من الحُبوب ، والفواكه ، والأطعمة

المصنوعة والأطعمة ، وأسماء الأشربة كالماء ، واللّبن ، والعسل ، والخمر ، وأسماء السِّلاح من السيوف ، والرِّماح ، والقِسِيِّ ، والسِّهام ، والدروع وغيرها ، وأسماء اللباس من الثياب علىٰ اختلافها ، وأسماء الأمتعة ، والآنية وسائر الآلات ، وأسماء الطيب من المِسك ، والنَّدّ ، والغالية ، والزَّعْفَران ، وما أشبهها . وكذلك كل مايجرى هذا المجرىٰ . و "كفاية المتحفظ" لابن الأجدابى ، و "المدهشة والمعقبة" لابن أصبغ كافلتان بالكثير من ذلك . وفى "أدب الكاتب" لابن قتيبة و "فِقْه اللغة" للثعالبى الجزء الوافر من ذلك .

وصرف آخرون عنايتهم إلىٰ التأليف فى الأفعال وتصاريفها كابن درستويه وغيره . وفى "فصيح ثعلب" جزء وافر من ذلك ، ولِعَصْرِيِّنا الشيخ مُقْبل الصَّرْعَتْمشِىّ النحوىّ كتاب زاد فيه عليه جمعا ووضوحا .

الصنف الثانى — الفروع المتشعِّبة فى المعانى المختلفة ، وهى فروع كثيرة متَّسعة الأرجاء ، متباينة المقاصد ، لا يكاد يجمعها مصنِّف ، وإن كان الكاتب لا يَستغنِى عن شيء منها ، ولا يحسن به تَرْكُه .

منهـا المتباين والمُترادِف . فأما المتباين فهو ما دلّ لفظ الكلمة منه على خلاف ما دلت عليه الكلمة الأخرى ، كالسواد والبياض ، والطول والعَرْض ، ويحتاج إليه فى التعبير عن المعانى المختلفة لاتساع نطاق الكلام . وأما المترادف فهو المتوارد الألفاظ علىٰ مسمًّى واحد كالأسد والسبع للحيوان المفترس ، والثَّنِيَّة والقَلُوص للناقة ، ونحو ذلك . ويحتاج إلىٰ معرفة ذلك للتَخَلّص عند ضِيق الكلام عليه فى موضع لطول لفظه أو قِصَرها أو اختلاف وَزْنها فى شعر ، أو رعاية الفاصلة آخر الفقرة فى نثر ، أو غير ذلك مما يُضْطَّر فيه إلىٰ إيراد بعض الألفاظ بدل بعض ، كما فى قوله

وثَنِيَّـــةٍ جاورتها ثَنِيَّةٌ * حَرْفٍ يُعارِضها جَنِيبٌ أَدْهَمُ

فإنه أراد بالثنية الأولىٰ العقبة ، وبالثنية الثانية الناقة ، والجنيب الأدهم استعارةٌ لظلها . فالثنيّة من حيثُ وقوعُها علىٰ الناقة والعقبة أوفقُ للتجنيس من الناقة ، إذ لو ذكر الناقة مع الثنية التي هي الطريق لفاته التجنيس . ومحل الكلام عليهما كتب الفقه(١) ونحوها .

ومنها الحقيقة والمجاز . والحقيقة هي اللفظ الدالُّ علىٰ موضوعه الأصلي كالأَسَد للحيوان المفترس ، والحمارِ للحيوان المعروف . والمجاز هو ما أريد به غير الموضوع له في أصل اللغة ، كالأَسَد للرجُل الشجاع بعلَاقة الشجاعة في كل منهما ، والحمار للبليد بعلاقة البلادة في كل منهما ، ويحتاج إليه لنقل الألفاظ من حقائقها إلىٰ الاستعارة والتمثيل والكناية لما بينهما من العلاقة والمناسبة ، كاليَد فإنها في أصل اللغة للجارحة أُطْلِقت علىٰ القوّة والنعمة مجازا ، من حيث إن القوّة تَظْهَر في اليد والنعمة تُولَى بها ومحل ذكرهما أصول الفقه وما في معناها .

ومنها الألفاظ المتضادّة وهي التي تَقع كلِ لفظة منها علىٰ ضدّ ما تقع عليه الأخرىٰ كالأمانة والخيانة ، والنصيحة والغش ، والفَتْق والرَّتْق ، والنقْض والإبرام ، ونحو ذلك فإن الكلام كثيرا ما يبنى علىٰ الأضداد وربما غلط الكاتب فجعل مقابل الشيء غيرَ ضدّه فيلزمه النقصُ في صناعته ، وفوات ما يقصده من المقابلة والطِّباق اللذين هما من أحسن أنواع البديع . وفي "صناعة الكُتَّاب" لأبي جعفر النحاس جملة صالحة من ذلك ، وفي "كَنْز الكُتَّاب" لأبي الفتح كُشَاجِمَ جملةٌ جيدة منه أيضا .

ومنها تسمية المتضادَّيْن باسم واحد كالجَوْن للأسود والأبيض ، والقُرْء للطُّهْر والحيض ، والصَّريم للّيل والنهار ، ووراء لخلف وقدّام ، ونحو ذلك . ويُحتاج إليه للتمييز بين الحقائق التي يقع اللَّبْس فيها . وفي "أدب الكاتب" جملة من ذلك .

(١) لعله كتب أصول الفقه

ومنها المَقْصور والممدود كالسـدى للجُود وبَدى الأرض ، والحَفَا لكَلاَل القَـدَم والحافِر ، والممدود كالسماء للفَلَك وكلّ ما علاك ، والبقاء لصِـدّ الفَناء ، ونحو ذلك ، وما يجوز فيه المدّ والقَصْر جميعا كالزِّناء والشِّراء (١) وما أشبههما . ويَحتاج إليه الكاتب من ثلاثة أوجُه أحدها أن الدلالة تختلف باعتبـار المدّ والقصر كلفظ الهَوَى فإنه إن قُصِر كان بمعنى هَوَى النفس ، وإن مدّ كان بمعنى ما بين السماء والأرض . الثانى أنه إذا أُضيف الممدود أضيف بزيادة واو فى الكتابة فى حالة الرفع وزيادة ياء فى حالة الخفض ، وإذا أضيف المقصور لم يُحتجْ إلى زيادة واو ولا ياء ، ولو كان ممـا يجوز (٢) فيه المدّ والقصر ، جاز فيه بعض حركاته . ربما يمد كاللّلاء والقَلاء ، فإنه اذا كُسِر أوّلها قُصِرا وكُتِبا بالياء واذا فتح مُدَّا وكتبا بالألف . وكالباقلاء فإنه إذا خفِّف مُدّ وإذا شُدِّد قُصِر ، فمتى لم يعرف الكاتب ذلك كان قاصرا فى صناعته ، وفى "أدب الكاتب" من ذلك جملة .

ومنها المذكر والمؤنث فإنه تختلِفُ أحوالُه باعتبار التذكير والتأنيث فى كثير من الأمور . وذلك أن المؤنث على ضربين أحدهما مافيه علامة من علامات التأنيث الثلاث ، وهى الهاءُ نحو حمزةَ وطلحةَ ، والألفُ الممدودة نحو حمراء ، والألفُ المقصورة نحو حُبْلى . وضرب لا علامةَ فيه وإنمـا يؤخذ من السَّماع كالسماء ، والأرض ، والقَوْس ، والحَرْب ، وما أشبهها . وربمـا كان منه ما يجوز فيـه التذكير والتأنيث كالطَّرِيق ، والسبيل ، والموسى ، واللِّسان ، والسُّلْطان ، وما أشبهها ، فإن من العرب من يذكِّر ذلك ومنهم من يؤنِّثه . وربمـا وقع لفظ التأنيث على الذكر والأنثى جميعا

(١) أهمله فى الأصل وهو من اهمـال الناسخ

(٢) قوله ولو كان ممـا يجوز الخ كذا فى الأصـل وهو كما ترى غير مفهوم وهو محـل الوجه الثـالث الذى سقط من قلم الناسخ وحاصله أن الداعى إلى معرفتهما إما أن يرجع إلى المعنى وهو الأول أو إلى الرسم والكتابة وهو الثانى أو إلى النطق والرسم وهو الثالث الساقط فتأمل

كالسَّخْلة والحَيَّة والحَمامة والنَّعامة والبَطَّة ونحوها . وأيضا فإن مِنْ وَصْف المؤنث ما يُحذَف منه الهـاء باعتبار تأويلٍ آخَرَ كصـيغة فَعِيل فإنه إن كان بمعنى مفعول كقَتِيل بمعنى مقتول وخَضِيب بمعنى مخضوب، حُذِفت الهـاءُ من مؤنَّثه فيقال امرأةٌ قتيلٌ وكَفٌّ خَضِيب وما أشبه ذلك،وإن كان بمعنى فاعل كَعَلِيم بمعنى عالم ورحيم بمعنى راحم، تثبُت الهاء فى مؤنَّثه فتقول فيه عَلِيمة ورَحِيمة . وعلى العَكْس من ذلك فَعُول فإنه إن كان بمعنى فاعل كان بغير هاء نحو امرأةٌ صَبُور وشَكُور بمعنى صابرةٍ شاكرة، وإن كان بمعنى مفعول كان مؤنَّثُه بالهـاء كالحَلُوبة بمعنى المحلوبة ، والرَّكُوبة بمعنى المركوبة ، وصيغةُ مُفْعِل ممـا لا يُوصَف به الذكورُ تكون بغير هاء كامرأة مُرْضِع ، فإن أرادُوا الفعلَ قالوا مُرْضِعة،وصيغةُ فاعل ممـا لا يكون وَصْفا لمذكر تكُون بغير هاء أيضا نحو امرأة طالِق وحامل، وربَّمـا حُذِفت الهاءُ مما يكون للمذكر والمؤنَّث جميعا فتقول امرأة عاقِر ورجلٌ عاقِر . وفى "أدَب الكاتب" و"فصيح ثعلب" جملة من ذلك . وفى كتب النحو المبسوطة قواعدُ موصِّلة إلى مقاصده .

ومنها المَهْموزُ وغيرُ المهموز فإن المعنى قد يختلِف فى اللفظ الواحد باعتبـار الهمز وعَدَمه كما تقول عَبَّأْت المتاعَ بالهمز، وعَبَّيت الجيشَ بغير همز ، وبارَأْتُ الكَرِيّ بالهمز من الإبراء، وبارَيتُ فلانا من المُباراة بغير همز. وتقول ربَى من الرِّبَا بغير همز، ورَبَأ فى الجبل إذا رَقِيَ فيه ونحو ذلك . وربما جاء الهمزُ وعدمُه فى الكلمة الواحدة كما تقول شِئْت بالهمز وشِيت بإسكان الياء من غير همز ونحو ذلك . فمتى لم يكن الكاتب عارفا بالهمز ومواضعه ضَلَّ فى طريق الكتابة . وفى "أدب الكاتب" باب مفردٌ لذلك .

ومنها ما ورد من كلام العرب مُزْدَوِجا كقولهم الطِّمّ والرِّمّ، يريدون بالطِّمّ البحرَ وبالرِّمّ الثرى، وكقولهم الحَجَر والمَدَر، فالحجر معروف والمَدَر التراب النَّدِىّ ونحو ذلك .

فاذا عرف الكاتب ذلك تمكّن من وَضْعه فى مواضعه لتحسين الكلام وتنميقه فى الطباق والمقابلة، وفى "أدب الكاتب" نُبْذة من ذلك .

ومنها ما ورد من كلامهم مثنّى إمّا علىٰ سبيل التغليب كقولهم القَمراِن يريدون الشمسَ والقمرَ، والعُمَران يريدون أبا بكر وعُمَر، وإما علىٰ الحقيقة كقولهم ذَهَبَ منْه الأَطْيَبانِ، يريدون الأكْل والنكاحَ واختلَفَ عليه المَلَوانِ أو الجَديدانِ، يريدون الليلَ والنهار، ونحو ذلك، وفى "أدب الكاتب" أيضا طَرَف منه .

ومنها ما ورد من كلام العرب مرتّبًا كقولهم أوَّلُ النوم النُّعاس، وهو الاحتياجُ إلىٰ النَّوم ، ثم الوَسَن ، وهو ثِقَل النُّعَاس ، ثم الكَرَىٰ والغَمْضُ، وهو أن يكونَ بين النائم واليَقْظان، ثم التَّغفيق ، وهو النوم وأنت تسمعُ كلام القَوْم، ثم الإغْفاء، وهو النوم الخَفيف، ثم التَّهْجاع ، وهو النوم القليل ، ثم الرُّقاد ، وهو النوم الطويلُ ، ثم الهُجُوع ، وهو النوم العَرِق، ثم التَّسْبيح[1]، وهو أشدّ النوم، وما أشبه ذلك، وفى "فقه اللغة" للثعالبىّ قدرٌ صالح منه ذلك .

ومنها ما ورد من كلامهم مَوْرِد الدعاء إما علىٰ بابه فى الدعاء كقولهم "آستأْصَلَ الله شأْفَته" يريدون أذهَبَ الله أثَرَه كما تَذْهَب أثر الشَّأْفة، وهى قَرْحة تَخرج فى القَدَم فتُكْوىٰ فتَذْهَب، وقولهم "أبادَ اللهُ خَضْراءهم" أى سَوَادهم ومُعْظَمهم . أو لم يُقصَد به حقيقة الدعاء، كقولهم "تَرِبَتْ يَدَاك" أى أُلْصِقتْ بالتراب من الفاقة ، وقولهم "أَرْغَمَ اللهُ أنْفَه" أى أَلْصَقَه بالرَّغَام، وهم لا يَقْصِدون به الدعاءَ . وفى "أدب الكاتب" جملة من ذلك .

---

(١) أهمله فى الأصل وهو من إهمال الناسخ

ومنها ما تختلف أسمـاؤُه مع المشابهة فى المعنىٰ كالظُّفُر للإنسان، والحافر للفَرَس والنَّعْل والحمار، والظِّلْف للبقر، والمَنْسِم للبعير، والبُرْثُن للسِّباع، وما يجرى هذا المجرىٰ. وفى "فقه اللغة" جزء وافر منه.

ومنها ما تختلف أسمـاؤه وأوصافه باختلاف أحواله كالكأس لا يُقال فيه كأس إلا إذا كان فيه شَرَاب وإلا فهو قَدَح، ولا مائدةٌ إلا إذا كان عليها طعام وإلا فهى خِوَان، ولا قَلَم إلا إذا كان مبْرِيًّا وإلا فهو أُنْبُوبة، ولا خاتَمٌ إلا وفيه فَصّ وإلا فهو فَتَخَة ونحو ذلك، وفى "فقه اللغة" جملة منه.

ومنها معرفة الأُصُول التى تُشتَقُّ منها الأسماء كتسمية القمر قَمَرًا لبياضه، إذ الأَقْمَر هو الأبيض، وكتسمية ليلة الرابع عشر من الشهر ليلَةَ البَدْر لمُبادَرة الشمسِ القمرَ بالطلوع، أو لتَمامه وامتلائه حينئذ من حيثُ إن كل تامّ يقــال له بَدْر، وكتسمية النَّجْم نَجْمًا، أخذًا من قولهم نَجَم إذا طَلَع ونحو ذلك، وفى "أدب الكاتب" جملة من ذلك.

ومنها ما نَطَقَتْ به العَجَم علىٰ وَفْق لغة العَرَب، لعدم وجوده فى لغتهم وهو المعرَّب[1] كالكَفّ والسَّاق والدَّلَّال والوَزَّان والصَّرَّاف والحَمَّـال والقَصَّاب والبَيْطار وما أشبه ذلك، وفى "فقه اللغة" جزء منْ ذلك كافٍ.

ومنها ما اشترك فيه العربية والفارسيَّة، كالتَّنُّور، والخَمير، والدِّينار، والدِّرْهم، والصَّابُون، وما أشبه ذلك، وفى "فقه اللغة" أيضا نُبْذة منه.

ومنها ما اضْطُرَّت العربُ إلى تعريبه واستعماله فى لغتهم من اللغة العجمية كالكُوز، والإبريق، والطَّسْت، والخِوَان، والطَّبَق، وغيرها من الآنية، والسِّكْباج، والزِّيرباج، والطَّباهج، والجُوذاب، ونحوها من الأطعمة، والجُلَّاب، والسَّكَنْجَبِين، ونحوهمـا

(١) قوله وهو المعرب كذا فى الأصل

من الأَشْربة، والخُولَنْجان، والكافُور، والصَّنْدل، وغيرها من الأَفَاويه، والطِّيب ونحو ذلك، وفى "فقه اللغة" من ذلك جملةٌ جيِّدة . إلى غير ذلك من الأمور التى لايتّسع استيفاؤها مما فى أدب الكاتب وفقه اللغة الكثيرُ منه .

ومنها ماتعدّدت لغاتُه، ولْتَعلم أن لغة العرب متعدّدة اللُّغات متسعة أرجاء الألْسُن بحيث لا تُساويها فى ذلك لغة . فمن ذلك مافيه لغتان كقولهم رِطْل ورَطْل بكسر الراء وفتحها وسَمٌّ وسُمٌّ بفتح السين وضمها، وما فيه ثلاث لغات مثل بُرْقُع بضم القاف وبُرْقَع بفتحها وبُرْقُوع بضم الباء وزيادة الواو، وخاتِم بكسر التاء وخاتَم بفتحها وخَيْتام، وما فيه أربع لغات مثل نِطْع بكسر النون وفتحها وسكون الطاء ونَطَع بفتح النون والطاء جميعا وكَسْر النون، وصَدَاق بفتح الصاد وصِدَاق بكسرها وصُداق بضمها وصُدْقة بضم الصاد وسكون الدال، ومافيه خمس لغات كقولهم رِيح الشَّمال بفتح الشين من غير همز، والشَّمْأل بالهمز، والشَّامَل بغير همز، والشَّمَل بفتح الميم، والشَّمْل بسكونها، وما فيه ستُّ لغات كفُسْطاط بضم الفاء وفِسْطاط بكسرها، وفُسْتاط بضم الفاء وإبدال الطاء تاء، وفِسْتاط بكسر الفاء، وفُسَّاط بضم الفاء وتشديد السين، وفِسَّاط بكسر الفاء، وما فيه تسع لُغات كالأَنْمُلة بفتح الهمزة وضمها وكسرها مع فتح الميم وضمِّها وكسرها، وما فيه عَشْر لغات كالأصبع بفتح الهمزة وضمِّها وكسرها مع فتح الباء وضمها وكسرها والعاشر أُصْبوع . وفى "أدب الكاتب" جملة من هذا النمط .

الصنف الثالث — الفصيح من اللغة . واعلم أن اللغة العربيّة قد تنوّعت واختلفت بحسب تنوّع العرب واختلاف ألسنتهم، والذى اعتمده حُذّاق الأئمة وجَهَابذة العربية من ذلك مانطق به فُصَحاء العرب، وهم الذين حَلُّوا أوساطَ بلاد العرب، ولم يخالِطهم مَنْ سِواهم من الأمم كثيرَ مخالطة، ولم يُضاقِبوا بلاد العجم

فبقيتْ ألفاظُهم سالمة من التغيير والاختلاط بلغةِ غيرهم كَقُرَيش، وهُذَيل، وكِنَانةَ، وبعضِ تميم، وقَيْسِ عَيْلان، ونحوهم من عَرَب الحجاز، وأوْساط نَجْد. بخلاف الذين حلُّوا فى أطراف بلاد العـرب، وجاوَرُوا الأعاجمَ فتغيرتْ ألفاظُهم بمخالطتهم كحِمْيَرَ، وهَمْـدانَ، وخَوْلانَ، والأَزْد لمجاورتهم بلادَ الحبشة، وطيِّئ وغَسَّانَ لمجاورتهم بلاد الرُّوم بالشام، وبعضِ تميم، وعبد القيس لمجاورتهم أهلَ الجزيرة وفارس.

واعلم أن التغيير يدخلُ فى لغة العرب من عِدَّة وجوه

منها أن تُبْدل كلمةٌ بغيرها كما يَستعمل أهلُ اللغة الحميريَّة "ثِبْ" بمعنىٰ اجلس، وهى فى عامَّة لغة العرب للأمر بالطَّفْرة. قال القاضى الرشيدُ فى شرح أُمْنِيَّة الألمعىّ "وربما غلَبت العُجْمة علىٰ أحدهم حتّى لا يُفْهَم عنه شىء".

ومنها أن تُبْدل حرفا من الكلمة بحرف آخر كما تُبْدل حميرُ كاف الخطاب شينا معجمة فيقولون فى قُلتُ لك قلت لَش، وربما أبدلُوا التاء أيضا كافاً فيقولون فى قلت قُلْكُ، وكما تُبْـدل ربيعةُ الباء الموحدة ميما فيقولون فى بكر مَكْر ونحو ذلك، وكما يُبْـدل بعض العرب الصادَ المهمله بالسين المهملة فيقولون فى صابر سابر، وكما يُبْـدل بعضهم الطاءَ المهملة بتاء مثناة فوقُ فيقولون فى طالَ تالَ وتُسْمَع من عرب أهل الشرْق كثيرا، وكما يبدل قوم التاء المثناة فوقُ بصاد معجمه فيقولون فى أترّ أضر.

ومنها أن يُعاقَب بين حرفين فى الكلمة كما يقول بعضهم فى بَلْح فَلْح، وفى أَصْبَهَان أَصْفهان.

ومنها أن يأتى بحرفٍ بين حرفين فيأتون بكاف كجيم فيقولون فى كَمل جمل. قال ابن دريد. "وهى لغـة فى اليمن كثيرة فى أهـل بغداد" ويأتون بجيم ككاف

على العكس من الأوّل فيقولون فى رَحْل رَكْل يقرّبونها من الكاف، ويأتون بشين معجمة كجيم فيقولون فى اجتمعوا اشتمعوا، ويأتون بصاد مهملة كزاى فيقولون فى صِراط زِراط، ويأتون بجيم كزاى فيقولون فى جابر زابر، ويأتون بقاف بين القاف والكاف المعقودة، قاله ابن سعيد عن سماعه من العرب، ولا يكاد يوجد منهم من ينطق بها على أصلها الموصوف فى كتب النحويين. وقد ذكر الشيخ أثيرُ الدّين أبو حيان ذلك جميعَه فى شرحه على تسهيل ابن مالك.

الصنف الرابع — ما تلحن فيه العامة وتغيّره عن موضعه بأن يكون مفتوح الأوّل والعامّةُ تكسِره كقولهم فى جَفْن العين بفتح الجيم جِفْن بكسرها، أومفتوح الأوّل والعامّة تضمُّه كقولهم فى القَبُول الذى هو خلاف الرّدّ قُبُول بضمها، أومكسور الأوّل والعامّة تفتحه كقولهم فى دِرْهم بكسر الدال دَرْهِم بفتحها، أومكسور الأوّل والعامّة تضمُّه كقولهم فى التِّمساح بكسر التاء تُمْساح بضمها، أو مضمُوم الأوّل والعامّة تفتحه كقولهم فى العُصْفور بضم العين عَصْفُور بفتحها، أو مضموم الأوّل والعامّة تكسره كقولهم فى الظُّفُر بضم الظاء ظِفر بكسرها، أو مفتوح الوَسَط كقولهم فى القالَب بفتح اللام قالِب بكسرها، أو مكسُور الوسط والعامّة تفتَحُه كقولهم فى الرجل المُوَسْوِس، والبُرِّ المسَوِّس، والجبن المدوِّد بكسر الواو فى الثلاثة مُوَسْوَس ومُسَوَّس ومدوَّد بفتحها، أو مضموم الوسط والعامّة تفتحه كقولهم فى الجُدُد جمع جديد جُدَد بفتحها، أو محرّك الوسط والعامّةُ تسكِّنه كقولهم فى التُّحَفة بفتح الحاء تُحْفة بإسكانها، أوساكن الوسط والعامّة تحرّكه كقولهم فى الحَلْقة بإسكان اللام حَلَقة بفتحها، أو مشدّدا والعامّة تخفّفه كقولهم فى العاريَّة بتشديد الياء عارِيَة بتخفيفها، أو مخففا والعامّة تشدّده كقولهم فى الكَرَاهِيَة بتخفيف الياء كراهِيَّة بتشديدها، أو مهموزا والعامّة تحذف الهمز من أوّله كقولهم فى الإهْلِيلَج بإثبات همزةٍ فى أوّله

هِلِيلَج بحذفها، أو مهموز الوسط والعامّة تسهله . كقولهم فى المِرْءاة بإثبات الهمزة مِراة بحذفها، أو غير مهموز الأوّل والعامّة تثبت الهمزة فى أوّله كقولهم فى الكُرَة، أُكْرَة[1]، أو كان بالطـاء المعجمة فجعلته بالضاد المعجمة كالوظيفة ونحوها، أو بالضاد فجعلته بالظاء كقول بعضهم فى البَيْضة بَيْظة ، أو بالدال المعجمة فجعلتـه بالدال المهملة كالذراع، أو كان بالجيم فجعلته بالقاف كقولهم فى مَجَاديف السفينة مَقَاديف ، أو بالدال المهملة فجعلته بالتاء المثنّاة فوق كقولهم فى دَخَارِيص القميص تَخَارِيص ، ونحو ذلك ممـا شاع وذاع وفى " أدب الكاتب " لابن قتيبة نُبْـذَة من لحن أهل المشرق ، وكتاب " تثقيف اللسان " لابن مَكِّي التونسي موضوع فى لحن أهـل الغرب، وفصيحُ ثعلب مشتمل علىٰ كثير من هذا المقصد .

الصنف الخامس — الألفاظ الكتابية، وهى ألفاظٌ ٱنتحها الكُتّاب وٱنتقَوْها من اللغـة ٱستحسانا لهـا وتمييزًا لهـا فى الطّلاوة والرّشاقة علىٰ غيرها . قال الجاحظ " ما رأيتُ أمثَلَ طريقةً من هؤلاء الكُتّاب ، فإنهم ٱلتَمَسُوا من الألفـاظ ما لم يكن متوعِّرا حُوشيًّا، ولاساقطا سُوقِيًّا" . وقد ذكر ٱبن الأثير فى " المثل السائر" أن الكُتّاب عَزَلُوا اللغةَ وٱنتقَوْا منها ألفاظًا رائقةً ٱستعملوها .

ثم هذه الألفاظ أسمـاء وأفعال فالأسماء كقولك فى المدح فلانٌ غُرَّة القبيلة ، وسَنَامها، وذُؤابتها، وذِرْوتها ، وهو نَبْعة أَرُومته وأنْلُو كَتيبته ومِدْرَه عَشيرته ونحو ذلك . والأفعال كقولك فى إصلاح الفاسد أصلح الفاسدَ، ولَمَّ الشَّعَثَ ، ورَأَبَ الشَّعْب، وضَمَّ النَّشر، ورَمَّ الرَّثَّ ، وجمَعَ الشَّتَات ، وجَبَر الكسر، وأَسَا الكَلْم ، ورَقَع الخَرْق، ورَتَق الفَتْق، وشَعَب الصَّدْع . وفى " كتاب الألفاظ " لعبد الرحمن ٱبن عيسى الكاتب كفايةٌ من ذلك . وله مختصَر أربىٰ عليه . وفى " كَنْز الكُتّاب " لكُشَاجِمَ ما فيه مَقْنع .

(١) هى لغة كما فى القاموس .

المقصـــد الرابع

(فى كيفية تصرف الكاتب فى الألفاظ اللغوية ، وتصريفها فى وجوه الكتابة)

لاخفاء أنه إذا أكثر من حفظ الألفاظ اللغوية ، وعرف الألفاظ المترادفة على المعنى الواحد والمتقاربة المعانى ، تمكن من التعبير عن المعانى التى يضطر إلى الكتابة فيها بالعبارات المختلفة ، والألفاظ المتباينة ، وسهل عليه التعبير عن مقصوده ، وهان عليه إنشاء الكلام وترتيبه . وفى الأمثلة التى أوردها كشاجم فى "كنز الكتاب" حيث يعبر عن المعنى الواحد بعبارات متعددة ما يرشد إلى الطريق فى ذلك ، ويهدى إلى سلوك الجادة الموصلة إلى القصد منه .

وهذه نسخة مكاتبة منه فى التهنئة بمولود يستضاء بها فى ذلك ، وهى

قد جعلك الله من نبعة طابت مغارسها ، أرومة رسخت عروقها ، شجرة زكت غصونها ، فرع شرفت منابته ، معدن زكت علائقه ، جوهر شاعت مكارمه ، عنصر بسقت فروعه ، محتد داعت محامده ، أصل نجبت مآثره ، سنخ خلصت مناقبه ، نصاب صرحت مفاخره ، نجر نمت مساعيه ، أصل فضلت معالمه ، عنصر نضرت محاسنه ، متمى كثرت مناقبه . فالزيادة فيها زيادة فى جوهر الكرم ، مظاهر فى نمو ثرى الإفضال ، ذخيرة نفيســة لذوى الآمال ، نعمة كاملة السـعاده ، عطية شاملة البشاشة ، سرور يواجه الأولياء ، حبور تحتويه الأعداء ، عطية تصل إلى الأحرار ، ابتهاج لذوى الأخطار . فتولى الله نعمه عندك بالحراسة الوافية ، بالولاية الكافية ، الكفاية المتظاهرة ، الدفاع الكالى ، الحفاظ الداعى ، الصنع الجميل ، الدفاع الحسن ، العافية المتكاثفة . وبلغنى الخبر بهبة الله المستجدة ، الولد المبارك ، الفرع الطيب ، السليل الرضى ، الولد الصالح ، الابن البار ، الثمرة المثمرة ، السلالة الزكية ، النجل

الميمون، الذى عَمَر أفْنِيَةَ السِّيادة . زاد فى مواثيق العهد والرياسة، أرسىٰ قَواعِدَ السيادة، ثَبَّت أَسَاسَ الرِّفعة، أوثَقَ عُرى المجد، مَكَّن أركانَ الفَضْل، وَطَّد أساس المَكارِم، أكَّد علائِقَ الشَّرَف، أَمَدّ أَوَاخِيَ الكرم، أبرَمَ حِبالَ الجُود، أَمَرّ أَسْبابَ الطَّوْل، شَيَّدَ بُنْيان الكمال، أحْصَفَ أَيْدى السَّماحة، أحكَمَ قُوىٰ الرَّجاحة، أوْثَق عَقْد العُلا، رَفع دعائم الطَّهارة، أنار أعلامَ العارة، أظْهَر علاماتِ الخَيْر . فتباشَرتُ به، ٱبْتَهجتُ، ٱجْتَذَلْتُ، ٱغتَبَطْتُ، فرِحتُ، سُرِرت، ٱستَبْشَرتُ . جعله الله بَرّا تقيًّا، سيِّدا، حَميدا، مَيْمونًا، مُباركًا، طَيِّبا، عَزِيزا، سَعيدا، ظَهِيرا، عَوْنا، ناصرًا، راجحًا، زَكِيًّا، وَزَرًا، مَلْجأً . يتَقَيَّل[1] سلفه، ويَقْتفِي أثَرَهم، يَسْلُك مِنْهاجَهُم، يَسُنّ سُنَّتهم، يَتْبَع قَصْدهم، يَسِير سَيْرَتَهم، يَسعىٰ مَساعِيَهُم، يَحْذُو مِثالَهم، يَحدو حَذْوهم، يتخَلَّق بأخلاقِهم، يتَبَصَّر بصيرتَهم، ينوط أفعالهم، يترسَّم رُسومَهم . وأَيْمَن به عددَك، كَثَّر به ذُرِّيتك، أراكَ فيه غاية أمَلك، شَفَعه اللهُ بإخْوه بَرَرة، وفَّقَه الله لأداء حقِّك، جعله خيرَ خَلَف كما هو لخير سَلَف . زَيَّن به العَشِيرة، وَهَب له النَّماء، بَلَغ به أَكْلَأَ العُمُر، مَكَّن له فى رَفيع المراتب، حَقَّق فيه فِراسَتَك، وَهَب له تمامَ الفَضيلة، وأَوْزَعَك الشكر عليه، أجارك فيه من الثُّكل، سَرَّك بفائدته، أسعدك برؤيته، أطابَ عيْشَك به، متّعك بعَطِيَّته، ألْهمكَ شُكْرَ ما خوّلك، وأوصَلَ لك المَزِيدَ برحمته .

فإنه إذا أراد الكاتب أن يستخرج من ألفاظ هذا الكتاب عِدّة كتب تهنئة بولد، فعل . كما إذا قال : قد جعلك اللهُ من سَعَةٍ طابَتْ مغارِسُها، فالزيادةُ فيها زيادةٌ فى جَوْهَرِ الكرم، فتولَّى الله نعمه عندك بالحِراسة، وبلغنى الخَبَرُ بهبة الله الجديده المستجدّة، الولدِ المبارَك الذى عَمَر أفْنِيَةَ السيادة، فتباشَرْتُ به، جعله الله تعالىٰ بَرّا

---

(١) فى القاموس تقيّل أباه أشبهه .

تقيا، يتقيّل سلفه، وأيمن به تددك، وأورعك الشكر عليه، وواصل لك المزيد برحمته، كان ذلك كتابا كافيا فى هذا النوع . فتأمل ذلك وقس عليه .

النـــوع الثـانى

(المعرفة باللغة العجمية، وهى كل ما عدا العربية من التركية، والفارسيّة، والرُّوميّة، والفرنجية، والبربريّة، والسُّودان، وغيرهم، وفيه مقصدان)

المقصـــد الأوّل

(فى بيان وجه احتياج الكاتب إلى معرفة اللُّغات العجمية)

لا يخفى أن الكاتب يحتاج فى كماله إلى معرفة لغة الكتب التى تَرِد عليه لملكه أو أميره ليفهَمَها ويُجيب عنها من غير اطّلاع تَرْجُمان عليها، فإنه أصونُ لسرّ ملكه، وأبلغُ فى بُلوغ مقاصده .

وقد روى محمد بن عمر المدائنى فى "كتاب القلم والدواة" بسنده إلى زيد بن ثابت رضى الله عنه أنه قال: قال لى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «إنه يَرِدُ علىَّ أشياءُ من كلامِ السُّرْيانيّة لا أُحْسِنُها فتعلَّمْ كلامَ السُّرْيانيّة فتعلَّمْتُها فى سِتّةَ عَشَرَ يوما» وفى رواية قال: قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أتُحْسِنُ السُّرْيانيّة؟ فإنّه يأتينى كُتُبٌ بها، قلتُ لا . قال فتعلَّمْها فتعلَّمْتُها فى سبعةَ عشرَ يوما، فكنت أجيبُ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقرأُ كُتُبَ يهُودَ إذا وردَتْ عليه» وفى رواية، قال: قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا زيدُ تعلَّمْ كتابَ يهُودَ فإنّى والله لا آمَنُ يهُودَ على كتابى قال فتعلمتُ كتابَتَهم فما مَرّ لى ستَّ عشرةَ ليلةً حتّى حذقته فكُنْتُ أقرأُ له كُتُبَهم إذا كتبُوا إليه وأُجيبُ إذا كتب» وفى روايةٍ العِبْرانية بدل السُّرْيانية .

قال محمد بن عمر المدائنى بل قد قيل إن النبى صلى الله عليه وسلم كان يفهم اللغات كلها وإن كان عربيا لأن الله تعالى بعثه إلى الناس كافّة ولم يكن الله بالذى يبعث نبيًّا إلى قوم لا يفهم عنهم، ولذلك كلّم سلمان بالفارسية . وساق بسنده إلى عكرمة أنه قال سُئِل ابنُ عبّاس هل تكلّم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بالفارسيّة قال نعم، دخل عليه سلمانُ فقال له درسته وسادته قال محمد بن أبيل أظنه مرحبًا وأهلا . وحينئذ فيكون النبى صلى الله عليه وسلم إنّما أمر زيدا بتعلّم كتابة السُّريانية أو العبرانية لتحريم الكتابة عليه لا أنه أمره بتعلّم لغتهم .

المقصــد الثـانى

(فى بيان ما يتصرّف فيه الكاتبُ من اللغة العجميه)

اعلم أن الذى يسعى له تعلّمــه من اللغــات العجمية هو ما تتعلّق به حاجتُــه فى المخاطَبة والمكاتَبة .

أما المخاطبة فبأن يكونَ لسانُ ملكه بعضَ الألسُن العَجَمية أو كان الغالبَ عليه لسانٌ عجمىّ مع معرفته بالعربية كما غلبت اللغة التركية على ملوك الديار المصرية، وكما غلَبتِ اللغة الفارسـية على ملوك بلاد العِراق وفارس، وكما غلب لسانُ البربر على ملوك بلاد المغرب مع تبعيّة عسكَر كل ملك فى اللسان الغالب عليه له فى ذلك فيحتاج الكاتب إلى معرفة لسان السلطان الذى يتكلم به هو وعسكره ليكون أقربَ إلى حصول قصده من فهم الخطاب وتفهيمه، وسُرْعة إدراك ما يلقَى إليه من ذلك، وتأدية ما يقصــد تأديتــه منه، مع ما يحصــل له من الحُظْوة والتقريب بالموافقة فى اللسان، فإن الشخص يميل إلى مَنْ يخاطبه بلسانه لا سيما إذا كان من غير جنسه

كما يميل نفوسُ ملوك الديار المصرية وأمرائها وجُنْدها لمن يتكلم بالتركية من العُلَماء والكُتَّاب ومَنْ فى معناهم علىٰ ما هو معلوم مشاهد .

وأما المكاتبة فبأن يكونَ يعرِف لسان الكُتُب الواردة علىٰ ملكه ليترجَمها له ويُجِيبَ عنها بلغتها التى وردتْ بها ، فإن فى ذلك وقعًا فى النفوس ، وآستحلانا للقلوب ، وصونا للسرعن آطِّلاع ترجمان عليه ، وأمْرُ النبى صلى الله عليه وسلم لزيد بن ثابت بتعلُّم السريانية أو العبرانية على ماتقدّم ظاهرٌ فى طلب ذلك من الكاتب وحثِّه عليه .

ثم اللغات العجمية علىٰ ضربين أحدهما ماله قَلَم يُكتَب به فى تلك اللغة كاللغة الفارسية ، واللغة الرومية ، واللغة الفرنجية ونحوها ، فإن لكل منها قلما يخصُّه يُكتَب به فى تلك اللغة . والثانى ماليس له قلم يكتب به ، وهى لغات القوم الذين تغلب عليهم البَدَاوة كالترك والسُّودان . ولأجل ذلك ترد الكتُبُ من القانات ملوك الترك ببلاد الشِّمال المعروف فى القديم ببيت بركة ، والآن بمملكة أزبك باللغة المغلية بالخط العربى . وترد الكتب الصادرةُ عن ملوك السودان باللفظ العربى والخط العربى . أما اللغات التى لهـا أقلام تخصها فإن كتبهم ترد بخطهم ولغتهم كالكتب الواردة من ملوك الروم والفرنج ونحوهما ممن للغته قلم يخصه علىٰ اختلاف الألسنة واللغات .

النوع الثالث .

(المعرفة بالنحو ، وفيه مَقْصِدان)

المقصد الأوّل

(فى بيان وجه آحتياج الكاتب إليه)

لا نِزاعَ أن النحو هو قانون اللغة العربية ، وميزان تقويمها ، وقد تقدّم فى النوع الأوّل أن اللغة العربية هي رأسُ مال الكاتب ، وأُسُّ مَقَاله ، وكنز إنفاقه . وحينئذ

يحتاج إلى المعرفة بالنحو وطُرُق الإعراب، والأخذ فى تعاطى ذلك حتّى يجعله دأْبَه، ويُصيّره ديدنه ليرتسم الإعرابُ فى فِكْره، ويَدُورَ على لسانه، وينطلقَ به مَقالُ قلمه وكَلِمه، ويزولَ به الوهم عن سجيّته، ويكونَ على بصيرة من عبارته. فإنه إذا أتى من البلاغة بأعلى رتبة ولحنَ فى كلامه، ذهبتْ محاسن ما أتى به، وٱنهدمتْ طبَقة كلامه وأُلغِيَ جميع ما حسّنه، ووُقِف به عند ما جهله. قال فى "المثل السائر" وهو أوّل ما ينبغى إثبات معرفته، على أنه ليس مختصًّا بهذا العلم خاصّةً بل بكل علم، لا بل ينبغى معرفتــه لكل أحد ينطق باللســان العربىّ ليأمنَ مَعَرّة اللحن. قال صاحب "الرَّيحان والرَّيعان" ولم يزل الخلفاءُ الراشدون بعد النبى صلى الله عليه وسـلم يحُثُّون على تعلُّم العربيّة، وحفْظِها والرِّعاية لمعانيها، إذ هى من الدِّين بالمكان المعلوم، والمحلِّ المخصوص. قال عثمان المهرىّ «أتانا كتابُ عمرَ بنِ الخطاب رضى الله عنه، ونحن بأَذْرَبيجانَ يأمرنا بأشياءَ، ويذكر فيها "تعلَّمُوا العربيّة فإنها تثبِّت العقلَ، وتزيد فى المُرُوءة"». وكان خالد بن يزيد بن معاوية أخُ خجاءه يوما فقـــال إن الوليـــدَ آبن عبد الملك يَعْبَثُ بى ويحتقِرُنى، فدخل خالد على عبد الملك والوليدُ عنده فقال يا أمير المؤمنين! إن الوليد قد ٱحتقر ٱبنَ عمه عبدَ الله وٱستصغره، وعبد الملك مُطْرِق فرفع رأسَه وقال ﴿إِنَّ المُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ الآية — فقال خالد ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً﴾ الآية — فقال عبدُ الملك أفى عبد الله تكلِّمنى؟ وقد دخل علىّ فما أقام لسانَه لحنًا — فقال خالد أفعلى الوليد تُعوِّل؟ فقال عبد الملك إن كان الوليد يلْحَن فإن أخاه سليمانُ — فقال خالد وإن كان عبد الله يلْحن فإن أخاه خالدٌ فى كلام كثير طويل ليس هذا موضع ذكره.

وقال الرشيد يوما لبنيه "ما ضرّ أحدَكم لو تعلّم من العربيّة ما يُصلِح به لسانه؟ أيسُرّ أحدَكم أن يكونَ لسانُه كلسان عبــده وأَمَته؟". ومن كلام مالك بن أنس

"الإعراب حَلْيُ اللِّسانِ فلا تَمْنَعوا أَلْسِنَتَكُم حُلِيَّها" . ولله درّ أبى سعيد البصرىّ ! حيث يقول

النَّحْوُ يَبْسُط مِنْ لِسَانِ الأَلْكَنِ * والمَرْءُ تُكْرِمُــه إذا لم يَلْحَنِ
وإذا طَلَبْتَ من العُلُومِ أَجَلَّهَــا * فأَجَلُّها عِنْدِى مُقِيمُ الأَلْسُنِ

قال صاحب "الريحان والريعان" واللحنُ قبيح فى كبراء الناس وسَرَاتِهم ، كما أن الإعرابَ جمال لهم ، وهو يرفع الساقط من السِّفْلة ويرتقِى به إلىٰ مرتبة تُلحِقه بمن كان فوقَ نَمَطه وصِنْفه . قال وإذا لم يتجه الإعراب فسد المعنىٰ ، فإن اللحن يغيِّر المعنىٰ واللفظ ويقلبُه عن المراد به إلىٰ ضــدّه حتّى يفهم السامعُ خلاف المقصود منه . وقد رُوِى أن أعرابيا سمع قارئا يقرأ ﴿إِنَّ اللهَ بَرِىءٌ مِنَ المُشْرِكِينَ ورَسُولِه﴾ بجرّ رسوله فتوهم عطفه علىٰ المشركين فقال أَوَ بَرِئَ اللهُ من رسوله ؟ ، وبلغ ذلك عمرَ بنَ الخطاب رضى الله عنه فأمر أن لا يَقْرأَ القُرءانَ إلا مَنْ يُحْسِن العربيــة . على أن الحسن قد قرأها بالجرّ علىٰ القَسَم وقد ذهب علىٰ الأعرابىّ فهمُ ذلك لجفائه . وقرأ آخَرُ ﴿إِنَّمَا يخشىٰ اللهُ من عِبَادِهِ العلماءَ﴾ برفع الأوّل ونصب الثانى ، فوقَع فى الكفر بنقل فتحة إلىٰ ضمة وضمة إلىٰ فتحة فقيل له يا هذا إن الله تعالى لا يخشى أحدا ! فتنبه لذلك وتفطَّن له . وسمع أعرابىّ رجلا يقول أشهد أن محمدا رسولَ الله بفتح رسول الله فتوهم أنه نصبه على النعت فقال يفعل ماذا ؟ . وقال رجلٌ لآخر ما شأنَك ؟ بالنصب فظنّ أنه يسأل عن شيءٍ به فقال عِظَم فى وجهى . وقال رجل لأعرابىّ كيف أهْلِك ؟ بكسر اللام وهو يريد السؤال عن أهــله فتوهَّم أنه يسأل عن كيفية هلاك نفسه فقال صَلْبا . ودخل رجل علىٰ زيادِ بن أبيه فقال إنَّ أبُونا ماتَ وإن أخِينا وَثَبَ علىٰ مال أبانا فأكله — فقال زياد لَلَّذى أضعتَه من كلامك أضَرُّ عليك ممــا أضعْتَه من مالك . وقيل لرجل من أين أقبلت ؟ فقال منْ عند أهْلُونا ، فحسده آخر

حين سمعه وطن ذلك وصاحةً فقال أنا والله أعلم من أين أحدها ؟ من قوله ﴿شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا﴾ فأضحكَ كلًّ منهما من نفسـه . قال صاحب "الريحان والريعان"
وكان مَن يُؤْثَر عقلُه من الخلفاء يعاقِب على اللحن ويفر من خطإ القول ، ولا يجيز أن يُخاطَب به فى الرسائل الدِّيوانية ، ولا أن يُوقَف به على رءوسهم فى الخُطَب المَقَامِيَّة
قال وهو الوجه . فأنديتُهم مَطْلَب الكمال ، ومَطانُّ الصواب فى إحكام الأفعال ، فكيف فى إحكام الأقوال . قال ابن قادم النحوى "وجه إلىّ إسحاق بن إبراهيم المُصْعَبى" وهو أمير فأحضرنى فلم أدرِ ما السببُ ، فلما قرُبت من مجلسـه تلقّانى كاتبُه على الرسائل ميمونُ بنُ إبراهيم وهو على غاية القَلَق والجزَع ، فقال لى بصوت خفىّ إنه إسحاق ! ومرّ غير متلبث حتّى رجع إلىٰ إسحاق ، فراعنى ما سمعتُ ، فلما مَثَلْت بين يديه ، قال كيف يقال وهذا المـال مالٌ أو وهذا المـالُ مالا ، فعلمت ما أراد ميمونٌ الكاتبُ فقلتُ له الوجهُ وهذا المـال مالٌ ويجوز وهذا المـال مالاً ، فأقبل إسحاق على ميمون كاتبه بغلظة وفَظَاظة ثم قال «آلزم الوجهَ فى كُتُبك ودَعْ ما يجوز ! » ورمى بكتاب كان فى يديه ، فسألت عن الخبر فإذا بميمون قد كتب عن إسحاق إلى المأمون وهو ببلاد الروم وذكر مالا حمله إليه فقال «وهذا المـالُ مالا» ، فخط المأمون على الموضع من الكتاب ووقَّع بخطه فى حاشيته تكاتِبنى باللحن ؟ ويقال إنه لم يتجـاوز موضع اللحن فى قراءة الكتاب فقامتْ عنـد إسحاق ، فكان ميمونٌ الكاتبُ بعـد ذلك يقول لا أدرى كيف أشـكُر ابنَ قادم بَقىّ علىّ رُوحى ونعْمتى . ووقف بعضُ الخُلفاء على كتاب لبعض عُمّاله فيه لحن فى لفظه فكتب إلى عامله قَنِّعْ كاتِبَك هذا سوطًا معاقبةً علىٰ لحنه . قال أحمد بن يحيى كان هذا مقدارَ أهل العلم ، وبحسبه كانت الرَّغبةُ فى طلبه والحذَر من الزَّلل . قال صاحب "الريحان والريعان" فكيف لو أبصر بعضَ كتّاب زماننا هـذا ؟ . قلت قد قال ذلك فى زمانه هو وفى الناس بعض الرَّمق والعلمُ ظاهر وأهلُه مُكرَمُون ، وإلا فلو عُمّر إلى زماننا نحن لقال ﴿تلكَ أُمَّة قَدْ خَلَتْ﴾ .

ثم المَرجِع فى معرفة النحو إلى التلقّى من أفواه العلماء الماهرين فيه، والنظر فى الكُتُب المعتمَدة فى ذلك من كتب المتقدّمين والمتأخرين .

واعلم أن كتب النحو من المبسوطات والمختصرات والمتوسطات أكثر من أن يأخذها الحصر . ومن الكتب المعتمدة فى زماننا عند أبناء المشرق "المفصَّل" للزمخشرى و"الكافية" لابن الحاجب. وعند المصريين كتبُ ابن مالك كالتسهيل والكافية الشافية والألفية وغير ذلك من كتب ابن مالك وغيرها .

قال أبو جعفر النحاس وقد صار أكثر الناس يطعُنُ على متعلّمى العربية جهلا وتعدّيا حتّى إنهم يحتجّون بما يَزْعُمون أن القاسم بن مُخَيْمِرة قال «النحو أوّله شُغل وآخره بَغْى» قال وهذا كلام لامعنى له لأن أوّل الفقه شُغْل وأوّل الحساب شُغْل وكذا أوائلُ العلوم. أفترى الناس تاركين العلومَ من أجل أن أوّلها شغل؟ . قال وأمّا قوله « وآخره بغى » إن كان يريد به أن صاحب النحو إذا حذقه صار فيه زهوٌ واستحقرَ مَنْ يلْحن فهذا موجود فى غيره من العلوم من الفقه وغيره فى بعض الناس وإن كان مكروها . وإن كان يريد بالبغْى التجاوُزَ فيما لا يحِلُّ فهذا كلامٌ مُحال فإن النحو إنما هو العلم باللغة التى نزل بها القرءانُ وهى لغة النبى صلى الله عليه وسلم وكلامُ أهل الجنة وكلامُ أهل السماء . ثم قال بعد كلامٍ طويل وقد كان الكُتّاب فيما مضى أرغبَ الناس فى علم النحو وأكثَرَهم تعظيما للعلماء حتّى دخل فيهم مَنْ لايستحقُّ هذا الاسم فصَعُبَ عليه باب العدد فعابوا من أعرب الحساب، وبَعُدَتْ عليهم معرفة الهمزة التى ينضمّ ويفتح ما قبلها، أو تختلف حركتها وحركة ما قبلها فيكتبون يقرؤه بزيادة ألف لامعنى لها فى كلام آخر يتعلق بالهجاء ليس هذا موضع ذكره . — أمّا التعمّق فى الإعراب والمبالغةُ فيه فإن حكمه فى الاستكراه حكمُ التقعُّر فى الغريب، وقد كانوا يذُمّون مَنْ يتعاناه، ويَسْخَرون ممن يتعاطاه . قال الأصمعى

خاصمَ عيسىٰ بن عمـر النحويُّ رجلا إلىٰ بلال بن أبى بُرْدَةَ فجعـل عيسىٰ يُشْبِـع الإعراب ويتعمّق فى الألفاظ، وجعل الرجل ينظر إليه — فقال له القاضى "لأن يَذْهَبَ بعضُ حَقِّ هذا أحَبُّ إليه مِنْ تركه الإعرابَ، فلا تتشاغَلْ به وآقصدْ بحُجَّتك".
وخاصم نحوىّ نحويًّا آخرَ عند بعض القُضاة فى دَيْن عليه فقال "أَصْلَحَ الله القاضى! لى علىٰ هذا دِرْهمان"— فقال خصمه "والله أصلحك الله! إن هى إلا ثلاثةُ دراهم ولكنه لظهُو ر الإعراب ترك من حقه درهما" . فهذا وشبهه قد صـار مذموما والمتشَدِّقُ به مَلُوما ، ولذلك كان بعضُ الكتّاب لشدّة آقتداره علىٰ الإعراب يُعرِب كلامه ولا يُخَيِّل إلىٰ السامع أنه يُعْرِب، فإن عرض مع التعمق فى الإعراب لحن، كان ذلك أبلغَ فى الشَّناعة، وأجْدَرَ بتوجُّه اللوم علىٰ صاحبه والسخرية من المتكلِّم به .
وقد قال الجـاحظ « إنّ أقبح اللحن لحنُ أصحاب التقعير والتشديق والتمطيط والجهورية والتفخيم » . قال « وأقبح من ذلك لَحْنُ الأعاريب النازلين علىٰ طريق السابلة وبقُرْب مجامع الأسواق » . وعلىٰ الجملة فالنحو لا يُستغنىٰ عنه ولا يوجد بدٌّ منه، إذ هو حَلْيُ الكلام، وهو له كما قيل كالملح فى الطعام . قال فى "المثل السائر" والجهل بالنحو لا يقْدَح فى فصاحةٍ ولا بلاغةٍ ولكنه يقْدَح فى الجهل به نفسه لأنه رُسومُ قوم تواضَعُوا عليه وهم الناطقُونَ باللغة فوجب آتباعهم، ولذلك لم ينظم الشاعر شعره وغرضُه منه رفعُ الفاعل ونصبُ المفعول أو مجرى مَجْراهما وإنما غرضهُ إيراد المعنىٰ الحسَنِ فى اللفظ الحسن المتصِفَيْن بصفة الفصاحة والبلاغة. قال ولذلك لم يكن اللحنُ قادحا فى نفسِ الكلام لأنه اذا قيل جاء زيد راكبٌ بالرفع لو لم يكن حسنا إلا بأن يقال جاء زيد راكبا بالنصب لكان النحو شرطا فى حسن الكلام وليس كذلك فتبين أنه ليس الغرض من نظم الشـعر إقامة إعراب كلمـاته وإنمـا الغرضُ أمر وراء ذلك — وهكذا يجرِى الحكم فى الخُطَب والرسائل من المنثور مع

ما حُكِي أن اللحن وقع لجماعة من الشعراء المتقدّمين في شعرهم ، كقول أبي نُوَاس في محمد الأمين

يا خَيْرَ مَنْ كانَ وَمَنْ يَكُونُ * إلا النّبيُّ الطاهرُ المأمونُ

فرفع المستثنى من الموجب . وكقول المتنبي

أرأيتَ هِمَّـةَ ناقتِي في ناقةٍ * نَقَلَتْ يَدًا سُرُحا وخُفًّا مُجْمَرَا
تَرَكَتْ دُخَانَ الرِّمْثِ في أوْطانِها * طَلَبًا لقَوْمٍ يُوقِدُونَ العَنْـبَرَا
وتَكَرَّمَتْ رُكَباتُها عن مَبْرَكٍ * تَقَعانِ فيه وليس مِسْكًا أذْفَرَا

فجمع في حالة التثنية ، لأن الناقة ليس لها إلا رُكْبتانِ وقد قال رُكَباتها .

واعلم أن اللحن قد فَشَا في الناس ، والألسِنَةَ قد تغيرت حتّى صار التكلم بالإعراب عَيْبا ، والنطقُ بالكلام الفصيح عِيًّا . قلت والذي يقتضيه حالُ الزمان ، والجرى على منهاج الناس أن يحافَظ على الإعراب في القرءان الكريم ، والأحاديث النبوية ، وفي الشعر والكلام المسجوع ، وما يُدوّن من الكلام ، ويُكتَب من المراسلات ونحوها ، ويغتفر اللحنُ في الكلام الشائع بين الناس الدائرِ على ألسنتهم مما يتداولُونه بينهم ويتحاوَرُون به في مخاطباتهم ، وعلى ذلك جَرَت سُنَّة الناس في الكلام مذ فَسَدت الألْسِـنة ، وتغيرت اللغة حتّى حكى أن الفرّاء مع جلالة قدْره وعلوّ رتبته في النحو دخل يوما على الرشيد فتكلم بكلام لحن فيه ، فقال جعفر بن يحيى يا أمير المؤمنين إنه قد لحن — فقال الرشيد للفرّاء أتَلْحن يا يحيى؟ فقال يا أمير المؤمنين ! إن طباع أهل البَدْو الإعرابُ وطباع أهلِ الحَضَر اللحنُ فاذا حفِظتُ أو كتبت لم أَلْحَن وإذا رجعت الى الطبع لَحَنت — فاستحسن الرشيد كلامه . وقد قال الجاحظ في كتابه " البيـانِ والتبيين " « ومتى سَمِعت حفظك اللهُ نادرةً من كلام الأعراب فإياك أن

تحكيها إلا مع إعرابها ومخارج ألفاظها ، فإنك إن غيرتها بأن لحنت فى إعرابها أو أخرجتها مخرج كلام المولّدين والبلديّين، خرجتَ من تلك الحكاية وعليك فضلٌ كبير، وإن سمعتَ نادرة من نوادر العوامّ ومُلْحةً من مُلَحهم فإيّاك أن تستعمل لها الإعرابَ أو تخيرَ لها لفظا حسنا ، فإن ذلك يُفسِد الإمتاع بها ويُخرجها من صُورتها التى وُضعت لها ويُذْهبُ ٱستطابتَهم إياها » . قال "واللحن من الجوارِى الظِّراف، ومن الكَواعب النَّواهِد، ومن الشَّوابِّ الملاح، ومن ذوات الخُدُور أيسرُ وربما ٱستُمْلح الرجلُ ذلك منهنّ مالم تكن الجارية صاحبةَ تكلُّف" ولكن إذا كان اللحن علىٰ سجيّة سُكّان البلد كما يستملحون اللُّثْغاء إذا كانتْ حديثة السنّ فإذا أسنت وٱكتهلَتْ شُئِم ذلك الاستملاح . قال "وممن ٱستملح اللحن فى النساء مالكُ بن أسماء فقال فى بعض نسائه

أمُغَطّى مِنّى علىٰ بَصَرِى لِلْـ * ـحُبِّ أم أنتِ أكملُ الناس حُسْنا؟
وحديثٍ ألَذُّه هو مِمّا * تَشْتَهيه الأسماع يُوزَنُ وَزْنا
مَنْطِقٌ صائبٌ وتَلْحَنُ أحيا * نًا وخَيْرُ الحَدِيثِ ما كانَ لَحْنا"

والناس فى ذلك كله بحسب البلاد وأهلها ،ألا ترىٰ أن العرب وإن تغيرت ألسنتُهم بمخالطة مَنْ عداهم فإنهم لا يخلُو كلامُهم من مُوافقة الإعراب فى بعض الكلام والجَرْيِ علىٰ قواعد العربية خصوصا عَرَب الحجاز وأهل البادية منهم . وقد قال الجاحظ فى أثناء كلامه «ولأهل المدينة ألْسِنَة ذَلِقة، وألفاظ حَسَنة، وعبارة جَيِّدة، واللحن فى عوامِّهم فاشٍ وعلىٰ مَنْ لم ينظر منهم فى النحو غالبٌ» .

المقصـــد الثـانى

(فى كيفية تصرّف الكاتب فى علم العربيـــة)

وٱعلم أن ٱنتفاع الكاتب بالنحو من وجهين أحدهما الإعراب وما يُلْحَق به . ومن أهم ما يُعتنىٰ به من ذلك النَّسَبُ لكثرة ٱستعماله فى الألقاب ونحوها ، وكذلك العَدَدُ فإنه مما يقَعُ فيه اللَّبْس على المبتدئ، ومحل ذلك كلّه كتبُ النحو. الثانى فيما يقع الكاتب فيه بطريق العَرَض، فيحتاج من ذلك إلىٰ معرفة النُّحاة ومشاهير أهل العربية كأبى الأسود الدؤلى، وسيبويه، والفرّاء، وأبى على، وأبى عثمان المـازنىّ وغيرهم من المتقدّمين، وٱبن عُصْفور وٱبن مالك وٱبن مُعْطى وغيرهم من المتأخرين، وكذلك أسماء كتبهم المشهورة فى هـذا الفن من المبسوطـات والمختَصَرات من كتب المتقدّمين والمتأخرين ومصطلحاتهم التى ٱصطلحوا عليها من ذكر الأسم، والفعل، والمعرفة، والنكرة، والمبتدإ، والخبر، والحال، والتمييز، وألقاب الإعراب من الرفع والنصب والجرّ والجزم وغير ذلك ممـا تجرى به عباراتهم ، ويدور على ألسنتهم فى ٱستعمالاتهم من قولهم ضرب زيد عمرا ونحو ذلك ليُدْرِج ما عَنّ له من ذلك فى خلال كلامه حيث ٱحتاج إليه فى التواقيع والمكاتَبات وغيرها .

قال فى «التعريف» فى وصية نحوىّ وهو زيد الزّمان الذى يضربُ به المثَل، وعمرو الأوان ، وقد كَثُر من سيبويه المَلَل ومازنِىُّ الوقت لكنه لم يَسْتَبِح الإبل ، وكسائىُّ الدهر الذى لو تقدّم لمـا ٱختار غيرَه الرشيدُ للأمون، وذو السُّودد لا أبو الأسود على أنه ذو السـابقة والأَحْرالممنون . وهو ذو البرّ المأثور، والقـدر المرفوع ولواؤه المنصوبُ وذيلُ فخاره المجرور . والمعروف بما لا يُنْكَر لمثله من الجَزْم ، والذاهبُ عملُه الصالح بكل العوامل التى لم يبق منهـا لحسوده إلا الجَزْم . وهو ذو الأبنية التى

لا يفصح عن مثلها الإعراب ، ولا يُعرف أفصحُ منها فيما أُخذ عن الأعراب .
والذى أصبحتْ أهدابُه فوق عمائم العمائم ثلاث ، ولم يزل طُولَ الدهر يُشْكَر
منه أمسُه ويومُه وغدُه وإنما الكلمات ثلاث . فليتصدّ للإفاده ، وليعلّمْهم مثل
ما ذكر فيه من علم النحو نحو هذا وزياده . وليكُنْ للطلبة نَحْا به يُهْتدىٰ ، وليرفعْ
بتعليمه قدر كل حر يكون خبرًا له وهو المبتدا . وليقدّم منهم كلَّ من صلَح للتحرير ،
وآستحق أن يُنصَب إماما بالتمييز . وليُورِدْ من موارِده أعذبَ النِّطاف ، وليحز إليه كلَّ
مضاف إليه ومضاف . وليوقفهم علىٰ حقائق الأسماء ، ويعرّفْهم دقائق البحوث
حتّىٰ آشتقاقَ الآسم هل هو من السموّ أو من السَّماء . ولْيُبيّن لهم الأسماء العجمية
المنقولَة والعربية الخالصه ، ويدلَّهم علىٰ أحسن الأفعال لا ما يتشبَّه بصفات كان
وأخواتها من الأفعال الناقصه ، ولْيُحفِّظْهم المثل وكلماتِ الشعراء ، ولْينصب نفسه لحَذّ
أذهان بعضهم بعض نَصْب الإغراء . وليعامل جماعةَ المستفيدين منه بالعَطْف ،
ومع هذا كله فليترفّقْ بهم فما بلغ أحدٌ علما بقوّة ولا غايةً بعَسْف .

وكما قال الشيخ جمال الدين بن نُباتة رحمه الله من جملة توقيع مدرس «ولأنه
فى البيان ذو الآنتقاد والآنتقاء ، والعربىّ الذى كان لرِقَاب الفضلاء آبنَ مالك فإنّ
قرينه أبو البقاء .

وكما كتب القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر فى رسالة آقتُرحت عليه فى هذا
الباب وهى «حرس الله نعمة مولاى ! ، ولا زال كَلِمُ السعد من آسمه ، وفعله ،
وحرف قلمه يأتلف ، ومبادَى جُوده لا يُرخَّم وأحمدُ عيشه لا ينصرف . ولا عَدِم
مستوصلُ الرِّزق من براعته التى لا تقف الوصلَ [1] ولا عَدِمت نُحاة الجُود

(١) بياض فى الأصل .

من نَواله كلَّ موروث ومعدود ، ومن فضله وطَوْله كل مقصور وممدود . ولا خاطَبتِ الأيام مُلتَمِسه إلا بلام التوكيد ، ولا عدوّه الا بلام الجحود . هذه المفاوضة اليه أعزه الله ! تفهمه أنا بلغنا أن فلانا أضمر سيدُنا له فِعلا عدا به متتصبا للمكايد ومعتَلًّا وليس موصولا كالذى بصلة وعائد . وما ذاك إلا لأن معرفتَها داخلها التنكير، وقُدِّر لها من الاحتمالات أسوأ التقدير . وبعوتَ صُحْبته تكررت فجار قَطعُها بسبب ذلك التكرير . وسيدُنا يعلم بالعلمية المذْكورَ[1] من الإبانة ، وما لإضافته إلىٰ جلالته من الانتماء الذى يجب أن يكون لأجله عيْشُه به حفصا على الإضافة . وكان الظنّ أنّ الأشغالَ التى جُمِعت له لا تكون جمعَ تكسير بل جمع سلامة ، وآية لاتكلف تعليما على وصول لأنه فى الديوان كالحرف لا يخبر به ولا عنه والحروفُ ليست له علامة . وحاش لله ! أن يُصبح معرَبُ إحسانه مبنيّا ، وأن يزيلَ كرمه يكون للنكرات بأىّ محكيّا أو أن يأتى سيدُنا بالمـاضى من الأفعال فى معنىٰ الاستقبال ، أو أن يجعل بَدلَ عطفه الإبدال للاشتمال . أو يدعم من مودّته مُظهَرا ، أو أنه لا يجعل لمبتدا محبته مُخْبَرا ، أو أن لا يكون له من أبنية تدبير سيدنا مصدرا . ولا بَرِح سيدُنا نسيجَ وحدِه فى أموره ! ولا زال حلمُه يتناسى الهفوات لا يشتغِلُ مفعولُه عن فعله بضميره .

النــوع الرابع

(المعــرفة بالتصــريف)

ويجب علىٰ الكاتب المعرفة به ليعرف أصل الكلمة ، وزيادتها ، وحذفها ، وإبدالها فيتصرّف فيها بالجمع والتصغير والنسـبة إليها وغير ذلك لأنه إذا أراد جمع الكلمة أو تصـغيرَها أو النسبةَ اليها ولم يعرِف الأصلَ فى حروف الكلمة وزيادتَها وحذفَها وإبدالَها ، ضلّ حينئذ عن السبيل ، ونشأ من ذلك محال للعائب والطاعن .

---

[1] كذا فى الاصل بالدال المهملة وذكر الناسخ بصدد بعضه على بعض وهو غير مناسب فلعله مصحف عن المركوز بالزاى بمعنى المعلوم فتامل

قال ضياء الدين بن الأثير فى "المثل السائر" وتظهر لك فائدة ذلك ظُهورا واضحا فيما إذا قيل للنحوىّ الجاهل بعلم التصريف كيف تصغّر لفظةَ اَصطراب فإنه يقول صُطَيريب[1]، ولا يلام فى ذلك لأنه الذى تقتضيه صناعة النحو . لأن النحاة يقولون إذا كانت الكلمة علىٰ خمســة أحرف وفيهــا حرف زائد أو لم يكن حذفته منها، نحو قولهم فى مطلق مطيلق وفى جَحْمرِش جحيمرش[2] . ولفظة مطلق علىٰ خمسة أحرف وفيها حرفان زائدان هما الميم والنون، إلا أن الميم زيدت فيها لمعنًى فلذلك لم تُحذَف وحُذِفت النون. وأما لفظة جَحْمَرِش فخماسية لا زيادة فيها وحذف منها حرف أيضا . فإذا بنىٰ النحوىُّ علىٰ هــذا الأصل، فإما أن يحذف مــن لفظة اَصطراب الألف أو الصاد أو الطاء أو الراء أو البــاء، وهذه الحروف غير الألف ليست من حروف الزيادة فلا تحذف بل الأولى أن يحذف الحرف الزائد ويترك الحرف الأصلى فيصغر لفظة اَصطراب حينئذ علىٰ صطيريب، ولم يعلم النحوى أن الطاء فى اَصطراب مبدلة من تاء وأنه إذا أريد تصغيرها تعاد إلىٰ الأصل الذى كانت عليه . فيقال صتيريب فإن هذا ممــا لا يعلمه إلا التصريفىّ والنحاة أطلقوا ما أطلقوه من ذلك اَتكالا منهم علىٰ تحقيقه مــن علم التصريف، إذ كل من النحو والتصريف علم منفرد برأسه، فتكليف النحوىّ الجاهل بعلم التصريف إلىٰ معرفة ذلك كتكليفه ماليس من علمه.

قال فثبت بمــا ذكر أن علم التصريف مما يُحتاج إليه لئلا يغلط فى مثل ذلك.

قال ومن العجب أن يقال إنه لا يُحتاج إلىٰ معرفة التصريف وهذا نافع بن أبى نعيم وهو من أكبر القرّاء السبعة قدرا وأفخمهم شأنا قد قال فى مَعَايِش معائِش بالهمز، وهذه اللفظة ممــا لايجوز همزه بإجماع من علمــاء العربية لأن اليــاء فيها ليست

(١) أى بإثبات الياء بعــد الراء وهى ياء التصغير وليست مبدلة عن ألف الأفعال كما قد يتوهم بل ألف الأفعال محذوفة

(٢) كذا فى الأصل وصوابه جحمر كما نصت عليه القواعد الصرفية أنظر باب التصغير من الكتاب

مبدلة من همزة وإنما الياء التي تبدل[1] من الهمزة في هذا الموضع تكون بعد ألف الجمع المانع من الصرف ويكونُ بعدها حرفٌ واحد ولا يكون عينا نحو سَفَائن، ولم يعلم نافع الأصلَ في ذلك فأُخذ عليه وعيبَ عليه من أجله وذلك أنه اعتقدَ أن مَعِيشةً على وزن فَعِيلة تجمع على فَعائل ولم ينظر إلى أن الأصل في مَعِيشة مَعْيِشة على وزن مَفْعِلة لأن أصل هذه الكلمة من عاشَ لكن[2] أصلها عيش على وزن فَعَل ، ويلزم مضارع فَعَل المعتــل العين يفعل لتصح الياء نحو يَعْيِشُ ثم تنتقل حركةُ العين إلى الفاء فتصير يَعِيش ثم يبنى من يَعِيشُ مفعول فيقال مَعْيُوشٌ به كما يقال مَسْيُور به ثم يخفف ذلك بحذف الواو فيقال مَعِيش به كما يقال مَسِير به ثم تؤنث هذه اللفظة فتصير مَعِيشة . ومن جملة من عابه أبو عثمان المـازنى فقال في كتابه في التصريف إن نافعا لم يدر ما العَرَبِيّة .

وحكى أبو جعفر النحاس أن عبيد الله بن سليمان نظر في بعض كُتُب الكُتّاب فإذا فيه حرف مُصْلَح هو وقد لَهَوْت عن جباية الخراج ، فاغتاظ وقال لا يحكه غيرى فحكّه فأصلحه وقد لَهِيت بالياء بدل الواو . قال وحكى عن أحمد بن إسرائيل مع تقدّمه في الكتابة أنه قال . وكانت رسومهم مُساناةً ثم صارت مشاهرة ثم صارت مُياومةً ثم صارت مُساعاةً، فأخطأ . وكان يجب أن يقول مُساوَعة . قال في "المثل السائر" وكثيرا ما يقع أهلُ العلم في مثل هذه المواضع فكيف الجُهّال الذين لا معرفةَ لهم بها ولا اطّلاعَ لهم عليها ، وإذا علم حقيقة الأمر في ذلك لم يقع الغلط فيما يُوجِب قَدْحا ولا طَعْنــا . قال وقد وقع الغَلَط لأبى نُوَاس فيما هو أظهر من ذلك، وهو قوله في صفة الخمر

كأنّ صُغْرى وكُبْرى مِنْ فَوَاقِعها[3] * حَصباءُ درٍّ على أرضٍ من الذّهب

(١) أى التى تكون الهمزة بدلا منها

(٢) لعله التى كما نصصه السياق

(٣) المشهور فقاقعها انظر شرح الأشمونى فى باب أفعل التفضيل

وإن فُعْلىٰ أفعلَ لا يجوز حذف الألف واللام منها وإنما يجوز حذفهما من فُعْلىٰ التى لا أفعَلَ لها نحو حُبْلىٰ الا أن تكون فُعْلىٰ أفعلَ مضافةً، وها هنا قد عَرِيت عن الإضافة وعن الألف واللام وكان الصواب أن يقال كأن الصُّغْرىٰ والكُبْرىٰ أو كأن صُغْراها وكُبْراها . فانظر كيف وقع أبو نُوَاس فى مثل هذا الموضع مع قُرْبه وسُهُولته . وغلط أبو تمام أيضا فى قوله

بِالْقائِمِ الثّامِنِ الْمُسْتَخْلَفِ ٱطَّأَدَتْ * قَواعِدُ الْمُلْك مُمتَدًّا لَها الطُّول

فقال ٱطّأدت والصواب ٱتَّطَدَتْ لأن التاءَ تُبْدل من الواو فى موضعين أحدهما مقيس عليه كهذا الموضع لأنك إذا بنيت ٱفتعل من الوعد قلت ٱتَّعَدَ وكذلك ٱتَّطَدَتْ فى البيت فإنه من وَطَدَ يَطِد كما يقال وَعَدَ يَعِد، فإذا بُنِى منه ٱفْتَعل قيل ٱتَّطَدتْ ولا يقال ٱطّأد . وأما غير المَقِيس فقولهم فى وُجاه تُجاه وقالوا تُكْلان وأصله الواو لأنه من وَكَل فأبدلت الواو تاء للاستحسان؛ ثم قال إن المخطئ فى التصريف أندرُ وقوعا من المخطئ فى النحو لأنه قلَّما تَقَع له كلمة يحتاجُ فى ٱستعمالها إلىٰ الإبدال والنقل فى حروفها . والمعصوم من عصمه الله، والكلام فى تصرُّف الكاتب فى التصريف علىٰ ما تقدّم فى النحو .

النــــوع الخـامس

(المعرفة بعلوم المعانى ، والبيان، والبديع، وفيه مقصدان)

المَقْصِـــــد الأوّل

(فى وجه ٱحتياج الكاتب إلىٰ ذلك)

اعلم أنه لما كانت صناعةُ الكتابة مبنيّة علىٰ سلوك سُبُل الفصاحة وٱقتفاء سَنن

البلاغة ، وكانتْ هذه العلومُ هي قاعدةَ عمود الفصاحة ومَسْقِطَ حجرِ البلاغة ، اضْطُرَّ الكاتب إلىٰ معرفتها ، والإحاطةِ بمقاصدها ليتوصَّل بذلك إلىٰ فهم الخطاب ، وإنشاء الجواب ، جاريا في ذلك علىٰ قوانين اللغة في التركيب ، مع قُوّة المَلَكة علىٰ إنشاء الأقوال المركَّبة المأخوذةِ عن الفصحاء والبلغاء من الخُطَب والرسائل والأشعار من جهة بلاغتها وخُلوّها عن اللُّكَن ، وتأدية المطلوب بها ، وتكميل الأقاويل الشِّعرية نَثْراً كانت أو نَظْما ، في بلوغها غايتَها وتأدية ماهو مطلوب بها ، وأنها كيف تتعيَّن بحسب الأغراض لتفيد ما يحصل بها من التخيل الموجب لانتقال النفس من بسط وقبض ، والشيء يُذْكَر بضدّه ، فيذكُر المحاسنَ بالذات والعيوبَ بالعرض .

قال أبو هلال العسكري "وإن صاحب العربية إذا أخَلَّ بطلب هذه العلوم ، وفَرَّط في التماسها ، فاتَتْه فضيلتها ، وعَلِقتْ به رذيلة فوتْها ، وعَفَّى علىٰ جميع محاسنه ، وعَمَّى سائر فضائله ، لأنه إذا لم يَفْرُق بين كلامٍ جيِّد ، وآخر رديءٍ ، ولفظٍ حَسَن ، وآخر قبيح ، وشِعْر نادر ، وآخَرَ بارد ، بانَ جهلُه ، وظهَر نقْصه ، وإذا أراد أن ينشئ رسالة أو يَصنَعَ قصيدة وقد فاتته هذه العلوم ، مزَجَ الصَّفْوَ بالكدَر ، وخلط الغُرر بالعُرَر ، فجعل نَفْسه مَهْزأة للجاهل ، وعبرةً للعاقل . وكذلك إذا أراد تصنيفَ كلام منثور أو تأليفَ شِعر منظوم وتخطَّى هذه ، ساء اختيارُه ، وقَبُحت آثارُه ، فأخذ الرديءَ المردود ، وترك الجَيِّد المقبول ، فدلّ علىٰ قصور فهمه ، وتأخر معرفته ، مع ما في هذه العلوم الثلاثة من الوسيلة إلىٰ فهم كتاب الله تعالىٰ وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم اللذين منهما يستمدُّ الكاتب شريفَ المعاني ، ويستعير فَصيح الألفاظ ، بل منهما تُستفاد سائر العلوم ، وتُقْتَبَس نفائس الفضائل". قال "وقبيحٌ لعمري بالفقيه المؤتَمِّ به ، والقارئ المقتدىٰ بهديه ، والمتكَلِّم المشار إليه في حسن

مناظرته، وتمام آلته فى مجادلته، وشدّة شَكيمته فى حِجَاجه، والعربىّ الصَّلِيب، والقُرَشىّ الصريح، أن لايعْرِف فَهْمَ إعجاز كتاب الله إلا من الجهــة التى يعرفها منها الزِّنجىّ والنَّبطىّ، وأن يستدلّ عليه بما يستدلُّ به الجاهل الغبىّ".

علىٰ أن الشيخ بهاء الدين الســبكى رحمه الله قد ذكر فى شرح تلخيص المفتاح أن أهل مصر لايحتاجون إلىٰ هذه العلوم وأنهم يَدْرُونها بالطبع، فقال فى أثناء خطبته "أما أهل بلادنا فهم مستغْنُون عن ذلك بما طبعهم الله تعالى عليه من الذَّوْق السليم، والفهم المستقيم، والأذهان التى هى أرقُّ من النسيم، وألطفُ من ماء الحياة فى المُحَيَّا الوسـيم، أكْسَبَهُم النيلُ تلك الحلاوه، وأشار إليهم بأصابعه فظهَرتْ عليهم هـذه الطَّلاوه، فهم يدركون بطِبَاعهم ما أفْنَتْ فيه العلمـاء فضلا عن الأعمار، الأعمار، ويرَوْن فى مِرْءاة قلوبهم الصقيلة ما ٱحتجَبَ من الأسرار، خلف الأستار .

والسَّيْفُ ما لم يُلْفَ فيه صَيْقَلٌ * مِنْ طَبْعِــه لم يَنْتَفِــعْ بصِقَال

فيالهـا غنيمةٌ لم يُوجَف عليها من خَيْل ولا رِكاب، ولم يُزْحَف إليها بعْدَ وعِيدِيّةٍ[1] ولا بلَحَاق لاحِقٍ وٱنْسِكاب سَـكَاب، فلذلك صرفُوا هِمَمَهم إلىٰ العُـلوم التى هى نتيجةٌ أو مادّة لعلم البيان، كاللغة والنحو والفقه والحديث وتفسير القرءان". ثم قال "وأما أهــل بلاد الشرق الذين لهم اليدُ الطُّولىٰ فى العلوم، ولا سيَّمـا العلوم العقليَّة والمَنْطق، فاستوْفَوْا هِمَمهم الشامخةَ فى تحصيله، وٱستولوا بجِدّهم علىٰ جملته وتفصيله. ووردوا مناهل هذا العلم فصَــدَروا عنها بملء سَجْلهم، وكيف لا وقد أجْلَبُوا عليــه بخيلهم ورَجْلهم. فلذلك عَمَروا منه كل دارس، وعبَرُوا من حُصُونه المَشيدة ما رقَد عنه الحارس. وبلغوا عَنانَ السماء فى طلبه، و"لو كان الدِّينُ فى الثريا لنالَهُ رِجالٌ من

(١) أى نوق نجائب منسوبة الى بنى العيد حىّ من العرب ولاحق وسكاب فرسان للعرب مشهوران . انظر اللسان

فارس" . إلىٰ أن حرج عهم المِفْتاح ، فكأنّ الىاب أُغْلِق دُوىهم ، وطهر من مِشْكاة ىلاد العرب المصباح ، فكأىما حِيل بينه و بيٖنَهُم . وأدارت المون علىٰ قُطْىهم الدوائر ، فتعطَّلت ىوفاته من علومه أفواهُ المحابر و بُطون الدَّفاتر . وآىقطعتْ زهَراتُهم الطِّيبة عن المقتطِف ، وتسلَّط علىٰ العَضُد لسانُ من يعرف "كَيْفَ تُؤْكَلُ الكَتِف" . فلم يطهر بعد هؤلاء الأئمةِ رحمهم الله من أهل تلك البلاد من مَحَّض هـذا العلم فألقىٰ للطالب زُبْدتَه ، ومَحَض النُّصح فنشر علىٰ أعطاف العارى بُرْدته ، ولا حملتْ قَبُول القَبُول إلينا عنهم بِطاقه ، ولا حصَلتْ للتطلِّعين لهذا العلم علىٰ تلك الأبواب طاقه ، ولا رأينا بعد أن آنطَمَست تلك الشموسُ المشرقه ، وآندرستْ طبقةُ تحرّى الفرقه ، ولم يبق إلا رسوم هى من فضائلهم مستَرَقه . مَنْ أطلع غُصنُ قلمه من روض الأذهان زهرةً علىٰ ورقه ، ولا من علّق شبه بطبقتهم فيقال وافَقَ شَنٌّ طَبَقه ، بل ركَدَتْ بينهم فى هذا الزمان رِيحه ، وخَبَتْ مصابيحه ، وناداهم الأدب سِواكُم أعنى و "رُبَّ كلمةٍ تَقُول دَعْنِى" .

وما بَعْضُ الإقامة فى دِيارٍ * يُهانُ بها الفتَى إلا بَلاء

فعند ذلك أزمع هذا العلم الترحل ، وآذن بالتحوُّل .

وإذا الكَرِيمُ رأىٰ الخُمولَ نَزِيلَه * فى مَنْزِلٍ فالرَّأْىُ أن يَتَحَوَّلا

ونزع إلىٰ مصر فألقىٰ بها عصا التَّسْيار ، وأنشد مَنْ نادىٰ من تلك الديار .

أقمْتُ بأرضِ مِصْرَ فلا وَرَائِى * تَخُبُّ بى الرِّكابُ ولا أَمَامِى"

ولقد أحسن رحمه الله فى بيان السبب ، والتعويل فى آنحياز أهل مصر علىٰ هذا العـلم علىٰ عَلاقة الصِّهْر والنسَب . حيث قال فى أوائل خطبته فى أثنـاء الصـلاة على النبى صلى الله عليه وسلم صلى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه ما خَفَقت للبلاغة راية

مَجْدٍ فى بى غالبِ بنِ فِهْر ، وتعلّقت بأزمّة الفصاحة أهــل مصر لمــا لهم من نسب وصِهْر ".

قال الشيخ شهاب الدين محمود الحلبى رحمــه الله فى كتابه " حســن التوسل إلىٰ صناعة الترسل" وهذه العلوم وإن لم يُضطَرَّ اليها ذو الذِّهن الثاقب ، والطبع السليم ، والقَرِيحة المطاوعة والفكرة المنقِّحة ، والبديهة المُجيبة ، والروية المتصرِّفة ، لكن العالم بها متمكِّن من أزمّة المعانى ، وصناعة الكلام ، يقول عن علم ، ويتصرف عن معرفة ، وينتقِد بحُجة ، ويتخير بدليل ، ويستحسِن ببرهان ، ويصوغ الكلامَ بترتيب " .

وحقيق ما قاله . فإن الأديب والكاتب العارِيَيْنِ عن هــذه العلوم قاصرانِ عن أدنىٰ رُتَب الكمال يجيدان ، ولا يَدْرِيان كيف يُجيدان . فلو سئل كل منهما عن علة معنًى آستحســنه أو لفظ آستحلاه أو تركيب آستجاده ، لم يقدِر علىٰ الإتيان بدليل علىٰ ذلك .

وقد حكىٰ الإمام عبــد القادر الجُرْجانى فقال " ركب الكِنْدىُّ المُتَفلسِفُ إلىٰ أبى العبّاس وقال له إنى أجِدُ فى كلام العرب حَشْوا — فقال له أبو العباس فى أىّ موضع — قال وجدت العربَ تقول عبــد الله قائم ثم يقولون إن عبــد الله قائم ثم يقولون إن عبد الله لقائمٌ فالألفاظ متكررة والمعنى واحد — فقال له أبو العباس لا ، بل المعانى مختلفة لآختلافِ الألفاظِ ، فقولهم عبــدُ الله قائم إخبار عن قيامه ، وقولُهم إن عبدالله قائم جواب عن سؤال سائل ، وقولهم إن عبد الله لقائم جواب علىٰ إنكار منكر قيامه ، فما أحار المتفلسفُ جوابا . فإذا ذهب مثلُ هذا علىٰ الكندىِّ فما الظنُّ بغيره ؟ وإن كان من محاسن الكلام ما لا يحكم فى آمتزاجه بالقلوب غيرُ الذوق الصحيح كما قال الشاعر

شَيءٌ به فُتِن الورىٰ غيرُ الذى * يُدعىٰ الجمَال ولستُ أدرى ما هُو

لكن العالم فى الكلام أن يعلم سببُ تحسينه، وتعليل موادّ تمكينه . ويُحاثَ عن العلة فى انحطاطه وارتفاعه ، ويذكَر المعنىٰ فى ارتقائه من حَضيض القول إلىٰ يَفاعِه .

قلت وهذا العلم وإن شحَن أئمةُ(١) الكتّاب – كما قال أبو هلال العسكرى فى كتابه "الصناعتين" والوزير ضياء الدين بن الأثير فى "المَثَل السائر" والشيخ شهاب الدين محمود الحلبى فى "حسن التوسل" فإنه ليس مختصا بفنّ الكتابة بل هو آلة لكل كلامٍ اقتضىٰ البلاغة ، كما أن المَنْطِق آلةٌ لكل العلوم العقلية، التى يُحتاج منها إلىٰ تصحيح الفكر .

وقد أكثر الناس من المصنّفات فيه كالرُّمَّانى والجُرْجانىّ وغيرهما، وأكثر اعتماد أهل الزمان فيه علىٰ تلخيص المِفتاح للقاضى جلال الدين القَزْوينىّ فأغنىٰ ما وضع فيه عن إيراده هنا .

المقصد الثانى

(فى كيفية انتفاع الكاتب بهذه العلوم)

غير خاف أنه إذا مهر فيها وعرف طُرُقها، أتىٰ فى كلامه بالسِّحر الحلال، وصاغ من ألفاظه ومعانيه مايقضِى له بالفصاحة التامّة، والبلاغة الكاملة، من وجوه تحقيق الكلام، وتحسينه وتَذْبيجه وتنميقه . وإذا فاتَتْه هذه العلوم ، أو كان ناقصا فيها، نقصتْ صناعته بقدر ما يَنْقُص من ذلك . ثم كما يحتاج إلىٰ هذه العلوم بطريق الذات، كذلك يَحتاج إليها بطريق العَرَض من جهة المعرفة بالبُلَغاء الذين يُضرَبُ

(١) لعله وإن شحن به أئمة الكتاب كتبهم وحرر

بهم المَثَل فى البلاغة كقُسِّ بن ساعدة ، وسَحْبان وائل ، وعَمْرو بن الأهْتم ، ونحوهم من بلغـاء العرب ، وابن المقفّع ونحوه من المُحدَثين . وكما قيل فى عىّ باقل — وهو رجل انتهى به العِىّ إلى أنه اشترى ظبيا بأحدَ عشرَ درهما ، فسأله سائل فى الطريق ، وهو ممسك الظبىَ بكم اشتريتَهُ ؟ فلم يُحْسن التعبير عن أحد عشر ، ففرّق أصابعه العشرة وأخرج لسانَهُ مشيرا إلى أحدَ عَشَر فتفلّت الظبىُ وفرّ هاربا — . وكمعرفة أئمة الصِّناعة كالجُرجانى والرُّمّانى . وكذلك المعرفة بالأسماء التى اصطلح عليها أهلُها من الفَصْــل ، والوَصْل ، والتشبيه كما تقــدّم ، والمقابلة ، والمطابَقة ، وغير ذلك من أنواعها .

أما احتياجه إلى المعرفة بأسماء البُلَغاء ولغةِ أهل الصناعة ، فلأنه ربمـا احتاج إلى تفضيل بعض مَنْ يكتب له ممن يُنْسَب مثله إلى البلاغة فيفضّله بمساواته لبليغ من البلغاء ، أو إمام من أئمة الصنعة كما كتب الوزير ضياء الدين بن الأثير فى ذم كاتب هَــذَا وهو يدّعى أنه فى الفصاحة أُمّة وحده ، ومَنْ قُسُّ إياد وسَحبانُ وائل عنــده ، وكما قال بعضهم يهجو ضيفا له

أتانا وَمَا دَاناهُ سَحْبانُ وائِلٍ * بَيانًا وعِلْمًا بالذى هو قائِلُ
فما زَالَ عِنْدَاللُّقْم حتّى كأنَّه * مِنَ العِىّ لَمَّا أنْ تَكَلَّمَ باقِلُ

ومما أتى على ذكر جماعة من أهل هذا الشأن قولى فى كلام قليل جاء ذكره فى آخر رسالةٍ كتبتُ بهـا فى تقريظ المقــرّ الفتحى ، صاحب دواوين الإنشاء الشريف ، بالأبواب السلطانية بالديار المصرية — وهو "على أنّى أستقيل مِـــن التقصــير فى إطرائه ، والتعرّض فى مدحه لمـا لا أنهض بأعبائه . فلو أن الجاحظ بَصيرى ، وابن المقفّع ظَهيرى ، وقُسّ بن ساعدة يُسْعِدنى ، وسَحْبـانَ وائلٍ يُنْجِدنى ، وعَمْرو

آس الأهتم يُرْشدنى ، لكان آعترافى بالتقصير أبلغ مما آتيه ، و إقرارى بالقُصُور أولىٰ مما أحصيه ، من تَوَالى طَوْله وأياديه" .

وأما آحتياجه إلىٰ معرفة ألفاظ أهل الصناعة ، فلأنه ربمــا ورّى بها فى تفاصيل كلامه ونحو ذلك — كما كتب الشيخ زينُ الدين أبو بكر بن العجمى" علىٰ البديعيّة التى نظمها عيسىٰ العالية الشاعر ، مضاهيا بها بديعية الصفى" الحلى" فقال

"وبعدُ فقد وقفتُ علىٰ هــذه المعجزة التى أحيا بها عيسىٰ مَيِّتَ البديع ، وجوّد ماشاء فيها من التَّصْريع والترصــيع ، وَرَقم لأعطافها حُلَل التَّوشيح والتَّوْشيع ، ونظم لأجياد أبياتها فرائد المَعانى المستخْرَجةَ من بحر فكره علىٰ يَدِ يراعه المُرِيع ، وقلدها من دُرَر لفظه بمــا هو أزهىٰ من زَهْر الزُّهْر علىٰ نهر المَجَرة وهالات البُدُور ، وشَنَّف المسامعَ منها بمــا هو أبْهىٰ من النور فى العُيون وأوقعُ من الشفاء فى الصُّدور ، وأولج الليل فى النهار بما طَرَّس به الطُّروس ، وأطلعَ فى ذلك الليل مِن ناصع معانيه نجومًا تُزْهى علىٰ الشموس ، وأوْدعَ المَهارِقَ[1] شُــذُورا تُزَيِّف ذهب الأصائل ، وتُسْفِر عن وجوهٍ حِسان تفوق آبتسامَ ثُغور الأزاهر بين الخَمــائل ، وسلك فى البــديع طريقة مُثْــلىٰ ، أظهر فيها من شَهْد ألفاظه وجواهر مَعانيــه ماحَلَا وحَلّٰى ، ولم يَدَع للحِلِّى" فى بهجتها مَحلّا ، وأحسن التذييل والترشيح والتهكم عليه ، من غير آلتفات لمــا أهمله ولم يتعرّض إليه ، وعادت المعانى تأوِى من حُسْن تصرفه إلىٰ ركنٍ شديد ، وتَحْوِى ثَنَا أقلامه كل مارامه من تأييد التأييد ، وتلقِى مقاليدَها منه إلىٰ ملىّ بحسن التحيُّلِ والتحوُّل فى نظمه ونثره ، وتحكم لمن حَكَم له بكمال وصفه وَوَصْف كماله بأنه نسيجُ وحدِه وفريد عصرِه ، وأجرىٰ فى حَلْبة البديع جيادَ أقلامه فحاز قَصَب الرِّهان ، وأصفىٰ لها موارد النَّفْس فارتوت وآستخرجَتْ من ظُلُمــاته جواهِرَ البيان ، ونطقَتْ بمــا هو

(١) المهرق كمكرم الصحيفة معرب جمعه مهارق قاموس

المألوف من عرائس حِكَمِه الحسان، وتأمّلتها فوجدتُها قد أجاد فيها براعة المَطْلَع، وبالغَ فى تحسين المَنْزَع والمَقْطَع، ودخل جنان الجناس فاجتنىٰ من قُطوفها الدانية ماراق، واطَّردتْ له أنهارُها فاستطرد منها فى أعلىٰ الطِّبَاق، وقابل وجوهَ حُورها أحسن المقابله، آمنًا فيها من الاشتراك والمماثله، وأوضح الفُروق بين التَّوْرِيَة والإبهام، والتوجيه والاستخدام، وأبان فى التتميم نقصَ أبى تَمَّام، وأوجب فى إبهامه عقدَ الخناصر علىٰ نظمه، وفوّض براعته التسليمَ له وطلبَ سِلْمِه، ولم يقنع بما فيه الاكتفاء من التذييل والتذنيب، بل أتىٰ فى الاستدراك علىٰ من تقدّمه بالعَجَب العَجيب، معتمدًا فى تكميل مقاصده الاقتصار والإيجاز، ولو ادّعىٰ الإعجاز علىٰ الحقيقة لا المجاز لجاز، وتحققتُ أن ليس له فى هذا الفن مُقاوٍ ولا مقاوم، ولا مساوٍ ولا مساوم، فكم جلب من بحر براعته دُرّة أشرقت فى ليالى الفترة المسودّه، وكم حلب من ثدى يراعته دِرّة[1] لها ألف زُبْده، وكم بلغ الناظر من وصف بيانه مجمع البحرين، وسمع ورأىٰ من فصله الجزل ووصله الجزيل ماهو عين المراد ومراد العين، وكم جلا من عرائس أفكاره وأبكاره صَبَاحَ الوجوه الصِّباح، وحقق فى الخافقين لمَقاصده وبصائره نَجاحُ النجاح. قد أصبحت كلماتُه لِخُصور الفرائد مَناطق، ولبدُور الفوائد مَشارق، ولطلائع أسرار المَعانى، آلات، ولمَطالع أقمار المعانى، هالات، وقد وقعتُ حين وقفتُ علىٰ بديعيته هذه بين داءين كل منهما الأخطر، وبين أمرين أَمَرَّين كل منهما الأعسر، إن لم أكتبْ عليها شيئا فقد أخللت بالفرض الواجب، وإن كتبتُ فقد فضحتُ نفسى وعرّضتها للمعايب، ولكنى زُجت علىٰ ظَلْعى متحاملا، وعدوتُ علىٰ حسب طاقتى فى هذا الباب قائلا

---

(١) الدرة بالفتح المرة و بالكسر هنئه الدر وكثرته مصباح [وقد أعجم الدال فى الاصل وهو من إهمال الناسخ كما هو ظاهر]

عَاشَ البَدِيعُ وكانَ مَيْتًا وآنثنى * بادِى المَحاسِنِ زاهِيًا مَحْرُوسَا
أحياه عيسٰى بحلَ مُحَاجٍ وكَمْ * مِنْ مَيِّتٍ أحْياه قِدْما عِيسٰى

النوع السادس

(حفظ كتاب الله العزيز، وفيه مقصدان)

المقصد الأوّل

(فى بيان آحتياج الكاتب إلىٰ ذلك فى كتابته)

قال فى "حسن التوسل" ولا بد للكاتب من حفظ كتاب الله تعالىٰ، وإدامة قراءته، وملازمة درسه، وتدبر معانيه، حتّى لا يزال مصوّرا فى فكره، دائرا علىٰ لسانه، ممثلا فى قلبه ليكون ذاكرا له فى كلامه وكل مايرد عليه من الوقائع التى يحتاج إلىٰ الاستشهاد به فيها، ويفتقر إلىٰ قيام قواطع الأدلة عليها ﴿وَلِلّٰهِ الحُجَّةُ البالِغَةُ﴾ وكفىٰ بذلك مُعِينا له علىٰ قصده، ومُغْنيا له عن غيره. قال تعالىٰ ﴿ما فرّطْنا فى الكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ وقال جل وعز ﴿تبيانًا لِكُلِّ شيء﴾. قال فى "المثل السائر" كان بعضهم يقول لو ضاع لى عِقَال لوجدته فى القرءان الكريم. قال فى "حسن التوسل" وقد أخرِج من الكتاب العزيز شواهدُ لكل مايدور بين الناس فى محاوراتهم، ومخاطباتهم، مع قُصور كل لفظ ومعنًى عنه، وعجز الإنس والجن عن الإتيان بسورة من مثله — كما حكى أن سائلا سأل بعض العلماء أين تجد فى كتاب الله معنىٰ قولهم "الجارُ قبلَ الدار"؟ قال فى قوله تعالىٰ ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا آمْرأَتَ فِرْعَوْنَ إذْ قالَتْ رَبِّ آبْنِ لى عِنْدَكَ بَيْتًا فِى الجَنَّةِ﴾ فطلبت الجار قبل الدار، ونظائر ذلك كثيرة.

وقد اختُلف فى جواز الاستشهاد بالقرآن الكريم فى المكاتبات ونحوها فذهب أكثرُ العلماء إلىٰ جواز ذلك مالم يُخَلْ عن لفظه ولم يتغير معناه . فقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كَتَبَ فى كِتَابِهِ إلىٰ هِرَقْلَ ﴿ قُلْ يٰـأَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ ﴾ إلىٰ قوله مسلمون ، و روى ذلك عن غير واحد من الصحابة والتابعين ومَنْ بعدهم ، فكتب أبو بكر الصدّيق رضى الله عنه فى عهده لعمر بن الخطاب ﴿ ولِكُلِّ ٱمْرِئٍ ما ٱكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ . وسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَىَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ علىٰ ما سيأتى فى ذكر عهود الخلفاء عن الخلفاء إن شاء الله تعالىٰ . وكتب علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهـه فى آخر كتاب إلىٰ معـاوية "وقد علمتَ مواقعَ سُيُوفنا فى جَدِّك وخالك وأخيك ﴿ وَمَاهِىَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ . وقال للمغيرة ابن شـعبة لمـا أشار عليه بتوليـة معاوية ﴿ وما كُنْتُ مُتَّخِذَ المُضِلِّينَ عَضُـدًا ﴾ . وكتب إلىٰ عامل من عُمَّاله بعد البسملة ﴿ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَـةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الكَيْلَ والمِيزَانَ ولا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْـيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ بَقِيَّةُ اللهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ . وقال الحسن بن علىّ لمعـاوية حين نازعه فى الخلافة ﴿ وإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ ومَتَاعٌ إِلىٰ حِينٍ ﴾ . ويروى عن ابن عباس مثلُه . وكتب الحسن إلىٰ معاوية أما بعد فإن الله بعث محمدا صلى الله عليـه وسلم رحمةً للعالمين وكافّةً للناس أجمعين ﴿ لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ القَوْلُ عَلىٰ الكَافِرِينَ ﴾ . وكتب محمدُ بن عبد الله بن الحسن بن علىٍّ إلىٰ المنصور فى صدر كتاب ﴿ طسم تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ، نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ إلىٰ قوله ﴿ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْـذَرُونَ ﴾ . ولم يزل العلماء وفضلاء الكتّاب يستشهدون بالقرآن الكريم فى مكاتباتهم فى القديم والحديث ، من غير نكير ، وذلك كله دليـل الجواز . ونقل عن الحسن البصرىّ ما يدل علىٰ كراهة ذلك

حيث بلغه أن الحجاج أنكر علىٰ رجل آستشهد بآية فقال أسى نفسه حين كتب إلىٰ عبد الملك بن مروان بلغني أن أمير المؤمنين عَطَسَ فشمّته مَنْ حضر وردّ عليهم ﴿يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ . قال فى "حسن التوسل" وإذا صحت هذه الرواية عن الحسن فيمكن أن يكون إنكاره علىٰ الحجاج لكونه أنكر علىٰ غيره ما فعله هو . وذهب بعضهم إلىٰ أنّ كل ماأراد الله به نفسه لا يجوز الآستشهاد به إلا فيما يضاف إلىٰ الله سبحانه مثل قوله ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ وقوله ﴿ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ ونحو ذلك ممـا يقتضيه الأدب مع الله تعالىٰ .

فأما تغيير شيء من اللفظ أو إحالة معنًى عما أريد به فلا يجوز بحال .

قال فى "المثل السائر" وإذا ضُمِّنت الآياتُ فى أماكنها اللائقة بها ، ومواضعها المناسبة لهـا ، فلا شبهة فيما يصير للكلام من الفخامة والجزالة والرونق . قال فى "حسن التوسل" ومن شرف الآستشهاد بالقرءان الكريم إقامةُ الحجة ، وقطعُ النزاع ، وإذعانُ الخصم . قال فى "حسن التوسل" . وأين قول العرب — القَتْلُ أنفىٰ للقتل — لمن أراد الآستشهاد فى هذا المعنىٰ من قوله تعالىٰ ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ .
وقد روى أن الحجاج قال لبعض العلماء أنت تزعم أن الحسين من ذرّية رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتى علىٰ ذلك بشاهد من كتاب الله تعالىٰ وإلا قتلتك فقرأعليه ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ ﴾ فعيسى آبن بنته فأسكت الحجاج . وأيضا فإن الآية الواحدةَ تقوم فى بلوغ الغرض ، وتوفيَة المقاصد مالا تقومُ به الكتب المطوّلة والأدلة القاطعة .

فمن أخْصَر ماوقع فى ذلك وأبلغ أنه كان علىٰ الروم هِرْقَلَةُ فى أيام الرشيد آمرأةٌ منهم ، وكانت تُلاطفُ الرشيدَ ولها آبن صغير ، فلما نشأ فوضتْ الأمر إليه فعاثَ

وأفسدَ وحاشَ الرشيد، فخافَتْ علىٰ مُلْك الروم فقتَلَتْ ولدَها، فعصب الروم لذلك، فخرج عليها رجل منهم يقال له نِقْفُور فقتلها واستولىٰ علىٰ المُلْك وكتب إلىٰ الرشيد أما بعد، فإن هــذه المرأةَ وضعَتْكَ موضِعَ الشاه، ووضعَتْ نفسَها موضعَ الرُّخّ، وينبغى أن تعلَمَ أنى أنا الشاه وأنت الرُّخّ فأدّ إلىّ ما كانت المرأةُ تؤدّى إليك! فلما قرأ الكتاب. قال للكُتّاب أجيبُوا عنه فأتَوْا بما لم يَرْتضه، وكان الرشيد خطيبا شاعرا. فكتب

بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله هارون أمير المؤمنين إلىٰ نِقْفُور كلبِ الروم. أما بعدُ، فقد فهِمت كتابَكَ، والجوابُ ما تراه لا ماتسمَعُه، والسلام علىٰ منِ اتَّبَع الهُــدىٰ.

ثم خرج فى جمع له لم يُسمَع بمثله فتوغَّل فى بلاده وفتك وسبىٰ. فأوقد نِقْفُورُ فى طريقة نارا شديدةً فخاضها محمد بن يزيد الشيبانى، وتبعه الناس حتّى صاروا من ورائها، فلما رأى نقفور أنه لا قِبَلَ له به، صالحه علىٰ الجزية يؤدّيها عن رأسه وعن سائر أهل مملكته.

وكتب ملك الروم إلىٰ المعتصم يتوعَّدُه ويتهدّده فأمر الكتّاب أن يكتبُوا جوابه فلم يُعجِبه مما كتبوا شيء فقال لبعضهم اكتب بسم الله الرحمن الرحيم أما بعــد، فقد قرأت كتابك، وفهمت خطابك، والجوابُ ما ترى لا ماتسمع (وسَيَعْلَمُ الكافِرُ لِمَنْ عُقْبىٰ الدار). هذا مع مانسبتُ إليه المعتصم من ضعف النَصَر بالعربية كما تقدّم فى الكلام علىٰ اللغة. ولا يستكْثَرُ مثلُ ذلك علىٰ الطبع السليم، والرجوع إلىٰ سلامة العُنْصُر وطِيب المَحْتِد.

ومثل ذلك فى الجواب وأخصر منه أن الأذفونس ملك الفرنج بالأنْدَلس. كتب إلىٰ يعقوب بن عبد المؤمن أمير المسلمين بالأندلس، بخط وزيرله يقال له

ابن الفخار باسمك اللهمّ فاطرَ السموات والأرض والصلاة على السيد المسيح ابن مريم الفصيح، أما بعدُ فلا يخفى على ذى ذهنٍ ثاقب، وعقل لازب، أنى أميرُ الملة النصرانية، كما أنك أمير الملة الحنيفية، وقد علمتم ماهم عليه رؤساءُ جزيرةِ الأندلس من التخاذُل والتواكُلِ والإخلاد إلى الراحة وأنا أسُومُهم الخسف وأُخْلِي منهم الديار، وأحُوسُ البلاد، وأَسْبى الذرارِىّ، وأقتُل الكهولَ والشُّبّان لايستطيعون دفاعا، ولا يُطيقون امتناعا، فلا عذر لك فى التخلف عن نَصْرهم، وقد أمكنَتْك يدُ القدرة، وأنتم تعتقدون أن الله عز وجل فَرَض عليكم قِتَال عشرةٍ منا بواحد منكم، والآن خَفّف اللهُ عَنكُمْ وعَلِم أنّ فِيكُمْ ضَعْفًا، فلتُقاتِلْ عشرة منكم الواحدَ منا، ثم بلغنى أنك أخذتَ فى الاحتفال، وأشرفْتَ على ربوة الإقبال، وتُماطِل نفسك عاما بعد عام وأراك تُقَدِّم رجلا وتؤخِّر أخرى، ولست أدرى إن كان الجُبْنُ أبطأك أوالتكذيبُ بما أنزل عليك ربُّك، ثم حُكِى لى أنك لا تجد إلى الجواز سبيلا لعلة لا يجوز لك التقحم[1] به معها، فأنا أقول ما فيه الراحةُ لك، وأعتذرُ لك وعنك، على أن تفِى لى بالعُهود والمواثيق والاستكثارْ من الرهن، وترسل إلىّ بجملة من عبيدك بالمراكب والشَّوانى، وأجُوز بجملتى إليك، وأبارزك فى أعز الأماكن عليك، فإن كانتْ لك فغنيمةٌ وُجِّهتْ إليك، وهديّة عظيمة مَثَلتْ بين يديك. وإن كانتْ لى كانت يدى العُلْيَا عليك وأستوجب سيادة الملتين، والحكم على البَرَّيْن، والله تعالى يسهِّل ما فيه الإراده، ويوفق للسعاده، لارب غيره، ولا خير إلا خيره.

فكتب رحمه الله جوابا على أعلى كتابه ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾.

(١) كذا فى الأصل بالقاف والحاء المعجمة ويظهر أنه مصحف عن التفحم بالفاء والحاء المهملة والتفحم فى الشيء الاقدام عليه من غير روية ولا تدبر وتأمل

ونظير ذلك أن السلطان صلاحَ الدين يوسفَ بن أيوب كتب إلىٰ الديوان العزيز ببغداد كتابا يعدّد فيه مَوَاقفه فى إقامة دعوة بنى العباس بمصر. فكُتِب جوابه من ديوان الخلافة ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

المقصـــد الثـانى

(فى كيفية ٱستعمال آيات القرءان الكريم)

وٱعلم أن تضمين الكلام بعضَ آى القرءان الكريم ينقسم عنـد أهل البلاغة إلىٰ قسمين

أحدهمـا — الأستشهادُ بالقرءان الكريم ، وهو أقلهما وُقُوعا فى الكلام ودَوَرانا فى الأستعمال وهو أن يضمّن الكلام شيئا من القرءان الكريم وينبه عليه مثل قول الحريرى فى مقاماته فقلت وأنت أصدق القائلين ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ . وقول أبى إسحاق فى عهدٍ لملك عن خليفةٍ بعد الأمر بالتقوى والحثّ عليها فإذا ٱطّلع الله منه علىٰ نَقاء جيبه ، وطَهارة ذيله ، وصِحّة مُروءته ، وٱستقامة سيرته ، أعانه علىٰ حفظ ما ٱستحفظه ، وأنهضه بثِقْل ما حمله ، وجعل له مخلصا من الشُّبْهه ، ومَخْرجا من الحَيْرة . فقـد قال الله تعالىٰ ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ وقد قال الله تعالى عز وجل ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ وقال عز ٱسمه ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ إلىٰ آيٍ كثيرة حضّا بها علىٰ كَرَم الخُلُق ، وأَسْلَم الطُّرُق ، فالسعيد من نَصَبها رأْىَ ناظره ، والشقيُّ مَن نبذها وراء ظهره ، وأشقىٰ منه من يَحُثُّ عليها وهو صادفٌ عنها ، فأجاب إليها وهو بعيد منها . وله ولأمثاله يقول الله عز وجل ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ

وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الكِتَابَ أفلا تَعْقِلُونَ ﴾ وأكثرُ مشى الصابى فى كتابه علىٰ هذا الأسلوب من الاستشهاد، والتنبيه علىٰ آى القرءان فى حلال كلامه، دون الإشارة إليه، والاقتصار علىٰ اقتباس معناه .

ومن ذلك قول علاء الدين بن غانم من خطبة قَدْمة[1] كَتَب بها لمظفّر الدين موسى بن أقوش وقد صَرَع لَغْلَغَة، وادّعىٰ بها للملك المؤيَّد صاحب حماه بحمده علىٰ توفيقه الذى ساد به من ساد وسما، وأصاب بتفويقه بمعونة ربه طيرَ السما، فحُسن أن يتلىٰ ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَىٰ ﴾ .

ومن ذلك قولى فى المقامة التى أنشأتها فى كتابة الإنشاء، فى الكلام علىٰ فضل الكتابة فقد نطق القرءان الكريم بفضلها، وجاءت السُّنَّة الغرّاء بتقديم أهلها، فقال جل شأنه، وتقدّست أسماؤه ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ فأخبر تعالىٰ أنه علَّم بالقلم، حيث وصف نفسه بالكرم، إشارة إلىٰ أن تعليمها من جزيل نعمه، وإيذانا بأن مَنْحَها من أوفر جوده وفائض دِيَمه، وقال جلت قدرته ﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ فأقسم بالقلم، وما سطرته الأقلام، وأتىٰ بذلك فى آكد قسمٍ، فكان من أعظم الأقسام . وقال جلّت عظمته ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴾ . فجعل الكتابةَ من وصف الكرام، كما قد جاء فِعلُها عن جماعة الأنبياء عليهم السلام، وإنما مُنِعها النبىُّ صلى الله عليه وسلم معجزةً قد بين الله تعالى سببها، حيث ذكر أخبارهم بقوله ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا ﴾ .

وقولى من هذه المقامة فى التعبير عن المقرّ البدرى بن فضل الله

---

[1] أى ان الخطبة عملت لفال تحية لقدوم المظفر بعد صرع العدو المسمى لغلغة

قلت حسبك قد دلني عليه عرفه ، وأرشدني إليه وصفه ، وبان لي محتده الفاخر وحسبه الصميم ، وعرفت أصله الزاكي وفرعه الكريم ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ .

وقولي في اختتام هذه المقامة معبرًا عن المقرّ الدريّ المشار إليه : فلما تحققت أني قد أثبتّ في ديوانه ، وكنت من حملة علمائه ، رجعت القهقرى عن طلب الكسب ، وتساوى عندي المحل والخصب ، واستغنيت بنظري إليه عن الطعام والشراب ، وتحققت أن نظرة منه ترقيني إلى السحاب ، وتلوت بلسان الصدق على الملإ وهم يسمعون ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾ .

وقولي في بيعة خليفة أنشأتها بعد ذكر تحليف أهل البيعة : وأشهدوا عليهم بذلك من حضر مجلس العقد من الأئمة الأعلام ، والشهود والحكام ، وجعلوا الله على ما يقولون وكيلا ، فاستحق عليهم الوفاء بقوله تعالى ﴿ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا﴾ . وهم يرغبون إلى الله تعالى أن يضاعف لهم بحسن نيتهم الأجور ، ويبتهلون إليه أن يجعل أئمتهم ممن أشار تعالى إليه بقوله ﴿الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور﴾ .

وقولي في بيعة أخرى : والله يجعل انتقالهم من أدنى إلى أعلى ، ومن يسرى إلى يمنى ، ويحقق لهم بمن استخلفه عليهم وعده الصادق بقوله تعالى ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا﴾ .

الثـانى ــ الاقتباس وهو أن يضمّن الكلام شيئا من القرءان، ولا ينبه عليه .
كقوله فى خطبة "التعريف" نحمده علىٰ فواصل زادت محاسنَ العلوم . وعرّفت
تفاوت درجات الأولياء اذ قالوا ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ . وقوله بعد ذلك .
وسماء الشبيبة بضحىٰ المَشيب قد تجلّت، والنفس قد ﴿أَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ .

وقول ابن نباتة السعدىّ فى بعض خطبه فيأيها الغفلة المُطْرِقون . أما أنتم
بهذا الحديث مُصَدِّقون . مالكم لاتسمعون . ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ
مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾ . وقوله يوم يبعث اللهُ العالمين خلقا جديدا، ويجعل الظالمين
لنار جهنم وقودا . يوم تكونوا[1] ﴿شهداء علىٰ الناس ويَكُونَ الرَّسُولُ عليكُم شهيدا﴾ .
﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا
وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ .

وقول غيره أتظنون أنكم دون غيركم مخلّدون ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ
تَعْلَمُونَ﴾ .

وقول الحريرى فلم يكن ﴿إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ . حتّى أنشد فأغرب .
وقوله ﴿أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ﴾ . وأمير صحيح القول من عليله .

وقول ضياء الدين بن الأثير فى فصل من كتاب فى مدح الجُود وذمّ البخل
وقد علم أن المال الذى يُخْتَزن ، كالماء الذى يُحْتَقن ، فكما أن هذا يأْجُن بتعطيل
الأيدى عن امتياح[2] مَشارِبه . فكذلك يأْجُن هذا بتعطيل الأيدى عن امتناع
مَواهبه . وأىّ فرق بين وُجوده وعدمه لولا أن تُملَكَ به القلوب . وتُفَلَّ به الخُطُوب .
ويُرْكَبَ به ظهرُ العزم الذى ليس بركُوب ، ومن بسطَ يده فيه ثم قبضها بُخْلُه ، فإنه

(١) فى الضوء ثم تكونون شهداء الخ
(٢) لعله امساح بالحاء المهملة .

يقف دون الرجال معثورا . ويقعد عن نيل المعالي محسورا . وإذا أدركته منيّته مضى وكأنه لم يكن شيئا مذكورا * وقوله فى وصف كاتب له بنت فكر ما تمخّضت بمعنى إلا نتجته من غير ما تمهله . و«أتت به قومها تحمله» . ولم تعرض على ملإ من البلغاء إلا ألقوا أقلامهم أيهم يستعيره لا أيهم يكفله .

وقول الشيخ شهاب الدين محمود الحلبى من عهد لسلطان وجمع بك شمل الأمة بعد أن كاد يزيغ قلوب فريق منهم ، وعضدك(١) لإقامة إمامته بأولياء دولتك الذين رضى الله عنهم ، وخصّك بأنصار دينه الذين نهضوا بما أمروا به من طاعتك وهم فارهون «وقلّبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون» .
وقوله من عهد السلطان الملك المنصور لاچين وجعل عدوّه وإن أعرض بجيوش الرعب محصورا . وكفاه بالنصر على الأعداء التوغّل فى سفك الدماء فلم «يسرف فى القتل إنه كان منصورا» . وقوله فى خطبة صداق فى وصف نكاح وأحيا به الأمم وقد قضى ديبهم . وجمع بين متفرّقين «لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألّفت بين قلوبهم ولكن الله ألّف بينهم» . وقوله من توقيع بإمامة صلاة وليعلم أنه فى المحراب مناج لربه . واقف بين يدى من «يحول بين المرء وقلبه» .

وقولى فى خطبة هذا الكتاب فى الإشارة إلى فتح الديار المصرية فتوجّهت إليها عزائم الصحابة زمن الفاروق فجاسوا خلال الديار ، وعمّروا حزنها وسهلها . واقتطعتها أيدى المسلمين من الكفّار ، وكانوا أحقّ بها وأهلها . وقولى فى المقامة المتقدّمة الذكر قال إذن قد تعلّقت من الصنعة بأسبابها . وأتيت البيوت من أبوابها .
وقولى فيها قلت قد بانت لى علومها . فما رسومها؟ — قال إن أعباءها لباهظة حملا . وإنها لكبيرة إلا . ولكن سأحدث لك ذكرا . وأنبئك بما لم تحط به خبرا .

---

(١) هو من باب نصر بمعنى أعانك

وقولى فى المفاخرة بين السيف والقلم فى الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين قامت بنصرتهم دولة الإسلام فسمت بهم على سائر الدول . وكرعت فى دماء الكفر سيوفهم فعادت بخلوق النصر لا بحمرة الخجل . صلاة يقصر دون انقضائها تعاقب الأيام . وتكل ألسنة الأقلام عن وصفها ولَوْ أَنَّ مَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَام .

وربما اقتصر على التلويح والإشارة خاصة كقول القاضى الفاضل فيما كتب به عن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى الديوان العزيز ببغداد فى الاستصراخ وتهويل أمر الفرنج رَبِّ إِنِّى لا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى، وها هى فى سبيلك مبذوله، وأخى وقد هاجر إليك هجرة يرجوها مقبوله .

وقول ضياء الدين بن الأثير فى وصف غبار الحرب وعقد العجاج سقفا فانعقد. وأراناكيف رفع السماء بغير عمد . غير أنها سماء بنيت بسنابك الجياد . ورينت بنجوم الصعاد . ففيها ما يوعد من المنايا لا ما يوعد من الأرزاق . ومنها تقذف شياطين الحرب لا شياطين الاستراق .

قال الوزير ضياء الدين بن الأثير رحمه الله "والطريق فى استنباط المعانى من القرءان الكريم واستعمال الآيات فى خلال الكلام أن تعمد إلى سورة من القرءان، وتأخذ فى تلاوتها وكلما مر بك معنى أثبته فى ورقة مفردة حتى تنتهى إلى آخرها، ثم تأخذ فى استعمال تلك المعانى التى ظهرت وإدخالها فى خلال الكلام وكلما عاودت التلاوة وكررتها ظهر لك من المعانى مالم يظهر لك فى المرة التى قبلها" .

ولتعلم أن الآية الواحدة قد تقع فى الاستعمال على عدة وجوه يورده الناثر فى معنى ثم ينقله لمعنى آخر غيره كما فعل ضياء الدين بن الأثير فى قوله تعالى حكاية

عن يوسف عليه السلام ﴿ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ . فقال فى دعاء كتاب وصل كتاب من الحضرة السامية أحسن الله أثرها، وأعلى خطرها، وقضى من العلياء وطرها، وأظهر على يدها آيات المكارم وسُوَرها، وأسجد لها كواكب السيادة وشمسها وقمرها . ثم أورده فى معنى آخر فقال أكرمُ النعم ما كان فيه ذكرى للعابدين . وتقدّمه إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ . فهذه النعمة هى التى تأتى بتيسير العسير . وتجلو ظُلمة الخطب بإيضاح المنير . فانظر إِلَىٰ أَثَرِ رَحْمَةِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . ثم نقله إلى معنًى آخر فقال من تقليد يكتب من ديوان الخلافة لبعض الوزراء وقد علم أن أمير المؤمنين أدنى مجلسه من سمائه، وآنسه على وحدة الانفراد بحُفّل نعمائه . ورفعه حتّى ودّت الشمس لو كانت من أترابه والقمر لو كان من نُدَمائه . وذلك مقام لا تستطيع الحُدُود أن ترقى إلى رتبته . ولا الآمال أن تَطُوف حول كعبته، ولا الشّفاه أن تتشرّف بتقبيل تُرْبته . فليَزدَدْ إعجابا بما نالته من مواطئ أقدامه، وليَنظُرْ إلى سجود الكواكب له فى يقظته لا فى منامه .

قال فى "حسن التوسل" والناس فى استخراج المعانى من القرآن الكريم، واستعمالها فى الكلام على قدر طبقاتهم وتفاوت درجاتهم . فمفرط فى الحسن ومفرّط وفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ .

قلت وكما يحتاج الكاتب إلى حفظ كتاب الله تعالى والعلم بتفسيره ليقتبس من معانيه كذلك يحتاجُ إلى معرفة العلوم المختصّة به كالعلم بالقراءات السبع والشواذ، ومعرفة رجالها، ومن اشتهر منهم وعرف بجودة القراءة، ومعرفة أعيان المفسرين ورءوسهم، ليماثل بأفاضلهم ويقايس بأعيانهم، فى خلال ما يعرض له من الكلام

مطابقا لذلك كما قال فى "التعريف" فى وصية مقرئ فى القسم الثالث من الكتاب وليدُمْ علىٰ ماهو عليه من تلاوة القرءان، فإنه مصباح قلبه . وصَلاح قُرْبه، وصَباح القبول المؤذن له برضا ربه، وليجعل سُوَره له أسوارا، وآياته تظهر بين عينيه أنوارا . وليتل القرءان بحروفه وإذا قرأ آستعاد، وليجمَعْ طُرُقه وهى التى عليها الجمهور ويترك الشواذّ . ولا يرتَدّ دون غاية لإقصار، ولا يقِفْ فبعد أن أتمّ لم يبق بحمد الله إحصار، وليتوسع فى مذاهبه ولا يخرج عن قراءة القراء السبعة أئمة الأمصار، وليبذل للطلبة الرِّغاب ، وليُشْبع فإنَّ ذوى النَّهْمة سِغاب . وليُرِ الناسَ ما وهبه الله من الاقتدار فإنه آختص السَّبع ودخل الغاب ، وليتمَّ مابقِىَ ما أتم آبن عامر وأبو عمرو له التعمير، ولَقَّه الكسائىّ فى كساه ولم يقلْ حَذى آبنُ كثير، وحُمَّ به لحمزة أن يعودَ ذاهب الزمان، وعرف أنه لاعاصمَ من أمر الله يلجأ معه إليه وهو الطُّوفان، وتدفّق يتفجّر علما وقد وقفت السيول الدوافع ، وصَرَّ أكثرَ قراء الزمان لعدم تفهيمهم وهو نافع ، وليُقْبِل علىٰ ذوى الإقبال علىٰ الطلب ، وليأخذهم بالتربية فما منهم إلا من هو إليه قد آنتسب . وهو يعلم ما مَنَّ الله عليه بحفظ كتابه العزيز من النعماء، ووصل سبَبَه منه بحبل الله الممتدّ من الأرض إلى السماء . فليقدُرْ حقّ هذه النعمة بحسن إقباله علىٰ التعليم ،والإنصاف إذا سئل فعلم الله لا يتناهىٰ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيم .

النـــوع السابع

(الاستكثار من حفظ الأحاديث النبوية علىٰ قائلها أفضل الصلاة والسلام ، وفيه مقصدان)

المقصـــد الأوّل

(فى بيان وجه آحتياج الكاتب إلىٰ ذلك)

قال "فى حسن التوسل" لابد للكاتب من حفظ الكثير من الأحاديث النبوية ، والآثار المروية عن الصحابة رضوان الله عليهم ، وخصوصا فى السير، والمغازى ،

والأحكام، وتأمُّلِ فصاحتها، والنظر فى معرفة معانيها وغريبهـا ، وفقه ما لا بدَّ من معرفته من أحكامها ليفقَ منها علىٰ سَعة، ويستشهدَ بكل شىء فى موضعه، ويحتجَّ بمكان الحجة، ويستدلَّ بموضع الدليل، ويتصرف عن علم بموضوع اللفظ ومعناه ، ويبنىَ كلامه علىٰ أصل لايُزَلْزَل، ويسوق مقاصده إلىٰ سبيل لايَنفصل عنه، فإنالدليل علىٰ المقصِد إذا ٱستَنَد إلىٰ النص قويت فيه الحجة ، وسلَّم له الخصم، وأذعـــن له المعاند، والفصاحة والبلاغة إذا طُلبت غايتها فإنها بعـد كتاب الله فى كلام من أُوتِىَ جوامعَ الكلم وقال "أنا أَفْصَحُ مَنْ نَطَق بالضَّاد" .

وقد كان الصدر الأول من الصحابة والتابعين رضى الله عنهم يحتجون بالحديث ، ويستدلون به فى مواطن الخلاف والنزاع، فينقاد الجَمُوح ويستسهل الصَّعْب، وقد رجع الأنصار يوم السَّقيفة إلىٰ حديث "الأَئمَّةُ مِنْ قُرَيْشٍ" حيث رواه لهم أبو بكر الصدّيق رضى الله عنه، وأذعنوا له ، وبايعوه بعـد ما ٱجتمعوا إلىٰ سعد بن عُبَادة وقالوا " مِنَّا أميرٌ ومِنْكُمْ أَميرٌ" . علىٰ ما سيأتى بيانه فى موضعه إن شاء الله . ورجع عمر رضى الله عنـه لحديث النهي عن دُخُول بلد الطاعون فعاد إلىٰ المدينـة بعد أن قارب الشأم حين بلغه أن به الطاعونَ . وقال علىّ رضى الله عنه فى حق الأنصار "لو زالُوا لَزُلْت معهم" لقول رسول الله صـلى الله عليه وسلم "أزُولُ مَعَكُم حَيْثُ ما زُلْـتُمْ" .

ثم الذى أشار إليه ٱبن قتيبة فى "أدب الكاتب" أن الأحاديث التى ينبغى للكاتب حفظها الأحاديثُ المتعلقة بالفقه وأحكامه كقوله صـلى الله عليه وسلم "البَيِّنَةُ علىٰ المُدّعِى . واليَمِينُ علىٰ المدَّعىٰ عليه . والخَرَاج بالضَّمان . وجَرْح العَجْماء جُبَار .

ولا يَغْلَق الرهنُ (١) . والمِنْحة مردودة . والعارية مؤدّاة . والزَّعيم غارم . ولا وصيَّة لوارث . ولا قَطْعَ في ثَمر ولَا كَثَر . ولا قودَ إلا بحديدة . والمرأة تُعاقل الرجلَ إلىٰ ثلُث ديتها . ولا تعقلُ العاقلةُ عمدا ولا عَبْدا ولا صُلْحا ولا ٱعترافا . ولا طَلَاقَ في إغلاق ، والبَيِّعان بالخيار ما لم يتفرّقا . والجارُ أحقُّ بصَقَبه . والطلاقُ بالرجال والعِدّة بالنساء . وكنهيه في البيوع عن المُخابَرة والمحاقلة ، والمزابَنة ، والمُعاومَة ، والثُّنْيا ، وعن ربح ما لم يُضْمَن ، وعن بَيْع ما لم يُقْبض ، وعن بَيْعتَيْنِ في بَيْعة ، وعن شرطَيْن في بَيْع ، وعن بَيْعٍ وسَلَف ، وعن بَيْع الغرر وبيع المُواصفة ، وعن الكالِئ بالكالئ ، وعن تلَقِّي الركبان . وما أشبه ذلك ليعتني بحفظها وتدبر معانيها عن إطالات الفقهاء " .

قلت : والتحقيق أن حاجة الكاتب لا تختص بأحاديث الأحكام ودلائل الفقه ، بل تتعلق بما هو أعم من ذلك خصوصا الحِكَم والأمثال والسير وما أشبه ذلك مما يكثُر الاستشهاد به في الكتابة والاقتباس من معانيه . قال في "المثل السائر" وينبغي أن يكون أولَ ما يحفظه من الأخبار ما تضمّنه كتابُ "الشهاب في المواعظ والآداب" للقضاعي ، فإنه كتاب مختصر وجميع ما فيه يستعمل لأنه يتضمَّن حِكَما وآدابا ، فإذا حفظته وتدرّبت باستعماله ، حصل عندك قوة علىٰ التصرف والمعرفة بما يدخل في الاستعمال وما لا يدخل ، وبعد ذلك تتصفّح كتاب صحيح البخاري ، ومسلم ، والموطإ ، والترمذي ، وسنن أبي داود ، وسنن النسائي ، وغيرها من كتب الحديث ، وتأخذ ما تحتاج إليه ، و"أهْلُ مَكَّةَ أخبرُ بشِعَابِها" . قال والذي تأخذه إن أمكنك

---

(١) الحديث في المصباح لا يَغلَق الرهن بما فيه أي لا يستحقه المرتهن بالدَّين الذي هو مرهون به .

درســه وحفظه فهو المراد لأن ما لا تحفظه فلست منه على ثقة، وإن كانـــ لك محفوظاتٌ كثيرة كالقرءان الكريم، ودواوين كثيرة من الشعر، وما ورد من الأمثال السائرة، وغير ذلك مما تقدّمت الإشارة اليه وما يأتي ذكره، فعليك بمداومة المطالعة للأخبار، والإكثار من آستعمالها في كلامك، حتّى ترتقم على خاطرك فتكون إذا آحتجت منها إلى شيء وجدته، وسهُل عليك أن تأتي به آرتجالا، فتأمل ذلك وآعمل به . ثم قال وكنت جرّدت من الأخبار النبوية كتابا يشتمل على ثلاثة آلاف خبر تدخل كلها في الآستعمال، وما زلت أواظب مطالعته مدّة تزيد على عشر سنين، فكنت أُنْهي مطالعته في كل أسبوع مرة حتّى دار على ناظري وخاطري ما يزيد على خمسمائة مرة وصار محفوظا لا يشذ منه عنى شيء .

المقصـــد الثـانى

(فى بيان كيفية آستعمال الأحاديث والآثار فى الكتابة)

قال الوزير ضياء الدين بن الأثير وآعلم أنّ أكثر الأحاديث تدخل فى الآستعمال، ولا يخرج عنه إلا القليل النادر، ولقد دار بيني وبين بعض علماء الأدب فى هـذا الأسلوب كلامٌ فآستوعره وآستنكره، وقال هذا لا يتهيأ إلا فى الشيء اليسير من الأخبار النبوية — فقلت لا، بل يتهيأ فى الأكثر منها — فقـال قد ورد عن النبيّ صلى الله عليه وسلم "أنّهُ آختُصم إليه فى جنينٍ فقضىٰ علىٰ مَنْ أسقطه بغرّةٍ عبد أو أمة" فأين تستعمل هذا؟ فأفكرت فيما ذكره، ثم أنشأت هذا الفصل من الكلام، وأودعته فيه وهو "قد كثُر الجهل حتّى لا يقـال فلان عالم وفلان جاهل وضُرِب المثلُ بناقل وكم فى هـذه الصورة الممثَّلة من ناقل، ولو عرف كل إنسان قدرَه لما مشىٰ بدنٌ إلا تحت رأسه، ولا آنتصب رأسٌ إلا علىٰ بدنه، ولكان صاحبُ العمامة

أحقّ بعمامته وصاحب الرسن أحقّ برسنه . وكنت سمعتُ بكاتب من الكُتّاب كَلِمُهُ إلى عَثَائه، وقَلَمُهُ نُعاثَةٌ لا يَستَنْسِر وأىٌّ بطش لِبُغَاثِه . وإذا وجب الوضوء على غيره بالخارج من السبيلين، وجب عليه من سُبُل ثلاثه . هذا وهو يدّعى أنه فى الفصاحة أُمَّة وحده، ومَنْ قُسُّ إيادٍ أو سَحْبانُ وائلٍ عنده، وإذا كُشِف خاطره وجد بليدا لايخرُجُ عن العَمه والكَمَه، وإن رام أن يستفتحه فى حينٍ من الأحيان قضى عليه بعترةِ عبد أو أَمَة، وكثيرا مايتقدّم ونقيصتُه هذه على الأفاضل من العلماء، وقد صار الناس إلى زمان يعلُو فيه حضيضُ الأرض على هام السماء". فلما أوردته عليه، ظهرت أمارة الحسد على صفحات وجهه مع إعجابه به وٱستغرابه فيه إياه .

ثم قال وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الحديث وهو "لاتَدْخُلُ الملائكة بَيْتًا فيه صُورةٌ ولاتمثالٌ" فهذا أين يُستعمل من المكاتبات؟ فتروّيت فى قوله تروّيا يسيرا ثم قلت هذا يستعمل فى كتاب إلى ديوان الخلافة، وأمليت عليه الكتاب، فجاء هذا الحديث فى فصل منه، وهو "إذا أفاض الخادمُ فى وصف وَلائه، نَكَصَتْ هممُ الأولياء عن مقامه، وعلموا أنه أخذ الأمرَ بزمامه، فقد أصبح وليس بقلبه سوى الوَلاء والإيمان، فهذا يظهر أثرُه فى طاعة السِّرِّ وهذا فى طاعة الإعلان، وما عداهما فإن دخولَه إلى قلبه من الأشياء المحظوره، والملائكة لاتدخُل بيتا فيه تِمْثال ولاصُوره، فليعوّل الديوان العزيزُ منه على سيف من سيُوف الله يَفْرِى، بلا ضارب، ويَسْرِى، بلا حامل، ولا يُسَلُّ إلا بيد حق، ولا يُغْمَدُ إلا فى ظهر باطل . وليَعْلَمْ أن كَرِشَه وعَيْبَتَه فى تضمُّن الأسرار، وأنه أحد سعديْه إذا عُدَّتْ مواقف الأنصار" .

فلما رأى هذا الفصل بُهت له وعَجِب منه . قال ولم أقنع بإيراد الحديث الذى ذكر حتّى أضفتُ اليه حديثا آخر، وهو قول النبى صلى الله عليه وسلم "الأنصار كَرِشى وعَيْبَتِي" .

ثم تضمين الكلامِ شيْئًا من الأحاديث علىٰ ما تقدّم فى القرءان الكريم، فينقسم إلىٰ الاستشهاد والاقتباس علىٰ ما تقدّم .

فأما الاستشهاد فهو أن يضمِّن الكلام شيئا من الحديث، وينبه عليــه كقول أبى إسحاق الصابى فى وصية عهدٍ من خليفة لسلطان وأن يقومَ بمـا يعقِده الرجل من عَرْض المســلمين ، فإن ذمّته ذمّة جميع المؤمنين ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "المسلِمُون تَسْعىٰ بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ، وهُمْ يَدٌ علىٰ مَنْ سِوَاهُمْ" .

وكما كتب بعض الكُتَّاب فى صدر كِتابٍ لديوان الخلافة والحمد لله علىٰ أن صار إلىٰ أمير المؤمنين مِيراثُ الطاهرين من آبائه، وخصَّه بمـا حاز له من جَزِيل الفضل وحِبَائه، وحقّق للدولة العباسية وعد النبى صلى الله عليه وسلم إذ يقول لعمه العباس رضوان الله عليه "أَلَا أُبَشِّرُكَ ياعَمِّ! بِى خُتِمَتِ النُّبُوَّةُ وبِوَلَدِكَ تُخْتَمُ الخِلَافة" .

وكقوله من عهــدٍ آخر وأمره أن يضعَ الرصَــد علىٰ مَنْ يحتار فى الجمالة من أُبَّاق العبيد، والاحتياط عليهم وعلى ما يكون معهم إلىٰ أن قال وأن يعرِّفوا اللُّقَطَ ويتَّبِعوا أثرَها، ويُشِيــعوا خبَرَها، فإذا حضر صاحبُها وعلم أنه مستوجبُها، سُلِّمت إليه ، ولم يُعْــتَرَض فيهــا عليه . والله جل وعز يقول ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلىٰ أَهلِها﴾ . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول "ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ حَرَقُ النَّار" إلىٰ غير ذلك من الاستشهادات .

وأما الاقتباسات فهو أن يضمِّن الكلام شيئا من الحديث ولا ينبِّه عليه .

فمن ذلك ماذكره الحريرىّ فى مقاماته من قوله وكِتمانُ الفَقْرِ زَهَاده ، وانتظارُ الفَرَج بالصبْرِ عباده . وقوله شاهَتِ الوُجُوه، وقُبِّحَ اللُّكَعُ ومَنْ يَرْجُوه .

وقد أكثر الوزير ضياء الدين بن الأثير من هذا الباب .

(١) لعله على من يحتار فى العمالة

فمن ذلك قوله فى دعاء كتاب "أعاد الله أيامَهُ من العيد، وبين بخطر مجده نقصَ كل خطر . وجعل ذكره رادًا لكل ركب ، وأنسًا لكل سمر . ومنحه من فضله ما لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمعتْ ولا خطر علىٰ قلب بشر". أخذ ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم فى وصف نعيم الجنة "فيهَا ما لَا عَيْنٌ رأَتْ ولا أُذُنٌ سمِعَتْ ولا خَطَر علىٰ قلب بَشَر" فنقله إلىٰ الدعاء .

ومن ذلك ماذكره فى النصر علىٰ العدوّ فى مواطن القتال ، وهو "أحذنا بسُـنَّة رسـول الله فى النصر الذى نرجوه ، وسَـدَدْنا فى وجه العـدوّ كفًّا من التراب وقلنا شاهت الوجوه، فثبَّتَ الله ماتزلزل من أقدامنا ،وأقدَمَ حيزُومُ فأعىٰ عن إقدامنا" .

أخذ المعنى الأوّل من حديث غزوة حنين وأن النبى صلى الله عليه وسلم أخذ قَبْضةً من التُّراب وألقى بها فى وُجُوه الكفار وقال "شاهتِ الوجوهُ" . وأخذ المعنى الثانىَ من حديث غزوة بدر وذلك أن رجلا من المسلمين لاقىٰ رجلا من المشركين وأراد أن يَضْرِبَه فخرّ علىٰ الأرض ميتا قبل أن يصل إليه، وسمع الرجل المسلم صوتًا من فوقه وهو يقول أَقْدِم حَيْزُومُ فجاء النبىَّ صلى الله عليه وسـلم فأخبره فقال "ذلك من مَدَدَ السماء الثالثة" .

ومن ذلك ماذكره فى ضيق مَجَال الحرب، وهو "وضاق الضرب بين الفريقين حتّى آتصلَتْ مواقعُ البِيض الذُّكور، وتصافحَتِ الغُرَر بالغُرَر والصُّدورُ بالصدور . وآستُظِلَّ حينئذ بالسـيوف لآشتباك مَجَالهـا وتُبوِّئتْ مقاعدُ الجنـة التى هى تحت ظلالها" . أخذ ذلك من قول النبى صلى الله عليه وسـلم " الجنةُ تحْتَ ظِلَالِ السُّيُوف" .

ومن ذلك ما ذكره فى وصف بعض البلاد الوخمه، وهو "ومن صفاتها أنها مَدَرة مُسْتوبَلة الطيبه، مجموعٌ لهـا بين حَرّمكَّةَ ولَأْواء المَدينـه . إلا أنها لم يؤمَن

حَرُّها من الحَطْمة، ولا نُقلت حُمَّاها إلى الجحفة . أخذ المعنى الأول من قوله صلى الله عليه وسلم "مَنْ صَبَرَ على حَرِّ مَكَّةَ ولَأْوَاءِ المَدِينةِ ضمنتُ له على الله الجنّة" . والمعنى الثانى من قوله صلى الله عليه وسلم فى دُعائه للمدينة "اللهمَّ حَبِّبْها إلينا كما حَبَّبْتَ إلينا مَكَّةَ وانْقُلْ حُمَّاهَا إلى الجُحْفة" . ورشّح ذلك بمعنى قوله تعالى ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا ويُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ حيث قال إلا أنها لم يؤمن حَرُّها من الحطمة .

ومن ذلك ما ذكره فى وصف كريم ، وهو "فأغنى بجوده إغناءَ المطر ، وسَمَا إلى المَعالِى سُمُوَّ الشمس وسار فى منازلها مَسِيرَ القمر . ونُتِج من أبكار فضائله ما إذا ادّعاه غيرُه قيل للعاهر الحَجَر" . أخذ ذلك من قول النبى صلى الله عليه وسلم "الوَلَدُ لِلفِراشِ ولِلعاهِرِ الحَجَر" . إلى غير ذلك من مقتبساته المستكْثَرة، واستنباطاته التى هى غير قاصرة ولا مستنكَرة .

ومن ذلك ما ذكرته أنا فى المفاخرة بين السيف والقلم، وهو "وبدأ القلم فتكلَّم، ومضى فى الكلام بصدق عَزْم فما توقَّف ولا تلعْثَمَ ، فقال باسم الله تعالى أستفتح ، وبحمده أتيمَّنُ وأستنجح ، إذ من شأنى الكتابة ، ومن فَنِّى الخَطابة ، وكلُّ أمرٍ ذى بالٍ لا يُبْدَأُ فيـه باسم الله تعالى فهو أجْذَم ، وكل كلام لا يُفْتَتَحُ بحمد الله فأَساسُه غيرُ مُحْكَم" . أخذت ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم "كلُّ أمْرٍ ذى بالٍ لا يُبْدَأُ فيه باسمِ اللهِ أو بحمدِ اللهِ فهو أجْذَمُ" على اختلاف الرواية فى ذلك .

واعلم أنه كما يحتاج الكاتب إلى حفظ الأحاديث والآثار بطريق الذات للاستشهاد بها ، والاقتباس من معانيها على ما تقدّم بيانه كذلك يحتاج إلى المعرفة بأنواع الحديث وأقسامها كالصحيح ، والحَسَن ، والمُرْسَل ، والمرفوع ، والمُسْنَد ، والمتصل ، والمنقطع ، ونحو ذلك . وكذلك المعرفة بأسماء الرجال ، والمشاهير من المحـدّثين

كالبخارى، ومسلم، وأبى داود، والنسائى وغيرهم ليورد ما يحتاج إليه من ذلك فى غضون كلامه عند احتياجه إليه فى كتابة ما يتعلق بذلك من توقيع محدّث ونحوه كما قال فى "التعريف" فى وصية لمحدّث فى قسم الوصايا من الكتاب "وقد أصبح بالسنة النبوية مُصطلِعا، وعلى ما جمعه طُرُق أهل الحديث مُطَّلعا، وصح الصحيح أن حديثه الحسن، وأن المُرْسَل منه فى الطلب مقطوع عنه كلُّ ذى لَسَن. وأن مُسْنَدَه هو المأخوذ عن العوالى، وسماعه هو المرقص منه طول الليالى. وأن مثله لا يوجد فى نسبه المُعْرِق، ولا يُعْرَف مثله للحافظين ابن عبد البر بالمغرب وخطيب بغداد بالمَشْرِق. وهو يعرف مقدارَ طلب الطالب فإنه طال ما شدّ له النِّطَاق، وسعى له سَعْيه وتجشَّم المشاق. ورحل له يشتدّ به حرصه والمطايا مزمومة، ويُنَبِّهه له طلبُه والجفونُ مُقْفَلة والعيون مَهمُومه. ووقف على الأبواب لا يُضْجِره طولُ الوقوف حتّى يؤذنَ له فى وُلُوجها، وقعد القُرْفُصاءَ فى المجالس لا تَضيق به فُرُوجُها. فليعامل الطلبة إذا أتَوْه للفائده معاملةَ من جرّب، وليَبْسُط للأقرباء منهم ويُؤْنِس الغُرَباء فما هو إلا ممن طلب آوِبةً من قريب وآوِبة تغرّب. وليُسفِرْ لهم صباحُ قصده عن النجاح، وليَفْتَقْ لهم من عُقُوده الصحاح، وليُوضح لهم الحديثَ، وليُرِحْ خواطرهم بتقريبه ما كان يسار إليه السيْرَ الحثيث، وليؤْتِهم مما وسَّع الله عليه فيه المَجال، ويعلِّمْهم ما يجب تعليمُه من المُتُون والرجال، ويُبَصِّرْهم بمواقع الجَرْح والتعديل، والتوجيه والتعليل، والصحيح والمُعْتَل الذى تتناثر أغصانُه سَقَما كالعليل. وغير ذلك مما لرجال هذا الشأن به عنايه، وما يُنَقَّب فيه عن دراية أو يُقْنع فيه بمجرّد روايه. ومثله ما يراد خاتما، ولا يعرّف بمن رخَّص فى حديث موضوع أو كتم علما. وسيأتى ذكر هذه الوصيه فى موضعها إن شاء الله تعالى.

وكما قال الشيخ جمال الدين بن نباتة من جملة توقيع لبعض مدرّسى الشام "ولأنه الحافظ الذى أحيا ذكر ابن نُقْطةَ بعد ما دارت عليه الدوائر، وأعنىٰ وحده دمشقَ عمن أتىٰ فى النسب بعساكر" .

النــــوع الثــامن
(الإكثار من حفظ خُطَب البلغاء، والتفنُّن فى أساليب الخطباء، وفيه مقصدان)

المقصــــد الأوّل
(فى وجه احتيـاج الكاتب إلىٰ ذلك)

قال أبو جعفر النحاس "وهى من آكد ما يحتـاج اليـه الكاتب ، وذلك أن الخطب من مستَوْدَعات سرّ البلاغة، ومجامع الحكم ، بها تفاخرت العـرب فى مَشَاهدهم ، وبها نطقت الخُلَفاء والأمراء علىٰ منابرهم ، بها يتميز الكلام ، وبها يُخاطَب الخاصُّ والعامّ، وعلى منوال الخَطابة نُسِجت الكتابه ، وعلى طريق الخُطَباء مشَتِ الكُتَّاب . وقد قال أبو هلال العسكرى رحمه الله فى "الصناعتين" والرسائل والخطب متشاكلتان فى أنهما كلام لا يلحقه وزن ولا تقفية، وقد يتشاكلان أيضا من جهة الألفاظ والفواصل ، فألفاظ الخطب تشبه ألفاظ الكُتَّاب فى السهوله والعذوبة، وكذلك فواصل الخطب مثل فواصل الرسائل" . قال "والفرق بينهما أن الخطبة يُشافَه بها بخلاف الرسالة ، والرسالة تجعل خطبه والخطبة تجعل رساله فى أيسر كلفة" .

واعلم أنه كان للعرب بالخطب والنثر عنايةُ الاعتنـاء حتّى قال صاحب "الريحان والريعان" إن ما تكلمت به العرب من أهل المَدَر والوَبَر من جَيِّد المنثور ومُزْدَوِج

الكلام أكثر مما تكلمتْ به من الموزون إلا أنه لم يُحفَظ من المنثور عُشْره ، ولا ضاع من الموزون عُشْره . لأن الخطيب إنما كان يخطُب في المقام الذي يقوم فيه في مشافهة الملوك ، أو الحالات ، أو الإصلاح بين العشائر ، أو خِطْبة النكاح ، وإذا انقضى المقام حفِظه مَنْ حفِظه ، ونسيه من نسيه . بخلاف الشعر فإنه لا يضيع منه بيت واحد . قال " ولولا أن خطبة قُسِّ بن ساعدةَ كان سنَدُها مما يتنافَسُه الأنام ، وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي رواها عنه فأطار ذكرها ، ماتميزت عما سواها " .

قلت وليس ماأشار إليه لرفض النثرعندهم وقلّة اعتنائهم به ، بل لسهولة حفظ الشعر وشيوعه في حاضرهم وباديهم ، وخاصّهم وعامّهم ، بخلاف الخَطَابة فإنه لم يتعاطَها منهم إلا القليل النادر من الفصحاء المَصَاقِع فلذلك عزَّ حِفْظُها وقلّ عنهم نقلُها . وقد كانت تقوم بها في الجاهلية ساداتُ العرب ، ورؤساؤُهم ممن فاز بقِدْح الفضل ، وسبق إلى ذُرى المجد ، ويخُصُّون ذلك بالمواقف الكرام ، والمَشَاهد العظام ، والمجالس الكريمة ، والمجامع الحَفِيلة ، فيقوم الخطيبُ في قومه فيحمد اللهَ ويُثْني عليه . ثم يذكر ماسنح له من مُطابق قصده ومُوافِق طلبه من وعظ بذكر أو فخرأو إصلاح أو نكاح ، أو غير ذلك مما يقتضيه المقام .

فمن خُطَبهم في الجاهلية خطبة كعب بن لؤى جدّ النبي صلى الله عليه وسلم فيما ذكره أبو هلال العسكري في كتاب الأوائل . وهي اسمعُوا وَعُوا ، وتعلَّمُوا تَعْلَموا ، وتَفَهَّمُوا تَفْهَموا ، ليلٌ ساج . ونهارٌ صاح (١) ، والأرض مِهاد ، والجبال أوتاد ، والأوّلون كالآخرين ، كلٌّ ذلك إلى بَلاء ، فصِلُوا أرحامكم ، وأصلحوا أموالكم ، فهل رأيتم مَنْ

(١) لعله ضاح من قولهم ضح القوم نضحون اذا ضاحوا وحلوا . وفي الضوء ليل داج ونهار ساج تأمل

هلك رجع ، أومبتا نُشِر الدار أمامكم والظن خلاف ماتقولون ، زيّنوا حَرَمكم وعظّموه ، وتمسّكوا به ولا تُفارِقوه ، فسيأتي له نبأ عظيم ، وسيخرج منه نبيٌّ كريم . ثم قال

نَهارٌ ولَيْلٌ واختِلافُ حَوادِثٍ * سَـواءٌ علينا حُلْوُها ومَريرُها

يئوبان بالأحداث حتّى تأوّبا * وبالنِّعم الصافي علينا سُتُورُها

صُروفٌ وأنباءٌ تقلّبَ أهلُها * لها عُقَد ما يستحيل مَريرها

علىٰ غفـلةٍ يأتِي النبيُّ محمّدٌ * ويُخبِرُ أخبارًا صَدُوقًا خَبيرُها

ثم قال

يالَيْتَنِي شاهِـدٌ فَحْواءَ دَعْوتهِ ! * حِينَ العَشِيرَةُ تَبْغِي الحَقَّ خِذْلانَا

ومن ذلك خطبة قُسّ بن ساعدة الإيادىّ ، بسُوق عُكاظ فيما نقله أصحاب السِّيَر عن أخبار النبى صلى الله عليه وسلم عنه وهى أيها الناس ! اسمعُوا وعُوا ، مَن عاش ماتَ ، ومَن مات فات ، وكلُّ ماهو آتٍ آت ، ليل داج ، ونهار ساج ، وسماءٌ ذاتُ أبراج ، ونُجومٌ تَزْهَر ، وبحار تَزْخَر ، وجبال مُرْساه ، وأرض مُدْحاه ، وأنهار مُجْراه . إنَّ فى السماء لخَبَرا ، وإن فى الأرض لعِبَرا ؟ مابالُ الناس يَذْهَبُون ولا يَرْجعُون . أرَضُوا فأقامُوا ، أم تُرِكُوا فنامُوا . يُقْسِم قُسٌّ بالله قسمًا لا إثم فيه إنّ لله دِينًا هو أرضىٰ له وأفضــلُ من دينكم الذى أنتم عليه ، إنكم لتأتون من الأمر منكرا ! . ويروىٰ أن قُسًّا أنشأ بعد ذلك يقول:

فى الذّاهبيــنَ الأوليـــن من القُرُونِ لَنَا بَصائِرْ

لَمّـا رَأَيْتُ مَــوَارِدًا . للموتِ لَيْس لهَـا مَصادِرْ

ورَأَيْتُ قَوْمِى نَحْــوَها تَمضِى الأكابِرُ والأَصَاغِرْ

لا يَرْجِــعُ المـاضِى إلىَّ ولا مِنَ الباقِيــن غَابِرْ

أيقنْــتُ أنّى لا محَـا . لَةَ حَيْثُ صارَ القَوْمُ صائِرْ

قال صاحب الأوائل ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال "يُعْرَضُ هذا الكلام يوم القيامة على قُسّ بن ساعدة فإن كان قاله لله فهو من أهل الجنة".

ومن ذلك خطبة أبي طالب حين خطب النبيّ صلى الله عليه وسلم خديجةَ وهي الحمدُ لله الذي جعلنا من زَرْع إبراهيم، وذُرِّية إسماعيل، وجعل لنا بيتا محجوجا، وحَرَما آمنا. ثم إن محمدَ بنَ عبد الله بن عبد المطلب ابنَ أخي مَنْ لا يُوازَن بأحد إلا رجَحَه، ولا يُعْدَلُ بأحد إلا فَضَله، وإن كان في المال قُلٌّ فإن المال ظلٌّ زائل، وله في خديجةَ رغبة ولها فيه مثلُها، وما كان من صداق ففي مالي، وله نبأٌ عظيم وخبرٌ شائع.

ومن خطب النبي صلى الله عليه وسلم "أيها الناسُ كأنَّ الموتَ فيها على غيرنا قد كُتب، وكأنَّ الحقَّ فيها على غيرنا قد وَجَبْ، وكأنَّ الذي نُشَيِّع من الأموات سَفْرٌ عمّا قليل إلينا راجعون، نبوِّئُهم أجداثَهم، ونأكل من تُراثِهم كأنّا مخلَّدون بعدهم، ونسينا كُلَّ واعظة وأمِنَّا كلَّ جائحة، طُوبى لمن شغَله عَيْبُه عن عُيوب الناس، طُوبى لمَنْ أنفق مالًا اكتسبه من غير معصية، وجالَسَ أهلَ الفِقْه والحِكْمة، وخالَطَ أهْلَ الذُّلّ والمَسْكنة، طُوبى لمن ذَكَتْ وحَسُنَتْ خَلِيقَتُه، وطابَتْ سَرِيرَتُه، وعَزَل عن الناس شرَّه، طُوبى لمن أنفقَ الفضلَ من ماله، وأمسك الفضلَ من قوله، ووَسِعَتْه السُّنّة ولم تَسْتَهْوِه البِدْعة!"

ومن خطب أبي بكر الصديق رضي الله عنه فيما ذكره أبو جعفر النحاس في "صناعة الكتّاب" وهي ألا إن أشقى الناس في الدنيا والآخرة الملوك، الملك إذا مَلَك زهّده الله حلّ وعز فيما عنده، ورَغَّبه فيما في يدَيْ غيره، وانتقصه شَطْر أجله، وأَشْرَب قلبَه الإشفاق، وإذا وجبَتْ نفسُه، ونَضَب عمرُه وضَحَا ظلُّه،

حاسبه اللهُ جل ثناؤُه وأشدَّ حسابَه، وأقلّ عَفْوه، وستَرَوْن بعدى مُلْكًا عَضُوضا، وأُمّة شِحَاحا، ودَمًا مُباحا، وإن كانت للباطل نَزْوةٌ، ولأهل الحق جَوْلة، يعفُو لها الأثر وتموت السُّنَن، فالزموا المساجدَ واستشيروا القُرءان[1]، وليكن الإبرامُ بعد التَّشَاور، والصَّفْقةُ بعد التناظُر.

ومن خطب عمر رضى الله عنه أيها الناس! إنَّه أتى علىّ حينٌ وأنا أحْسَب أنّ مَنْ قرأ القرءانَ إنما يريدُ اللهَ وما عنْدَه، ألا وإنه قد خُيِّل إلَىّ أن أقواما يقرءُون القرءان يُريدون ما عند الناس! ألا فأرِيدُوا اللهَ بقراءتكم، وأرِيدُوه بأعمالكم، فإنما كنا نعرفكم إذ الوحىُ ينزل وإذ النبى صلى الله عليه وسلم بَيْنَ أظْهُرنا، فقد رُفع الوحىُ وذهبَ النبىُّ عليه السلام، فإنما أعرِفكم بما أقولُ لكم ألا فمن أظهرَ لنا خيرا ظَنَنَّا به خيرا وأثنينا به عليه! ومَنْ أظهر لنا شرا ظننا به شرا وأبغضناه عليه! اقْدَعُوا هذه النفوسَ عن شَهَواتها، فإنها لَمَلِقة، وإنكم إلّا تَقْدَعُوها تَنْزِعْ بكم إلى شَرِّ غاية. إن هذا الحقّ ثقيلٌ مَرِىء، وإن الباطل خَفِيف وَبِىء، وترْكُ الخطيئة خيرٌ من مُعالجَة التَّوْبة، ورُبَّ نظرةٍ زرَعَتْ شَهوةً، وشَهْوةٍ ساعةٍ أورثَتْ حُزْنا طويلا!.

ومن خطب عثمان رضى الله عنه وقد أنكروا عليه تقديم بنى أُميَّة على غيرهم

أمّا بعدُ فإنَّ لكلّ شىء آفةً، وآفَة هذا الدِّين وعاهةَ هذه المِلَّة قومٌ عَيَّابون طَعَّانون، يُظْهِرون لكم ما تُحبُّون ويُسِرُّون ما تكْرَهُون. أما والله يامعشَر المهاجرينَ والأنصار! لقد عِبْتُمْ علىّ أشياءَ ونَقَمْتم منّى أُمورا قد أقررتم لابن الخطّاب بمثلها ولكنه وَقَمَكم وَقْما، وذَمَرَكم[2] حتّى لايجترئ أحد منكم يملأُ بصرَه منه ولا يُشير بطَرْفِه

---

(١) كذا فى الاصول بالشين المعجمة ولعله تصحيف عن النون المهملة ففى اللسان وثوّروا القرآن بحث عن معانيه وعن علمه وأورد فى ذلك حديث عبدالله أثيروا القرآن فان فيه خبر الاولين والآخرين وحديثا آخر من أراد العلم فليثور القرآن (٢) فى غير هذا الكتاب وقمعكم والوقم والقمع القهر والإذلال

إلا مُسارقةً إليه ، أما والله لأنا أكثرُ من آل الخطّاب عَدَدا ، وأقربُ ناصرا وأحذر إن قال هَلُمَّ[1] أن يُجَاب . هل تفقِـدُون من حقوقكم وأعطيَاتِكم شيئا فإنّى إلَّا أفعَلَ فى الفصل ما أريد فلِمَ كنت إماما إذَنْ ؟ أما والله ما عاب عَلَىَّ مَنْ عاب منكم أمرا أجهلُه ولا أتيتُ الذى أتيتُ إلا وأنا أعرِفُه .

ومن خطب على كرم الله وجهه حين بُويِـع بالخلافة إن الله أنزل كتابا هاديا بيَّنَ فيه الخيرَ والشر ، فخُذُوا بالخير ودَعُوا الشر ، الفرائضَ أدّوها إلى الله تؤدِّيكم إلىٰ الجنة . إن الله حَرّم حُرَما غير مجهولة ، وفَضَّل حُرمةَ المسـلم علىٰ الحُرَم كلها ، وشدّد بالإخلاص والتوحيد حقوقَ المسلمين . فالمسلِمُ مَنْ سَلِم المسلِمُون من لسانه ويده إلا بالحق ، لا يحل أذىٰ المسلم إلا بما يجب ، فأدُّوا أمر العامّة ، وخاصةُ أحدكم الموتُ . فإن الناس أمامكُم وإنما خَلْفَكُم الساعة تُذَكِّرُكم . تخففُوا تَلْحَقُوا ، فإنما ينتظر بالناس أُخْراهم . اتقوا اللهَ عبادَ الله فى عباده وبلاده ، فإنكم مسـئولون حتّى عن البِقَاع والبهـائم ، أطيعُوا اللهَ ولا تَعْصُوه . وإذا رأيتم الخير فخذوا به ، وإذا رأيتم الشر فدَعُوه ، واذْكُروا إذ أنتُمْ قليلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فى الأرضِ .

ومن خطب الحسن بن على رضى الله عنه : اعلموا أن الحلم زين ، والوقارَ مَوَدّة ، والصِّلة نعمة ، والإكثار صَلَف ، والعَجَلة سَفَه ؟ والسَّفَه ضَعْف ، والقَلَق ورطة ، ومجالسة أهل الدناءة شَيْن ، ومخالَطة أهل الفسوق رِيبة .

ومن خطب معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه بصِفّين : أيها الناس ! إن الحرب صَعْبة ، وإن السِّـلْمَ مَنّ ومَبَرّه ! ألا وقَدْ رَبَتْنَا الحربُ وربّـاها

(١) فى غير هذا الكتاب وأمن إن قلت هلم أن تجاب دعوتى من عمر والروايات متقاربة .

وألقتنا وألفناها، فنحن سوها وهي أمّنا . أيها الناس ! آستقيموا على سبيل الهدى، ودَعُوا الأهواء المُضِلّة ، والبِدَع المُرْدِيَة ، ولستُ أراكم تزدادُون بعد الوَصاة إلا آستجراء ، ولن أزداد بعد الإعذار والحجة عليكم إلا عقوبة ! ، وقد آلتقينا نحن وأنتم عند السَّيف فمن شاء فليتحرّك أو يتقهقر وما مَثَلي ومثلُكم إلا كما قال آبن قيس آبن رفاعة الأنصاري .

مَنْ يَصْلَ نَاري بِلا ذَنْبٍ ولا تِرَةٍ * يَصْلَىٰ بنارِ كريم غيرِ غَدَّار

أنَا النذيرُ لكُمْ مِنّي مُجَاهرةً * كَيْ لا أُلامَ على نَهْيي وإنذاري

ومن خطب عتبة بن أبي سفيان، وهو يومئذ أمير مصر وقد بلغه عن أهلها أمور أن صعد المنبر[1] وقال يا حامِلِي ألأم أنوفٍ رُكِّبَتْ بينَ أعيُنٍ ! إنما قلّمتُ أظفاري عنكم ليلينَ مَسِّي إياكم، وسألتكم صلاحكم لكم إذ كان فسادكم راجعا عليكم، فأمّا إذ أبيتم إلا الطَّعْن على الأمراء والعَتْبَ على السلف والخلفاء، فوالله لأقَطِّعَنَّ بُطونَ السياط على ظهوركم ! فإن حَسَمَتْ مُسْتَشْرِيَ دائكم وإلا فالسيف من ورائكم . فكم من عظةٍ لنا قد صَمَّت عنها آذانُكم ، وزَجْرةٍ منّا قد مجّتها قلوبكم ، ولست أبخل عليكم بالعقوبة إذا جدتم علينا بالمعصية ، ولا مؤيسا لكم من المراجعة إلى الحسنى إن صرتم إلى التي هي أبرّ وأتقى .

ومن خطب زياد بن أبيه حين قدم إلى البصرة أما بعدُ فإن الجَهالة الجَهْلاء ، والضّلالة العمياء ، والغَيَّ المُوفِي بأهله على النار ما فيه سُفَهاؤكم ، ويشتمل عليه حُلَماؤكم من الأمور التي ينبُت فيها الصغير ، ولا يتحاشى عنها الكبير ، كأنكم لم تقرءوا كتاب الله ولم تسمعوا ما أعدّ الله من الثواب الكريم لأهل طاعته ، والعذاب

(١) لعل عاملا أن محذوف والأصل فما كان منه الا أن الخ

الأليم لأهل معصيته ، فى الزمن السرمدىّ الذى لا يزول . إنه ليس منكم إلا مَنْ طرفت عينه الدنيا ، وسدّت مسامعه الشهوات ، واختار الفانية علىٰ الباقية ، ولا تذكرون أنكم أحدثتم فى الإسلام الحدث الذى لم تُسبقوا إليه من تركِكم الضعيفَ يُقْهَر، والضعيفة المسلوبة فى النهار لا تُنصر[1]، والعدد غير قليل، والجمع غير مفترق . ألم يكن منكم نُهاةٌ يمنعون الغُواة عن دَلَجِ الليل وغارة النهار ! قرّبتم القرابة ! وباعدتم الدِّين، تعتذرون بغير العذر ، وتُغْضُون علىٰ النُّكْر . كل امرئ منكم يردّ عن سفيهه صُنْعَ من لا يخاف عقابا ولا يرجو معَادا . فلم يزل بهم ما ترون من قيامكم دونهم حتّى انتهكوا حُرَم الإسلام ثم أطرقوا وراءكم كُنُوسا فى مكانس الرِّيَب ، حرام علىّ الطعام والشراب حتّى أسوّى هذه المواخيرَ[2] بالأرض هَدْما وإحراقا ! . إنى رأيت آخر هذا الأمر لا يصلحُ إلا بما صَلَح به أوّله لينٌ فى غير ضَعْف ، وشدّة فى غير عُنْف ، وإنى لأقسم بالله لآخذنَّ الولىّ بالمَوْلىٰ ، والمقيمَ بالظاعن ، والمطيع بالعاصى ، حتّى يلقىٰ الرجل أخاه فيقولَ "انْجُ سَعْدُ فقــد هَلَك سَعيد" أو تستقيم لى قَناتُكم . إنّ كِذْبة الأمير بَلْقاء مشهورة ، فإذا تعلقتم علىَّ بكذبة فقد حلتْ لكم معصيتى ، وقد كان بينى وبين قوم إحَنٌ فجعلْتُ ذلك دَبْر أذنى وتحت قدمى . إنى لو علمت أن أحدكم قد قتله السُّلّ من بُغضى لم أكشف له قِناعا ، ولم أهتك له سترا ، حتى يُبْدِىَ لى صَفْحته ، فإذا فعــل ذلك لم أناظره ، فاستأنفوا أموركم وارعوا[3] علىٰ أنفسكم ، فربَّ مبتئس بقدومنا سيُسَرّ ، ومسرورٍ بقُدُومنا سيَبْتئِس ! . أيها النــاس إنا قد أصبحنا لكم ساسةً ، وعنكم ذادةً نَسُوسكم بسلطان الله الذى أعطانا ، ونذود عنكم بفىء الله الذى خوّلنا ، فلنا عليكم السمعُ والطاعة فيما أحببنا ، ولكم علينا العدلُ فيما وَلينا ، فاستوجبُوا عدلنا وفَيْئنا بمُناصحتِكم لنا ،

---

(١) فى العقد الفريد والضعيفة المسلوبة فى النهار المبصر (٢) وقع فى الأصل المناخير وهو تصحيف عن المواخير انظر اللسان والعقد الفريد . (٣) فى العقد الفريد وأعينوا

فقام إليه عبد الله بن الأهتم وقال «أشهد أيها الأمير لقد أُوتيتَ الحِكمةَ وفصلَ الخِطاب» قال . «كذبْتَ» ذاك نبيُّ الله داودُ !

ومن خطب عبد الملك بن مروان، لما قتل عَمْرا الأشدقَ بنَ سعيدِ بن العاص إرمُوا بأبصاركم نحوَ أهل المعصية، وآجعلوا سَلَفكم لمن غَبَر منكم عِظَة، ولا تكونُوا أغفالا من حُسْن الآعتبار، فتنْزِلَ بكم جائحةُ السَّطوات، وتجُوسَ خِلالَكم بوادرُ النَّقِمات، وتَطأَ رِقابَكم بثِقَلها العقوبة فتجعلكم هَمَدا رُفاتا، وتشتمل عليكم بطونُ الأرض أمواتا . فإيَّاى من قول قائل، وزَشْقة جاهل ! فإنما بيني و بينكم أن أسمع النَّعوة[1] فأُصمِّم تصميمَ الحُسام المَطْرور[2]، وأَصولَ صِيالَ الحَنِق المَوْتُور، وإنما هى المصافَحة والمكافَحة بظُبات السُّيوف وأسِنَّة الرماح، والمعاودةُ لكم بسُوء الصَّباح، فتاب تائب، وهلك خائب[3]، والتوبْ مقبول، والإحسان مبذول، لمن عرف رُشْده وأبصر حظه . فانظروا لأنفسكم، وأقبلوا على حظوظكم، ولتكن أهلُ الطاعة يدا على أهل الجهل من سفهائكم، وآستديموا النعمة التى آبتدأتكم برغيد عيشها ونفيس زينتها، فإنكم من ذلك بين فضيلتين عاجلِ الخَفْض والدَّعة، وآجلِ الجزاء والمَثُوبة عصمكم الله من الشيطان وفتْنته ونزغه، وأمدّكم بحُسن معونته وحفظه . انهَضُوا رحمكم الله إلى قبض أعطياتكم غيرْ مَقطوعة عنكم، ولا مكدَّرة عليكم .

فخرج القوم من عنده بِدارا كُلُّهم يخاف أن تكون السطوةُ به .

ومن خطب الحجاج بن يوسف الثقفىّ عند قدومه الكوفة أميرا على العراق يا أهل العراق أنا الحجاج بن يوسف ! .

---

(١) كذا فى الأصل الإهمال وهو تصحيف عن المعجمة والنعوة والنعية اول الخبر قبل ان تستبينه

(٢) المطرور براءين المحدود المشحوذ وفى الأصل بالدال المهمله وهو تصحيف

(٣) فى الأصل بالها واهمال الدال واعجام خائب ولعله بالميم واعجام الدال بمعنى صحر وقلق واه ال الخاء من خائب محرر

أنا ابن جَلَا وطَلَّاعُ الثَّنَايَا * مَتى أَضَعِ العِمامةَ تَعْرِفُونى

والله يا أهل العراق إنى لأَرىٰ رءوسا قد أينعتْ وحان قطافها، وإنّى لصاحبها!
والله لكأنى أنظر إلى الدماء بين العمائم واللّحى . يا أهـل العراق ما يُغمَز جانبى كتغمار
التّين، ولا يُقعقَع لى بالشِّنان. ولقد فُرِرْت عن ذكاء، وفُتِّشْت عن تجربة، وأجريتُ
من الغاية، وإن أمير المؤمنين عبد الملك نَثَر كنانتَـه بين يديه فعجَم عيدانَهـا عُودا
عُودا فوجدنى أمرّها عودا . وأشـدّها مَكْسِرا، فوجّهنى إليـكم ورماكم بى يا أهلَ
الكُوفة، أهلَ الشِّقاق والنفاق، ومَسَاوى الأخلاق لأنكم طالمـا أوضعتُم فى الفتنة،
واضطجَعْتم فى مَنامِ الضَّلال، وسـنَنْتم سُنَن الغىّ، وأيم الله لألحُوَنَّكم لَحْوَ العُود،
ولأَقْرَعَنَّكم قَرْع المروة، ولأَعْصِبَنَّكم عَصْبَ السَّـلَمة، ولأضربَنَّكم ضَرْبَ غريبة
الإبل. إنى والله لا أحلف إلّا صدَقْت، ولا أعِدُ إلّا وَفَيت. إيَّاى وهذه الزّرافاتِ،
وقال وما يقولُ، وكان وما يكون . وما أنتم وذاك يا أهل العراق. إنمـا أنتم أهل
قريةٍ كانَتْ آمِنَةً مُطْمئنَّةً يأْتِيهَا رِزْقُها رَغَدا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ، فأتاها
وعيدُ القُرىٰ من ربها . فاستَوْثِقُوا واعْتَدِلُوا ولا تميلوا، واسمَعُوا وأطيعوا، وشايعُوا
وبايعُوا .

واعلموا أن ليس منى الإكثارُ والإهذار ولا مع ذلك النِّفار ولا الفِرَار، إنمـا هو
انتضاءُ هذا السيف، ثم لا يُغْمَد الشتاءَ ولا الصيف، حتّى يُذِلَّ الله لأمير المؤمنين
عِزَّكم، ويُقيم له أَوَدَكم وصَعَركم . ثم إنى وجدتُ الصدق من البر، ووجدت البرّ
فى الجنّـة، ووجدت الكذِبَ من الفُجُور، ووجَدْت الفُجُور فى النـار . وإن
أمير المؤمنـين أمرنى أن أُعطيَكم أعطياتكم، وأُشْخِصَكم لمجاهدة عدوّكم وعدوّ أمير
المؤمنين، وقد أمرتُ لكم بذلك وأجَّلْتكم ثلاثا، وأعطيت الله عهـدًا يؤاخذنى به
ويستوفيه منّى لئن تخلّف منكم بعد قبض عطائه أحد لأضربنّ عُنُقَه وأنهبنّ ماله .

ثم ٱلتفتَ الى أهل الشام فقال أنتم البِطانةُ والعشيرة ! والله لرِيحُكم أطيبُ من ريح المســك الأذفر، و إنما أنتم كما قال الله تعالى ﴿وضرب الله مثلاً كلمةً طيّبةً﴾ الآية .
وٱلتفتَ الى أهل العِراق فقال والله لَرِيحُكم أنتَنُ من رِيح الأنْجر، و إنما أنتم كما قال الله ﴿ومثَلُ كلمةٍ خبيثةٍ كشجرةٍ خبيثةٍ﴾ الآية .

ومن خطبه لمـا قدم البصرة يتهدّد أهل العراق ويتوعدهم

أيُّها الناس مَنْ أعياه داؤه فعندى دواؤه ! ، ومَن ٱستطال أجلَه ، فعليّ أن أُعْجِله ، ومن ثَقُل عليه رأسُــه وضعت عنه ثِقْله ، ومَن ٱستطال ماضِيَ عُمُره قصّرت عليــه باقيَه . إن للشيطان طَيْفا ، وللسلطان سَيْفا ! ، فمن سَقُمتْ سريرتُه ، صحتْ عقوبته ، ومَنْ وضعه ذَنْبه ، رفعه صُلبه ، ومن لم تَسَعْه العافية ، لم تَضِقْ عنه الهَلَكة ، ومن سبقتْه بادرة فمه ، سَبَق بدَنَه بسفْك دمه ، إنى أُنْذِرُ ثم لا أُنظِر ، وأحَذّر ثم لا أُعْذِر ، وأتوعد ثم لا أعفو . إنمـا أفسدكم ترنيق وُلاتكم ، ومن ٱسترخى لبه ، ساء أدبُه . إن الحزمَ والعزم سلبانى سَوْطى ، وأبدلانى به سيفى فقائمُه فى يدى ، ونِجادُه فى عنقى ، وذُبابُه قلادة لمن عصانى ! ، والله لا آمر أحدكم أنْ يخرج من باب مــن أبواب المسجد فيخرج من الباب الذى يليه إلا ضربتُ عنقه .

ولعمر بن عبد العزيز ، وسليمانَ بن عبد الملك من خلفاء بنى أميــة ، وأبى جعفر المنصور ، وهارونَ الرشيد ، وٱبنه المأمون من خلفاء بنى العباس وغيرهم ، من خلفــاء الدولتين وأمرائهــم خطبٌ فائقة ، وبلاغات معجبة رائعة ، يضيق هــذا الكتاب عن إيرادها ، وقد أوردنا من ذلك ما فيه كفاية للبيب ، ومقنع للأريب .

ومن خطب أبى بكر بن عبد الله أمير المدينة النبوية على ساكنها أفضــل الصلاة والسلام ، والتحية والإكرام ، وقد بلغه عن قوم من أهل المدينه أنهم ينالون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويُسْعِفُهم آخرون على ذلك .

أيها الناس! إنى قائل قولا فمن وعاه وأدّاه فعلىٰ الله جزاؤه، ومن لم يَعِه فلا يَعْدُ من ذمامها[1]، إن قصّرتم عن تفصيله، فلن تعجزوا عن تحصيله. فأرعوه أبصاركم وأوْعُوه أسماعكم وأشعروه قلوبكم، فالموعظة حياةٌ، والمؤمنون إخوة، وعلى الله قَصْدُ السَّبيل ولو شاءَ لهَدَاكُمْ أجْمَعِينَ. فأْتُوا الهدىٰ تهتدوا، واجتنبُوا الغيّ ترشُدوا. وتُوبُوا إلىٰ اللهِ جَمِيعًا أيُّها المُؤمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ. والله جل جلاله. وتقدّست أسماؤه أمركم بالجماعة ورَضِيها لكم. ونهاكم عن الفُرْقة وسَخِطها منكم. فاتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقاتِهِ ولا تَمُوتُنَّ إلَّا وأنْتُمْ مُسْلِمُون. واعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا ولا تَفَرَّقُوا واذْكُرُوا نِعمةَ اللهِ عليكم إذ كُنْتُمْ أعْداءً فألَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فأصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إخوانًا وكُنْتُم علىٰ شَفَا حُفْرةٍ مِنَ النّارِ فأنْقَذَكُمْ مِنْها. جعلنا الله وإياكم ممن يتّبع رضوانَه ويجتنب سُخْطه فإنما نحن به وله. وإن الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم بالدّين، واختاره على العالمين، واختار له أصحابا على الحق وُزَراء دون الخلق. اختصّهم به وانتجبهم له، فصدّقوه ونصروه وعزّروه ووقّروه، فلم يُقْدِموا إلا بأمره، ولم يُحْجِموا إلا عن رأيه، وكانوا أعوانَه بعهده، وخلفاءه من بعده. فوصفهم فأحسن وصفهم وذكرهم فأثنىٰ عليهم فقال وقوله الحق «مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ والَّذِينَ مَعَهُ أشِدَّاءُ عَلَىٰ الكُفَّارِ» إلىٰ قوله «مَغْفِرَةً وأجْرًا عَظِيمًا» فمن غاظه كفر وخاب وفجر وخسر. وقال الله جل وعز «لِلْفُقَراءِ المُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وأمْوالِهِم يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ ورِضْوانًا» إلىٰ قوله «رَبَّنَا إنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ» فمن خالف شريطة الله عليه لهم وأمْرَه إياه فيهم فلا حقَّ له فى الفيء، ولا سهم له فى الإسلام فى آى كثيرة من القرآن، فمرق مارقةٌ من الدين. وفارَقُوا المسلمين وجعلوهم عِضِين. وحزبوا أحزابا، أشَابات وأوْشابا. فخالفوا كتاب الله فيهم فخابوا وخسروا

(١) كذا فى الاصل ولكن باهمال الباء من بعد ولعل مراده فلا يخرج عن حرمتها اى المقالة

الدنيا والآخرة . ذلكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِين . أَفَمَنْ كانَ علىٰ بَيِّنةٍ من رَبِّه كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِه واتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ . مالى أَرىٰ عُيونا خُزرا، ورِقابًا صُعْرا، وبطونا بَحْرىٰ[1]، شَجَى لا يُسيغه الماء، وداءً لا يُشْرَب فيه الدواء . أَفَنَضْرِب عَنْكُم الذِّكْرَ صَفْحا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِين . كَلَّا والله بل هو الهِناء والطِّلاء حتّى يظهر العُذر، ويبوح السرّ، ويَصِحَ العيب، ويَشُوسَ الجيب . فإنكم لم تُخلقوا عبثا ولم تتركوا سُدًى، ويحكم إنّى لستُ أتاوِيًّا[2] أُعَلَّم، ولا بَدَوِيًّا أُفهَّم . قد حَلَبْتُكم أَشْطُرا، وقلَّبتكم أَبْطُنا وأَظْهُرا . فعرفت أنحاءكم وأهواءكم، وعلمت أن قوما أظهروا الإسلام بألسنتهم، وأسرّوا الكفر فى قلوبهم، فضربوا بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ببعض، وولّدوا الروايات فيهم، وضربوا الأمثال، ووجدوا علىٰ ذلك من أهل الجهل من أبنائهم أعوانا يأذنون لهم، ويَصْغَوْن اليهم، مَهْلا مَهْلا ! قبل وُقوع القوارع وحلول الروائع . هذا لهذا ومع هذا، فلستُ أَعتَسُّ[3] آئبا ولا نائبا، عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عادَ فَيَنْتَقِمُ اللهُ مِنْه واللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقام . فأسِرّوا خيرا وأظهروه، واجهروا به وأخلصوه . وطالما مشيتم القَهْقَرىٰ ناكصين . وليعلم من أدبر وأصرّ أنها موعظة بين يدىْ نقمة، ولست أدعوكم إلىٰ هوًى يُتَّبع، ولا إلىٰ رأْى يبتدَع . إنما أدعوكم إلىٰ الطريقة المُثْلىٰ، التى فيها خير الآخرة والأُولىٰ، فمن أجاب فإلىٰ رُشْده، ومَنْ عَمِىَ فعن قصده . فهلُمَّ إلىٰ الشرائع، الجدائع، ولا تُولُّوا عن سبيل المؤمنين، ولا تستبدلوا الذى هو أدْنَى بالذى هو خَيْرٌ ، بِئْسَ للظالمين بَدَلا . إياكم ونَبِيّات الطريق، فعندها الترنيق والتَّرهيق . وعليكم بالجادّة فهى أسدّ وأورد ، ودَعُوا الأمانِيَّ

---

(١) لعله بُجْرا جمع أبجر والبَجَر عظم البطن

(٢) الأتاوىّ الغريب الذى ليس فى وطنه

(٣) أى أطلب راجعا ولا نائبا مما حصل ووقع فى الأصل اعش وهو تصحيف لا معنى له هنا

فقد أودت مَنْ كان قبلكم . وأنْ لَيْسَ لِلإنسان إلَّا ماسَعىٰ . ولله الآخرةُ والأُولى . ولا تَفْتَرُوا علىٰ الله الكَذِبَ فيُسْحِتَكُمْ بعَذَابٍ وقَدْ خَابَ مَنِ افْترىٰ . ربَّنا لاتُزِغْ قُلوبَنا بَعْدَ إذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إنَّكَ أَنْتَ الوَهَّاب .

ومن خطب خالد بن عبدالله أمير البصرة أيُّها الناس ! نافِسُوا فى المَكارم وسارعوا إلىٰ المغانم . واشْتَرُوا الحمدَ بالجُود ، ولا تكسبوا بالمَطْل ذَمًّا ، ولا تعتدُّوا بالمعروف ما لم تُعَجِّلوه ، ومهما يكُنْ لأحد منكم عند أحد نعمةٌ فلم يبلغ شكرها ، فالله أحسنُ لها جزاء ، وأجزلُ عليها عطاء . واعلموا أن حوائج الناس إليكم ، نعمةٌ من الله عليكم ، فلا تَمَلُّوا النِّعم فتُحوِّلوها نِقَما . واعلموا أنّ أفضل المال ما أكْسَبَ أجرا ، وأوْرث ذِكْرا . ولو رأيتم المعروف رجلا ، رأيتموه حسنا جميلا يسُرّ الناظرين . ولو رأيتم البخل رجلا ، رأيتموه مشوّها قبيحًا تنفر عنه القلوب ، وتُغْضِى عنه الأبصار . أيها الناس ! إن أجود الناس مَنْ أعطى مَنْ لا يرجوه ، وأعظمَ الناس عَفْوا مَنْ عفَا عن قُدرة ، وأوصَلَ الناس مَنْ وصل مَنْ قطعه ، ومن لم يطِبْ حرثُه لم يزْكُ نبته ، والأصول عن مَغَارسها تَنْمُو ، وبأصولها تسمُو . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

ومن خطب قَطَرِىّ بن الفُجاءة خطبته المشهورة فى ذمّ الدنيا والتحذير عنها ، وهى :

أما بعد فإنى أُحذِّركم الدنيا ، فإنها حُلْوة خَضِرة ، حُفَّتْ بالشهوات ، وراقَتْ بالقليل . وتحببت بالعاجلة ، وحَلِيتْ بالآمال ، وتزينَتْ بالغُرور . لاتدوم نَضْرتها ، ولا تُؤْمَن فَجْعتها . غرَّارة ، ضرَّارة . وحائلة ، زائلة . ونافدة ، بائدة . أكَّالة ، غوَّالة . لا تعْدُوا إذا تناهتْ إلىٰ أمنيَّة أهل الرغبة فيها والرضا عنها أن تكون كما قال الله تعالىٰ ﴿ كماءٍ أنْزَلْنَاهُ من السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ

الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرا ﴾ مع أن آمرأً لم يكن منها فى حَبْرة، إلا أعقبته بعدها عَبْرة[1]، ولم يلق من سَرَّائها بطنا ، إلا منحته من ضَرَّائها ظَهْرا . ولم تَصِله عيشة رَخَاء ، إلا هطلَتْ عليــه مُزْنَةُ بلاء . وحَرِيَّة إذا أصبحتْ له منتصرة أن تُمسى له خاذلة متنكِّرة . وأىُّ جانبٍ منها آعذَوْذَب وآحْلَوْلَى[2] ، أمَرَّ عليه منها جانب وأوبا . وإن آتت آمرأً من غضونها ورقًا أرهقته من نوائبها تَعَبا . ولم يُمْسِ منها آمرُؤ فى جناح أمْن إلا أصبــح منها على قَوَادم خوف، غَرَّارة غُرُور ما فيهــا ، فانية ، فانٍ مَنْ عليها، لاخير فى شىء من زادها إلا التقوى . مَنْ أقلَّ منها آستكثر مما يؤمِّنه . ومن آستكثَرَ منها، استكثر ممــا يُوبقه ويُطيل حُزْنه، ويُبكى عَيْنه . كم واثقٍ بها قد فَجَعَتــه، وذى طُمَأنينة اليها قد صرعَتْه، وذى آحتيال فيهــا قد خدعَتْه . وكم ذى أُبَّهة فيها قد صيرَّته حقيرا، وذى نَخْوة قد ردّتْه ذليلا . ومن ذى تاجٍ قد كَبَّتْه لليدين والفم . سلطانها دُوَل . وعَيْشها رَنِق، وعَذْبها أُجَاج ، وحُلْوها صَبِر ، وغذاؤها سِمَام، وأسبابها رِمَام . قِطَافُها سَلَع . حيُّها بعَرَض موت ، وصحيحُها بعَرَض سُقْم . منيعُها بعَرَض آهتضام . ومُلْكها مسلوب، وعزيزها مَغْلوب . وسليمها منكوب ، وجارُها مَحْروب . مع أن وراء ذلك سـكَراتِ الموت ، وهولَ المُطَّلع ، والوقوف بين يَدَيِ الحَكَمِ العَدْل ﴿ لِيَجْزِيَ الذينَ أَسَاءُوا بِمَـا عَمِلُوا ويَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بالحُسْنَى ﴾ . ألسـتم فى مساكن مَنْ كان قبلكم أطولَ منكم أعمــارا ، وأوضحَ منكم آثارا ، وأعَدَّ عَديدا، وأكْثَفَ جُنودا . وأشـدّ عُتُودا . تعبَّدُوا للدنيا أى تعبُّـد، وآثَرُوها أىَّ إيثار، وظعَنُوا عنها بالكره والصَّغَار . فهل بلغكم أن الدنيا سَمَحتْ لهم نفْسًا بفِدْية، أو أغنَتْ عنها فيما قد أهلكتهم بخطب بل أرهقتْهم بالفوادح، وضعضعَتْهم بالنوائب،

---

(١) فى غير هذا الكتاب ولم تلقه من الظل و يظهر أن عنه مصحفه عن عسه والعسه الدفعه من المطر

(٢) فى نسخه وأولى

وعَقَرتهم بالفجائع . وقد رأيتم تنكُّرها لمن رادها وآثرها وأخلد إليها ، حين ظَعَنوا عنها لفراقٍ إلى الأبد إلى آخر الأَمَد . هل زوّدتْهم إلا السَّغَب ؟ ، وأَحَلَّتهم إلا الضنك ، أو نوّرت لهم إلا الظُّلمة ، أو أعقبَتْهم إلا النّدامة ؟ أفهذه تُؤْثِرون ، أم على هذه تَحْرِصون أم إليها تطمَئِنُّون ؟ . يقول الله جل ذكره ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الحياةَ الدُّنْيا وزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَيُبْخَسُون﴾ فبئست الدارُ لمن أقام فيها ! فاعلموا إذ أنتم تعلمون أنكم تاركوها الأبد ، وإنما هي كما وصفها الله تعالى باللعب واللهو ، وقد قال تعالى ﴿أَتَبْنُون بِكُلِّ رِيعٍ آيةً تَعْبَثُونَ وتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ وإذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ .

إلى غير ذلك من خطب خلفاء الدولتين وأمرائهم مما يطول القول بإيراده ، ويخرج الكتاب بذكره عن حدّه .

المقصد الثانى
(فى كيفية تصرُّف الكاتب فى الخُطَب)

قد تقدّم فى أوّل المقصد الأوّل من هذا النوع قول أبى هلال العسكرى إن الرسائل والخطب متشاكلتان فى أنهما كلام لايلحَقُه وزنٌ ولا تقفية والمشاكلةُ فى الفواصل وإن الخطب يُشَافَه بها بخلاف الرسالة ، والرسالة تجعل خُطبة والخطبة تجعل رسالة فى أيسر كُلْفة . وحينئذ فإذا أراد الكاتبُ نقل الخطبة إلى الرسالة أمكنه ذلك ، فإذا أكثر صاحب هذه الصناعة من حفظ الخطب البليغة ، وعلم مقاصد الخَطَابة وموارد الفَصاحة ومواقع البلاغة ، وعرف مَصاقِع الخطباء ومشاهيرهم ، اتّسع له المَجَال فى الكلام وسَهُلت عليه مستَوْعِرات النثر ، وذُلِّلت له صِعابُ المعانى ، وفاض على لسانه فى وقت الحاجة ما كَمَن من ذلك بين ضُلُوعه فأودعه فى نثره ، وضمّنه فى رسائله ،

فاستغنى عن شغل الفكر فى استنباط المعانى البديعة، ومشقّة التعب فى تتبّع الألفاظ الفصيحة، التى لاتنهض فكرته بمثلها ولو جهد، ولا يسمح خاطره بسطيرها ولو دأب . إن الخطب جزء من أجزاء الكتابة ، ونوع من أنواعها، يحتاج الكُتّاب إليها فى صدور بعض المكاتبات ، وفى البيعات والعهود والتقاليد والتفاويض وكثير التواقيع والمراسيم ، والمناشير، على ماسيأتى بيانه فى موضعه إن شاء الله تعالى ، وما لعله يُنشئه من خطبة صداق أو رسالة أو نحو ذلك . وكذلك يعرف مصاقع الخطباء ، ومشاهير الفصحاء ، والبلغاء ، كقُسّ بن ساعدة الإيادىّ الذى تقدّمت خطبته آنفا فى صدر الخطب . وسَحْبانَ الوائلىّ وهو رجل من بنى وائل، لَسِنٌ بليغ يُضْرَب به المثل فى البيان، وغيرهما ممن يُضْرَب به المَثل فى الفصاحة والبلاغة، ومن يُنْسَب إلى العىّ والغَبَاوة كباقل وهو رجل من العرب اشترى ظبيا بأحَدَ عشَر درهما فقيل له بكم اشتريته ففتح كفيه وفرّق أصابعه العشرة وأخرج لسانه، يشير بذلك إلى أحد عشر ولم يحسن التعبير عنها ، فانفلت الظبى فضُرِب به المثل فى العىّ . وإذا عرف البليغ وغيرَ البليغ ، وعالِىَ الرتبة وسافِلَها، عرّض حينئذ بذكر من أراد منهم مقايسا للفاضل بمثله ، وللعىّ بنظيره كما قال القاضى الفاضل فى بعض رسائله ، فى جواب كتاب ورد عليه من بعض إخوانه

فأما شوقُه لعبده فالمولى قد[1] أبقاه الله قد أُوتِى فصاحة لسان . وسَحَب ذيل العىّ على سَحْبان .

وكما قال الشيخ ضياء الدين أحمد القرطبى من رسالة كتب بها للشيخ تقىّ الدين ابن دقيق العيد ، يصف رسالة وردت منه عليه إنّ كلمها يميس فى صُدورها وأعجازها ، وتنثال عليها أعراض المعانى بين إسهابها وإيجازها، فهى فرائد ائتلفت فى أفكار الوائلىّ والإيادىّ .

---

(١) لعل كلمة قد هنا زائدة .

النـــوع التـاسع

(ممـا يحتاج إليه الكاتب من حفْظ جانب جيد من مكاتبات الصدر الأول، ومحاوراتهم، ومراجعاتهم، وما آدّعاه كل منهم لنفسه أو لقومه، والنظر فى رسائل المتقدّمين   من بلغاء الكتّاب، وفيه ثلاثة مقاصد)

المقصـــد الأوّل

(فى وجه آحتياج الكاتب إلىٰ معرفة ذلك)

أما حفظ مكاتبات الصدر الأوّل ورسائلهم فلأنها مع [2] متدع البلاغة وكثر الفصاحة عير ملابسة لطريقة الكُتّاب فى أكثر الأمور ، فيستعان بحفظها علىٰ مواقع البلاغة ولا يطمع الخاطر بالآتكال علىٰ إيراد فصل منها برمّته لمخالفته لأسلوب الكتّاب فى أكثر الأمور .

وأما النظر فى رسائل البلغاء من فضلاء الكتّاب، فلما فى ذلك من تنقيح القريحة، وإرشاد الخاطر ، وتسهيل الطُّرق ، والنسج علىٰ مِنْوال المُجيــد ، والآقتداء بطريقة المُحْسن، وآستدراك مافات، والآحتراز ممـا أظهرهْ النقد، وردّ مابَهْرَجَه الســبك . وآقتُصِر علىٰ النظر فيها دون حفظها لئلا يتكل الخاطر علىٰ ما يأتى به نأصله مما ليس له فيتشبع بما لم يُعطَ فيكون كلابس ثَوْبَىْ زُور . اللهم إلا أن يريد بحفظها المحاضَرَة دون الإنشاء فإن اللائق به الحفظُ دون غيره .

---

(١) كذا بالأصل بزيادة من وفى الضوء إسقاطها وهو الصواب

(٢) بياض بالاصل .

المقصـــد الثانى

(فى ذكر شىء من مكاتبات الصدر الأول يكون مَدْخَلا إلى معرفة مايُحتاج إلى حفظه من ذلك)

أما مكاتباتهم المشتملةُ على المحـاورة والمراجعة ، فمنهـا ما كتب به معاوية بن أبى سُفْيان رضى الله عنه إلى أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه فى زمن المشاجرة بينهما[1] ، وهى

أما بعد ، فإن الله اصطفى محمدا ، وجعله الأمينَ على وحيه ، والرسولَ إلى خلقه ، واجتار له من المسلمين أعوانا أيَّده بهم ، وكانوا فى منازلهم عنـده على قدر فضائلهم فى الإسلام ، فكان أفضلَهم فى الإسـلام ، وأنصحَهم لله ولرسوله الخليفةَ ، وخليفةَ الخليفة ، والخليفةَ الثالثَ ، فكلَّهم حسَدْتَ ، وعلى كلهم بَغَيْتَ . عرفْنا ذلك فى نظرك الشَّزْر ، وتنفُّسك الصُّعَداء ، وإبطائك على الخلفاء ، وأنت فى كل ذلك تُقاد كما يُقاد البعير المَخْشُوش[2] حتى تُبايع وأنت كاره ، ولم تكن لأحد منهم أشدّ حسَدا منك لابن عمِّك عثمان ، وكان أحقَّهم أن لاتفعلَ ذلك به ، فى قرابته وصِهْره ، فقطعْتَ رحمه ، وقبَّحتَ محاسـنه ، وألَّبْتَ عليـه الناسَ حتى ضُربت إليه آباطُ الإبل ، وشُهر عليه السلاح فى حرم الرسول ، فقُتل معك فى المَحَلَّة وأنت تسمع فى داره الهائعة[3] ، لاتؤدّى عن نفسك فى أمره بقول ولا فعلِ برّ . أُقسم قسما صادقا ! لو قمتَ فى أمره مَقاما واحدا تنهنَهَ الناسَ عنه ، ماعَدَل بك ممَّنْ قبلنا من النـاس أحد ، ولمَحَا ذلك عنـك ما كانوا يعْرِفُونك به من المجانبـة لعثمان والبغى عليه . وأخرى أنت بها عند أولياء

---

(١) كتاب معاوية هذا نص له فى الأصل فنقلناه من العقد الفريد لابن عبد ربه جزء ٢ صحيفة ٢٨٥

(٢) أى المجعول فيه الخشاش وهو عود يجعل فى عظم أنف البعير مصباح

(٣) الهائعة الصوت المفزع

ابن عفّان صبين ، إيواؤكَ قَتلةَ عثمان ، فهم بطانتك، وعَضُدك وأنصارك . فقد بلغني أنك تنتفي من دمه فإن كنت صادقا فأدفع إلينا قتلته نقتُلْهم به . ثم نحن أسرعُ الناس إليك، وإلا فليس لك ولا لأصحابك عندنا إلا السيف! والذي نفس معاوية بيده لأطلُبنّ قتلة عثمان في الجبال ، والرمال ، والبر، والبحر، حتّٰى نقتلهم أو تلحق أرواحنا بالله! .

فكتب إليه أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه في جواب ذلك

أما بعد فقد أتاني كتابك! تذكر فيه آصطفاء الله تعالىٰ محمدا صلى الله عليه وسلم لدينه وتأييدَه إياه بمَنْ أيده به من أصحابه، فلقد خبّأ لنا الدهرُ منك عَجَبا! أطفقْت تخبرنا بآلاء الله عندنا ، فكنت كناقل التمر إلىٰ هَجَر أو داعي مِدْرِه إلىٰ النِّضال ، وزعمتَ أن أفضل الناس في الإسلام فلانٌ وفلان فذكرتَ أمرا إن تم آعتزلك كلُّه، وإن نقص لم يلحقْك ثُلْمُه ، وما أنت والفاضل والمفضول والسائل والمسئول! . وما للطُّلَقاءِ وأبناء الطلقاء والتمييزَ بين المهاجرين الأوّلين ، وترتيبَ درجاتهم ، وتعريفَ طبقاتهم، هيهات لقد حَنّ قِدْح ليس منها، وطفِقَ يحكم فيها من عليه الحُكْمُ لها ، ألا تَرْبَعُ علىٰ ظَلْعك، وتعرِفُ قُصورَ ذَرْعك، وتتأخّر حيث أخّرك القَدَر ، فما عليك غَلَبة المغلوب . ولا لك ظَفَرُ الظافر . وإنك لذهّاب في التِّيه، روّاغ عن القصد . ألا ترىٰ غير مُخْبِر لك ولكن بنعمة الله أُحدِّث، أنّ قوما آستُشْهِدوا في سبيل الله ولكل فَضْل حتّٰى إذا آستُشْهِد شهيدُنا قيل سيد الشهداء ، وخصه رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبعين تكبيرة عند صلاته عليه، أولا ترى أن قوما قطعت أيديهم في سبيل الله ولكلٍّ فضلٌ حتّٰى إذا فُعِل بواحدٍ منا ما فُعِل بواحد منهم قيل الطَّيّار في الجنة وذو الجَناحَيْن، ولولا ما نُهِي عن تزكية المرء نفسَه لذكر ذاكرٌ فضائلَ جمّةً،

(١) المذره المقدّم في النضال وزعيم القوم وخطيبهم

تعرفها قلوبُ المؤمنين ، ولا تمجّها آذان السامعين . فدع عنك من مالت به الرمية فإنا صنائع ربنا ، والناس بعدُ صنائع لنا ، لم يمنعنا قديمُ عزنا ، ومديد طَوْلنا على قومك أن خلطناهم بأنفسنا فنكحنا وأنكحنا ، فعلَ الأكفاء ولستم هناك ، وأنّى يكون ذلك كذلك ! ومنا النبيّ ومنكم المكذب ، ومنا أسدُ الله ومنكم أسدُ الأحلاف ، ومنا سيدا شباب أهل الجنة ، ومنكم صِبْية النار ، ومنا خير نساء العالمين ، ومنكم حَمَّالة الحطب ، فإسلامنا قد سمع وجاهليّتنا لا تدفع ، كتابُ الله يجمع لنا ما شذَّ عنا وهو قوله سبحانه وتعالى « وأُولُوا الأرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ الله » وقوله تعالى « إنَّ أَوْلَىٰ النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوه وهَذَا النَّبِيُّ والَّذِينَ آمَنُوا واللهُ وليُّ المُؤْمِنِين » فنحن مرّة أولى بالقرابة وتارة أولى بالطاعة . ولما ٱحتج المهاجرون على الأنصار يوم السقيفة برسول الله صلى الله عليه وسلم فَلَجُوا عليهم ، فإن يكن الفَلَج به فالحقُّ لنا دُونكم ، وإن يكُنْ بغيره فالأنصار على دعواهم . وزعمتَ أنّى لكل الخلفاء حَسَدت ، وعلى كلهم بغيْتُ ، فإن يك ذلك كذلك فليست الجنايةُ عليك ، فتكونَ المعذرةُ إليك * وتِلْكَ شَكَاةٌ ظاهِرٌ عنك عارُها *

وقلت إنى كنتُ أُقاد كما يُقاد الجمـل المَخْشُوش حتّى أبايع . ولعَمْر الله ! لقد أردتَ أن تذم فحَمدتَ ، وأن تفضح فٱفتضحْت ، وما على المسلم من غَضَاضة فى أن يكون مظلوما مالم يكنْ شاكًّا فى دينه ، ولا مُرتابا فى يقينه . وهذه حجّتى إلى غيرك قصدها ، ولكنى أطلقتُ لك منها بقدر ما سنح لك من ذكرها .

ثم ذكرتَ ما كان من أمرى وأمر عثمان ، فأيّنا كان أعدى له وأهدى إلى مَقَاتله أَمَنْ بذل له نُصرته فٱستقعده وٱستكفَّه أم مَنِ ٱستنصره فتراخى عنه وبَثَّ المنونَ إليه ، حتى أتى قدره عليه . كلا والله ! لقد علم اللهُ المُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ والْقَائِلِينَ لإخْوانِهِم هَلُمَّ إلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ البَأْسَ إلا قليلا . وما كنت أعتذر من أنّى كنت أنقم عليه

أحداثا وإن يكن الذنبُ إليه إرشادى وهدايتى له "ورُبَّ مَلُوم لاذنبَ له . وقد يَسْتَفِيدُ الظِّنَّة المُتَنَصِّحُ" وما أردتُ إلا الإصْلاحَ ما ٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِى إلا بالله عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وإليهِ أُنِيبُ .

وذكرت أنه ليس لى ولأصحابى إلا السيف فلقد أضحكتَ بعد ٱستعبار ! متى ألفيتَ بنى عبد المطلب عن الأعداء ناكلين؟ أو بالسيوف مخوَّفين .

(و)لَبِّث قليلًا يَلْحقِ الهَيْجا حَمَل * سيطلُبك مَنْ تطْلُب ، ويقرُب منك ما تستبعد ، وأنا مُرْقِل نحوك فى جَحْفَل من المهاجرين ، والأنصار والتابعين لهم بإحسان ، شديدٍ زحامهم ، ساطع قَتَامهم ، مُسَرْبَلين سرابيلَ الموت . أحبُّ اللقاء إليهم لقاءُ ربهم . قد صحبتهم ذُرِّية بدرِيّة وسُيوف هاشميّة قد علمْتَ مواقِعَ نِصالِها فى أخيك وخالك ، وجدّك ، وأهلك ﴿ وَمَا هِىَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ .

وكما كتب "أبو جعفر المنصور" ثانى خلفاء بنى العباس ، وهو يومئذ خليفة ، إلىٰ محمد بن عبد الله بن الحسن المثنّى بن الحسن السبط ، حين بُويع له بالخلافة وخرج علىٰ المنصور يريد ٱنتزاعها منه .• من عبدالله عبد الله أمير المؤمنين إلىٰ محمد بن عبد الله . أما بعد فـ﴿إِنَّمَا جزاءُ الَّذِينَ يُحارِبُونَ اللهَ ورَسُولَه ويَسْعَوْنَ فى الأرْضِ فَسادًا أن يُقَتَّلُوا أوْ يُصَلَّبُوا أوْ تُقَطَّعَ أيْدِيهِمْ وأرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أو يُنْفَوْا مِنَ الأرْضِ ذلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى الدُّنْيَا ولَهُمْ فِى الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَٱعْلَمُوا أنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ . ولك ذمةُ الله وعهدُه وميثاقه وحقُّ نبيه محمد صلى الله عليه وسلم إن تُبْتَ من قبل أن يُقدَر عليك أن أؤمِّنك علىٰ نفسك وولدك وإخوتك ومَنْ بايعك وجميع شيعتك ، وأن أُعطيكَ ألفَ ألفِ درهم ، وأُنزِلَك من البلاد حيث شئتَ ، وأقضى لك ماشئت من الحاجات ، وأن أُطلق مَنْ فى سِجْنى من أهل بيتك وشيعتك وأنصارك ، ثم لا أُتبِع أحدا منكم بمكروه

وإن شئت أن نتوثّق لنفسك فوجّه إليّ مَنْ يأخذ لك من الميثاق والعهد والأيمان ما أحببت . والسلام .

فأجابه محمد بن عبد الله بما نصه

من محمد بن عبد الله أمير المؤمنين إلى عبد الله بن محمد . أما بعد ﴿طسم ، تِلْكَ آياتُ الكِتابِ المُبِينِ نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بالحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ إنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ . وأنا أعرض عليك من الأمان مثل الذى أعطيتنى ، فقد تعلم أنّ الحقّ حقّنا ، وأنكم إنما أُعْطِيتُموه بنا ، ونهضتم فيه بسَعْينا وحُظِيتُموه بفضلنا ، وأن أبانا عليا عليه السلام ، كان الوصيَّ والإمام ، فكيف وَرِثتموه دوننا ، ونحن أحياء ! وقد علمت أنه ليس أحد من بنى هاشم يمُتُّ بمثل فَضْلنا ولا يَفْخَر بمثل قديمنا وحديثنا ونسبنا ، وإنا بنو أمّ أبى رسول الله فاطمةَ بنتِ عمرو فى الجاهلية دُونكم ، وبنو ابنته فاطمة فى الإسلام من بينكم ، فأنا أوسطُ بنى هاشم نسبًا ، وخيرهم أمّا وأبا ، لم تلدنى العجَم ، ولم تُعْرِق فىّ أمّهات الأولاد . وإن الله عزّ وجل لم يزل يختار لنا فوَلَدنى من النبيين أفضلُهم محمد صلى الله عليه وسلم . ومن أصحابه أقدمُهم إسلاما ، وأوسعُهم علما ، وأكثرهم جهادا علىّ بن أبى طالب ، ومن نسائه أفضلُهن خديجةُ بنت خويلد أوّل مَنْ آمن بالله وصلّى إلى القبلة ، ومن بناته أفضلُهن ، وسيدةُ نساء أهل الجنة ، ومن المولودين فى الإسلام الحسنُ والحسينُ سيدا شباب أهل الجنة . ثم قد علمت أن هاشما وَلَد عليا مرتين ، وأنّ عبد المطلب ولد الحسن والحسين مرّتين ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم

ولَدَنى مرّتين من قِبَل جدَّىَّ الحسن والحسين، فما زال الإلهُ يختارُ لى حتّى اختار لى فى النار فولَدَنى أرفعُ الناس درجةً فى الجنة، وأهونُ أهل النار عذابًا يوم القيامة، فأنا ابنُ خير الأخيار، وابن خير الأشرار، وابن خير أهل الجنة، وابن خير أهل النار. ولك عهدُ الله إن دخلتَ فى بَيْعتى أن أؤمنكَ على نفسك وولدك وكلِّ ما أصبته إلا حدًّا من حدود الله تعالى، أو حقا لمسلم أو معاهَد . فقد علمت ما يلزمك فى ذلك فأنا أوفى بالعهد منك ، وأنت أحرى بقبول الأمان منى . فأما أمانك الذى عرضت علىّ وأىُّ الأمانات هو؟ أأمان ابن هبيرة، أم أمانُ عمك عبدالله بن علىٍّ، أم أمان مسلم والسلام .

وأجابه المنصور من عبدالله عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله، أما بعد فقد أتانى كتابُك ، وبلغنى كلامُك، فإذا جُلُّ فخرك بالنساء، لتُضِلَّ به الجُفاة والغوغاء، ولم يجعل الله النساء كالعمومة، ولا الآباء كالعصبة والأولياء . وقد جعل الله تعالى العمَّ أبا ، وبدأ به على الوالد الأدنى . فقال جل ثناؤه عن نبيه يوسف عليه السلام ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِى إِبْرَاهِيمَ وإِسْحَاقَ ويَعْقُوبَ﴾ .

ولقد علمتَ أن الله تبارك وتعالى بعث محمدا صلى الله عليه وسلم، وعمومتُه أربعة فأجاب اثنان أحدهما أبى، وكفر اثنان أحدهما أبوك .

وأما ما ذكرتَ من النسـاء وقراباتهن ، فلو أُعْطِين على قـدر الأنساب ، وحقِّ الأحساب ، لكان الخير كلُّه لآمنة بنت وهب، ولكن الله يختار لدينه مَنْ يشاء من خلقه .

وأما ما ذكرت من فاطمةَ بنتِ أسدٍ أمّ علىّ بن أبى طالب، وفاطمة بنت الحسين وأن هاشما وَلَد عليا مرّتين ، وأن عبد المطّلب ولَد الحسن مرّتين ، فخير الأوّلين

والآخرين رسول الله صـلى الله عليه وسلم ولم يَلِدِه هاشم إلا مرّة واحدة ، ولم يلده عبد المطلب إلا مرّة واحدة .

وأما ما ذكرت من أنك ابنُ رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن الله عز وجل قد أبىٰ ذلك فقال ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلٰكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ ولكنكم قرابة ابنته ، وإنها قرابة ذرّيته ، غير أنها امرأة لاتحوز الميراث ، ولا يجوز أن تَؤُمّ فكيف تُورَث الإمامة من قبلها ! ولقد طلبها أبوك من كل وجه فأخرجها تُخاصِم ، ومَرَّضها سرّا ، ودفنها ليلا ، فأبىٰ الناس إلا تقديم الشيخين . ولقد حضر أبوك وفاةَ رسول الله صلى الله عليه وسـلم فأمر بالصلاة غيْرَه . ثم أخذ الناسُ رجالا فلم يأخذوا أباك فيهم . ثم كان فى أصحاب الشُّورىٰ فكلٌّ دفعه عنها ، وبايع عبدُالرحمن عثمانَ وقبلها عثمانُ وحارب أباك طلحةُ والزبيرُ ، ودعا سعدا إلىٰ بيْعته فأغلق بابَه دُونه . ثم بايع معاويةَ بعده ، وأفضىٰ أمر جدّك إلىٰ أبيك الحسن فسلمه إلىٰ معاوية بخِرَق ودراهم وخرج إلىٰ المدينة ، فدفع الأمر إلىٰ غير أهله ، وأخذَ مالا من غير حله . فإن كان لكم فيها شيء فقد بعتموه .

وأما قولك إن الله اختار لك فى الكُفْر فجُعِل أبُوك أهونَ أهل النار عذابا فليس فى الشر خيار ، ولا من عذاب الله هيِّن ، ولا ينبغى لمسـلِم يؤمنُ بالله واليوم الآخر أن يفتخر بالنار . ستَرِد فتعلم ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ .

وأما قولك إنه لم تَلِدْك العجم ، ولم تُعْـرِقْ فيك أمّهاتُ الأولاد ، وإنك أوسطُ بنى هاشم نسـبا ، وخيرهُم أمّا وأبا ، فقد رأيتك فخَرت علىٰ بنى هاشم طُرًّا ، وقدّمتَ نفسـك علىٰ من هو خير منك أوّلا وآخرا ، وأصلا وفصلا . فخَرت علىٰ إبراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلىٰ والدِ ولده ، فانظر ويحك أين تكون من الله تعالى غدا وما وُلد فيكم مولود بعـد وفاة رسول الله صـلى الله عليـه وسلم أفضل من علىّ

آبن الحسين وهو لأمّ ولد ، ولقد كان خيرا من جدّك حسن بن حسن . ثم آبنه محمد بن علىّ خيرٌ من أبيك وجدّته أمّ ولد . ثم آبنُه جعفر وهو خير منك ولدته أمّ ولد . ولقد علمت أن جدّك عليا حَكّم حكمَيْنِ وأعطاهما عَهْده وميثاقه علىٰ الرضا بما حكما به فآجتمعا علىٰ خَلْعه ، ثم خرج عمُّك الحسينُ علىٰ آبن مرجانة وكان الناس معه عليه حتّى قتلوه ، ثم أَتَوْا بكم علىٰ الأقتاب من غير أوطية كالسَّبْى المجلوب إلىٰ الشأم . ثم خرج منكم غيرُ واحد فقتلكم بنو أميـة وحَرَّقوكم بالنار وصلَّبوكُمْ علىٰ جذوع النخل حتّى خرجنا عليهم فأدركنا بثأركم إذ لم تُدْرِكوه ، ورفعنا أقداركم ، وأورثناكم أرضَهم وديارهم بعد أن كانوا يلعَنُونَ أباك فى أدبار الصلاة المكتوبة كما تُلعنُ الكَفَرة فعنفناهم وكفَّرناهم ، وبيّنا فضـله وأشَدْنا بذكره ، فآتخذت ذلك علينا حجة ، وظننت أنا بما ذكرنا من فضـل علىّ قدّمناه علىٰ حمزةَ والعباس وجعفر ، كل أولئك مضوا سالمين سلما منهـم وآبتُلِى أبوك بالدماء . ولقد علمت أن مآثرنا فى الجاهلية سقاية الحاج الأعظم ، وولاية زمزم ، وكانت للعباس دُونَ إخوته فنازع فيهـا أبوك إلىٰ عمر فقضىٰ لنا عمر بها . وتُوفِّىَ رسول الله صلّى الله عليه وسلم وليس من عمومته أحدٌ حيًّا إلا العباس فكان وارثَه دُونَ بنى عبـد المطلب ، فطلب الخلافة غير واحد من بنى هاشم فلم ينَلْها إلا ولده . فآجتمع للعباس أنه أبو رسولِ الله صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء ، وبَنُوه القـادةُ الخلفاء ، فقد ذهب بفضل القديم والحديث ، ولولا العباس أُخْرِج إلىٰ بدر كُرْها لمات عَمَّاك طالب وعقيل جُوعا أو يَتَحَشَّيان جِفَان عُتْبة وشيبة ، فأذهب عنهما العار والشَّـنَار . ولقد جاء الإسلام والعباس يَمُون أبا طالب للأَزْمة التى أصابتْهم . ثم فدىٰ عَقِيـلا يوم بدر فقدْ مُنَّاكم فى الكفر ، وفديناكم من الأسر ، وورثنـا دونكم خاتمَ الأنبيـاء ، وحزنا شرف الآباء ، وأدركنا بثأركم إذ عجزتم عنـه ووضعناكم حيث لم تضَعُوا أنفسكم والسلام .

ومن مكاتبات ملوك الفرس اللطاء ما كتب به أرسطوطاليس إلى الإسكندر إنه إنما تملك الرعيّة بالإحسان إليها، وتظفر بالمحبة منها، فإنّ طلبك ذلك بإحسانك، هو أدومُ بقاءً منه باعتسافك بعنفك. واعلم أنه إنما تُمْلَكُ الأبدان، فاجمع إليها القلوب بالمحبة. واعلم أن الرعية إذا قدرَتْ على أن تقول قدرت أن تفعل، فاجتهد أن لا تقول تسلَمْ من أن تفعل .

ومما كتب به أبرويز إلى ابنه شيرويه يوصيه بالرعية كتابا فيه ليكن مَنْ تختاره لولايتك رجلا كان في وَضيعة فرفعْته، وذا شَرَف كان مهمَلا فاصطنعته . ولا تجعله امرأ أصبته بعقوبة فاتّضع لها ، ولا أحدا ممن يقع بقلبك أن إزالةَ سلطانك أحبُّ إليه من ثبوته، وإياك أن تستعمله ضريعا، غُمْرا، كثيرا إعجابُه بنفسه، قليلا تجربتُه في غيره، ولا كبيرا مُدْبِرا، قد أخذ الدهر من عَقْله، كما أخذت السِّنُّ من جِسمه .

ومما كتب به أبرويز إلى ابنه شيرويه أيضا إن كلمةً منك تَسْفِك دما، وأُخرى تحقِن دما، وإن سَخَطك سيفٌ مسلول على من سَخِطت عليه، وإنّ رضاك بَرَكة مفيدة على من رضيت عنه، وإن نفاذ أمرك مع ظهور كلامك، فاحترس في غضبك من قولك أن يُخطِئ، ومن لونك أن يتغير، ومن جسدك أن يخفّ، فإن الملوك تعاقب حَزْما، وتعفو حِلْما . .

ومما كتب به أردشير إلى رعيته من أردشير المؤيد، ملك الملوك، ووارث العظماء، إلى الفقهاء الذين هم حمـلة الدين ، والأساورة الذين هم حَفَظة البيضة ، والكُتّاب الذين هم زَيْن المملكة، وذوى الحروب الذين هم عمدة البلد . السلام عليكم ، فإنا بحمد الله إليكم سالمين، وقد وضعْنا عن رعيتنا بفضل رأفتنا بها إتاوَتَها الموظّفة عليها، ونحن مع ذلك كاتبون بوصية لا تستشعروا الحقد فيَدْهَمكم العدوّ، ولا تحتكروا فيشمَلكم

القحط ، وتزوّجوا القرائب فإنه أمس للرحم ، وأثبت فى النسب ، ولا تعُدّوا هذه الدنيا شيئا ، ولا ترفُضوها ، فإن الآخرة لا تدرك إلا بها .

وأما رسائلهم ومخاطباتهم . فمن ذلك رسالة الصدّيق رضى الله عنه إلىٰ علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه حين تلكّأ عن مبايعته ، علىٰ لسان أبى عبيدة بن الجرّاح رضى الله عنه ، مع ما انضم إلىٰ ذلك من كلام أمير المؤمنين عمرَ بن الخطاب رضى الله عنه وما كان من جواب علىّ عنها .

قال أبو حَيَّانَ علىُّ بن محمد التوحيدى البغدادى سَمَرنا ليلةً عند القاضى أبى حامد أحمد بن بشر المَرْورُّوذىّ ببغداد ، فتصرف فى الحديث كل مُتَصَرَّف ، وكان غزير الرواية ، لطيف الدراية ، فجرىٰ حديثُ السقيفة ، فركب كلُّ مَرْكَبا ، وقال قولا ، وعرّض بشىء ، ونزع إلىٰ فنّ . فقال : هل فيكم مَن يحفَظ رسالةً لأبى بكر الصديق ، رضى الله عنه إلىٰ علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وجوابَ علىّ عنها ، ومبايعتَه إياه عقيب تلك المناظرة . فقال الجماعة لا والله ، فقال هى والله من بنات الحقائق ، ومخبآت الصادق ، ومنذ حفظتها ما رويتها إلّا لأبى محمد المهلَّبىّ فى وزارته ، فكتبها عنى بيده ، وقال . لاأعرِف رسالة أعقلَ منها ولا أبيَنَ ، وإنها لتدلُّ علىٰ علم وحلم ، وفصاحة ونباهة ، وبُعْد غور ، وشدّة غوص — فقال له العبّادانىّ أيها القاضى فلو أتممت المِنّة علينا بروايتها ، أسمِعْناها ، فنحن أوعىٰ لك من المهلبىّ ، وأوجب ذِماما عليك ، فاندفع وقال

" حدّثنا الخزاعى بمكة ، عن أبى مَيْسَرة ، قال حدّثنا محمد بن أبى فُلَيح عن عيسىٰ بن دوأب بن المتّاح ، قال سمعت مولاى أبا عُبَيدة يقول لما استقامت الخلافةُ لأبى بكر رضى الله عنه بين المهاجرين والأنصار ، بعد فتنةٍ كاد الشيطانُ بها ، فدفع الله شرها ويسّر خيرها ، بلغ أبا بكر عن علىّ تلكُّؤ وشِمَاس ، وتهمُّم ونِفَاس ،

وكره أن يتمـادى الحالُ فتبدُوَ العورة، وتشتعلَ الجمرة، وتتفرّق ذاتُ البَيْن، فدعانى بحضرته فى خلوة، وكان عنده عمرُ بنُ الخطاب رضى الله عنـه وحده فقـال يا أبا عبيـدة ما أَيْمنَ ناصيَتَك، وأَبْيَنَ الخـيْرَ بين عينيك، وطالمـا أعزَّ الله بك الإسلام وأصلح شأْنَه علىٰ يديك، ولقـد كنت من رسول الله صـلى الله عليه وسلم بالمَكان المَحُوط، والمحل المَغْبوط، ولقد قال فيك فى يوم مشهود "لِكُلِّ أمَّةٍ أمينٌ وأمينُ هذه الأمّة أبو عُبَيْـدةَ" ولم تزل للدِّين ملتجا، وللمؤمنيـن مُرْتَجا، ولأهلك ركنا، ولإخوانك ردءًا . قد أردتك لأمرٍ خَطِرٍ مَخُوف، و إصلاحه من أعظم المعروف، ولئن لم يـندمل جُرْحه بيسارك ورِفْقـك، ولم تُجِب حيته برقيتك، وقع اليأس، وأعضل البأس، واحتيج بعد ذلك إلىٰ ماهو أمرُّ منه وأعلَق، وأعسرُ منه وأغْلق، والله أسأل تمامه بك، ونظامه علىٰ يديك. فتأتَّ[1] له أبا عبيدة وتلطفْ فيه، وانصح لله عز وجل ولرسوله صـلى الله عليه وسلم، ولهذه العصابة غيرَ آلٍ جَهْـدا، ولا قالٍ حمدا، والله كالئك وناصرك، وهاديك ومبَصِّرك، إن شاء الله. امض إلىٰ علىّ واخفِض له جناحَك، واغضُض عنده صوتَك، واعلم أنه سُلَالة أبى طالب، ومكانُه ممن فقدْناه بالأمس صلى الله عليه وسلم مكانُه، وقل له البحرُ مُغْرقة، والبر مفرقة، والجو أكْلَف، والليلُ أغْدَف، والسماء جَلْواء، والأرض صَلْعاء، والصُّعود متعذِّر، والهُبُوط متعسِّر، والحق عَطُوف رءُوف، والباطل عَنُوف عَسُوف، والعُجْب قَدَّاحة الشر، والضِّغن رائد البَوار، والتعريض شِجار الفتنة، والقِحَة ثَقُوب العَداوة، وهذا الشيطان متّكئ علىٰ شِمـاله، متحيِّل بيمينه، نافخٌ حُضْنيه لأهله، ينتظر الشَّـتات والفُرقة، ويدبُّ بين الأمّة بالشـحناء والعداوة، عنادًا لله عز وجل أوّلا، ولآدم ثانيًا، ولنبيّه صلى الله عليه وسلم ودينه ثالثا، يُوسْوِس بالفُجور، ويُدْلِى بالغُرور، ويمنِّى أهلَ الشُّرور. يُوحى إلىٰ أوليائه زُخْرُفَ القول غرورا بالباطل. دأبا له مذ

---

(١) تأتّى فلان للأمر تهيأ له وأتاه من وجهه

كان على عهد أبينا آدم صلى الله عليه وسلم، وعادةً له منذ أهابه الله تعالى في سالف الدهر لامَنْجَى منه إلا بغضّ الناجذ على الحق، وغضّ الطرف عن الباطل، ووطْء هامة عدوّ الله بالأشدّ فالأشد، والآكد فالآكد، وإسلامِ النفس لله عزوجل في ابتغاء رضاه. ولا بُدَّ الآن من قول ينفع إذا ضرَّ السُّكوت وخِيف غِبُّه، ولقد أرشدك من أفاء ضالَّتك، وصافاك مَنْ أحيا مودّته بعتابك، وأراد لك الخير مَنْ آثر البقاءَ معك، ما هذا الذي تُسوِّل لك نفسُك، ويدوى به قلْبك، ويلتوي عليه رأيك، ويتخاوصُ دونه طَرْفُك، ويسرى فيه ظَعْنك، ويترادّ معه نَفَسك، وتكثُرعنده صُعَداؤك، ولا يَفيضُ به لسانك. أعُجمةٌ بعد إفصاح؟ أتلبيس بعد إيضاح؟ أدينٌ غير دين الله؟ أخُلُق غير خُلُق القرءان؟ أهدْى غير هدْى النبى صلى الله عليه وسلم، أمثلى "تمشي له الضَّرَاءَ وتدبُّ له الخَمَر[(١)]"، أم مثلك ينْقَبض عليه الفضاء، ويُكْسَف في عينه القَمَر، ماهذه القَعْقعة بالشِّنان؟ وما هذه الوعوعة باللسان؟ إنك والله جِدُّ عارفٍ بأستجابتنا لله عزوجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم، وبخروجنا عن أوطاننا وأموالنا وأولادنا وأحبتنا، هجرةً إلى الله عزوجل، ونصرةً لدينه في زمان أنت فيه في كِنّ الصبا، وخِدْر الغَرَارة، وعُنْفُوان الشَّبيبة، غافلٌ عما يُشيب ويُريب، لاتعِى مايُراد ويُشَاد، ولا تحصِّل ما يُساق ويُقاد، سوى ماأنت جارٍ عليه إلى غايتك التي إليها عُدِل بك، وعندها حُطَّ رحلك، غيرُ مجهول القدر ولا مجحود الفضل، ونحن في أثناء ذلك نُعانِى أحوالاً تُزيل الرَّواسي، ونُقاسِى أهوالاً تُشيب النواصي، خائضينَ غِمارها، راكبين تيَّارها، نتجرّع صابَها، ونَشْرَح عِيابها، ونُحكم آساسها، ونُبْرم أمْراسَها، والعيون تُحدِّج بالحسد، والأنوف تَعْطِّس بالكِبْر، والصُّدور تستعِر بالغَيظ، والأعناق تَتطاوَلُ بالفخر، والشِّفار تُشْحَذ بالمكر، والأرض تميد

(١) مثل يضرب لمن يختل صاحبه

بالخوف ، لا ننتظر عند المَساء صَباحا ، ولا عند الصّباح مَساء ، ولا نَدْفع فى نحرِ امرئ إلا بعد أن يحسُوَ الموتَ دُونه ، ولا نبلغُ مرادا إلا بعد الإيَاس من الحياة عنده ، فادِينَ فى جميع ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بالأبِ والأُمّ ، والخال والعم ، والمال والنَّشَب ، والسَّبَد واللَّبَد ، والهِلَّة والبِلَّة ، بطيب أنفُس ، وقُرّة أعين ، ورَحْبِ أعطان ، وثَبات عزائم ، وصِحّة عقول ، وطَلَاقة أوجه ، ودَلَاقة ألْسُن ، هذا مع خَفِيّات أسرار ، ومكْنُونات أخبار ، كنتَ عنها غافلا ، ولولا سِنُّك لم تكن عن شيء منها ناكلا ، كيف وفُؤادك مشْهُوم[1] ، وعُودُك معْجُوم . والآنَ قد بلغ اللهُ بك وأنهض الخيْرَ لك ، وجعل مُرادَك بين يديك ، وعن علم أقول ماتسمع ، فأرتقبْ زمانَك ، وقَلِّصْ أردانَك ، ودع التقعُّس والتجَسُّس لمن لا يَظْلع لك إذا خَطا ، ولا يتزحْزَح عنك إذا عَطَا ، فالأمرُ غض ، والنفوس فيها مَضّ ، وإنك أديمُ هذه الأمّة فلا تحْلَمْ لجاجا ، وسيفُها العَضْب ، فلا تنبُ اعوجاجا ، وماؤها العذب ، فلا تحُلْ أجاجا . والله لقد سألتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذا الأمر ، فقال لى يا أبا بكر هو لمن يرغَبُ عنه لالمن يُجاحِش عليه ، ولمن يتَصاغَرُ عنه لالمن يتَنفّج إليه ، هو لمن يُقال هو لك لالمن يقُول هو لى .

ولقد شاورنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصِّهر ، فذكر فِتيانا من قريش فقلت أين أنتَ من علىّ ، فقال صلى الله عليه وسلم إنى أكْرَه لفاطمة مَيْعةَ شبابه ، وحَداثةَ سنّه . فقلت له متىٰ كنَفْتَه يدُك ورعَتْه عينُك ، حفّت بهما البركة ، وأُسْبِغت عليهما النِّعمة ، مع كلام كثيرٍ خاطبته به رغبةً فيك ، وما كنت عرفت منك فى ذلك لاحَوْجاء ولالَوْجاء ، فقلت ماقلت وأنا أرىٰ مكان غيرك ، وأجد رائحةَ سِواك ، وكنْتَ إذ ذاك خيراً لك منك الآن لى ، ولئن كان عرّض بك رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فى هذا الأمر ، فلم يكن مُعْرِضا عن غيرك ، وإن كان قال فيك

(١) بالسين المعجمة أى ذكى متوقد

فما سكت عن سواك ، وإن تلجلج فى نفسك شىء ، فهَلُمَّ فالحُكم مَرْضِىّ ، والصواب مسمُوع ، والحقُّ مُطاع . ولقد نُقِل رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الله عز وجل ، وهو عن هذه العِصابة راضٍ وعليها حَدِب يسرُّه ماسرها ، ويسوءه ماساءها ، ويكيده ما كادها ، ويُرْضيه ما أرضاها ، ويُسْخطه ما أسخطها . أما تعلم أنه لم يَدَعْ أحدا من أصحابه ، وأقاربه ، وسُجَرائه[1] ، إلا أبانه بفضيلة ، وخَصَّه بمزية ، وأفرده بحالة . أتظنُّ أنه صلى الله عليه وسلم ترك الأمّة سُدًى بَدَدا[2] ، عباهِلَ ، مَبَاهِل ، طَلاحىٰ مفتونةً بالباطل ، مغبونةً عن الحق ، لا رائد ولا زائد ، ولا ضابط ولا حائط ، ولا ساقىَ ولا واقى ، ولا هادىَ ولا حادى كلا ! ، والله ما اشتاق إلى ربه تعالى ، ولا سأله المصير إلى رضوانه وقُرْبه ، إلا بعد أن ضرب المدى ، وأوضح الهُدى ، وأبان الصُّوىٰ ، وأمّن المسالك والمَطارح ، وسهل المبارك والمَهايع ، وإلا بعد أن شَدَخ يافوخ الشرك بإذن الله ، وشَرَم وجه النفاق لوجه الله سبحانه ، وجَدَع أنف الفتنة فى ذات الله ، وتَفَل فى عين الشيطان بعون الله ، وصدَع بملء فيه ويده بأمر الله عز وجل .

وبعد ، فهذه المهاجرون والأنصار عندك ومعك فى بُقعة واحدة ، ودار جامعة ، إن استقالونى لك ، وأشاروا عندى بك ، فأنا واضعٌ يدى فى يدك ، وصائرٌ إلىٰ رأيهم فيك . وإن تكن الأخرىٰ فادخُل فيما دخل فيه المسلمون ، وكن العونَ علىٰ مَصالحهم ، والفاتحَ لمَغالِقهم ، والمرشد لضالّتهم ، والرادع لغَوَايتهم . فقد أمر الله تعالىٰ بالتعاوُن علىٰ البر والتقوىٰ ، والتناصُر علىٰ الحق . ودَعْنا نقضى هذه الحياةَ الدنيا بصدور بريئة من الغِلّ ، ونلْقى الله تعالىٰ بقلوب سليمة من الضِّغن .

وبعد فالناس ثُمامةٌ فارْفُق بهم ، واحْنُ عليهم ولِنْ لهم ، ولا تُشْقِ نفسَك بنا خاصّة

(١) بالسين المهملة جمع سجير كأمير وهو الصديق

(٢) بالباء الموحدة فى الوزنين ومعناهما مهمله انظر اللسان .

فيهم، وأترُك ناجمَ الحقد حصيدا، وطائرَ الشرّ واقعا، وباب الفتنة مُغْلَقا، فلا قال ولا قيل ولا لوم ولا تبيع والله على ما نقول شهيد، وبما نحن عليه بصير.

قال أبو عبيدة فلما تأهّبت للنهوض، قال عمر رضى الله عنه كُنْ لدىٰ الباب هُنيهة فلى معك دَوْر من القول، فوقفت وما أدرى ما كان بعدى، إلا أنه لحقنى بوجه يَنْدىٰ تهللا، وقال لى قل لعلىّ الرُّقاد مَحْلَمه، والهوىٰ مَقْحمه، وما منا إلّا له مقام معلوم، وحقٌّ مشاعٌ أو مقسوم، ونبأٌ ظاهر أو مكتوم، وإن أَكْيَس الكَيْس من منح الشارد تألُّفا، وقارب البعيد تلطُّفا، ووزن كلَّ شيء ميزانه، ولم يخالط خبره عيانه، ولم يجعل فِتْرَه مكان شبره دِيناً كان أو دُنْيَا، ضلالا كان أو هدًى. ولا خير فى علم مستعملٍ فى جهل، ولا خير فى معرفة مشوبةٍ بنُكْر. ولسنا كجلدة رُفْغ البعير بين العجّان والذنَب، وكل صالٍ فناره، وكل سيل فإلىٰ قراره. وما كان سكوت هذه العصابة إلىٰ هذه الغاية لِعِىّ وشَىّ، ولا كلامها اليوم لفَرَق أو رفق. وقد جدع اللهُ بمحمد صلى الله عليه وسلم أنفَ كلِّ ذى كِبْر، وقصمَ ظهر كل جبّار، وقطع لسانَ كل كَذُوب، فماذا بَعْدَ الحَقِّ إلَّا الضَّلَال. ما هذه الخُنْزُوانة التى فى فَرَاش رأسك؟ ما هذا الشَّجا المعترِضُ فى مَدَارج أنفاسك؟ ما هذه القَذاة التى تغشَّت ناظرَك؟ وما هذه الوَحَرة التى أكلتْ شراسيفَك؟ وما هذا الذى لبست بسببه جلد النَّمر، واشتملت عليه بالشحناء والنُّكْر، ولسنا فى كِسْرويّة كسرىٰ، ولا فى قَيْصَريّة قيصر! تأمّلْ لإخوان فارس وأبناء الأصفر! قد جعلهم الله جَزَرا لسيوفنا، ودريئة لرماحنا، ومرمًى لطِعاننا، وتبعا لسلطاننا، بل نحن فى نور نبوّة، وضياء رسالة، وثمرة حكمة، وأثَرة رحمة، وعُنْوان نعمة، وظل عصمة، بل أمّة مهديّة بالحق والصدق، مأمونةٍ علىٰ الرَّتْق والفَتْق، لها من الله قلب أبِىّ، وساعدٌ قوىّ، ويدٌ ناصرة، وعينٌ ناصرة. أتظن ظنا ياعلىّ أن أبا بكر وثب علىٰ هذا الأمر مُفْتاتا علىٰ الأمة خادعا لها،

أو متسلطا عليها ؟ أتُراه حل عُقُودها وأحال عقولها؟ أتراه جعل نهارها ليلا، ووزنها كيْلا، ويقَظَتها رُقادا، وصَلاحها فَسادا، لا والله سلا عنها فولِهتْ له، وتطامن لها فالصقتْ به، ومال عنها فمالت إليه، وآشمأزّ دونها فآشتملت عليه، حَبْوة حباه الله بها، وعاقِبة بلَّغه الله إليها، ونعمة سَرْبَلَه جَمَالها، ويدٌ أوجب الله عليه شكرها، وأُمّةٌ نظر الله به إليها . والله أعلم بخلقه، وأرأف بعباده، يختار ما كان لهم الخِيَرة .
وإنك بحيث لا يُجهل موضعُك من بيتِ النبوّة، ومعدِن الرسالة، ولا يُجْحَد حقُّك فيما آتاك الله، ولكن لك مَنْ يزاحمك بمنكِب أضخَم من منكبك، وقُرْبٍ أمَسَّ من قرابتك، وسنّ أعلىٰ من سنك، وشيبةٍ أروعَ من شيبتك، وسيادةٍ لها أصلٌ فى الجاهلية، وفرعٌ فى الإسلام، ومواقفُ ليس لك فيها جمل ولا ناقه، ولا تُذْكَر منها فى مقدّمة ولا ساقه، ولا تَضرِبُ فيها بذراع ولا إصبع، ولا تخرُج منها ببازل ولا هُبَع . ولم يزل أبو بكر حَبَّةَ قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعِلاقة نفسه، وعَيْبة سره، ومفْزَع رأيه ومشورَته، وراحةَ كفه، ومَرْمَقَ طَرْفه . وذلك كله بمحضر الصادر والوارد من المهاجرين والأنصار، شُهْرته مغنية عن الدليل عليه .
ولعَمْرى إنك أقرب إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم قرابة، ولكنه أقربُ منك قُرْبة، والقَرابة لحم ودم، والقُربة نفس ورُوح . وهذا فرقٌ عرفه المؤمنون ولذلك صاروا إليه أجمعون، ومهما شككت فى ذلك، فلا تشكُّ أن يدَ الله مع الجماعه، ورضوانَه لأهل الطاعه، فآدخل فيما هو خير لك اليوم، وأنفع لك غدًا، وآلفِظْ من فيك ما يعْلَق بلَهَاتك، وآنفُث سخيمةَ صدرك عن تُقَاتك، فإن يكُ فى الأمد طُول، وفى الأجل فسحة، فستأكله مريئا أو غير مرىء، وستشربه هنيئا أو غير هنىء، حين لا رادَّ لقولك إلا من كان آيسا منك، ولا تابعَ لك إلا من كان طامعا فيك يَمُضّ إهابَك، ويعرُك أديمك، ويُزْرى علىٰ هديك . هنالك تقرَع السنّ من ندم،

وتجرع الماء ممزوجا بدم، وحينئذ تأسى على ما مضى من عمرك، ودارج قوتك، فتود أن لو سقيت بالكأس التى أبيتها، ورددت إلى حالتك التى استغويتها، ولله تعالى فينا وفيك أمر هو بالغه، وغيب هو شاهده، وعاقبة هو المرجو لسرائها وضرائها، وهو الولى الحميد، الغفور الودود.

قال أبو عبيدة، فتمشيت مترملا أنوء كأنما أخطو على رأسى، فرقا من الفرقة، وشفقا على الأمة، حتى وصلت إلى على رضى الله عنه فى خلاء، فابتثثته بثى كله، وبرئت إليه منه، ورفقت به. فلما سمعها ووعاها، وسرت فى مفاصله حمياها، قال "حلت معلوطه، وولت مخروطه"، وأنشأ يقول

إحدى لياليك فهيسى هيسى * لاتنعمى الليلة بالتعريس

نعم يا أبا عبيدة أكل هذا فى نفس القوم، ويحسون به، ويضطبعون عليه" قال أبو عبيدة فقلت لا جواب لك عندى إنما أنا قاض حق الدين، وراتق فتق المسلمين، وساد ثلمة الأمة. يعلم الله ذلك من حلحلان قلبى، وقراره نفسى.

فقال على رضى الله عنه والله ما كان قعودى فى كن هذا البيت قصدا للخلاف، ولا إنكارا للمعروف، ولا زراية على مسلم، بل لما قد وقذنى به رسول الله صلى الله عليه وسلم من فراقه، وأودعنى من الحزن لفقده. وذلك أنى لم أشهد بعده مشهدا إلا جدد على حزنا، وذكرنى شجنا. وإن الشوق إلى اللحاق به كاف عن الطمع فى غيره. وقد عكفت على عهد الله أنظر فيه، وأجمع ما تفرق، رجاء ثواب معد لمن أخلص لله عمله، وسلم لعلمه ومشيئته، وأمره ونهيه. على أنى ما علمت أن التظاهر على واقع، ولا عن الحق الذى سيق إلى دافع، وإذ قد أفعم الوادى بى، وحشد النادى من أجلى، فلا مرحبا بما ساء أحدا من المسلمين وسرنى. وفى النفس كلام لولا

سابقُ عقــد ، وسالفُ عهد ، لشفَيْت غيظى بخِنْصَرى وبِنْصَرى ، وخُضْت لُجَّته بأخْمَصى ومَفْرِقى ، ولكنى مُلْجَم إلىٰ أن ألقىٰ اللهَ ربى ، وعنده أحتسب ما نزل بى ، وإنى غادٍ إلىٰ جماعتكم ، مبايعٌ صاحبَكم ، صابرٌ علىٰ ما ساءنى وسرَّكم ﴿ لِيَقْضِىَ اللهُ أمرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ .

قال أبو عبيدة فعُدْت إلى أبى بكر رضى الله عنه فقَصَصْت عليه القول علىٰ غَرِّه ، ولم أختزل شيئا من حُلوه ومُرّه ، وبَكَّرت غُدوةً إلىٰ المسجد ، فلما كان صَباح يومئــذ وإذا علىّ مخترق الجماعة إلىٰ أبى بكر رضى الله عنهما ، فبايعه ، وقال خيرا ، ووصف جميلا ، وجلس زَمِيتًا[1] ، واستأذن للقيام فمضىٰ وتبعه عمر مُكْرِما له ، مستأثرا لمــا عنده .

فقال علىّ رضى الله عنه ماقعدتُ عن صاحبكم كارهًا ، ولا أتيتُه فَرِقا ، ولا أقول ما أقول تَعِــلة . وإنى لأعرف مُنتهىٰ طَرْفى ومَحَطَّ قدمى ومَنْزَع قوسى ، ومَوقِع سهمى ، ولكن قد أَزَمْت علىٰ فأسى ثِقةً بربى فى الدنيا والآخرة .

فقال له عمر رضى الله عنه كَفْكِفْ غَرْبك ، واستوقِفْ سِرْبك ، ودَع العِصِىَّ بلحائها ، والدِّلاء علىٰ رشائها ، فإنا مِنْ خلفها وورائها ، إن قدَحْنا أورينا ، وإن متَحْنا أرْوَيْنا ، وإن قَرَحنا أدمينا ، ولقد سمعتُ أماثيلك التى تَغَزَّرت بهــا عن صدر أُكِل بالجَوىٰ ، ولو شئت لقلت علىٰ مقالتك ما إن سمعتَه ندمت علىٰ ما قلت . وزعمت أنك قعدتَ فى كِنِّ بيتك لمــا وقَذَك به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من فقده ، فهو وقذك ولم يَقِذْ غيرك ؟ بل مُصابُه أعظم وأعمُّ من ذلك ، وإنَّ من حق مُصابه أن لا تَصدَع شَمْل الجماعة بفرقةٍ لا عصام لها ، ولا يُؤْمن كيد الشيطان فى بقائها . هذه

---

(١) أى حليما وقورا

العَرَب حولنا، والله لو تداعتْ علينا فى صُبْح نَهار لم نلتقِ فى مَسَائه . وزعمت أن الشوقَ إلىٰ اللَّحاق به كافٍ عن الطمع فى غيره ! فمن علامة الشوق إليه نصرة دينه، وموازَرة أوليائه، ومعاوَنتهم . وزعمت أنك عَكَفت علىٰ عهد الله تجمعُ ما تفرَّق منه، فمن العُكُوف علىٰ عهد الله النصيحة لعباد الله، والرأفةُ علىٰ خلق الله، وبذل ما يَصْلُحُون به، ويَرْشُدون عليه . وزعمت أنك لم تعلم أن التظاهُر واقع عليك وأىّ حق لُطَّ[1] دُونَك . قد سمعتَ وعلمتَ ما قال الأنصار بالأمس سِرًّا وجَهرا، وتقلبتَ عليه بَطْنا وظَهرا، فهل ذكَرْتُ أو أشارَتْ بك أو وجدْت رضاهم عنك ؟ هل قال أحد منهم بلسانه إنك تصلُح لهذا الأمر ؟ أو أومأ بعينه ؟ أو همّ فى نفسه ؟ أتظن أن الناس ضلُّوا من أجْلك، وعادوا كُفَّارا زُهْدا فيك، وباعوا اللهَ تحاملا عليك ؟ . لا والله ! لقد جاءنى عَقِيل بن زياد الخزرجىّ فى نفر من أصحابه ومعهم شُرَحْبِيل بن يعقُوب الخزرجىّ وقالوا إن عليًّا ينتظر الإمامة، ويزعم أنه أولىٰ بها من غيره، ويُنْكِر علىٰ مَنْ يعقد الخلافةَ، فأنكرتُ عليهم، ورددتُ القول فى نحرهم حيث قالوا إنه ينتظر الوحىَ ويتوكَّف مُناجاة المَلَك . فقلتُ ذاك أمرٌ طواه الله بعد نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، أكان الأمر معقودا بأُنْشُوطه . أو مشدودا بأطراف لِيطه ؟ كلا ! والله لا عجماءَ بحمد الله إلا أفصحت، ولا شوكاء إلا وقد تفتَّحتْ . ومن أعجب شأنك قولك ولولا سالف عهد وسابق عَقْد، لشفيتُ غيظى، وهل ترك الدينُ لأهله أن يشفُوا غيظهم بيدٍ أو بلسان ؟ تلك جاهليَّة وقد استأصل الله شأْفَتَها واقتلع جُرْثُومتها، ونوّر ليلَها، وغوّر سَيْلَها، وأبدل منها الرَّوْح والرَّيْحان، والهُدَى والبُرهان . وزعمت أنك مُلْجَم، ولعمرى إن مَن اتقى الله، وآثر رضاه، وطلب ما عندهُ، أمْسكَ لسانه وأطبق فاه، وجعل سعْيه لما وراه .

---

(١) لُطَّ أى جحد وورد فى بعض النسخ لك وفى بعضها لعد وكلاهما تصحيف

فقال على رضى الله عنه : مهلًا يا أبا حفص والله ما بذلت ما بذلت وأنا أريد نكثه، ولا أقررت ما أقررت وأنا أبتغى حولا عنه . وإن أخسر الناس صفقة عند الله من آثر النفاق، واحتضن الشقاق وفى الله سلوة عن كل حادث، وعليه التوكل فى جميع الحوادث. ارجع يا أبا حفص إلى مجلسك ناقع القلب، مبرود الغليل، فسيح اللبان، فصيح اللسان، فليس وراء ما سمعت وقلت إلا ما يشد الأزر، ويحط الوزر، ويضع الإصر، ويجمع الألفة بمشيئة الله وحسن توفيقه .

قال أبو عبيدة رضى الله عنه : فانصرف على وعمر رضى الله عنهما . وهذا أصعب ما مر على بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن ذلك كلام عائشة رضى الله عنها فى الانتصار لأبيها .

يروى أنه بلغ عائشة رضى الله عنها أن أقواما يتناولون أبا بكر رضى الله عنه ، فأرسلت إلى أزفلة من الناس فلما حضروا ، أسدلت أستارها ، وعلت وسادها . ثم قالت أبى وما أبيه ! أبى والله لا تعطوه الأيدى، ذاك طود منيف، وفرع مديد، هيهات كذبت الظنون، أنجح إذ أكديتم، وسبق إذ ونيتم * سبق الجواد إذا استولى على الأمد * فتى قريش ناشئا، وكهفها كهلا، يفك عانيها ويريش مملقها، ويرأب شعبها، ويلم شعثها حتى حليته قلوبها، ثم استشرى فى دين الله فما برحت شكيمته فى ذات الله عز وجل حتى اتخذ بفنائه مسجدا يحيى فيه ما أمات المبطلون ، وكان رحمه الله غزير الدمعة ، وقيذ الجوانح، شجى النشيج ، فانقصفت إليه نسوان مكة وولدانها يسخرون منه ويستهزئون به (الله يستهزئ بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون) فأكبرت ذلك رجالات من قريش فحنت قسيها وفوقت سهامها وانتثلوه غرضا ، فما فلوا له صفاة، ولا قصفوا له قناة، ومر على سيسائه، حتى إذا ضرب الدين بجرانه ،

ورسَتْ أوتاده ، ودخل الناسُ فيه أفواجا ، ومن كل فِرْقة أرسالا وأشتاتاً ، آختار الله لنبيِّه ما عنده ، فلما قبض الله نبيَّه صلى الله عليه وسلم ضربَ الشَّيطانُ رُواقَه ، ومدّ طُنُبه ، ونَصَب حبائله ، وأجْلب بخَيْله ورَجْله ، وآضطربَ حبلُ الإسلام ، ومَرَج عهدُه وماجَ أهلُه ، وبُغِي الغوائل ، وظنَّتْ رجال أن قد أ كثبتْ أطماعَهم نُهَزُها ولاتَ حين الذي يرجون ، وأنَّى والصدِّيق بين أظهُرهم . فقام حاسِرا مشَمِّرا ، فجمع حاشيتَيْه ورَفَع قُطْريْه ، فردّ رسَنَ الإسلام على غَرْبه (١) ، ولَمَّ شعثه بطَبِّه ، وآنتاش الدين فنعَشَه ، فلما أراح الحقَّ على أهله ، وقرَّر الرءُوسَ على كواهلها ، وحَقَن الدماء فى أُهُبِها ، أتَتْه منيته ، فسدّ ثُلْمته نظيره فى الرحمة ، وشقيقه فى السيرة والمَعْدَلة . ذاك آبنُ الخطاب لله دَرّ أمّ حَملتْ به ودرّتْ عليه ! لقد أوحدَتْ به ، ففنَّخ الكَفَرة وديَّخها ، وشرَّد الشِّرك شَذَرَ مَذَرَ ، وبَعَج الأرضَ وبخعها فقاءتْ أُكُلَها ، ولفظَتْ خَبْأها ، تَرْأَمُه ويَصْدِف عنها ، وتصدّى له ويأْباها . ثم وَزَّع فيها فيأها وودَّعها كما صَحِبها . فأرُوني ماذا تَرْتَئُون وأىّ يومَىْ أبى تنقِمُون أيوم إقامته إذ عدل فيكم أم يوم ظَعْنه إذ نظر لكم ؟ أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم . ثم أقبلتْ على الناس بوجهها فقالت أنشُدُكم الله هل أنكرتم مما قلت شيئا ؟ قالوا اللهم لا .

ومن ذلك كلام أمّ الخَيْر بنت الحُرَيش البارقيّة يوم صِفّين فى الآنتصار لعلىّ رضى الله عنه .

يروى أن معاوية كتب إلى واليه بالكوفة أن يحمل إليه أمَّ الخير بنت الحريش البارقية برحلها ، وأعلمه أنه مجاريه بقولها فيه بالخير خيرا وبالشرّ شرّا . فلما ورد

(١) فى بعض الكتب فردّ نشر الدين على غره ولم شعثه بطبه

عليه كتابه، ركب إليها فأقرأها الكتاب، فقالت أما أنا فغيرُ زائغة عن طاعةٍ ولا معتلة بكذب! ولقد كنتُ أُحبُّ لقاء أمير المؤمنين لأمورٍ تختلج فى صَدْرى . فلما شيعها وأراد مفارقتها قال لهـا يا أم الخير إن أمير المؤمنين كتب إلىَّ أنه يجازينى بقولكِ فىّ بالخير خيرا وبالشر شرا، فما عندكِ؟ قالت ياهذا لا يُطْمِعنَّك برُّك بى أن أسُرَّك بباطل، ولا تُؤْيِسْك معرفتى بك أن أقول فيك غير الحق . فسارتْ خير مَسِـير حتّٰى قدمت علىٰ معاوية فأنزلهـا مع حرمه ، ثم أدخلها عليـه فى اليوم الرابع ، وعنـده جلساؤه فقالت السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته . قال لها وعليك السـلام يا أمّ الخير، وبالرغم منك دَعَوْتِنِى بهذا الاسم . قالت مَهْ يا أمير المؤمنين ! فإن بَدِيهة السلطان مَدْحَضة لمـا يجب علمه ﴿ولِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ . قال صدقت . فكيف حالك ياخالَة؟ وكيف كنتِ فى مَسيرِكِ ؟ . قالت لم أزل فى عافيةٍ وسلامةٍ حتّٰى صرتُ إليك فأنا فى مجلس أنيق ، عنـد مَلِك رفيق — قال معاوية بحُسن نيتى ظفِرتُ بكم — قالت ياأمير المؤمنين أعيـذك بالله من دَحضِ المَقال وما تُرْدِى عاقبتُه قال ليس هذا أردنا . أخبرينى كيف كان كلامُك يوم قُتِل عَمَّار بن ياسر؟ قالت لم أكن والله روّرته قبْلُ ولا روّيته بعد . وإنمـا كانت كلماتٌ نفثهن لسانى حينَ الصَّدْمة فإن شئتَ أن أُحْدث لك مقالا غير ذلك فعلت — قال لا أشاء ذلك . ثم التفت إلىٰ أصحابه فقـال أيكم يحفَظ كلام أمّ الخير فقال رجل من القوم أنا أحفَظه يا أمير المؤمنين كحفظى سورة الحمد — قال هاتِه — قال نعم كأنى بها ياأمير المؤمنين فى ذلك اليوم عليها بُرْد زبيدىّ كثيفُ الحاشية ، وهى علىٰ جمل أرْمكَ وقد أُحيط حولهـا، وبيدها سَوْط منتشر الظفر[1]، وهى كالفحل يهدِر فى شِقشِقته تقول

(١) لعله الضفر بالضاد المعجمة أى الفتل

﴿ يأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم ﴾ إن الله قد أوضح الحق، وأبان الدليل، ونور السبيل، ورفع العلم، فلم يدعكم في عمياء مبهمة ولا سوداء مدلهمة فإلى أين تريدون رحمكم الله. أفرارا عن أمير المؤمنين، أم فرارا من الزحف، أم رغبة عن الإسلام، أم ارتدادا عن الحق. أما سمعتم الله عز وجل يقول ﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم ﴾.

ثم رفعت رأسها إلى السماء وهي تقول.

قد عيل الصبر، وضعف اليقين، وانتشرت الرغبة، وبيدك يارب أزمة القلوب فاجمع الكلمة على التقوى، وألف القلوب على الهدى، هلموا رحمكم الله إلى الإمام العادل، والوصي الوفي، والصديق الاكبر إنها إحن بدرية، وأحقاد جاهلية، وضغائن أحدية، وثب بها معاوية حين الغفلة ليدرك بها ثارات بني عبد شمس.

ثم قالت ﴿ قاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون ﴾. صبرا معشر المهاجرين والأنصار، قاتلوا على بصيرة من ربكم، وثبات من دينكم، وكأني بكم غدا قد لقيتم أهل الشام كحمر مستنفرة، فرت من قسورة. لا تدري أين يسلك بها من فجاج الأرض، باعوا الآخرة بالدنيا، واشتروا الضلالة بالهدى، وباعوا البصيرة بالعمى وعما قليل ليصبحن نادمين، حين تحل بهم الندامة فيطلبون الإقالة إنه والله من ضل عن الحق وقع في الباطل، ومن لم يسكن الجنة نزل في النار. أيها الناس إن الأكياس استقصروا عمر الدنيا فرفضوها واستبطئوا مدة الآخرة فسعوا لها. والله أيها الناس لولا أن تبطل الحقوق، وتعطل الحدود، ويظهر الظالمون، وتقوى كلمة الشيطان، لما اخترنا ورود المنايا على خفض العيش وطيبه، فإلى أين تريدون رحمكم الله عن ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوج ابنته وأبي ابنيه ؟ خلق

من طينته ، وتفرّع عن نبعته ، وخصّه بسرّه ، وجعله باب مدينته ، وأعلم بحبه المسلمين ، وأبان ببغضه المنافقين . فلم يزل كذلك يؤيده الله بمعونته ويمضى على سَنَن استقامته ، لا يعرّج لراحة اللذّات ، وهو مُفلّق الهام ، ومكسّر الأصنام إذ صلّى والناسُ مشركون ، وأطاع والناس مرتابون . فلم يزل كذلك حتّى قتل مُبارزى بدر ، وأفنى أهل أحد ، وفرّق جمع هوازن ، فيالها وقائع ! زرعتْ فى قلوب قوم نفاقا ، ورِدّة وشِقَاقا ، وقد آجتهدت فى القول ، وبالغت فى النصيحة وبالله التوفيق والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

فقال معاوية : والله ياأم الخير ما أردتِ بهذا إلا قتلى ! والله لو قتلتكِ ماحَرِجْت فى ذلك .

قالت : والله ما يسوءنى يابن هند أن يُجْرِىَ الله ذلك على يَدَىْ مَنْ يُسْعدنى الله بشقائه — قال هيهاتَ يا كثيرة الفُضُول ، ماتقولين فى عثمان بن عفان؟ — قالت وما عسيت أن أقول فيه : آستخْلَفه الناسُ وهم كارهون ، وقتلوه وهم راضون — فقال إيهًا ياأم الخير هذا والله أصلكِ الذى تبْنين عليه — قالت لكن الله يشهد وكفى بالله شهيدا ما أردت بعثمان نقصا ، ولقد كان سَبَّاقا إلى الخيرات ، وإنه لرفيع الدرجة — قال فما تقولين فى طلحةَ بنِ عبيد الله؟ — قالت وما عسى أن أقول فى طلحة آغتِيل من مَأْمنه ، وأُتِىَ من حيث لم يَحْذَر ، وقد وعده رسول الله صلى الله عليه وسلم الجنةَ — قال فما تقولين فى الزبير؟ قالت ياهذا لا تَدْعُنى كَرَجيع الضَّبُع يُعْرَك فى المِرْكَن — قال حقا لتقولنّ ذلك وقد عزمت عليك — قالت وما عسيت أن أقول فى الزبير آبنِ عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحَوَاريّه ، وقد شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة ، ولقد كان سبّاقا إلى كل مكْرُمة فى الإسلام . وإنى أسألك بحقِ الله يامعاوية فإن قريشا تحدّث أنك من أحلمها أن تسعَنِى بفضل حلمك ،

وأن تُعفيني من هـــذه المسائل، وأمض لما شئت من غيرها — قال نعم وكرامةً قد أعفيتك، وردّها مكرمة إلىٰ بلدها .

ونحو ذلك كلام الزرقاء بنت عدىّ بن قيس الهَمْدانيّة يوم صفّين أيضا .

يروىٰ أنها ذُكرت عند معاويةَ يوما، فقال لجلسائه أيكم يحفظ كلامها؟ — قال بعضهم نحن نحفظه ياأمير المؤمنين — قال فأشيروا علىّ فى أمرها فأشار بعضهم بقتلها — فقال بئس الرأى أيحسُن بمثلى أن يقتــل آمرأة ؟ . ثم كتب إلىٰ عامله بالكوفة أن يُوفدها إليه مع ثِقةٍ من ذوى مَحْرَمِها وعِدّة من فُرْسان قومها ، وأن يمهِّد لهـا وِطاء لينا، ويسـتُرَها بستر خَصِيف، ويُوسع لهـا فى النفقة . فلما دخلتْ علىٰ معاوية، قال مرحبا بك وأهلا ! قَدِمتِ خير مقدم قدمه وافد، كيف حالك؟ — قالت بخير ياأمير المؤمنين أدام الله لك النعمة ! — قال كيف كنتِ فى مَسيرِك ؟ قالت ربيبة بيتٍ أو طِفْلا مُمَهَّدا — قال بذلك أمرناهم . أتدرين فيم بعثت إليك — قالت وأنَّى لى بعلم مالم أعلم؟ وما يعلم الغيب إلا الله عز وجل — قال ألست الراكبة الجملَ الأحمر، والواقفةَ بين الصفَّيْن بصفّين تَحُضّين الناسَ علىٰ القتال، وتُوقدين الحرب؟ فما حملك علىٰ ذلك؟ — قالت ياأمير المؤمنين مات الرأسُ، وبُتِر الذَّنَب، ولن يعود ماذهب، والدهر ذو غِيَرٍ، ومن تفكر أبصر، والأمر يحدث بعده الأمر — قال لهـا معاوية أتحفظين كلامَكِ يومئذ؟ — قالت لا والله ولقد أُنْسِيته — قال لكني أحفَظُه لله أبوك حين تقولين

أيهـا الناس ارعَوُوا وآرجِعُوا ! إنكم أصبحتم فى فتنة غَشَّتْكم جَلابيبَ الظُّلَم، وجارتْ بكم عن قَصْد المحجَّة . فيالها فتنة عمياء، صمـاء، بَكْماء لا تسمَعُ لناعقها، ولا تَنْسَلِسُ لقائدها . إن المصباح لايُضىء فى الشمس، والكواكب لاتنير مع القمر، ولا يقطَع الحديدَ إلا الحديد . ألا من آسترشَـد أرشدناه، ومن سألنَـا أخبرناه .

أيها الناس إن الحق كان يطلبُ ضالَّتَه فأصابها ! فصبْرًا يامعاشر المهاجرين والأنصار علىٰ الغُصَص، فكأنْ قد آندمل شَعْب الشّتات، وآلتأمت كلمة التقوىٰ، ودمَغ الحقُّ باطله ! فلا يجهلَنّ أحد فيقولَ كيف العدل وأنّى لِيَقْضِىَ اللهُ أمرًا كان مفعولا . ألا وإن خِضَاب النساء الحِنّاء، وخِضَاب الرجال الدِّماء ! ولهذا اليوم مابعده، والصبر خير فى عواقب الأمور . إيهًا لحرب قُدُما غير ناكصين، ولا متشاكِسين .

ثم قال لها يازرقاء لقد شَرَكْت عليا فى كل دم سَفَكه — قالت أحسن الله بشارتَكَ، وأدام سلامتك، فمثلُك من بَشَّر بخير وسرّ جليسَه — قال ويسرك ذلك؟ — قالت نعم سُرِرتُ بالخبر فأنّى لى بتصديق الفعل؟ فضحك معاوية وقال : لَوَفاؤكم له بعد موته أعجبُ عندى من حُبِّكم له فى حياته ! اذكرى حاجتك . قالت ياأمير المؤمنين آليت علىٰ نفسى أن لاأسأل أميرا أعنتُ عليه أبدا، ومثلك من أعطىٰ من غير مسألة، وجاد من غير طِلْبة — قال صدقت، وأمر لها وللذين جاءوا معها بجوائز وكُسًا .

وقريب من ذلك كلام عكرشةَ بنت الأطْرش يوم صِفّين أيضا .

يروىٰ أنها دخلتْ علىٰ معاوية متوكّئة علىٰ عُكّازٍ لها فسلمتْ عليه بالخلافة، ثم جلستْ — فقال لها معاوية الآن صرتُ عندك أمير المؤمنين؟ قالت نعم إذ لاعليّ حيّ ! — قال ألستِ المتقلدةَ حمائلَ السيف بصفّين؟ وأنت واقفة بين الصفين تقولين : أيها الناس ! عليكم أنفسَكم لا يضرّكم من ضلّ إذا اهتديتم، إن الجنة لا يحزَنُ مَنْ قطنها، ولا يَهْرَم مَنْ سكنها، ولا يموت مَنْ دخلها، فآبتاعوها بدار لا يدوم نعيمها، ولا تنصرم همومها . وكونوا قوما مستبصرين فى دينهم مستظهِرين علىٰ حقهم، إن معاوية دَلَف إليكم بعجم العرب، لايفقَهُونَ الإيمان، ولا يدرون ما الحِكْمة . دعاهم إلىٰ الباطل فأجابوه، وآستدعاهم إلىٰ الدنيا فلبَّوه .

فالله الله عباد الله فى دين الله ! وإياكم والتواكُل فإن ذلك ينقض عُرى الإسلام، ويطفئ نور الحق. هذه بَدْر الصغرى، والعقبة الأخرى، يامعشر المهاجرين والأنصار آمضوا على بصيرتكم، واصبروا على عزيمتكم. فكأنى بكم غدا وقد لقيتم أهل الشام كالحُمُر الناهقة تقصَعُ قَصْع البعير

ثم قال فكأنى أراك على عصاك هذه قد آنكفأ عليك العسكران يقولون هـذه عكرِشةُ بنت الأطرش فإنْ كدتِ لتَقْتُلين أهل الشام لولا قَدَرُ الله وكَانَ أَمْرُ الله قَدَرًا مَقْـدُورا، فمـا حملك على ذلك؟ — قالت يا أمير المؤمنين يقول الله جل ذكره ﴿يأيُّها الَّذين آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْـياءَ إن تُبْـدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ الآية، وإن اللبيب إذا كره أمرا لايحب إعادته — قال صدقتِ فاذكرى حاجتك — قالت كانت صدقاتُنا تؤخَذ من أغنيائنا فتُرَدّ على فقرائنا وقد فقدنا ذلك، فما يُجْبَر لنا كسير، ولا يُنْعَش لنا فقير. فإن كان عن رأيك فمثلك من آنتبـه من الغـفلة وراجع التوبة، وإن كان عن غير رأيك فمـا مثلك من آستعان بالخَوَنة ولا آستعمل الظَّلَمة — قال معاوية ياهذه، إنه ينوبُنا من أمور رعيتنا ثغور تنفتق، وبُحُور تندفق. — قالت سبحان الله! والله مافرض الله لنا حقًّا فجعل فيه ضررا لغيرنا وهو علّام الغيوب — قال معاوية هيهاتَ ياأهل العراق نَبَّهَكم علىٌّ فلن تُطَاقوا. ثم أمر بردّ صدقاتهم فيهم وإنصافهم.

والشاهد فى هـذه الحكايات كلام هؤلاء النسوة مع ما فيها من المراجَعات، والمخاطَبات، والمقاولات، والمحاوَرات، الصالحة للاستشهاد للفصل المتقدّم قبـل ذلك. وهذا باب متسع لايسع استيفاؤُه، ولا يمكن استيعابه وفيما ذكرنا مَقْنع.

ومن ذلك ماروى أنّ علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه ! أرسـل إلى معاويةَ بالشام كتابا صحبة صعصعةَ بن صُوحانَ، فسار به حتّى أتى دمشق. فأتى باب معاوية فقال لآذنه. آسـتأذن لرسول أمير المؤمنين على بن أبى طالب، وبالبـاب جماعةٌ

من بنى أميّــة ، فأحدثته النّعــال والأيدى لقوله "أمير المؤمنين" . وكثُرتْ عليه الجَلَبة ، فاتّصــل ذلك بمعــاوية فأذن له ، فدخل عليه ، فقال السلام عليك يابن أبى سُــفْيان هذا كتاب أمير المؤمنين — فقال معاوية أمَا إنه لو كانت الرسل تُقْتَل فى جاهلية أو إسلام ، لقتلتك . ثم اعترضه معاوية فى الكلام ، وأراد أن يستخرجه ليعرف طَبْعا أو تكلفا — فقال له ممن الرجل — قال من نزَار — قال وما كان نزَار قال كان إذا غزا انكمش ، وإذا لقى افترش ، وإذا انصرف احترش . (١) قال فمن أىّ أولاده أنت ؟ — قال من ربيعة — قال وما كان ربيعة ؟ — قال كان يطيل النّجاد ، ويعُول العباد ، ويضْرِب بقاع الأرض العِماد — قال فمن أىّ أولاده أنت ؟ — قال من جَديلة — قال وما كان جديلة ؟ — قال كان فى الحرب سَيْفا قاطعا ، وفى المَكْرُمات غيثا نافعا ، وفى اللقاء لَهَبا ساطعا — قال فمن أىّ أولاده أنت ؟ — قال من عبد القيس — قال وما كان عبــد القيس ؟ — قال كان خَصِبا أبيضَ وهابا ، يقدّم لضيفه ما وجد ، ولا يسأل عما فقد ، كثير المَرَق ، طيب العَرَق ، يقوم للناس مَقام الغيث من السماء — قال ويحك يابن صُوحان ! فما تركت لهذا الحى من قُريش مجدا ولا فخرا ، — قال بلىٰ والله يابن أبى سفيان ! تركت لهم ما لا يصلح إلا لهم ، تركت لهم الأحمر والأبيض والأصفر ، والسرير والمِنْبر ، والملك إلىٰ المحشَر ، ففرِح معاوية وظن أن كلامه يشتمل علىٰ قريش كلها ، قال صدقت يابن صُوحان إن ذلك لكذلك فعرف صَعْصَعة ما أراد ، فقال ليس لك ولا لقومك فى ذلك إصــدار ولا إيراد . بَعُدتم عن أنف المرعىٰ ، وعلَوْتم عن عَذْب المــاء — قال ولم ذلك ويْلَك يابن صُوحان ! فقال الويل لأهل النــار ، ذلك لبنى هاشم — قال قم فأخرجوه — فقــال صعصعه الوَعْد بينى

---

(١) أى جدّ الأصمعى انكمش فى أمره وانسمر وجدّ بمعنى واحد وقوله افترش أى صرع يقال لقى فلان فلانا فافترشه إذا صرعه وهو مناسب هنا وقوله احترش أى كسب أو صاد

و بينك لا الوعيد مَنْ أراد المُناجَرة[1] يَتْمَل المحاجرة — فقال معاوية لشيء مّا سوّده قومُه ووددْت أنى من صُلْبه، ثم آلتفت إلىٰ بنى أمية فقال هكذا فلْتكن الرجال .

ومن ذلك ما روى أن سعيد بن عثمان بن عفّان رضى الله عنه دخل علىٰ معاوية وابنُه يزيدُ إلىٰ جانبه فقال له ائتَمَنك أبى، وآصطنعك حتّى بلّغك باصطناعه إياك المدىٰ الذى لا يجـارىٰ، والغايةَ التى لا تُسامَى، فما جاريتَ أبى بآلائه حتّى قدّمتَ هذا علىّ، وجعلت له الأمر دُونى . "وأومأ إلىٰ يزيد" والله لأبى خيرٌ من أبيه وأمى خير من أمّه ولأنا خير منه ! — فقال له معاوية . أمّا ما ذكرتَ يابن أخى من تواتُر آلائكم علىّ، وتظاهُر نَعْمائكم لدىّ، فقد كان ذلك ووجب علىّ المكافأة والمجازاة، وكان من شُكرى إياه أن طلبتُ بدمه حتّى كابدت أهوال البلاء، وتَجشّمتُ عساكر المنايا إلىٰ أن شُفِيت حَرارات الصدور وتجلّتْ تلك الأمور . ولست لنفسى باللائم فى التشمير، ولا الزارى عليها فى التقصير .

وذكرت أن أباك خير من أبى هـذا "وأشـار بيده إلىٰ يزيد" فصـدقت لعمر الله لعثمانُ خير من معاوية ! أكْرَم كريما، وأفْضَـل قديمـا، وأقربُ إلىٰ محمد صلى الله عليه وسلم رحما . وذكرت أن أمّك خير من أمه فلعمرى إن آمرأةً من قريش خيرٌ من آمرأة من بنى كَلْب . وذكرت أنك خير من يزيد فوالله يابن أخى ما يسرّنى أن الغُوطة عليهـا رجال مثلُ يزيدَ . فقال له يزيدُ "مَهْ يا أمير المؤمنين ! آبنُ أخيك آستعمل الدالّةَ عليك، وآستعتَبَك لنفسه، وآستزاد منك فَزِدْه وأجْمِل له فى ردّك، وآحمل علىٰ نفسك، وولّه خُراسان بشفاعتى وأعنْه بمال يظهر به مُرُوءَته" فولاه معاوية خراسانَ، وأجازه بمائة ألف درهم، فكان ذلك أعجبَ ما ظهر من حلم يزيد .

(١) الذى فى المثل من أراد المحاجرة فعل المناجرة ولعل ما هنا تصحيف ان لم تكن من تصرف المنشئ .

ومن ذلك ما يروى أن زيد بن منية قدم على معاوية فشكا إليه دينا لزمه فأعطاه ستين ألف درهم، وكان عتبة بن أبى سفيان قد تزوج ابنة يعلى أخى زيد بن منية، وهو يومئذ عامل بمصر — فقال له معاوية الحق بصهرك "يعنى عتبة" فقدم عليه مصر فقال "إنى سرت إليك شهرين أخوض فيهما المتالف ألبس أردية الليل مرة وأخوض فى لجج السراب أخرى، موقرا من حسن الظن بك، وهاربا من دهر قطم، ودين أزم، بعد غنى جدعنا به أنوف الحاسدين، فلم أجد إلا إليك مهربا وعليك معولا — فقال عتبة مرحبا بك وأهلا! إن الدهر أعاركم غنى وخلطكم بنا ثم استرد وأخذ ما أمكنه أخذه، وقد أبقى لكم منا مالا ضيعة معه وأنا رافع إليك يدى بيد الله" فأعطاه ستين ألفا كما أعطاه معاوية.

ومن ذلك ما يحكى أن عبد العزى بن زرارة وفد على معاوية وهو سيد أهل الوبر، فلما أذن له وقف بين يديه وقال ياأمير المؤمنين لم أزل أهز ذوائب الرجاء إليك، ولم أجد معولا إلا عليك، أمتطى الليل بعد النهار، وأسم المجاهل بالآثار، يقودنى إليك أمل، ويسوقنى إليك بلوى، والمجتهد يعذر، وإذ بلغتك فقط. فقال معاوية فاحطط عن راحلتك رحلها.

وخرج عبد العزى هذا مع يزيد بن معاوية إلى الصائفة وأبوه زرارة عند معاوية فهلك هناك فكتب يزيد إلى أبيه معاوية بذلك — فقال معاوية لزرارة أتانى اليوم نعى سيد شباب العرب — قال زرارة ياأمير المؤمنين هو ابنى أو ابنك؟ — قال بل ابنك فقال "للموت ما تلد الوالدة". أخذ بعضهم هذا المعنى فقال

وللموت تغذو الوالدات سخالها * كما لخراب الدهر تبنى المساكن

ومن ذلك ما يروى، أن مروان بن الحكم، وهو وال على المدينة فى خلافة معاوية حبس غلاما من بنى ليث فى جناية جناها بالمدينة، فأتته جدة الغلام "وهى أم

سِنانٍ بنتُ حشمية[1] بن خرشــة المذحجية، فكلمته فى الكلام، فأغلظ لهــا مروانُ، فخرجت إلىٰ معاوية فدخلتْ عليه فآنسَتْ له فعرفها، فقال مرحبا بابنة حشمية ما أقدمك أرضَنا؟ وقد عهدتُكِ تَشتُميننا، وتُحضّيــن علينا عدوَّنا، قالت. يا أمير المؤمنين! إن لبنى عبد مناف أخلاقا طاهرة، وأعلاما ظاهرة، لايَجْهَلون بعد علم، ولا يَسْفَهُون بعد حِلْم، ولا يتشمّون بعد عفو، وإن أولىٰ الناس باتّباع ماسنّ آباؤه لأنتَ، قال "صدقتِ نحن كذلك فكيف قولك

عَزَبَ الرُّقادُ فمُقْلَــتِي لاتَرْقُــدُ * واللَّيْـــلُ يُصْدِرُ بالهُمُومِ ويُورِد

ياآلَ مذحِجَ لامُقــامَ فشَمِّروا * إنّ العَــدُوَّ لآلِ مَذْحِجَ يَقْصِــد

هــــذا عَلِيٌّ كالهــلال تحفُّــه * وَسَطَ السماء من الكواكب أسْعُدُ

خــيْرُ الخلائقِ وابْــنُ عَمِّ محمّدٍ * إنْ يَهْدِكُمْ بالنُّور منْــهُ تَهْتَدُوا

ما زالَ مُذْ شَهِد الحُروبَ مظفّرا * والنَّصْرُ فَــوْقَ لِوائِهِ ما يُفْــقَدُ"

قالت قد كان ذلك ياأمير المؤمنين وأرجو أن تكون لنــا خَلَفا بعده، فقال رجل من جلسائه كيف ياأمير المؤمنين؟ وهى القائلة

إمَّا هَلَكْتَ أبا الحُسَيْنِ فلَمْ تَزَلْ * بالحقِّ تُعْــرَفُ هاديًا مَهْـدِيَّا

فاذهبْ عَلَيْكَ صلاةُ رَبِّكَ مادَعَتْ * فَوْقَ الغُصُونِ حَمـامةٌ قُمْــرِيَّا

قَدْ كُنْتَ بَعْــدَ محمّدٍ خَلَفا لَنــا * أوصَى إليكَ بنــا وكُنْتَ وَفِيّا

واليــومَ لاخلَفٌ يُؤمَّل بَعْــدَه * هيهــاتَ نأمُلُ بعــدَهُ إنســيّا

قالت ياأمير المؤمنين لسانٌ نطق، وقولٌ صدق، ولئن تحقق فيك ماظنناه، فحظُّك الأوفر، والله ما أورثك الشّنآنَ، فى قلوب المســلمين إلا هؤلاء، فأدْحِض

---

(١) لم نعثر على اسم هذه الصيغه فليحرر

مَقالتهم، وأبْعِدْ منزلتهم، فإنك إن فعلت ذلك تزْدَدْ من الله قُرْبا، ومن المسلمين حُبًّا . قال وإنك لتقولين ذلك؟ قالت سبحان الله! والله ما مِثْلُك من مُدِح بباطل، ولا آعتُذِر إليه بكذب، وإنك لتعلم ذلك من رأينا، وضمير قلبنا . كان عليّ والله أحبَّ إلينا منك، وأنت أحبُّ إلينا من غيرك . قال ممن؟ . قالت من مروان وسعيد بن العاص — قال وبم آستحققت ذلك عندك؟ — قالت بسَعة حلمك، وكريم عَفْوك — قال وإنهما يَطْمعَان في ذلك — قالت هما والله من الرأي على ما كنتَ عليه لعثمانَ بن عفّان — قال لقد قاربت فما حاجتك؟ — قالت يا أمير المؤمنين! إن مروان تَبَنَّكَ[1] في المدينة تَبَنُّكَ من لا يريد منها البَرَاح، لا يحكُم بعدل، ولا يقضِي بسُنَّة، يتتبع عَوْرات المؤمنين، حبس آبن آبني فأتيته فقال كَيْتَ وكَيْتَ، فأسمعتُه أخشن من الحجر، وألقمته أمرّ من الصَّبِر، ثم رجعت إلى نفسي باللائمة، وقلت لم لا أصرف ذلك إلى مَنْ هو أولى بالعفو منه، فأتيتك يا أمير المؤمنين، لتكون في أمري ناظرا، وعليه مُعْدِيا — قال صدقت لا أسألك عن ذنبه، والقيام بحجته، اكتبوا لها بإطلاقه — قالت يا أمير المؤمنين وأنَّى بالرجعة وقد نَفِد زادي، وكلَّتْ راحلتي، فأمر لها براحلة موطَّأة وخمسة آلاف درهم .

ومن ذلك ما روي أن معاوية حج فسأل عن آمرأة من بني كنانة كانت تنزِل الحَجُون يقال لها الدارِميّة، وكانت سوداءَ كثيرةَ اللحم، فأُخْبِر بسلامتها فجيء بها، فقال ما حالكِ يا آبنة حام؟ — قالت لستُ لحامٍ أُدْعَى، إن عِبْتني أنا آمرأة من بني كنانة — قال صدقتِ أتدرين لِمَ أرسلت إليك؟ قالت لا يعلم الغيب إلا الله — قال بعثت إليك لأسألك علام أحببْتِ عليا وأبغضتِني، وواليتِه وعادَيْتِني؟ — قالت أو تُعْفيني

(١) أي أقام اقامة من لا يريد البراح

ياأمير المؤمنين — قال لا أُعْفيك — قالت أما إذا أبيت ، فإنى أحببت عليا على عَدْله فى الرعية ، وقَسْمه بالسوية ، وأبغضتك على قتالك مَنْ هو أولى بالأمر منك ، وطلبك ما ليس لك بحق ، وواليتُ عليا على ماعُقِد له من الوِلَاية ، وعلى حبّه المساكين ، وإعطامه لأهل الدين ، وعاديتك على سفكك الدِّماء ، وجَوْرك فى القضاء ، وحكمك بالهوى — قال ولذلك انتفخ بَطْنُك ، وعظُم ثدياك ، وربَتْ عجيزتُك — قالت ياهذا بهند كانت تضرب الأمثال ، لا بى — قال ياهذه اربَعِى فإنا لم نقل إلا خيرا إنه إذا انتفخ بطن المرأة تمّ خلق ولدها ، وإذا عظُم ثدياها تَروى رضيعها ، وإذا عَظُمت عجيزتها رزُن مجلسها فرجعت وسكتَتْ — قال لها فهل رأيت عليا ؟ قالت لقد كنت رأيتُه — قال كيف كنت رأيتيه ، قالتْ رأيته لم يفتنه المُلْك الذى فتنك ، ولم تشغله النِّعمة التى شغلتك — قال لها فهل سمعتِ كلامه ؟ قالت نعم ، والله كان يجلُو القلوبَ من العمى ، كما يجلو الزيت الطَّست من الصدإ — قال صدقت فهل لك من حاجة ؟ قالت وتفعل إذا سألتك ؟ — قال نعم — قالت تعطينى مائة ناقة حمراء فيها فحلُها وراعيها — قال تصنعين بها ماذا ؟ — قالت أُغذّى بألبانها الصِّغار ، وأستحيى بها الكِبارَ ، وأُصْلح بها بين العشائر — قال فإن أعطيتك ذلك فهل أحُلُّ عندك مَحَلّ على ؟ — قالت ماءٌ ولا كصَدّاء ، ومرعًى ولا كالسَّعْدان ، وفتًى ولا كمالك ، ياسبحان الله أو دُونَه ، فأنشأ معاوية يقول

إذا لم أَعُدْ بالحِـــلْم منّى إليكُمُ * فمَنْ ذا الّذِى بَعْدِى يُؤَمَّلُ لِلحِلْمِ ؟
خُذيها هنيئًا واذْكُرِى فِعْل ماجِدٍ * جزَاكِ على حَرْبِ العَداوةِ بالسِّلْمِ .

ثم قال أما والله ! لوكان عليا ما أعطاكِ منها شيئا — قالت والله ولا وبَرةً واحده من مال المسلمين .

ومن ذلك ما يروى أن أم البراء بنت صفوان استأذنت على معاوية فأذن لها فدخلت عليه، وعليها ثلاثة دروع برود تسحبها دراعا، قد لاثت على رأسها كَوْرا كالمنسف فسلَّمت وجلست، فقال لها معاوية كيف أنت يا آبنة صفوان؟ — قالت بخير يا أمير المؤمنين — قال كيف حالك؟ — قالت كسلت بعد نشاط — قال شتَّان بينك اليومَ وحينَ تقولين

يازيدُ دونكَ صارمًا ذا رونقِ * عضبِ المهزةِ ليس بالخوَّار
أسرجْ جوادكَ مسرعًا ومشمِّرًا * للحربِ غيرَ معوَّدٍ لفرار
أَجِبِ الإمامَ ودبَّ تحتَ لوائهِ * والقَ العدوَّ بصارمٍ بتَّارِ
ياليتني أصبحتُ لستُ قعيدةً * فأذبَّ عنهُ عساكرَ الفجَّار

قالت قد كان ذلك، ومثلك من عفا عمَّا سلف ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللهُ مِنْهُ﴾. قال هيهاتَ، أما والله لو عاد لعُدتِ، ولكنه اخْتُرِم منك — قالت أجل! والله إني لعلى بينة من ربي وهُدًى من أمري — قال كيف كان قولك حين قتل؟ — قالت أُنْسيته؛ قال بعض جلسائه هو والله حين تقول:

ياللرِّجال لِعُظْمِ هولِ مصيبةٍ * فدحتْ فليسَ مُصابُها بالحائل
الشَّمسُ كاسفةٌ لفقْدِ إمامنا * خيرِ الخلائق والإمامِ العادلِ
حاشى النبيَّ لقد هَدَدتَ قُواءنا(١) * فالحقُّ أصبحَ خاضعًا للباطلِ

فقال معاوية قاتلك الله فما تركت مقالا لقائل، اذكري حاجتك — قالت أما الآن فلا، وقامت فعثرتْ، فقالت تَعِس شانئ عليّ! فقال زعمتِ أن لا، قالت هو كما علمتَ، فلما كان من الغد بعث إليها بجائزة، وقال إذا ضيَّعتُ الحلمَ فمَنْ يحفظه؟

(١) جمع القوة قوى مقصور وإنما مد للضرورة.

ومن ذلك أن عمر بن عبد العزيز كتب إلىٰ عديّ بن أرطاةَ أن اجمع بين إياس بن معاوية والقاسم بن ربيعة وولِّ القضاء أنفذهما ، فجمع بينهما ، وكانا غير راغبين فى القضاء . فقال إياسٌ أيها الرجلُ سلْ عنى وعن القاسم فقيهَى المصر الحسنَ وابنَ سيرين ، وكان القاسم يأتى الحسنَ وابنَ سيرين ، وإياسٌ لا يأتيهما ، فعلم القاسم أنه إن سألها عنه أشارا به ، فقال له لا تسأل عنى ولا عنه ، فوالله الذى لا إله إلا هو إن إياس بن معاوية أفقه منى وأعلم بالقضاء ، فإن كنتُ كاذبا فما أشير عليك أن توليني وأنا كاذب ، وإن كنت صادقا فينبغى لك أن تقبل قولى — قال له إياس إنك جئت برجل فوقفتَه على شفير جهنم فنجَّى نفسه منها بيمين كاذبة يستغفر الله منها وينجو مما خاف — قال له عديّ أما إذ فهمتها فأنت لها فاستقضاه .

ومن ذلك ما حكاه صاحب العقد عن زياد عن مالك بن أنس ، قال «خطب أبو جعفر المنصور ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال أيها الناس اتقوا اللهَ ، فقام إليه رجل من عُرْض الناس ، فقال أُذكِّرك الذى ذكَّرتنا به . فأجابه أبو جعفر بلا فكر ولا رويَّة سمْعًا سمْعًا لمن ذكَّر بالله ، وأعوذ بالله أن أذكِّرك به وأنساه فتأخُذُنى العِزَّة بالإثم ؟ لقــد ضَلَلْت إذاً وَمَا أنا مِنَ المُهْتَدِين ، وأما أنت فوالله ما اللهَ أردتَ بهذا ، ولكن ليقال قام فقال ، فعُوقِب فصبر ، وأهْوِنْ بها لو كانت ، وأنا أنذركم أيها الناس أختها ، فإن الموعظة علينا نزلت ، وفينا انْبَتَتْ . ثم رجع إلىٰ مكانه من الخطبة .

ومن ذلك ما يحكىٰ عن الربيع قال كنا وقوفا على رأس المنصور ، وقد طُرِحت للمهديّ بن المنصور وسادةٌ إذ أقبل صالح بن المنصور ، وكان قد رشَّحه أن يولِّيه بعض أمره ، فقام بين السِّماطين والناس على قدر أنسابهم ومواضعهم ، فتكلم فأجاد ، فمدّ

المنصورُ يدَه إليه، ثم قال يا بُنَىّ! وآعتنقه، ونظر فى وجوه أصحابه هل فيهم أحد يذكر مقَامه ويصف فضلَه، فكلهم كره ذلك وهاب المهدىّ، فقام شبة بن عقال التميمىّ، فقال "لله درّ خطيب قام عندك ياأمير المؤمنين! ما أفصحَ لسانَه! وأحسن بيانَه! وأمضى جَنانَه! وأبلّ ريقَه! وأسهل طريقه! . وكيف لايكون كذلك وأمير المؤمنين أبوه، والمهدىّ أخوه، وهو كما قال زُهَير بن أبى سُلْمىٰ

يَطْلُبُ شأْوَ آمْرأَيْنِ قدّمَا حسنًا * نَدَّا الملوك ونَدَّا هذه السُّوَقَا

هُوَ الجَوَادُ فإن يَلْحَق شَأْوِهما * علىٰ تَكَالِيفه فمثلُهُ لَحِقا

أوْ يَسْبِقاهُ علىٰ ما كان من مَهَل * فمثلَ ما قدّما مِنْ صَالح سبقا

قال الربيع فأقبل علىّ بعضُ من حضر، وقال والله ما رأيت مثل هذا تخلُّصا[1] أرضىٰ أميرَ المؤمنين، ومدح الغلام، وسلِمَ من المهدىّ . فالتفت إلىّ المنصور، وقال يا ربيع لاينصرِفُ التميمى إلا بثلاثين ألف درهم .

ومن ذلك ما حكى أنّ رجلا دخل علىٰ المهدىّ ولىّ عهد المنصور، فقال ياأمير المؤمنين إن أمير المؤمنين المنصورْ شتَمَنى وقذف أمى، فإما أمرتنى أنْ أحلّله، وإما عوَّضتنى فاستغفرت له — قال ولم شتمك؟ — قال شتمت عدوّه بحضرته، فغضب — فقال ومَنْ عدوّه الذى غضب لشتمه — قال إبراهيم بن عبد الله بن حسن — قال إن إبراهيم أمسُّ به رَحِما، وأوجبُ عليه حقا، فإن كان شتمك كما زعمت فعن رَحِمه ذبَّ، وعن عرضه دفَع، وما أساء مَنِ آنتصر لآبن عمه — قال فإنه كان عدوَّه — قال فلم ينتصر للعَداوة، إنما آنتصر للرحم، فأُسْكِت الرجل، فلما ذهب لِيوَلِّى قال لعلك أردتَ أمرا فلم تجد له ذريعةً عندك أبلَغَ من هذه الدعوىٰ؟ — قال نعم، فتبسم وأمر له بخمسة آلاف درهم .

(١) فى الضوء مخاجيا

ومن ذلك ما حكى. أن المنصور قال لبعض قوّاده صدق الذى قال "أجِعْ كَلْبَكَ يَتْبَعْكَ" فقال له أبو العباس الطوسى أما تخشىٰ يا أمير المؤمنين أن يلوّح له غيرُك رغيفا فيتبعَه ويَدَعَك .

ومن ذلك ما يحكى أنه وفد أهل الحجاز من قريش علىٰ هشامِ بنِ عبد الملك بن مَرْوان، وفيهــم محمد بن أبى الجَهْم بن حذيفة العَدَوى ، وكان أعظمهم قــدرا ، وأكبَرَهم سنا؛ فقال — أصلح الله أمير المؤمنين، إنّ خُطباء قريش قد قالت فيك ، وأقلّتْ وأكثرتْ وأطنبت، وما بلغ قائلُهم قدرَك ، ولا أحصىٰ مُطْنِبهــم فضلك ، وإن أذنتَ فى القول قلت — قال قُلْ وأوْجز — قال تولّاك الله يا أمير المؤمنيـــن بالحسنىٰ، وزينك بالتقوىٰ،وجمع لك خير الآخرةوالأولىٰ! إن لى حوائج أفأذكرها ، قال هاتها — قال كبِرتْ سِنِّى ودقَّ عظمى، ونال الدهر منى، فإن رأىٰ أمير المؤمنين أن يَجْبُرَ كَسْرِى ، وينفِيَ فقرى — قال وما الذى ينفى فقرك ويجبر كسرك؟ — قال ألف دينار، وألف دينار، وألف دينار . فأطرق هشام طويلا، ثم قال : هيهات يابن أبى الجَهْــم ، بيتُ المــال لا يحتمل ماسألت — فقال أما إن الأمر لواحد، ولكن الله آثرك لمجلســك فإن تعطنا فحقَّــا أدّيت ، و إن تمنعنا نسأل الذى بيــده ما حوَيْت، إنّ الله جعــل العطاء محبّةً، والمنع مَبْغضة، ولأن أُحبَّك[1] أحبُّ إلىّ مِنْ أن أُبْغِضَــك — قال فألف دينار لمــاذا؟ — قال أقضى بها دينا قد حُمَّ قضاؤه، وحَنَانِى حَمْــله ، وأضرَّ بى أهــلُه — قال فلا بأسَ تُنفِّس كُرْبة ، وتؤدِّى أمانة، وألفُ دينار لماذا؟ — قال أُزوِّج بها مَنْ بلغ من وَلَدى — قال نعم المَسْلك سلكْت، أغْضَضْت بصرا، وأعففْت ذكرا ، ورَوّحْت نسلا، وألف دينار لمــاذا؟ — قال

(١) فى الأصل ولئن وهو خطأ فى الرسم

أشترِى بها أرضا يعيشُ بها وَلَدى ، وأستعين بفضلها علىٰ نوائب دهرى ، وتكون ذُخرا لمن بعدى ، قال وإنا قد أمرنا لك بما سألت — قال فالمحمودُ اللهُ علىٰ ذلك ، وخرج — فقال هشام : ما رأيت رجلا أوجز فى مَقال ، ولا أبلغ فى بيان منه ، وإنا لنعرف الحقَّ إذا نزل ، ونكره الإسراف والبَخَل ، وما نُعْطى تبذيرا ، ولا نمنع تقتيرا ، وما نحن إلا خُزَّان الله فى بلاده ، وأمناؤه علىٰ عباده ، فإن أذِن أعطينا ، وإذا مَنَع أبينا ، ولو كان كل قائل يصدق ، وكلُّ سائل يستحِقُّ ، ماجَبَهْنا قائلا ، ولا رَدَدْنا سائلا ، فنسأل الذى بيده ما ٱستَحْفَظنا أن يُجْرِيَه علىٰ أيدينا فإنه يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِر، إنَّه كانَ بِعِبادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا . فقالوا يا أمير المؤمنين لقد تكلَّمْتَ فأَبْلغتَ ، وما بلغ فى كلامه ما قَصَصْتَ ، فقال إنه مبتدى ، وليس المبتدى كالمُقْتدى .

والحكايات والأخبار فى ذلك كثيرة ، والإطناب يُخْرِج عن المقصود ، ويؤدّى إلىٰ المَلَال ، وفيما ذكرنا من ذلك مَقْنَع والله أعلم .

المقصد الثالث

(فى كيفية تصرُّف الكاتب فى مثل هذه المُكاتبات والرسائل)

غير خاف علىٰ مَن تعاطىٰ صناعة النثر والنظم أنه لا يستقِلُّ أحد باستخراج جميع المعانى بنفسه ، ولا يستغنى عن النظر فى كلام مَنْ تقدّمه لاقتباس مافيه من المعانى الرائقة ، والألفاظ الفائقة ، مع معرفة ترتيب أهل كل زمن وٱصطلاحهم ، فينسج علىٰ منوالهم ، أو يقترح طريقة تخالفهم ، وتواردُ الكتّاب والشعراءِ علىٰ المعانى غير مجهول ، فإن التوارد يقع فى الشعر الذى هو مبنىٌّ على أصل واحد من وزن وقافية ، فإنه إذا وقف علىٰ المعنىٰ وترتيب الكلام ، عرف كيف ينسج الكلام ، مثل أن

يكتب فى تهنئة بمولود قد جعلك الله من نبعة طابت مغارسها، ورسخت عروقها، فالزيادة فيها زيادة فى جوهر الكرم، وذخيرة نفيسة لذوى الإقبال، فتولى الله نعمه عندك بالحراسة الواقيه، والولاية الكافيه. وقد بلغنى الخبر بحدوث الولد المبارك، والفرع الطيب، الذى عمر أفنيـة السياده، وأضحك مطلع السعاده، فتباشرت بذلك وابتهجت به، فجعله الله برا تقيا، سـعيدا حميدا، يتقيل سلفه، ويقتفى أثرهم، وأيمن به عددك، وكثر به ذريتك، وأوزعك الشكر عليه، وأجارك فيه من الثكل برحمته.

ويأخذ آخر المعنى، ويورده بألفاظ أخرى، فيقول قد جعلك الله من شجرة زكت غصونها، وفرع شرفت منابته، فالنمو فيها نعمة كاملة السعادة، وغبطة شاملة السرور، فتولى الله فضله عليك بالحفاظ الراعى، والدفاع الكالى، وقد اتصل بى خبر السليل الرضى، والولد الصالح الذى جدد فوائد السيادة، وثبت أساس الرفعة، فاغتبطت به واستبشرت، جعله الله تعالى ولدا ميمونا، ونجلا سعيدا، يسلك مناهج سلفه، ويحذو فى المحاسن حذوهم، وزاد به فى ثروتك، وأراك فيه غاية أملك، وسرك بوجوده، وأسعدك برؤيته.

فالمعنى والفصل واحد، والألفاظ مختلفة. وكذلك ما يجرى هذا المجرى وما فى معناه.

قلت ولا ينهض بمثل ذلك إلا من رسخت فى صنعة الكتابة قدمه، وامتزج بأجزاء الفصاحة والبلاغة لحمه ودمه، وهذا المنهج هو أحد أنواع الإعجاز فى القرآن الكريم، فإن القصة الواحدة تتكرر فيـه مرارا فى سور متعددة، ترد فى كل سورة بلفظ وتركيب غير الذى وردت به فى الأخرى، مع استيفاء حد البلاغة ونهاية أمد الفصاحة، ولذلك قل من سلك هذا المنهج، أو ارتقى هذه الذروة، وقد أتى على بن

حمزة بن طلحة فى كتابه "الاقتداء بالأفاضل" من ذلك بالعجب العجاب، فإنه قد استحسن كلامَ الخطيب ابن نُباتة الفارقىّ، والأمير قابوس الخُراسانىّ، والوزير أبى القاسم المقرى، والصاحب ابن عباد، وأبى إسحاق الصابى، الذين هم رؤساء الكتابة، وأئمة الخطابة، من الرسائل والعهود البديعة، والخُطَب الموجَزة الرائقة، فجرّد معانيَها من ألفاظها، واخترع لها ألفاظا غير ألفاظها، مع زيادة تنميق، ومراعاة ترصيف، على أتم نظام، وأحسن التئام .

وهاتان نسختا كتابين، الأُولىٰ منهما كتب بها أبو إسحاق الصابى عن عز الدولة ابن بُوَيه جوابا عن كتاب وصل إليه عن أخيه عَضُد الدولة يخبره بمولود وُلِد له . والثانية عارض بها عَلِىُّ بن حمزة المذكور أبا إسحاق الصابى فى ذلك بألفاظ أُخرىٰ مع اتحاد المعنىٰ .

فأما التى كتب بها أبو إسحاق الصابى عن عز الدولة إلىٰ عضد الدولة فهى

"وصل كتابُ سيِّدى الأميرِ عضد الدّولة أطال الله بقاءه بالخبر السارّ للأولياء، الكابتِ للأعداء، فى الولد الحبيب الأثير، والسيد المُقبَّل الخطير، الذى زاد الله به فى عددنا، وجدّد نعمه عندنا، وحقق فيه آمالَنا والآمال لنا، فأخذ ذلك منى مأْخَذ الاغتباط ونزل عِنْدى أعلىٰ منازل الابتهاج، وسألت الله تعالىٰ أن يختصه بالبقاء الطويل، والعُمُر المديد، وأن يجعل مواهبه لسيدى الأمير ناميةً نموّه، ناشية نشوّه ليكون كُلُّ يوم من أيامه مُمِدّا له من فضله عادة، وواعدًا له من عَدِه بزيادة، ومُحدِثا لديه منْحةً تتضاعف إلىٰ ما سبق من أمثالها، ومجدّدا له عارفة تتلو ماسلف من أشكالها، وأن يريه إياه عزّةً فى وجه دولته، ووارثا بعد سالفه البقاء لمنزلته، قائما للملك قيامه، وسادّا منه مكانه، ويهبَ له بعد الأكابر النجباء السابقين، أترابا من الإخوة لاحقين،

تابع منهم من مباراة المتنوع، وشافع من محاراة المشفوع، فى فائدة تقــدّم بمقدمه، وعائدة ترِد بمورِده، ويحرس هذه السعادة من خلل يعترض آتصالها، أو فترة تخترم رمامها، أو نائبة تشوبها، أو تنغصها، أو رزيّة تثلمها، أوتنقصها. إلا أنها(١) الأمدالأبعد والعمر الأطول، ثم تُفْضِى به عَصَارة هذه الدار الدنيا، إلىٰقرارة الدار الأخرىٰ، مبوّأ أوْفى مراتبها، مبلّغا أقصىٰ مطالعها، حالًّا أرفع درجاتها، مختصا بأنعُمِها، مبتهجا بها، مستثمرا ما قدّمه لصالح سعيه، ومستوفِيًا ما أفاءه عليه مَتْجَرُه الرابح، وآثاره البادية لإنفاقه فى أيام نظرى(٢) التى آستشعَرتْ نُورا من ســنائه، وآنستْ جمالا من بهائه، وثابَتْ مصالحها ببركته، وتوافتْ خيراتها بيمنه، وآعتقدتُ أن السعادات طالعةعلىّ بمَطْلَعه، وأسبابها ناجمة إلىّ بمَنْجَمه، فلو آستطعت أن أكون مكان كتابى هذامشافها بالتهنئة لسيدى الأمير عضُدِ الدولة أطال الله بقاءه ومقبّلالبساطه، لكنت أولىٰعبيده بالمسارعة إلىٰ بابه، وأحقّهم بالمبادرة إلىٰ فِنائه لأنى معوّق عن تلك الخدمة بخدمة أنا فيها من قبله. ومقيم بهذه الحضرة، إقامةَ المتصرفين تحت أمره، وقد وفّيت نعمةالله تعالىٰ، الواهبِ منه أيده الله تعالىٰ مايُقِرّ عيْنَ الولِىّ، ويُقْذِى عينَ العدوّ ويطرفها، حقّها من الشكر المترى للُمقــام والمزيد، بدوام العز والتأييــد، وأسأل الله تعالىٰ أن يجعل ذلك مَقْبولا عنه، ونافعًا له، وعائدًا عليــه وعلينا بطُول العُمُر وتناهى النُّشُوّ والنمــاء، وأن يعرّف سيدى الأمير عضدَ الدولة أيده الله بركةَ مولده، ويُمْنَ مورده، ويبقيه حتّى يراه والأمراءَ السابقين أيدهم الله تعالىٰ آباءَ أمثالهم، وأشياخ ذرّيتهــم، مُبَلَّغا فى كل منهم أفضلَ مارَشَّحته له أمانيه، وأعلىٰ ما آنبسطت آماله فيه، بقدرته. وأنا أتوقع الكتّاب بمــا يقــرّر عليه آسم الأمير الســيد وكنيته، أعلاها الله تعــالىٰ لأستأنف إقامة الرسم فى مكاتبته، وتأديةَ الفرض فى خدمته، وسيدى عضد الدولة،

(١) لعله الى إنهاء كما يفيده السياق. (٢) كذا فى الاصول وليحرر

أطال الله بقاءه، أعلىٰ عينا فيما يراه بمطالعتى بذلك وبكل ما يُولِيــه الله من مستأنَف نِعَمه، ويجدّده له فى حادث مواهبه له، لآخُذَ بحظى منهما، فأصرِفَ سهمى فيهما، وتصريفى بين أمره ونهيه، وتشريفى بعوارض خدمته، إن شاء الله تعالىٰ .

وأما التى عارضها بها علىّ بن حمزة بن طلحة فهى

وصلنى كتابُ سـيدى الأمير عضد الدولة ، أطال الله بقاءه ، بالبشرىٰ المتَبسمة عن ناجذ السعد الآنف ، والنُّعْمَى المتَبسمة عن ضَنا المجد المتضاعف ، التى أشرقتْ مطالع الإقبال عن مُحَيَّاها ، وتضوّعتْ نَفَحاتُ دَرْك الآمال عن رَيَّاها ، وصــدقت من الأولياء ظُنونهم المرتَقَبه ، وآنحَتْ من الأعداء عُيونَهم المرتعبه ، بالولد النجيب الخطير ، الأمير الحسيب الطّهير ، المجيد المعمَّر ، المقَبَّل المؤمَّر ، الذى كثر الله به عدَدَنا معشر أهليه ، وعُدَدنا بما نرتقبه منه ونُراعيه ، وهو تَكرِمة تُحقِّق ظنونا بمــا له نرتجيه ، وما نؤمِّله من الســعادة المقبلة فيه ، فاســتفزتنى غِبْطة آستحوذتْ علىٰ جوامع لُبِّى ، وتملكتنى بهجةٌ ثوتْ فى مَرَابع قلبى ، وطفقتُ مبتهلا ، وتضرَّعت متوسلا ، إلىٰ ذى العَرْش المَجيــد ، الفعَّالِ لِمَــا يُريد ، أن يجمَع له بين العُمُر المديد ، والجدّ السعيد ، كما قَرَن له بين المجد العتيد ، والمُلْك الوطيد ، وأن يجعل تحيَّاتِ أياديه لدىٰ سـيدى الأمير متضاعفــة الأعداد ، مترادفة الأمداد ، مبشرة بُحَماء الأولاد ، يرى آنفُها علىٰ السالف بسـعده ، ويُلْهِى عن تالدها الطارفُ بعلو مجده ، وأن يريه إيَّاه علىٰ مَفْرَق دولته ، وغُرَّة تُشْرق فى جبهة ذرّيته ، وناهضا بأعباء مملكته ، وقائما بنصرة دَعْوته ، حتّى يرىٰ أولاد أولاده جُدُودا ، مظفرا سعيدا ، وأن يُتْبعه أترابا من الإخوة النجباء ، الأماجد السعداء ، متجارين فى حَلَبات علو الهمم ، متبارين فى مَرِيَّات إيلاء النعم ، ليتزايدَ آزدحام وُفُود الســعاده فى عَتَبات بابه ، ويترادف آقتحام جنود الإقبال رحيب جَنَابه ، ويحرُس لديه ما خوّله من مواهبه وأياديه ، ويحفظ عليه ما به فَضَّله من مناقبه

ومعاليه، ويقيه من كيد عائد إذا عند، ويحميه من شرّ حاسدٍ إذا حسد ، وأن يؤتيه عائدتي العاجلة والعقبىٰ، ويُحْظيه بسعادتي الآخرة والأولىٰ، وأن يجعل سعيه في مصالح عباده مشكورا، وبطَرَه في مَنَاجح بلاده مبرورا، وأن يُعَادر مَتَاجِرَ بره وتقواه رابحه ، كما جعل خواطرَ سره ونجواه صالحه ، فرياض الأيام بعدله نواضر، ونواظر الأنام إلىٰ فضله نواظر ، ومصالحهـم بيُمْنه وبركته موافيه ، ومراعتهم بهمته وسعادته مواتيه، وإنى لأعتقد أن مَقِيلي في أفياء السعاده، ونَيْلي كلَّ مأمول وإراده، وتوفيق فيما أُوفَّق فيه، بمـا أعتمِده وآتيه ، خَذول من تيَّار فضـله وسعادته، مَنُوط العُرىٰ بسموّ همته، وأودّ أن أكونَ عوضًا عن كتابي هذا إليه، وخطابي الوارد آنفا عليه، لأسعدَ بالألاء غُرَّته، وأحظىٰ بالأشرف من خِدْمته، أدام الله أيام دولتـه لأنى أجدر عبيده بالمهاجَرة إلىٰ بابه ، وأولىٰ خَدَمه بالمبادرة إلىٰ جنابه ، ولولا تحملى أعباءَ خدمته التي طوّقنيها، وكوني بائبه لديٰ هـذه الحضرة فيهـا، ثاويا بأوامره ونواهيه في مَعَانيها، لَمَا شَقَّ غبارى من أمّ دُراه، ولا ٱتّبع آثارى مُسرعٌ رام لُقْياه . ولقد قمت بالواجب علىّ للنعمة أيده الله المُنْزلة إلىّ ، والمَوْهبـة بمَقدَمه كلأه الله المُكْمَلة لدىّ، التي أضحت بها بواجد المخلص ضاحكةً مسـتبشره ، وأمستْ بسببها وجوه الكاشحين عابسةً مستبسره من وافر شكرٍ يمترِى المَزيد، وعتقِ الإماء والعبيد ، والصدقة الدارّة علىٰ التأبيدّ، وأنا أرغب إلىٰ الله تعالىٰ رغبةَ متوسل إليه ، آمل بمـا لديه، أن يجعل بركة كل خير درّتْ به أخلافه، وكُرّت لأجله أحلافه، عائدةً عليه، ومَيامنَه ثائبة إليه ، مؤذنة بتعميره مَلِكا حُلاَحِلا، لايلقىٰ مؤملوه لِيَمّ فضله ساحلا، وأن يمدّ لسـيدي عضد الدولة في البقاء، ويمتعه به ويسابقه من إخوته الأمراء، ويريه فيهم وفيه ، قُصْوىٰ ماتسمو إليه همه وأمانيه . وإنى لمتوكف لمـا يصلني من كتاب ينبئ عن ٱسمه الكريم وكنيته ، لأعتمد ما أستوجبه في خدمته ومكاتبته ،

وسيدى عصد الدولة أدام الله علاه، ولى ما يستصوبه ويراه من الأمر بمكاتبتى بذلك وبمتجددات النعم، وأوائل المواهب العالية القيم، لآخذ وافر سهمى من السرور، وجزيل قسمى من الجذل والحبور، وتصريفى بين أمره الممتثل المطاع، ونهيه المقابل بالاتباع، إن شاء الله تعالى .

النوع العاشر

الاستكثار من حفظ الأشعار الرائقة، خصوصا أشعار العرب وما توفرت دواعى العلماء بها على اختياره كالحماسة، والمفضليات، والأصمعيات، وديوان هذيل، وما أشبه ذلك، وفهم معانيها واستكشاف غوامضها، والتوفر على مطالعة شروحها، ويلتحق بذلك شعر المولدين من العرب، وهم الذين كانوا فى أول الإسلام كجرير والفرزدق، والأخطل وغيرهم، وكذلك حفظ جانب جيد من شعر المفلقين من المحدثين كأبى تمام، ومسلم بن الوليد، والبحترى، وابن الرومى، والمتنبى ونحوهم، وفيه مقصدان

المقصد الأول

(فى بيان احتياج الكاتب إلى ذلك)

أما شعر العرب والمولدين فلما فى ذلك من غزارة المواد، وصحة الاستشهاد، وكثرة النقل، وصقل مرآة العقل، وانتزاع الأمثال، والاحتذاء فى اختراع المعانى على أصح مثال، والاطلاع على أصول اللغة وشواهدها، والاضطلاع من نوادر العربية وشواردها . وقد كان الصدر الأول يعتنون بذلك غاية الاعتناء . قال محمد بن سلام عن بعض مشايخه "كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه لا يكاد يعرض له أمر إلا أنشد

فيه بيت شعر". وذكر صاحب "الريحان والريعان" عن سعيد بن المسيب أنه قال كان أبو بكر وعمر وعلىّ يجيدون الشعر وعلىّ أشـعر الثلاثة . قال وكان عمر بن الخطاب يقول أفضل صناعات الرجل الأبيات من الشعر يقدّمها بين يدى حاجته يستعطف بها الكريم ، ويستنزل بها اللئيم . وقد ذكر عن الشافعىّ رضى الله عنـه أو غيره من بعض الأئمة الأربعة أنه كان يحفظ ديوان هذيل، وأما قول الشافعىّ رضى الله عنه .

وَلَوْلا الشِّعْرُ بالعُلماءِ يُزْرِى * لكُنْتُ اليومَ أشعرَ من لَبِيد

فإنه يريد مَنْ صرف همته إلىٰ الشعر، بحيث صار شأنَه وديدنَه، وهو المعنىّ بقوله صلى الله عليه وسلم "لَأَنْ يَمْلأَ أَحَدُكُمْ جَوْفَهُ قَيْحًا خيرٌ مِنْ أَنْ يَمْلأَه شِعْرًا " أى أراد صرف همته إليه حتّى يملأ جوفه منه . وقد قال صلى الله عليه وسلم " إنَّ مِنَ الشِّعْرِ لَحِكْمَـةً " . وكان عمر رضى الله عنـه يسمع البيت يُعجبه فيكرره مراتٍ كما ذكره الجـاحظ وغيره . وقد ذكر أبو البركات بن الأنبارىّ فى كتاب " طبقات الأدباء " فى ترجمة أبى جعفر أحمد بن إسحاق البهلول بن حسان الأنبارىّ أنه كان فقيها ، عالمـا، واسع الأدب وتقلد القضاء لعدّة من الخلفاء . ثم حكىٰ عن ولده أبى طالب أنه قال كنت مع والدى فى جنازة بعض أهل بغـداد من وجوه الناس وإلىٰ جانبه أبو جعفر الطبرىّ، فأخذ أبى يعظ صاحبَ المُصيبة ويُسَلّيه ، ويُنشـد أشعارا ، ويروى له أخبارا ، فداخله الطبرىُّ فى ذلك، ثم ٱتسع الأمر بينهما فى المذاكرة، وخرجا الى فنون كثيرة من الأدب والعلم ٱستحسنها الحاضرون وأعجبوا بها ، وتعالىٰ النهار وٱفترقنا، فقال لى أبى يا بُنَىّ مَنْ هذا الشيخ الذى داخلنا فى المذاكرة؟ فقلت يا سيدى كأنك لم تعرفه، فقال لا، فقلت هذا أبو جعفر الطبرىّ، فقال إنا لله ! ما أحسنتُ عِشْرتى معه، فقلت كيف ياسـيدى ؟ قال ألا نَبَّهتنى فى الحـال ،

فكنت أذاكره بغير تلك المذاكرة؟ هذا رجل مشهور بالحفظ والاتساع فى صنوف العلوم، فذاكرته بحسبها، ومضت على ذلك مدة نحضرها فى حق آخر ونجلسها، وإذا بالطبرى قد دخل إلى الحق. فقلت له أيها القاضى هذا أبو جعفر الطبرى قد جاء مقبلا، فأومأ إليه بالجلوس عنده، فعدل إليه وجلس إلى جانبه، وأخذ يجاريه، فكلما جاء إلى قصيدة ذكر الطبرى منها أبياتا، قال أبى هاتها ياأبا جعفر إلى آخرها فيتلعثم الطبرى فينشدها أبى إلى آخرها، وكلما ذكر شيئا من السِّيَر، قال أبى هذا كان فى قصة فلان، ويوم بنى فلان، مرّ يا أبا جعفر فيه وربما مرّ فيه، وربما تلعثم، فيمرّ أبى فى جميعه. ثم قمنا، فقال لى أبى الآن شفيتُ صَدرى.

وأما أشعار المحدثين، فللطف مأخذهم، ودوران الصناعة فى كلامهم، ودقة توليد المعانى فى أشعارهم، وقرب أسلوبهم من أسلوب الخَطَابة، والكتابة، وخصوصا المتنبى، الذى كأنه ينطق عن ألسنة الناس فى محاوراتهم، وكثر الاستشهاد بشعره حتى قلّ من يجهله، وإذا أكثَرَ المترشِّحُ للكتابة من حفظ الأشعار وتدبُّر معانيها، ساقه الكلام إلى إبراز ذخيرة ما فى حفظه منها، فاستعملها فى محلها، ووضعها فى أماكنها، على حسب مايقتضيه الحال فى إيرادها واقتباس معانيها.

المقصد الثانى

(فى كيفية استعمال الشعر فى صناعة الكتابة)

علم أن للكاتب فى استعمال الشعر فى كتابته ثلاث حالات

الحـالة الأولى

(الاستشهاد)

وهوأن يُورد البيتَ من الشعر، أو البيتين، أو أكثرَ فى خلال الكلام المنثور مطابقا لمعنىً ما تقدّم من النثر، ولا يشـترط فيه أن ينبه عليه بقال ونحوه كما يشـترط فى الاستشهاد بآيات القرءان والأحاديث النبوية، فإن الشعر يتميز بوزنه وصيغته عن غيره من أنواع الكلام، فلا يحتاج إلىٰ التنبيه عليه. وأكثر مايكون ذلك فى المكاتبات الإخوانيات مثل ماكتب به القاضى الفاضل إلىٰ بعض إخوانه يستوحِشُ منه، ويتشوّق إليه

فيارَبِّ إن البَيْنَ أضحَتْ صُرُوفُه * علىّ، ومالِى مِنْ مُعِينٍ فكُنْ معِى
علىٰ قُرْبِ عُذَّالِى وبُعْدِ أحِبَّتِى * وأمْواهِ أجْفـانِى ونِيرانِ أضْلُعِى!

هذه تحية القلب المعذَّب، وسريرةُ الصبر المُذَبْذَب، وظُلامةُ عزم السلو المكذَّب، أصـدرتها إلىٰ المجلس وقد وَقَدَ فى الحشا نارُها، الزفيرُ أوارها، والدُّموع شَرارها، والشوق آثارها، وفى الفؤاد ثارُها

لَوْ زارنِى مِنْكُمْ خيالٌ هاجِرٌ * لَهَدَتْه فى ظَلْمـائه أنْوارُها

أسفًا على أيام الاجتماع التى كانت مواسمَ السرور والأسرار، ومباسمَ الثغور والأوطار، وتذكُّراً لأوقاتٍ عَذُبَ مَذاقها، وامتدّ بالأُنس رِواقها، ورَوّحت بكرها، وذوعت ذكرها .

واللهِ ما نَسِيَتْ نفْسِى حَلاوتَها! * فكَيْفَ أذْكُرُ أنِّى اليَوْمَ أذْكُرُها؟

وقد فارقت الجَناب، لازال جَنا جَنابِه نَضِيرا، وسَنا سمائه مسـتطيرا، ومُلْكُه فى الخافقيـن خافقَ الأعلام، وعزّه علىٰ الجديدين جديدَ الأيام، لم أقف منه علىٰ

كتاب تخلّف سطورهُ ما غسل الدمعُ من سَواد ناظرى ، ويُقدِم بياض مسطومه ومنثوره ما وَزّعه البين من سُوَيداء خاطرى

ولم يَبْقَ فى الأحشاءِ إلّا صُبَابةٌ * من الصّبْر تجرى فى الدُّموعِ البَوَادِرِ

وأساله المَآب ، بشريف الجناب ، وأداءَ فرض ، تقبيل الأرض ، حيث تلتقى وفود الدنيا والآخره ، وتعمُر البيوتَ العامره ، المننُ العامره ، ووصلُ الظل غير ممسوح هجيره ، ويُبَشِّر المجدُ بشخص لا تسمَح الدنيا بنظيره

تَظَاهر فى الدُّنيا بأشْرَفِ ظاهرٍ * فلم تَرَ أنقىٰ منه غيرَ ضَميره!

كَفَانِىَ فخرا أنْ أُسَمّى بعَبْده * وحَسْبِىَ هَدْيًا أنْ أسِيرَ بسُوره!

فأىُّ أميرٍ ليس يَشْرُف قدرُه * اذا ما دَعاه صادِقًا بأميره؟

وإنى فى السؤال بكتُبُه أن يوصّلها ليُوصِل بها لدىّ تهانى تملأ يدّى ويُودِع بها عندى مَسَرةً تقدَح فى الشكر زَنْدى .

عَهِدتُكَ ذا عَهْدٍ هو الوَرْدُ نَضرةً * وما هُوَ مثلُ الوردِ فى قِصَرِ العَهْدِ

وأنا أترقب كتابه ارتقاب الهلال لتُفطِر عين عن الكرىٰ صائمه ، وتَرِدَ نفس عن موارد الماء حائمه اهـ .

بل ربما كان كُلّ المكاتبة أو جلها شعرا ، وقد يكونُ صدر المكاتبة شعرا وذيلُها نثرا ، وبالعكس . وقد يكون طَرَفاها نثرا وأوسطُها شعرا ، وعكس ذلك بحسب مايقتضيه الترتيب ، ويسوق إليه التركيب ، وربما اكتفى بالبيت الواحد من الشعر فى الدلالة علىٰ المقصد وبلوغ الغرض فى المكاتبة كما كتب بعض ملوك العرب إلىٰ من كثر كُتُبه ورسله إليه بقول المتنبى

ولا كُتْبَ إلا المَشْرَفِيّةُ عِنْدَه * ولا رُسُلٌ إلا الخميسُ العرمْرَمُ

إلى غير ذلك من المكاتبات المتضمنة للأشعار . أما مكاتبات الملوك الآن فقلّ أن تستعمل فيها الأشعار، أو يستشهد فيها بالمنظوم والمنثور، وقد تجىء التلقيحات بأبيات الشعر فى غير المكاتبات من الرسائل الموضوعة لرياضة الذهن، وتنقيح الفكر كالرسائل الموضوعة فى صيد ملك أو فتح بلد أو نحو ذلك، وقد أودعت المقامة التى أنشأتها فى كتابة الإنشاء جملةً من الأبيات الشعرية، أوردتها مورد الاستشهاد على ما يقتضيه المقام، ويسوقُ إليه سياقُ الكلام، على ماسلف ذكره عند الكلام على فصل الكتابة فيما تقدّم . وعند مطالعة كلامهم، والوقوف على رسائلهم، ترى من أصناف الاستشهادات ما يروقك نظره، ويُطربك سمْعُه .

الحـالة الثـانيـــة

(التضميــــن)

وهو أن يضمَّن البيتُ الكامل من الشعر أو نصفُ البيت لبعض القرينة . أما تضمين البيت الكامل من الشعر أو نصف البيت لبعض القرينة فمثل ما كتب به القاضى الفاضل

وصل من الحضرة

كتابٌ به ماءُ الحيـاةِ ونَقْعُـه الـــحَيَا فكأنّى إذ ظَفِرْتُ بِهِ الخِضْر

فوقفت عنده منه على

عقود، هى الدُّرّ الذى أنتَ بَحْرُه * وذلِكَ ما لا يَدَّعى مثْـلَه البحرُ

ورتعت منه فى

رياض يدٍ نجى وعينٍ وخاطرٍ * تَسابَقَ فيهـا النَّوْر والزَّهْـرُ والثَّمْر

وكرعت منه فى حياض

تُسرُّ مَحابِيهـا إذا ما حَىَ الظَّمَا . وتُرْوِى مجارِيها إذا بَخِل القَطْرُ

وما زلت منه أنشده

كأنّى سارٍ فى سَريرة ليــلةٍ * فلمّــا بَدَا كبَّرْتُ إذ طَلَع الفَجْرُ

ووافىٰ علىٰ ما كنت أعهد

حَلَفْتُ بأن العَيْنَ من سُحْبِ كفّه * فمِنْ ذا ومِنْ ذا فيــه يَنْتثر الدُّرّ

وآسترجع فائت الدماء من مَوْرِدِه

وما كان عِنْدِى بَعْدَذَنْبِ فِراقِهِ * بأنّى أرىٰ يَوْمًا بِهِ يَعْــد الدَّهْرُ

وبَقّس عن النَّفَس بأبيض أثمــادِه وعَيَّن العَيْن بأسْوَد إثمده

به لَهُما سَحٌّ[1] طويل فهــدِه * علىٰ خاطرٍ بَرْدٌ، وفى خَطَرٍ بَدْرُ

وجدّد إليه أشواقا جَدِيدُها

يَمُرّ به ثَوْبُ الجَدِيدَيْنِ دائمًــا * فيَبْلىٰ ولا يَبْلىٰ وإن بَلِيَ الدَّهْرُ

وذَكَّرَ أيامًا لا يزالُ يَستعيدُها

وهَيهاتَ أن يَأْتِى من الأمر فائتٌ * فدَعْ عنكَ هذا الأمْرَ قَدْ قُضِى الأمْرُ

وأما تضمين نصف البيت فمثل قول القاضي الفاضل

وصل كتاب مولاىَ بعدما * أجابَ المُنادِى للصَّــلاةِ فأعْتَما

فلما آســتقرّ لدىّ * تجلّى الّذى مِنْ جانِبِ البَدْرِ أظْلَما

فقــرأته * بعَيْنٍ إذا آسْتَمْطَرْتُهــا أمْطَرَتْ دَمَا

وسألته * فَسَاءلْتُ مَصْرُوفًا عن النُّطْقِ أعْجَما

---

(١) فى نسخة سبح وفى أخرى سح وكلاهما مصحف كما هو ظاهر اذ يشير إلىٰ الآية الكريمة (إن لك فى النهار سبحا طويلا)

ولم يردّ جوابا، * وما ذا عليه لو أجاب المُتيَّما ؟

ورددتُه قراءة، * فعوجلتُ دون الحِلم أن أتحلَّما

وحفظته، * كما يحفظ الحُرُّ الحديثَ المُكتَّما

وكررته، * فمن حيثُ ما واجهتُه قد تبسَّما

وقبّلته، * فقبّلتُ دُرًّا في العُقود مُنظَّما

وقمتُ له، * فكنتُ بمفروض المحبّة قيِّما

وأخلصتُ لكاتبه، * وليس على حُكم الحوادث محكما

ولم أصدّقه ! * ولكنّه قد خالط اللحمَ والدّما

وأرّخت وصوله، * فكان لأيدى(١) الوسائم موسما

وشفيتُ به غليل * فؤادٍ أُمنِّيه وقد بلغ الظَّما

وداويت عليل * حشًا صرّما فيه من النار صرّما

فأما تلك الأيام التى * حماها على اللَّوم المُقامُ على الحِما

والليالى العذاب التى * مَلأت نُحورَ الليلِ بيضًا وأنجُما

وأرسلتُ الزفرة * فلو صافحت رضوى لَرُضَّ وهُدِّما

وأسلتُ العبرة * كما أنشأ الأفقُ السحابَ المُديِّما

وحطت السَّلوة * فأسألُ معدومًا وآمُلُ مُعْدِما

فأما الشكر فإنما * أفضُّ به مسكًا عليه مُختَّما

وأقوم منه بفرض * أرانى به دون البريّة أقوما

وأوفى واجب فرض * وكيف تُوفِّى الأرضُ فرضًا من السما

(١) كذا فى الأصل ولعله جمع يد وأضيف للمتكلم

وربما ركبت القرينة الكاملة علىٰ البيت أو نصف البيت كما كتب به القاضي الفاضل أيضا .

ورد كتاب الحضرة بعد أن عددت الليالي ليلة بعد ليلة لطلوع صديعه	* وقد عشتُ دهرا لا أعُدُّ اللّياليا
وبعد أن انتظرتُ القيظَ والشتاءَ لفصل ربيعه	* فما للسوىٰ ترمي بليلىٰ المراميا؟
واستروحت إلىٰ نسيم سحره	* إذا الصيفُ ألقىٰ في الديارِ المراسيا
ومددتُ يدي لاقتطاف ثمره	* ولله ما أحلىٰ وأحمىٰ المجانيا !
ووقفت علىٰ شكواه من زمانه	* فبتُّ لشكواهُ من الدهرِ شاكيا
وعجبت لعمىٰ الحظ عن مكانه	* وقد جمع الرحمٰنُ فيه المعانيا
وتوقعت له دولةً يعلو بها الفضل	* إذا هزَّ من تلك اليراعِ عواليا
ورتبةً يرتقي صهوتَها بحكم العدل	* فربَّ مراقٍ يعتددن مهاويا
وإلىٰ الله أرغبُ في إطلاع سعوده	* زواهرَ في أفقِ العلاءِ زواهيا
وفي إنهاض عثرات جُدوده	* فقد عثرتْ بعد النهوضِ العواليا

وربما رُكِّب نصف البيت علىٰ نصف القرينة ، كما ذكرتُ في المفاخرة بين السيف والقلم في الكلام علىٰ لسان السيف في مخاطبته للقلم . وهو « وأنت وإن ذُكرت في التنزيل ، وتمسكتَ من الامتنان بك في قوله ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ بشُبهة التفضيل ، فقد حَرَّمَ الله تعالىٰ تعلُّم خطك علىٰ رسوله ، وحَرَمك من مسِّ أنامله الشريفة ما يُؤسىٰ علىٰ فوته ويُسَرّ بحصوله ، لكني قد نلت من هذه الرتبة أسنىٰ المقاصد ، وشهدت معه من الوقائع مالم تُشاهِدْ ، وحَلَّاني من كفه شرفا لا يزول حَلْيُه أبدا ، وقمت نصره

فى كل مُعْتَرَك ، « فَسَلْ حُنَيْنًا وسَـلْ بَدْرا وسَلْ أُحُدا » ، فركّبت نصف بيت البردة على نصف قرينة . وما ذكرته فى الرسالة التى كتبتها للمقرّ الفتحىّ صاحب ديوان الإنشاء الشريف بالأبواب السلطانية بالديار المصرية . وهو قد لبس شرفا لا تطمع الأيام فى خلعه ، ولا تتطلّع الزمان إلىٰ نزعه ، وآنتهى إليه المجد فوقف ، وعرف الكرم مكانه فانحاز إليـه وعطف ، وحلّت الرياسةُ بفنائه فآستغنت به عن السِّوىٰ ، وأناخت السيادة بأفنائه « فألقتْ عَصَاها وآستَقَرَّ بها النوى »

وقد يضمِّن الكاتب بعض القرينة نصفَ بيت ، ثم يستطرد فيذكر أبياتًا كاملة الأجزاء علىٰ نَمَط أنصاف الأبيات التى يوردها ، كما فعل الشيخ ضياء الدين أحمد بن عمر بن يوسـف القرطبىّ فى رسالته للشيخ تقىّ الدين بن دقيق العيد تغمدهمـا الله برحمته فى قوله

ويهنى ورود عدرائه التى	لَهَا الشَّمْسُ خِدْنٌ والنُّجُومُ وَلائدُ
وحسنائه التى	لَهَـا الدُّرّ لفظٌ والدَّرارِى قلائدُ
ومشرفته التى	لَهَـا مِنْ بَرَاهِينِ البَيَانِ شَواهِدُ
وكريمته التى	لَهَـا الفَضْل وِرْد والمعالِى مَوَارِدُ
وآيتها الكبرىٰ التى دلّ فضلُهـا	علىٰ أنَّ مَنْ لم يَشْهَدِ الفَضْلَ جاحِدُ
وأنكَ سَـيْفٌ سـلَّهُ اللهُ للهدىٰ	وليس لسَـيْفٍ سَـلَّهُ اللهُ غامِدُ

وقد يخالف بين قوافى أنصاف الأبيات التى يمزجها ببعض القرائن كما يخالف بين فواصل القرائن كما فى قول البديع الهمدانى

أنا لقرب دار مولاى	كما طَرِب النَّشْوَانُ مالَتْ بِهِ الخَمْـرُ
ومن الآرتياح إلىٰ لقائه	كما آنْتَفَضَ العُصْـفُورُ بَلَّلَهُ القَطْرُ

ومن الامتزاج بولائه * كما التقت الصهباء والبارد العذب
ومن الابتهاج بمزاره * كما اهتز تحت البارح الغصن الرطب

إلى غير ذلك من فنون الامتزاج التي يراوح فيها بين المنثور والمنظوم، وينتهي فيها الكاتب إلى ما يبلغ به القدر المحتوم .

أما تضمين بعض أبيات العرب في بعض قصائد المحدثين كما فعل القاضي الأرجاني في قوله من قصيدة مدح بها بعض الوزراء

وأهد إلى الوزير المدح تحمل * لك المرباع منها والصفايا
ورافق رفقة رحلوا إليه * فآبوا بالنهاب وبالسبايا
وقل للراحلين إلى ذراه * ألستم خير من ركب المطايا
ولا تسلك سوى طرقي فإني * أنا ابن جلا وطلاع الثنايا

فإن ذلك من وظيفة الشاعر لا الكاتب، وإن كان الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي رحمه الله قد أشار في كتابه "حسن التوسل" إلى التمثيل بذلك لما نحن بصدده .

الحالة الثالثة

(الحل)

وهو أن يعمد الكاتب إلى الأبيات من الشعر ذوات المعاني فيحلها من عقل الشعر، ويسبكها في كلامه المنثور، فإن الشعر هو المادة الثالثة للكتابة بعد القرآن الكريم والأخبار النبوية، على قائلها أفضل الصلاة والسلام، وخصوصا أشعار العرب فإنها ديوان أدبهم، ومستودع حكمهم، وأنفس علومهم في الجاهلية، به يفتخرون، وإليه يحتكمون . فإذا أكثر من حفظ الشعر وفهم معانيه، غزرت لديه المواد، وترادفت عليه المعاني، وتواردت على فكره، فيسهل عليه حينئذ حلها، ووضعها

فى مكانها اللائق بها بحسب مقتضيات الكتابة . قال صاحب "الريحان والريعان"
وهو شأنُ حُذّاق الكتّاب فى زماننا ، وفيه من الجمـال فنون .

منها أنه يدل علىٰ حَصَالة أدب المجيد ، واتّساع الحفظ ، والتيسير والتأتّى لسبك
اللفظ .

ومنها أنه ليس يُشْهَر منها إلا النادر للغاية فى الحُسْن ، فهى إذا حُلّت يجاورها
المنشئ بما يناسب حسنها فى البراعة ، وهذا كثير فى هـذه الصناعة . قال فى "المثل
السائر" وإنمـا جعل المنظوم مادّة للمنثور بخلاف العكس لأن الأشـعار أكثر ،
والمعانِىَ فيها أغزر ، قال وسبب ذلك أن العرب الذين هم أهـل الفصاحة كان
جُلُّ كلامهم شعرا ، ولا يوجد الكلام المنثور فى كلامهم إلا يسيرا ، ولو كثر فإنه لم
يُنْقَل عنهم بل المنقول عنهم الشـعر فأودعُوا أشعارَهم كل المعـانى كما قال الله تعالىٰ
﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ . ثم جاء الطِّراز الأوّل من المُخَضْرَمِين فلم يكن لهم إلا
الشعر . ثم استمرّ الحال علىٰ ذلك فكان الشعر هو الأكْثَرَ ، والكلامُ المنثور بالنسبة
إليه قطرةٌ من بحر ، فلذلك صارت المعانى كلها مُودعة فى الأشعار . قال فى "حسن
التوسل" والحَلُّ باب متسع علىٰ المجيد مَجَاله ، وتتصرَّف فى كلام العارف به رويته
وارتجاله .

قال صاحب "الريحان والريعان" وأوّل مَن فك رِقابَ الشعر ، وسرَّح مقيَّده إلىٰ
النثر ، عبد الحميد الأكبر ، كاتب بنى أمية إلىٰ انقضاء خلافتهم . قال وربما رامه
غير المطبوع المتصرِّف فعقده وأفسده كما قال القائل وبعضهم يَحُلُّ فيعقد . قال
وكيفيـة الحل أن يتوخّى هـذا البيت المنظومَ وحَلَّ فرائده من سلكه . ثم ترتيبَ
تلك الفرائد وما شابهها ترتيبَ متمكّن لم يحظره الوزن ولا اضطرّته القافية ، ويبرزها

فى أحسن سلك، وأجمل قالَبٍ وأصح سبك، ويُكمّلها بما يناسبُها من أنواع البديع إذا أمكن ذلك من غير كلفة ، ويتخير لها القرائن . وإذا تم معه المعنى المحلول فى قرينة واحدة فيعرض له من حاصل فكره، أو من ذخيرة حفظه، ماينا سبه . وله أن ينقُل المعنى إذا لم يفسده إلى ماشاء ، وإن كان نسيبا وتأتّى له أن يجعله مديحا فليفعل ، وكذلك غيره من الأنواع . وإذا أراد الحل بالمعنى فلتكن ألفاظه مناسبةً لألفاظ البيت المحلول غيرَ قاصرةٍ عنها، فمتى قصَرتْ ولو بلفظة واحدة، فسد ذلك الحل وعُدّ مَعِيبا . وإذا حلّ اللفظ فلا يتصرف بتقديم وتأخير ولا تبديل، إلا مع مراعاة تدبير الفصاحة، وآجتناب ماينقُصُ المعنى أو يحُطُّ رتبته .

قال وهذا الباب لاتنحصر المقاصد فيه، ولا حجر على المتصرف فيه .

ثم حل الأبيات الشعرية وآستعمالها فى النثر على ثلاثة أضرب

الضـــرب الأوّل

(أن يأخذ الناثر البيت من الشعر فينثُره بلفظه، وهو أدنى مراتب الحَلّ)

قال فى "المثل السائر" وهو عيب فاحش إذ لم يزد فى نثره على أنه أزال رونق الوزن وطَلَاوة النظم لاغير . قال ومثَلُه كمن أخذ عِقْدا قد أُتقِن نظمه ، وأُحْسِن تأليفه، فأوهاه وبدّده، وكان يقوم عذره فى ذلك لو نقله عن كونه عِقدا إلى صورة أخرى مثله أو أحسنَ منه . وأيضا فإنه إذا نثَر الشعر بلفظه كان صاحبه مشهورَ السرقة فيقال هذا شعر فلان بعينه لكون ألفاظه باقية لم يتغير منها شيء .

وبالجملة فحل الشعر بلفظه لايخرج عن حالين

الحال الأوّل — أن يكون الشعر ممـا يمكن حله بتقديم بعض ألفاظه وتأخير بعضها ، وله فى حله طريقان .

الطريق الأوّل — أن يحُلّه بالتقـديم والتأخير من غير زيادة فى لفظه كما ذكر صاحب "الصناعتين" عن بعض الكتّاب أنه حلّ قول البحترىّ

أطِلْ جَفوةَ الدُّنيا وتَهْوِينَ شَأنِها ٭ فما العاقِلُ المَغْرُورُ فيها بعاقِل
يُرَجّى الخُلُودَ مَعْشَرٌ ضَلَّ سَعْيُهمْ ٭ ودُونَ الّذى يَرْجُونَ غَوْلُ الغَوائِل
إذا ما حَرِيزُ القَـوْمِ باتَ وما لَهُ ٭ مِنَ اللهِ واقٍ فهو بادِى المَقَاتِل

فقال فى نثرها أطِلْ تهوينَ شأنِ الدنيا وجَفْوتَها، فما المغرورُ العاقل فيها بعاقل. ويرجو مَعْشَر ضلَّ سعيُهم الخلودَ، وغولُ الغوائل دون ما يرجُون. وإذا بات حريزُ القوم وماله من الله واقٍ فهو بادى المَقَاتل. ولم يزد فى ألفاظها شيئا.

الطريق الثانى — أن يحُلَّه بزيادة على لفظه كما حكى الجاحظ عن قليب المعتزلىّ أنه سمع منشدا يُنْشد للعتبىّ:

أفْلَتْ بِطَالتُـه وراجَعهُ ٭ حِلْم وأعقَبَـهُ الهوى نَدَما
ألقَى عليـه الدَّهرُ كَلْكَلَه ٭ وَأعاره الإقتـار والعَـدَما
فإذا ألَمّ بِهِ أخو ثِقَــةٍ ٭ غَضَّ الجُفُونَ وجَمْجَمَ الكَلِمَا

فنثرها فقـال يستعطف بعض الملوك على رجل من أهـله فعلى الله فذاك ليس هو اليوم كما كان، إنه وحياتِك أفلَتْ بَطَالته، إى والله وراجعه حلمه، وأعقبه وحقك الهوى ندما. ألقى الدهرُ عليـه والله بكلكله، فهو اليوم إذا رأى أخا ثقةٍ غضّ بصره وجمجم كلامه. فزاد فى نثره ألفاظا على ألفاظ الشعر.

ونحو ذلك ما حكاه ضيـاء الدين بن الأثير عن بعض العراقيين أنه نثر قول بعض شُعراء الحماسة.

وألدَّ ذِى حَنَقٍ علَىَّ كأنّمَا * تَغْلِي عَداوةُ صَدْرِه فى مِرْجَل
أرْجيتُه عنّى فأبصرَ قصْدَه * وكَوَيْتُه فَوْقَ النَّوَاظِرِ مِنْ عَلِ

فقال فى نثره وكمْ لقِيَ ألدّ ذا حَنقٍ كأنه ينظُر إلىٰ الكواكب من عل وتغلى عداوة صدره فى مِرْجل فكواه فَوْقَ ناظِرَيْه، وأكبَّه لِفَمه ويديه .

الحال الثانى — أن يكون الشعر ممّا لا يمكن حَلُّه بتقديم بعض ألفاظه وتأخير بعضها ، فيحتاج فى نثره إلىٰ الزيادة فيه ، والنقص منه ، وتغيير بعض ألفاظه حتّى يستقيم كقول الشاعر

لِسَانُ الفَتىٰ نِصْفٌ ونِصْفٌ فُؤادُه * فَلَمْ يَبْقَ إلّا صُورَةُ اللَّحْمِ والدَّمِ

فإن المصراع الثانى من البيت لا يمكنُ حلُّه بالتقديم والتأخير لأنك تقول فى المصراع الأوّل فُؤاد الفتىٰ نصف ولسانه نصف ولا يمكن ذلك فى المِصراع الثانى حتّى تزيد فيه أو تنقُص منه فتقول مثلا فُؤاد الفتىٰ نصف ولسانُه نصف علىٰ ماتقدّم . ثم تقول وصورته من اللحم والدّم فضلةٌ لاغَناء بها دُونَهما ، ولا معوّل عليها إلا معهما .

قال فى "الصناعتين" وزيادة الألفاظ التى تحصل فيه ليست بضائرة لأن بسط الألفاظ فى أنواع المنثور شائع ، ألا ترىٰ أنها تحتاج إلىٰ الازدواج ، ومن الازدواج ما يكون بتكرير كلمتين لهما معنًى واحدٌ وليس ذلك بقبيح ، إلا إذا اتّفق لفظاهما ، إلا أن أكثَرَ مايحسُن فيه إيراد المعنىٰ علىٰ غاية مايمكن من الإيجاز، ومعنىٰ قوله فلم يبق إلا صورة اللحم والدم داخل فى قوله . لسان الفتى نصف ونصف فؤاده . والمصراع الثانى تذييل للمصراع الأوّل . قال فإذا أردت أن تَحُلَّه حلا مقصرا بغير لفظه ، قلت الإنسان شَطْران . لسان وجنان، وقريب من ذلك قول أبى نُوَاس .

أَلَا يابْنَ الذينَ فَنُوا وبادُوا * أَمَا واللهِ مادَهَبُـــوا لِتَبْقَىٰ

فإن المِصراع الأوّل يمكن حله بأن تقول ألا يابن الذين بادوا وفَنُوا فيكون مستقيما . أما المصراع الثانى فإنه إن قُدِّم فيه أو أخر بأن قيل مادهبوا لتبقىٰ أما والله فإنه لايستقيم فتحتاج فى نثره إلىٰ تغيير وزيادة فتقول ألا يا ٱبن الذين ماتوا ومضَوْا وطعَنُوا ونأَوْا أما والله ماطعنوا لتقيم ، ولا راموا لتَرِيم ، ولا مُوِّتُوا لتحْيَا ، ولا فَنُوا لتبقىٰ . قال فى "الصناعتين" وفى هذه الألفاظ طول وليس بصائر علىٰ ما تقدم . قال وإن أردت ٱختصاره قلت أما والله إن الموت لم يصبك فى أبيك إلا لِيُصِيبَك فيك .

الضـــرب الثانى

(وهو أعلىٰ من الضرب الأوّل أن ينْثُر المنظوم ببعض ألفاظه ويَعْزِم عن البعض ألفاظا أُخر . ويحسن ذلك فى حالين)

الحال الأوّل — أن يكون فى الشِّعر ألفاظ لايقوم غيرُها من الألفاظ مَقَامها بأن تكون مثلا سائرا أو جارية مجرىٰ المثل كقول بعض شعراء الحماسة

لو كُنْتُ مِنْ مازِنٍ لم تَسْتَبِحِ إبِلِي * بَنُو اللَّقِيطةِ مِنْ ذُهْلِ بْنِ شَيْبانَا

فإن لفظ بنى اللقيطة لا يقوم غيره من الألفاظ مَقامَه لكونه علَمـا علىٰ قوم مخصوصين فيحتاج الناثر أن يبقيه بلفظه ، كما فعل "ضياء الدين بن الأثير" فى قوله فى نثر البيت المذكور . لست ممن تستبيح إبله بنو اللقيطه ، ولا الذى إذا همَّ بأمر كانت الآمال إليـه وسيطه ، ولكنى أحمِى الهَمَل ، وأفوت الأمل ، وأقول سَبَقَ السَّيْفُ العَذَل . وكذلك كل ماجرىٰ هذا المجرىٰ ونحوه .

الحال الثانى — أن يكون فى البيت لفظ رائق قد أخذ من الفصاحة زمامها، وأحاط من البلاغة بجوانبها، فيبقيه على حاله، ويقرنه بلفظ يماثله ويوازيه، قال فى "المثل السائر" وهناك تظهر الصنعة فى المماثلة والمشاكلة، ومؤاخاة الألفاظ الباقية بالألفاظ المرتجلة، فإنه إذا أخذ لفظا لشاعر مجيد، قد نقحه وصححه، فقرنه بمالا يلائمه كان كمن جمع بين لؤلؤة وحصاة، ولا خفاء بما فى ذلك من الانتصاب للقدح، والاستهداف للطعن. قال وهو عندى أصعب من حل من نثر الشعر بغير لفظه، لأنه يسلك مضيقا، لما فيه من التعرض لمماثلة ما هو فى غاية الحسن والجودة. بخلاف نثر الشعر بغير لفظه فإن ناثره يتصرف فيه على حسب ما يراه، ولا يكون مقيدا فيه بمثال يضطر إلى مؤاخاته، ومثل لذلك بقول أبى تمام فى وصف قصيد له

حَذَّاء تَملأُ كُلَّ أُذْنٍ حِكْمَةً * وبَلاغةً وتُدِرّ كُلَّ وَرِيدِ

ثم قال فقوله تملأ كل أذن حكمة من الكلام الحسن، وهو أحسن مافى البيت وأشهر، فلو قال قائل لمن هذا؟ قيل وهل يخفى القمر، وإذا عرف الكلام صارت المعرفة له علامه، ولم يخش عليه سرقة إذ لو سرق لدلت عليه الوسامه، ومن خصائص صفاته أنه يملأ كلّ أذن حكمه، ويجعل فصاحة كلّ لسان عجمه. فبقّى لفظ تملأ كل أذن حكمة وأتى معها بما يناسبها من الألفاظ الحسنة الرائقة. ونحو ذلك ماذكره الشيخ شهاب الدين محمود الحلبى أنه يؤاخى القرينة المحلولة بمثلها من عنده كما فعل هو فى تقليد من التقاليد فقال فكم مُلِّئ ضوءُ الصُّبح مما يُغيره * ثم قال وظلامُ النَّقع مما يُثيره. وقال أيضا وقُلّ حَديدُ الهند مما يُلاطمه * ثم قال والأجل مما يسابقه إلى قنص النفوس ويُزاحمه. والقرينتان الأوليان نصفا بيتين للمتنبى فأضاف إلى كل قرينة ما يناسبها. قال وهذا من أكثر ما يستعمل فى الكتابة.

الضرب الثـالث

(وهو أعلىٰ من الضربين الأوّلين أن يأخذ المعنىٰ فيكسُوَه ألفاظا من عنده ويصُوغَه بألفاظ غير ألفاظه)

قال فى "المثــل السائر" وثَمَّ يتبيَّنُ حِذق الصائغ فى صياغته ، فإن آستـطاع الزيادة علىٰ المعنىٰ فتلك الدرجة العاليــة ، وإلا أحسن التصرف وأتقن التأليف ، ليكون أولىٰ بذلك المعنىٰ من صاحبه الأوّل .

ولْتعلم أن الأبياتَ الشعريةَ فى حلها بالمعنىٰ لهـا حالان .

الحال الأوّل — أن يكون البيت الشعر ممـا يتسع المَجَالُ لناثره فى نثره فيورده بضروب من العبـارات . قال آبن الأثير "وذلك عـندى شبيه بالمسائل السيالة فى الحساب التى يجاب عنها بعدّة من الأجوبة". فمن ذلك قول أبى الطيب المتنبى

لا تَعْذِلِ المُشْتَاقَ فِى أَشْوَاقِه حتّىٰ تكُونَ حَشَاكَ فىأحْشَائِه

فهذا البيت يُتَصَرَّف فى نثره فى وجوه من المعانى . وقد نثر آبن الأثير هذا البيت فقال "لاتعذِلِ المحبَّ فيما يهواه ، حتّى تطوِىَ القلب علىٰ ما طواه" . ونثره علىٰ وجه آخر فقال "إذا آختلفت العينان فى النظر ، فالعذل ضرب من الهَذَر" . وكذلك قول المتنبى أيضا

إنَّ القَتِيلَ مُضَرَّجاً بدموعِه مثلُ القتِيلِ مضَرَّجا بِدِمائه

نثره آبن الأثير فقال "القتيل بسيف العُيُون ، كالقتيل بسيف المَنُون ، غير أن ذلك لا يُحَرِّد من غِمْدِه ، ولا يُقادُ صاحبه بعَمْده" . فزاد علىٰ المعنىٰ الذى تضمنه البيت عدمَ القود بالعَمْد . ونثره علىٰ وجه آخر فقـال "دمُ المُحِب ودم القتيل ، متفقان فى التشبيه والتمثيل ، ولا تجد بينهما بونا ، سوىٰ أنهما يختلفان لونا" . قال وهذا أحسن من الأوّل .

وعلى هذا النهج يجرى قول ابن الرومى فى وصف الحديث

وَحَدِيثُها السِّحْرُ الحَلَالُ لَوَ انَّهُ * لم يَجْنِ قَتْلَ المُسْلِمِ المُتَحَرِّزِ

نثره الشيخ شهاب الدين محمود الحلبى فى وصف السيوف فقال وكفى السيوفَ فخرا أنها للجنَّة ظلال، وإلى النصر مآل، وإذا كان من بيان الحديث سِحْر، فإنَّ بيان حديثها عمن كَلَّمته هو السحر الحلال . ثم نقله إلى وصف الأسنة فقال حَسْبُ ألسنة الأسنَّة شرفا أنَّ كَشْف خبايا القلوب يُذَمُّ إلا منها، وأن سِرَّ أسرار الضمائر تُكْرَه روايته إلا عنها، فمكرَّر حديثها فى ذلك لا يُفْضِى إلى مَلاَل، وإذا لم يكن حُسْنُ حديثها الذى يَسْحَر الألباب مما يحِلُّ، فليس فى الحديث سِحْرٌ حلال . ثم نقله إلى وصف البلاغة فقال البلاغة تَسْحَر الألباب حتّى تحيل العرض جوهرا وتُحيل الهواءَ المُدرَك بالسمع لانسجامه وعُذُوبته فى الذوق نهرا ، لكنه سِحر لم يَجْنِ قتلَ المُسْلِم المُتَحَرِّز، فيتأوَّلَ فى حِلِّه ، وإذا كان فى الحديث ما هو عُقْلة للمستوفِز، فهذا أُنْشُوطة نَشَاط البليغ وحَلُّ عِقال عقله . ونقله إلى وصف الكتابة . فقال خَطُّه شَرَك العقول ، وفتنة تشغَل الطمئن بملاحة المرْئِىّ المكتوب ، عن فصاحة المسموع المَقُول، ولو لم يكن البيان سحرًا، لما تجسَّدت منه فى طِرْسه هذه الدُّرَر، ولو لم يكن بعضُ السحر حلالا، لما أحلى ظَلامُ النِّقْس عما يُهتدى به من هذه الأوضاح والغُرَر .

الحال الثانى — أن يكون البيت الشعر مما يَضِيق المَجَال فيه فيعسُر على الناثر تبديل ألفاظه، وذلك قليل بالنسبة إلى ما يتسع فى حَلِّه المَجَال. قال فى "المثل السائر" وسببه أن المعنى يحصر فى مقْصِد من المقاصد حتّى لا يكاد يأتى إلا فذًّا . فمن ذلك قول أبى تمام الطائىّ من قصيدة .

تَرْدِى ثِيَابَ المَوْتِ حُمْرًا فَمَا أَتَىٰ * بِهَا اللَّيْلُ إِلَّا وَهْىَ مِنْ سُنْدُسٍ خُضْرِ

فإن أبا تمام قصد المؤاخاة فى ذكر لونى الثياب بين الأحمر والأخضر، وجاء ذلك واقعا على المعنىٰ الذى أراده من لون ثياب القتلىٰ وثياب الجنّة ، فإن ثياب القتلىٰ حُمْر وثياب الجنة خضر .

قال ابن الأثير فإذا فُكَّ نظم هذا البيت وأريد صوغُه بغير لفظه لم يمكن ، فيجب على الناثر أن يحسن الصنعة فى فكّ نظامه ، لأنه يتصدّى لنثره بألفاظه ، فإن كان عنده قوّةُ تصرُّف ، وبَسْطة عبارة ، فإنه يأتى به حسنا رائقا . وقد نثر هذا البيت فقال لم تكسُه المنايا نَسْج شِعَارها ، حتّى كسته الجنةُ نَسْج شِعارها فبُدِّل أحمرُ ثوبه بأخضره ، وكأسُ حِمَامه بكأس كَوْثَره . قال وهذا من الحُسْن على غاية يكون كَمَدُ حسُودها ، من جُمْلة شُهودها . ومن ذلك قول أبى الطيّب

وكَانَ بِهَا مِثْلُ الجُنُونِ فأَصْبَحَتْ * ومِنْ جُثَثِ القَتْلَىٰ عَلَيْهَا تَمَائِمُ

فإن أبا الطيّب بنىٰ بيته علىٰ واقعة مخصوصة . وذلك أن حِصْنا من حصون سيف الدولة قصده الروم، وانتزعوه، وخرّبوه، فهَدَ سيفُ الدولة إليه واسترجعه، وجدّد بناءه، وهزم الروم، ونصب جملةً من جُثَث القتلىٰ علىٰ السور، فنظم أبو الطيّب فى هذا قصيدا أوّله .

عَلىٰ قَدْرِ أهلِ العَزْمِ تأتِى العَزائِمُ

ولما انتهى إلىٰ ذكر الحصن ، جاء بهذا البيت فى جملة أبيات ، فشرح صورة الحال، فى ارتجاع الحصن بالقتال وتعليق القتلىٰ عليه ، وأبرز ذلك فى معنىٰ التمثيل بالجنون والتمائم . وهذا لا يمكن تبديل لفظه، فيجب علىٰ الناثر حسن الصنعة فى حله ونثره . وقد نثره ابن الأثير أيضا فقال سرىٰ إلىٰ حصن كذا مستعيدًا منه سَبِيَّة نزعها العدوّ اختلاسا ، وأخذها مُخادَعة لا افتراسا ، فما نزلها حتّى استقادها ،

ولا نازلها حتّى آستعادها، فكأنما كان بها حنون فبعث لها من عزائمه عزائم، وعلق عليها من رءوس القتلىٰ تمائم، ثم قال وفى هذا من الحسن مالا خفاء فيه . فمن شاء أن ينثر شعرا فلينثرْ هكذا وإلا فليترك . ثم نقله إلىٰ معنى آخر، وأبرزه فى صورة أخرىٰ فأضاف إليه البيت الذى قبله من القصيدة فصار علىٰ هذه الصورة .

بَنَاهَا فأعْلىٰ والقَنَا تَقْرَعُ القَنَا * ومَوْجُ المَنَايَا حَوْلَهَا مُتَلَاطِمُ
وكانَ بِها مِثْلُ الجُنُونِ فأصبَحَتْ * ومِنْ جُثَثِ القَتْلىٰ عليها تَمَائِمُ

ثم نثرهما فقال بناها والأسنة فى بنائها متخاصمه، وأمواج المنايا فوق أيدى البانين متلاطمه، وما أجلَتِ الحربُ عنها حتّى زُلزِلت أقطارها بركْض الجياد، وأُصِيبتْ بمثل الجنون فعُلِّقت عليها تمائمُ من الرءوس والأجساد . ولا شك أن الحربَ تُعرِّد(١) عمن عزّ جانبُه، وتقول ألا هكذا فليَكسِب المجدَ كاسبه . قال وهذا أحسن من الأوّل وأتمّ معنًى . ثم تصرف فيه بزيادة علىٰ هذا المعنىٰ فقال بناها، ودُونَ ذلك البناءِ شَوْكُ الأسَل، وطُوفانُ المنايا الذى لا يقالُ سآوِى منه إلىٰ جبل، ولم يكن بناؤها إلا بعد أن هُدِمت رءوس عن أعناق، وكأنما أصيبت بجنون فعُلِّقت القتلىٰ عليها مكان التمائم أو شِيبت بعَطَل فعُلِّقت مكان الأطواق . قال وهذا الفصل فيه زيادة علىٰ الفصل الذى قبله .

قلت وكما يسعى الإكثار من حفظ الأشعار علىٰ ما تقدّمْ ليوردَها فى خِلال كلامه آستشهادا وتضمينا أو يَحُلّها ويقتبس معانيها فى نثره علىٰ ماتقدم بيانه كذلك يسعى له معرفة المشاهير من الشعراء الطائرى السمعة من شعراء الجاهلية كآمرئ القيس آبن حُجْر، والنابغة الذُّبيانىّ، وطَرَفة بن العَبد، وأَوْس بن حَجَر، وزُهَير آبن أبى سُلمىٰ، والأفوه الأودىّ، والمتلمس، والأعشىٰ، وعلقمةَ بن عَبَدَة، وعمرو

---

(١) أى تفرّ وتحجم يقال عرّد الرجل عن قرنه إذا فرّ ونكل انظر اللسان

ابن كُلْثوم، والمرقِّش، والنمر بن تَوْلب، ومُهَلْهِل، وطُميل العَنَوِيّ، وعُرْوة بن الورد، وقيس بن الخَطِيم، والشمَّاخ بن ضِرار، وعنــترة، والسَّمَوْءل بــن عاديا، ومن جرى مَجْراهم .

ومن المخضرمين، وهم الذين أدركوا الجاهليّة والإسلام جميعا كحسَّان بن ثابت رضى الله عنه، ولَبِيد بن أبى ربيعة، وكعب بن زُهَير، وزيد الخيل الطائى، والنابغة الجعدىّ، وأميَّــة بن أبى الصلت، والحُطَيْئة، وعمرو بن معدى كرب، والزِّبرقان ابن بدر التميمىّ، والعبَّاس بن مِرْداس السُّلَمىّ، والخنساء بنت عمرو بن الشَّريد، ومن فى معناهم .

ومن المولَّدين، وهم الذين وُلِدوا مــن العرب فى الإسلام كالفرزدق، وجرير والأخطل، والقَطامىّ، والكُمَيْت بن زيد الأسدىّ، والمُساوِر بن هند، وعدىّ بن الرِّقاع، وكُثَيِّر عَزَّة، وعُمَر بن أبى ربيعة، والراعى، وابن مُقْبِل، وابن مُفرِّغ، وليلى الأخيليَّة، ومن انخرط فى سلكهم .

ومن المُحْدَثين، وهم الذين أتَوْا بعــد المولَّدين كإبراهيم بن هَرْمةَ، وابن أُذَينة، وأبى نُوَاس، وأبى العَتاهِيَة، وطُفَيل الكنانىّ، وسَلْم الخاسر، وابن مَيَّادة، وصالح ابن عبد القُدّوس، وأبى عُيَيْنة، والعبَّاس بن الأحنف، والعتَّابىّ، وأشجع السُّلَمىّ، والعَكَوّك، وابن أبى زُرْعة الدّمشقىّ، وأبى الشِّيص، والحمدونىّ، والعُتْبىّ، ودِعْبِل الخُزاعىّ، وإسحاق بن إبراهيم المَوْصِــلىّ، وإبراهيم بن إسحاق الموصــلىّ، وأبى علىّ البصــير، وأبى تمَّــام الطائىّ، وأبى عُبَــادة البُحْتُرِىّ، وأبى الطيِّب المتنبى، وابن بسَّام، والسرىّ الموصــلىّ، وأبى الفتح كُشَاجِم، وأبى الفتح البُسْتىّ، وأبى الفرج الببغا، وابن الساعاتى، وابن قلاقِس، والواوا الدِّمَشْقىّ، والعفيف التلمسانىّ، وابنه، وابن سَنَا الملك، وابن شمس الخلافة، وابن النبيه، والصفىّ الحلِّىّ ونحوهم .

ومعرفة الفرسان منهم كامرئ القيس، وخُفاف بن نُدْبة، والزِّبرقان بن بدر وعَنْترة، وعمرو بن معدى كرب، ودُرَيد بن الصِّمَّة .

ومن كان منهم راجلا يسعى على رجليه كسُلَيك بن السُّلَكة، وابن بَرّاقة، وتأبط شرًّا، والشَّنْفرى وغيرهم .

ومن تقدّم منهم فى نوع من الشعر، كمعرفة طفيل الغنوىّ بوصف الخيل، وأمية بن أبى الصلت فى أمر الآخرة وذكر الحرب، وعمر بن أبى ربيعة فى وصف النساء، وعُتَيبة بن مِرْداس بمراكب الإبل، وكُثَيِّر فى الأمثال، والفرزدق فى الأخبار، وجرير فى المعانى .

ومعرفة من هو أكثرهم حفظا كالأغلب الشاعر قيل إنه كان يحفظ أربع عشرة ألف أرجوزة، ومعرفة أىّ القبائل كانت الشعراء فيها أكثر كهُذيل، فقد قيل إنه كان فيها أربعون شاعرا مُفْلِقا كلهم يَعْدُو على رجليه، ليس فيهم فارس، وأىّ قبيلة كان الشعراء فيها أقلّ كشَيْبانَ، وكلب، فقد قيل إنه ليس فى الدنيا قبيلة أقلّ شعراء منهما وإنه ليس لكلب فى الجاهلية شاعرٌ قديم على أنها مثل شيبان أربع مرات .

وقد ذكر ابن رشيق فى "عمدته" عن عبد الله بن سلام الجُمَحىّ وغيره أن الشعر كان فى الجاهلية فى ربيعة فكان منهم مُهَلْهِل بن ربيعة، وهو خال امرئ القيس بن حُجْر، ويقال إنه أول من قصّد القصائد والمُرَقِّشان الأكبرُ والأصغر، وطَرَفة بن العبد، وعمرو بن قَمِيئة، والحارث بن حِلِّزة، والمتلمس، والأعشى، والمسيَّب بن عَلَس وغيرهم، ثم تحوّل الشعر إلى قيس فكان منهم النابغتان الذُّبيانىّ والجَعْدىّ، وزُهَير بن أبى سُلْمى، وابنه كعب، ولبيد، والحطيئة، والشَّمّاخ . ثم استقرّ الشعر فى تميم فكان منهم أوس بن حَجَر، ولم يتقدّمه أحد حتّى كان النابغةُ وزهير فأخملاه .

قلت والمراد أن الشــعر غلب فى هــذه القبائل وظهر فيها، وكان فيها الشعراء المجيدون، وإلا فالشعر موجود فى قبائل العرب قبل ذلك كحِمْير وكَهْلان من اليمن، بل فى عادٍ وثمودَ على ما تشهد به كتب السير والأخبار . فإذا عرف الكاتب ذلك، آســتعان به فى المساواة بمن شاء منهم فى التقريظات والتفضــيل عليه كما كتبت فى تقريظ شاعر فامرؤ القيس يَغْرَق فى مِقْياس معايبـه، والنابغة الذُّبيانِىُّ يقْصُر عن أن يبلغَ مدى شأوه أو يُدانيه، وزُهَيْر يقتطف زَهَرات البلاغة من أفانيـــه، وأوسُ بن حَجَر يَنْسِج على مِنْواله ويأتمُّ بقوافيه، وطُفَيل الغنوىّ يتطفّل على موائد شعره، وطَرَفة بن العبد يقصُر عنه فى شيوع ذِكْره، والأعشى يعشو إلى ضوء ناره، وعمرو بن كُلْثوم يسعى إلى بابه ويقف بفناء داره، وكُثَيِّر فى أمثاله لا يعدّ من أمثاله، وجَرير فى مَفَاخره يتمسك من الفَخَار بأذياله، والفَرَزْدَق فى أوصافه يقلبه ما بين يمينه وشماله، فلو رآه عبدُالملك بن مروان لآختاره على الأخطل، أو آجتمع مع أبى نُوَاس لدى الأمين لقال هذا هو المقدّم الأفضل، أو أدركه أبو تمَّام، لآعترف له بالتمــام، أو نَصُر به أبو عُبَــادة لقال أنا له عبـد وغلام، أو عاصره المتنبى لآعترف بفضله، أو آبن الساعاتى لقال لا يأتى الزمان دون قيام الساعة بمثله . ونحو ذلك ممــا يجرى هذا المجرى .

وكذلك ينبغى أن يعرف مصــطلَح أهــل العروض الذى هو ميزان الشــعر مثل الوَتِد، والسبب، والفاصلة، والعروض، والضرب، وأسماء البحور من الطويل، والمديد، والبسيط، وأحوالها، وألقاب الزحاف كالخَبْــن، والخَبْل، والقبض وغيرها ليـــدخلها تضاعيفَ كلامه عند آحتياجه إلى ذلك كما قال صاحبنا الشيخ زين الدين شعبان الآثارىّ فى أوّل ألفيته فى العروض .

الحمدُ للهِ المليكِ العافِرِ * ذى الطَّوْلِ والفضلِ المديدِ الوافِرِ
سبحانَهُ مادا يقول البارعُ * فى كاملٍ ليس له مُضَارِعُ
ورِزقه فى عَدْله بسيطُ * وعلمه بخلقه مُحِيط

وما ينخرط فى هدا السلك من الكلام المنثور أيضا .

النوع الحادى عشر
(الإكثار من حفظ الأمثال ، وفيه مقصدان)

المقصد الأوّل
(فى وجه ٱحتياج الكاتب إلىٰ ذلك)

اعلم أن الكاتب يحتاج إلىٰ النظر فى كتب(١) الأمثال الواردة عن العرب نثرا ونظما والنظر فى الكتب المصنفة فى ذلك كأمثال الميدانىّ ، والمفَضَّل بن سلمة الضبّىّ ، وحمزة الأصبهانىّ ، وغيرهم . وكذلك أمثال المولَّدين الواردة فى أشعارهم كالأمثال الواردة فى شعر جرير ، والفرزدق ونحوِهما ، إلىٰ غير ذلك من الأمثال الواردة نثرا ونظما ، والنظر فى أمثال المحدَثين الواردة فى أشعارهم كأبى العَتَاهِيَة ، وأبى تمّام ، والمتنبى ، لحكم ما ورد من الأمثال فى شعر المولدين والمحدَثين حكم أمثال العرب الشعرية ، أمّا فى شعر المولدين فلجريهم علىٰ أسلوب العرب ، وركوب جادّتهم ، وأما المحدَثين فللطافة مأخذهم ، وٱستطراف ما يأتون به مما يجرى مجرىٰ النثر والنظم من الأمثال الموضوعة علىٰ ألسنة الحيوان عن العرب وغيرهم ، فيستشهد به فى موضعه ، ويورده فى مكانه عارفا بأصل ذلك وما بُنِى عليه ، وذلك أن المثل له مقدّمات وأسباب قد عرفت ، وصارت مشهوره بين الناس معلومة عندهم ، وهذه

(١) لعل لفظ كتب زائد من قلم الناسخ

الألفاظ الواردة فى المَثَـل دالة عليها، معـبرة عن المراد بها، بأحصَر لفظ وأوجزه، ولولا تلك المقـدّمات المعلومة، والأسـباب المعروفة، لمـا فهم من هـذه الألفاظ القلائل تلك الوقائع المطوّلات، وأما الأمثال الواردة نثرا، فإنها كلمـات مختصرة، تورَد للدلالة علىٰ أمور كلية مبسوطة، كما تقدّمت الإشارة إليه، وليس فى كلامهـم أوجز منها . ولمـا كانت الأمثال كالرموز والإشارة التى يلَوَّح بها علىٰ المعانى تلويحا، صارت من أوجز الكلام وأكثره آختصارا . وحيث كانت بهـذه المكانة لاينبغى الإخلال بمعرفتها، قال صاحب العقد "والأمثال هى وَشْى الكلام، وجوهر اللفظ، وحَلْى المعانى، والتى تخيَّرتْها العرب، وقدّمتها العجم، ونُطق بها فى كل زمان علىٰ كل لسان، فهى أبقىٰ من الشـعر، وأشرف من الخَطابة، لم يَسِرْ شىء كسيرها، ولا عَمَّ عمومَها، حتّى قالوا "أَسْيَرُ من مَثَل"، قال الشاعر

ما أنْتَ إلّا مَثَلٌ سائرٌ يَعْرِفُه الجاهِلُ والخابِرُ

وقد ضرب الله تعالىٰ الأمثال فى كتابه فقال ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُها ثابتٌ وفَرْعُها فى السَّماءِ﴾، وقال تعالىٰ ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لايَقْدِر علىٰ شَىْءٍ وَمَنْ رَزَقْناهُ مِنّا رِزْقًا حَسَنا﴾ الآية، وقال ﴿وضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهما أَبْكَمُ لايَقْدِرُ علىٰ شَىْءٍ وهُوَ كَلٌّ علىٰ مَوْلاهُ أَيْنَما يُوَجِّهْهُ لايَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بالعَدْلِ﴾ الآية، وقال ﴿وضَرَبَ اللهُ مَثَلًا قَرْيَةً كانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً﴾ الآية وقال ﴿وَتِلْكَ الأَمْثالُ نَضْرِبُها للنّاسِ وما يَعْقِلُها إلّا الْعالِمُونَ﴾ إلىٰ غير ذلك من آى القرءان .

وضرب رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الأمثالَ فقال "ضَرَبَ اللهُ مثلًا صِراطًا مستقيما، وعلىٰ جَنْبَىِ الصِّراطِ أبوابٌ مُفَتَّحةٌ، وعلىٰ الأبواب سُتُورٌ مُرْخاةٌ، وعلىٰ رأْسِ الصِّراطِ داعٍ يقول آدْخُلوا الصِّراطَ ولا تَعَرَّجُوا" فالصِّراطُ الإسلامُ، والسُّتُور

حُدُودُ الله ، والأبوابُ محارمُ الله ، والداعى القرءانُ " إلىٰ غير ذلك من الأمثال التى ضربها صلى الله عليه وسلم . ومحل الكلام علىٰ أمثال القرءان وأمثال الرسول صلى الله عليه وسلم، ما تقدّم من الكلام علىٰ القرءان الكريم والأخبار .

ثم هى علىٰ ضربين قريبِ الفهم لظهور معناه ، وكثرة دورانه بين الناس ، وبعيد الفهم لخفائه ، وقلة دورانه بين الناس . فالقريب من الفهم الكثيرالدوران علىٰ الألسنة مثل قولهم ، " عِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ القَوْمُ السُّرىٰ " ، وهو مثل يُضرَب للترغيب فى السير فى الليل، والحث عليه، وأوّل من أرسله مثلا خالد بن الوليد رضى الله عنه ، قاله فى صبح ليلة قطع فيها مفازةً كانت فى طريقه من العِراق إلىٰ الشام، وقولهم "أساءَ سَمْعًا فَأَسَاءَ جابَةً" . وأوّل من قال ذلك سُهَيْل بن عمرو وكان تزوّج صفِيَّةَ بنتَ أبى جهل فولدت له ابنه أنسا ، فرآه الأخنسُ بن شَرِيق الثقفىُّ معه فقال من هذا ؟ فقال سُهَيل ابنى — فقال الأخنس حَيَّاك الله يا بُنَىَّ ! أين أُمُّك؟ فقال لا والله ما أُمِّى ثَمَّ، انطلقَتْ إلىٰ بيتِ أمّ حنْظلةَ تطحَن دقيقا — فقال أبوه أساء سمعًا فأساء جابة — فلما رجعا قال أبوه فَضَحَنى ابنك اليومَ قال كذا وكذا — فقالت إنما ابنى صبىٌّ وأنت لا تحبه — فقال " أشبهَ امرُؤ بعضَ بَزِّه " فأرسلها مثلا .

والبعيد من الفهم، مثل قولهم " إنْ يَبْغِ علَيْكَ قَوْمُكَ لايبغ عليك القَمَر " . وهو مثل يضرب لمن ينكر الأمر الظاهر عِنادا . والأصل فى ذٰلك كما ذكره المفضَّل بنُ سلمَة الضبىّ أن بنى ثعلبة بن سعدِ بنِ ضبَّة فى الجاهلية تراهنُوا علىٰ الشمس ، فقالت طائفة تطلُعُ الشمس والقمرُ يُرىٰ ، وقالت طائفة يغيب القمر قبل أن تطلُع الشمس ، فتراضَوْا برجل جعلوه بينهم حَكَمًا، فقال واحد منهم إن قومى يبغون علىّ ، فقال الحكَم إن يَبْغِ عليك قومك لا يبْغ عليك القمر ، فجَرَتْ مثلا . ومن المعلوم أن قول القائل إن يبغ عليك قومك لا يبغ عليك القمر، إذا أُخذ علىٰ حقيقته

من غير نظر إلىٰ القرائن المنوطة به، والأسباب التي قيل من أجلها، لا يعطى من المعنىٰ ما قد أعطاه المَثَل ، بل ما كان يُفهَم من هذا القول معنًى بعيد لأن البغى هو الظلم ، والقمر ليس من شأنه أن يظلم أحدا، فكان يصير معنى المثل — إن كان يظلمك قومك لا يظلمك القمر— وهو كلام مختل المعنىٰ ليس بمستقيم .

وقد أكثر الناس فى تصنيف كتب الأمثال، فمن ذلك الأمثال لأبى عبيد، وهو مرتب علىٰ ترتيب الوقائع التى تقع فيها الأمثال . ومن ذلك أمثال الميدانىّ ، وهى مرتبة علىٰ حروف المعجم وفى آخرها جملة من أيام حروب العرب، إلى غير ذلك من كتب الأمثال المصنفة فى هذا الباب ، كأمثال الضبىّ، والقمىّ، وغيرها .

وأما الأمثال الواردة نظما، فهى كلمات ٱستُحسِنت فى الشعر . وطابقتْ وقائع عامّةً جاريةً بين الناس ، فتداولها الناس ، وأجروها مجرىٰ الأمثال النثرية . وقد روى أن النبىّ صلى الله عليه وسلم، كان يتمثل بقول طَرَفة .

ويَأْتِيكَ بِالأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ

وهو نصف بيت مجموعه .

سَتُبْدِى لَكَ الْأَيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلًا ۔ وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ

ويروىٰ أنه صلى الله عليه وسلم كان يُخْرِجه عن الوزن، ويُحيله عن طريق الشعر فكان يقول "وَيَأْتِيكَ مَنْ لَمْ تُزَوِّدْ بِالأخبارِ" فرارا من قول الشعر المنزَّه عنه مَقامهُ العلىّ، وشرفه الرفيع ، لكن ثبت فى الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم قال "أَصْدَقُ كَلِمةٍ قالَها شاعر كَلِمةُ لبيد

* أَلَا كُلُّ شَىْءٍ ما خَلَا اللهَ باطلُ * "

والمحرم عليه صلى الله عليه وسلم، إنما هو نظم الشعر دون إنشاده وسماعه . وقد بسطت القول على ذلك فى كتابى المسمّى "بالغيوث الهوامع، فى شرح جامع المختصرات ومختصر الجوامع" فى الفقه فراجعه هناك، ويروىٰ أن عمر رضى الله عنه تمثل بقول النابغة

وَلَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ أخًا لا تَلُمُّــه ، علىٰ شَعَثٍ أىُّ الرِّجالِ المُهَذَّبُ

ثم قال لمن هذا؟ فقيل له للنابغة، فقال ذاك أشعرُ شعرائكم ، والمثل السائر فيه فى قوله أىُّ الرِّجال المهَذَّبُ ، وأمثال ذلك مما تمثل به الصحابة رضوان الله عليهم كثيرٌ، ولذلك وقع فى أمثال المحدثين الواردة فى أشعارهم مايستطرف ويستحلىٰ كقول القاضى الأرّجانى

تَأَمَّلْ مِنْهُ تَحْتَ الصُّدْغِ خَالًا ، لِتَعْــلَمَ كَمْ خَبَايَا فى الزَّوَايَا

يشير بذلك إلىٰ المثل الجارى علىٰ ألسنة الناس فى قولهمْ "فى الزَّوايا خَبَايَا" وهو من الأمثلة المستفيضة علىٰ ألسنة العامّة الشائعة بينهم، وقول آبن عبد ربه .

قالُوا شَأَنُكَ قَدْ وَلّى فقُلْتُ لَهُمْ * هَلْ مِنْ حَدِيدٍ عَلىٰ كَرِّ الجَدِيدَيْنِ؟
صِلْ مَنْ هَوِيتَ وإنْ أبدى مُعَاتَبَةً * فَأَطْيَبُ العَيْشِ وَصْلٌ بَيْنَ إلْفَيْنِ
وَاقْطَعْ حَبَائِلَ خِدْنٍ لا تُلَائِمُــهُ * فرُبَّمــا ضَاقَتِ الدُّنْيَــا بِإثْنَيْنِ .

وقول الآخر

وَعَادَ مَنْ أَهْوَاهُ بَعْدَ القِلَىٰ * شَــقِيقَ رُوحٍ بَيْنَ جِسْمَيْنِ
وأَصْــبَحَ الدَّاخِلُ ما بَيْنَنَــا * كَسَــاقِطٍ بَيْنَ فِرَاشَــيْنِ
قَدْ أَلْبَسَ البَغْضَاءَ مِنْ ذَا وذَا ، لا يَصْلُحِ الغِــمْدُ لِسَــيْفَيْنِ
ما بَالُ مَنْ لَيْسَــتْ لَهُ حَاجَةٌ * يَكُونُ أَنْفًــا بَيْنَ عَيْنَيْنِ؟

قال الأصمعي ولم أجد في شــعر شاعر بيتا أوّله مَثَــل وآخره مثل ، إلا ثلاثة أبيات بيتُ الحطيئة

مَنْ يَفْعَلِ الخيرَ لا يَعْدَمْ جَوازِيَهُ ... لا يَذْهَبُ العُرْفُ بَيْنَ اللهِ والناسِ

و بيتا آمرئ القيس

وأَفْلَتَهُنَّ عِلْبَاءٌ جَرِيضًا ... ولَوْ أَدْرَكْنَهُ صَفِرَ الوِطَابُ

وَقَاهُمْ جَدُّهم بَنِي أَبِيهِـمْ ... و بالأَشْقَيْنَ ما كانَ العِقَابُ

قال صاحب العقد "ومثل هذا كثير في القــديم والحديث، ولا أدري كيف أغفل القديمَ منه الأصمعيُّ، ومنه

* سَتُبْدِي لَكَ الأَيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلًا *

البيت المتقدّم" وهو من أشرف الأبيات وأعظمها بابا .

وأما الأمثال الموضوعةُ على ألســنة الحيوانات، فكما روى أنّ عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه، حين رأى خلاف أصحابه وتخاذُلَهم، تمثل بقولهم "إنّمــا أُكِلْتُ يَوْمَ أُكِلَ الثورُ الأَبْيَضُ" يعني إنمــا خُذِلت يَوْمَ خُذِل عثمان ، وحكاية هذا المثل أنهم قالوا اصطحب أســدٌ، وثور أحمر، وثور أبيض، وثور أســود في أَجَمَة، فقال الأسد للأحمر والأسود هــذا الأبيض يَفْضَــحُنا بلونه ، ويُطْمِع فينا مَنْ يقصِــدنا ! فلو تركتماني آكُلُه، أمِنّا فضيحةَ لونه، فأذِنا له في ذلك فأكله، ثم قال للأحمر هــذا الأسودُ يخالِفُ لوني ولونَكَ ولو بقيتُ أنا وأنت ، ظنّ مَنْ يراك أسدا مثلي فدعني آكُلْه، فسكت عنه فأكله، ثم قال للثور الأحمر لم يبق إلا أنا وأنت، وأريد أن آكلك ! فقال إن كنتَ فاعلا ولا بدّ ، فدعني أصعَدُ تلك الهَضْبة، وأَصيحُ ثلاثة أصوات، فقال افعل ما تريد، فصعد وصاح ثلاثة أصوات "ألا إنّمــا أُكِلْتُ يَوْمَ أُكِلَ الثورُ الأبيضُ" فجرت مثلا .

ويحكى أن عبد الملك بن مَرْوان حج وقدم المدينة ، فقال على المنبر يا أهل المدينة إنكم قُتِل عثمانُ بين أظهركم فنحن لا نحبكم ! وأرسلنا مَسْلمة بن عُقْبة فقتلكم فى وَقْعة الحرّة ، فأنتم لا تحبونا ، فمثلنا ومثلكم كما قال النابغة

كما لَقِيتْ ذاتُ الصَّفَا مِنْ حَلِيفِها ... وكانتْ تُرِيه المالَ غِبًّا وظاهِرَهْ

فَلَمَّا رأى أنْ قَدْ تَثَمَّر مالُه ... وأثَّل مَوْجودًا وسَدَّ مَفَاقِرَهْ

أكَبَّ على فأس يُحِدّ غُرَابَها ... مُذَكَّرةٍ مِنَ المَعَاوِلِ باتِرهْ

فلمّا وَقَاها اللهُ ضَرْبَةَ فأسِه ... ولله عَيْنٌ لا تُغَمِّضُ ناظِرَهْ

فقالَ تَعالَىْ نَجْعَلِ اللهَ بَيْنَنا ... على مالِنا أو تُنْجِزِى لِىَ آخِرَهْ

فقالَتْ يَمِينَ اللهِ أفعلُ إنَّنِى ... رأَيْتُكَ مَسْحُورًا يمينُكَ فاجِرَهْ

أبى لىَ قَبْرٌ لا يَزالُ مُقَابِلِى ... وضَرْبَةُ فأسٍ فوْقَ رَأْسِىَ فاقِرَهْ

وهذه الحكاية مشهورة فى الموضوعات على ألسُن الحيوان ، وهى أن أخوين هبطا بغنمهما واديًا يرعيان فيه ، فخرجتْ حية من تحت الصَّفا وفى فمها دينار فألقته إليهما وأقامت كذلك أياما ، فقال أحدُهما لا بدّ من قتل هذه الحية وأخذ هذا الكنز ! فنهاه أخوه فلم يقبل ، فخرجت فضربها بفأس فى يده ، فشجّها وشدّتْ عليه فقتلته ، فندمه أخوه مُقابَلَها ، فلما خرجتْ قال لها هلْ لكِ أن نتعاهدَ على المودّه وعدم الأذية ، وتعطينى ذلك الدينار كل يوم؟ فقالت لا ! — قال ولم؟ — قالت لأنك كلما نظرت إلى قبر أخيك لا تصفو لى ، وكلما ذكرتُ الشجَّةَ التى فى رأسى لا أصْفُو لك .

المقصــد الثانى

(فى كيفية استعمال الأمثال فى الكتابة)

فإذا أكثر صاحب هذه الصناعة من حفظ الأمثال السائر استعمالها ، انقادتْ إليه معانيها ، وسِيقت إليه ألفاظها ، فى وقت الاحتياج إلى نظائرها من الوقائع

والأحوال ، فأودعها فى مكانها، وآستشهد بها فى موضعها . والطريق فى آستعمالهـا فى النثر، كما فى حل الأشعار وآستعمالهـا، إلا أن الأمثال لا يجوز تبديل ألفاظها ، ولا تغيير أوضاعها لأنها بذلك قد عُرِفت وآشتهرت .

فمما آستعمله أهـل الصناعة من الأمثال المنثورة وأوردوه فى كلامهم قول المقـرّ الشهابى" آبن فضـل الله فى "التعريف" فى وصية أمير مكة المعظمة "ولأنه أحقّ بنى الزّهْراء بمـا أبقتْه له آباؤه، وألقتْه إليه من حديث قُصَىٍّ جدّه الأقصىٰ أبناؤه ، وهو أجدر مَنْ طَهَّر هذا المسجد من أشياءَ تَنَزَّهَ أن يلحق به فُحْش عابها، وشَنْعاءَ هو يعرِف كيف يتتبَّعُها "وأهلُ مَكَّةَ أخْبَرُ بشِعَابها" ، فاستعمل المثل السائر فى قوله وأهـلُ مكة أخبر بشعابها، وقد وقع هذا المثـل فى كلامه أحسن موقع ، وجاء علىٰ أجمل نظام لأنه قد أتىٰ به فى مكانه اللائق به ، ومحله المخصوص بوصفه ، وقد نقله الشيخ جمال الدين بن نُباتة رحمه الله فآستعمله فى غير هـذا المعنىٰ، فجاء منحطًّا عن هذه الدرجة، وقاصرا عن رتبتها، فقال فى وصية خطيب، و وصايا هذه الرتبة متشعبة، وهو كأهل مكة أخبرُ بشِعابِها، وأحْوالها منرتبة، وهو علىٰ كل حال أدرَبُ وأدرىٰ بها، إلا أنه قد طَرَّف بذكرِ الجناس الآشتقاقى" فى قوله متشعبة مع قوله بشعابها.

ومن ذلك قول الشيخ شهاب الدين محمودٍ الحلبى" رحمـه الله فى خطبة تقليد بفتوة عن ملك "ونشهد أن محمداً عبده ورسوله" ، الذى نُورُ شريعته جَلىّ، وجاهُ شَجاعته ملىّ، و بسيفه و به جاء النصر والشرف من آنتمائنا إليه، فلا سَيْفَ إلا ذُو الفقَار ولا فَتَى إلّا علىّ . وهذا علىٰ ماهو شائع علىٰ الألسنة، وأن ذلك قيل فى يوم ضَربَ علىّ رضى عنه كافرا آسْمُه مَرْحَب ، فشقّ البيضه علىٰ رأسه نصفين ، وتمـادىٰ السيف فيه وفى جواده فشقّهُما كذلك وخَلَص السيفُ بينهمافغاص فى الأرض شِبْرَيْنِ، إلا أن المعروف عند المحدّثين وأصحاب السير أن ذا الفقار آسم سيف للنبىّ صلى الله عليه

وسلم ، اصطفاه من خيبر لنفسه حين اصطفى صفيَّة بنت حُيَيّ بن أخطب رضى الله عنها ، ولعله صلى الله عليه وسلم ، أعطاه عليًّا رضى الله عنه بعد ذلك .

ومن ذلك ما ذكرته فى المفاخرة بين السيف والقلم فى الكلام علىٰ لسان القلم وهو "أنا جُذَيْلُها المُحَكَّك ، وعُذَيقها المُرَجَّب ، وكَرِيمها المنجل ، وعالمها المهذب" . فالقرينة الأُولىٰ فيها مَثَلان ، وأوّل من قالها الحُباب بن المنذر الأنصارىّ يومَ السَّقيفة ، حينَ اجتمع الأنصار إلىٰ سعد بن عُبادةَ ، يوم مات النبىّ صلى الله عليه وسلم فى سقيفة بنى ساعدة ، وأرادوا تأميره فذهب إليهم أبو بكر وعمر ، وأبو عبيدة ابنُ الجرَّاح ، وقال الحُباب بنُ المنذر مِنَّا أمير ومنكم أمير ، إلىٰ أن كان من كلامه هذان المثلان[1] . والجُذَيل تصغير جِذْل ، واحد الأجذال ، وهى أصول الشجر العظام ، وكانت العرب إذا جَرِبت الإبل نصبت لها جِذْلا فى باطن الوادى تحتكُّ فيه ، فلذلك قال جُذَيلُها المحكَّك ، أراد أنه يُستَشفىٰ برأيه ، كما تستشفى الإبل بالحك فى ذلك الجِذْل ، والعَذْق بفتح العين النخلة بحملها ، وكان من عادتهم أن النخلة الكريمة يبنى حولها بناء يمنعُها من السُّقوط ، فذلك هو الترجيب ، أراد أنه كريم فى قومه عزيز عليهم . وما ذكرته فى المفاخرة بين السيف والقلم أيضا علىٰ لسان السيف وهو "فالشمس من شُعاعى فى مَحَل ، والليل من صونى فى وَجَل ، وما أسرعتُ فى طلب ثأر إلا قيل فات ما ذُبح ، وسبق السيفُ العَذَل" . ففى القرينة الأخيرة مَثَلان أحدهما "فات ما ذبح" وهو مثل يضرَب لمن طلب الشيءَ بعد فَواته ، وأصله أن بعض الملوك رأىٰ مع أعرابىٍّ باريا ، فأعجبه وأرسل فى طلبه قاصدا ، فأتىٰ الأعرابىّ ولم يكن عنده ما يضيفه به ، فذبح البارى وطبخه وقدّمه إليه ، غير عالم بقصده ، فلما فرغ من أكله ذكر للأعرابى

[1] فى الأصل هذين المثلين ولعله سبق قلم من الناسخ

أمْرَ البـارى وما كان من طلب الملك له ، فقـال "فات مادُبح" إلك أتيتنى ولم يكن عندى ما أضيفك به ، فذبحت البارى وطبخته ، وهو الذى قدّمته إليك .
والمثل الثانى "سَبَقَ السيفُ العَذَلَ" وهو مثل لمن يلوم على فعل شىء بعد وقوعه وفوات أمره .

ومما حُلّ من الأمثال الواردة نظما ، وآستعمل فى النثر ، قول القاضى شهاب الدين آبن فضل الله فى "التعريف" فى وصـية أمير مكة المعظمة أيضا فى الوصية على وُفود الحجيج "وكل هؤلاء إنما يأتون فى ذِمام الله بيته الذى مَنْ دخله كان آمنا ، وإلى محل آبن بنت نبيّه الذى يلزمه من طريق بِرّ الضيف ما أُخِذَ لَهُم ، وإن لم يكن صائما ، فليأخذ بمن أطاع مَنْ عصى ، وليردع كل مفسد ولا سيما العبيد ، فإن العبد لا يردَعُه إلا العصا ، فقوله فإن العبد لا يردعه إلا العصا يشـير به إلى قول آبن دريد فى مقصورته .

وَالَّلومُ لِلحُـــرِّ مُقِيمٌ رادِعٌ . وَالعَبْدُ لا يَرْدَعُه إلَّا العَصَا

وقد آشتهر النصف الثانى من هذا البيت حتى جرى مجرى المثل ولعله كان مثلا سائرا قبل أن ينظمه آبن دُرَيد .

ومنه قول الشيخ جمال الدِّين بن نُباتة رحمه الله من توقيع بنَظَر مدرسة بعد أن قدّم أن أهلها رفعوا قِصَصهم فى طلب ذلك الناظر "وكيف لا وهو نِعْمَ الناظرُ والإنسان ، وفى مصالح القَول والعمل ذو اليدين واللِّسان ، وذو العزائم الذى تقيَّدت فى حُبه الرُّتَب ومن وجد الإحسان" يريد البيت المشهور

وَمَنْ وجَدَ الإحسانَ قيْدًا تَقَيَّدا

وقد أبى فيه بالآكتفاء ، وزاد فى كلامه حُسنا وطَلاوة .

وأعلى منـه وأوقع فى النفوس قوله بعـد ذلك فى التوقيع المذكور "فاقتضى علو الرأى أن يجاب فى طلبه إليهم سُؤالُ القوم ، وأن يتصل أمسُ الإقبال باليوم ، وأن

تبلغ هذه الوظيفةُ أملها فيه، بعد ما مضت عليها من الدهر مِلَاوه، وهذه المدرسة لولا تداركه لكانت كما قال الخراعيّ "مَدارسَ آياتٍ خلَتْ من تِلاوه" .

ومن ذلك قولُ المولىٰ علاء الدين بن غانم فى قَـدْمة بأسم مظفر الدِّين غانم، وقد صَرَع لعلعــة، وآدَّعىٰ بها للملك المؤيد صاحب حماه "الحمد لله الذى ظَفَّر المظفَّرَ بإصابة الواجب من الطير، ووَفَّر من السعادة حظَّ مَنْ أصاب ووافق الصواب فيمن آنتمىٰ إذ تشرف به وتميز علىٰ الغير، وخَفَر من أسراه، إلىٰ مَنْ يُحمَدُ لديه صُبحُ سُراه، إذ يصبحه من بشره وبِرِّه كل خير". أشار فى القرينة الأخيرة إلىٰ المثل السائر من قولهم "عِنْدَ الصَّباحِ يَحمَدُ القَومُ السُّرىٰ" وقد تقدّم أن أوّل من قال ذلك خالد آبن الوليد رضى الله عنه .

ومما آستعمله أهل الصناعة من أمثال المُحْدَثين نثرا قولُ الشيخ جمال الدين بن نباتة رحمه الله فى وصف خطيب من جملة توقيع "ومَنْ إذا قام فريدا عُدّ بألف من فرائد الرجال تُنَظَّم، وإذا أقبل فى سَواد طيلسانه، قيل جاءَ السَّواد الأعظم" فآستعمل المثل السائر فى قولهم السَّواد الأعظم، يريدون الجَمَّ الغفير، وهو من أمثال المُحدَثين، وحسُن ذلك لمناسبة لُبس الخطيب السَّواد علىٰ ما جرت به العادة، وإن كان خلاف السنة كما صرح به الشيخ محيي الدين النووىّ رحمه الله من أصحابنا الشافعية .

ومن ذلك ما ذكرته فى المفاخرة بين السيف والقلم، وهو "وأظهَرَ كل منهما ما كان يُخْفيه، وكتب وأملىٰ، وباح بما يُكِنُّه صدره، والمؤمنُ لا يَكُونُ حُبْلىٰ" .

فاستعملت المثل فى قولهم "المؤمن لا يكونُ حُبْلىٰ" وهو من أمثال المحدثين إلىٰ غير ذلك مما يجرى هذا المجرىٰ . وقد تستعمل أمثال المحدثين فى الشعر أيضا فتحلو ويروق موقعها ويستطرف، كما قال القاضى الأرّجانىّ

تَأمَّلْ مِنهُ تَحتَ الصُّدْغِ خالًا * لِتَعْلَمَ كَمْ خَبَايَا فِى الزَّوَايَا

النوع الثـانى عشر

(معرفة أنساب الأمم من العرب والعجم)

ويحتاج إليـه الكاتب فى المكاتبات لأنه بصدد أن يكتُب عن ملكه إلىٰ أمير قبيلة من العرب، أو ملك أمة من الأمم، فما لم يكن عارفا بأنسابها، كان قاصرا فيما يكتُبه من ذلك . ومن غريب ما وقع فى ذلك أن ملك البَرْنو من ملوك السُّـودان كتب كتابا إلىٰ الأبواب السـلطانية ، بالديار المصرية فى الدولة الظـاهرية برقوق يذكر فيـه أن المجاورين لهم من عَرَب جُذَام قد أغاروا عليهـم وسَبَوْا جماعة من نسائهـم ودراريّهـم وباعوهم بالديار المصرية وما حولهـا ، ثم قال ونحن من ذرّية سَـيْف بن ذى يَزَن العربىّ القرشىّ، فخلط القَحْطانيّة بالعَدْنانيّة، لأن سـيف بن ذى يزن من بقايا التبابعة من حِمْيَر من القحطانيـة، وقريش من العدنانية، وناهيك بذلك عيبا أن لو وقع من كاتب معتبر .

ويشتمل الغرض منه علىٰ ثلاثة مقاصد

المقصـــــد الأوّل

(معرفة عمود النسب النبوىّ من النبىّ صلى الله عليه وسلم إلىٰ آدم، من حيث إن سائر الأنساب تتعلق به وترجع فى القرب والبعد إليه)

وها أنا أورده علىٰ ما أورده ابن إسحاق فى "السـيرة النبوية" علىٰ صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، وتبعه عليه ابن هشـام فى سيرته إذ كانا عمدة فى هذا البـاب .

فأقولُ "هو محمد" رسول الله، بن عبـد الله، بن عبـد المُطَّلِب، بن هاشم ، بن عبد مَنَاف، بن قُصَىّ، بن كِلَاب ، بن مُرَّة، بن كَعْب، بن لُؤَىّ، بن غالب، بن فِهْر، بن مالك، بن النَّضْر، بن كنانة ، بن خُزَيْمـة ، بن مُدْرِكة ، بن إلياس ، بن مُضَر، بن نزار، بن مَعَدّ، بن عدنان، بن أُدَد، بن مُقَوّم، بن ناحور، بن تيرح، بن

يعرب ، بن يشجب ، بن نابت ، بن إسماعيل ، بن إبراهيم الخليل عليهما السلام ابن تارح ، وهو آزر ، بن ناحور ، بن ساروغ ، بن أرغو ، بن فالغ ، بن عابر ، بن شالخ ، بن أرفخشذ ، بن سام ، بن نوح عليه السلام ، ابن لمك ، بن متوشلخ ، بن أخنوخ ، بن يرد ، بن مهليل ، بن قينن[1] ، بن أنوش ، بن شيث ، بن آدم عليه السلام .

قال النووى " والاتفاق على هذا النسب الشريف إلى عدنان ، وليس فيما بعده إلى آدم طريق صحيح " وفيما بعد عدنان ، إلى إسماعيل عليه السلام خلاف كثير ، قال القضاعى فى "عيون المعارف فى أحكام الخلائف" وقد روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال "لا تجاوزوا معد بن عدنان ، كذب النسابون ، ثم قرأ وقرونا بين ذلك كثيرا ولو شاء أن يعلمه لعلمه " قال والصحيح أنه من قول ابن مسعود رضى الله عنه .

المقصد الثانى

(فى أنساب العرب ، وفيه مهيعان)

المهيع الأول

(فى أمور تجب معرفتها قبل الخوض فى النسب)

وأول ما تجب معرفته من ذلك من يقع عليه لفظ العرب ، قال الجوهرى " العرب جيل من الناس وهم أهل الأمصار ، والأعراب سكان البادية ، والنسبة إلى العرب عربى ، وإلى الأعراب أعرابى " والتحقيق إطلاق لفظ العرب على الجميع ، وأن الأعراب نوع من العرب ، ثم اتفقوا على تنويع العرب إلى نوعين عاربة ومستعربة . فالعاربة هم العرب الأول الذين فهمهم الله اللغة العربيـة ابتداء فتكلموا بها . قال

(١) فى القاموس قينان بن أنوش بن شيث

الجوهرى "وقد يقال فيهم العَرب العَرْباء" . والمستعْرِبة هم الداخلون فى العربيّة بعد العجمية . قال الجوهرى "وربما قيل لهم المتَعرِّبة" . وقد آختلف فى العاربة والمستعربة فذهب آبن إسحاق والطبرى إلىٰ أن العاربة هى عادٌ وثمودُ وطَسْم وجَدِيسُ وأُمَيم وعَبِيل والعَمالقة وعَبْد ضَخْم وجُرْهُم الأولىٰ، ومَنْ فى معناهم. والمستعرِبةُ بنو قَحْطان بن عابر بن شالخ بن أرفَخْشد بن سام بن نوح وبنو إسماعيل عليه السلام لأن لغــة عابر وإسمــاعيل كانت سريانية أو عبرانية ، فتعلم بنو قحطان العربية من العاربة ممن كان فى زمانهم كعادٍ ونحوهم، وتعلم إسمــاعيل العربية من جُرْهُم من بنى قحطانَ النازلين علىٰ إسماعيل وأمّه بمكة . وذهب آخرون منهم المؤيَّد صاحب حماه إلىٰ أن بنى قَحْطان هم العاربة ، وأن المستعربة هم بنو إسماعيل فقط، والذى رجحه صاحب العبر الأوّل .

ثم قد قسم المؤرّخون العرب أيضا الى بائده وغيرها ، والبائدةُ هم الذيـــن بادُوا ودَرَسَتْ آثارُهم كعادٍ، وثمودَ، وطَسْم، وجَديس، وغير البائدة هم الباقون فى القرون المتأخرة بعــد ذلك من القَحْطانية كطيئٍ، ولَخْم، وجُذَام ونحوهم، ومن العَدْنانية كقَرارة وسُلَيم وقريش، ومن فى معناهم . ثم قد عدّ الماوردى وغيره طبقات أنساب العرب ست طبقات

الطبقة الأُولى — الشَّعْب بفتح الشين وهو النَّسَب الأبعد الذى تُنْسب إليه القبائل كعَدْنانَ، ويجمع علىٰ شُعوب، وسمى شَعْبا لأن القبائل تتشعَّب منه .

الطبقة الثانية — القَبِيلة ، وهى ما آنقسم فيــه الشعب كربيعه ومضر، وتجمع علىٰ قبائل، وسميت قبيلةً لتقابل الأنساب فيها، وربمــا سميت القبائل جَمَاجِم .

الطبقة الثالثة — العِماره بكسر العيـــن، وهى ما آنقسم فيــه أنساب القبيلة كقُرَيش وكِنانةَ وتجمع علىٰ عَمَائر وعِمَارات .

الطبقة الرابعة — البَطْن وهى ما انقسم فيه أنساب العِمَارة كبنى عبد مناف، وبنى مَخْزوم وتجمع علىٰ بطون وأبطُن .

الطبقة الخامسة — الفَخِذ، وهى ما انقسم فيه أنساب البطن كبنى هاشم، وبنى أُمَيَّة، وتجمع علىٰ أفخاذ .

الطبقة السادسة — الفصيلة — بالصاد المهملة — وهى ما انقسم فيه أنساب الفَخِذ كبنى العَبَّاس وبنى أبى طالب، وتجمع علىٰ فصائل، فالفخذ يجمع الفصائل، والبطن تجمع الأفخاذ، والعمارة تجمع البطون، والقبيلة تجمع العمائر، والشَّعْب يجمع القبائل . قال النووىّ وزاد بعضهم العَشِيرة قبل الفصيلة، قال الجوهرىّ "وعَشِيرة الرجل رَهْطه الأَدْنَوْن" وحكىٰ أبو عبيدة عن ابن الكلبىّ عن أبيه تقديم الشعب علىٰ القبيلة، ثم الفصيلة، ثم العمارة، ثم الفخذ، فأقام الفصيلة مقام العمارة فى ذكرها بعد القبيلة، والعمارة مقام الفصيلة فى ذكرها قبل الفخذ . وبالجملة فأكثر ما يدور علىٰ الألسنة من الطبقات الست المذكورة القبيلة، ثم البطن، وقَلَّ أن تذكر العمارة والفخذ والفصيلة، وربما عَبَّروا عن كل من الطبقات الست بالحىّ، إما بالعموم مثل أن يقال حىّ من العرب، وإما علىٰ الخصوص مثل أن يقال حىّ من بنى فلان .

ومما يجب علىٰ الناظر فى الأنساب أن يعرف عشرة أمور

الأوّل — قال الماوردىّ إذا تباعدت الأنساب، صارت القبائل شعوبا، والعمائر قبائل، يعنى وتصير البطون عمائر، والأفخاذ بطونا، والفصائل أفخاذا، والحادثُ من النسب بعد ذلك فصائلَ .

الثانى — قد ذكر الجوهرىُّ أن القبيلة هم بنو أبٍ واحد، وقال ابن حزم جميع قبائل العرب راجعة إلىٰ أبٍ واحد سوىٰ ثلاث قبائل وهى تَنُوخ، والعُتَق، وغَسَّان

وإن كل قبيـلة منهم مجتمعة من عدّة بطون ، وذلك أن تَنُوخا آسم لعشر قبائل آجتمعوا وأقاموا بالبحرين ، فسُمُّوا تَنُوخ أخذا من التَّنُّخ وهو المُقَام ، والعُتَق جمعٌ آجتمعوا على النبيّ صلى الله عليه وسلم فظفِر بهم فأعتقهم فسُمُّوا بذلك . وغسَّان عدّة بطون من الأزد نزلوا على ماء يسمّى غَسَّان فسُمُّوا به .

الثالث — تخصيص الرجل من رجال العرب بانتساب القبيلة إليه دون غيره من قومه بأن يُشْهَر آسمه فيهم لرياسة ، أو شجاعة ، أو كثرة ولد ، أو غيره فتُنْسَب بنوه وسائر أعقابه إليه ، وربما آنضم إلى النسبة إليه غير أعقابه من عشيرته كإخوته ونحوهم ، فيقال فلان الطائىّ ، وإذا أتى من عقبه مَن آشتهر منهم أيضا بسبب من الأسباب المتقدّمة نُسبت إليه بنوه ، وجعلت قبيلة ثانية ، وإذا آشتمل النسب على طبقتين فأكثر كهاشم ، وقُريش ، ومُضَر ، وعدنان ، جاز لمن فى الدرجة الأخيرة من النسب أن يُنْسب إلى الجميع فيجوز لبنى هاشم أن يُنْسَبوا إلى هاشم ، وإلى قريش ، وإلى مضر ، وإلى عدنان فيقال فى أحدهم الهاشمىّ ، والقُرَشىّ ، والمُضَرىّ ، والعدنانىّ ، بل قال الجوهرىّ إن النسبة إلى الأعلى تغنى عن النسبة إلى الأسفل فإذا قلت فى النسبة إلى كلب بن وَبَرَة الكَلْبىّ آستغنيت أن تنسُبه إلى شىء من أصوله . وذكر غيره أنه يجوز الجمع فى النسب بين الطبقة العُلْيا والطبقة السُّفلى . ثم بعضهم يرى تقديم العُلْيا على السفلى مثل أن يقال القرشىّ العَدَوىّ وبعضهم يرى تقديم السفلى على العليا ، فيقال العدوىّ القرشىّ .

الرابع — قد ينضم الرجل إلى غير قبيلته بالحِلْف والمُوالاة فينسب إليهم فيقال فلان حَلِيفُ بنى فلان أو مَوْلاهم .

الخامس — إذا كان الرجل من قبيلة ثم دخل فى قبيلة أخرى ، جاز أن ينسب

إلى قبيلته الأُولى، وأن ينسب إلى القبيلة الثانية التى دخل فيها ، وأن ينسب إليهما جميعا مثل أن يقال التميمىّ ثم الوائلىّ، أو الوائلىّ ثم التميمىّ وما أشبه ذلك .

السادس — القبائل فى الغالب تسمَّى باسم أبى القبيلة كربيعة ومُضَر، والأَوْس والخَزْرج، وما أشبه ذلك. وقد تسمَّى القبيلةُ باسم الأم كخِنْدَف، وبَجِيلة ونحوهما، وقد تسمَّى باسم حاضنةٍ حَضَنَتْ أصل تلك القبيلة ونحو ذلك . وربما وقع النسب على القبيلة لحدوث سبب كغَسَّان(١) ، حيث نزلوا على ماء باليمن كسعد والحارث وغيرهما .

السابع — أسماء القبائل فى اصطلاح العرب على خمسة أضرب

أوّلها — أن يطلق على القبيلة لفظ الأب كعاد، وثمودَ، ومَدْيَن، ومَنْ شاكلهم، وبذلك ورد القرءان الكريم (وإلى عَادٍ . وإلى ثَمُودَ . وإلى مَدْيَنَ) يريد بنى عاد، وبنى ثمود، وبنى مدْيَن ، ونحو ذلك . وأكثر ما يكون ذلك فى الشُّعوب والقبائل العِظام بخلاف البطون والأفخاذ ونحو ذلك .

وثانيها — أن يطلق على القبيلة لفظ البنوّة فيقال بنو فلان ، وأكثر ما يكون ذلك فى البطون والأفخاذ .

وثالثها — أن يرد ذكر القبيلة بلفظ الجمع مع الألف واللام كالطالبِيِّين والجَعَافِرة ونحوهما، وأكثر مايكون ذلك فى المتأخرين دون غيرهم .

ورابعها — أن يعبَّر عنها بآل فلان كآل ربيعة، وآل فَضْل، وآل مُرّ، وآل على ، وماأشبه ذلك، وأكثر مايكون ذلك فى الأزمنة المتأخرة، لاسيما فى عرب الشام فى زماننا . والمراد بالآل الأهل .

---

(١) كذا فى الأصل ويظهر أن فيه سقطا .

وخامسها — أن يعرعها بأولاد فلان، ولا يوجد ذلك إلا فى المتأخرين من أفراد العرب على قلة كقولهم أولاد زعازع، وأولاد قُريش ونحو ذلك .

الثامن — أسماء غالب العرب منقولة عمّـا يدور فى خزانة خيالهم مما يُخالطونه ويُجاوِرونه ، إما من الحيوان المفترِس كأسَـدٍ ، ونَمِر ، وإما من النبات كنبت ، وحَنْظَلة ، وإما من الحشرات كحَيَّة ، وحَنَش ، وإما من أجزاء الأرض كفِهْر ، وصَخْر ونحو ذلك .

التاسع — الغالب على العرب تسمية أبنائهم بمكروه الأسماء ككَلْب ، وحَنْظَلة ، ومُرَّة ، وضِرار ، وحَرْب ، وما أشبه ذلك ، وتسميةُ عبيدهم بمحبوب الأسماء كفَلاح ونَجاح ، ونحوهما . والمعنى فى ذلك ما حكى أنه قيل لأبى الدُّقَيش الكلابى[1] لِمَ تُسَمُّون أبناءكم بشَرّ الأسماء نحو كلب وذِئب ، وعبيدَكُم بأحسن الأسماء نحو مَرْزوق ورَباح؟ فقال إنمـا نسمى أبناءنا لأعدائنا وعبيـدَنا لأنفُسنا (يريد أن الأبناء مُعدّة للأعداء فاختاروا لهم شر الأسماء، والعبيد معدّة لأنفسهم فاختاروا لأنفسهم خير الأسماء) .

العاشر — إذا كان فى القبيلة اسمان متوافقان كالحارث والحارث ، وأحدهما من ولد الآخر أو بعـده فى الوجود عَبَّروا عن الوالد أو السابق منهما بالأكبر ، وعن الولد أو المتأخر منهما بالأصغر ، وربما وقع ذلك فى الأخوين إذا كان أحدهما أكبر من الآخر .

المهيـــع الثـانى

(فى معرفة تفاصـــيل أنساب العرب)

واعلم أن العرب على قسمين

(١) أهمله فى الاصل وصوابه الإعجام

القسم الأوّل

(العـــرب البـائدة)

وهم الذين بادُوا ، ودَرسَت آثارهم ، وٱنقطعت تفاصيـل أخبارهم إلا القليل ، والمشهور منهم قبائل

القبيلة الأولى — عاد ، وهم بَنُو عادِ بنِ عَوْص بنِ إرَم بنِ سـام بن نوح عليه السلام ، وكانت منازلهم بالأحقاف بين اليمن وعُمَانَ من البحرين إلىٰ حضرموت والشِّحْر . وهم الذين بعث الله تعالىٰ إليهم هُودا عليه السـلام فلم يؤمنوا فأهلكهم بالريح كما ورد به القرءان الكريم .

القبيلة الثانية — ثمود ، وهم بنو ثمود بن جاثر (ويقال كاثر بالكاف بدل الجيم) آبن إرَم بن سام بن نوح عليه السـلام ، وكانت منـازلهم بالحِجْر ووادى القُرَىٰ ، بين الحجـاز والشام ، وكانوا يَنْحِتُون بُيوتَهم من الجبال مراعاةً لطول أعمارهم . بعث الله تعالىٰ إليهم صالحا عليه السلام فلم يؤمنوا ، فأهلكهم الله بصَيْحة من السماء كما ورد به القرءان الكريم .

القبيلة الثالثة — العَمَالقة ، وهم بنو عِمْليق ، (ويقال عِمْلاق) بن لاوَذ بن إرَم بن سام بن نوح ، وهم أمة عظيمة يُضْرَبُ بهم المَثَلُ فى الطول والجُثْمان . قال الطبرى وتفرّقت منهـم أمم فى البلاد ، فكان منهم أهـل عُمَان ، والبحرين ، والحجاز ، وملوك العِراق ، والجزيرة ، وجَبَابرةُ الشام ، وفَرَاعِنَة مصر .

القبيلة الرابعة — طسم ، وهم بنو طَسْم . قال آبـن الكلبى وهم بنو طسم آبن لاوَذ بن إرم بن سام بن نوح عليه السـلام . وذكر الجوهرى أنهم من عاد ،

قال وكانت منازلُهم الأحقافَ باليمن . وذكر فى "العبر" أن ديارَهم كانت باليمامة، وكان هلاكهم بالحرب بينهم وبين إخوانهم جَدِيس الآتى ذكرهم .

القبيلة الخامسة — جَدِيس وهم بنو جَدِيس بن إرمَ بن سام بن نوح . وقال الطبرىّ جَدِيسُ بن لاود بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام ، وكانت مساكنهم بجوار طَسْم المقدَّم ذكرهم ، وكان هلاكهم بالحرب بينهم وبين المذكورين أيضا .

القبيلة السادسة — عَبْد ضَخْم ، وهم بنو عَبْدِ ضخم بنِ إرم بن سام بن نوح . قال فى "العبر" كانوا يسكُنُون الطائف فهلكوا فيمن هلك . قال ويقال إنهم أوّل من كتب بالخط العربىّ .

القبيلة السابعة — جُرْهُم الأولىٰ . قال ابن سعيد وهم قبيلة من العرب كانوا علىٰ عهد عاد فبادُوا .

القبيلة الثامنة — مَدْيَن، وهم بنو مَدْيَن بن إبراهيم عليه السلام ، وهم أمة كبيرة قبائلُ وشُعوب، وكانت ديارهم ديارَ عاد وأرض مَعَان من أطراف الشام مما يلى الحجاز قريبا من عشيرة قوم لُوطٍ[1] بعث الله إليهم شُعَيْبا فلم يؤمنوا .

القســـم الثـانى

(من العرب الباقية أعقابهم علىٰ تعاقُب الزمان)

وأكثر مَنْ تدعو حاجة الكاتب إلىٰ معرفته مَنْ بقى أعقابه منهم متفرّقةً فى أقطار الأرض إلىٰ الآن، وهم علىٰ ثلاثة أضرب

(١) فى بسائط الذهب من أرض قوم لوط فمنه

الضرب الأول

(العــرب العـاربة)

قال الجوهرى ويقال فيهم العرب العَرْباء، وهم بنو قَحْطان، بن عابَر، بن شالَحَ ابن أَرْفَخْشد، بن سام، بن نوح عليه السلام، وهم عرب اليمن. والمشهور منهم شَعْبان.

الشَّعْب الأوّل — جُرْهُم (بضم الجيم وسكون الراء وضم الهـاء) وهم بنو جُرْهُم بن قحطان، وهم غير جُرْهُم الأولىٰ المقدّم ذكرها فى جملة العرب البائدة .

وكانت منازلهم أوّلا اليمنَ، ثم آنتقلوا إلىٰ الحجـاز فنزلوه، فأقاموا به حتى كان من نزول إسماعيل عليه السلام مع أبيه مكة ما كان، فنزلوا عليه بمكة، وآستوطنوها علىٰ ما سيأتى ذكره فى الكلام علىٰ العرب المستعربة إن شاء الله تعالىٰ .

الشَّعْب الثانى — يَعْرُب، وهم بنو يعرُب بن قحطان المقدّم ذكره . ويقال إن العرب إنمـا سُمِّيت عَرَبا به، وهو أصل عرب اليمن الذين أقاموا به ومنه تناسـلُوا فوُلِد له يَشْجُب، وَوَلَد يَشْجُب سَبَأً، ومنه تفرّعت جميع قبائلهم .

ومرجع المشهور فيه إلىٰ قبيلتين

القبيلة الأُولىٰ — حِمْير وهم حِمْيرُ بن سبإٍ (بكسر الحاء وآسمه العَرَنْجَج) . وقد ذكر ابن الكلبىّ أنه كان لحميرٍ عشرة أولاد من عَقِبه وكان غالبُ وجُلُّ قبائل حِمْير من آبنيْـه الهَمَيْسَع، ومالِك ملوك اليمن، وكانت بلادهم مشارقَ اليمــن فظَفارِ وما حولهـا . ولحمير بقايَا موجودُون إلىٰ الآن، ومنه غالب قبائل قُضَاعة، ومنه غالب قبائل حمير، وهو قُضَاعة، بن مالك، بنِ عمرو، بن مُرَّة، بن زيد، بن مالك، بن حِمْير، وقيل قضاعة بن مالك بن حمير . وذهب بعض النَّسَّابة إلىٰ أن قُضَاعة من العَدْنانيَّة الآتى ذكرُهم . قال السهيلىّ والصحيح أن أمّ قُضاعة (وهى حكرة) مات عنها مالكُ

ابن حمير وهى حامل، فتزوجها معدّ بن عدنان، فولدت قُضاعة على فراشه فتسمّاه فنُسب إليه. قال المؤيد صاحب حماه "وكان قضاعة مالكا لبلاد الشِّحْر وقبره بجبل الشِّحْر موجود". ولقضاعة بقايا إلى الآن ينسب إليهم، وإليهم يُنْسب القُضَاعىّ المصرىّ صاحبُ كتاب "الشهاب فى المواعظ والآداب" فى الحديث، وخطط مصر وغيرهما.

والمشهور من قضاعة سبعة أحياء

الحىّ الأول — بَلِىّ (بفتح الباء) وهم بنو بَلِىّ، بن عمرو، بن الحافِ، بن قُضَاعَة، ولهم بَقَايَا بالديار المصرية بصعيدها الأعلى، منهم بنو باب وغيرهم، وبَقَايَا بالبحار وغيرهما، والنسبة إليهم بَلَوِىٌّ بزيادة واو مكسورة قبل ياء النسب.

الحىّ الثانى — جهينة (بضم الجيم وفتح الهاء والنون)، وهم بنو جُهينة، بن زيد، ابن ليث، بن سُود، بن أسلم، بن الحافِ، بن قضاعة، وهى قبيلة عظيمة، ولهم بَقَايَا ببلاد الصعيد من الديار المصرية وبالبحار وغيرهما. والنسبة إليهم جُهَنِىٌّ بحذف الياء بعد الهاء.

الحىّ الثالث — كلب، وهم بنو كلب، بن وَبَرَة، بن ثعلبة، بن حُلْوان، بن عِمْران، ابن الحاف، بن قُضاعة، ومنهم حارثة الكلبىُّ أبو زيدِ بن حارثةَ مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال صاحب حماه وكان بنو كلب فى الجاهلية ينزلون دُومةَ الجندل، وتبوكَ، وأطراف الشام. قال ابن سعيد ومنهم الآن خَلْق عظيم على خليج القُسْطَنْطِينيّة مسلمون. قال فى «مسالك الأبصار» وبَسَيْزَرَ، وحَلَب وبلادها، وتَدْمُر، والمَنَاظر أقوام منهم، والنسبة إليهم كَلْبىٌّ.

الحىّ الرابع — عُذْرةُ (بضم العين المهملة وسكون الدال المعجمة) وهم بنو عُذْرة

ابن سعيد، بن هُذيم، بن زيد، بن ليث، بن سُود، بن أسلم، بن الحافى، بن قضاعة، وإلى عُذْرة هؤلاء ينسبُ العشق والتيمُّ، ومنهم عُرْوة بن حِزَام صاحب عَفْراء أحد المتيَّمين وجَميل صاحب بُثَيْنة . ومن أحسن ما يحكى أنه قيل لرجل منهم ما بالُ العِشق يقتُلكم يا بنى عُذْرة ؟ قال لأنّ فينا جمالا وعِفَّة وقيل لآخر منهم ما بالُ الرجل منكم يموتُ فى هوى امرأة ؟ إنما ذلك ضَعْف فيكم يا بنى عُذْرة — فقال أما والله ! لو رأيتم البواطر الدُّعْج ، تحتَها المَبَاسِمُ الفُلْج ، وفوقَها الحَوَاجِبُ الزُّجُّ ، لاتخذتموها اللّاتَ والعُزّى ، ولهم بقايا بالدَّقَهْلية والمُرْتاحيَّة من الديار المصرية ، وبقايا بالشام أيضا .

الحيّ الخامس — بَهْراء (بفتح الباء الموحّدة وسكون الهاء وألف بعد الراء المهملة)، وهم بنو بَهْراء، بن عَمْرو، بن الحافى بن قُضَاعة، ومنهم جماعة من الصحابة رضوان الله عليهم، منهم المِقْداد بن الأسود، أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . ويقال إن خالدَ بن بَرْمَك من آل بهراء . قال فى العِبَر وكانت منازلهم شمَالىّ منازل بَلِىّ من اليَنْبُع إلى عَقَبة أيلةَ ، ثم جاوز بحرَ القُلْزُم منهم خلق كثير ، وانتشروا ما بين بلاد الحَبَشة وصعيد مصر، وكَثُروا هنالك، وغلبوا على بلاد النُّوبة ، وهم يحاربون الحبشة إلى الآن .

الحيّ السادس — بنو نَهْد، بن زيد، بن ليث، بن سُود، بن أسلَمَ، بن الحافى، بن قُضَاعة، وكانت منازلهم باليمن، وإليهم كتب النبىّ صلى الله عليه وسلم كتابَهُ المشهور، وكان منهم طائفة بالشام أيضا فيما ذكره أبو عبيد . ومن مَشَاهِير نَهْد الصَّقْعَب، قال صاحب حماه وكان رئيسا فى الإسلام .

(١) فى القاموس سعد بن هذيم بدون باء وهو الصواب وهذيم عبد حبشى حضن سعدا فنسب إليه وإلا فهو سعد بن زيد بن ليث فليس زيد جدّا له كما قد يوهم من العبارة فتنبه

الحيّ السابع — جَرْم، وهم بنو جَرْم واسمه عِلَاف، بن رَبَّان، بن حُلْوان، بن عِمْران، ابن الحافى، بن قُضَاعة . قال الحمدانىّ ومنهم بنو حُشَم، وبنو قُدامةَ، وبنو عَوْف . قال فى العِبَر ومنهم جماعة من الصحابة رضى الله عنهم . قلت ووهم القاضى ولىّ الدين بن خلدون فجعلهم هم الذين ببلاد غَزَّة، وقد تقدّم أن أولئك هم جرم طيئ لا جرم قُضَاعة . وعدّ صاحب حماه فى تاريخه منهم تَنُوخ (بفتح التاء المثناة فوق وضم النون وخاء معجمة فى الآخر) قال الجوهرىّ ولا تشدّد نونه، والتحقيق ماقاله أبو عبيد أنهم ثلاثة أبطن من القحطانية نِزار، والأحلاف.[1] قال وسُمُّوا بذلك لأنهم حلفوا على المُقام بمكان بالشام والتَنَّح المُقَام . قال ابن سعيد ومن الناس من يطلق تَنُوخَ على الضَّجاعمة، ودَوْس الذين تنحوا بالبحرين . قال صاحب حماه وكان بينهم وبين اللَّخْميين ملوكِ الحِيَرة حروب، ولتَنُوخَ بقايا بالمعرّة من بلاد الشام فيما ذكره الحمدانىّ .

القبيلة الثانية — من القَحْطانية كَهْلان (بفتح الكاف وسكون الهاء)، وهم بنو كَهْلانَ بن سبإ . قال أبو عبيد وشعوبهم كلها متشعبة من زيد بن كَهْلانَ، وكانوا متداولينَ المُلْكَ باليمن مع بنى حِمْير، ثم انفرد بنو حمير بالملك، وبقيت بطون كهلان على كثرتها تحت ملكهم . قال فى العبر ثم تقاصَرَ مُلْك حمير وبقيت الرياسة على العرب بالبادية لبنى كَهْلانَ، وهم أحياء كثيرة .

والمشهور منهم أحدَ عشر حيًّا

الحيّ الأوّل — الأزد (بفتح الهمزة وسكون الزاى وبالدال المهملة)، قال أبو عبيد ويقال بالسين بدل الزاى . قال الجوهرىّ بالزاى أفصح، وهم بَنُو الأزد، بن الغَوْث، بن نَبْت، بن مالك، بن أُدَد، بن زيد، بن كهلان، وهم من أعظم الأحياء وأكثَرِهم بُطُونا . وقد قَسَّم الجوهرىّ الأَزْد إلى ثلاثة أقسام

(١) أى أسد وغطفان فهما اثنان ونزار الثالث

أحدهما — أزدُ شَنُوءة، وهم بنو نصر بن الأزْد، وشَنُوءة لقب لِنَصْر علَب علىٰ بنيه .

الثانى — أزد السراة، بإضافة أزد إلىٰ السَّراة (بالسين المهملة)، وهو موضع بأطراف اليمن نزل به فرقة منهم فعُرِفوا به .

الثالث — أزْدُ عَمَّان بإضافة أزد إلىٰ عمان (بفتح العين المهملة وتشديد الميم)[1]، وهى مدينة بالبحرين نزلها قوم منهم فعُرِفوا بها . وللأزد بقايا ببلاد الشام بزُرَع وبُصْرىٰ فيما قاله فى "مسالك الأبصار" .

ثم الأزد بطون كثيرة . منها غَسَّان (بفتح العين المعجمة وتشديد السين المهملة ونون فى الآخر)، قال أبو عبيد وهم بنو جَفْنة، والحارثُ وهو مُحَرِّق، وثَعْلبةُ وهو العَنْقاء[2]، وحارثة، ومالك، وكَعْب، وحارجة، وعَوْف بنُ عمرو، بنِ عامرٍ ماء السماءِ، آبن حارثةَ الغِطْريف، بن آمرئ القيس البِطْريق ويقال البُهْلول، آبن ثَعلبة، بن مازن، بن الأزد، وإنما سُمُّوا غسان لماء نزلوا عليه آسمه غَسَّان فشربوا منه فسُمُّوا به . قال فى العبر وهو علىٰ القرب من بلاد اليمن . قال أبو عبيد وفى ذلك يقول بعض الأنصار

إمّا سألْتَ فإنّا مَعْشَرٌ نُجُبٌ * الأزْدُ نِسْبَتُنَا والماءُ غَسَّانُ

ولغسان هؤلاء كان مُلْكُ العرب بالشام بعد سَلِيح المقدّم ذكْرُهم إلىٰ أن كان آخِرَهم جَبَلَةُ بن الأيهم الذى أسلم فى زمن عمر ثم آرتدّ، ولحق ببلاد الكُفْر . وقد ذكر فى «مسالك الأبصار» أن لهم بقايا ببلاد الشام بالبَلْقاء واليَرْمُوك وحِمْص . ومنها الأَوْس والخَزْرَج آبنا حارثةَ، بن ثعلبَةَ، بن عَمْرو مُزَيْقيَا، بن عامرٍ ماءِ السماء، بن حارثةَ الغِطْرِيف، بن آمرئ القيس البِطْريق، بن ثعلبَةَ، بن مازن، بن الأَزْد، وكانت منازلهم

---

(١) هذا الضبط مخالف لما ضبطه الجوهرى بالقلم والقاموس أيضا وضبطه شارحه بالعبارة فقال كغراب بلد بالبحرين وكذا ياقوت وفيه أيضا أن المفتوح المشدّد بلد بأطراف الشام حرر

(٢) لقب بذلك لطول عنقه ووقع فى الأصل بالفاء وهو تصحيف

يَثرِبَ، ومنهم كانت أنصارُ النبيّ صلى الله عليه وسلم، ولهم بَقَايَا كثيرة متفرّقة بالمَشْرق والمَغْرِب . وقد ذكر الحمدانيّ أن منهم جماعة بمَنْفَلُوط من صعيد مصر من عَقِب حَسَّانَ بن ثابت، وسعد بن معاذ سيد الأوْس رضى الله عنهما .

الحيّ الثانى — من كهلان طَيِّئُ (بفتح الطاء وتشديد الياء بهمزة فى الآخر) أخذا من الطاءة على وزن الطاعة وهى الإبعاد فى المرعى، وهم بنو طيئ، بن أُدَدَ ابن زيد، بن يَشْجُب، بن عَرِيب، بن زيد، بن كَهْلانَ، والنسبة إليهم طائىّ، وإليهم ينسب حاتم الطائىّ المشهور بالكرم، وأبو تَمَّام الطائىّ الشاعر المشهورُ، وهم كثير . قال فى العبر وكانت منازلهم باليمن فخرجُوا منها على إثر خُروج الأزد عند تفرّقهم بسيل العَرِم، فنزلوا بنجْد والحجاز على القُرْب من بنى أسد، ثم غلبوا بنى أسد على جبلَىْ أجَأ وسَلْمى من بلاد نجْد، فنزلوهما فعرِفا بجبلَىْ طيئ إلى الآن، ثم افترقوا فى أوّل الإسـلام زمَنَ الفُتُوحات فى الأقطار، ولهم بطون كثيرة . منهم ثُعَلُ (بضم الثاء المثلثة وفتح العين المهملة ولام فى الآخر) وهم بنو ثُعَل، بن عمرو، بن الغَوْث، ابن طيِّئ . قال أبو عبيد ومنهم البيت والعدد . قال صاحب حماه ومنهم زيد الخيل .

ومنها جَدِيلةُ (بفتح الجيم وكسر الدال وسكون الياء وفتح اللام وهاء فى الآخر)، ذكرهم الجوهرىّ ولم يرفع نسبهم، ثم قال وجَدِيلةُ أُمُّهم عرفوا بها وهى جَديلة بنت سُبَيع بن عمرو من حمير .

ومنها نَبْهان (بفتح النون وسكون الباء الموحّدة ونون بعد الألف)، وهم بنو نَبْهان، واسمه سُودانُ، بن عمرو، بن الغَوْث، بن طيِّئ .

ومنها بَوْلانُ (بفتح الباء الموحدة وسكون الواو ونون بعد اللام ألف) وهم بنو بولانَ، واسمه عُصَين، بن عمرو، بن الغَوْث، بن طيِّئ . ومنهم الثلاثة نفر الذين يقال

إنهم وضعوا الخط العربىّ علىٰ ما سيأتى ذكره فى الكلام علىٰ الخط فيما بعد إن شاء الله .

ومنها هِنَاء، وهم بنو هِنَاء، بن عمرو، بن الغَوْث، بن طيئ .

ومنهم إياس بن قَبِيصة الذى ملك بعد النُّعمان بن المنذر .

ومنها سُدُوس (بضم السين والدال المهملتين وسين مهملة فى الآخر) ، وهم بنو سُدُوس بن أصمعَ من بنى سعد، بن نَبْهان، بن عمرو، بن الغَوْث، بن طيئ .

ومنهم جعفر بن عَطِيّة الذى يقول

مَدَحْت نَسِيبى جَعْفَرًا إن جَعْفَرًا * تُحَلِّبُ كَفَّاه النَّدى وأنامِلُه

ومنها سَلَامانُ (بفتح السين المهملة ونون فى الآخر)، وهم بَنُو سَلَامان، بن ثُعَلَ، ابن الغوث، بن طيئ .

ومنها بُحْتُر (بضم الباء الموحدة وسكون الحاء المهملة وضم التاء المثناة فوق وراء مهملة فى الآخر) ، وهم بنو بُحْتُر، بن عَتُود، بن عُنَيْز، بن سَلَامان ، بن ثُعَلَ ، ابن عمرو، بن الغوث، بن طيئ، منهم أبو عُبَادة البحترىُّ الشاعر الإسلامىّ المشهور .

ومنها زُبَيد (بضم الزاى وفتح الباء الموحدة وسكون الياء المثناة تحت ودال مهملة فى الآخر)، وهم بَنُو زُبَيْد، بن مَعْن، بن عَمْرو، بن عُنَيْز، بن سَلَامانَ، بن عمرو، بن الغَوْث، بن طيئ . قال ابن سعيد وزُبَيْد هؤلاء هم الذين بَرِيّة سِنْجار من الجزيرة الفُراتيَّة، وهم الذين ذكرهم المقرّ الشهابىّ بن فضل الله، وسماهم زُبَيد الأحلاف .

ومنها سُنْبُس[1] (بضم السين المهملة وسكون النون وضم الباء الموحدة وسين مهملة فى الآخر) وهم بنو سُنْبُس بن معاوية، بن جَرْوَل، بن ثُعَل، بن عمرو، بن الغوث، بن

(١) ضبطه السويدىّ فى سبائك الذهب فقال بفتح السين وذكر فى القاموس أنه بالكسر وكذلك هو فى الصحاح واللسان بضبط القلم فنبه

طيّ. وقد ذكر الحمدانىّ أن منهم طائفةً بثغر دِمْياط، وأنه كان لهم شأن أيام الخلفاء الفاطميّين، وعدّ منهم ثلاثة بطون وهم الحَرَاعلة، وعبيد، وحُمُوح. والإمرة فى زماننا هذا فيهم، فى الحراعلة، فى بنى يوسف بمدينة سخا من الأعمال الغربية. قال الحمدانى ومنهم طائفة بالبطائح من بلاد العراق.

ومنها جرم (بفتح الجيم وسكون الراء وميم فى الآخر)، وهم بنو ثعلبة بن عمرو، بن الغَوْث، بن طيّ. وقال الحمدانىّ جَرْم آسم أمه غلب عليه وهى جرم بنت الغَوْث ابن طيّ، وهؤلاء هم جرم الذين ببلاد غَزَّة من البلاد الشامية. قال الحمدانىّ وكانوا متفقين مع ثعلبة بالشام على تدافع الفرنج عن المسلمين، فلما فتح السـلطان صلاحُ الدين البلادَ، دخلت طائفة منهم مصر، وبقى بقاياهم بمكانهم ببلاد غَزَّةَ. وقد ذكر الحمدانىّ منهم ثلاثة بطون وهم شمجان، وقمران، وحَيَّان. ثم قال والمشهور من جَرْم الآن حَدِيمة، ويقال إن لهم نسبا فى قريش، وزعم بعضهم أنها ترجع إلى مَخْزُوم، وقيـل بل من حديمة بن مالك، بن حسل، بن عامر، بن لؤى، بن غالب، بن فِهْر. ثم قال وحَدِيمــة هؤلاء هم آل عَوْسَجَة، وآلُ أحمد، وآل محمود. ثم قال ومنهم أسلَم، وشبل، ورصيعة، وبيور، والقدره، والأَحَامدة، والرقثة، وكور، وموقع. ومنهم من بنى عوث العاجلة، والعبادلة، وبنو تمام، وبنو حميل، وبنو مقدام، وآل نادر. ومنهــم من بنى عَوْث بنو نها، وبنو حولة، وبنو هرماس، وبنو عيسى، وبنو سهيل، وأرضهم الداروم، وجاورهم قوم من زبيــد يعرفون بنى فهيد. ثم آختلطوا بهم.

ومنها ثعلبة، وضبطه معروف، وهم بنو ثَعْلَبَة بن سَلَامان، بن ثُعَل، بن عمرو، بن الغوث، بن طيّ، وهم زغْبان دَرْما وزريق، آبنى عَوْف بن ثعلبة، وقيل آبنا ثعلبة وآسم دَرْما عمرو، ودرما آسم أمه غلب عليه. قال الحمدانى وكانوا مع جرم بالشام يدا مع

الفرنج على المسلمين، فلما فتح السلطان صلاح الدين البلاد انتقلت طائفة منهم إلى مصر ونزلوا أطراف البلاد الشرقية، فمن بطون جرما سلامة، والأحمر، وعمرو، وقصير، وأويس، وشبل، والحمائلة، والمراونة، والحيانيون، ومن بطون زريق بها بنو وهم والطليحيون، ومن الطليحيين آل نجاح، وآل عمران، وآل حفصان، والمصالحة، ومن بنى زريق أيضا الصبيحيون. ومن الصبيحيين العيوث، والزموت، والروايات، والنمورة، والشمحيون، والسعالى، والرمالى، والمعامرة، والسنديون، والنحاحة، والعقيليون، والمساهرة، والمعافرة، ومنهم أيضا العليميون. قال الحمدانى وكان مقدمهم قديما عمرو بن عسيلة أمر بالبوق والعلم. ومن العليميين القمعة، والرياحيين، والعوفة. قال الحمدانى وكان فيهم رجال ذوو ذكر ونباهة، خدموا الدول، وعضدوا الملوك، وقاموا ونصروا. ومنهم من أمر بالبوق والعلم. ومن بطون ثعلبة هؤلاء أيضا الجواهرة.

ومنها غزية (بفتح العين المعجمة وكسر الزاى وتشديد الياء المثناة تحت وهاء فى الآخر)، وهم بنو غزية بن أفلت، بن ثعل، بن عمرو، بن سلامان، بن ثعل، بن عمرو، بن الغوث، بن طيئ. قال الحمدانى وهم بالشام والعراق والحجاز، وفيما بين العراق والحجاز. قال فى العبر وفيهم الإمارة فى العراق إلى الآن ولهم صولة عظيمة. وهم بطون كثيرة فمن بطونهم البطين، وأفخاذهم، آل دعيج، وآل زوق، وآل ربيع، وآل سرية، وآل مسعود، وآل تميم، وآل شرود. ومن بطونهم الأجود وأفخاذهم آل مبيع، وآل سبيد، وآل مال، وآل أبى الحرم، وآل على، وآل عقيل، وآل مساور. هذا ما ذكره الحمدانى. وزاد فى مسالك الأبصار عن نصر بن جحش المشرقى، وأولاد الكافرة، وساعدة، وبنى حميل، وآل أبى مالك. قال فى "المسالك" وديار

آل أحود مهم الرحيمية، والرقى، والفردوس، ولبة، والحدق . وديار آل عمرو بالحوف . وديار بقاياهم النصيف، والكس، واليحموم، والأم، والمعينة . ويليهم ساعدة وديارهم من الحصر إلى برية ررود، إلى سقارة، إلى النقعاء، إلى التيب، إلى الساسة، إلى حصر .

ومنها لام . وهم بنو لام بن عمرو، بن طَرِيف، بن عمرو، بن تحيلة، بن مالك، بن حَذْعاء، بن دُهْل، بن رُومان، بن حُنْدَب، بن حارحة، بن سعد، بن قَطرة، بن طيئ . قال ابن سعيد ومساكنهم المدينة النبوية وما حولها . وقال الحمدانى ديارهم حبل أجأ وسلمى . ثم قال وطَفِير من لام، ومنازلهم الطعن قبالة المدينة النبوية، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام .

ومنها آل ربيعة، عرب الشام . وهم بنو ربيعة، بن حازم، بن على، بن مفرج، بن دَغفل، بن حراح، بن شبيب، بن مسعود، بن سعيد، بن حَرْب، بن السّكن، بن ربيع، ابن عَلْقى، بن حَوْط، بن عمرو، بن حالد، بن مَعْبَد[1]، بن عدى، بن أفلت، بن سلسلة، بن عم، بن ثوب، بن مَعْن، بن عَتُود، بن عُنَيْن، بن سَلَامان، بن ثُعَل، بن عمرو، بن الغَوْث، ابن طيئ . قال فى "مسالك الأبصار" وتقول بنو ربيعة الآن إنهم من ولد جعفر ابن يحيى، بن حالد، بن بَرْمك من العَبَّاسة بنت المهدى، أخت الرشيد، ويزعمون أنه كان يحضر مع الرشيد مجلسه الخاص وأنه كلمه فى ترويجها ليحلّ له نظرها لاجتماعهما بمجلسه فعقد له عليها بشرط أن لا يطأها، فعافها على حين غفلة من الرشيد، فحملت منه بولد كان ربيعة هذا من ولده . قال ويقولون فى نسبه إنه ربيعة بن سالم، ابن شبيب، بن حازم، بن على، بن جعفر، بن يحيى، بن حالد، بن برمك، ويزعمون أن نكبة البرامكة كانت بسبب ذلك . ثم قال وأصلهم إذا نسبوا إليه أشرف لهم .

(١) فى العبر ابن معبد بن عمرو .

لأنهم من سلسلَةَ بن عُنَير، بن سلامان، بن طيئ، وهم كرام العرب وأهل البأس والنجدة، والبرامكة وإن كانوا قوما كراما فإنهم قوم عجم وشتّانَ بين العرب والعجم، وقد شرف الله تعالىٰ العرب أن بعث منهم محمدا صلى الله عليه وسلم، وأنزل فيهم كتابه، وجعل فيهم الخلافة والملك، وأنتزّ لهم ملك فارس والروم، ونزع بأسنتهم تاجَ كسرىٰ وقيصر، وكفىٰ بذلك شرفا لا يُطاوَل، وفخرا لا يُتناوَل . وذكر فى "التعريف" نحوه قال فى العبر وكانت رياسة طيئ فى أيام الفاطميّين لبنى الجرّاح، ثم صارت لآل ربيعة. قال الحمدانىّ وكان ربيعة هذا قد نشأ فى أيام الأتابك زنكى وابنه نورالدين الشهيد صاحب الشام ونبغ بين العرب وولِد له أربعة أولاد وهم فضل، ومرا، وثابت، ودغفل، ومنهم تفرّعت بطون آل ربيعة . ثم المشهور من آل ربيعة الآن ثلاثة بطون وهم آل فضل، وآل مرا، وآل علىّ فآل فضل هم بنو فضل بن ربيعة وآل مرا بنو مرا بن ربيعة . وأمّا آل علىّ فمن آل فضل، وهم بنو علىّ بن حَديثة، بن عُقْبة بن فضل المقدّم ذكره، وقد صارت آل فضل أيضا بعد ذلك بيوتا أرفعها قدرا بيتُ عيسىٰ بن مُهَنّا، بن مانع، بن حديثة، بن عقبة، بن فضل . قال فى "مسالك الأبصار" وفيهم الإمرة دون سائر آل فضل . قال. ثم صار آل عيسىٰ بيوتا، بيت مهنا بن عيسىٰ، و بيت فضل بن عيسىٰ، و بيت حارث بن عيسىٰ، و بيت محمد ابن عيسىٰ، و بيت هبة بن عيسىٰ. وسيأتى الكلام علىٰ تقسيم الإمرة فيهم فى الكلام علىٰ عرب الشام فى المسالك والممالك إن شاء الله .

الحىّ الثالث — من كهلان مَذْحِج (بفتح الميم وسكون الدال المعجمة وكسر الحاء المهملة وجيم فى الآخر)، وهم بنو مَذْحِج واسمه مالك، بن أُدَدَ، بن زيد، بن يَشْجُب، ابن عَرِيب، بن زيد، بن كهلان هكذا قاله أبو عبيد، وقال الجوهرىّ مَذْحِج

آبنُ يُحابر، بن مالك، بن زيد، بن كهلان. وقد ذكر الحمدانيّ أنهم إنما سمّوا مَذْحج لشجرة تحالَفُوا عندها آسمها مَذْحِج، فسُمُّوا باسمها . ثم لمدحج بطون كثيرة

منها خَوْلان، (بفتح الخاء المعجمة وسكون الواو ونون بعد اللام ألف)، وهم بنو خَوْلانَ بن مالك، وهو مَذْحِج وإليهم ينسب أبو إدريس الخَوْلانيّ . قال في العبر وبلاد خَوْلانَ في بلاد اليمن من شرقيّه، قال وقد آفترقوا في الفتوحات، وليس منهم اليوم ذرّية إلا باليمن، ثم قال وهم غالبون على أهله .

ومنها جَنْب (بفتح الجيم وسكون النون وباء موحدة في الآخر)، وهم بنو مُنَبِّه، والحارث، والعلى، وسنحان، وشمران، وهفان بن يزيد، بن حرب، بن عِلَّةَ، آبن خَلْد، بن مَذْحِج . قال أبو عبيد وسُمُّوا بجنب لأنهم جانبوا عَمَّهم صُدَاءً، وحالفوا سعدَ العشيرة، وحالفت صُدَاءُ بنى الحارث بن كعب . ومن جَنْبٍ معاوية الخير الجنبيّ صاحب لواء مَذْحِج في حرب بنى وائل .

ومنها سعد العشيرة، وهم بنو سعد العشيرة بن مَذْحِج، وسُمِّى بذلك لأنه لم يمت حتّى ركب معه من وَلَده وولَد وَلَده ثلثُمائة رجل، فكان إذا سئل عنهم يقول هؤلاء عشيرتى دفعا للعين عنهم، فقيل له سَعْد العشيرة . ثم من بُطون سعد العشيرة أَوْد (بفتح الهمزة وسكون الواو ودال معجمة(١) في الآخر)، وهم بنو أَوْد بن صَعْب بن سعد العشيرة، وإليهم ينسب الأفوه الأوديّ الشاعر المشهور . ومن بطون سعد العشيرة أيضا جُعْفِيّ (بضم الجيم وسكون العين المهملة وكسر الفاء وياء مثناة تحت في الآخر) وهم بنو جُعْفِيّ بن سعد العشيرة والنسبة إليهم جُعْفِيّ على مثل لفظه، وإليهم ينسب الإمام البخاريّ بالمُوالاة، فيقال الجُعْفِيّ مولاهم . ومن بطون سعد

(١) صوابه ودال مهملة آنظر القاموس وشرحه في مادة أود على أنه لم يوجد مادة أود بالمعجمة فيما بأيدينا من المعاجم فتنبه

العشيرة زُبَيْد (بضم الزاى وفتح الباء الموحدة وسكون الياء المثناة تحت ودال مهملة فى الآخر)، وهم بنو مُنَبِّه بن صَعْب بن سعد العشيرة، وتُعرف بزبيد، هؤلاء زُبَيْد الأكبر، وهم زبيد الحجاز. قال فى مسالك الأبصار وعليهم دَرَك الحاجّ المصرىّ من الصَّفراء إلىٰ الجحفة ورابغ. ومن زُبَيْد هؤلاء بطنٌ تعرف بزُبَيد الأصغر، وهم بنو مُنَبِّه الأصغر بن ربيعة بن سَلَمَة بن مازن بن ربيعة بن مُنَبِّه الأكبر. قال أبو عبيد ومن زُبَيْد هؤلاء عمرو بن معدى كرب.

ومنها النَّخْع (بفتح النون وسكون(١) الخاء المعجمة وعين مهملة فى الآخر)، وهم بنو النخع واسمه جَسْر بن عمرو بن عِلَّة بن جَلْد بن مَذْحِج. قال أبو عبيد وسمى النَّخع لأنه انتخع عن قومه أى بَعُد، ومنهم الأشتر النَّخعِىُّ أحد تابعى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو الذى ولاه أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه مِصْر، وكتب له بها عهدا علىٰ ماسيأتى ذكره فى الكلام علىٰ العهود عند ذكر الولايات فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ. وإليهم ينسَب إبراهيم النَّخعىُّ الإمام الكبير المشهور.

ومنها عَنْس (بفتح العين المهملة وسكون النون وسين مهملة فى الآخر)، وهم بنو عَنْس بن مذحج، منهم عَمَّار بن ياسر الصحابىُّ المشهور، وإليهم ينسب الأسود العنسىُّ الكَذَّاب، الذى أخبرَ النبىُّ صلى الله عليه وسلم بخروجه وادَّعى النبوّة باليمن بعد ذلك.

ومنها بنو الحارث، ويقال بَلْحارِث بن كعب، وهم بنو الحارث بن كَعْب بن عمرو بن عِلَّة بن جَلْد بن مذحج. قال فى "العبر" وديارهم بنواحى نَجْرانَ من اليمن مجاورُون لبنى ذُهْل بن مُرَيقياء، منهم بشِير الحارثىُّ الذى قدم علىٰ النبى صلى الله عليه وسلم فقال له ما اسمك قال أكبر، قال بل أنت بشِير.

---

(١) الذى فى القاموس النخع بالتحريك قبيلة وفى المصباح والنخع بفتحتين قبيلة من مذحج فليحرر.

الحيّ الرابع — من بني كَهْلان هَمْدانُ (بفتح الهـاء وسكون الميم ودال مهملة ثم ألف ونون)، وهم بنو هَمْدان، بن مالك، بن زَيْد، بن أوْسَلَة، بن رَبِيعَة، بن الخِيَار، ابن زيد، بن كَهْلان، . قال في "العبر" وكانت ديارهم باليمن من شَرقيّه، ولما جاء الإسلام تفرّق من تفرّق منهم، وبقي مَنْ بقي باليمن . قال وكانت هَمْـدانُ شيعةً لأمير المؤمنين عليّ كرم الله وجهه عنـد وُقُوع الفتن بين الصحابة ، وفيهم يقول رضي الله عنه

فَلَوْ كُنْتُ بَوّابًا علىٰ بابِ جَنَّةٍ ، لَقُلْتُ لِهَمْدَانَ ٱدْخُلِي بِسَلَام

قال في "مسالك الأبصار" وبالجبل المعروف بالطيّبين من الشام فرقة من همدان.

الحيّ الخـامس — من بني كهلان كِنْدة (بكسر الكاف وسكون النون وفتح الدال المهملة وهاء في الآخر)، وهم بنو كِندة، وٱسمه ثَوْر، بن عُفَير، بن عَدِيّ، بن الحارث، بن مُرّة، بن أدد، بن زيد، بن يَشْجُب، بن عَرِيب، بن زَيْد، بن كَهْلان. قال صاحب حماة وسمي كِنْدة لأنه كند أباه أي كَفَر نعمته . قال وبلادهم باليمن قِبَليّ حَضْرَمَوْتَ، وكان لهم مُلْك بالحجاز واليمن، ومنهـم الأشعثُ بن قَيْس الصحابيّ المشهور ، ومنهـم أيضـا القـاضي شُرَيْح قاضي عليٍّ رضي الله عنـــه . وقد ذكر في "مسالك الأبصار" أن باللِّوَىٰ من بلاد الشام قوما ينسبون إلىٰ كِنْـدة ، ولهم بطون منها السُّكُون (بضم السين المهملة والكاف ونون بعد الواو)، وهم بنو السُّكون ابن أَشْرَس بن كِنْدة ، ومنهم معـاوية بن حُدَيْج قاتلُ محمـد بن أبي بكر الصـدّيق رضي الله عنهما، وعدّ منها صاحب حماة السَّكاسِك أيضا (بفتح السين الأولىٰ وكسر الثانية)، والذي ذكره أبو عبيد أنه من حِمير، وقال هم بنو السَّكَاسِك بن واثلةَ بن حمير . قال الجوهريّ والنسبة إلىٰ السَّكاسك سَكْسَكِيٌّ ردًّا له إلىٰ أصله كما يُنسب إلىٰ مساجد مَسْجِديّ .

الحيّ السادس — من بنى كَهْلان مُرَاد (بضم الميم وفتح الراء المهملة ودال مهملة بعد الألف)، وهم بنو مرادِ، بن مالك، بن أُدَدَ، بن زيد، بن يشجُب، بن عَرِيب، ابن زيد، بن كَهْلان، قال الجوهرىّ ويقال إن اسمه يُحابِر فتمرّد فسمى مُرَادا . وجعلهم فى العبر بطنا من مَذْحِج ، فقال مراد بن مذحج . قال صاحب حماه وبلادهم إلىٰ جانب زَبِيدَ من بلاد اليمن، قال وإلىٰ مراد هذا ينسب كل مُرادىّ من عرب اليمن .

الحىّ السابع — من بنى كهلان أنمارٌ (بفتح الهمزة وسكون النون وفتح الميم وراء مهملة بعد الألف)، وهم بنو أنمار، بن أراش، بن عمرو، بن العوث، بن نَبْت، بن مالك، بن زيد، بن كَهْلان . ولهم بطنان — الأولىٰ بَجِيلَةُ (بفتح الباء الموحدة وكسر الجيم وسكون الياء المثناة تحت وفتح اللام وهاء فى الآخر)، وهم بنو عَبْقَر، والغوثُ، وصُهَيبة، وحَزِيمة[1] بن أنمار، بن أراش . قال أبو عبيد وبجيلة أمهم، عُرِفوا بها — وهى بجيلةُ بنت صَعْب بن سعد العشيرة، قال فى العبر وكانت بلادهم فى سَرَوات اليمن والحجاز إلىٰ تَبَالة . ثم افترقوا أيام الفتح الإسلامىّ فى الآفاق، فلم يبق منهم فى مواطنهم إلا القليل ، قال الجوهرىّ ويقال إنهم من العَدْنانية ، لأن نزار بن معدّ بن عدنان وُلِد له مُضَرُ وربيعة وإياد وأنمار ، وولد لأنمار بجيلة وخَثْعم فصاروا إلىٰ اليمن ، وإلىٰ بجيلة هؤلاء ينسب جَرِير بن عبد الله البجلىّ، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان جميلا فائق الجمال، حتّى إنه كان يقال له يُوسُف الأمة، وفيه يقول بعض الشعراء يمدحه

لَوْلَا جَرِيرٌ هلَكَتْ بَجِيله * نِعْمَ الفتىٰ وبِئْستِ القَبِيله

الثانيــة — خَثْعَم (بفتح الخاء المعجمة وسكون الثاء المثلثة وفتح العين المهملة وميم فى الآخر)، وهم بنو خَثْعم بن أنمار بن أراش المقدّم ذكره ابن هِنْد بنت مالك

(١) بفتح الحاء المهملة وكسر الزاى كما ضبطه كذلك فى سبائك الذهب

آس العاتِق بن الشاهد بن عد ، وفيهم مثـل ماتقدّم من كلام الجوهرى فى الكلام علىٰ بَجيـلة أنهم من العدنانية لأن خَثْعَم وبجيـلةَ يرجعون إلىٰ أنمـار . وكانت مساكنهم مع إخْوتِهم بجيـلة سَرَوات اليمن فافترقوا فى الفتوحات الإسـلامية ، فلم يبق منهم فى مواطنهم إلا القليلُ . ومن خَثْعم هؤلاء أَكْلُب (بفتح الهمزة وسكون الكاف وضم اللام وباء موحدة فى الآخر) ، وهم بنو أكْلُب ، بن عُفَير ، بن حَلَف[1] ، بن خَثْعم . قال أبو عبيد ويقال إن أكلب من رَبيعة بنِ نزار . قال الحمدانىّ وهم بطون كثيرة ، ومنازلهم بِبِيشةُ ، شرقىَّ مكة المشرفة . ومن خثعم أيضا بنو مُنَبِّه والفَرْع ، وبنو نَصْـلة ومعاوية ، وآل مهـدىّ ، وبنو نصر ، وبنو حام ، والورد ، ونادر ، وآل الصعافير ، والشيماء ، وبلوس ، قال الحمدانىّ ومنازلهم علىٰ القرب من بِيشـةَ شرقىّ مكة أيضا .

الحىّ الثـامن — من بنى كهلان جُذَام (بضم الجيم وفتح الدال المعجمة وألف ثم ميم) ، وهم بنو جُذَام ، بن عَدِىّ ، بن الحـارث ، بن مُرَّة ، بن أُدَد ، بن زيد ، آبن يشجُب ، بن عَرِيب ، بن زيد ، بن كَهْلان ، هذا ماذكره أبو عبيد وجعلهم صاحب حمـاه فى تاريخه من ولد عمرو بن سبإ . قال الجوهرى ، وتزعم نسابة مُضَر أنهم من مُضَر يعنى من العدنانية ، وأنهم آنتقلوا إلىٰ اليَمَن فنزلوها ، فحُسِبوا من اليمن ، وآستشهد له بقول الكُمَيت يذكر آنتقالهم إلىٰ اليمن بانتسابهم فيهم

نَعَاءِ جُذَامًا غيرَ مَوْتٍ ولا قَتْلِ * ولكنْ فِرَاقًا للدَّعائم والأَصْلِ

وآستشهد له الحمدانى أيضا بقول جُنَادة بن خَشْرم الجُذامىّ

وَمَا قَحْطَــانُ لِى بأبٍ وأمٍّ * ولا تَضْطادُنِى شُبَه الضَّلال

وَلَيْسَ إليهـــمُ نَسَبى ولكِنْ * مَعَــدِّيًّا وجَدْتُ أبِى وخَالى

---

(١) كذا فى الأصل . وقال فى سبائك الذهب « حلف بفتح الحاء المهملة بنوه بطن من خثعم » .

قال الحمدانى ويقال إنهم من ولد أعصر[١] بن مدين بن إبراهيم عليه السلام، واستشهد لذلك بما رواه محمد بن السائب أنه وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد جذام، فقال "مرحبا بقوم شعيب وأصهار موسى". قال صاحب حماة وكان فيهم العدد والشرف. قال الحمدانى وهو أول من سكن مصر من العرب حين جاءوا فى الفتح مع عمرو بن العاص رضى الله عنه، وأقطعوا فيها بلادا بعضها بأيدى بنيهم إلى الآن. وكان لجذام ولدان هما حشم (بكسر الحاء المهملة وسكون الشين المعجمة وميم فى الآخر)، وحرام (بفتح الحاء والراء المهملتين وألف ثم ميم)، ومن ولد حشم عتيت (بفتح العين المهملة وكسر التاء المثناة فوق وسكون الياء المثناة تحت وتاء مثناة فوق فى الآخر) وهم بنو عتيت[٢] بن أسلم، بن مالك، بن شنوءة، بن تديل، بن حشم بن جذام. قال أبو عبيد وهم اليوم ينتسبون فى بنى شيبان، ويقولون عتيت[٢] بن عوف بن شيبان. قال وإليهم تنسب حفرة عتيت[٢] بالبصرة، قال الجوهرى أغار عليهم بعض الملوك فسبى الرجال، فكانوا يقولون إذا كبر صبياننا لم يتركونا، حتى يفتكوا، فلم يزالوا عنده حتى هلكوا فضرب لهم العرب مثلا فقالوا أودى عتيت[٢]، وفى ذلك يقول الشاعر

ترجيها وقد وقعت بقر * كما ترجو أصاغرها عتيت[٢]

ثم لجذام الآن بطون كثيرة متفرقة فى الأقطار، منهم بالشرقية من الديار المصرية من بنى زيد بن حرام بن جذام، وبنى مخرمة بن زيد بن حرام بن جذام. فأما بنو زيد فمنهم بنو سويد، وبعجة، وبردعة، ورفاعة ووائل، من بنى زيد بن حرام بن جذام، فمن ولد سويد هلبا سويد، وهم بنو هلبا بن سويد بن زيد بن حرام

(١) فى سبائك الذهب نعمر (٢) كذا رسم فى السبائك أيضا وهو بالباء الموحدة فى الصحاح والقاموس وأنشد الأول البيت بالباء الموحدة ومثله فى ياقوت فتنبه

آل حُدَام . قال الحمدانى . ومنهم العَطويون، والحاريُّون ، والعَتَاورة، وحَمْدان ، ورُومان ،وصمران ،وأسود . والحميديون ،ومن الحميديّين ،أولاد راشد ،ومنهم البراحسة ، وأولاد يبرين والحَرَاشة، والكعوك ،وأولاد عامر ،وآل حمود ،والأحيوه ،والزرقان ، والأساورَة ، والحمـاريون . ومن بنى راشد أيضا الحَرَاقيص ، والحَنافيس ، وأولاد عالى ، وأولاد حَوَّال ، وآل زيد ، ومن السحابية أولاد نجيب وبنو فضيل .

ومن هَلْبا سُوَيد أيضا بنو الوليد ، وهم بنو الوَليد بن سُوَيد المقدّم ذكره . ومنهم الحَيَادرة ، وهم بنو حَيْـدَرَة ، بن يعرب ، بن حبيب ، بن الوليد ، بن سُويد . قال الحمدانى وهم طائفة كبيرة ، ومنهم بنو عمارة ، وهو عمـارة بن الوليد . ومنهم عدد ، والحَبّيون وهم بنو حبة بن راشـد بن الوليد . ومن ولد الوليد بن سُوَيد المذكور طريف بن نكتوت الملقب زين الدولة ، كان من أكرم العرب ، وكان فى مصـيفته أيامَ العـلاء اثنا عشر ألفا تأكل عـنده كل يوم ، وكان يَهْشِم الثريد فى المراكب ، ومن أولاده من أُمِّرَ بالدوق والعَلَم ، وعدّ من أحلافهم أولاد الهوبرية ، والرداليين ، والحليفيـين ، والحصيبيين ، والزُبيعيـين ، وهم أولاد شريف السحايين ، وذكر الحمدانىّ أن لهم نسبا فى قريش إلى عبد مناف ، بن قُصَىّ . ومن هلبا سويد هؤلاء هلبا مالك ، وهم بنو مالك بن سويد ، ومن هلبا مالك بنو عبيـد وهم بنو عبيد بن مالك ، ومن بنى عُبَيد المـذكور الحَسَنِيُّون ، وهم بنو الحسن بن أبى بكر بن مَوْهُوب بن عبيد ، والعَوَارِبة ، وهم بَنُو العَوْر بن أبى بكر بن مَوْهُوب بن عُبَيد ، وبنو أسـير ، وهم بنو أسير بن عبيد ، ومن هلبا مالك أيضا اللَّبيديون ، والنَّكريون ، والعقيليون ، وهم بنو عُقَيل بن قُرّة بن موهوب بن عُبَيد . ومنهم بنو رديبى ، وهم بنو رُدَيْنىّ بن زياد ، بن حُسَين ، بن مسعود ، بن مالك ، بن سُوَيد . ومن ولد نَعْجَةَ هَلْبا نعجة ، وهم بَنُو هَلْبا ، ومطور ، وردا ، ووائل بنى نعجةَ بن زيد بن سُوَيد بن نَعْجة ، فمن ولد

هلبا بعجة مُفَرّج بن سالم ، أمَّره المعز أيبك بالبوق والعلم ، ثم جلعه على إمرته ولده حَسَّان . ومنهم أولاد الهُرَيم من بنى عياث بن عِصْمة بن بِجَاد بن هلبا بن بعجة .

ومنهم حَوْشَب بن مطور بن بَعْجة ، وهو صاحب السَّرَاة المضروب به المثل فى الكرم والشجاعة .

ومن ولد نائل مُهَنَّا بن عُلْوان بن علىٰ بن زبير بن حبيب بن نائل ، كان جَوادا كريما طرقته ضُيُوف فى شتاء ولم يكن عنده حَطَب لطعامهم فأوقد أحمال بَرَّكات عنده . ومن بنى حَرَام بن حُدَام أيضا بنو سَعْد . قال الحمدانى وبنى حُدَام خمس سعود اختلطت بمصر ، وهم سَعْد بن إياس بن حَرام بن حُدَام . وسَعْد ابن مالك بن أفصىٰ بن سَعْد بن إياس بن حَرَام بن حُدام ، وإليه ينسب أكثر السَّعْديِّين . وسعد بن مالك بن حَرَام بن حُدام،[1] وسعد بن سامة بن عَنْس بن غَطَفان بن سعد بن مالك بن حرام بن حدام ، وهم عشائر كثيرة منهم بنو فَضْل ، والسَّلاجمة ، وبرشاش ، وحَوْشَب ، وعَذْلان ، وفَزَارة . قال وأكثرهم مشايخ بلاد وحصراء ، ولهم مزارع ومآكل ، وفسادهم كثير ، وسكنهم مُنْية عمر إلىٰ ريفها . ومنهم شاوَر وزير العاضد الفاطمى ، وإليه تنسب أولاد شاور كفار منية عمر وحصراؤها ، علىٰ أن ابن خلكان قد ذكر أنه من سعد الذين أُرْضِع فيهم النبى صلى الله عليه وسلم . وأما بنو محرمة فمنهم الشَّوَاكر ، وهم بنو شاكر بن راشد . ومنهم أولاد العجار أدِلاء الحاجِّ من زمن السلطان صلاح الدين وهلمّ جَرًّا .

ومن حدام أيضا بالشرقية العائذ ، وهم بطن من حدام عليهم دَرَك الحاج إلىٰ العَقَبة . ومنهم أيضا بالشرقية بنو حَرَام . وقال الحمدانى وقلَّ فى عرب مصر مَنْ يعرفها . ومنهم بالدقهلية عمرو وزُهَير، عدّ منهم الحمدانى الحصيبيين ، وردالة ،

(١) فى الأصل الخط تكرار فى الأسماء، ونقص من العدد ويؤخذ من السائك أن الساقط هو سعد ابن زبيل بن إياس بن حرام بن حدام فقط

والأحامدة ، والحَمَـارنة ، وهم سو حُمْران . قال الحمـدانى وفى زُهَير هؤلاء من ى عَمرين ، وبى شَيب ، وبى عبـد الرحمـن ، وبى مالك ، وبى عُبَيـد ، وبى عبد القوىّ ، وبى شاكر ، وبى حَسَن ، وبى سمان . وهم يتواردون فى أسماء بعض البطون مع غيرهم .

ومن حدام أيضا ببلاد الشام بنو صَخْر بالكَرَك ، وبنو مَهْدىّ بالبلقاء ، وبنو عُقْبة ، وبنو زُهَير بالشّوبك . ومنهم بنو سـعيد بصَرْخَد ، وحَوْران ، ومنهـم جماعة ببلاد الغَوْر ، وجماعة ببلاد البربر من بلاد السُّودان .

الحى التاسع — من بى كهـلان لَخْم (بفتح اللام وسكون الخاء المعجمة وميم فى الآخر) ، وهم بنو لَخْم بن عدىّ بن الحارث بن مُرَّة بن أُدَد بن زَيد بن يَشْجُب بن عَرِيب ، بن زيد ، بن كَهْلان ، ولخم أخو جُذَام المقدّم ذكره ، وكل منهما عمٌّ لِكِنْدة المقدّم ذكره أيضا . وعدّ صاحب حماة لَخْمًا من بنى عمرو بن سبإ كما عدّ جُذَاما إذ كانا أخوين كما تقدّم . وقد كان للمناورة من اللخميين مُلْك بالحِيرَة من بلاد العِراق ، ثم كان لبنى عَبَّاد من بقاياهم بالأندلس مُلْك بإشبيلية . وذكر القضاعى أنهم حضروا فتح مصر ، واختطوا بها ، هم ومَنْ خالطهم من جُذام . قال الحمدانى وبصعيد الديار المصرية منهـم قوم يسكنون بالبر الشرقى ، ذكر منهم الحمدانى سبع أبطن . الأولى سِمَاك ، وهم المعروفون بالسماكيين ، وبنو مُرّ ، وبنو مليح ، وبنو نَبْهان ، وبنو عَنْس ، وبنو كريم ، وبنو نُكَير ، وديارهم من طارف بنا بالبهنسا إلى مُنْحَدر دير الجميره فى البر الشرقى . الثانيـة بنو حدّان ، وهم بنو محمد ، وبنو على ، وبنو سالم ، وبنو مُدْلج ، وبنو رعيش ، وديارهم من دير الجميرة ، الى ترعة صول . الثالثة بنو راشد ، وهم بنو معمر ، وبنو واصل ، وبنو مِرَا ، وبنو حِبَّان ، وبنو مَعَاد ، وبنو البِيض ، وبنو نُجْره ، وبنو شَـنُوءه . وديارهم من مسـجد موسى الى أسكر ، وبصف بلاد

إطْفيح . ولبنى البيص الحىُّ الصغير، ولبنى شنوءة من ترعة شريف إلىٰ مَعْصَرة بوش . الرابعة بنو جَعْد، وهم بنو مسعود، وبنو حُدَير، وهم المعروفون بالحُدَيْريين، وبنو زُبَير، وبنو ثمال، وبنو نَصَّار . ومسكنهم ساحل إطفيح . الخامسة بنو عدىّ، وهم بنو موسىٰ ، وبنو محرب ، ومساكنهم بالقرب منهم . السادسة بنو بحر، وهم بنو سهل، وبنو مِعْطار، وبنو فَهْم ، وهم المعروفون بالفَهْميين، وبنو عَبير، وبنو مسند، وبنو سِبَاع، ومسكنهم الحىّ الكبير . السابعة قيس ، وهم بنو عُنَيم ، وبنو عمرو، وبنو صخرة ، ولبنى غنيم منهم العَدَوية ، ودَيْر الطِّين إلىٰ جَسْر مصر، ولبنى عمرو الرستق ولهم نصف حُلْوان، ولبنى صخرة النصف الثانى، ونصف طُرا .

ومن بطون لخم بنو الدار رَهْطُ تميم الدارىّ صاحب النبى صلى الله عليه وسلم ، وهم بنو الدار بن هانئ، بن حبيب ، بن نمارة، بن لخم . قال الحمدانى وبلد الخليل عليه السلام معمور من بنى تميم الدارىّ رضى الله عنه ، وبيد بنى تميم هؤلاء الرُّقعةُ التى كتبها النبى صلى الله عليه وسلم لتميم وإخوته بإقطاعهم بيت حَبْرُون التى هى بلد الخليل عليه السلام وبعض بلادها ويقال إنها مكتوبة فى قطعة من أدم من خُفّ أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه وبخطّه .

الحى العاشر — من بنى كهلان الأشعريُّون . وهم بنو الأشعر بن أُدَد ، بن زيد، بن يَشْجُب، بن عَرِيب، بن زيد، بن كهلان . قال وسُمِّى الأشعرَ لأن أمه ولدته وهو أشعَر . وجعله صاحب حماة من بنى أشعر بن سبإ ، وهم رهط أبى موسىٰ الأشعرىّ صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الحى الحادى عشر — من بنى كهلان عامِلةُ . وهم بنو عاملة، وآسمه الحارث، بن عُفَير، بن عدِىٍّ ، بن الحارث، بن وَبَرة، بن أُدَد، بن زيد، بن يشجُب ، بن

عريب، بن زيد، بن كهلان، وذكر أبو عبيد أن بنى عاملةَ هم بنو الحارث بن مالك، يعنى ابن الحارث بن مُرَّة بن أدد، وأنه كان تحته عاملةُ بنتُ مالك بن وَدِيعة بن عُقَير، ابن عدىّ، بن الحارث، بن مُرة بن أدد فعُرِفوا بها . وذكر صاحب حماة أنهم من ولد عاملةَ بن سبإ. وقد ذكر الحمدانى أن بجبال عاملة من بلاد الشام منهم الجَمَّ الغفير.

الضــــرب الثـانى

(من العرب الباقين على ممرّ الزمان العرب المستعربة)

قال الجوهرى: ويقال لهم المتعرّبة أيضا ، وهم بنو إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، سُمُّوا بذلك لأن لسان إسماعيل عليه السلام كان العِبرانيَّة أو السُّرْيانية، فلما نزل جُرْهُم من القحطانيَّة عليــه وعلى أمه بمكة المشرَّفة، تزوّج منهم، وتعلم هو وبنوه العربيــةَ من جُرْهُم المذكورين فسُمُّوا لذلك المستعربةَ . وآعلم أن الموجودين من العرب من ولد إسماعيل عليه السلام كلهم من بنى عَدْنان بن أُدَد المقدّم ذكره فى عمود النسب على خلاف فى نسبه إلى إسماعيل يطول ذكره. قال فى العبر ومَنْ عدا عدنانَ من ولد إسماعيل قد آنقرضوا، ولم يبق لهم عَقِب، ولذلك عُرِفت هذه العرب بالعَدْنانيَّة.

ثم العدنانية صنفان

الصنف الأوّل — مَنْ فوقَ قُريش، ولقبائلهم المتفرّعة من عمود النسب ستة أصول.

الأصل الأوّل — نِزار بن مَعدّ بن عدنان ، والمتفرّع منه على حاشية عمود النسب ثلاث قبائل .

القبيلة الأولى — إيَاد (بكسر الهمزة ودال مهملة فى الآخر) وهم بنو إياد بن نِزار المقدّم ذكره قال المؤيد صاحب حماة وفارق إيادٌ الحجاز وسار بأهله إلى أطراف العراق فأقام به .

ومن إياد قُسّ بن ساعدة الإيادىّ ، وكعبُ بن مَامَة الذى يضرب به المثل فى الكَرَم ، يقال إنه كان معه ماء لايفصل عنه وله رفيقٌ فسقاه رفيقَه ومات عطشا .

القبيلة الثانية — أنمار (بفتح الهمزة وراء مهملة فى الآخر) وهم بنو أنمار بن نزار المقدّم ذكره ، وقد اختلف فى تَعْقيبه ، فذهب ذاهبون إلىٰ أنه ذهب إلىٰ اليمن ونزل بالسَّرَوَات من مشارق اليمن ، وتناسل بنوه بها فعُدُّوا فى اليمانيَة ، وذهبَ آخرون إلىٰ أنه لا عقب له إلا من بنت له زوّجها لأراش من اليمانيَة ، فولدت له أنمارَ بنَ أراش المقدّم ذكره فى اليمانية ، فَبنو أنمار المعدودون فى اليمانيّة هم بنو أنمار بن أراش المقدّم ذكره فى اليمانية من بنت أنمار بن نزار ، ولذلك وقع اللبس فيهما ، قاله السهيلىّ .

القبيلة الثالثة — رَبيعةُ ، وهم بنو ربيعة بن نزار ويعرف بربيعة الفَرَس . لأن أباه نزارًا أوصىٰ له من ماله بالخيل . قال فى "مسالك الأبصار" وبالرَّحبة قوم منهم .

ولربيعة بطنان . وهما أسد ، وضُبَيْعة ابنا ربيعة ، ولكل منهما عِدّة أفخاذ ، وديارهم إلىٰ الآنَ بالجزيرة الفُراتية تُعرَف بديار ربيعة . أما أسَدٌ فأكثرهما أفخاذا .

فمن أسد بنو عَنزةَ (بفتح العين المهملة والنون والزاى وهاء فى الآخر) وهم بنو عَنزة ابن أسد المقدّم ذكره ، وكانت منازلهم خَيْبَر من ضواحى المدينــة . وجَديلة (بفتح الجيم وكسر الدال المهــملة وسكون الياء المثناة تحت وفتحْ اللام وهاء فى الآخر) وهم بنو جَديلة بن أسد المقدّم ذكره ، والنسبة إليهم جَدَلىّ بحذف الياء بعد الدال .

ومن جديلة عَبْدُ القيس ، وهم بنو عبد القيس ، بن أفْصَى ، بن دُعْمىّ ، بن جَديلة . قال فى العبر وكانت ديارُهم بِتهامةَ حتّى خرجوا إلىٰ البحرَيْن وزاحَمُوا مَنْ بها من بكر بن وائل وتميم ، وقاسموهم المواطنَ ، والنسبة إليهم عَبْــدِىٌّ ، ومنهم من يَنْسُب إليهم عبدىّ قيسىّ ، وبعضهم يقول عَبْقَسىّ .

ومن عبد القيس هؤلاء الأشجّ الذى قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم "إنّ فيك لخَصْلتين يُحِبّهما الله الحِلْمُ والأَناةُ" .

ومن جديلة أيضا بنو النَّمِر (بفتح النون وكسر الميم) وهم بنو النمر بن قاسِط بن هِنْب ابن دُعْمِىّ بن جَدِيلة . قال فى العبر وديارُهم رأسُ العين من أعمال الجزيرة الفُراتيّة .

ومن جديلة أيضا بنو وائل (بالياء المثناة تحتُ) وهم بنو وائل بن قاسِط بن هِنْب ابن أفصىٰ ، بن دُعْمِىّ ، بن جديلة المقدّم ذكره .

ومن وائل بَكْر (بفتح الباء الموحدة وسكون الكاف) وتَغْلِب (بالتاء المثناة فى أوّله والغين الساكنة المعجمة وكسر اللام وباء موحدة) وهم بنو بكر وتغلب ابنى وائل المقدّم ذكره .

ومن تغلب بن وائل كليب ملك بنى وائل الذى قتله جَسَّاس ، وهاجتْ بسببه الحرب المعروفة بالبَسُوس أربعين سنةً .

ومن تغلبَ أقوام بُزَاعَ ، وبُصْرىٰ ، وبالقريتين منهم نفر .

ومن بكر أقوام بجِبِيِنَ وبلادها ، وبالرَّحبة قوم منهم .

ومن بنى تغلبَ كانت بنو حَمْدان ملوكُ حلَبَ قديما .

ومن بكر بن وائل شَيْبانُ ، وهم بنو شَيبانَ بن ثعلبة ، بن عُكَابة ، بن صَعْب ، بن علىّ ، بن بكر .

ومن بنى شَيْبانَ هؤلاء مُرَّة وابنُه جَسَّاس قاتل كُلَيب المذكور . ومنهم طَرَفة ابن العبد الشاعر .

ومن بنى شيبان أيضا سَدُوس (بفتح السين المهملة فى أوّله وسين ثانية فى آخره) وهم بنو سَدُوس بن ذُهْل بن شيبان .

ومن بكر بن وائل أيضا بنو حَنِيفة رَهْطُ مسيلمة الكذاب الذى تنبأ فى زمن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وقُتِل فى خلافة الصدّيق رضى الله عنه ، وهم بنو حنيفة بن لجيم ، بن صَعْب ، بن علىّ ، بن بكر ، بن وائل .

ومن بكر أيضا بنو عِجْل ، بن لجيم ، بن صَعْب ، بن علىّ ، بن بكر ، بن وائل . قال فى العبر وكانت منازلهم من اليمامة إلىٰ البصرة ، قال ثم خَلَفهم الآن فى تلك البلاد بنو عامر المُنْتَفِق ، بن عَقِيل ، بن عامر ، بن صَعْصعةَ . وذكر الحمدانىّ أن بلادهم فى زمانه الجزيرةُ من بلاد حَلَب وأنه كان لهم دولة بالعراق .

وأما ضُبَيْعة بن ربيعة (بضم الضاد المعجمة وفتح الباء الموحدة تصغير ضَبعة) وهى قبيلة لم تكثر بطونها . ومنهم المتلمس الشاعر الجاهلىّ المشهور .

الأصل الثانى — مضر (بضم الميم وفتح الضاد المعجمة) وهو مُضَر بن نِزار المقدّم ذكره ، ويُعْرف بمُضَر الحمراءِ لأن أباه أوصىٰ له من ماله بالذَّهَب وما فى معناه ، وهى قبيلة عظيمة إلا أن أكثرها آندرج فيما بعدها لكونها علىٰ عمود النسب ، وقد ذكر فى "مسالك الأبصار" أن بنابُلُس من بلاد الشام بقيةً من مُضَر ، وبالرَحبة رجال منهم ، وله علىٰ حاشية عمود النسب فَرْع واحد قد جمع عدّة قبائل ، وهو قيس وقد آختلف فى نسبه فقيل قيس بن عيلان (بالعين المهملة) وآسمه الناس (بالنون) آبن مضر ، وقيل هو قيس بن مضر لصلبه ، وعَيْلانُ المضافُ إليه قيل فرسه وقيل كَلْبه . قال صاحب حماة وجعل الله تعالىٰ لقيس من الكثرة أمرًا عظيما ، ولكثرة بطونه غلَب علىٰ سائر العَدْنانية حتّى جعل فى المثل فى مقابل عرب اليمن قاطبةً فيقال قيس ويمن .

من قبائل قيس هَوَازِنُ ، وهم بنو هَوَازِنَ بن منصور بن عِكْرِمَةَ بن خَصَفَة بن قيس عَيْلانَ، وهم الذين أغار عليهم النبيّ صلى الله عليه وسلم، وسباهُمْ .

ومن هوازن بنو سَعْد الذين كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، رضيعًا فيهم،وهم بنو سَعْد بن بكرِ بن هوازنَ . قال في العبر وقد افترق بنو سَعْد هؤلاء في الإسلام ولم يبق لهم حيّ فيُطرَق إلا أن منهم فِرقةً بإفريقيَةَ من بلاد المغرب بنواحي باجة يعسكِرونَ مع جُنْد السلطان .

وقد ذكر ابن خلّكان أن شاوَرَ السعديّ وزير العاضد الفاطميّ خليفةِ مصر منهم وإن كان الحمدانيّ قد ذكر أنه من سَعْد جُذَام من القَحْطانية بالشرقية من الديار المصرية علىٰ ما سبق ذكره هناك .

ومن هوازن أيضا بنو عامر بن صَعْصَعَةَ . وهم بنو عامر بن صَعْصعةَ بن مُعاوية ابن بَكْرِ بن هوازن، وإليهم يُنْسَبُ مجنون بنى عامرٍ الشاعرُ الذى كان يُشَبِّبُ بليلىٰ .

ومن بنى عامر بن صعصعة بنو كِلاب، وهم بنو كِلاب بن ربيعةَ بن عامر بن صعصعةَ . قال في العبر وكان لهم في الإسلام دولة باليمامة، وكانت ديارهم حِمىٰ ضَرِيَّةَ وهو حِمىٰ كُلَيبٍ، وحِمىٰ الربَذَة في جهات المدينة النبوية ، وفَدَكُ والعوالى ، ثم انتقلوا بعد ذلك إلىٰ الشأم فكان لهم في الجزيرة الفراتيــة صِيتٌ وملكوا حَلَبَ ونواحِيَها، وكثيرا من مدن الشام، ثم ضَعُفوا . قال، وهم الآن تحت خِفَارة الأمراء من آل ربيعة من عرب الشام .

وذكر في "مسالك الأبصار" أنهم يَنْتَسِبون إلىٰ عبد الوهاب المذكور في سيره البَطَّال وذكر أن اسمه عبد الوهاب بن بُوخْت .

ثم قال، وهم بأطراف حلب ، وهم عرب غُرّ يتكلمون بالتركية ، ويركبون الأكاديش، ولهم غارات عظيمة، وأساءُ الروم وساتهم لايزالون يباعُون من سباياهم. وقد ذكر في "مسالك الأبصار" أن بحلب وبلادها طائفةً من بني كلاب .

ومن بني عامر بن صعصعة أيضا بنو هِلال ، وهـم بنو هِلال بن عامر بن صعصعةَ. قال الحمدانى" وكان لهم بلادُ صعيدِ مصر كلُّها، وذكرهم ابن سعيد في عرب بَرقةَ، وقال منازلهم فيما بين مصر وإفريقيةَ. قال في العبر وكانت رياستهم أيام الحاكم العُبيدى" لمـاضى بن مقرب، ولما بايعوا لأبى رَكْوةَ بالمغرب وقتله الحاكم، سلّط عليهم الجُيوشَ والعرب فأفناهم، وانتقل مَنْ بقى منهم إلى المغرب الأقصى فهم مع بني جُشَم هناك. وذكر الحمدانى" أن بحلب طائفةً منهم، ثم صار لهم بلاد أُسوانَ وماتحتها . ثم قال وبإخْميمَ منهم بنو قُرَّة، إلى عيداب، وبساقية قُلْتَةَ منهم بنو عمرو وبطونهـم، وهم بنو رفاعةَ ، وبنو جُحَـير ، وبنو عزيز . وبأَصْفُون وإسْنا منهم بنو عُقْبَـة ، وبنو جَمِيلة .

ومن بني هلال حرب فيما ذكره ابن سَعيد . قال الحمدانى"، وهم ثلاث بطون بنو مسروح، وبَنُو سالم ، وبنوعُبَيدالله . قال ومساكنهم الحجاز ومن حَرب ربيد الحجاز فيما ذكره الحمدانى"، وذكر أن منهم بني عمرو . ثم قال ومن بني عامر نُمَير بن عامر ابن صعصعة . قال في العبر وكانت منازلهم الجزيرة الفراتيـة والشام بعُدْوتَيِ الفُرات . قال وهم إحدى جَمَرات العرب، وكان لهم كثرة وعِدّة في الجاهلية والإسلام، ودخلوا الجزيرة الفراتية وملكوا حَرَّان وغيرها ، ثم غلبهم عليها خلفاء بني العباس أيامَ المعتز بالله فهلكوا بعد ذلك وبادُوا .

ومن بني عامر بن صعصعةَ أيضا بَنُو عُقَيل (بضم العين المهـملة وفتح القاف) وهم بنو عُقَيل بن كَعْب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة . قال في العبر وكانت

مساكنهم بالبحرين فى كثير من قبائل العرب، وكان أعظم القبائل هناك بَنُو عُقَيل هؤلاء، وبنو تغلبَ وبنو سُلَيم، وكان أظهرَهم فى الكثرة والغلَب بنو تغلبَ، ثم اجتمع بنو عُقَيـل وبنو تغلب على بنى سُلَيم فأخرجوهم من البحرين، ثم اختلَف بنو عُقَيـل وبنو تغْلِبَ بعد مدّة فغلب بنو تغلب على بنى عُقَيـل فطردوهم عن البحرين، فساروا إلىٰ العراق، وملكوا الكُوفةَ والبلادَ الفُراتيَّـةَ وتغلبوا علىٰ الجزيرة والمَوْصِل، وملكوا تلك البلاد، وكان منهم المقلد وقِرْواش وقُرَيش وآبنه مسلم ملوك الموصـل، وبقيت بأيديهـم حتّى غلبهم عليها ملوك بنى سلجوق، فتحوّلوا عنها إلىٰ البحرين حيث كانوا أوّلا فوجدوا بنى تغلبَ قدضَعُف أمرهم فغلبوهم علىٰ البحرين، وصار الأمر بالبحرين لبنى عُقَيل .

ومن بنى عقيل هؤلاء آل عامر، وهم بنو عامر بن عُقيـل المذكور، وهم الذين بيدهم بلاد البحريـن . قال آبن سعيد سألت أهل البحرين فى سنة إحدىٰ وخمسين وسبعمائة حين لقيتهم بالمدينة النبوية عن البحرين فقالوا المملكة بها لبنى عامر بن عُقَيل، وبنو تغلبَ من جملة رعاياهم، علىٰ أن الحمدانىّ قد وَهِم فقـال وهـم غير عامر المُنْتَفِق، وعامر بـن صعصعة، وتبعـه علىٰ ذلك فى "مسالك الأبصار" . وقد ذكر فى "مسالك الأبصـار" أن بحلب وبلادها طائفـة من بنى عُقَيـل

ومن بنى عُقَيل أيضا بنو عُبَادة (بضم العين المهملة وبالباء الموحدة والدال المهملة) وهم بنو عُبادة بن عُقَيل . قال آبن سعيد ومنازلهم بالجزيرة الفراتيَّة مما يلي العراق لهم عَدَد وكثرة . قال ومنهـم الآن بقيةٌ بين الخابور والزّابِ، يقال لهم عرب شَرف الدولة فى تجمُّل وعُدَد، ولهم إحسان من صاحب الموصل . ثم قال وهم عدد قليل نحو المـائة فارس .

ومن بنى عُقَيل أيضا خَفَاجَةُ (بفتح الخاء المعجمة وفتح الفاء وجيم مفتوحة بعد الألف وهاء فى الآخر) وهم بنو خَفَاجة بن عمرو بن عُقَيل، وفيهم الإمرة بالعراق إلى الآن .

ومن بطون هوازن أيضا بنو خُثَعم (بضم الخاء وفتح الشين المعجمة وميم فى الآخر) وهم بنو خُثَعم بن معاوية بن بكر بن هَوازنَ . قال فى العبر وكانت مساكنهم بالسَّرَوات، وهى تلال تفصل بين تِهامةَ ونجد، متصلةٌ من البحرين إلى الشام كسَرَوات الجبل . قال وسَرَوات خُثَعم متصلة بسَرَاة هُذَيل . ثم قال وقد انتقل بعضهم إلى المَغْرب، وهم الآن به، ولم يبق بالسَّراة منهم إلا من ليس له صولة . قال صاحب حماة ومن خُثَعم هؤلاء دُرَيد بن الصِّمَّة .

ومن بطون هوازن أيضا ثَقِيفٌ (بفتح الثاء المثلثة وكسر القاف وسكون الياء وفاء فى الآخر) وهم رَهْط الحجاج بن يوسُف وهم بنو ثقيف واسمه قَسِيُّ بن مُنَبِّه بن بكر بن هَوازِنَ، ويقال إنهم من إياد بن نِزَار المقدّم ذكره . وعن بعض النَّسابة أن ثقيفا من بقايا ثَمُودَ، وكان الحجاج يُنكره ويقول كذبوا، قال الله تعالى ﴿وثَمُودَ فما أَبقىٰ﴾ أى أهلكهم ولم يبق منهم أحدا . قال فى العبر وثَقِيف بطن واسع، وكانت منازلهم بالطائف وهى مدينة من أرض نجْد على مرحلتين من مكة فى شرقيِّها وشماليِّها كانت فى القديم للعَمَالِقة ، ثم نزلها ثمودُ قبل وادى القُرىٰ ويقال إن الذى سكنها بعد العَمَالِقة عَدْوانُ . ثم غلبهم عليها ثقيفٌ فهى الآن دارُهم .

ومن قبائل قيس أيضا باهِلةُ، وهم بنو سَعدِ مَناة بن مالك بن أعْصُر، واسمه مُنَبِّه ابن سعد بن قَيْس عيلان ، وجعلهم فى العبر بنى مالك بن أعْصُر . وباهلةُ أمّ سعدِ مناة عُرِفوا بها وهى باهلةُ بنت صَعْب بن سعدِ العشيرة من مَذْحِج، منهم أبو أُمامة الباهليّ صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن قبائل قيس بنو مازنٍ ، وهم بنو مازن بن منصور بن خَصَفة بن قَيْس عَيْلانَ . قال في العبر وعددهم قليل .

ومن قبائل قيس أيضا بنو غَطَفانَ بن قَيْس عيلان . قال في العبر وهم بطن متسعٌ كثير الشعوب والبطون . قال وكانت منازلهم ممـا يلي وادىَ القُرىٰ وجَبَلَيْ طيئٍ أجإ وسَلْمىٰ ، ثم تفرّقوا في الفتوحات الإسلامية ، وآستولىٰ علىٰ مواطنهم هناك قبائل طيئٍ .

ومن بطون غَطَفان بنو عَبْس (بفتح العين وسكون البـاء الموحدة وسين مهملة في الآخر) وهم بنو عَبس بن بَغيض بن رَيْث بن غطفان . منهم زُهير بن قيس صاحب حرب داحسَ والغَبْراء . وهمـا فرسان كانت إحداهما وهي داحسُ[1] لِعَبْس والأخرىٰ وهي الغبراء لفزارةَ فأُجْريتا فوقع الحرب بسببهما .

ومن عبسٍ هؤلاء عنترة بن شدّاد الشاعر الفارس المشهور .

ومن غَطَفان أَشْجعُ (بفتح الهمزة وسكون الشين المعجمة وفتح الجيم وعين مهملة في الآخر) وهم بنو أَشْجَعَ بن رَيْث بن غَطَفان . قال في العبر وكانوا هم عرب المدينة النبويّة ، وكان سيدُهم معقلَ بن سِنَان الصحابىّ . قال ولم يبق أحد منهم بنجد إلا بَقايَا حولَ المدينة . ثم قال وبالمغرب الأقصىٰ منهم حىّ عظيم يظعَنُون مع عرب مَعْقِل بجهات سِجِلْماسة ولهم عدد وذكر .

ومن غطفان أيضا ذِبْيانُ ، قال الجوهرىّ (بكسر الدال يعني المعجمة وضمها) وهم بنو ذُبْيان بن رَيْث بن غَطَفان ومنهم النابغة الذبيانىّ الشاعر المشهور .

ومن ذبيان فَزَارة (بفتح الفاء والزاى والراء المهملة وهاء في الآخر) وهم بنو فَزَارة آبن ذُبْيان . قال في العبر وكانت فزارةُ بنجد ووادى القُرىٰ ، فلم يبق منهم بنَجْد أحدٌ

---

(١) أنث الفرس المسمى بداحس ومقتضى القاموس تذكيره وقد صرفه فليحرر

ونزل جيرانهم من طيئ مكانهم . وذكر أن بأرض برقة إلى طرابلس العرب منهم قبائل زواحة، وهيت، وفزارة . قال وبإفريقية والمغرب منهم الآن أحياء كثيرة اختلطوا مع أهله، يحتاج المعقل من عرب المغرب الأقصى إلى الاستظهار بهم . قال ومنهم مع سليم بإفريقية طائفة أخرى أحلاف لأولاد أبي الليل من شعوب بني سُليم، يستظهرون بهم في مواقف الحرب، ويقيمونهم لأنفسهم مقام الوزراء للملوك . ثم قال وفي برقة ببلاد هيت جماعةٌ منهم نازلون بها، ومنهم طائفة بصحراء المغرب . قال الحمداني ومنهم بالديار المصرية جماعةٌ بالصعيد، وجماعة بضواحي القاهرة في قليوب وما حولها، وبهم عُرفت القرية المسماة بخرَاب فزارة هناك . ومن فزارة بنو مازنٍ، وبنو بدر، فأمّا بنو مازن فهم بنو مازن بن فزارة، وأما بنو بدر فهم بنو بَدر بن عَدِيّ بن فزارة قال في العبر، وفيهم كانت رياسة بني فزارة في الجاهليّة، يرأسون جميع غطفان وتدينُ لهم قيسٌ وإخوانهم بنو ثعلبة بن عديّ، ومنهم كان حذيفةُ بن بدر صاحب الفَرَس المعروفة بالغَبْراء المقدّم ذكرها، ومن بَني بدر هؤلاء وبنى عمهم بني مازنٍ جماعةٌ بالقليوبية من الديار المصرية .

قلت وبنو بدر هم قبيلتنا التي إليها نعتزي، وفيها ننتسب، وأهل بلدتنا قلْقَشَنْدة بعضهم من بنى بدر وبعضهم من بنى مازن .

ومن قبائل قيس أيضا بنو سُلَيم (بضم السين وفتح اللام) وهم بنو سليم بن منصور ابن عِكْرِمة بن خَصَفةَ بن قَيْس عيلان . قال الحمداني وهم أكثر قبائل قيس . وكان لسُلَيم من الولد بُهْثَة (بضم الباء الموحدة في أوّله وفتح المثناة بعد الهاء)[1] ومنه جميع أولاده . قال في العبر وكانت منازلهم في عاليَة نَجْد بالقرب من خيبر .

(١) ذكره في القاموس في باب الثاء المثلثة فقال وبهثة رجل من سليم فتنبه

ومن منازلهم حَرَّة سُلَيم، وحرّة النار بين وادى القُرىٰ وتَيْمَا . قال وليس لهم الآن بنجد عَدَد ولا بقيّة . ثم قال وبإفريقِيَةَ منهم حىّ عظيم، وقد تقدّم أنه كان منهم جماعة بالبحرين فغلبهم عليها بنو عُقَيل بن كَعْب وبنو تَغْلِب . وقال الحمدانى ومساكنهم بَرْقَةُ ممّا يلى المغرب وممّا يلى مصر . قال وفيهم الأبطال الأنجاد، والخيل الجيّاد . قال فى العبر وقد ٱسْتَوْلَوْا علىٰ بَرْقَة، وهى إقليم طويلٌ واسعُ الأطراف، وخربوا مدنه ولم يتركوا بها ولاية ولا إمرة إلا لمشايخهم . قال فى "مسالك الأبصار" والإمرة الآن فيهم فى بنى عزاز، وهى الآن فى زمانسا لبنى عريف .

ومن سُلَيم هؤلاء لَبِيد بَرَقَةَ، وهم بطون كثيرة العدد .

ومن قبائل قيسٍ عَدْوان (بفتح العين وسكون الدال المهملتين ونون فى الآخر) وهم بنو عَدْوانَ وٱسمُه الحارث بن عمرو بن قيس عيلان . قال أبو عبيد وسمى عَدْوان لأنه عدا علىٰ أخيه فَهْمٍ فقتله . قال فى العبر وهم بطنٌ متسع، وكانت منازلهم بالطائف من أرض نجد نزلوها بعد إيادٍ والعمالقة، ثم غلبهم عليها ثقيفٌ، فخرجوا إلىٰ تِهامة . وبإفريقِيَةَ الآن منهم أحياء بادية . وقد عدّ الحمدانىّ عَدْوان من عرب برية الحجاز من أحلاف آل فَضْل من عرب الشام، فيحتمل أنهم هؤلاء وأنهم غيرهم .

الأصل الثالث — إلياس (بكسر الهمزة وسكون اللام وفتح الياء المثناة تحت وسين بعد الألف) وهو إلياس بن مُضَر المقدّم ذكره، وكانت تحته خِنْدِف (بكسر الخاء وسكون النون وكسر الدال المهملة وفاء فى الآخر) وهى خِنْدِف بنت حُلْوان ابن عِمْران بن الحافى بن قُضاعة، فعُرِف بنوه بها فقيل لهم خِنْدِف لأن زوجها

إلياس رآها يوما تمشي، فقال لها مالك تُخَنْدِفين؟ والخَنْدَفة أن يقلب ظهر قدمه إلىٰ الأرض عند مشيه . وله فرعان علىٰ حاشية عمود النسب .

الفرع الأوّل — طابخةُ (بفتح الطاء المهملة وكسر الباء الموحدة بعد الألف وفتح الخاء المعجمة وهاء في الآخر) وهم بنو طابخة، وآسمه عمرو بن إلياس بن مُضَر، وسمي طابخة لأنه كان هو وأخوه مدركةُ الآتي ذكره علىٰ عمود النسب، وكان آسمه عامرا، في إبل لهما فصادا صيدا، وقعدا يطبُخانه فعدَتْ عادية علىٰ إبلهما فآستاقتها، فقال عامر لعمرو أتُدْرِك الإبل أم تطبخ الصيد؟ فقال عمرو بل أطبُخ الصيد، فلحق عامر الإبل فجاء بها فلما جاءا أباهما أخبراه الخبر، فقال لعامر أنت مُدْرِكةُ . وقال لعمرو أنت طابخةُ فسميا بذلك .

ويتفرّع عن طابخةَ قبائلُ كثيرة .

فمن قبائل طابخة تميم (بفتح التاء المثناة فوق وكسر الميم وسكون الياء المثناة تحت وميم في الآخر) وهم بنو تميم بن مُرّ بن أُدّ بن طابخة . قال في العبر وكانت منازلهم بأرض نجد دائرةً من هنالك علىٰ البصرة واليمامة، وآمتدّت إلىٰ العُذَيب من أرض الكوفة، ثم تفرّقوا بعد ذلك في الحواضر، ولم يبق منهم بادية، وورِث مساكنهم غَزِيَّةُ من طيِّئ وخفاجَةُ من بني عُقَيل بن كعب .

ومن بطون تميم بنو العنبر، وهم بنو العنبر بن عمرو بن تميم، وإليهم يُنْسَب حَدِيلة آبن عبد الله العنبريّ الصحابيّ .

ومن بطون تميم بنو حَنْظلة وبطنه معروف، وهم بنو حَنْظَلَة بن مالك آبن زيد مناة بن تميم، ويقال لهم حَنظلةُ الأكرمون . قال الجوهري وهم أكبر قبيلة في تميم .

ومن حنظلة بنو يربوع (بفتح الياء المثناة تحتُ وسكون الراء المهـملة وضم الباء الموحدة وسكون الواو وعين مهملة فى الآخر)، وهم بنو يَرْبُوع بن حنظلة .

ومن بنى يربوع بنو العنبر بن يربوع ، ومنهم سَجَاح التى تنبأتْ فى زمن مسـيلِمةَ الكذاب وهم غير بنى العنبر المقدّم ذكرهم .

ومن قبائل طابخة بنو ضَبَّة (بفتح الضاد المعجمة وتشديد الباء) . قال فى العبر وكانت ديارهم بالناحيـة الشمالية من نجد بجِوَار بنى تميم ثم ٱنتقلوا فى الإسـلام إلىٰ العراق ، وهم الذين قتلوا المتنبى الشاعر .

ومن قبائل طابخة أيضا مُزَيْنة (بضم الميم وفتح الزاى وسكون الياء المثناة تحت وفتح النون وهاء فى الآخر) وهم بنو عثمان وأوس ، ٱبنى عمرو ، بن أُدّ بن طابخة ، ومُزَيْنة أمهما عُرِفوا بها ، وهى مزينة بنت كَلْب بن وَبَرَه . ومنهم كعبُ بن زهير ناظمُ القصـيدة المعروفة بانَتْ سُـعاد ، وإليهم يُنْسب الإمام إسماعيل بن إبراهيم المزنىّ صاحب الإمام الشافعى رضى الله عنه .

الفرع الثانى — قَمَعة (بفتح ٱلقاف والميم والعين المهملة وهاء فى الآخر) وهم بنو قَمَعة بن إلياس بن مضر . قال الجوهرىّ إن أباه سماه قَمَعة لمـا ٱنقمع فى بيته أى ٱنقهر وذل ولم يشتهر عقبه .

الأصـل الرابع — مُدْرِكَة (بضم الميم وسكون الدال المهملة وكسر الراء المهملة وفتح الكاف وهاء فى الآخر) وهم بنو مدركه بن إلياس بن مُضَر ، وقد تقدّم سبب تسميته مدركه . وله فرع واحد علىٰ حاشية عمود النسب وهو هُذَيل (بضم الهـاء وفتح الذال المعجمة وسكون الياء المثناة تحت ولام فى الآخر) وهم بنو هُـذَيل بن

مدركة . وهى قبيلة متسعة لها بطون كثيرة والنسبة إليها هُذَلىّ بحذف الياء بعد الدال، وإليهم يُنْسَب عبد الله بن مسعود الصحابىّ رضى الله عنه .

الأصل الخامس — خُزَيْمة (بضم الخاء المعجمة وفتح الزاى وسكون الياء المثناة تحت وفتح الميم وهاء فى الآخر) وهو خُزَيمة بن مُدْرِكة . وله فرعان على حاشية عمود النسب، وهما الهُون وأسد .

فأما الهون (فبضم الهاء وسكون الواو ونون فى الآخر) وهو الهُون بن خُزَيمة،وهى قبيلة مشهورة .

ومن بطون الهُون عَضَد[1] (بفتح العين المهملة والضاد المعجمة ودال مهملة فى الآخر)، وهم بنو عَضَد بن الهُون .

ومن بطون الهُون أيضا الديش (بكسر الدال المهملة وسكون الياء المثناة تحت وشين معجمة فى الآخر) وهم بنو الدِّيش بن مُلَيح بن الهُون، ويقال لهاتين القبيلتين وهما عَضَد والدِّيش القارَة . قال أبو عُبيد وسُمُّوا بذلك لأن الشَّدّاخ الليثىّ أراد أن يفرّقهم فى بطون كنانة فقال بعضهم دعُونا قارةً لا تفرّق فسُمُّوا القارةَ .

وأما أَسَدٌ وضبطه معروف، فهم بطن كبير متسع . قال فى العبر ومنازلهم مما يلى الكَرْخ من أرض نَجْد فى مجاورة طيئ . قال ويقال إن بلاد طيئ كانت لبنى أسد ، فلما خرج بنو طيئ من اليمن نزلوا على أجإ وسَلْمى ، وتفرّق بنو أسد بسبب ذلك فى الأقطار ولم يبق لهم حىّ . قال ابن سعيد وبلادهم الآن لطيئ . قال فى "مسالك الأبصار" وبعسل وما ينضم إليها من بلاد الشام قوم من بنى أسد .

---

(١) صوابه ولام فهو عضل لا عضد أنظر القاموس

ومن بطون أســد الكاهليّة ، وهم بنو كاهل بن أسد . ومن بطونهم دُودانُ بن أسد أيضا .

الأصل السادس — كنانة (بكسر الكاف ونون بعدها ألف ثم نون مفتوحة بعدها هاء) وهو كنانةُ بن خزيمة، وهى قبيـلة عظيمة آشتهرت علىٰ عمود النسب . وقد ذكر الحمدانى أن منهـم جماعة بالإخميمية من صـعيد الديار المصرية يُعرفون بكنانة طلحة، وذكر فى "مسالك الأبصار" أن طائفة منهم قَدِموا الديار المصرية فى وزارة الصالح طلائع بن رزيك ونزلوا دِمياطَ وما حولهـا . وله علىٰ حاشية عمود النسب خمسة فروع

الفرع الأوّل — مَلْكان (بفتح الميم وسكون اللام ونون فى الآخر) ، وهم بنو مَلْكان بن كنانة .

الفرع الثانى — عَبْد مناة بإضافة عبد إلىٰ مناة (بميم مفتوحة بعدها نون)، وهم بنو عبد مناة بن كنانة، ولهم عدّة بطون .

منهم غِفَار (بكسر العـين المعجمة وفتح الفاء وراء بعد الألف)، وهو بنو غِفَار آبن عبد مناة بن كنانة ، وهم رهط أبى ذرّ الغِفَارىّ صاحب رسـول الله صـلى الله عليه وسلم، وإليهم الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم "غِفَارُ غَفَر اللهُ لها" .

ومنهم بنو بكر بن عبد مناة بن كنانة، ومن بكر هؤلاء الدُّئل . وهم بنو الدُّئل بن بكر آبن عبد مناة، وإليهم ينسب أبو الأسود الدؤلى واضع علم النحو بأمر أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه .

ومنهم بنو لَيْث، وهم بنو ليث بن بكر بن عبد مناه منهم الصعْب بن جَثَّامة الليثىّ الصحابىّ رضى الله عنه . وقد ذكر الحمدانىّ أن منهم طائفةً بساقية قُلْتة بالإخميمية من صعيد مصر .

ومنهم بنو الحارث، ويقال فيهم بلحارث، وهم بنو الحارث بن عبد مناة .

ومنهم بنو مُدْلِج (بضم الميم وسكون الدال المهملة وكسر اللام وجيم فى الآخر)، وهم بنو مُدْلِج بن مُرة بن عبد مناة . وفى بنى مُدْلِج هؤلاء عِلْم القيافة، وهو إلحاق الابن بالأب ونحو ذلك بالشَّبَه . ومنهم طائفة الآن بصَرْخَد وحَوْران من بلاد الشام، وطائفة بالأعمال الغربية من الديار المصرية .

ومنهم بنو ضَمْرة (بفتح الضاد المعجمة وسكون الميم وفتح الراء المهملة وهاء فى الآخر) وهم بنو ضَمْرة، بن بكر، بن عبد مناة، وإليهم ينسب عمرو بن أُميَّة الضَّمْرىّ صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد ذكر الحمدانىّ أن منهم طائفةً بساقية قُلْتة وما يليها من بلاد إخْميم من صعيد مصر .

الفرع الثالث — عمرو بن كِنانة، وإليه ينسب العَمْرِيُّون من بنى كنانة .

الفرع الرابع — عامر بن كنانة، ومنه العامِريُّون من كنانة .

الفرع الخامس — مالك بن كِنانة ، ومن عَقِبه بَنُو فِراس، بن غنم، بن ثعلبة، بن الحارث، بن مالك . وفى بنى فِراس هؤلاء يقول أمير المؤمنين علىّ بنُ أبى طالب رضى الله عنه لبعض من كان معه "لَوَدِدتُ أن يَكُونَ لى بألف منكم سبعةٌ من بنى فِراس بن غنم". وقد ذكر الحمدانىّ أن منهم جماعة بساقية قُلْتة وما يليها من الإخميمية بمصر . وذكر الحمدانى أيضا أن من كنانة بنُ خَزيمة طائفةً بصعيد مصر بالأُشْمونَيْن وما حولها تُعْرَف بكنانة طلحة .

الصنف الثانى من العرب العدنانية — قُرَيش (بضم القاف وفتح الراء المهملة)، وهم بنو النَّضْر (بفتح النون وسكون الضاد المعجمة) ابن كنانة وقيل فى تسميته بذلك إنه كان فى سفينة ببحر فارِس إذ خرجتْ عليهم دابة عظيمة يقال لها قُرَيش فخافها أهل

السفينة على أنفسهم فأخرج سهما من كنانته ورماها فأثبتها، ثم قُرِّت السـفينة منها فأمسكها وقطع رأسها وحملها معه إلى مكة فسُمِّىَ باسمها . وقيـل سمّى بنوه بذلك لغلبتهم القبائل وقهرهم إياهم، تشبيها بالدابة المقدّم ذكرها من حيث إنها تقهر سائر دوابّ البحر وقيـل أخذا من التقَرُّش، وهو الآجتماع لأن قُصَيًّا جمعهم عليه عنـد ولايته أمر قُرَيش . وقيل لتجارتهم أخذا من التقرّش، وهو التجارة .

ثم لقريش عشرة أصول على عمود النسب

الأصل الأوّل — فِهْر بن مالك، ويتفرّع عن فهر على حاشية عمود النسب قبيلتان

القبيلة الأولى — بنو الحـارث، وهم بنو الحارث بن فِهْر . ومن بنى الحـارث هؤلاء بنو الجَرّاح رهطُ أبى عُبَيدة بن الجراح، أحد العشرة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم المقطوع لهم بالجنة .

القبيلة الثانية — بنو محارب بن فهر، المقدّم ذكره . ومنهم الضَّحَّاك بن قيس أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الأصل الثانى — غالب بن فهر . ويتفرّع عنه على حاشيه عمود النسب قبيلة واحدة، وهم بنو الأدرم بن لؤىّ[1] بن غالب، والأدْرم هو الناقص الذَّقَن .

الأصل الثـالث — لُؤَىّ بن غالب . ويتفرّع منه على حاشـية عمود النسب ثلاث قبائل

القبيلة الأولى — سـعد، وهم بنو سـعد بن لؤى بن غالب . كان له من الولد عمار، وعمارى، ومحروم، من آمرأته بُنَانَةَ (بضم الباء الموحدة) وبها يُعرفونَ فيقال لهم بنو بُنَانة، ومنهم أبو الطُّفَيل أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(١) فيه نظر فإن بين الأدرم وبين غالب كما فى القاموس فى مادة د ر م فلعـل لفظ ابن لؤى مما طغى به قلم الناسخ

القبيلة الثانية — خُزَيمة (بضم الخاء المعجمة وفتح الزاى) وهم بنو خزيمة بن لؤىّ ، وكان تحته عائذة (بالعين المهملة والياء المثناة تحت والذال المعجمة) بنت الخمس بن قُحافة فعُرِف ولده بها فقيل لهم بنو عائذةَ .

القبيلة الثالثة — بنو عامر، وهم بنو عامر بن لُؤَىّ ، وكان له من الولد حِسْل وبَغيض . ومن ولد حِسْل سُهَيل بن عمرو الذى عقد الصُّلْح مع النبىّ صلى الله عليه وسلم، يوم الحُدَيْبِيَة لقريش، ومنهم عمرو بن عبد وُدّ العامرىّ فارس العرب الذى قتله علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه .

الأصل الرابع — كعب بن لُؤَىّ بن غالب ، ويتفرّع منه خارجا عن عمود النسب قبيلتان

القبيلة الأولى — هُصَيْص (بضم الهاء وفتح الصاد المهملة وسكون الياء المثناه تحت وصاد مهملة فى الآخر). ومن هُصَيْص بنو سَهْم، منهم عمرو بن العاص رضى الله عنه ، وكانت خُطّة بنى سَهْم بفُسْطاط مصر حولَ الجامع العتيق . وقد ذكر الحمدانىّ أن من بنى عمرو بن العاص أشتاتاً بالصعيد، ولهم حصة فى وقف عمرو على أهله بمصر .

ومنهم بنو جُمَح (بضم الجيم وفتح الميم وحاء مهملة فى الآخر) وهم بنو جُمَح بن هُصَيْص المقدّم ذكره، ومنهم أُمَيَّة بن خَلَف عدوّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد ذكر فى "مسالك الأبصار" أن من بنى جُمَح قوما بأذرعات من بلاد الشام .

القبيلة الثانية — بنو عَدِىّ ، وهم بنو عدىّ بن كعب، ومنهم أمير المؤمنين عُمَرُ ابن الخطاب رضى الله عنه وسعيد بن زيد أحد العشرة المقطوع لهم بالجنة ، وقد ذكر القاضى شهاب الدين بن فضل الله فى "مسالك الأبصار" أنه وفد من بنى عدىّ جماعة إلى الديار المصرية فى وزارة الصالح طلائع بن رُزِّيك وزير الفائز الفاطمىّ .

ومنهم رجال من بنى عُمَر بن الخطاب رضى الله عنــه ومقــدّمهُم خَلَف بن نصر العُمَرىّ وأنهم لقُوا من الصالح طلائع بن رُزِّيك وافرَ الإكرام ، ونزلوا بالبَرَلُّس[1] من سواحل الأعمال الغربية . وذكر أن من العُمَريين ببلاد الشام فرقةً بوادى بنى زيد وفرقةً بعجلون .

الأصــل الخامس — مُرَّة بن كعب ، ويتفرّع عنــه قبيلتان علىٰ حاشية عمود النسب

القبيلة الأولىٰ — تَيْم ، وهم بنو تيم بن مرة بن كعب . ومنهم أبو بكر الصــدّيق رضى الله عنه ، وطلحةُ أحد العشرة المقطوع لهم بالجنة . وقد ذكر الحمدانىّ أن من بنى الصــدّيق رضى الله عنه من بنى عبد الرحمن وبنى محمد ولدى أبى بكر رضى الله عنه جماعةً بالأُشْمُونَيْن والبَهْنسائية من صعيد مصر . قال الحمدانىّ ، وهم ثلاث فرقهم وأقرباؤهم وأُطْلِق علىٰ الكل بنو طلحة . فالفرقة الأولىٰ منهم بنو إسحاق ، ويقال إن إسحاق ليس أبا لهم وإنمــا هو (إسحاق) مكان تحالفوا عنده فسُمُّوا به . والفرقة الثانية فصاء طلحة ، وهم بطون كثيرة ، وأكثرهم أشتاتٌ كثيرة فى البلاد لاحدّ لهم . والفرقة الثالثة بنو محمد ، وهم بنو محمد بن أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه ؛ ومنازلهم بالبرجين وسَفْط سُكَّرَة ، وطحا المدينة من بلاد الأُشْمونَيْن فيما ذكره الحمدانىّ ، وأكثرهم الآن بدَهْروط من البهنسائية ، وخرج منهم جماعة من العلماء علىٰ مذهبِي الإمامين مالك والشافعىّ رضى الله عنهما .

القبيلة الثانية — بنو يقَظَة ، وهم بنو يقظة بن مُرَّة . ومنهم بنو مخزوم (بفتح الميم وسكون الخاء المعجمة وضم الزاى وسكون الواو وميم فى الآخر) وهم بنو مخزوم بن

---

(١) قال ياقوت برلس بفتحتين وضم اللام وتشديدها وفى القاموس بُرُلُّس بالضمات وشدّ اللام .

يَقَظه بن مُرَّة بن كعب ، وبه اشتهرت القبيلة دون أبيه يَقظةَ لكثرة عَقِبه دون أبيه . منهم خالد بن الوليد أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو جَهْل ابن هشام عدوّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخوه العاص بنُ هشام ، قُتِلا يوم بدر كافرَيْن ، وأخوهما سلَمَةُ بن هشام ، أسلم وكان من خيار المسلمين . ومنهم سَعيد بن المسيّب التابعيّ المشهور ، وقد ذكر الحمدانيّ أن من بنى مخزوم جماعة بصعيد مصر بالأُشْمُونَيْن وفيهم بأس وشدّة . وذكر أيضا أن منهم خالد حمص وخالد الجار . وذكر أن كلا منهم يَدَّعِى بنوّة خالد بن الوليد رضى الله عنه . ثم قال وقد أجمع أهل العلم بالنسب على انقراض عقبه . قال ولعلهم مِنْ سواه من بنى مخزوم فهم أكثر قريش بقيةً وأشرفُهم جاهلية .

الأصل السادس — كلاب بن مُرَّة ، ويتفرّع منه على حاشية عمود النسب قبيلةٌ واحدة ، وهى زُهْرة (بضم الزاى وسكون الهاء وفتح الراء وهاء فى الآخر) وهم بنو زُهْرة بن كلاب بن مُرَّة قاله أبو عُبيد وغيره . وقد ذكر الجوهريّ أن زُهْرَةَ اسم امرأة كلاب نُسِب ولده إليها . منهم سعد بن أبى وَقَّاص ، وعبدُ الرحمن بنُ عَوْف كلاهما من العشرة المقطوع لهم بالجنة من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلم . ومنهم آمنةُ بنتُ وهبٍ أمُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد ذكر الحمدانيّ أن منهم جماعة ببلاد الأشمونين بصعيد مصر .

الأصل السابع — قُصَىّ بن كلاب بن مره ، وكان قُصَىٌّ عظيما فى قريش ، وهو الذى جَمَعهم بعد التفرّق ، وفى ذلك يقول الشاعر

أَبُوكُم قُصَىٌّ حِينَ يُدْعَى مُجَمِّعا * بِهِ جَمَعَ اللهُ القبائلَ مِنْ فِهرِ

وٱرتجع مفاتيح الكعبة من خُزَاعة بعــد أن كانوا ٱنتزعوها من بنى إسمــاعيل على ما تقدّم ذكره . ويتفرّع منه على حاشية عمود النّسب قبيلتان

القبيلة الأولى ـــ بنو عبد الدار ، وهم بنو عبد الدار بـــن قُصَىّ ، وبيــد بنيه كانت مفاتيح الكعبة دون سائر بنى قُصَىّ . وذلك أن قُصَيًّا لما أخذ مفاتيح الكعبة من أبى غَبْشانَ الخُزَاعىّ ، أرسلها مع ٱبنه عبــد الدار هذا إلى البيت وقال يا بنى إسمــاعيل هذه مفاتيح بيت أبيكم إبراهيم وقد أعادها الله تعالى إليكم . فبقيت بيده من حينئذ ، ومن ولده عثمان بنُ طلحة الحَجَبىّ الذى ٱنتزع النبىُّ صــلى الله عليه وسلم منه مفاتيح الكعبة عام حَجَّة الوداع حين طلبهـا منه لتدخُل عائشــةُ رضى الله عنها البيتَ ليلا فامتنع من ذلك وقال إن الكعبة لم تُفْتَح ليلا قط فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ فأعادها إليه وقال "هِىَ فيكم إلى يومِ القيامة". وقد ذكر فى المسالك أن بحَماة أقواما من بنى عبد الدار .

ومن بنى عبد الدار بنُو شيبةَ بن عثمان المقدّم ذكره ، ٱبن طلحة ، بن أبى طلحة ، بن عبد العزّى ، بن عثمان ، بن عبد الدار ، وهم حَجَبَة الكعبة ، ومفاتيحُها بيدهم إلى الآن . وقد ذكر الحمدانىّ أن من بنى شيبة هؤلاء قوما بصعيد مصر بسفْط وما يليها من بلاد البهنسائية يعرفون بجماعة بهَار .

القبيلة الثانية ـــ بنو عبد العُزّى ، وهو عبد العزى بن قُصَىّ ، منهم هَبَّار بن الأسْود كان يهجو النبىَّ صلى الله عليه وسلم ، ثم أسلم فحسُن إسلامه ومدحه .

ومن بنى عبد العزّى هؤلاء بنو أسد ، وهم بنو أسد بن عبد العزى المقدّم ذكره .

ومن بنى اســد هؤلاء الزُّبَير بن العوّام ، أحدُ العشرة المقطوع لهم بالجنة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومنهم خديجة أم المؤمنين، زوج النبي صلى الله عليه وسلم، وورقة بن نوفل الذى أتته خديجة فى أمر النبي صلى الله عليه وسلم، فى ابتداء النبوة حين جاءه الملك بحراء . وقد ذكر الحمدانى أن من بنى الزبير طائفة بصعيد مصر ببلاد البهنسا وما يليها . فمن ولد عبد الله بن الزبير بنو بدر، وبنو مصلح، وبنو رمضان .

ومن بنى مصعب بن الزبير جماعة يعرفون بجماعة محمد بن وزاق . ومن ولد عروة ابن الزبير بنو عنى .

الأصل الثامن — عبد مناف بن قصى، ولبنى عبد مناف فى قريش النسب الصميم، والحسب الكريم، وإلى هذا أشار أبو طالب بقوله

إذا افتخرت يوما قريش بمفخر * فعبد مناف أصلها وصميمها

ويتفرع منه على حاشية عمود النسب ثلاث قبائل

القبيلة الأولى — بنو عبد شمس بن عبد مناف . ومن عبد شمس بنو أمية، وهم بنو أمية الأكبر وأمية الأصغر ابنى عبد شمس بن عبد مناف .

فأما أمية الأكبر، فكان له عشرة أولاد أربعة منهم يسمون الأعياص، وهم العاص، وأبو العاص، والعيص، وأبو العيص؛ وستة يسمون العنابس، وهم حرب، وأبو حرب، وسفيان، وأبو سفيان، وعمرو، وأبو عمرو .

ومن بنى أمية الأكبر أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه، ومعاوية بن أبى سفيان بن حرب، والحكم بن العاص . ومن ولده كانت المراونة خلفاء بنى أمية .

وأما أمية الأصغر فيقال لأولاده العبلات، ومن عقب أمية الأصغر الثريا بنت عبد الله بن الحارث بن أمية، التى كان يشبب بها عمر بن أبى ربيعة، وكان تزوجها سهيل بن عبد الرحمن بن عوف، وفيهما يقول عمر بن أبى ربيعة

أَيُّهـا الْمُنْكِحُ الثُّرَيَّا سُهَيْلًا * عَمْرَكَ اللهَ كَيْفَ يَلْتَقِيـانِ
هِيَ شامِيَّة إذا ما آسْتَقَلَّتْ * وسُهَيْلٌ إذا آسْتَقَلَّ يَمـانِي

وقد آختلف في النسبة إلىٰ أمية علىٰ مذهبين، أحدهما أنه أُمَوِيّ بضم الهمزة جريًا علىٰ اللفظ في أمية ، وإليه يميل كلام الشيخ أثير الدين أبي حَيَّان في شرح التسهيل ، الثاني أنه ينسب إليها أَمَوِيٌّ بفتحها لأن أُمَيَّة تصغير أَمَة فإذا نسبت رددته إلىٰ أصله وعليه آقتصر الجوهريّ .

القبيلة الثانية — نَوْفل ، وهم بنو نَوْفل بن عبد مَناف، ومنهم نافع[1] بن طريب آبن عمرو بن نوفل الذي كتب المصاحف لعمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وكان نوفل وعبد شمس متآلفين تجرىٰ بنوهما علىٰ ذلك .

القبيلة الثالثة — بنو الْمُطَّلب ، وهم بنو المطلب بن عبد مناف ، وكان الْمُطَّلب متآلفا مع أخيه هاشم بن عبد مناف المقدّم ذكره فجرىٰ بنوهما علىٰ ذلك ، حتّٰى قال النبيّ صلى الله عليه وسلم "لم يَفْتَرِق هاشِمٌ والْمُطَّلِبُ في جاهِلِيَّةٍ ولا إسلام" . ومن بني المطلب الإمام الشافعيّ رضي الله عنه .

الأصل التاسع — هاشم بن عبد مناف، وآسمه عمرو ، وسمي هاشما لهَشْمه الثريد أيام المجاعة، وفي ذلك يقول الشاعر

عَمْرُو الَّذِي هَشَمَ الثَّرِيدَ لِقَوْمِه * ورِجالُ مَكَّةَ مُسْنِتُونَ عِجَافُ

وآنتهت إليه سيادة قريش . وكان له علىٰ حاشية عمود النسب أربعة أولاد . وهم نَضْلة، وأسد، وصيفيّ، وأبو صيفيّ، ولم يشتهروا كل الآشتهار .

الأصـل العاشر — عبد المطلب بن هاشم . وكان له آثنا عشر ولدا عبدُ الله ابو النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وأبو طالب ، والزُّبير، وعبد الكعبة ، والعباس ،

(١) كذا في سبائك الذهب أيضا والذي في العقد الفريد نافع بن طرب

وضِرَار، وحَمْزة، وحَجْل، وأبو لَهَب، وقُثَم، والغَيْداق الملقب بالمُقَوِّم، والحارث أعمام النبيّ صلى الله عليه وسلم على خلاف في العدد فيهم. قال أبو عبيد والعقب منهم لستة حمزة والعباس رضي الله عنهما، وأبو لهب، وأبو طالب، والحارث، وعبد الله.

فأما عبد الله فمن ولده النبيّ صلى الله عليه وسلم، خلاصةُ الوجود، وزُبْدة العالَم. وأما العباس فمن ولده الخلفاء من زمن أبي العبَّاس السَّفَّاح أول خلفائهم وهلم جرا إلى المستعين بن المتوكل خليفة العصر. وأما حمزة فقد ذكر ابن حزم وغيره أن عقبه انقرض. وأما أبو طالب فله ثلاثة أولاد، وهم أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه، وجَعْفر، وعَقيل، فمن ولد أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه الحَسَنُ والحُسَيْن عليهما السلام، من فاطمة بِنْت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعَقِبهما قد ملأ الشرق والغرب، وقد ذكر الحمدانيّ أن منهم بصعيد مصرَ جماعةً من الجَعافِرة بني جَعْفر الصادق من ولد الحُسَيْن بن عليّ. وقال مسكنهم من بحريّ مَنْفَلُوط إلى سَمَلُّوط غربا وشرقا، وعدّ من بطونهم الحَيادِرة، وهم أولاد حَيْدرة، والسلاطنة، وهم أولاد أبي جُحَيش، وذكر أنه كان منهم الشريفُ حِصْن الدِّين بن ثَعلب صاحب دَرْوة سَرَبَام من الأَشْمونين، وبه عرفت بدَرْوه الشريف، وكان قد سَمَتْ نفسُه إلى المُلْك في أواخر الدولة الأيوبية وبقى حتّى ملك الظاهر بيبرس، فأعمل له غوائل الغدر حتّى قبض عليه وشنقه بالإسكندرية. قال ومن بني الحُسَيْن قوم بجَرَجة مَنْفَلُوط، وبني الحُسَيْن هؤلاء تعرفُ القريةُ المسماة بني الحُسَين. وفي أسيوط جماعة من أولاد جَعْفر الصادق يُعرَفون بأولاد الشَّريف قاسم. وذكر في "مسالك الأبصار" أن بسَلَمِيَّة وحَلَب وبلادهما جماعةً من بني الحسين.

ومن ولد جعفر بن أبى طالب أقوام ببلاد الشام بوادى بنى زيد، وبصَرْخد وبلادها جماعةٌ من عامر بن هلال، يدّعون أنهم من بنى جعفر بن أبى طالب أيضا. وفى بعض قُرىٰ أذْرِعات قوم يدّعون أنهم منهم . وأما الحارث وأبو لهب فقد ذكر فى العبر أن لهما عقبا موجودا ولم يصرح بمحله .

الضرب الثالث

(من العرب الموجودين المتردّد فى عروبتهم)

وهم البَرْبَرُ (بباءين موحدتين مفتوحتين بينهما راء مهملة ساكنة وراء مهملة فى الآخر) . قال الجوهرىّ ويقال فيهم البَرابِرة والهاء للعجمة والنسب ولا يمتنع حذفها . وقد ٱختُلف فى نسبهم ٱختلافا كثيرا فذهبت طائفة من النسابين إلىٰ أنهم من العرب . ثم ٱختلِف فى ذلك فقيل أوزاع من اليمن ، وقيــل من غَسَّانَ وغيرهم تفرّقوا عند سَيْل العَرِم قاله المسعودىّ ، وقيل خَلَّفَهم أبرهةُ ذو المَنَار أحدُ تَبَابِعة اليمن حين غزا المغربَ ، وقيــل من ولد لُقْمان بن حِمْير بن سَبَإ، بعث سرية من بنيه إلىٰ المغرب ليَعْمُروه، فنزلوا وتناسلوا فيه، وقيل من لخم وجُذَام ، كانوا نازلين بفَلَسْطِينَ من الشام إلىٰ أن أخرجهم منها بعض ملوك فارس فلجئوا إلىٰ مصر فمنعهم ملوكها من نزولهـا فذهبوا إلى المغرب فنزلوه، وذهب قوم إلىٰ أنهم من ولد لقشان بن إبراهيم الخليل عليه السلام . وذكر الهمدانىّ أنهم من ولد بَرْبَر بن قَيْدار بن إسماعيل عليه السلام، وأنه ٱرتكب ذنْبا فقال له أبوه البَرَّ البَرَّ ٱذهب يا بربرُ فما أنت ببَرّ، وقيل هم من ولد بَرْبَر بن تميلا بن ماريغ بن كَنْعان بن حام بن نُوح عليــه السلام ، وقيل من ولد بَرْبَر بن كسلاجيم بن حام بن نوح ، وقيل من ولد نُميلا بن مارب بن عمرو ٱبن عمْلاق بن لاود بن إرم بن سام بن نوح ، وقيل من ولد قِبْط بن حام بن نوح ،

وقيل أخلاط من كَنْعانَ والعماليق ، وقيل من حِمْيَرَ ومصر والقِبْط ، وقيـل من ولد جالُوتَ ملك بنى إسرائيل ، وإنه لما قتله داود تفرّقوا فى البلاد فلما غزا إفريقش البلادَ نقلهـم من سواحل الشـام إلىٰ المغرب ، وهو الذى رجحه صاحب العبر .
وبالجملة فأكثر الأقوال جانحة إلىٰ أنهـم من العرب وإن لم تحقق من أىّ عرب هم ، وهم قبائل متشـعبة وبطون متفرقة ، وأكثرهم ببلاد المغرب ، وبديار مصر منهم طائفة عظيمة ، قال فى العبر وهى علىٰ كثرتها راجعة إلىٰ أصليـن لا تخرج عنهما أحدهما البَرَانس ، وهم بنو برنس بن بربر . والثانى البُتْر ، وهم بنو مادغيس الأبتر بن بربر . وبعضهم يقول إنهم يرجعون إلىٰ سـبعة أصول ، وهى ازدواجة ، ومصمودة ، وأَوْرَبَّة ، وعجيبة ، وكُتَامة ، وصنْهاجة ، وأوريغة . وزاد بعضهم لمطة ، وهسكورة ، وكزولة . وقد ذكر صاحب العبر منهم الجمَّ الغفيرَ ، والذى تدعو الحاجة إلىٰ ذكره من ذلك طائفتان

الطائفة الأولى — الذين كان منهم ملوك المغرب للحاجة إلىٰ ذلك لمعرفة أنساب الملوك عند المكاتبة إليهم ، وهم ثلاث قبائل

القبيلة الأولىٰ — مَصْمُودة (بفتح الميم وسكون الصاد المهملة وضم الميم وفتح الدال المهملة وهاء فى الآخر) وهم بنو مَصْمُودَةَ بْن برنس بن بَرْبَرَ . قال فى العبر وهم أكبر قبائل البربر ، وأكثرهم عددا ، وأوسعهم شعوبا ، ومنهم الموحدون أصحاب المهدىّ بن تومرت القائم بقاياهم بإفريقية إلىٰ الآن .

ومن مَصْمُودة هَنتاتة (بفتح الهـاء وإسكان النون وفتح التاء المثناة فوق وبعدها ألف ثم تاء ثانية مفتوحة وهاء فى الآخر) ومنهم أبو حفص أحد أصحاب المهدىّ بن تُومرت المقدّم ذكره ، وهو الذى ينسب إليه الحَفْصِيُّون ملوكُ إفريقيـة القائمون بتونس إلىٰ الآن علىٰ ما سيأتى ذكره فى الكلام على المسالك والممـالك .

القبيلة الثانية — زِناتة (بكسر الزاى وفتح النون وبعد الألف تاء مثناة فوق مفتوحة وهاء فى الآخر) وهم بطن من البُتْر من البربر . قال فى العبر واسم زِناتة جانا بالجيم ويقال شانا بالشين، ابن يحيى، بن صولات، بن ورساك، بن صرى، بن رحيك، بن مادغش، بن بربر . ونقل ابن حزم عن بعضهم أن صرى، بن شقعو، بن تندواد، بن نملا، بن مادغش، بن هوك، بن برسق، بن كداد، بن ماريع، بن هراك، ابن هريك، بن بدّا، بن ديان، بن كنعان، بن حام، بن نوح عليه السلام. وقيل جانا ابن يحيى، بن صريس، بن جالوت، بن هريك، بن جديلات، بن جالود، بن رديلات، ابن عصى، بن بادين، بن رحيك، بن مادغش الأبتر، بن قيس عيلان، وحينئذ تكون من العرب العدنانية. وقيل جالوت، بن جالود، بن ديال، بن قحطان، بن فارس فتكون من الفرس . قال فى العبر وتزعم نَسَّابة زِناتة الآن أنهم من حمير من التبابعة فيكونون من القَحْطانية، وبعضهم يقول إنهم من العمالقة . وقد تقدّم عددهم فى العرب .

ومن زِناتة بنو مَرِين (بفتح الميم وكسر الراء المهملة وسكون الياء المثناة تحت ونون فى الآخر) وهم بنو مَرِين، بن ورتاجن، بن ماخوخ، بن وجريح، بن فاتن، ابن بدر، بن يخفت، بن عبد الله، بن ورتنيص، بن المعز، بن إبراهيم، بن رحيك، بن واشين، بن يصلتين، بن مسراء، بن زاكيا، بن ورسيك، بن اديت، بن جانا، وهو زناتة.

ومن بنى مَرِين هؤلاء بنو عبد الحق ملوك فاس القائمون بها إلىٰ الآن علىٰ ما يأتى ذكره فى الكلام علىٰ المسالك والممالك إن شاء الله .

ومن زناتة أيضا بنو عبد الواد ملوك تلمسان من المغرب الأوسط القائمون بها إلىٰ الآن .

القبيلة الثالثة — صَنْهاجة (بفتح الصاد المهملة وسكون النون وفتح الهاء وألف بعدها جيم مفتوحة وهاء فى الآخر) وهم بنو صَنْهاجة، بن برنس، بن بربر .

وقيل صَنْهاج، بن أوريغ، بن برنس، بن بربر. ويقال إنهم من حمير من عرب اليمن قاله ابن الكلبيّ والطبريّ والبيهقيّ والمسعوديّ وعبد العزيز الجرجانيّ .

وحكى ابن حزم أن صنهاج إنما هو ابن امرأة اسمها بَصْلَى وليس له أب معروف وأنها تزوّجت بأوريغ، وهو معها، فولدت له هوّارة(١)، فكان صنهاج أخا هوّارة لأمّه .

ومن صَنْهاجة لَمْتُونة (بفتح اللام وسكون الميم وضم التاء المثناة فوق وفتح النون وهاء فى الآخر) ، ومن لمتونة ملوك المُرابِطين الذين كان منهم أمير المسلمين يوسف ابن تاشفين بانى مدينة مَرّاكُش من الغرب الأقصى ، وهم الذين انقرض مُلْكُهم بدولة الموَحِّدين .

الطائفة الثانية — الذين منهم بالديار المصرية . قال فى العبر وهم قبيلتان

القبيلة الأولى — هَوَّارة (بفتح الهاء وتشديد الواو وفتح الراء المهملة بعد الألف وهاء فى الآخر)، وهم بنو هَوَّارة بن أوريغ، بن برنس، بن بربر. وذكر الحمدانىّ أنهم من ولد بَرّ، بن قَيْدار، بن إسماعيل عليه السلام . قال فى العبر ونسّابتهم يقولون إنهم من عرب اليمن . فتارة يقولون إنهم من عامِلةَ إحدى بطون قُضاعة، وتارة يقولون إنهم من ولد المِسْور، بن السَّكَاسِك، بن وائل، بن حمير، وتارة يقولون من ولد السَّكَاسك، بن أشْرَس، بن كِنْدة، فيقولون هوّار، بن أوريغ، بن حيور، بن المثنّى، ابن المسور . وقد عدّ الحمدانىّ من بطونهم بالديار المصرية بنى محريش، وبنى اسرات، وبنى قطران، وبنى كُريب، ولكنهم الآن قد انبثت بطونهم، وكَثُرت شعوبهم، وصار لهم بطون كثيرة .

منها بنو محمد، وأولاد مأمن، وبندار، والعرايا، والشللة، وأشحوم، وأولاد مؤمنين، والروابع، والروكة، والبروكية، والبهاليل، والأصابعة، والدناحلة، والمواسية

(١) فى العبر بدون هاء التأنيث وقد اختلف الأصل الذى بيدنا فتارة يثبتها وتارة يحذفها

والبلارد ، والصوامع ، والسدادرة ، والربابية ، والحيافشة ، والطردة ، والأهلة ، وارلتين، واسلين ، وبنو قمير، واتيه، والتابعة ، والعمائم، وقرارة ، والعبابدة، وساورة، وعلمان، وحديد، والسبعة . وذكر فى "مسالك الأبصار" أن لهم بالديار المصرية البحيرة ، ومن الإسكندرية غربا إلىٰ العقبة الكبيرة ، ولم يزل الأمر علىٰ ما ذكره إلىٰ آخر المائة الثامنة فى الدولة الظاهرية الشهيدية برقوق فغلبهم علىٰ البحيرة زبارة وحلفاؤهم من بقية عرب البحيرة ، فخرجوا عنها إلىٰ صعيد مصر ، ونزلوا به بالأعمـال الإخميمية فى جرجا وما حولهـا . ثم قَوِيَ أمرهم ، وٱشتدّ بأسهم ، وكثر جمعهم ، حتّى ٱنتشروا فى معظم الوجه القبليّ فيما بين أعمال قوص ، وإلىٰ غربىّ الأعمال البهنسائية ، وأُقْطِعوا بها الإقطاعات ، وصارت الإمرة فى بلاد إخميم لأولاد عمر ، وفى أعمال البهنسا وما حولها لأولاد غريب ، والأمر علىٰ ذلك إلىٰ الآن .

القبيـلة الثـانية — لَوَاتة (بفتح اللام والواو والثاء المثلثـة وهاء فى الآخر)[1] قال الحمدانىّ ويقال لَوَاتا بالألف ، وهم بنو لَوَاتا الأصغر ، بن لَوَاتا الأكبر ، بن زحيك ، ابن مادغش الأبتر ، بن بربر . قال الحمدانىّ وهم يقولون إنهم من قيس من غطفان ، بن سعد ، بن قيس عيلان . وذُكِر عن بعض النسابين أنهم من ولد بَرّ ، بن قَيْدار ، بن إسمـاعيل عليه السلام ، وأنه تزوّج ٱمرأة من العماليق فولدت له أولادا منهم لَوَاتة .

وحكى ٱبن حزم عن بعض النسابة أن لَوَاتة من القِبْط . ثم قال وليس بصحيح . قال الحمدانىّ ولهم بمصر بطون كثيرة ، منهم بنو بلار ، وجد وجاص ، وبنو مجدول وبنو حديدى ، وقطوفة ، وبركين ، ومالو ، ومرورة . قال وبنو حديدى يجمع أولاد

---

(١) ذكرها صاحب القاموس بهذا الضبط فى باب التاء المثناة من فوق فليتنبه

قريش، وأولاد زعارع، وهم أشهر من فى الصعيد . وقطوفة تجمع معاعة وواهلة . وبركين تجمع بنى زيد وبنى روحين . ومرورة تجمع بنى وركان وبنى عرواس . ثم قال فأما بنو بلار ففرقتان فرقة بالبهنسائية، وهم بنو محمد، وبنو علىّ، وبنو برار، ونصف بنى شهلان .

وأما الفرقة التى بالحيرية ، فبنو مخدول ، وسقارة، وبنو أبى كثير، وبنو الحلالس[1] . قال ويقال لهذه الفرقة حد وحاص، ويقال للأولى البلارية، ومنهم معاعة ، ولهم سملوط إلى الساقية، ولبنى بركين قلوسنا وما معها إلى بحرى طهدى[2]، ولبنى حد وحاص الكفور الصولية، وسفط أبو جرجا إلى طهدى[2]، وإهريت . ومنهم بنو محمد، وبنو علىّ المقدّم ذكرهما، وأمراؤهم بنو زعارع .

وأما مروره، فبنو وركان ، وبنو عرواس ، وبنو حمار، وبنو الحكم ، وبنو الوليد، وبنو الحجاج، وبنو الحرمية .

وأما بنو برار . فمن بنى زرية، ومنهم نصف بنى عامر، والحماسة، والصباعة، وهم فى إمارة بنى زعارع . ومنهم أيضا بنو زيد وأمراؤهم أولاد قريش، ومساكنهم النويرة، وبالحيرة منهم صلامس عرب الدرشين ، وبنو منصور عرب منية رهينة، وبنو بكر عرب سقارة، وبنو مخدول، وبنو يونى، وبنو يوسف، وهم تعرف الكفور الثلاثة المسماة باسمهم . وبالمنوفية منهم بنو يحيى، والسوة ، وعبيد، ومصلة، وبنو مختار . ومن لواتة هؤلاء زنارة (بضم الزاى وتشديد النون وألف ثم راء مهملة مفتوحة وهاء فى الآخر)، وهم بنو زنارة من ولد بر، بن قيدار، بن إسماعيل عليه السلام، وقال إنه أخو هوارة ، وأكثر زناره ببلاد المغرب ، ومنهم جماعة

(١) فى السائك بنو الحلاس بالجيم وحرر

(٢) فى معجم ياقوت طهذه بالذال المعجمة وهاء التأنيث

بالبحيرة وجماعة بالمنوفية . وقد عدّ الحمدانى من بطونهم بالبحيرة بنى مرديش، وهم مرداشة، وبنى صالح، وبنى سام ورمران، وأورْيعة ، وعزهان، ولقان . وزاد بعضهم بنى حبون، ووا كدة، وورطيطة، وعرحومة، وطارولة، وبهاث، وباطورة، وبنى السعوية، ومرداشــة، وبنى أبى سعيد، وهم عرب بدر بن ســلام . ومن لواثة أيضــا مزاتة (بضم الميم وفتح الزاى والتاء المثناة فوق وهاء فى الآخر) ، وهم بنو مُزَاتة ، بن لَوَاثَةَ الأصغرِ، ومنازلهم من البحيرة غربا إلى العقبة الكبيرة شرْقة .

المقصد الثــالث

(فى معـــرفة أنساب العجـــم)

وهم مَنْ عدا العربَ من الفُرْس ، والتُرْك ، والرُّوم ، وغيرهم . ويُحتاج إلى ذلك فى المكاتبات إلى ملوكهم، وعَقْد الهُدَن معهم، ونحو ذلك .

والمشهور من الأمم العجمية ست وعشرون أمة

الأولى — الترك (بضم التاء المثناه فوقُ وسكون الراء المهملة وكاف فى الآخر) ، وهم الأمّة المشهورة الذين منهــم مُلُوك الديار المصرية الآن ، وهم من بنى تُرْك ، بن كومر بن يافِث، بن نوح عليه السلام، وقيل من بنى طيراش، بن يافث، ونسبهم آبن سعيد إلى ترك، بن عامَر، بن شمويل، بن يافث . قال فى العبر ويدخل فى جنس الترك القفجاق، وهم الخفشاخ ، والطغرغر، وهم التتر . ويقال فيهــم التتار بزيادة ألف ، والططر بإبدال التــاء طاء، والخطا ، والخرلخيــه والخَزَر، وهم العــز الذين كان منهم ملوك السّــلاجقه، والهَيَاطله ، وهم الصغدر والغور والعلان ، ويقال اللان ، والشركس، والأركش ، والروس فكلّهم مــن جيل الترك ونسبهم داخل فى نسبهم .

الثانية — الجَرَامِقة (بفتح الجيم وكسر الميم وفتح القاف وهاء في الآخر)، وهم أهل المَوْصِل في الزمن القديم . قال ابن سعيد وهم من ولد جُرْموق، بن أشور، بن سام، ابن نوح عليه السلام . وقال غيره من ولد كاثر، بن إرم، بن سام .

الثالثة — الجيل (بكسر الجيم وسكون المثناة تحت ولام في الآخر) ، وهم أهل كيلان من بلاد الشرق . قال ابن سعيد وهم من بني باسل، بن أشور، بن سام، ابن نوح عليه السلام .

الرابعة — الخَزَر (بفتح الخاء والزاى المعجمتين وراء مهملة في الآخر) ، وهم التركمان . في الإسرائيليات أنهم من ولد توغرما، بن كومر، بن يافث، بن نوح، وقيل هم من بني طيراش بن يافث، وقيل نوع من الترك .

الخامسة — الديلم (بفتح الدال المهملة وسكون الياء المثناة تحت وفتح اللام وميم في الآخر) ، وهم الذين كان منهم ملوك بني بُوَيه الخارجين على خلفاء بني العَبَّاس ببغداد . قال في العبر هم من بني ماداى ، بن يافث ، بن نوح ، وقال ابن سعيد من بني باسل ، بن أشور ، بن سام، بن نوح ، وقيل هم من العرب وضعفه أبو عبيد .

السادسة — الرُّوم وضبطهم معروف ، وهم الأمة المعروفة الذين منهم ملوك القُسْطَنْطِينِيَّة الآن ،قيل هم من بني كيتم بن يونان، وهو يانان، بن يافث، بن نوح، وقيل من ولد رومى، بن يونان، بن علجان، بن يافث، بن نوح ،وقيل من ولد رعويل ابن عيصو، بن إسحاق، بن إبراهيم عليه السلام . وقال الجوهرىّ من ولد رُوم، بن عِيصُو بن إسحاق .

السابعة — السُّرْيَان (بضم السين وسكون الراء المهملتين وفتح الياء المثناه تحت

وألف ثم نون)، قال ابن الكلبيّ من بني سُوريان، بن نبيط، بن ماش، بن آدم، ابن سام، بن نوح .

الثامنة — السِّنْد (بكسر السين المهملة وسكون النون ودال مهملة في الآخر)، في الإسرائيليات أنهم من ولد شبا، بن رعما، بن كوش، بن حام، بن نوح، وحكى الطبرى عن ابن إسحاق أنهم من بني كوش بن حام .

التاسعة — السُّودان وسطهم معروف . قال ابن سعيد جميع أحيائهم من ولد حام بن نوح ، ونقل الطبرىّ عن ابن إسحاق أن الحبشــة من ولد كوش بن حام والنُّوبة، والزِّنج، والزَّغاوة من ولد كَنْعان بن حام . وذكر ابن سعيد أن الحبشة من بني حَبَش والنُّوبة من ولد نُوبة أو بني نوبى ، والزِّنج من بني زَنج ، ولم يرفع في نسبهم فيحتمل أنهم من بني حام، وأنهم من بني غيره .

العاشرة — الصَّقَالبة (بفتح الصاد المهملة وفتح القاف وألف بعدها لامٌ مكسورة وباء موحدة مفتوحة وهاء في الآخر)، وهم عند الإسرائيليين من بني ناران بن يافث ابن نوح، وقيل هم من بني اشكّار، بن توغرما، بن كومر، بن يافث .

الحادية عشرة — الصِّين وسطهم معروف، قيل هم من بني صيني، بن ماعوغ ابن يافث، بن نوح، وقيل من بني طوبال بن يافث . وذكر "هرشيوش" مؤرّخ الروم أنهم من بني ماعوغ بن يافث .

الثانية عشرة — العِبْرانيُّون (بكسر العين المهـملة وسكون البـاء الموحدة وفتح الراء المهملة وألف بعـدها نون مكسورة وياء مثناة تحتُ مشدّدة مضمومة وواو ساكنة ثم نون)، وهم الذين يتكلم اليهود بلسانهم إلى الآن . قال الطبرىّ وهم من ولد عابَر، بن شالح، بن أرفخشد، بن سام، بن نوح .

الثالثة عشرة — الفُرْس (بضم الفاء وسكون الراء المهملة وسين مهملة فى الآخر) وهم الذين كان منهم ملوك الأكاسرة . قال ابن إسحاق هم من ولد فارس، بن لاوَد، ابن سام، بن نوح . وقال ابن الكلبى هم من ولد فارس، بن طيراش، بن أشور، بن سام، بن نوح، وقيل من ولد طيراش، بن همدان، بن يافث، بن نوح، وقيل من بنى أُميم، بن لاود، بن سام . ووقع للطبرى أنهم من ولد رعويل، بن عيصو، بن إسحاق، ابن إبراهيم عليه السلام . قال فى العبر ولا التفاتَ إلى هذا القول لأن مُلْك الفُرْس أقدم من ذلك .

الرابعة عشرة — الفرنج (بفتح الفاء والراء المهملة وسكون النون وجيم فى الآخر) قيل من ولد طوبال، بن يافث، وقيل من ولد غطرما، بن كومر، بن يافث .

الخامسة عشرة — القبط (بكسر القاف وسكون الباء الموحدة وطاء مهملة فى الآخر)، وهم الذين كان منهم أهل مصر فى القديم . قال إبراهيم بن وصيف شاه هم من بنى قبطيم، بن قبط، بن مصر، بن بيصر، بن حام، بن نوح، وعند الإسرائيليين أنهم من ولد قبط بن حام .

السادسة عشرة — القُوط (بضم القاف وسكون الواو وطاء مهملة فى الآخر)، وهم أهل الأَنْدَلُس فى القديم . قال "هرشيوش" هم من ولد ماعوغ، بن يافث، بن نوح، وقيل هم من ولد قُوط، بن حام، بن نوح .

السابعة عشرة — الكُرْد (بضم الكاف وسكون الراء المهملة ودال مهملة فى الآخر)، وهم الذين كان منهم بنو أيُّوبَ ملوكُ مصر بعد الفاطميين . قال فى العبر هم من بنى إيران بن أشور، بن سام، بن نوح . قال المقرّ الشهابى ابن فضل الله فى كتابه "التعريف" ويقال فى المسلمين الكُرْد، وفى الكفار الكرج، وحينئذ فيكون الكُرْد والكُرْج نسبا واحدا .

الثامنة عشرة — الكَنْعانيُّون (بفتح الكاف وسكون النون وفتح العين المهـملة وضم الياء المثناة تحتُ المشـدّدة)، وهم الذين كان منهم جبابرة الشام من ولد كنعان ابن حام، بن نوح .

التاسعة عشرة — اللَّمَان (بلام مفتوحة وميم بعدها ألف ونون)، وهم الذين كانوا قصدوا سواحل الشام فى الدولة الأيُّوبيَّـة ومواطنُهم فى شمـالىّ البحر الرومىّ غربا بشمال . قال فى العبر وهم من ولد طوبال، بن يافث، بن نوح .

العشرون — النَّبَط (بفتح النون والباء الموحدة وطاء مهملة فى الآخر)، وهم أهل بابل من العِراق فى الزمن القديم، وإليهم تنسب الفِلاحة النَّبطيَّة لابن وَحْشِيَّة . قال ابن الكلبىّ هم من بنى نبيط، بن ماش، بن إرم، بن سام، بن نوح . وقال ابن سعيد هم من بنى نبيط، بن أشور، بن سام، بن نوح .

الحادية والعشرون — الهِنْـد وضبطه معروف . فى الإسرائيليات أنهم من ولد دادان، بن رعمـا، بن كُوش، بن حام، ونقل الطبرىّ عن ابن إسحاق أنهم من بنى كوش، بن حام، بن نوح من غير واسطة .

الثانية والعشرون — الأَرْمَنُ (بفتح الهمزة وسكون الراء المهملة وفتح الميم ونون فى الآخر) وهم أهل إرْمِينِيَةَ الذين بقاياهم ببلاد سيس، قيل هم من ولد قموئل، بن ناحور، بن تارح، وهو آزر، وتارح أبو إبراهيم عليه السلام .

الثالثة والعشرون — الأَشْبان (بفتح الهمزة وسكون الشين المعجمة وفتح البـاء الموحدة وألف ثم نون) قيل هم من ولد ماشح، بن يافث، بن نوح . وعند الإسرائيليين من ولد ياوان وهو يونان بن يافث ، وعند آخرين أنهـم من شعوب بنى عِيصُو بن

إسحاق، وقال الطبرى أشك أنهم من ولد رعويل بن عيصو بن إسحاق، وهو قريب من الذى قبله .

الرابعة والعشرون اليونان — وهم الأمة الذين كان منهم الحُكَماء شرقىّ الخليج القُسْطَنْطِينِىّ، وهم من ولد يونان، وهو ياوان، بن يافث، بن نوح . وقال البيهقى هم من ولد يونان، بن حلحان، بن يافث . وشذ الكِنْدِىّ فقال يونان، بن عابَر، بن شالَخ، ابن أرفخشد، بن سام بن نوح، فجعل يونان أخا لقَحْطان أبى عَرَب اليمن . وقال إنه خرج من بلاد العرب مغاضبا لأخيه قَحْطَانَ فنزل شرقىّ الخليج القُسْطَنْطِينِىّ، وردّ عليه أبو العباس الناشى بقوله

تُخَلِّط يُونانًا بقَحْطانَ ضِـــلَّةً * لَعَمْرِى لقد باعَدْتَ بينَهُمَا جِدّا

ثم اليونانية على ثلاثة أصناف اللَّطِينِيُّون، وهم بنو لَطِين بن يُونان، والإغريقِيُّون وهم بنو إغريقس بن يونان، واللّكيم، وهم بنو اللكيم بن يونان وهى أصل الروم فيما يقال على ما تقدّم .

الخامسة والعشرون زُوَيْلة — (بضم الزاى وفتح الواو وسكون الياء المثناة تحت وفتح اللام وهاء فى الآخر) وهم أهل بَرْقة فى القديم ، ومنهم الطائفة الذين وَصَــلوا صُحْبَةَ جوهر المُعِزِّىّ بانى القاهرة المنسوب إليهم باب زُوَيْلةَ بالقاهرة، يقال إنهم من بنى حوبلا بن كوش بن حام بن نوح .

السادسة والعشرون يأجوج ومأجوج — وضبطهما معروف . قيل إنهم من ولد ماعوغ، بن يافث، بن نوح، وقيل من ولد كومر، بن يافث .

النوع الثـالث عشر

(المعرفة بمفاخَرات الأمم ومنافَراتهم ، وما جرىٰ بينهم فى ذلك من المحاوَرات والمراجَعات والمُناقضات ، وفيه مقصدان)

المقصـــد الأوّل

(فى بيان وجه احتياج الكاتب إلىٰ ذلك)

لاخفاء أنه يتعين علىٰ الكاتب معرفة المفاخَرات الواقعة بينهم ، من معرفة وجوه الافتخار التى يمدح بمثلها (١) مما يُستعان بمثله علىٰ المدح والإطراء الواقع فى الولايات وما يُفَضَّل به كل واحد من البلغاء علىٰ خَصْمه ، وما يردُ عليه من الأجوبة المنطلقة له ليفسحَ علىٰ منوال ذلك فيما يرد عليه من المخاطبات ، والمكاتبات عند دِعايَةِ ضرورته إليه ، واحتياجه إلىٰ إيراده .

المقصـــد الثـانى

(فى ذكر أنموذَج من المفاخرات ، والمنافرات ننسَج علىٰ منواله)

فأمّا المفاخرات ، فمنها ما رُوِى أنه لما وَفَد علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وَفْد بنى تميم سنَةَ الوُفود بعد فتحْ مكة ، فيهم عُطَارد بن حاجب ، بن زُرَارة ، بن عُدَس التميمى ، وقَيْس بن عاصم ، وقيْس بن الحـارث ، ونُعَيم بن زيد ، وعُيَيْنة بن حِصْن آبن حُذَيفـة بن بدر ، والأقرَعُ بن حابس ، فى لَفّهم ولَفيفهـم ، ودخلُوا المسجد ونادَوْا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من وراء حُجراته أنْ آخرُج إلينا يامحمدُ ، فتأذّى رسول الله صـلى الله عليه وسلم ، من صِياحهم فخرج إليهم — فقالوا يا محمدُ جئناك

(١) لعله والتمكن من معرفة الخ كما يفيده السياق

لمُفاخرك . فأذنْ لشاعرنا وخطيبنا ـ قال "قَدْ أذِنْتُ لخطيبكُمْ فليقُلْ" فقام عُطارِدُ بن حاجبٍ فقال

"الحمدُ لله الذى لَهُ علَيْنا الفضْلُ ، وهو أهلُهُ ، الذى جَعَلَنا مُلُوكا ، ووهبَ لنا أمْوالًا عِظاما نفعل فيها المعروف ، وجَعَلَنا أعزَّ أهل المَشْرِق وأكثَرَه عددا ، وأشدّه عُدّة ، فَمَنْ مِثْلنا فى الناس ؟ ألسنا برءُوس الناس وأُولِى فضلهم ؟ فمن فاخرنا فليعدُد مثلَ ما عَدَدْناه ، وإنا لو نشاءُ لأكْثَرْنا الكلامَ ولكنا نحيَّا عن الإكثار ، وأقول هذا لأن تأتُوا بمثل قَوْلِنا ، وأمْرٍ أفضل من أمرِنا" ثم جلس

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لثابت بن قيس الخَزْرجىّ "قُمْ فأجِبِ الرجُلَ فى خُطْبته" فقام ثابت بن قيس فقال

"الحمد لله الذى السَّمٰوات والأرضُ خَلْقُهُ ، قضىٰ فيهن أمْرَه ، ووسع كرسِيُّه علْمَه ولم يكُنْ شيءٌ قطُّ إلا من فضْله ، ثم كان من قُدْرته أن جعَلَنا مُلُوكًا واصطفىٰ من خير خلقه رسولًا ، أكرَمَه نسبًا ، وأصدَقَه حديثًا وأفضلَه حَسَبا ، فأنزل عليه كتابَه ، وائتمنه علىٰ خَلْقه ، وكان خِيرةً من العالمين ، ثُمّ دعا الناسَ إلىٰ الإيمان به ، فآمن برسول الله المهاجِرُونَ من قومه وذَوِى رَحِمه ، أكرمُ الناس أحسابا ، وأحسَنُهم وجوها ، وخيْرُ الناس فِعالًا ، ثم كان أوّلَ الخلق إجابةً ، واستجابَ لله حينَ دعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم نَحْنُ ، فنحن أنصارُ الله ، ووُزَراء رسول الله ، نُقاتِل الناسَ حتّى يؤمنوا ، فمن آمنَ بالله ورسوله مُنِع ماله ودمه ، ومَنْ كفر جاهَدْناه فى الله أبدا ، وكان قتْلُه علينا يسيرا ، أقول هذا وأستغفر الله لى وللمؤمنين والمؤمنات والسلام عليكم" .

فقام الزبرقان بن بدر التميمى فقال

نحن الكرام فلا حى يعادلنا * منا الملوك وفينا تنصب البيع
وكم قسرنا من الأحياء كلهم * عند النهاب وفضل العز يتبع
ونحن نطعم عند القحط مطعمنا * من الشواء إذا لم يؤنس القزع

وهى أبيات .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لحسان بن ثابت "قم فأجب الرجل فيما قال" فقال حسان رضى الله عنه

إن الذوائب من فهر وإخوتهم * قد بينوا سنة للناس تتبع
يرضى بها كل من كانت سريرته * تقوى الإله وكل الخير يصطنع
قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم * أو حاولوا النفع فى أشياعهم نفعوا
سجية تلك منهم غير محدثة * إن الخلائق فاعلم شرها البدع
إن كان فى الناس سباقون بعدهم * فكل سبق لأدنى سبقهم تبع
لا يرقع الناس ما أوهت أكفهم * عند الدفاع ولا يوهون ما رقعوا
أكرم بقوم رسول الله شيعتهم * إذا تفاوتت الأهواء والشيع

وهى أبيات .

ويروى أن الزبرقان بن بدر قال

أتيناك كيما يعلم الناس فضلنا * إذا احتفلوا عند احتضار المواسم
وأنا فروع الناس فى كل موطن * وأن ليس فى أرض الحجاز كدارم
وإنا نذود المعلمين إذا انتخوا * ونضرب رأس الأصيد المتفاقم
وإن لنا المرباع فى كل غارة * نغير بنجد أو بأرض الأعاجم

(١) فى سيرة ابن هشام : نذود المعلمين .

فقام حسّان بن ثابت فأجابه فقال

هَلِ المَجْدُ إلا السُّودَدُ العَوْدُ والنَّدىٰ * وجاهُ المُلُوكِ واحتمالُ العظائم

نَصَرْنا وآوَيْنا النبيَّ مُحَمَّدًا * علىٰ أَنْفِ راضٍ من مَعَدٍّ وراغم

نَصَرْناهُ لَمَّا حَلَّ وَسْطَ دِيارِنا * بأسيافِنا مِنْ كُلِّ باغٍ وظالِم

جَعَلْنا بَنِينا دُونَهُ وبَناتِنا * وطِبْنا لَهُ نَفْسًا بفَيْءِ المَغانِم

ونَحْنُ ضَرَبْنا النّاسَ حَتّىٰ تَتابَعُوا * علىٰ دِينِه بالمُرْهَفاتِ الصَّوارِم

ونَحْنُ وَلَدْنا مِنْ قُرَيْشٍ عَظِيمَها * وَلَدْنا نَبِيَّ الخَيْرِ مِنْ آلِ هاشِمِ

بَنِي دارِمٍ لا تَفْخَرُوا إنّ فَخْرَكُمْ * يَعُودُ وَبالًا عِنْدَ ذِكْرِ المَكارِمِ

هَبِلْتُمْ عَلَيْنا تَفْخَرُونَ وأَنْتُمُ * لَنا خَوَلٌ مِنْ بَيْنِ ظِئْرٍ وخادِمِ؟

فإنْ كُنْتُمُ جِئْتُمْ لِحَقْنِ دِمائِكُمْ * وأَمْوالِكُمْ أن تُقْسَمُوا فى المَقاسِمِ

فلا تَجْعَلُوا للهِ نِدًّا وأَسْلِمُوا * ولا تَلْبَسُوا زِيًّا كَزِيِّ الأَعاجِمِ

فلما فرغ حسّان من قوله، قال الأقرع بنُ حابس وأبي! إن هذا الرجل مُؤتىً، لخطيبُه أخطبُ من خطيبنا، ولَشاعره أشعرُ من شاعرِنا، ولأصواتُه أعلىٰ من أصواتنا، فأسلَموا وأحسن رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، جوائزَهم.

وفى هذا الوفد نزل «إنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ واللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» .

قلت وهذه مكابَرةٌ ظاهرة، وتجاهُلٌ فاحش من بنى تميم، حيث طلَبُوا المفاخَرة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكلُّ العرب علىٰ اختلاف شُعُوبهم، وتتابع قبائلهم معترِفُون لبنى هاشم بالسَّبْق فى الشرف، والتقدّم فى الفضل، مع مافضّل الله تعالىٰ به

رسوله صلى الله عليه وسلم، وخصّه به من رفيع الشّرف الذى لم يبلغه نبىّ مرسَل، ولا مَلَك مقرّب .

وقد تعرّض أبو نُوَاس فى بعض أشعاره لمدح بنى تميم، وبالغ فى فخرهم فأفحش، فقال

خُزَيْمَـةُ خَيْرُ بَنِى حازِمٍ * وحَازِمُ خَـيْرُ بَنِى دارِمِ

ودارِمُ خَـيْرُ تميمٍ ومَا * مِثْـلُ تميمٍ فى بَنِى آدَمِ

ونقضــه عليه الشيخ فتح الدين بن سَيِّد الناس اليعمرىّ، فقال رحمه الله فأجاد القولَ، وفاز بالقِدْح المُعلّى فقال

مُحَمَّدٌ خَـيْرُ بنى هاشِمٍ * فَمَن تَمِيمٌ ونبو دارِمِ؟

وهاشمٌ خيرُ قُرَيْشٍ ومَا * مِثْلُ قُرَيْشٍ فى بنى آدَمِ!

وهو مأخوذ من قول الأوّل

قُرَيْشٌ خِيَـارُ بَنِى آدَم * وخيرُ قُرَيْشٍ بنو هاشِمِ

وخيرُ بنِى هاشِمٍ أحْمَدٌ * رسولُ الإلٰهِ إلى العالَمِ

وإليه ينظر قول ابن عرسية

للهِ مِمَّـا قَدْ بَرَا صَفْـوةٌ * وصَفْوةُ الخَلْقِ بنو هاشِمِ

وصَفْوةُ الصَّفْوةِ مِنْ بينِهِمْ * محمّدُ النّـورُ أبو القـاسِمِ

ولقد أنصف إسحاق بن إبراهيم الموصلىّ حيث قال

إذا مُضَرُ الحمراءُ كانَتْ أُرُومَتِى * وقامَ بنَصرِى حازِمٌ وابنُ حازِمِ

عَطَستُ بأنفٍ شامخٍ وتناوَلَتْ * يدایَ الثُّرَيَّا قاعِدًا غـيرَ قائمِ

فإنه جعل مُضَر التى هى أُرومةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم، أصلَ فخره وقُعْدُدَ سُودَدِه فأصاب الفخر فى قوله، وفاز بالشرف فى شعره .

قال المولى صلاح الدين الصَّفَدىّ رحمه الله فى شرح لامية العجم "وإنما ذكر حارما لأنه مولى خُريمةَ بن حارم التميمىّ، وإنما نزل أبوه الموصلَ فنُسب إليها" .

ومن لطيف ما يحكى أن معاوية بن أبى سُفيان كان جالسا وعنده جماعة من الأشراف، فقال معاوية "مَنْ أكرمُ الناس أبا وأمّا، وجدّا وجدّة، وعمّا وعمّة، وخالا وخالة؟" — فقام النّعمان بن العجلان الزُّرَقىّ بعد ما أخذ بيد الحسن فقال"هذا أبوه علىّ بن أبى طالب، وأمّه فاطمةُ، وجدّه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، وجدّته خديجةُ، وعمّه جعفر، وعمّتُه أمّ هانئ ابنةُ أبى طالب، وخالهُ القاسم، وخالته زينب، فهذا هو الشرف الذى لا يُدانى والفضل الذى لا يُبارى" .

وقريب من ذلك ما يحكى أنه جرى بين عبد الله بن الزبير وبين معاوية كلامٌ طويل فى آخره — "فقال ابن الزبير، ما مِثْلى يُهارَشُ، ولكن عندك من قريش والأنصار، ومن سابِقِى المُحُون والآطامِ مَنْ إن سألتَه حملك على مَحجّةٍ أبين من ظهر الحَفِير — قال ومَنْ ذلك — قال هذا؟ يعنى أبا الجَهْم بن حُذَيفة — فقال معاوية تكلَّمْ يا أبا الجَهْم — فقال أَعْفِنى — فقال عزَمْتُ عليك لتقولنّ — قال نعم أمُّك هند، وأمه أسماءُ بنتُ أبى بكر، وأسماء خير من هند، وأبوك أبو سُفيان وأبوه الزُّبير ومعاذ الله أن يكون أبو سفيان مثلَ الزبير، وأما الدنيا فلك، وأما الآخرة فله إن شاء الله تعالى .

ومن ذلك ما حكاه ابن الكلبىّ . قال قال كِسْرى للنُّعمان بن المنذر يوما هل فى العرب قبيلة تشْرُف على قبيلة؟ قال نعم — قال فبأىّ شىء ؟ قال مَنْ كانت له ثلاثة آباء متواليةٌ رؤساء، ثم اتّصل ذلك بكمال الرابع فالبيت مَنْ قبيلتهُ فيه ويُنْسب إليه — قال فاطلُبْ ذلك فطلبه فلم يصبه إلا فى آل حُذَيفة بن بدر، وآل حاجِب ابن زُرارة، وآل ذى الجَدَّيْنِ، وآل الأشعث بن قيس بن كِنْدة — قال فجمع هؤلاء

الرهط ومَنْ تبعهم من عشائرهم وأقعد لهم الحُكّام والعُدول ، وقال ليتكلم كل رجل منكم بمآثر قومه وليَصْدُق ، فكان حذيفةُ بنُ بدر الفزاريّ أوّل متكلم ، وكان ألْسَن القوم ، فقال قد علمتِ العربُ أن فينا الشرفَ الأقدمَ والأعَزَّ الأعظم ، ومأثرةً للصنيع الأكرم — فقال مَنْ حوله ولِمَ ذاك يا أخا فزارة ؟ فقال ألَسْنا الدعائمَ التى لا تُرام ، والعزَّ الذى لا يُضام ؟ قيل صدقت . ثم قام شاعرهم فقال

فَزَارةُ بَيْتُ العِزِّ والعِزُّ فيهمُ ! * فَزَارةُ قَيْسٍ حسبُ قَيْسٍ نِضالُها

لهـا العِزّةُ القعْساءُ والحَسَبُ الذى * بَنَـاه لقَيْسٍ فى القَـديم رِجالُها

فهيهاتَ قد أعْيَا القُرونَ التى مَضتْ * مآثرُ قَيْسٍ مَجْـــدُها وفعـالُها

وهَـلْ أحَدٌ إن هَزَّ يَوْمًا بكَفِّه * إلىٰ الشَّمْسِ فى مَجْرىٰ النُّجُوم ينالُها

فإن يَصْلُحُوا يَصْلُحْ لذاكَ جميعُها * وإن يَفْسُدوا يَفْسُدْ من الناس حالُها

ثم قام الأشعث الكندىّ ، وإنما أذِن له أن يقوم قبل ربيعةَ وتميم لقرابته من النعمان بن المنذر ، فقـال ، قد علمت العرب أنا نُقاتل عديدَها الأكثرَ ، وزحْفَها الأكبرَ ، وإنا غِيَاث الكُرُبات ومَعْدِنُ المكْرُمات — قالوا ولم يا أخا كِندةَ ؟ قال لأنا ورِثْنا ملكَ كِندةَ فاستظللنا بأفيائه ، وتقلدنا منكبه الأعظم ، وتوسـطنا بُحْبُوحه الأكرم ، ثم قام شاعرهم ، فقال

إذا قِسْتَ أبيـاتَ الرِّجالِ ببَيْتِنَا * وجَدْتَ لنا فَضْلاً علىٰ مَنْ يُفاخِر

فَمَنْ قال كَلَّا أو أتانا بخُطـةٍ * ينـافِرُنا فيهـا فنحنُ نُخَاطِـر

تَعَالَوْا قِفُوا كَىْ يعلَمَ الناسُ أيُّنَـا * لَهُ الفَضْـلُ فيمَا أوْرَثَتْهُ الأكابِرُ

ثم قام بِسْـطامُ الشَّيبانىّ فقال " قد علمت العرب أنا بُناةُ بيتها الذى لا يزولُ ، ومَغْرِس عزِّها الذى لا يحول ، قالوا ولِمَ يا أخا شيبان — قال لأنا أدركهم للثار ، وأضرَبُهم للملك الجَبَّـار ، وأقومهم للحُكْم ، وألَدُّهم للخصم . ثم قام شاعرهم فقال :

لَعَمْرِىَ بِسْطَامٌ أَحَقُّ بِفَضْلِها * وأوّلُ بيتِ العِزِّ عِزِّ القبائِلِ
فسائِلْ (أبَيْتَ اللّعْنَ) عن عِزِّ قومِها * إذا جَدّ يومَ الفخر كُلُّ مُنَاقِلِ
أَلَسْنا أعزَّ الناس قومًا ونُصرةً * وأضْرَبَهُم للكَبْش بين القبائِلِ
وقائعُ عِزٍّ كلُّها رَبَعِيَّةٌ * تَدُلُّ لها عِزًّا رِقابُ المَحَافِلِ
إذا ذُكِرتْ لم يُنْكِر الناسُ فَضْلَها * وعادَ بها مِنْ شَرِّها كُلُّ وائِلِ
وإنا مُلوكُ الناسِ في كُلِّ بَلْدةٍ * إذا نزلَتْ بالناس إحدى الزَّلازلِ

ثم قام حاجبُ بنُ زُرارة التميمىّ. فقال: قد علمت مَعَدٌّ أنّا فرعُ دعامتِها، وقادَةُ زَحْفِها — قالوا: ولِمَ ذاك يا أخا بنى تميم؟ قال لأنا أكثر الناس عديدا، وأنجبهم طُرًّا وليدا، وأنا أعطاهُم للجزيل، وأحمَلُهم للثقيل، ثم قام شاعرهم فقال:

لَقَدْ عَلِمَتْ أبناءُ خِنْدِفَ أننا . لنا العِزُّ قِدْمًا فى الخُطُوب الأوائِلِ
وأنا كِرامٌ أهلُ مَجْدٍ وثَرْوةٍ . وعِزٍّ قديم ليس بالمتضائِلِ
فكَمْ فيهمُ من سَيِّدٍ وابنِ سَيِّدٍ . أعزَّ نجيبٍ ذى فعَالٍ ونائِلِ
فسائِلْ (أبَيْتَ اللعنَ) عنَّا فإننا دعائمُ هذا الناسِ عِنْد الحَلائِلِ

ثم قام قيسُ بن عاصم السعدىّ فقال: لقد علِم هؤلاء أنا أرفعُهم فى المكْرُمات دعائم، وأثبَتُهم فى النائبات مقادم، قالوا: ولم ذاك يا أخا بنى سعد؟ قال لأنا أدركهم للثار، وأمنعهم للجار، وأنا لا نَنْكُل إذا حملنا، ولا نُرام إذا حلَلْنا. ثم قام شاعرهم فقال:

لَقَدْ عَلِمَتْ قَيْسٌ وخِنْدِفُ أنَّنا * وجُلُّ تميم والجميع الذى ترى
بأنَّا عِمَادٌ فى الأُمُور وأننا . لنا الشَّرَفُ الضَّخْمُ المُرَكَّبُ فى الندى
وأنا لُيوثُ الناس فى كُلِّ مأْزِقٍ . إذا حُرَّ بالبيض الجماجمُ والطُّلَى[1]

(١) الطلى بالضم جمع طليه وهى الأعناق

فمن ذا ليوم الفخر يعدل عاصمًا * وقيسًا إذا مرّت ألوفٌ إلى العلا
فهيهات قد أعيا الجميعَ فعالُهم * وقاموا بيوم الفخر مسعاة من سعى

فقال كسرى حينئذ ليس منهم إلا سيد يصلح لموضعه ، وأسنى حباءهم ، وأعظم صلاتهم ، وكرّم مآبهم .

قال أبو عبيدة كانت العرب تعدّ البيوتاتِ المشهورةَ بعظم القدر والشرف . تعدّ بيتَ هاشم بن عبد مناف ، وتعدّ أربعة ، أولها بيت آلِ حُذيفة بن بدر ، وبيت آل زرارة الدارميّين بيت بنى تميم ، وبيت آل ذى الجدّين عبد الله بن عمرو بن الحارث بن همام بيت بنى شيبان ، وبيت بنى الديّان من بنى الحارث بن كعب بيت اليمن . قال فأما كندة فلا يُعدّون فى البيوتات إنما كانوا ملوكا .

واعلم أن المفاخرة قد تكون بحقيقة الحسب . وقد تكون فيها الفصاحة واللَّسن مقامَ الحسب كقول أبى تمام الطائىّ يفتخر

أنا ابنُ الذين استُرضِع المجدُ فيهمُ ، وسُمّى فيهم وهو كَهْلٌ ويافع
مضَوْا وكأنّ المكرُماتِ لديهمُ لكثرةِ ما وصَّوْا بهنّ شرائعُ
فأىُّ يدٍ فى المجد مُدّتْ فلم يكن لها راحةٌ من مجدهم وأصابعُ
همُ استودَعوا المعروفَ محفوظ مالنا فضاعَ وما ضاعتْ لدينا الودائعُ

وقوله أيضا

جرى حاتمٌ فى حلبة منه لو جرى بها القطرُ شأوًا قيل أيُّهما القطرُ
فتًى دخر الدنيا أُناسٌ ولم يزل لها باذلًا فانظر لمن بقى الذُّخر
فمن شاء فليفخر بما شاء من ندًى فليس لحىٍّ غيرنا ذلك الفخرُ
جمعنا العلا بالجود بعد افتراقها إلينا كما الأيامُ يجمعُها الشّهر

قال فى شرح اللامية وعند أكثر الناس أن أبا تمام كان أبوه نصرانيا يقال له تدرس العطار، من جاسم . قرية من قرىٰ حَوْران من الشام، فغير آسم أبيه وآندس فى بنى طيئ، وذكر صاحب الأغانى أن رجلا قال لجرير من أشعرُ الناس؟ قال قم حتى أعرفك الجواب، فأخذ بيده وجاء به إلىٰ أبيه عطيةَ، وقد أخذ عَنْزاً له فاعتقلَها وجعل يَمصُّ ضَرْعَها، فصاح به آخرُجْ يا أبت، فخرج شيخ دَميم، رثُّ الهيئة . وقد سال لبن العنز علىٰ لِحْيَته ، فقال ترىٰ هـذا ؟ قال نعم . قال أو تعرفه قال لا . قال هذا أبى، أو تدرى لم كان يشرب من ضرع العنز؟ قال لا، قال مخافة أن يسمع صوتُ الحَلْب فيطلب منه، ثم قال أشعرُ الناس من فاخر بهذا الأب ثمانين شاعرا وقارعهم فغلبهم .

قال الصلاح الصفدى ما هذه إلا وقاحة عظيمة من جرير فى مفاخرته أولئك الشعراء وهذا أبوه، لكنه تغفر له هذه الوقاحة بآعترافه لذلك الرجل، وإظهار بخل أبيه .

وربما كان الآفتخار بالتورية والتعريض بالأمور المقتضية للشرف، بحيث يظن السامعُ حقيقة الآفتخار والشرف بمجرد السماع، فإذا عرف المقصد تبين له خلاف ذلك، كقول أبى الحسن الجزار

أَلَا قُــلْ لِلَّذِى يَسْأَ * لُ عَنْ قَوْمِى وَعَنْ أَهْلِى
لَقَــدْ تَسْأَلُ عَنْ قَومٍ * كِرَامِ الفَرْعِ والأَصْلِ
يُرِيقُـونَ دَمَ الأَنْعَـا * مِ فى حَزْنٍ وفى سَهْلِ
وما زالُوا لمـا يُبْـدُو * نَ من بأسٍ ومِنْ بَذْلِ
يُرَجِّيهِـمْ بَنُو كَلْبٍ * ويَخْشَاهُمْ بَنُو عِجْـلِ

وقوله أيضا

إِنِّى لَمِنْ مَعْشَرٍ سَـفْكُ الدِّماءِ لَهُمْ دَأْبٌ، وسَلْ عَنْهُمُ من رَبِّ تَحْقيق

تُضِيءُ بالدّم إشراقًا قواضِبُهُمْ * فكلُّ أيّامِهِـمْ أيّامُ تَشْرِيقِ

وعلى هـذا المَنْهج ما حكاه بعضهم ، قال وجدت على قبرٍ مكتوبا أنا ٱبنُ من كانت الريحُ طوعَ أمره ، يحبسها إذا شاء ، ويُطْلِقها إذا شاء ، قال فعَظُم فى عينى ، ثم ٱلتفتُّ إلى قبرٍ آخر فإذا عليه مكتوب لا يغترَّ أحدٌ بقوله ، فما كان أبوه إلا بعض الحدّادين ، يحبس الريح فى كِيره إذا شاء ، ويرسلها إذا شاء ، قال فعجبت منهما يتسابّان ميتين ، وإذا طرق السمع شىء من ذلك ظنّ السامع أنه فى غاية الفخر والشرف حتّى يعلم حقيقته ، وأشباه ذلك ونظائره كثيرة ، وليس هذا موضعَ ٱستيعاب القول فى المفاخرة الحقيقية ولا غيرها .

وأمّا أيام المنافرة وهى المحاكمة فى الحسب ، فمن ذلك ما يحكى أن الأعشى أتى علقمة ، بن عُلاثةَ ، بن عَوْف ، بن الأحْوَص ، بن جعفر ، بن كلاب ، وهو يريد سلامةَ ذو فائِش[1] الحميرىّ من التبابعة ، فسأل الأعشى علقمة أن يُثْبِتَه أى يجيره ، فقال له علقمةُ أُثْبِتك على بنى الأحوص — قال لا يُقْنِعنى — قال فعلى بنى كلاب قال لا يقنعنِى — قال وليس عندى أكثرُ من هذا ، فأتى عامرَ بنَ الطُّفَيْل بنِ مالك ٱبن جَعْفر بن كِلاب ، قال قد أُثْبِتك على الجنّ والإنس ، ثم أتى سـلامةَ فٱنصرف من عنده بجائزة .

وكان عامر وعلقمةُ المذكوران لمّا أسنّ أبو براء وهو عامر بن مالكٍ ، بن جعفر ، ٱبن مُلاعِب الأسِنَّة تنازعا فى الرياسة .

فقال علقمة كانت لجدّى الأحوص وإنما صارت لعمك بسببه وقد قعد عمّك عنها وأنا ٱسترجعتُها فأنا أولى بها منك ، فشرِىَ الشرّ بينهما وسارا إلى المنافرة ،

---

(١) وقع فى الأصل وأبافس وهو تصحيف من الناسخ

وقدم الأعشى على تفيئة (١) ذلك فصار هو ولبيد مع عامر، وصار مع علقمة الحُطيئة، والسَّندرىّ، وتنافروا .

فقال عامر لعلقمة والله إنى لأكرم منك حَسَبا ، وأثبتُ منك نَسَبا ، وأطولُ منك قَصَبا .

فقال علقمة والله لأنا خيرٌ منك ليلا ونَهارا .

فقال عامر والله لأنا أحب إلى نسائك أن أُصْبح فيهنّ منك .

فقال علقمة أنافرك إنى لبر، وإنك لفاجر، وإنى لولُود، وإنك لعاقر، وإنى لعَفٌّ، وإنك لَعَاهر، وإنى لوافٍ، وإنك لغادر .

فقال عامر أنت رجل ولُود وأنا رجل عقيم وقد وَفَيت لبنى عَمْرو بن تميم .

وقد زعموا أنى غَدَرت بهم وهم كاذبون، ولكنى أنافرك أنا أنْحَر منك لِلّقَاح، وخير منك فى الصَّبَاح، وأطعم منك فى السنة الشِّيَاح (٢) .

فقال علقمة أنت رجل تقاتل والناس تزعم أنى جَبَان ، ولأن تلقى العدو وأنا أمامك أعزّ لك من أن تلقاهم وأنا خَلْفَك ، وأنت رجل جواد والناس يزعمون أنى بخيل ولست كذلك ، وأنت تعطِى العشــيرةَ إذا ألَمّت ، ولكنى أنافرك أنا خير منك أثرًا، وأحدّ منك بصرا، وأشرف منك ذِكْرا .

فقــال عامر أنت رجل فانٍ ، والبس لبنى الأحوص فضــل على بنى مالك فى العَدد ، وبصرى ناقص وبصرك صحيح ، ولكنى أنافرك أنى أسمى منك سُمّة ، وأطول منك قِمّة ، وأحسنُ منك لِمّة ، وأجعد منــك جُمّة، وأسرعُ منك رحمة ، وأبعدُ منك هِمّة .

---

(١) أى على أثره انظر القاموس فى مادة ف ى أ (٢) الشياح بالكسر القحط

فقــال علقمة أنت رجل جسيم وأنا رجل قَصيف ، وأنت جميل وأنا قبيح ، ولكنى أنافرك بآبائى وأعمامى .

فقال عامر آباؤك أعمامى ، ولم أكن لأنافرك فيهم ، ولكنى أنافرك أنا خيرٌ منك عَقِبا ، وأطعمُ منك جَدْبا .

فقــال علقمة قد علمتُ أن لك عقبا وقد أطعمت طيبا ، ولكنى أنافرك أنى خير منك وأولىٰ بالخير منك .

فقال عامر إنى والله لأركبُ منك فى الحُمَاة ، وأقتَلُ منك للكماه ، وخير منك للموالاه .

فقــال بعض بنى خالد بن جعفر ، وكانوا يدا مع بنى الأحوص علىٰ بنى مالك بن جعفر إنك لن تطيق عامرا ، ولكن قل له أنافرك لخيرنا ، وأقربنا للخيرات .

فقال علقمة له ذلك .

فقال عامر عير[1] وتيس وتيس وعنز فأرسلها مثلا نعم علىٰ مائة من الإبل إلىٰ مائة يعطاها الحكم أيناً ينفر عليه صاحبه أخرجها ففعلوا ، ووضعوا بها رَهْنا من أبنائهم علىٰ يدىْ رجل يقال له خُزَيمة بن عمرو بن الوَحيد فسُمّى الضمينَ ، وصارت علما عليه إلىٰ الآن ، وخرج علقمة ومن معه من بنى خالد وعامر فيمن معه من بنى مالك وقد أتىٰ عامرُ بن الطفيل عمّه عامرَ بن مالك بن جعفر وهو أبو براء ، فقال يا عماه أعِنّى — فقال يا ابن أخى سُبّنى ، فقال لا أسُبّك وأنت عمى — قال فسُبَّ الأحوص — فقال عامر ولا أسُبُّ والله الأحوص وهو حى . فقال ولكن دونك نعلى فإنى قد رَبَعت فيها أربعين مِرْباعا فاستعِنْ بها على منافرتك ، وجعلا منافرتهما إلىٰ أبى سفيان[2]

---

(١) هكذا فى الأصل .

(٢) لعله إبلى .

ابن حرب بن أمية فلم يقل بينهما شيئا، وكره ذلك لحالها وحال عشيرتهما، وقال لهما أنتما كرُكْبَتَيِ البعيرِ الأَدْرَم، وأبى أن يقضي بينهما، فانطلقا إلى أبي جهل بن هشام، فأبى أن يقضي بينهما، فوثب مروانُ بن سُراقة، بن قتادة، بن عمرو، بن الأحوص وكان مع علقمة فقال

يا لَقُرَيْشٍ بَيِّنُوا الكَلامَا * إنَّا رَضِينَا مِنْكُم الأَحْكَامَا
فَبَيِّنُوا إذْ كُنْتُمُ الحُكَّاما * كان أبونا لهم إمَامَا
وعَبْدُ عَمْرٍو مَنَع الفِئَامَا * في يومِ فَخْرٍ مُعْلَمٍ إعلاما
يُحْسِنُ فيه الكَرَّ والإقْدامَا * ودِعْلِج أقدمَهُ إقداما
لولا الذي أحْشَمْتُم إحساما * لأَتْحَدَتْهُمْ مَذْحِجٌ أنعاما

فأبوا أن يقولوا بينهما شيئا، فأتيا عيلان بن سلمة بن معتب الثقفيّ فردّهما إلى حرملة بن الأشعر المرّيّ، فردّهما إلى هَرِم بن قُطْبة بن سِنان الفَزَاريّ، وإنهما ساقا الإبل معهما حتّى أشتَتْ وأربعت لا يأتيان أحدا إلا هاب أن يقضي بينهما، فوعدهما هَرِمٌ إلى العام القابل، فأتيا للوعد، وقال لبيد وكان مع عامر يومئذ يرتجز

يا هَرِمُ، وأنت أهلُ عَدْلِ * هل يَذْهَبَنَّ فَضْلُهُمْ لِفَضْلِي[1]
إن يفخرِ الأحوصُ يوماً قبلي * لَيَذْهَبَنَّ أهلُه بأهلي
لا تجمعَنَّ شكلَهُمْ وشكلي * ونَسْلَ آبائهمُ ونسلي
قد علموا أنّا كرامُ الأصْلِ

وقال أيضا

إنّي امْرُؤٌ من مالك بن جَعْفَرِ * عَلْقَمَ قد نافرتَ غيرَ مُنْفَرِ
* نافرت سَقْبا من سِقَاب العَرْعَرِ *

---

(١) لعله بفضلي بالبا

فقال لحُامة بن عوف بن الأحوص بن جعفر

مَهْه إليكَ الشِّـعْرَ يا لَبِيدُ * واصْدُدْ فقد ينفعُكَ الصُّدود

سـادَ أبونا قبْلَ أنْ تَسُودُوا * سُودَدُكُمْ صَغِيرُه زَهِيدُ

ثم قال

إنِّى إذا ما نُسِى الحَيَاءُ وضاعَ يَوْمَ المَشْهَدِ اللِّواءُ

أُنْمَىٰ وقَدْ حُقَّ لِيَ النَّمـاءُ . إلىٰ كُهُول ذِكْرها سَنَاءُ

إذ لا تَزال حُلْوَةٌ كَوْماءُ . مَنْقـورَةٌ لسَـقْبِها رُغاءُ

لم يَنْهَهَا عَنْ نَحْرِها الصَّفَاء . لَنـا علَيـكُمْ سَوْرَةٌ ولاء

. المجْدُ، والسُّودَدُ، والعَطَاءُ

ثم قال

أَنتُمْ عزَلْتُمْ عامِرَ بنَ مالكِ * فى سَنَواتِ مُضَرَ الهَوالكِ

. يا شَرَّ أحْيَاء وشَرَّ هالِك ،

وكان السندرىّ مع علقمة فارتفع صوته، فقيل مَنْ ذا ؟ فقال

أنا لِمَنْ أنكَرَ صَوْتِى السَّـنْدَرِىّ أنا الفتىٰ الجَعْدُ الطُّوالُ الجَعْفَرِىّ

مِنْ وَلَدِ الأحْوَصِ أخوالِى عَبِىّ

فقال عامر للبيد أجبه فرغب عن إجابته، وكان السـندرىّ يقال لجدّته عَيْساء، وكانت أمةً لفاختـة ابنة جعفر بن كلاب، امرأة شُرَيح بن الأحوص، فوقع عليها شُرَيح فولدت له رَبَّان، و يزيد، وشهابا، فقال لبيد

لَمَّا دَعانِى عامِرٌ لأَسُـبَّهُمْ أبَيْتُ وإنْ كانَ ابنُ عَيْساء ظالِمَا

ألَا أَيُّمـا ما كان شَرًّا لمـالكٍ ولا زال يلْقَىٰ فى الحَياةِ المَلاوِمَا

لِكَيْلا يَكُونَ السَّنْدَرِيُّ نَدِيدَتِي(١) * وأَشْتُمَ أَعْمَامًا عُمُوما عَمَاعِمَا
وأَنْشُرَ مِنْ تَحْتِ القُبُورِ أُبُوَّةً * كِرَامًا هُمُ شَدُّوا عَلَيَّ التَّمَائِمَا
لَعَمْرُ عَلَىٰ أَكْتَافِهِمْ وَنُحُورِهِمْ * وَلِيدًا وسَمَّوْنِي وليدا وعاصما
بَلَىٰ أَيُّهَا ما كانَ شَرًّا لِمَالِكٍ * فَلَا زالَ فِي الدُّنْيا مَلُوماً ولائِمَا

ووثب الحطيئة فقال

مايُحْسِنُ الحُكَّامُ بالفَصْلِ بَعْدَمَا * بَدَا سابِقٌ ذُو غُرَّةٍ وحُجُولِ ؟

حتّى أتىٰ علىٰ قصيدة كاملة ، ثم قال

يا عامِ قَدْ كُنْتَ ذَا بَاعٍ ومَكْرُمَةٍ * لَوْ أَنَّ مَسْعاهَ مَنْ جَارَيْتَه أَمَمُ

وأقام القوم علىٰ ذلك أياماً ، فأرسل هَرِمٌ إلىٰ عامر فأتاه سِرًّا لا يعلم به أحد ، فقال يا عامر كنتُ أحْسَبُ أن لك رأْيًا ، وأن فيك خيرا ، وما حبَسْتك هذه الأيام إلا لتنصرف عن صاحبك ، أتُنافر رجلا لاتفخَرُ أنت ولا قومُك إلا بآبائه ، فما الذى أنت به خير منه ؟ فقال عامر أَنْشُدُك الله والرحمَ أن لا تفضِّل علىّ علقمة ، فوالله لئن فعلتَ لا أُفْلِح بعدها أبدا ! هذه ناصيتى لك فاجْزُزْها واحتكم فى مالى ، وإن كنت لا بدّ فاعلا فسوّ بينى و بينه — فقال انصرف فسوف أرىٰ رأْيِى فخرج عامر وهو لايشك أنه سيفضله عليه ، ثم أرسل إلىٰ علقْمة سرا ، وقال له مثل ماقال لعامر ، فردّ عليه علقمة بما ردّ به عامر وانصرف وهو لا يشك أنه سيفضّل عامرا عليه ، ثم إن هَرِما أرسل إلىٰ أخيه و بنى أخيه إنى قائل غدا بين هذين الرجلين مقالةً ، فإذا فرغت فليطرد بعضكم عَشْر جزائر فلينحرْها عن علقمة ، وليطرد بعضكم مثلها فلينحرها عن عامر ، وفرِّقوا بين الناس أن لا تكون لهم جماعة . وأصبح

(١) فى اللسان نديدتى وأجعل — أى ندى وعماعما أى معرفه .

هَرِم فجلس مجلسَه وأقبل الناس، وأقبل علقمة وعامر حتّى جلسا، فقال لبيد

يا هَرِمُ ابنَ الأكرمين مَنصِبا * إنّكَ قد وُلِّيتَ أمرًا مُعجِبا
فاحكُمْ وصوِّبْ رأيَ مَن تَصَوَّبا * إنّ الّذي كُنتَ عَلَيهِ تُرتَبا
لَخَيرُنا حالًا وأُمًّا وأَبا * وعامرٌ خيرُهُما مُرَكَّبا
* وعامرٌ أدنىٰ لِقَيسٍ نَسَبا *

فقال هَرِم إنكما يا ابنَي جعفر قد تحاكمتما عِندي وأنتما كرُكبتَي البعير الفحلِ تقعان الأرض معا، فليس منكما واحد إلا وفيه ما ليس في صاحبه، وكِلاكما سيّدٌ كريم، فعمد بنو هَرِم وبنو أخيه إلىٰ تلك الجُزُر فنحرُوها حيث أمرهم هَرِم، وفرّقوا بين الناس، ولم يفضّل هرم واحدا منهما علىٰ صاحبه، وكره أن يجلب بذلك شرًّا علىٰ الفتيين، وهما ابنا عم، فلما رأىٰ ذلك الأعشىٰ، خرج وهو يقول

شاقَكَ مِنْ قَتْلَةَ أطلالُها	بالشَّطِّ فالوِتْرِ إلىٰ حاجِرِ
وقَدْ أراهَا وَسْطَ أتْرابِها	في الحَيِّ ذي البَهْجةِ والسّامِرِ
إذْ هِيَ مِثلُ الغُصنِ مَيّالةٌ	تَرُوقُ عينَيْ ذي الحِجَا الزائرِ
كَدُمْيةٍ صُوِّرَ مِحرابُها	بِمُذْهَبٍ في مَرمَرٍ مائرِ
تُشْفي عليلَ النَّفسِ لاهٍ بها	حَوراءُ تُنْسي نَظَرَ النّاظرِ
عَهْدي بها في الحَيِّ قَدْ سُرْبِلَتْ	هَيفاءُ مِثْلَ المُهْرةِ الضّامِرِ
مَمْشُوقةُ القَدِّ عُلاميَّةٌ	مَوْصُوفةٌ بالخُلقِ الطّاهرِ
قَدْ نَهَدَ الثَّدْيُ علىٰ نَحْرِها	في مُشْرِقٍ ذي صَبَحٍ نائرِ
لَوْ أسْنَدَتْ مَيْتًا إلىٰ نَحْرِها	عاشَ ولم يُنْقَلْ إلىٰ قابرِ
حتّى يقولَ النّاسُ مِمّا رَأوْا	يا عَجَبًا للميِّتِ النّاشِرِ
عَلْقَمَ ما أنتَ إلىٰ عامرٍ	النّاقضِ الأوْتارَ والواتِرِ

والفارس الخيل بخيل إذا * ثار غبار الكبة الثائر
سُدْتَ بني الأحوص لم تعدهم * وعامرٌ ساد بني عامر
إنّ الذي فيه تماريتما * بيّنٌ للسامع والناظر
حكّمتموه فقضىٰ بينكم * أبلج مثل القمر الزاهر
لا يأخذ الرّشوة في حكمه * ولا يبالي غبن الخاسر
فأعجب الدهر متىٰ سوّيا * كم ضاحك من ذا ومن ساخر ؟
فاقن حياءً أنت ضيّعته * مالك بعد الشّيب من عاذر
ولست بالأكثر منهم حصى * وإنّما العزّة للكاثر
أقول لمّا جاءني فخره * سبحان من علقمة الفاخر !
علقم لا تسفه ولا تجعلن * عرضك للوارد والصادر
قد قلت قولا فقضىٰ بينكم * واعترف المنفور للنافر

وعاش هرم حتّى أدرك خلافة عمر رضي الله عنه ، فقال : يا هرم أيّ الرجلين كنت مفضّلا لو فعلت ؟ فقال : لو قلت ذلك اليوم يا أمير المؤمنين ، عادت جذعة ، ولبلغت شعفات هجر — فقال عمر رضي الله عنه : "نعم مستودع السّرّ أنت ياهرم ! مثلك فليستودع العشيرة أسرارهم ، وإلىٰ مثلك فليستبضع القوم أحكامهم" .

قال أبو عبيدة : ومات علقمة بحوران وهو والي عمر بن الخطاب . وأما عامر ابن الطّفيل فأصابته دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأصابته الغدّة ومات في بيت سلوليّة ، فقال : أغدّة كغدّة البعير وموتٌ في بيت سلوليّة ؟

وفي هذه القصة مقنع في المنافرة عن غيرها ، وفي كتاب "الريحان والريعان" لبعض الأندلسيين جملة من هذه المفاخرات والمنافرات

———

النوع الثـالث عشر

(المعرفة بأيام الحروب الواقعة، وفيه ثلاثة مقاصد)

المقصـــد الأوّل

(فى وجه احتياج الكاتب إلىٰ ذلك)

قد ذكر فى "حسن التوسـل" أن الكاتب يحتـاج إلىٰ معرفة أيّام العرب، وتسمية الأيام التى كانت بينهم، ومعرفة يوم كل قبيلة علىٰ الأخرىٰ، وما جرىٰ بينهم من الأشعار، والمناقضات، وذكر فارسٍ مشهور، أو ملِك مذكور، أو واقعة معينة لشخصٍ خاصّ، وما ادّعاه كل منهم لنفسه أو ليومه لمـا فى ذلك من العلم بمـا يستشهد به من واقعة قديمة، أو يردُ عليه فى مكاتبة من ذكر يوم مشهور، أو فارسٍ معيّن، ونحو ذلك مما مضىٰ عليه أمر الجاهلية، أو حدَث فى الإسلام، فإن الكاتب إذا لم يكن عارفا بالوقائع، عالمـا بما جرىٰ منها، لم يدر كيف يُجيب عما يَرِد عليه من مثلها، ولا ما يقول إذا سئل عنها .

المقصـــــد الثـانى

(فى ذكر أيامٍ من ذلك تُرْشد إلىٰ معرفة المقصد منه)

ومن أشهرها ذكرا، وأعظمها حربا . يوم خُزَاز (خُزَاز اسم جبـل بين البَصْره ومكة كانت الواقعة عنده فعرِفت به) ، وكانت الحرب فيه بين بنى ربيعة الفَرَس، وهو ربيعة نِزار، وبين قبائل اليمن، وكانت الغلبه فيه لبنى ربيعه ، فقتلوا من قبائل اليمن خلقا كثيرا، وكان قائدَ ربيعــة كُلَيْبُ بن ربيعه ملكُ بنى وائل (واسمه وائل وكليب لقب عليه) وهو من ربيعة الفَرَس . وكان قد مُلِّك علىٰ بنى معدّ وقـبائل

جموع العرب وهزمهم وعظم شأنه ، وبقى زمانا من الدهر، ثم داخله زهو شديد، وبغى على قومه فصار يحمى عليهم مواقع السحاب، ولا يرعى حماه، ويقول وحش أرض كذا فى جوارى ، فلا يصاد، ولا ترد إبل مع إبله ، ولا توقد نار مع ناره ، وبقى كذلك حتى قتله جساس بن مرة الوائلى أيضا ، ولما قتل كليب توالت الحروب بسبب قتله بين بنى تغلب، وبين بكر ابنى وائل، وكان قائد بنى تغلب مهلهل أخو كليب، وقائد بنى بكر مرة أبو جساس المقدم ذكره، فكان بينهم يوم عنيزة، وتكافأ فيه الفريقان، ثم كان بينهم يوم واردات، وانتصر فيه بنو تغلب على بكر، ثم كان بينهم يوم الحنو، وانتصرت فيه بكر على تغلب، ثم كان بينهم يوم العصيات ، وانتصرت فيه تغلب على بكر، وأصيب بنو بكر حتى ظنوا أنهم قد بادوا، ثم كان بينهم يوم قضة ، وهو يوم التحالق كثر فيه القتل بين الفريقين ، فى أيام أخر لم يشتد فيها القتال .

ومن أيام عبرهم المشهورة يوم عين أباغ ، وعين أباغ موضع يقال له ذات الخيار، وكان الحرب فيه بين غسان ولخم، وكان قائد غسان الحارث الذى طلب أدراع امرئ القيس، وقيل غيره ، وكان قائد لخم المنذر بن ماء السماء بغير خلاف، وفى هذا اليوم قتل المنذر، وانهزمت لخم، وتبعتهم غسان إلى الحيرة وأكثروا فيهم القتل . ويوم مرج حليمة، وكان بين غسان ولخم أيضا، وكان من أعظم الأيام وأشدها حربا، بلغت الجيوش فيه عددا كثيرا ، وعظم الغبار حتى قيل إن الشمس احتجبت وظهرت الكواكب التى فى غير جهة الغبار . ويوم الكديد، وكان بين كنانة وسليم، وانتصرت فيه سليم على كنانة، وقتل فيه ربيعة بن مكدم فارس كنانة، وبه يضرب المثل فى الشجاعة، وكان يعقر على قبره فى الجاهلية، ولم يعقر على قبر غيره. ويوم الكلاب الأول، والكلاب موضع بين البصرة والكوفة، وكان بين

الأحْوَين شَرَاحيل وسَلَمَة آبنى الحارث بن عمرو الكندىّ، وشَرَاحيلُ هو الأكبر وكان معه بكر وائل وغيرُهم، وسلمة الأصغر، وكان معه تغلب وائل وغيرهم، وآشتدّ القتال بينهـم، وآنتصر سلمة وتغلبُ علىٰ شراحيل وبكر، وآنهزم شراحيـلُ وتبعته خيل أخيه فقتلوه. ويوم الـكلاب الثانى، وكان بين بكر ووائل. ويوم أُوَارةَ، (وأُوَارة آسمُ جبل) وكانت الحرب فيه بين المنذر بن آمرئ القيس ملك الحِيرَة، وبين مُنْذر وائل بسبب الحِيرَة، وظفر فيه المنذر، وأقسم أنه لا يزال يذبَحُهم حتّى يسيلَ دمُهم من رأس أُوارةَ إلىٰ حَضيضه، وبَقِى يذبَحُهم والدم يجْمُد فسكب عليه ماء حتّى سال الدم من رأس الجبـل إلىٰ حضيضه، وبرّت يمينه. ويوم رَحْرَحانَ، (ورَحْرَحانُ آسم واد بالحجاز) وكانت الحرب فيه بين الأحوص بن جعفر بن كلاب، وبنى دارِم، وبنى ماوِيّةَ، وبنى مَعْبَد بن زُرَارة، وبنى تميم، وآنهزمت فيه بنو تميم ومن معهم، وأُسِر مَعْبَد بن زُرَارة، وقصـد أخوه لقيطُ بن زرارة أن يَسْتَفِكّه فلم يقدر، وعذّبوا معبدا حتّى مات. ويوم شِعْب جَبَلَة، وشِعْبُ جَبَلة هَضَبة حمراء بين الشُّرَيف والشَّرَف. وكان من شأنه أنه لمـا آنقضت وقعة رحرحان المتقدّمة، ومضىٰ لها سنة، وذلك فى العام الذى وُلد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، آستنجد لقيطُ بنُ زُرارة التميمى بنى ذُبيان لثأر أخيه وأخذه. وتجمّعتْ بنو تميم غير بنى سعد، وخرجتْ معه بنو أسد، وسار بهم لَقيط إلىٰ بنى عامر وبنى عَبْس فى طلب ثأر أخيه مَعْبَـد، فأدخلتْ بنو عامر وبنو عَبْس أموالهـم فى شِعْب جبلة. فحصرهم لقيط فخرجوا عليه من الشّعب وكسروا جمايع لقيط وقتلوا لقيطا، وأسَرُوا أخاه حاجب بن زُرَارة، وآنتصرت بنو عامرٍ وبنو عَبْس نصرا عظيما. وقيل أيضا من بنى ذُبْيـان وبنى تميم ومن بنى أسد جماعة مستكثرة. وكان هذا اليوم من أعظم أيامهم. ويوم ذى قارٍ، وهو أقرب الوقايع المشهورة فى الجاهلية عهدا. وكان فى سنة أربعين من مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقيل عام بدر.

وكان من حديثه أن كسرى أبرويز غضب على النعمان بن المنذر ملك الحيرة ، فحبسه فهلك فى الحبس ، وكان النعمان قد أودع حلقته (وهى السلاح والدروع) عند هانئ بن مسعود البكرى ، فأرسل أبرويز يطلبها من هانئ ، فقال هذه أمانة ، والحر لا يسلم أمانته ، وكان أبرويز لما أمسك النعمان جعل مكانه فى ملك الحيرة إياس بن قبيصة الطائى ، فاستشار أبرويز إياسا ، فقال إياس المصلحة التغافل عن هانئ بن مسعود حتى يطمئن وتتبعه فتدركه — فقال أبرويز إنه من أخوالك لا تألوه نصحا — فقال إياس رأى الملك أفضل ، فبعث أبرويز الهرزان[1] فى ألفين من الأعاجم ، وبعث ألفا من بهراء ، فلما بلغ بكر بن وائل خبرهم أتوا مكانا من بطن ذى قار ، فنزلوه ووصلت إليهم الأعاجم ، واقتتلوا ساعة فانهزمت الأعاجم هزيمة قبيحة ، فيروى أن النبى صلى الله عليه وسلم ، خبر بذلك أصحابه ، فقال "اليوم أول يوم انتصف فيه العرب من العجم وبى نصروا" .

ولأبى عبيدة مصنف مفرد فى أيام العرب ، وقد أورد منها ابن عبد ربه فى كتاب "العقد" جملة مستكثرة ، وفى آخر كتاب الأمثال للميدانى نبذة محررة من ذلك ، وليس بنا حاجة إلى استيعابها هنا .

وأما الحروب الواقعة فى صدر الإسلام . فمنها وقعة الجمل ، وكانت بين على كرم الله وجهه ، ومعه أهل الكوفة ، وبين عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها ، وكانت راكبة يومئذ على جمل اسمه عسكر وبه عرفت الوقعة ، وقتل بين الفريقين خلق كثير ، وكانت النصرة فيه لعلى ومن معه .

ومنها وقعة صفين ، وكانت بين على كرم الله وجهه ومعه أهل العراق ، وبين معاوية بن أبى سفيان ، ومعه أهل الشام ، وكان ابتداؤها فى سنة ست وثلاثين ، وكان مدة مقامهم بصفين مائة وعشرة أيام أوقعوا فيها وقعات كثيرة ، قيل تسعين

(١) فى العقد الفريد ، ومعجم البلدان الهامرز ، وفسره بالمرزبان

وقعة ، وكانت عدّة القتلىٰ بينهم فيما يقال من أهل الشام خمسةً وأربعين ألفا ، ومن أهل العراق ستة وعشرين ألفا ، منهم ستة وعشرون من أهل بدر ، وكان عمّار بن ياسر مع علىّ رضى الله عنه ، وقاتل حتّى قُتِل ، وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال "يَقْتُلُ عمّارا الفِئَةُ الباغِيَةُ" ومضت عليهما مدّة ، وعلىّ رضى الله عنه علىٰ العراق ، ومعاوية علىٰ الشام ومصر إلىٰ أن قتل علىّ رضى الله عنه .

ولا حاجة بنا إلىٰ الخوض فى أكثر من ذلك ، فإن ذلك محمول على اجتهادهم ، والإمساك عما شجر بينهم واجب .

ومنها وَقْعة مَرْج راهِط ، وكان من حديثها أنه لما هلك يزيدُ بنُ معاوية ، كان سعيدُ بن بَحْدَل علىٰ قِنَّسْرينَ ، فوثب عليه زُفَر بن الحارث فأخرجه منها وبايع عبدَالله ابن الزُّبَيْر ، فلما قعد زُفَرُ علىٰ المِنْبر ، قال الحمد لله الذى أقعدنى مَقْعَد الغادِر الفاجِر وحَصِر ، فضحِك الناس من قوله ، وكان حَسّان بن بحدل علىٰ فِلَسْطِين ، والأُرْدُنّ ، فاستعمل علىٰ فلسطينَ رَوْح بن زِنْباع الجُذَامىّ ، ونزل هو الأردنّ ، فوثب ناتل بن قيس الجُذامىّ علىٰ رَوْح بن زنباع فأخرجه من فِلَسْطِين وبايع ابن الزبير ، وكان النعمانُ ابن بَشير علىٰ حمص فبايع لابن الزبير ، وكان الضَّحّاك بن قيس علىٰ دمشق ، فجعل يقدّم رجلا ويؤخر أُخْرىٰ ، فقدم عليه مروان بن الحكم فقال الضحاك هل لك أن تقدم علىٰ ابن الزبير ببيعة أهل الشام ، قال نعم ووافق علىٰ ذلك بنو أمية ، واليمانيُّون ، فلما فشا ذلك أرسل الضحاك إلىٰ بنى أمية يتصدر إليهم ، وقال لمروان وعمرو بن سعيد اكتبوا إلىٰ حسان بن بحدل فيسير من الأردن حتّى ينزل الجابية ، ونسير نحن من هنا حتّى نلقاه فنطر هناك رجلا نرضونه ، فلما استقلت رايات الضحاك من دمشق ، قالت القيسيه لا نصحبك دعوتنا إلىٰ بيعة ابن الزبير ، وهو رجل هذه

الأمة، فلما بايعاك خرجت تابعا لهذه الأعراب بنى كلب، فأجابهم إلى إظهار بيعة آبن الزبير، وسار حتّى نزل مرج راهط، وأقبل حسان حتّى لقى مروان، فسار مع مروان حتّى لَقَوُا الضحاك، وهم نحو من سبعة آلاف، والضحاك فى نحو ثلاثين ألفا وآقتتلوا، فقتل الضحاك وقُتِل معه أشراف من قريش .

المقصـــــد الثـالث

(فى كيفية آستعمال الكاتب ذكر هذه الوقائع فى كلامه)

لا يخفى أن الكاتب المترشح للكتابة إذا كان من[1] المعرفة بأيام الحرب، والعلم بتفاصيل أخبارها، ومَنْ يعدّ من فُرْسان حروبها، ومصاقِع خطبائها، ومُفْلِق شعرائها، وما جرى بينهم فى ذلك من الخُطَب والأشعار والمناقضات، كان مستعدّا لما يَستشهد به من واقعة قديمة، أو يرد عليه فى مكاتبة أو شعر من ذكر أيام مشهورة، أو ذكر فارس معيَّن، كما قال أبو تمـام الطائىّ يمدح بنى شَيْبان

إذا آفتخرتْ يومًا تميمٌ بقَوْسِها ... وزادتْ عَلىٰ ما وَطَّدَتْ مِنْ مَنَاقِبِ

فأنتم بِذِى قارٍ أمالَتْ سُيُوفُكُمْ ... عُرُوشَ الّذِين آسْترهنُوا قَوْسَ حاجِبِ

يشير إلىٰ أن حاجب بن زُرَارة التميمىّ وفد علىٰ كسرىٰ فى سنة جَدْب فقال الحاجب مَنْ أنتَ؟ قال رجل من العرب، فلما دخل علىٰ كسرىٰ قال له من أنت؟ قال سيد العرب — قال ألم تقل بالباب إنك رجل من العرب —؟ قال كنت بالباب رجلا منهم فلما حضرت بين يدى الملك سُدْتُهم، فملأ فمه دُرّا، وشكا إليه مَحْلَ الحجاز، وطلب منه حِمْل ألف بعير بُرّا علىٰ أن يعيد قيمتها، — فقال وما ترهَنُ علىٰ ذلك — قال قَوْسى، فاستعظم همته وقال قبلتُ، وأعطاه حِمْل ألف بعير بُرّا، ومات حاجب فأحضر بَنُوه المـال بعد موته وطلبوا منه قوس أبيهم فافتخرت تميم بذلك .

---

[1] لعله إذا كان على جانب من المعرفة بأيام الخ كما هو ظاهر

فأشار أبو تمـــام فى بيتيه إلىٰ هذه المنقبة يقول يابى شَيْبانَ فى يوم ذى قار أبدتم حيوش كسرىٰ الذى ٱسترْهنَ قوس حاجب . .

وكما قال أبو نصر "الفتح بن خاقان" فى خطبة كتابه "قلائد العقيان" لو جاوره كُلَيْب ما طرق حِمَاه ، أو ٱستجار به أحد من الدهر حَمَاه ، أو كان بوادى الأَخْرم ، لطاف به ربيعـةُ وأحرم ، أو ٱستنجده الكِنْدىُّ ما كساه المُلاءه ، أو كان حاضرًا بسطام لما خرّ علىٰ الألاءه .

وكما قلت فى المفاخرة بين السيف والقلم عند التعرض لذكر المقرّ الريفىّ أبى يزيد الدوادار الذى من أجله وضعت "ولو لقيَه فارسُ عَبْس لولّى عابسا ، أو طرق حِمىٰ كُلَيْب لبات من حِمَــاه آيسا ، أو قارعه رَبيعه بن مكَدَّم لعلا بالسيف مَفْرَقه ، أو نازله بِسْطامٌ لبدّد جمعه وفرّقه" .

إلىٰ غير ذلك ممـــا يجرى هذا المجرىٰ و ينتظم فى هذا السلك .

قال فى "حسن التوسل" وإذا لم يكن صاحب هذا الفن عارفا بكل يوم من هذه الأيام ، عالمـــا بما جرىٰ فيها ، لم يَدْر كيف يُجيب عما يرد عليه من مثلها ، ولا ما يقول إذا سئل عنها . قال وحسبه ذلك نقصا فى صناعته ، وقصورا عما يتعين عليه من معرفته وحسن الجواب عنه عند السؤال عنه .[1]

وأما الوقائع التى وردتْ فى حوادثَ خاصة بأقوام فقد قال الوزير "ضياء الدين بن الأثير" رحمه الله فى "المثل السائر" إنها كالأمثال فى الاستشهاد بها وذكر لها أمثلة ، منها قوله من كتاب ولا يُعدّ البرّ برّا حتّى يلحق الغيْب بالحضور ، و يصل مَنْ لم يَصِله بجزاء ولا شُكور ، وبه العائب بالشاهد من كرم الإحسان ، ولهذا نابتْ شِمَال رسول الله عن يمين عثمان .[2] يشير إلىٰ أنّ النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فى بيعة الحديبية

(١) لعل من الأبدة من الناسخ (٢) فى بعض النسخ عنه

كان قد أرسل عثمانَ بنَ عفّان رضى الله عنه إلى مكة فى حاجة ، ولم يحضر البيعةَ ، فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بيده الشّمال على اليمين وقال "هذه عن عثمان وشِمالِي خيرٌ من يمينه" .

ومنها قوله من تقليد لبعض الملوك من ديوان الخلافة "وإذا ٱستغشت بأحد على عملك فاضرب عليه بالأرصاد ، ولا ترض بما عرفته من مبدإ حاله ، فإن الأحوال تنتقل بنقل الأحساد ، وإياك أن تُخدَع بصلاح الظاهر كما خُدِع عمرُ بن الخطاب بالرّبيع بن زياد .

يشير بذلك إلى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ٱستدعى أبا موسى الأشعريَّ ومن يليه من العمال وكان منهم الربيع بن زياد الحارثيّ ، فذهب الربيع بن زياد إلى بعض موالى عمرَ وسأله عما يَرُوج عنده ويَنْفَق عليه ، فأشار إلى خُشُونة العيش فمضى ، ولَبس جُبَّة صوف ، وعمامةً رثّاء ، وخفًّا مطارَقا ، وحضر بين يديه فى جملة العُمّال ، فصوّب عمرُ نظره وصعَّده فلم يقع إلا عليه ، فأدناه وسأله عن حاله ، ثم أوصى أبا موسى الأشعريَّ به .

ومنها قوله فى معارضة كتاب القاضى الفاضل إلى ديوان الخلافة يُعَدِّد فيه مساعىَ الملك الناصر "صلاح الدين يوسف بن أيوب" وما قاساه فى الفتوح من الأهوال وهو ومن حملها ما فعل الخادم فى الدولة المصرية . وقد قام بها منبر وسرير ، وقالت منا أمير ومنكم أمير ، فرد الدَّعوة العباسيَّة إلى معَادها ، وأذكر المنابر ما نسيَتْه بها من زَهْو أعوادها . يشير بذلك إلى ما تقدّم من ٱجتماع الأنصار فى اليوم الذى مات فيه النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فى سَقيفة بنى ساعدة إلى سعد بن عُبادة ، وكيف ذهب إليهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة ، وقال الحباب بن المنذر منّا أميرٌ ومنكم أمير ، فقال أبو بكر رضى الله عنه لا ، ولكنّا الأمراءُ وأنتم الوزراء . إلى غير ذلك مما يجرى هذا المجرى وينتظم فى هذا السِّلك .

النوع الرابع عشر
(فى أوابد العرب)

وهى أمور كانت العرب عليها فى الجاهلية، بعضها يجرى مجرى الديانات، وبعضها يجرى مجرى الاصطلاحات والعادات، وبعضها يجرى مجرى الخرافات، وجاء الإسلام بإبطالها . وهى عدّة أمور

منها الكَهانة، وكان موضوعها عندهم الإخبار عن أمور غيبية بواسطة استراق الشياطين السمعَ من السماء، وإلقاء مايستمعونه من الغيبيات إليهم . وقد كان فى العرب قبل البعثة عدّةُ كَهَنة تعتمد العرب كلامهم، ويرجعون إلى حكمهم فيما يُخبرون به .

ومن عجيب أخبارهم فى ذلك أن هندَ ابنة عُتْبة بن رَبيعة كانت تحت الفاكه ابن المغيرة المخزومى، وكان له بيت للضيافة يغشاه الناس من غير إذن، فخلا البيت يوما فاضطجع الفاكهُ هو وهند فيه، ثم نهض الفاكه لبعض حاجته، وأقبل رجل ممن كان يغشى البيت فولجه فلما رآها ولّى هاربا وأبصره الفاكه فأقبل إلى هند فركضها برجله وهى نائمة فانتبهت — فقال من ذا الذى خرج من عندك — فقالت لم أرَ أحدا وأنت الذى أنبهتنى — فقال لها اذهبى الى بيت أبيك فأقيمى عنده! وتكلم الناس فيها — فقال له أبوها إنك قد رميت ابنتى بأمر عظيم، فحاكمنى إلى بعض كُهّان اليمن، فخرجا فى جماعة من قومهما إلى كاهن من كهّان اليمن ومعهما هند ونسوة أُخَر، فلما شارفوا بلاد الكاهن، قالت هند لأبيها إنكم تأتون بَشَرا يصيب ويخطئ ولا آمنه أن يَسِمَنى مِيسَما يكون علىّ سُبَّة — فقال أبوها سأختبره لكِ فصفّر لفرسه حتى أدلى، فأدخل فى إحليله حبة حنطة وشدّ عليها بسير، فلما دخلوا على الكاهن، قال له عتبة إنا قد جئناك فى أمر وقد خبأت لك خَبْأ أختبرك به فانظر ماهو فقال ثَمَرة فى كَمَرة — فقال أريد أبيَن من هذا — فقال حبة برّ فى إحليل

مُهْر — فقال له آنظر فى أمر هؤلاء النِّسوة، فجعل يدنُو من إحداهنّ فيضربُ بيده علىٰ كتفها ويقول آنهَضى حتّٰى دنا من هند فقال لها آنهضى غير رَسْحَاءَ[(1)] ولا زانية ولتَلِدِنّ مِلكا آسمُه معاويه، فنهض إليها الفاكه فأخذ بيدها، فجذبتْ يدَها من يده، وقالت إليك عَنِّى ! فوالله لأَحْرِصُ علىٰ أن يكُونَ من غَيْرك ، فتزوّجها أبو سفيان ابنُ حرب فولدت له معاويةَ ، فكان من أمره ما كان إلىٰ أن آنتهت به الحال إلىٰ الخلافة . وقد أخبر جماعة من الكَهَنة بمَبْعَث النبىّ صلى الله عليه وسلم قُربَ ظهوره منهم سَطِيح الكاهن وغيره .

ولما بُعثَ النبىّ صلى الله عليه وسلم، حُرِست السماءُ ومُنعت الشياطين من آستراق السمع كما أخبر تعالىٰ بقوله ﴿وأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْها مَقَاعِدَ للسَّمْع فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَدا﴾ .

ومنها الزَّجْر والطِّيرَة وهما فى معنًى واحد، وأصله أنهم كانوا إذا أرادوا فعل أمر أو تركه زجروا الطير حتّٰى يطير ، فإن طار يمينا كان له حكم، وإن طار شمالا كان له حكم، وإن طار أماما كان له حكم، وإن طار من فوق رأسه كان له حكم، ومن ثَمّ سميت الطِّيَرة أخذا من آسم الطير، وأكثر ما عوّلوا عليه من ذلك الغرابُ، ثم تعدّوْه إلىٰ غير الطير من الحيوان ، ثم جاوزوا ذلك إلىٰ ما يحدُث فى الجمادات من كسر أو صَدْع أو نحو ذلك، وربما آنتهىٰ بعض الزجر إلىٰ حدّ الكَهَانة .

ومما يحكى من زجر الطير أن رجلا من لِهْب وهم بطن من العرب يُعرَفون بالعِيَافة، خرج فى حاجة له، ومعه سقاء من لبن فسار صَدْرَ يومه فعطش فأناخ ليشربَ فإذا غُراب فنَعَب فأثار راحلته ، ثم سار حتّٰى كان وقتُ الظهيرة أناخ ليشرب ، فنعَب الغراب وتمرّغ فى التراب ، فضرب الرجل السِّقاء بسيفه فإذا فيه

(١) الرسحاء بالمهملات من النساء القبيحه ووقع فى الأصل باعجام الشين وهو تصحيف فأحذره

ثُعبان عظيم فقتله ، ثم سار وإذا غراب واقع على سِدْرة فصاح به فوقع على سَلَمة ، فصاح به فوقع على صخرة فانتهى إليها ، فأثار من تحتها كنزا ، فلما رجع إلى أبيه قال له ما صنعت؟ قال سِرْت صــدْرَ يومى فأحتُ لأشرب فعب الغراب — فقال أثِرْ راحلتك وإلا فلست بآبني — قال فعلت — قال ثم ماذا؟ قال سرت حتى وقت الظهيرة فأحت لأشرب فعبّ الغراب ، وتمرّغ فى التراب — فقال آضرب السِّقاء وإلا فلست بآبى . قال فعلت ، فوقع على صخرة قال أثِرْ ما تحتها وإلا فلستَ بابى . قال فعلت ، فوجدت كنزا .

وقد وردت السنّة بإبطال حكم الزجر والطِّيَرة بقوله صلى الله عليه وسلم "أقِرُّوا الطَّيْر فى وُكُناتها" وقوله صلى الله عليه وسلم "لا عَدْوَى وَلَا طِيَرَةَ" وآستحسن صلى الله عليه وسلم ، الفأل فقال "ويُعْجِبُنى الفَأْلُ وهى الكلمة الطَّيِّبة أسمعها". وقد فرق العلماء بين الفأل والطيرة بأن الطيرة تُقْصَد والفأل يأتى من غير قصد .

ومنها المَيْسِر وهو ضرب من القِمار كانوا يقتسمون به لحمَ الجُزُر التى ينحرونها بحسب قِدَاح يضربُونها ، لكل قِدْح منها نصيب معلوم وهى أحد عشر قِدْحا سبعة منها لها حظ إن فازتْ وعليها غرم إن خابتْ بقدر ما لها من الحظ عند الفوز ، وأربعة منها تُثَقَّل بها القداح لا حظَّ لها إن فازت ، ولا غرم عليها إن خابت . فأما السبعة التى لها الحظ إن فازت وعليها الغرم إن خابت . فأولها الفَذّ وهو قِدْح فى صَـدْره حَزٌّ واحد ، وله نصيب واحد فى الأخذ والغُرْم . والثانى التَّوْءَم ، وفى صدره حَزّان ، وله نصيبان فى الأخذ والغرْم . والثالث الضَّرِيب (ويسمَّى الرقيب) وفيه ثلاثة حزوز ، وله ثلاثة أنصباء . والرابع الحِلْس وفيه أربعة حزوز وله أربعة أنصباء . والخامس النافِس وفيه خمسة حُزوز ، وله خمسة أنصباء . والسادس المُسْبِل ، ويسمّى المُصْفَح أيضا ، وفيه ستة حزوز وله ستة أنصباء . والسابع المُعَلَّى ،

وفيه سبعة حزوز، وله سبعة أنصباءَ، وهو أوفرها حظًّا، ولذلك يُضربُ به المثل في الحظ فيقال قِدْحُه المُعَلَّى .

وأما الأربعة التي تُثَقَّل بها القداح فهي السَّفِيح، والمَنِيحُ، والمُضَعَّف، والوَغْد، وكان طريقهم في ذلك أن القوم يجتمعون ويشترُون جَزُورا فينحَرُوها ويُفَصِّلُوها على عشرة أجزاء، ويَسْتَهِمُون فيها على سبعة أنصباء لا أكثر، وتسمى الأنصباء فيها الأيْسار، فإن كانوا أقلَّ من سبعة وأراد أحدهم قِدْحين أو أكثر، أخذ وكان له فورها، وعليه غرمها، فإذا جزءُوا الجزور على ذلك، أتَوْا برجل يسمونه الحُرْضَة[1]، من شأنه أنه لم يأكُلْ لحما قطُّ بثمن، ويؤتى بالقداح فتشَدُّ مجموعة في قطعة جلد تسمَّى الرِّبابةَ، ثم يَلُفُّ الحُرْضَةُ على يده اليمنى ثوبا لئلا يجد مس قِدْح، له مع صاحبه هوًى فيحابيه في إخراجه، ثم يؤتى بثوب أبيض يسمَّى المِجْوَلَ، فيُبْسَط بين يدَي الحُرْضة، ويقوم على رأسه رجل يسمَّى الرَّقِيب، ويدفع رِبابة القِدَاح إلى الحُرْضَة، وهو محوَّلُ الوجه عنها، فيأخذ الرِّبابة التي تُجمع فيها القِدَاحُ، ويدخل يدَه تحت الثَّوب فيكر القداح فإذا نهد فيها قِدْح بناوله دُفْعة إلى الرقيب، فإن كان مما لاحظّ له، ردّ إلى الرِّبابة فإن خرج بعده المُسْبِل مثلا أخذ الثلاثة الباقية وغرم الذين خابوا ثلاثة أنصباء من جزور آخر، وعلى ذلك أبدا يُفْعل بمن فاز ومن خاب، فربما نحروا عِدّة جُزُر، ولا يغرم الذين فازوا من ثمنها شيئا، وإنما الغُرْم على الذين خابوا، وكان عندهم أنه لانحل للخائبين أن يأكلوا من ذلك اللحم شيئا، فإن فاز قِدْح الرجل فأرادوا أن يُعيدوا قدحه ثانية على حظ فعلوا ذلك به، وقد نظم الصاحب إسماعيل بن عَبَّاد أسماء القداح التي لها النصيب فَوْزا وغرما في أبيات فقال

(١) الحرضة بالضم والراء المهملة والضاد المعجمة أمين المقامرين ووقع في الاصل الحوضة بالواو والضاد المهملة وهو تصحيف من النساخ فأحذره

إنَّ القِـدَاحَ أَمْرُها عَجِيبُ * الفَـذُّ والتَّـوْءم والرَّقِيب

والحِلْسُ ثم النافِسُ المُصِيب * والمُصْفَحُ المشتهِرُ النَّجِيب

ثم المُعَـلَّى حَظُّه الرَّغِيبُ * هَاكَ فَقَدْ جَاءَ بِهـا الترتيبُ

ومنها الأزلام وهى ضرب من الطِّيَرَة، كانوا إذا أرادوا فعل أمر ولا يدرون ما الأمر فيه، أخذوا قِدَاحا مكتوبًا على بعضها افعل ، لاتفعل ، وعلى بعضها نعم، وعلى بعضها لا، وعلى بعضها خَيْر، وعلى بعضها شرّ، وعلى بعضها سريع ، فإذا أراد أحدهم سفرا مثلا أتى سادنَ الأوثان، فيضرب له بتلك القِداح ويقول اللهم أيُّها كان خيرا له فأخرِجْه فما خرج له عمل به ، وإذا شكُّوا فى نسب رجل أحالوا القداح وفى بعضها مكتوبٌ صريح، وفى بعضها مكتوب مُلْحق، فإن خرج الصريح أثبتوا نسبَه، وإن خرج المُلْحَق نفَوْه . وإن كان بين اثنين اختلاف فى حق سمى كل منهما له سهما وأحالوا القِدَاح فمن خرج سهمُه فالحق له وقد نهى الله تعالى عن ذلك بقوله ﴿ وأنْ تَسْتَقْسِمُوا بالأَزْلَامِ ﴾ .

ومنها البَحيرة، والسائبةُ، والوَصِيلة، والحامى .

فأما البَحيرة ، فكانت الناقة إذا أُنتِجَتْ خمسة أبطن عمدوا إلى الخامس منها مالم يكن ذكرا فشقُّوا أذنها وتركوها ، فلا يُجَزُّ لها وبر، ولا يُحْمَل عليها شيء ولا يُذْكَر عليها إن ذُكِّيت اسمُ الله تعالى، وتكون ألبانُها للرجال دون النساء .

وأما السائبة فكان الرجل يُسيِّب الشيء من ماله بهيمة أو عبدا، فيكون حراما أبدا وتكون منافع ذلك للرجال دون النساء .

وأما الوَصيلة فكانت الشاة إذا ولدتْ سبعة أبطن عمدوا إلى السابع فإن كان ذكرا ذُبح، وإن كان أنثى تُركت فى الغنم ، وإن كان ذكرا وأنثى قيل وصلتْ أخاها فحرُما جميعا، وكانت منافعهما ولبن الأنثى منهما للرجال دون النساء .

وأما الحامى، فكان الفحل إذا صار من أولاده عشرةُ أبطن، قالوا حَمىٰ ظهره، فيُترك، ولا يُحمَلُ عليه شيء، ولا يُركَب، ولا يُمنَع ماءً، ولا مرعًى، وقد أخبر الله تعالىٰ ببطلان ذلك بقوله ﴿ماجَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ .

ومنها إغلاق الظهر كان الرجل منهم إذا بلغت إبله مائة عمد إلىٰ البعير الذى كملت به مائة فأغلق ظهره بأن ينزِعَ شيئا من فقراته ويعقر سنامه كى لا يُركَب ليُعْلم أن إبل صاحبه قد أمْأَتْ .

ومنها التَّفقئة، والتَّعْمِيَة . كان الرجل إذا بلغت إبله ألفا فقأ عين الفحل وهى التفقئة، فإن زادتْ علىٰ ذلك فَقَأَ العينَ الأخرىٰ وهى التعمية، ويزعُمُون أن ذلك يدفع العين عن الإبل قال الشاعر

وَهَبْتَها وأنتَ ذُو امتنانِ تُفْقَأُ فيها أعيُنُ البُعْرانِ

ومنها نكاح المَقْت وهو نكاح زوجةِ الأبِ — وكان من شأنهم فيه أن الرجل إذا مات قام أكبرُ ولده، فألقى ثوبَهُ علىٰ امرأة أبيه فورِث نكاحَها، فإن لم يكن له فيها حاجة يُزَوِّجها بعضَ إخوته بمهر جديد، وكانوا يتوارثون النكاح كما يرِثُون المال، فأنزل الله تعالى ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أن تَرِثُوا النِّساءَ كَرْهًا﴾، وحرم زوجة الأب بقوله ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ ءابَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاء إِلَّا مَا قَد سَلَفَ إِنَّهُ كانَ فَاحِشَةً ومَقْتًا وسَاءَ سَبِيلًا﴾ ومن ثَمَّ سمى نكاحَ المَقْت .

ومنها رَمْىُ البعرة كانت المرأة فى الجاهلية إذا مات زوجُها، دخلَتْ حِفْشا (يعنى خُصًّا) ولبسَتْ شَرَّ ثيابها ولم تَمَسَّ طِيبا حتَّى تمضِىَ عليها سنةٌ، ثم يُؤْتَى بدابة حمارٍ أو شاةٍ أو طير، فتفْتَضُّ به أى تتمسَّح به فقلّما تفتضُّ بشىء إلا مات، ثم تخرج بعد ذلك فتُعْطىٰ بعرةً فترمى بها، ثم تُراجع ما شاءت من طيب أو غيره فتَسَح

لإسلامُ ذلك بقوله تعالىٰ ﴿ والَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْواجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنّ أربعةَ أَشْهُرٍ وعَشْرا ﴾ .

ومنها وأْدُ البنات (وهو قتلهنّ) . كانوا يقتلونهنّ خشيةَ العار ، وممن فعل ذلك قيس بن عاصم المِنْقرىّ ، وكان من وجوه قومه ومن ذوى المـال ، وكان سبب ذلك أن النعمان بن المنذر أغار عليهم فسبىٰ ذراريّهـم فأتاه القومُ وسألوه فيهم فقال النعمان كل امرأة اختارت أباها رُدّت إليـه ، وكل من اختارت صاحبها تُرِكت معه ، فكلهنّ اخترن آباءهنّ إلا ابنةً لقيس بن عاصم فإنها اختارت صاحبها عمرو بن الجَمُوح ، فنذر قيس أنه لا يولَدُ له ابنة إلا قتلهـا فكان يقتلهنّ بعد ذلك . وورد القرآن بإعظام ذلك بقوله ﴿ وإذَا المَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَىِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾ .

ومنها قتل الأولاد خشيةَ الإمْلاق والفاقة ، فكان الرجل منهم يقتُل ولده مخافة أن يَطْعَمَ معه إلىٰ أن نهىٰ الله تعالىٰ عن ذلك بقوله ﴿ ولا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْـيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وإِيَّاكُمْ إنَّ قَتْلَهُمْ كان خِطْأً كَبِيرًا ﴾ .

ومنها حَبْس البَلَايا ، كانوا إذا مات الرجل يَشُدّون ناقته إلىٰ قبره ويُقْبِلون رأسها إلىٰ ورائها ويُغَطُّون رأسها بولية[1] وهى البردعة فإذا أفلتت لم تردّ عن ماء ولا مرعًى ، ويزعُمون أنهم إذا فعلوا ذلك حُشِرتْ معه فى المَعَاد ليركبها قال أبو زبيد[2]

كالبَـلَايَا رُءُوسُهَا فى الوَلَايَا مانحاتِ السَّمُومِ حُرَّ الخُدودِ

ومنها الهـامَةُ — كانوا يزعمون أن الإنسان إذا قتل ولم يطالَبْ بثأره ، خرج من رأسه طائر يسمّى الهـامَةَ ، وصاح اسْقُونِى اسْـقُونِى حتى يُطالَبَ بثأره ، قال ذو الأصبع

(١) فى الأصل برلة وكذلك جمعها فى البيت برلا وهو تصحيف وتحريف
(٢) فى الأصل أبو زيد وهو تصحيف

يا عَمْرُو إلَّا تَدَعْ شَتْمِي ومَنْقَصَتِي * أَضْرِبْكَ حتَّى تقُولَ الهامَةُ اسْقُونِي

ومنها تأخير البكاء على المقتول للأخذ بثأره — كان النساء لا يَبْكِين المقتولَ منهم حتّى يؤخَذَ بثأره، وإذا أُخذ به بكَيْنه حينئذ، قال الشاعر

مَنْ كانَ مَسْرُورًا بمَقْتَلِ مالِكٍ * فلْيَأْتِ نِسْوَتَنا بوَجْهِ نَهارِ
يَجِدِ النِّساءَ حَوَاسِرًا يَنْدُبْنَه * يَلْطِمْنَ حُرَّ الوجْهِ بالأَسْحارِ

ومنها تَصْفِيق الضالِّ — كان الرجل منهم إذا ضلَّ فى الفَلَاة، قلب ثيابَهُ وحَبَس ناقته وصاح فى أذنها كأنه يُومِئُ إلىٰ إنسان وصفَّق بيديه قائلا الْوَحَا الْوَحَا النَّجاء النَّجاء هيكل الساعةَ الساعةَ إلىّ إلىّ عجِّل، ثم يحرّك ناقته فيزعمون أنها تهتدى، إلىٰ الطريق حينئذ. قال الشاعر

وآذَنَ بالتَّصْفِيقِ مَنْ ساءَ ظَنُّهُ * فلم يَدْرِ مِنْ أىِّ اليَدَيْنِ جَوابُها

يريد إذا ساء ظنُّه بنفسه حين يَضِلُّ.

ومنها الغُول — كانوا يزعمون أن الغُولَ تَتَراءى لأحدهم فى الفلاة فيتبعُها فتستهويه، وربما ادّعى أحدهم أنه قابلها وقاتلها قال تأبط شرًّا

أَلَا مَنْ مُخبِرٌ فِتْيانَ فَهْمٍ[(١)] * بما لاقَيْتُ عِنْدَ رَحَا بِطَانِ
بأَنِّى قَدْ لَقِيتُ الغُولَ تَهْوِى * بسَهْبٍ كالصَّحِيفَةِ صَحْصَحَانِ
فقُلْتُ لَهَا كِلَانا نِضْوُ أَرْضٍ * أَخُو سَفَرٍ فخَلِّى لِى مَكَانِى
فشَدَّتْ شَدَّةً نَحْوِى فأَهْوَتْ * لها كَفِّى بمَصْقُولٍ يَمَانِى
فأَضْرِبُها بلا دَهَشٍ فخَرَّتْ * صَرِيعًا لليَدَيْنِ وللجِرَانِ

ومنها ضَرْب الثور ليشرب البقرُ — كانوا يزعمون أنّ الجنّ تركَبُ الثِّيرانَ فتصُدّ البقر عن الشرب، فيضربون الثورَ ليشرَبَ البقرُ، قال الشاعر

(١) فى نسخة فهر وفى ناموس فومى وقوله فى البيت الثانى بسهب فى الأصل بسيف وهو تصحيف.

كذاك الثور يضرب بالهراوى[1] * إذا ما عافت البقر الظماء

ومنها تعليق سن الثعلب وسن الهرة وحيض السمرة — كانوا يزعمون أن الصبي إذا خيف عليه نظرة أو خطفة فعلق عليه شيء من ذلك، سلم من آفته، وأن الجنية إذا أرادته لم تقدر عليه، قالت امرأة تصف ولدا

كانت عليه سنة من هره * وثعلب والحيض حيض السمره

ومنها تعليق كعب الأرنب — كانوا يعلقونه على أنفسهم، ويزعمون أنه وقاية من العين والسحر، قائلين إن الجن تنفر من الأرنب لكونها تحيض، قال الشاعر

ولا ينفع التعشير إن حم واقع * ولا ودع يغني ولا كعب أرنب

ومنها تعليق الحلي على السليم (وهو الملسوع) — كانوا إذا لسع فيهم إنسان علقوا عليه الحلي من الأساور وغيرها، ويتركونه سبعة أيام ويمنع من النوم فيفيق، قال النابغة

يسهد من وقت العشاء سليمها * لحلي النساء في يديه قعاقع

ومنها وطء المقاليت القتلى — كانوا يزعمون أن المرأة المقلات (وهي التي لا يعيش لها ولد) إذا وطئت قتيلا شريفا بقي أولادها، قال بشر بن أبي خازم

يظل مقاليت النساء يطأنه * يقلن ألا يلقى على المرء مئزر

ومنها مسح الطارف عين المطروف — كانوا يزعمون أن الرجل إذا طرف عين صاحبه فهاجت فمسح الطارف عين المطروف سبع مرات يقول في كل مرة بإحدى جاءت من المدينة بإثنتين جاءتا من المدينة، بثلاث جئن من المدينة إلى سبع سكن هيجانها.

---

(١) في الأصل بالهوادي وهو تصحيف فاحذره

ومنها كيّ السليم من الإبل ليبرأ الجَرِب منها — كانوا يزعمون أن الإبل إذا أصابها عُرّ (وهو الجرب) فكَوَوْا صحيحها إلى جانبه ليشمّ رائحته برئ ، وربما زعموا أنه يؤمَن معه العدوى، قال النابغة

وَكَلَّفتَنِي ذَنْبَ ٱمْرِئٍ وَتَرَكْتَهُ ۞ كَذِي العُرِّ يُكْوَى غَيْرُهُ وهو رَاتِعُ

ومنها ذهاب الخَدَر من الرجل — كانوا يقولون إن الرجُل إذا خَدِرتْ رجله فذكر أحبّ الناس إليه ذهب عنه الخَدَر، قالت امرأة من كلاب

إذا خَدِرَتْ رِجْلِي ذَكَرْتُ ٱبْنَ مُصْعَبٍ ۞ وإنْ قُلْتُ عَبْدَ اللهِ أجْلَى فُتُورَها

ومنها الخَلَى(١) عن الصبيان بجباية الحيّ وإطعامه الكلابَ — كانوا يرَوْن أن الفتى إذا ظهر فيه الخَلَى بشفته (وهي بثور تنبت بالشَّفَة) فيأخذ منخلا على رأسه ويمرّ بين بيوت الحيّ وينادى الخَلَى الخَلَى فيُلْقَى فى منخله من هنا تَمْرة ، ومن هنا كسرة، ومن هنا قطعة لحم فإذا امتلأ نثره بين الكلاب فيذهب عنه الخَلَى .

ومنها شقّ الرداء والبُرْقع ، لدَوَام المحبة — زعموا أن المرأة إذا أحبّتْ رجلا أو أحبها ولم تَشُقّ عليه رداءَه ويَشُقّ عليها برقُعَها فسد حبُّهما ، قال الشاعر

إذا شُقَّ بُرْدٌ شُقَّ بالبُرْدِ برقُعٌ ۞ دَوَالَيْكَ حتَّى كُلُّنا غيرُ لابِسِ

فكَمْ قَدْ شَقَقْنا من رداء مُحَبَّرٍ ۞ ومِنْ بُرْقُعٍ عَنْ طِفْلَةٍ غيرِ عابِسِ

ومنها رمى سن الصبىّ المُثغر فى الشمس — يقولون إن الغلام إذا أثْغَر ورمَى سنّه فى عين الشمس بسبّابته وإبهامه وقال أبدليني بها أحسن منها ، أَمِن على أسنانه العَوَج والفَلَج والثَّعَل، قال طَرَفة

بَدَّلَتْه الشَّمْسُ مِنْ مَنْبِتِه ۞ بَرَدًا أبيضَ مَصْقولَ الأُشُرْ

(١) لعله دفع الخلى عن الخ وهو فى الأصول مقصور وأورده القاموس واللسان فى باب المهموز وقال الأخير إن بعضهم لا يهمز

ومنها التعشير — زعموا أن الرجل إذا أراد دخول قرية فخاف وباءها فوقف على بابها قبل أن يدخلها فعشّر كما ينهق الحمار ثم دخلها، لم يصبه وباؤها، قال عُرْوة ابن الورد

لَعَمْرِي لَئِنْ عَشَّرْتُ مِنْ خَشْيَةِ الرَّدَى * نُهَاقَ حَمِيرٍ إنَّنِي لَجَزُوعُ

ومنها عَقْد الرَّتَم — وهو نبت معروف — كان الرجل إذا أراد سفرا عَمَد إلى رَتَم فعقده فإن رجع ورآه معقودا، اعتقد أن امرأته لم تخنه، وإن رآه محلولا اعتقد أنها خانته، قال الشاعر

خانَتْه لَمَّا رأَتْ شَيْبًا بمَفْرِقِه * وغَرَّه حِلْفُها والعَقْدُ للرَّتَمِ

ومنها اعتبار دائرة المهْقُوع — وهي دائرة تكون في عنق الفرس[1] يقال لها الهَقْعة على ما يأتي ذكره في الكلام على الخيل في الطَّرَف الآتي — كانوا يزعمون أن الفرس المهقوع إذا عَرِق تحت صاحبه اغتلمت حليلته، وطلبت الرجال، قال الشاعر

إذَا عَرِقَ المَهْقُوعُ بالمَرْءِ أنْعَظَتْ * حَلِيلَتُه وازْدَادَ حَرًّا عِجَانُها

ومنها خِضاب نحر الفرس السابق — كان من عادتهم إذا أرسلوا خيلا على صيد فسبق أحدُها خضبوا صدره بدم الصيد علامةً له، قال الشاعر

كأنَّ دِماءَ العادِيَاتِ[2] بنَحْرِه * عُصَارَةُ حِنَّاءٍ بشَيْبٍ مُرَجَّلِ

ومنها جزّ ناصية الأسير — كانوا إذا أسروا رجلا ثم منّوا عليه وأطلقوه، جزّوا ناصيته ووضعوها في كنانة، قالت الخنساء.

جَزَزْنا نَوَاصِيَ فُرْسانِهِمْ * وكانُوا يظُنُّون أن لا تُجَزَّا

---

(١) في اللسان في زور الفرس أو عرض زوره وينأى بعضهم بدائرة في العنق

(٢) في نسخة العاديات

النوع الخامس عشر
(فى معرفة عادات العرب، وهى صنفان)

الصنف الأول

(نيران العرب)

قد ذكر أبو هلال العسكرىّ فى كتابه "الأوائل" للعرب ثلاث عشرة نارا .

الأولى نار المزدلفة — وهى نار توقد بالمزدلفة من مشاعر الحج ليراها من دفع من عرفة . وأول من أوقدها قصىّ بن كلاب، فهى توقد إلى الآن .

الثانية نار الاستمطار — كانوا فى الجاهلية الأولى إذا احتبس المطر جمعوا البقر وعقدوا فى أذنابها وعراقيبها السّلع والعُشَر، ويصعّدون بها فى الجبل الوعر، ويشعلون فيها النار، ويزعمون أن ذلك من أسباب المطر، قال الشاعر

أَجَاعِلٌ أَنْتَ بَيْقُورًا مُسَلَّعَةً . وَسِيلَةً مِنْكَ بَيْنَ اللهِ والمَطَرِ

الثالثة نار الحلف — كانوا إذا أرادوا عقد حلف أوقدوا النار وعقدوا الحلف عندها، ويذكرون خيرها، ويدعون بالحرمان من خيرها على من نقض العهد، وحلّ العقد . قال العسكرىّ "وإنما كانوا يخصّون النار بذلك لأن منفعتها تختص بالإنسان، لايشاركه فيها شىء من الحيوان غيره" .

الرابعة نار الطّرد — وهى نار كانوا يوقدونها خلف من يمضى ولا يحبّون رجوعه .

الخامسة نار الحرب — كانوا إذا أرادوا حربا أو توقعوا جيشا، أوقدوا نارا على جبلهم ليبلغ الخبرُ أصحابهم .

السادسة نار الحرّتين — كانت فى بلاد عبس فإذا كان الليل تضىء نار تسطع

وفى النهار دخان مرتفع ، وربما نَدَر منها عُنُق فأحرق مَنْ مرّ بها ، فحفر خالدُ بنُ سنان النبيّ، فدفنها ، فكانت معجزة له .

السابعة نار السَّعَالِى — تُرْفَع للتقفّر فيتبعها فتهوى به الغُولُ علىٰ زعمهم كما تقدّم فى الكلام علىٰ أوابد العرب .

الثامنة نار الصيد — وهى نار تُوقَد للظباء تعشاها إذا نظرت إليها .

التاسعة نار الأسد — وهى نار توقد إذا خافوا الأسَدَ لينفر عنهم فإن من شأنه النِّفارَ عن النار، يقال إنه إذا رأىٰ النار حدث له فكر يصدّه عن قصده .

العاشرة نار القِرىٰ — وهى نار تُوقَد ليلا ليراها الأضياف فيهتدوا إليها .

الحادية عشرة نار السليم (وهو الملسوع) كانوا يُوقِدون النار للملسوع إذا لُدِغ يُساهِرونه بها ،وكذلك المجروح إذا نَزَف دمُه ،والمضروب بالسِّياط ومن عضّه الكلب كى لاينامو فيشتدّ الأمر بهم فيؤدّيهم إلىٰ الهلَكَة .

الثانية عشرة نار الفِداء — كان الملوك منهم إذا أسروا نساء قبيلة خرجت إليهم السادة منهم للفِــداء أو الاستيهاب فيكرهون أن يَعْرِضوا النساء نهارا فيفتضحن أو فى الظلمة فيخفىٰ قدر مايحبسُونه لأنفسهم من الصَّفِىّ، فيوقدون النار لعَرْضهنّ .

الثالثة عشرة نار الوسم — وهى النار تسم بها الرجل منهــم إبله فيقال له ماسمة إبلك؟ فيقول كذا

الصنــف الثانى

(أسواق العرب المعروفة فيما قبل الإسلام)

قد كان للعرب أسواق يُقيمونها فى شهور السنة، وينتقلون من بعضها إلىٰ بعض ويحضُرها سائر قبائل العرب ممن قرُب منهم وبعُد . فكانوا ينزلون دُومة الجَنْدل

أوّل يوم من ربيع الأوّل، فيُقيمون أسواقها بالبيع والشراء، والأخذ والعطاء، وكان يَعْشُوهم فيها أُكَيْدِرُ دُومةَ — وهو ملكها — وربما غلب على السوق كَلْبٌ، فيعشُوهم بعض رؤساء كلب فيقوم سوقهم هناك إلى آخر الشهر. ثم ينتقلون إلى سُوق هَجَر من البحرين في شهر ربيع الآخر، فتكون أسواقهم بها، وكان يعشُوهم في هذا السوق المنذرُ بن ساوى أحد بني عبد الله بن دارم — وهو ملك البحرين. ثم يرتحلون نحو عُمَان من البحرين أيضا فتقوم سوقُهم بها. ثم يرتحلون فينزلون إرَم وقُرى الشِّحر من اليمن فتقوم أسواقهم بها أياما. ثم يرتحلون فينزلون عَدَنَ من اليمن أيضا فيشترون منه اللَّطائم وأنواع الطيب. ثم يرتحلون فينزلون حضرموت من بلاد اليمن، ومنهم من يجوزها ويرد صنعاء فتقوم أسواقهم بها ويَجْلُبُون منها الخَزَر والأَدَمَ والبُرود، وكانت تُجْلَب إليها من مَعَافر. ثم يرتحلون إلى عُكَاظَ في الأشهر الحُرُم، فتقوم أسواقهم ويتناشدون الأشعار، ويتحاجُّون، ومن له أسير سعى في فدائه، ومن له حكومةٌ ارتفع إلى من له الحكومة، وكان الذي يقوم بأمر الحكومة فيها من بني تميم، وكان آخِرَ من قام بها منهم الأقرعُ بن حابس التميميّ. ثم يقفون بعرفة ويقْضُون مناسك الحج. ثم يرجعون إلى أوطانهم قد حصلوا على الغنيمة، وآبوا بالسلامة.

النوع السادس عشر

(النظر في كتب التاريخ والمعرفة بالأحوال)

اعلم أن الكاتب يحتاج إلى معرفة وقائع التاريخ، وتفاصيلها، ولا يكاد يستغني عن العلم بشيء منها لأمور. منها العلم بأزمنة الوقائع والمـاجَرَيات، وأحوال الملوك والأعيان والحوادث، والمـاجَرَيات الحاصلة بينهم، فيحتج بكل واقعة منها في موضعها، ويستشهد بها فيما يلائمها، ويحتج لمثل ذلك، فإنه متى أخلّ بمعرفة ذلك

آحتج بالقصة فى غير موضعها ، أو نسبها إلىٰ غير من هى له ، أو لبّس عليه خصمه بالآستشهاد بواقعة لا حقيقة لها ، أو نسبها إلىٰ غير من هى له ليظهر حُجته عليه ، وما يجرى مجرى ذلك ، وفيه مقصدان .

المقصـــــد الأوّل

(فى ذكر نبْذة تاريخية لا يَسع الكاتبَ جهلُها ممــا يحتج به الكاتبُ تارة ويذاكر به ملِكَه أو رئيسه أخرىٰ)

اعلم أن التاريخ بحر لا ساحل له ، وقد أكثر الناس فيه من التصنيف علىٰ آختلاف فنونه ما بين مختصَر ، ومبسوط من مقتصِر علىٰ فن ، ومستوعِب لفنون ، وفى خلال تلك المصنّفات نوادر غريبة ، ولطائف عجيبة ، لا يحصــل الوقوف عليها إلا بعد آستيعابها بالمطالعة ، كما لا يقع الظَّفَر بالجوهرة فى المعدن إلا بعد عمل كثير يحصل فى خلالهـا بغتــة ، فإذا التُقطت الجواهر من المعْــدِن ، سَهُل تناوُلُهـا لمريدها ، وهى علىٰ ضربين .

الضـــــرب الأوّل

(الأوائل)

وهى معرفة مبادئ الأمور المهمة ، وقد أفردها أبو هلال العسكرىّ بالتصنيف ، وأورد الثعالبىُّ منهــا فى كتابه " لطائف المعارف " نبذة صالحة ، وتضمنت كتبُ التاريخ منها جملة مما لم يتعرضا إليه ، وقد آقتصرت منها علىٰ ما تتشوّف نفوس أكثر الناس إلىٰ معرفته والآطّلاع عليه ممــا توفرت الدواعى عليــه ، فاستمر وجوده ، وآنسحب عليه حكم الآستعمال إلىٰ الآن ، أو آشتهر فى مبدإ أمره ، ثم زال بعد ذلك ، جاريا فى ترتيبه علىٰ وجه يقرب تناوله ، مقدّما الأهم فالأهم بالنسبة إلىٰ حال الكاتب

أمور تتعلق بالأنبياء عليهم السلام

(سوىٰ ما يأتى دكره مما شاكل عيره)

أول من استرقَّ الرقيقَ إدريس عليه السلام . أول من شاب إبراهيم الخليل عليه السلام، وهو أول مَنْ قصَّ شاربه ، وأول من فَرَق شعره ، وأول من تمَضْمَض ، وأول من آستاك ، وأول من قلَّم الأظفار ، وأول من آستنجىٰ ، وأول من آختتن ، وأول من رمىٰ الجمار .

الخلافة وما يتعلق بها

أول من سُمِّى خليفةً أبو بكر الصدّيق رضى الله عنه حين وُلِّى الخلافه بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان يخاطب بخليفة رسول الله، وسيأتى دكره فى الكلام علىٰ الألقاب فى المقالة الثالثة إن شاء الله تعالىٰ، وهو أول من آستخلَف من الخلفاء آستخلَف عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى مرض موته ، وسيأتى دكره فى الكلام علىٰ ولاية الخلفاء فى المقالة الخامسه ، وهو أول خليفة فُرض له العطاء فى بيت المال عن الخلافة ، ولما أدركته الوفاة أوصىٰ بإعادة جميع ماحُمِل إليه من ذلك إلىٰ بيت المال من ماله .

أول من سمِّى أميرَ المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وسيأتى دكره فى الكلام علىٰ هذا اللقب فى جملة الألقاب فى المقالة الثالثه ، وهو أول من رتَّب بيت المال فيما دكره العسكرى ، لكنه قد دكر فى موضع آخر أن عمر كان علىٰ بيت المال من قِبَل أبى بكر رضى الله عنه ، فيكون أبو بكر قد سبقه إلىٰ ذلك ، وسيأتى دكره فى الكلام علىٰ وَكالة بيت المال فى المقالة الخامسة ، وهو أول من كوَّر الكُوَر ومَسَح أرض السَّواد ، ورتَّب الخراج علىٰ الأرَضين ، والجزْيةَ علىٰ

الجَمَاجم[1]، وهو أوّل من حَمَل الطَّعام من مصر إلىٰ الحِجاز، وذلك فى عام الرمادة عند غلوّ السعر بالحجاز. وسيأتى ذكره فى الكلام علىٰ خليج القاهرة فى أوائل المسالك والممالك .

أوّل من أقطع القطائع من الخلفاء أمير المؤمنين عثمانُ بن عفان رضى الله عنه، وسيأتى ذكره فى الكلام علىٰ الإقطاعات فى المقالة السادســة، وهو أوّل من حَمَىٰ الحِمىٰ لنَعَم الصدقة من الخلفاء، وهو أوّل من آتخذ صاحب شُرْطة من الخلفاء .

أوّل من آتخذ بيتاً تُرمى فيه قِصَص أهل الظُّلامات أميرالمؤمنين علىّ بن أبى طالبٌ رضى الله عنه، وبقى حتّى كُتِب له شتمه فى رُقْعة، وطُرِحت فى البيت فتركه، ثم آتخذه المهدىّ بعده، ثم ترك بعد ذلك .

أوّل من سُلِّم عليه بالخلافه فقيل السلام عليك باأمير المؤمنين معاوية، وكانوا قبل ذلك يقولون السلام عليكم ، وهو أوّل من عَهِد إلىٰ ابنه بالخلافة، عهد بها إلىٰ ابنه يزيد ، ثم تبعه الكثير من الخلفاء علىٰ ذلك ، وهو أوّل من آستَخْلَف فى حال صحته وإلا فأبو بكر لم يستخلف عمرَ إلا فى مرض موته ، وعمر لم يجعل الأمر شُورىٰ إلا وهو مطعون، وسيأتى ذكر ذلك جميعه فى الكلام علىٰ ولاية الخلفاء فى المقالة الخامسة، وهو أوّل من آتخذ المقصورةَ[2] فى المسجد لصلاة الجمعة، وقيل آتخذها مروان قبله، وقيل عثمان، وهو أوّل من نهىٰ عن الكلام بحضرته من الخلفاء، وكان الناس قبــل ذلك يردّون علىٰ الخليفة ويعترضونه فيما يقول، وهو أوّل من اتخذ ديوان الخاتم لختم الكتب، وسيأتى ذكره فى الكلام علىٰ اللواحق من المقالة الثالثة، وهو أوّل من آتخذ البريد فى الإسلام، وسيأتى ذكره فى الكلام علىٰ البريد فى خاتمة الكتاب .

---

(١) فى الاصل الرماده وهو تصحيف

(٢) يظهر أن هنا سقطا وما بعــده يدل على أن المتكلم عنه الآن عبد الملك بن مروان فانه أول من نهى عن الكلام بحضرة الخلفاء فليحرّر

أول من سار فى الناس بالحَبَرِيَّة من الخلفاء وأمر أن لا يُخاطب باسمه كما يخاطب الخلفاء قبله الوليدُ بن عبد الملك فاتفق أن خالف رجل فخاطبه باسمه فأمر به فوُطِئ.

أول من رَتَّب مراتب الخلافة وأقام حاجبا للاستئذان عليه أبو جعفر المنصور، واتخذ فى قصره بيتا يجلس فيه الناس حتى يُؤْذَن لهم، وهو أول من اتخذ الأتراك اتخذ حَمَّادا التركى، ثم اتخذ المهدىُّ بعده مباركا التركى، ثم أكثر الخلفاءُ من الأتراك بعد ذلك.

أول من جلس للمصائب من الخُلَفاء على البساط دون الأنماط هارون الرشيد حين نُعِى إليه قريبه إبراهيم بن على، فاتخذ الخلفاء ذلك دأبا فى المآتم.

أول من نُعِت على المِنْبر بنعت الخلافة الأمينُ بن الرشيد فقيل اللهم وأصلح عبدك وخليفتك عبدَ الله محمدا الأمين.

أول من أضيف لقبه من الخلفاء إلى اسم الله المعتصِمُ فقيل المعتصم بالله، ثم تبعه الخلفاء على ذلك، وسيأتى ذكره فى الكلام على الخلفاء فى المقالة الثانية.

أول من حوّل السنة الشمسية إلى السنة القمرية وأقرّ النيروز المتوكلُ، وسيأتى ذكره فى تحويل السنين فى المقالة السابعة، وهو أول من أمر بتغيير زِىّ أهل الذِّمة، وسيأتى ذكره فى الكلام على عقد الصلح لأهل الذمة فى المقالة السابعة.

أمور تتعلق بالملوك والأمراء

أول من لبس التاج الضَّحَّاك أحد ملوك الفرس وهو النمرود فيما يقال، وفى زمنه كان إبراهيم الخليل عليه السلام.

أول من مسح الأَرَضِين، ووضع الدواوين، ووضع الخَرَاج على الأرَضِين، ووظَّف الموظَّفات على البلاد قيدار أحد ملوك الفرس، واتخذ لذلك ديوانا وسماه ديوان العدل.

أوّل من جلس على السرير من ملوك العرب جَذِيمة الأبرش، وهو أوّل من وقعت له الشَّمْعة من ملوك العرب، وأوّل من لبس الطَّوْقَ منهم .

أوّل من مشت الرجال معه وهو راكب الأشعثُ بن قيس، كانت بنو عمرو بن معاوية ملّكوه عليهم وتوّجُوه .

أوّل من مُشِى بين يديه بالأعمدة الحديد زيادُ ابنُ أبيه، وهو أوّل من جلس الناسُ بين يديه على الكراسىّ، وهو أوّل من اتخذ العَسَس والحَرَس .

أوّل من سُلِّم عليه بالإمرة المغيرة بن شعبة فقيل السلام عليك أيها الأمير، وكانوا قبل ذلك يقولون السـلام عليكم، ثم تبعه الأمراء على ذلك .

أوّل من حُمِل إليه الثَّلْج الحجَّاج بن يوسف، وسيأتى ذكره فى الكلام على حَمْل الثلج لصاحب الديار المصرية فى خاتمة الكتاب .

أوّل مَنْ نَقَش اسمه من الملوك على الدنانير والدراهم مع الخلفاء عِزُّ الدَّوْلة بن بُوَيه وإخوته ملوك الديلم القائمين على الخلفاء العبّاسيين ببغداد، فى سنة أربع وثلاثة وثلثمائة، ثم تبعهم الملوك على ذلك .

أوّل من حُمِل السَّنْجَق على رأسه من الملوك غازى بن زنكى صاحب الموصل، وهو أوّل من اختار الأجناد أن يركبوا بالسيوف فى أوساطهم والدَّبابيس تحت ركبهم .

أوّل من حُمِل الشمع معه على البغال فى الليل من ملوك الديار المصرية محمـد بن طُغْج الإخشيد، وكانت الشمعة تجعل على مؤخر البغل وفرّاش راكب أمامها، وهو يلتفت فى كل قليل يصلحها، فأبدلها الملوك بعده بهـذه الفوانيس التى تحمل على البغال مع الفانوسيَّة أمام ملوك الديار المصرية فى الليل .

أوّل من لقِّب من وزراء الفاطميين بالديار المصرية بالملك فلان رِضْوان بن ولخشى وزير الحافظ لقب بالملك الأفضل، وكان مَنْ قَبْله من الوزراء لا يبعث بالملك.

أوّل من لف العمامة علىٰ الكلوتة من ملوك الديار المصرية الأشرف خليل بن قلاوون، وكانت ملوك بنى أيوب يَلْبَسون كلوتة صفراء بغير عمامة ولذلك تراهم يطلقون علىٰ أرباب الأقلام المتعممين فى مقابلة أن الجند كانوا بغير عمائم .

أوّل من ٱعتاد حلق رأسه من ملوك الديار المصرية الملك الناصر محمد بن قلاوون حين حج ، وتبعه الأمراء والجند علىٰ ذلك وٱستمر الأمر علىٰ ذلك إلىٰ الآن ، وكان لهم قبل ذلك غدائر شعر مرسلةٌ كعرب البحار ونحوهم .

الــوزراء

أوّل من سمى وزيرا فى الإسلام أحمد بن سليمان الخَلَّال، وزير السفّاح أوّل خلفاء بنى العباس، ثم تبعه وزراء الخلفاء والملوك علىٰ ذلك ، وكانوا قبل ذلك يقولون كاتبا .

أوّل من لُقِّب بالصاحب من الوزراء، كافى الكُفَاة إسماعيل بن عَبَّاد، وكان السبب فى ذلك أنه كان يصحب الأستاذ ٱبنَ العميد فكانوا يقولون صاحب ٱبن العميد ، ثم غلب عليه اللقب حتّىٰ قيل له الصاحب مجرّدا وتبعه الخلفاء علىٰ ذلك، وسيأتى ذكره فى الكلام علىٰ هذا اللقب فى المقالة الثالثة .

أوّل من لقب بالملك الفلانى من وزراء الفاطميين بالديار المصرية رضوان بن ولخشى وزير الحافظ، لُقِّب الملك الأفضل ، ثم صار رسما لوزرائهم بعد ذلك ، وتبعهم ملوك الديار المصريه علىٰ ذلك إلىٰ الآن .

القضـاة

أوّل قاض كان فى الإسلام عمرُ بن الخطاب رضى الله عنه ، ٱستقضاه أبو بكر الصدّيق رضى الله عنه، فى خلافته فمكث سنة لا يأتيه أحد فى قضيه .

أوّل قاض بالمدينة النبوية عبد الله بن نَوْفَل ، آستقضاه عليها أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضى الله عنه فى خلافته .

أوّل قاض بالكوفة شُرَيح بن القَشْعم .

أوّل قاض بالبصرة أبو مَرْيَم الحنفىّ ، أحد بنى حنيفة ، آستقضاه أميرها عُتْبة ابن غَزْوان فى سنة أربع عشرة من الهجرة .

أوّل قاض بمصر قيْس بنُ أبى العاص السَّهْمىّ ، آستقضاه عليها عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فى خلافته فى سنة ثلاث وعشرين من الهجرة .

أوّل قاض جمع له القضاء والشُّرْطة بمصر عابس بن سعيد وليهما من قِبَل أميرها مَسْلَمة بن مُخَلَّد .

أوّل قاض بمصر نظر فى الأحباس يعنى الأوقاف بمصر أبو مِحْجن تَوْبةُ فى خلافة هشام بن عبد الملك ، وكانت الأوقاف قبل ذلك بيد أربابها أو أوصيائهم — فقال هذه مآلها إلىٰ الفُقَراء والمساكين فأنا أضع يدى عليها . فما مضت له سنة حتّىٰ صار لهـا ديوان عظيم .

أوّل قاض بمصر خرج لرؤية الهلال عبدُ الله بنُ لَهِيعة . قال أبو عمر الكندىّ ، وهو أوّل قاض وَلِىَ مصر عن خليفة ، ولّيها عن أبى جعفر المنصور فى أوّل سنة خمس وخمسين ومائة .

أوّل قاض ولى مصر ممن يقول بقول أبى حنيفة أبو الفضل إسمـاعيل بنُ اليَسَع الكندىّ ، وكان أهل مصر قبله لم يعرفوا مذهب أبى حنيفة ولم يألفوه . وكان يرىٰ بطلان الأوقاف ، فكتب الليث فيه إلىٰ أبى جعفر المنصور فكتب إليه بعزله .

أوّل قاض بمصر أدخل النصارى فى خصوماتهم إلى المسجد أبو عبد الرحمن محمد ابن مسروق ، وكانت ولايته لها من قِبَل الرشيد فى سنة سبع وسبعين ومائة ، وهو أوّل من اتخذ لمجلسه الشهود من قُضاة مصر .

أوّل قاض وَلِىَ مصر ممن يقول بقول مالك أبونُعَيْم إسحاق بن الفُرَات مولى معاوية ابن حُدَيج ، وللشافعى عليه ثناء جميل فى معرفة الخلاف ، وهو أوّل قاض اتخذ للشهود ديوانا وكتب أسماءهم فيه ، وكانت ولايته من قِبَل الرشيد فىسنة بضع وثمانين ومائة .

أوّل قاض وَلِّى على المصاحف أمينا بجامع الفُسْطاط الحارثُ بن مِسْكينَ ، وكانت ولايته فى خلافة المتوكل .

أوّل ما استقرّت قُضاة الديار المصرية أربعةً ، من كل مذهب قاضٍ فى سلطنة الظاهر بيبرس البندقدارى . وذلك أن القضاء بها كان بيد القاضى تاج الدين ابن بنت الأعز وكان شافعياً ، فكانت تأتيه المكاتيب المخالفة لمذهبه فيتوقف فيها فشقّ ذلك على السلطان والأمراء فاتفق رأيهم على أن يجعلوا من كل مذهب قاضيا ليقضى كل منهم بمذهبه .

أوّل ماخُصَّ قاضى القضاة الشافعىّ بالديار المصرية بالتولية فى أعمالها دون رُفْقته الثلاثة فى سلطنة المنصور قلاوون فى شوّال سنة ثمان وسبعين وستمائة ، ذكره ابن المكرم فى تذكرته .

الأمور العلميـــــة

أوّل من أخطأ فى القياس إبليس ، حيث قال «أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ» أو لم يعلم أن ما ألقى إلى جوهر الطين زاد ونما ، وما ألقى إلى جوهر النار اضمحل وتلاشى .

أوّل من نطق بالحكمة أنوش بن شِيث بن آدم عليه السلام .

أوّل مَنْ دلّ علىٰ تركيب الأفلاك ، وقدّر مسير الكواكب ، وكشف عن أحوال تأثيراتها، ونبه علىٰ عجائب الصنع فيها إدريس عليه السلام .

أوّل من نظر في الطب افريدون ملك الفرس بعد الضَّحاك ، وفي أيامه ظهرت الفلاسفة وتكلموا في علومهم .

أوّل من وضع النحو أبو الأسود الدُّؤَلي بأمر أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه، وهو أوّل من نقط المصاحف النقط الأوّل علىٰ الإعراب .

أوّل من صَنَّف في علم الكلام واصل بن عطاء المعتزليّ .

أوّل من تُرْجِم له كتب الطب والنجوم وغيرها من كتب العلوم الفلسفيّة خالد بن يزيد، ثم تلاه المأمون فأكثَرَ من ذلك .

أوّل من صنَّف في غريب القرآن أبو عُبَيده مَعْمَر بن المثنّى .

أوّل من صنَّف في أصول الفقه الإمام الشافعي رضي الله عنه ، صنَّف فيه كتابه الرسالة .

أول من صنَّف في الفقه مالك بن أنس صنف كتابه الموطّأ .

أوّل من عمل العروض الخليل بن أحمد ، وهو أوّل من صنف اللغة مرتبة علىٰ حروف المعجم صنف كتابه "العين" .

أوّل من صنف في علم البديع عبد الله بن المعتز .

أوّل من سنّ الإساءة والاجتراء في البحث فرعونُ ، بينا هو وموسىٰ عليه السلام في مقام المُناظرة حيث قال "وما رَبُّ العالَمِين" فأجابه موسىٰ بقوله "رَبُّ السَّمٰوات والأَرْضِ وما بَيْنَهُمَا إن كُنْتُمْ مُوقِنِين" إلىٰ آخر المناظرة بينهما إذ قال "لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ" .

الخطابة

أوّل من جمع قريشا وخطبهم ونبه على أن النبى "صلى الله عليه وسلم" منهم قُصَىّ ابن كلاب، وسيأتى ذكره فى الكلام على مكة فى المسالك والممالك فى المقالة الثانية.

أوّل من خطب على العصا وعلى الراحلة قُسّ بن ساعدة الإيادىّ، وقد تقدّم ذكر خطبته التى خطبها على الراحلة فى الكلام على الخُطَب.

أوّل من عَمِل المِنْبر تميم الدارىّ عمله للنبىّ صلى الله عليه وسلم، وكان قد رأى منابر الكنائس بالشام.

أوّل من أُرْتج عليه فى الخطبة عثمانُ بن عفّان رضى الله عنه فقال: أيها الناس إن اللّذين كانا من قبلى كانا يُعِدّان لهذا المقام مقالا، وأنتم إلى إمام عادل أحوجُ منكم إلى إمام قائل، وستأتيكم الخطبة على وجهها فى الجمعة الأخرى ثم نزل.

أوّل من خطب جالسا معاويةُ حين كَثُر شحمه.

أوّل من أقام الجُمعة بالمدينة قبل مَقْدَم النبى صلى الله عليه وسلم، أسعدُ بنُ زُرَارة الأنصارىّ ببنى بَيَاضة.

أوّل من رفع يده فى الخطبة يوم الجمعة عُبيدُ الله بن عبد الله بن عمر.

أوّل من أخرج المنبر فى العيد مروانُ بن الحكم ولم يكن قبل ذلك يُخْرَج.

الخط

أوّل من خط بالقلم فى الجملة قيل آدم عليه السلام وقيل إدريس.

أوّل من كتب بالعربية قيل هود عليه السلام أنزل عليه، وقيل إسماعيل، وقيل ثلاثة نفر من بَوْلانَ من طيئ اصطلحوا على ذلك، وسيأتى ذكره فى الكلام على الخط فى الباب الثانى من هذه المقالة.

كتابة الإنشـاء

أوّل من كتب فى أوّل الكتب بسم الله الرحمن الرحيم سليمان عليه السلام، حين كتب لبلقيس كما أخبر الله تعالىٰ عنه بقوله ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ ثم كتبها النبىّ صلى الله عليه وسلم لمـا نزلت .

أوّل من كتب فى أوّل الكتب باسمك اللهم أُمَيَّةُ بن أبى الصَّلْت، فكتبها قُرَيْشٌ فى كتبهم، وكان النبى صلى الله عليه وسـلم، يكتبها فى ابتداء الأمر . وسيأتى ذكر جميع ذلك فى الكلام علىٰ المكاتبات فى المقالة الرابعة .

أوّل من كتب من فلان إلىٰ فلان قُسُّ بن ساعدة فيما قاله العسكرى وأقرّه النبى صلى الله عليه وسـلم ، فى مكاتباته ، وسيأتى ذكره فى الكلام علىٰ الفواتح فى المقالة الثالثـــة .

أوّل من زاد فى أوائل الكتب بعد التحميد "وأسأله أن يصـلى علىٰ محمد عبـده ورسوله" هارون الرشيد، وسيأتى ذكره فى الكلام علىٰ المكاتبات فى المقالة الرابعة .

أوّل من أرّخ بالهجرة أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه . وسيأتى ذكره فى الكلام علىٰ الخواتم فى المقالة الثالثة .

أوّل من كتب فى آخر كتابه وكتب فلان بن فلان أُبىُّ بن كعب قاله العسكرى .

أوّل من ختم الكتب سليمان عليه السـلام فقد قيل فى قوله تعـالىٰ حكاية عن بلقيس ﴿ إِنِّى أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ إن المراد به المختوم . وأوّل من ختمها فى الإسلام النبى صلى الله عليه وسـلم، حين قيل له إن ملوك الأعاجم لا يقرءون كتابا غير مختوم فاتخذ خاتما نقش فصه محمد رسول الله فكان يختم به الكتب . وسيأتى ذكر ذلك فى الكلام علىٰ الخواتم .

أوّل من اتخذ الطين لختم الكتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، قاله الثعالبى فى "لطائف المعارف"

أوّل من اتخذ ديوان الخاتَم معاويةُ بن أبى سفيان ، حين كتب لرجل بمائة ألف درهم ففك الكتاب فأصلحها مائتين ، قاله الثعالبى فى "لطائف المعارف" .

كتابة الأموال وما فى معناها

أوّل من اتخذ الديوان فى الإسلام أمير المؤمنين عمرُ بن الخطاب ، وضع ديوان الجيوش . وسيأتى ذكره فى الكلام على الإقطاعات فى المقالة السادسة .

أوّل من جعل الحساب فى دفاترَ خالدُ بن برمك فيما قاله الثعالبى ، وكان قبل ذلك فى أدراج من كاغَد ورق .

أوّل من نقل ديوان العراق من الفارسية إلى العربية الحجاجُ بن يوسف فى خلافة عبد الملك بن مروان ، نقله له صالح بن عبد الرحمن ، كاتب كاتبِه زادانَ فرُّوخ فكان كُتَّاب[1] العراقين علماءَ وتلاميذَ .

أوّل من نقل ديوان الشام من الرومية إلى العربية عبدُ الملك بن مَرْوان ، نقله له سليمانُ بن سعيد مولى الخُشَين كاتبِ رسائل عبد الملك ، فولاه عبد الملك جميع دواوين الشام .

أوّل من نقل ديوان مصر من القِبْطيَّة إلى العربية عبدُ العزيز بن مروان فى إمارته على مصر، ذكره صاحب "المنهاج فى صنعة الخراج" .

أوّل من وسّع فى أرزاق الكُتَّاب الفضلُ بن سهل وزير المأمون .

(١) فى الأصل فروح بالمهملة فكان كبار العراقين وهو تصحيف فأحذره .

الخَرَاج والجِزْية

أوّل من وضع الخَرَاجَ وأزال المقاسمة كسرىٰ أنُوشَروانَ، وذلك أنه مر علىٰ زرع وآمرأة تمنع ولدها منه، فسألها عن ذلك، فقالت . إن للملك فيه حقا، ولا نستحله حتّٰى يأخذ الملك حقه، فقرّر علىٰ الزرع قدرا معلوما وخلّٰى بين الغَلّة وأصحابها .

أوّل من وضع الخراج علىٰ الأرَضِينَ والجزيةَ علىٰ الجماجم فى الإسلام أميرُ المؤمنين عمرُ بن الخطاب حين مسح السَّواد، ثم رسم بالمقاسمة أبو جعفر المنصورُ حين خرِب السـواد .

أوّل من ألزم الخراج كلفة الحمل ومؤنته زياد آبن أبيـه فبقى حتّٰى أسقطه زياد آبن أبيـه[1] .

أوّل من عَرَّف العرفاء علىٰ الناس لجباية المـال وغيره زيادٌ، وكان يقول العُرَفاء كالأيدى والمناكبُ فوقها .

المعـامـلات

أوّل من ضرب الدنانير والدراهم فى الإسلام عبد الملك بن مروان ، ضربها بالشأم من فضة خالصة ، وكان الناس قبل ذلك يتعاملون بدراهم الفُرس والرُّوم، ولمـا ضربها عبد الملك كتب إلىٰ الحجاجّ بالعراق بإقامه رسم ذلك ، فضرب الدراهم ونقش عليها قُلْ هُو اللهُ أحَدٌ إلىٰ آخر السورة ، فسمِّيت الدراهمَ الأحديَّة ، وكرهها الناس لنقش القرءان عليها، مع أنه قد يحملها المحدث، فسميت المكروهة .

قلت وقد رأيت درهما من هذه الدراهم الأحدية، أرانيه بعضُ أعيان حلب، وذكر لى أن فلاحا أصاب زِكَارا لطيفا بها فأحضره إلىٰ نائب حلب خوفَ عُهْدته ،

---

(١) كذا فى الأصل

فاقتسمه هو وأهلُ مجلسه، وعوّضه من كل درهم أضعافه، فحصل لوالد ذلك الرئيس هذا الدرهم فوصل إليه بعده . .

أوّل من شدّد فى العيـار فى الدراهم يوسف بن عمر، أمر أن لا يضرب درهم ينقص حبة فما فوقها، ثم آستحفّ درهما فوجده ينقص حبّةً، فأمر أن يضرب كل رجل من الضرّابين ألف سوط، وكانوا مائة ضرّاب، فضرب فى نقص حبة واحدة مائة ألف سوط .

أوّل من شدّد فى خلوص الذهب أحمد بن طُولون صاحب مصر والشام، وذلك أنه حين وجد الكنزُ المشهورُ بعين شمس، وأُتِيَ له منه بميِّت وعلىٰ صدره لوح ذهب مكتوب بالقِبْطية فعُرِّب فإذا فيه أنا أكبر الملوك وذهبى أخلص الذهب، فقال قاتل الله من يكون هذا اللّعين أكبرَ منه أو ذهبُه أخلص من ذهبه، ثم شدّد فى التعليق حتّى كان قاضى القضاة يحضُره بنفسه، وسيأتى الكلام علىٰ ذلك فى معاملة الديار المصرية فى المقالة الثانية .

أوّل من ضرب الدراهم الزُّيُوف فى الإسلام عبيد الله بن زياد .

أوّل من آتخذ ألسنه الموازين من الحديد عبدُ الله بن عامر أميرُ المدينة من قبل عثمان .

أوّل من عمـل الأوزان الحجاجُ بن يوسف، عملها له "سمير اليهودى"، وذلك أن الحجاج حين ضرب الدراهم الأحَدِيَّة علىٰ ما تقـدّم ضربها سمير اليهودى من فضة خالصة أيضا وجعل فيها ذهبا فأراد الحجاج قتله، فقال ألا أدلك علىٰ ما هو خير للسلمين من قتلى، قال هاته، فوضع الأوزان، وزن ألف، ووزن خمسمائة، ووزن ثلثمائة إلىٰ وزن ربع قيراط فجعلها حديدا ونقشها وأتىٰ بها إلىٰ الحجاج فعفا عنه، وكان الناس قبل ذلك إنما يأخذون الدرهم الوازن فيزنون به غيره .

أول من اتخـذ الدراع التى يُذْرَع بهـا الأرضون أمير المؤمنين عمر بن الخطاب حين مسح السَّواد . وقيـل أول من اتخدها زياد ، نظر إلى ثلاثة نفر من أطولهم دراعا وأوسطه وأقصره فجمعها وأخذ ثلثها فجعلها دراعا .

العـــــمارة

أول بيت وضع فى الأرض الكعبة ، بنتها الملائكة ، قال تعالى ﴿ إنّ أوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ ﴾ .

أول مَنْ جعل للكعبة بابا أنوش بن شيث بن آدم عليه السلام .

أول من سقف بمكة سقفا قُصَىُّ بن كلاب ، وكان الناس قبل ذلك إنمـا ينزلون فى العريش .

أول من بوّب بمكة بابا حاطبُ بن أبى بَلْتَعة .

أول من اتخذ بمكة رَوْشَنا بُدَيْل بنُ ورقاءَ الخُزاعىّ . وهو أول من بنى بهـا بيتا مربَّعا ، وكانوا قبل ذلك يتحامَوْن التربيع فى البناء كيلا يُشْبِه بناء الكعبة .

أول قرية بُنيت بعـد الطُّوفان قرية ثمـانينَ ، من الجزيرة الفُراتية ، بناها نوح عليه السلام ، وأنزل بها من كان معه فى السفينة وهم ثمانون رجلا .

أول مدينة بُنيت بمصر بعد الطُّوفان مدينة مَنْف وأصلها بالسُّريانية مافه ومعناها ثلاثون ، سميت باسم جماعة مِصْر بن بَيْصر الذين كانوا معه . وسيأتى ذكرها فى جملة قواعد مصر القديمة فى المقالة الثانية .

أول من عمل الحَمَّام سليمان عليه السلام ، صنعها له الجنّ وعملوا له النُّورة لإزالة شعر كان على بلقيس حين تزوجها فيما يقال .

أوّل من اتخذ الآجُرّ هامانُ لفرعون حيث قال له ﴿ فأوْقِدْ لى يا هامانُ على الطين فاجعَلْ لِى صَرْحًا ﴾ .

أوّل من بنى بالجصّ والآجُرّ فى الإسلام زياد ابن أبيه بالبصرة .

الــــــزرع

أوّل من غرس النخلة أنوش بن شيث بن آدم عليه السلام .

الصنــــاعات

أوّل من خاط الثياب إدريس عليه السلام، وكان الناس قبل ذلك يلبَسُون الجلود .

أوّل من عمــل القراطيس يوسف عليه الســلام . وقيل غيره، وسيأتى ذكره فى الكلام على ما يُكتَب فيه فى المقالة الثالثة .

أوّل من عمل الصابونَ سليمان عليه السلام، قاله الثعالبىّ .

أوّل من عمل الكيمياء قارون، ويقال إنه المراد بقوله تعالى حكاية عنه ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِى ﴾ .

أوّل من عمل الزجاج ملكى أحد ملوك مصر بعد الطوفان، وسيأتى ذكره فى الكلام على ملوكها فى المقالة الثانية .

أوّل من اتخذ الرِّحال عِلَاقُ بن رَبَّان[1] الحميرىّ، وكانت العرب قبل ذلك يركبون المحَاصر .

أوّل من كسا الكعبة فى الجاهلية تُبَّعٌ أسْعَدُ أبو كَرِب .

(١) وقع فى المخصص زبان بإهمال الزاى وفى القاموس والصحاح بإعجامها وهو الأقرب

أوّل من آتخذ المحامل لَهُ الحجاجُ بن يوسف .

أوّل من آتخـذ السياط الأصبحُ بنُ مالك ، أحدُ ملوك اليمن فقيل السِّـياط الأَصْبَحيّة .

اللبـاس

أوّل من لَبس الثياب الحُمْر قارون، ويقال إنه المراد بقوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ على قَوْمِهِ فِى زِينَتِهِ﴾ . وهو أوّل من أطال ثيابه وسحبها على الأرض عُجْبا وتيهاً .

أوّل من قوّر طَيْلَسانا من العرب فى الإسـلام عبدُ الله بن عامر أميرُ المدينـة من قبل عثمان . والطَّيْلَسان المقوّر على نحو الطَّرْحة التى يلبَسُها الوزراء وقُضـاة القُضاة الآن ، وكانت وُزَراء الفاطميين يلبسونها . وهو أوّل من لَبِس الخز ، فقال أهـل المدينة لبس الأمير جلدَ دُبّ .

أول ما لبس بنو العبّاس السَّوادَ حين قَتَـل مروانُ بن محمد آخرُ خلفاء بنى أمية إبراهيمَ بنَ محمد الإمامَ أوّلَ قائم منهـم بطلب الخلافة حُزْنا عليه ، فآستمر فيهم ، وفيه كلام يأتى فى المقالة الثانية عند الكلام على لِبْس الخلفاء .

أوّل من لبس الخِفاف الساذَجة بالبصرة زياد آبن أبيه .

أوّل من آحتذى النِّعال من العرب جَذيمة الأبرش .

أوّل من خلع نعلَيْه عند دخول الكعبة فى الجاهلية الوليدُ بنُ المغيرة .

أول من لبس النِّعَال الصَّرّارة المروانىُّ كان قصـيرا فاتخذ النعال العلاظ الصرارة لتزيد فى طوله وليسمَعَه جواريه وحُرَمُه عند دخول بيته فتُصْلح شأنَها من كانت على غير هيئةٍ صالحة . قال العسكرىّ من ثَمَّ آتخذ الناس نعال الخشب يعنى القَباقيبَ .

أوّل من أمر بتغيير زىّ أهل الذمة المتوكِّل ، أمرهم أن يلبَسُوا العَسلىّ ، ويتخذوا رُكب الخشب ونحو ذلك فيمتازوا عن المسلمين ، وسيأتى ذكره فى عقد صلح أهل الذمة فى المقالة السابعة .

الحـــرب وآلاته

أوّل من ركب الخيل إسماعيلُ عليه السلام ، وكانت قبله وُحُوشا لا تُركَب فراضها وركبها ، وتعلَّم بنوه رِياضتها منه ، فصارت فيهم إلى الآن . ولذلك العرب أعرفُ الناس بالخيل . وهو أوّل من ميَّز بين العتَاق منها والهُجُن فى سهام أصحابها ، فسبقت العِتاقُ الهُجُنَ .

أوّل من اتخذ الدروع ولَبِسها داودُ عليه السلام إذ يقول تعالى ﴿ وأَلَنَّا لَهُ الحَدِيدَ أَنِ اعْمَلْ سابِغَاتٍ وقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ﴾ وكانوا قبل ذلك يلبسون تَبَابِير[1] من حديد .

أوّل من اتخذ السِّلاح وجاهد سليمانُ عليه السلام فيما قاله العسكرىّ وفيه نظر .

أوّل من اتخذ الحديدَ من العرب ذُو يزَنَ الحمْيرىّ ، وكانت أسِنّتُهم قبـل ذلك صَيَاصِىَ البقر .

أوّل من اتخذ الحصن من الحبل للكمائن الإسكندر .

أوّل من اتخذ المنجنيق الضَّحاك حين أراد إلقاء إبراهيم عليه السلام فى النار ، وصنعه فيه ورمىٰ به فى النار فكانت عليه بَرْدًا وسلاما . وأوّل من اتخذه من العرب جَذِيمة الأبرش .

أوّل من اتخذ الجواسيس والعُيون على العدوّ الإسكندر .

أوّل لواء عقده النبىّ صلى الله عليه وسلم ، لِوَاء أبيض لعمه حمزةَ وقال "خُذْه يا أسَدَ الله" وذلك فى رمضان من السنة الأولى من هجرتها ، وحمله له يزيد بن أبى يزيد .

---

(١) لعل مراده [illegible] من حديد كما هو نص الأول [illegible] والكلمة فى نسخة الخط غير مجوّدة .

أوّل ما عُقِدت الرايات فى الإسلام يوم حُنَين، عقد صلى الله عليه وسـلم، راية سَوداء من بُرْد عائشةَ، وكانوا قبل ذلك لا يعرفون إلا الألوية قاله العسكرىّ .

أوّل من قتله النبى صلى الله عليه وسلم، بيده أُبىّ بن خلف لعنه الله، طعنه صلى الله عليه وسـلم طعنة خفيفة فوجد لها ألمـا شديدا فقيل له لن تبالىَ فقال لو أن ما بى بأهل الأرض لقتلهم، ومات منها .

أوّل حرب كان بين أهل القِبْلة يومُ صِفِّين، بين عائشة وعلىّ رضى الله عنهما .

الأسمـاء والألقاب

أوّل من سَمّى المصحف مُصْحفا أبو بكر الصدّيق رضى الله عنه حين جمع القرءان .

أوّل من سُمِّى باسم النبىّ صلى الله عليه وسـلم، محمدُ بنُ حاطب حين وُلِد بأرض الحبشة فى الهجرة الأولىٰ .

أوّل من سمى بالحَسَن والحسين السِّـبطانِ ولَدَا أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب من فاطمة بنتِ رسول الله صلى الله عليه وسـلم . قال أبو أحمد العسكرىّ فى كتابه "التصحيف والتحريف" قال المفضـل حجب الله هذين الاسمين عن أن يسمَّى بهما حتّى سُمّى بهما النبى صلى الله عليه وسلم، ابنيه عليهما السلام أما حَسْن وحَسِين الموجودان فى أنساب طيّئٍ فالأوّل بسكون السين والثانى بفتح الحاء وكسر السين .

أوّل من سمِّى عبد الملك فى الإسلام عبْد الملك بن مروان .

أوّل من سمِّى بعد النبى صلى الله عليه وسلم أحمد أبو الخليل واضع العَروض ولذلك يقال فيه الخليل بن أحمد .

أوّل من سَمّى العالية عالية معاويةُ بن أبى سفيان شمَّها من عبد الله بن جعفر فوصفها له فقال إنها عالية .

أول ما سميت العَطِيّات جوائز فى زمن عثمان رضى الله عنه، وذلك أن ابن عامر كان على العراق من قبل عُثمان فبعث جيشا مع قَطَن بن عبد عوف الهلالى إلى كِرْمان، فجرى الوادى بسيل فيقَ منه الغرق، فقال قَطَن من عبره فله ألف درهم، فعبره رجلٌ ثم آخر ثم آخر حتّى جاز جميعهم فأعطاهم قَطَنٌ ألفا ألفا فكان جملة ذلك أربعة آلاف ألف، فاستكثرها ابن عامر فكتب بها إلى عثمان فأجازها، وقال: كلُّ ما كان فى سبيل الله فهو جائز.

أول ما لُقِّب بفلان الدولة فى أيام المكتفى بالله.

أول ما لقب بفلان الدين فى أيام القادر بالله، وسيأتى ذكره فى الكلام على الألقاب فى المقالة الثالثة.

الضِّيفان

أول من قرى الضيف إبراهيمُ الخليل عليه السلام حتى كُنِّى أبا الضِّيفان لكثرة قِرَاه لهم.

أول من سنَّ للضيف صدر المجلس بهرام جور أحدُ ملوك الفُرْس.

أول من هَشَم الثَّرِيد للقِرى فى زمن المَحْل هاشمْ بن عبد مَنَاف، وبذلك سمى هاشما وكان اسمه قبلُ عمرا.

أول من فطَّر جيرانه فى شهر رمضان عبيدُ الله بن العباس بن عبد المطلب. وهو أول من حمل الطعام على رءوس الناس لكثرته وأول من أنهبه.

وجوه البِرّ

أول من اتخذ البيمارستان بالشام للمرضى الوليدُ بن عبد الملك.

أوّل من اتخذ البيمارستان بمصر أحمدُ بن طولون بناه بالفُسْطاط ، وهو موجود إلى الآن .

أوّل من فوّض إلى الناس إخراج زكاتهم بأنفسهم عثمانُ بن عفّان رضى الله عنه .

الأعيــاد والمواسم

أوّل من اتخذ النَّيْروز من الفرس جما الملك ، وهو الذى بنى مدينة طوس ، يقال إنه كان فى زمن هود عليه السلام ، كان الدِّين قبله قد تغير وظهر الجور . فلما ملك جدّد الدين وأظهر العدل فسمى اليوم الذى ملك فيه نَوْروز أى يوم جديد عرّبتــه العرب فقلبوا الواو ياء فقالوا نَيْروز .

أوّل هدية كانت فى النَّيْروز لجما الملك المتقدّم ذكره ، وذلك أنه لم يظهر القصبُ إلا فى أيامه فذاقه بعض الناس فاستحلاه فصنع منــه السكر فوافق فراغه فى أوّل يوم ملك فيه جما وهو يوم النَّيْروز فأهدى إليه منه فى ذلك اليوم ، فصار سنة عندهم ، فهم يتهادَوْن فيه بالسكر ، ثم توسعوا فيه فتهادَوْا بغير السُّكَّر .

أوّل ما ظهر المهرجان فى زمن أفريدون القــائم بعد الضحّاك من ملوك الفُرْس ، وذلك أنه لمــا ظفر بالضحاك فقيده وانقطع ما كان فى زمنه من الظلم والفساد سمّى اليوم الذى ظفر به فيه المهرجان . قال العسكرى : والمهر الوفاء كأن معناه سلطان الوفاء ، وكان سبيل الملوك فيه سبيل النَّيْروز .

أوّل من افتتح المكاتبــة بتهنئة النيروز والمهرجان أحمد بن يوسف أهدى إلى المأمون سَفَط ذهب فيه قِطعةُ عودٍ هندىّ فى طُوله وعرْضه . وكتب معه "هــذا يومٌ جرت فيه العاده ، بإلطاف العبيد الساده" .

الأقـــوال

أوّل من قال أما بعد داود عليه السلام، ويقال إنها فصـــل الخطاب المشار إليه بقوله تعالى ﴿وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب﴾ . وقيل أوّل من قالها قُسّ بن ساعدة.

أوّل من قال مَرْحَبًا سيفُ بن ذي يزن، قال ذلك لعبد المطلب جدّ النبي صلى الله عليه وسـلم، حين وفد عليه ليهنّئه برجوع المُلْك إليه، فقال له "مَرْحَبا وأهلا، وناقةً ورَحْلا، ومُناخا سَهْلا، ومَلِكا رِبَحْلا(١)، يُعطى عطاءً جَزْلا".

أوّل من قال جعلت فِداك عبدُ الله بن عمر رضى الله عنهما قالها لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين ذكر النبى صلى الله عليه وسلم الفتنةَ، فقال "جُعِلْتُ فِدَاكَ يارَسُولَ الله فما أصْنَعُ؟". وقيـــل أوّل من قالها له علىّ بن أبى طالب حين دعا عَمْرو بنُ وَدّ العامرىّ إلى المبارزة، فقال علىّ "جُعِلتُ فِداك يارسول الله أتأذن لى؟" ثم ٱستعملها الكُتّاب بعد ذلك فى مكاتباتهم.

أوّل من قال أطال الله بقـاءك عمرُ بن الخطاب رضى الله عنه تكلم علىّ رضى الله عنـــه بحضرته فى العدل بكلام أعجبه، فقال له صدقت أطال الله بقاءك، ثم نقلها الكُتّاب إلى استعمالها فى مكاتباتهم.

أوّل من قال أيّدك الله عمر بن الخطاب قاله لعلىّ عليه السلام أيضا.

الشعر والغنـــاء

أوّل من قصّد القصـــائد مُهلْهِل خال ٱمرئ القيس، والقصـــيد ما زاد على سبعة أبيـــات.

---

(١) فى نسخة الخط والمطبوع السابق وجلا وهو تصحيف وقد ذكرت الكلمة فى اللسان فى مادة ر ب ح ل.

أوّل من أطال الرّجز العجّاجُ . قيــل إن الرجز كان فى الجاهليــة إنمــا يقول منه الرجل البيتين أو الثلاثةَ فى الحرب ونحوه حتّى جاء العجّاج ففتح أبوابه وشبهه بالشـعر، ووصف فيه الديار وأهلها ، والرسوم والفلوات، ونعت الإبل والطّلول ، وكان فى أوّل الإسلام يشبه بامرئ القيس .

أوّل من استخرج اللطيف من المعانى فى الشعر وجرىٰ علىٰ طريقه البديع مسلم ابن الوليد .

أوّل من أخرج الغِنَاء العربىّ جرادةُ جاريةُ ابنِ جُدْعان فيما قاله العسكرىّ . وفيه نظر فإن الغنــاء معهود من عهد عاد حتّى كان من جمــلة مغنّياتهم الجرادتان اللتان يضرب بهما المثل فيقال "غنّتْه الجَرَادتان" .

أوّل من علم الجوارىَ المُثَمّنات الغناءَ إبراهيم الموصلى، وكان الناس بمكة لا يعلّمون الجارية الحسناء الغِناء .

النســــاء

أوّل امرأة خُفِضت هاجَرُ أمّ إسمــاعيل، وذلك أنها حين تعيرتْ عليها سارةُ لتَسَرِّى[1] إبراهيم عليه السلام بها حلفتْ لتقطعنّ شيئا من جسدها فأشار عليها إبراهيم أن تَخْفِضَها، وتثقبَ أذنيها، ويجعل فيهما قُرْطين ففعلتْ فزادت حُسْنا .

أوّل امرأة اكتحلت بالإثمد زرقاءُ اليمــامة، وكانت تنظر مسيرة ثلاثة أيام .

أوّل امرأة نسبت سَجاحِ التميمية الى زوجها مُسيْلمة الكذّاب .

---

(١) فى نسخة الخط لتسرى وهو تصحيف ظاهر .

أوّل آمرأة لبست المصبّغات فى الإسلام شُمَيلة زوج عباس ، وهى أوّل من عَمَّأت الطِّيب[1] .

الموت والدفن

أوّل آمرأة حُمِلت فى نعش زينبُ بنتُ جحش زوج النبى صلى الله عليه وسلم .

أوّل من دُفِن بالبقيع عثمانُ بنُ مظعون ، وهو أوّل من مات من المهاجرين بالمدينة .

أوّل من دُفِن بقرافة مصر رجلٌ آسمه عامر فقال عمرو بن العاص عَمَرتْ والله .

أمور تنسب للجاهلية

أوّل من حَرَّم الخمر فى الجاهلية الوليد بن المغيرة ، وقيل قيسُ بن عاصم ، ثم جاء الإسلام بتقريره .

أوّل من حَرَّم القِمَار فى الجاهلية الأقرع بن حابس التميمى ، ثم جاء الإسلام بتقريره .

أوّل من رَجَم فى الزنا فى الجاهلية ربيع بن حدّان ، ثم جاء الإسلام بتقريره فى المُحْصَن .

أوّل من حكم أن الولد للفِرَاش فى الجاهلية أكثَمُ بن صَيْفِيٍّ حكيم العرب ، ثم جاء الإسلام بتقريره .

أوّل من قطع فى السرقة فى الجاهلية الوليد بن المغيرة ، ثم جاء الإسلام بتقريره .

أوّل من سنّ الدية مائةً من الإبل عبدُ المطلب جدّ النبى صلى الله عليه وسلم ، وذلك أنه نذر إن وُلد له عشرةُ ذكور ليذبحنَّ العاشرَ فوُلِد له عشرة ، وكان عاشرهم عبدُ الله أبو النبى صلى الله عليه وسلم ، فرام ذبحه ، فعارضه قريش فى أمره ، وأُشِير عليه بأن يُقْرِع بينه وبين الإبل حتّى تخرج القرعةُ على الإبل ، فأقرع بينه وبين عشرة

---

(١) فى اللسان نقلا عن القتيبى تعنؤه عما صنعه وخلطه

فخرجت القرعة عليه، ثم زاد عشرة بعد عشرة وهى تقع عليه حتّى بلغ مائة من الإبل فوقعت القُرْعةُ عليها فنحرها، فكان النبى صلى الله عليه وسلم، يقول "أنا ابن الذَّبِيحَيْنِ" يعنى إسماعيلَ وعبدَ الله، ثم جاء الإسلام بتقريرها.

أوّل من أوقد النـار بالمزدلفـة حتّى يراهـا من بالموقف قصىّ بن كلاب، فهى تُوقَد إلىٰ الآن.

أوّل من أهدىٰ البُدْن إلىٰ البيت إلياس بن مُضَر.

أوّل من أظهر التوحيد بمكة قبل البعثة قُسُّ بن ساعده.

أوّل من خَضَب بالوَسْمة من قريش عبدُ المطلب.

أوّل من نَسَّأ النسىء، وسيَّب السوائب، وجعل الوصيلة والحامِىَ عَمْرو بن لُحَىٍّ وهو أبو خزاعة.

الضـــرب الثـانى

(من النبذ التاريخية التى لا يسع الكاتب جهلُها نوادر الأمور ولطائف الوقائع والمـاخريات)

العـــراقة وشرف الآباء

قال الثعالبى، أشْرف[1] الأنبياء فى النبوّة يعنى تواصل الآباء فيها يوسفُ بنُ يعقوب ابن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام، وشاهد ماقاله أبـ النبى صلى الله عليه وسلم، يقول "الكَرِيمُ ابنُ الكريم ابنِ الكريم ابنِ الكريم يوسُفُ بْنُ يعقوبَ بن إسحاق بن إبراهيم" ولا يخفىٰ أن إخوته عليهم السلام فى هذه الرتبة فى العراقة.

أعْرَق الأكاسرة فى المُلْك شيرويه بن أبرويز بن أردشير بن بابك ملكٌ ابن ملك ابنِ ملكٍ ابنِ ملك.

(١) مراده أعرق الأنبياء كما بعضه [illegible]

أعرق الناس فى صُحْبة النبىّ صلى الله عليه وسلم، محمدُ بنُ عبد الرحمن بن أبى بكر الصدّيق بن أبى قُحافة رضى الله عنهم، أربعتهم رأَوُا النبىّ صلى الله عليه وسلم، وصَحِبوه.

أعْرَق الخلفاء فى الخلافة المنتصرُ، بن المتوكل، بنِ المعتصِم، بن الرشيد، بن المهدىّ، بن المنصور فى آبائه خمسة آباء خلفاء وهو سادسهم فيها. وفى معناه أخواه المعتمد والمعتز، أما عبد الله بن المعتز وإن زاد أبا فى الخلافة فإنه لم تمض عليه مدّة تعتبر، ولذلك لا يعدّه أكثر المؤرّخين فى جملة الخلفاء.

أعرق الناس فى المُلْك والخلافة جميعا باعتبار الأصول والحواشى من الذكور والإناث يزيدُ بنُ الوليد بن عبد الملك بن مروان. أما من جهة الخلافة فهو خليفة، وأبوه خليفة، وجدّه خليفة، وجدّ أبيه خليفة، وعُمُومتُه خلفاء. وأما من جهة المُلْك فأمه شاهفرند بنتُ فَيْروز، بن يزدجرد، بن شهريار، وأمها من بنات شيرويه ابن أبرويز، وأمّ شيرويه مريم بنتُ قيصر، وأمّ فيروز بنت خاقان ملك الترك.

أعرقُ الوُزَراء فى الوزارة أبو علىّ الحسينُ، بن القاسم، بن عبيد الله بن سليمان بن وهب، وأخوه أبو جعفر محمد بن القاسم، فإن القاسم وُزِّر للمقتدر ومحمد وُزِّر للقاهر وأباهما القاسم وُزِّر للمعتضد ثم للمكتفى بعده، وعبيد الله وُزِّر للمعتضد، وسليمان وزر للمهتدى وبعده للمعتمد فكل من الحسين ومحمد وزير ابن وزير ابن وزير ابن وزير يعنى فى آبائه ثلاثة وزراء، وهو الرابع فيها.

أعرق الناس فى القتل عُمَارة بن حمزة بن مُصْعَب بن الزبير بن العوّام بن خُوَيلد، قُتل عمارةُ، وأبوه حمزةُ جميعا يوم قُدَيد فى حرب الإباضيّة، وقتل مُصْعب بدير الجاثليق فى الحرب بينه وبين عبد الملك، وقتل الزُّبَيْر بوادى السِّباع فى نَوْبة الجمل،

وقتل العَوّام فى حرب الفِجار ، وقُتِل خُوَيْلد فى حرب خُزاعة . قال الثعالبىّ ولا يعرف فى العرب والعجم ستةٌ معروفون فى نَسَق واحد إلا آل الزبير .

أعرق الناس فى الفقه إسماعيلُ بن حَمّاد بن أبى حنيفة ، كان كل من إسماعيل وحماد فقيها وأبو حنيفة الإمامُ الأعظم .

أعرق النـــاس فى القضاء بلالُ بنُ أبى بُرْدة بن أبى موسىٰ الأشـعرى رضى الله عنه كان بلال قاضيا علىٰ البصرة ، وأبو بُرْدة قاضيا علىٰ الكوفة ، وأبو موسىٰ قاضيا لأمير المؤمنين عمرَ رضى الله عنه .

أعرق الناس فى حِجَابة الخلفاء العَبّاسُ بن الفضل بن الرَّبيع ، فإن العباس حجب الأمين ، والفضل حجب الرشيد قبل أن يتقلد عنه الوزارة ، والربيع حجب المنصور والمهدىّ ، وفى ذلك يقول أبو نُوَاس من أبيات

سَادَ الرَّبيعُ وسَادَ فَضْـلُ بَعْدَهُ   وَتَمتْ بَعَبّـاسِ الكَرِيمِ فُـرُوعُ
عَبّاسُ عَبّاسٌ إذا ٱحْتَدَمَ الوَغىٰ   والفَضْلُ فَضْلٌ والرَّبِيعُ رَبِيعُ

أعرق الناس فى الشعر سعيدُ بنُ عبد الرحمن بن حَسّانَ بن ثابتِ بنِ المنـــذر بنِ حرام ، ستة كلُّهم شعراء علىٰ نَسَق ، ثم كانت العَرَاقة فى الشـعر بعـده مع زيادة آباء لمتوح ، بن محمود ، بن مروان ، بن يحيىٰ ، بن مروان ، بن الجنوب ، بن مروان ، آبن سليمان ، بن يحيىٰ ، بن أبى حفصة مولىٰ عثمان بن عفان رضى الله عنه ، عشرة علىٰ نَسَق

— —

الغايات من طبقات الناس

أشرف الناس فى الأئمّة سبطا الحسن والحسين عليهما السلام ، رسول الله صلى الله عليه وسلم جدّهمـا ، والقاسم بن رســول الله صلى الله عليه وســلم خالهما ، وعلى بن

أبى طالب أبوهما ، وفاطمةُ بنتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمهما ، وخديجة بنت خُوَيلد جدّتهما .

أشرف النساء فى النسب والصِّهر فاطمةُ ، رسول الله صلى الله عليه وسلم أبوها ، وخديجةُ أمها ، وعلىّ بن أبى طالب زوجها ، والحسن والحسين سيدَا شباب أهل الجنة ولداها .

أشرفُ الناس فى المصاهرة عبدُ الله بن عمرو بن عثمان ، تزوّج إليه أربعة من الخلفاء ، تزوّج الوليد بن عبد الملك بنته عَبْدة ، وسليمانُ بن عبد الملك بنته عائشة ، ويزيدُ بن عبد الملك بنته أمَّ سعيد ، وهشام بن عبد الملك بنته رُقَيَّة . قال الثعالبىّ ولا يُعرَف رجل له أربعة أختان خلفاء إلا هو .

غرائب أمور تتعلق بالخلفاء

امرأةٌ ولَدَها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلىّ ، وطلحة والزبير ، وهى حفصة ابنةُ محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان ، أبوها محمد المدبَّج ، وأمها خديجة بنت عثمان بن عُروة بن الزبير ، وأم عُروة أسماء بنت أبى بكر ، وأمّ المدبَّج فاطمة بنت الحسين بن علىّ ، وأمّ الحسين فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمّ فاطمة بنت الحسين أمّ إسحاق بنت عُبَيد الله ، وأمّ عبد الله بن عمرو زينب بنت عبد الله بن عمرَ بن الخطاب ، فهى من ولد كل من المذكورين .

أربع نسوة فى الإسلام ولدت كل واحدة منهن خليفتين ، فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولدت الحسن والحسَين ، وقد بُويع لهما بالخلافة ، وولّادة بنتُ العباس العَبْسية زوجةُ عبد الملك بن مروان ولدتْ له الوليدَ وسليمانَ ، وهما

خليفتان، وشاهفرند بنت فيروز بن يزدجرد زوجة الوليد بن عبد الملك ولدت له يزيدَ وإبراهيم ووُلِّيا الخلافة، والخَيْزُران ولدت للمهديّ موسىٰ الهادى وهارونَ الرشيد .

آمرأة لهـا آثنا عشر مَحْرَما كل منهم خليفة ، وهى عاتكةُ بنت يزيدَ بن معاوية ، يزيد أبوها ، ومعاوية بن أبى سفيان جدّها ، ومعاويةُ بن يزيد أخوها ، وعبدُ الملك آبنُ مروان زوجُها ، ومَرْوان بن الحكم حَمُوُها ، ويزيدُ بن عبدالملك آبنُها ، والوليدُ وسليمان وهشام أبناءُ عبد الملك أولاد زوجها[1] .

ومثلها من بنى العباس زُبَيدة بنتُ جعفر بن المنصور ، جدُّها المنصور ، وأخو جدّها السفّاح ، وزوجُها الرشيد ، وعمُّها المهدى ، وآبنها الأمينُ ، وأبناءُ زوجها المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل .

خليفة سـلم عليه بالخلافة عمُّه وعمّ أبيه وعمّ جدّه ، وهو هارونُ الرشيد سلم عليه سليمانُ بن المنصور ، والعباس بن محمد عمُّ أبيه المهـدىّ ، وعبدُ الصمد بن علىّ عم جدّه أبى جعفر المنصور .

خليفة سلم عليه من أهل بيته سبعة كل منهم آبن خليفة ، وهو المتوكل ، سلم عليه أحمد بن الواثق ، وأحمد بن المعتصم ، وسليمان بن المأمون ، وعبـد الله بن الأمين ، وأبو محمد[2] بن الرشيد ، والعباس بن الهـادى ، ومنصور بن المهدىّ .

خليفة قَبَّل هو وآبنه يد خليفة فأجاز آبنه جائزة ثم قبـل المقبَّلةُ يده هو وآبنه بعد المقبِّل أوّلا وهو خليفة فأجاز آبنه بمثـل تلك الجائزة ، وهو المعتصم ، وقف لإبراهيم آبن المهـدىّ أيام خلافته ثم نزل المعتصم فقبّل يده ثم أدنىٰ منـه آبنه هارون فقبل يده ، وقال ياأمير المؤمنين عبدك هارون آبنى فأمر له بعشرة آلاف درهم ، ولما

(١) المعدود تسعة فقط وكذا فى الأصل بهامشه .
(٢) كذا فى الأصل

آستُخْلِف المعتصم وقف له إبراهيم بن المهدى ثم ترجل فى ذلك الموضع بعينه وقبّل يده وأدنى منه آنية هبة الله فقبّل يده ، وقال يا أمير المؤمنين عندك هبة الله آتى فأمر له بعشرة آلاف درهم . قال الصولى ولا يعرف مثل ذلك لخليفتين وابنيهما .

خليفة جرت أموره كلها على ثمانية ، وهو المعتصم ، فهو الثامن من خلفاء بنى العباس ، ومولده سنة ثمان وسبعين ومائة ، وعمره ثمان وأربعون سنة ، وكان ثامن أولاد الرشيد ، وملك ثمان سنين وثمانية أشهر وثمانية أيام ، وخلف ثمانية بنين ، وثمان بنات ، وثمانية آلاف دينار ، وثمانية وعشرين ألف درهم ، وثمانية عشر ألف دابة ، وله ثمان فتوحات ، وتوفى لثمان بقين من شهر ربيع الأول ومن ثَمَّ سمى المثمَّن .

خليفة له عشرة أولاد وعشرة إخوة ، وعشرة أولاد إخوة ، وهو مروان بن الحكم فأولاده العشرة عبد الملك ، ومعاوية ، وعبد العزيز ، وقُسّ ، وعمر ، ومحمد ، وعبيد الله ، وعبد الله ، وأيوب ، وداود . وإخوته[1] عبد الواحد ، وعبد الملك ، وعبد العزيز ، وسعيد بنو الحارث بن الحكم ، وحرب ، وعثمان ، وعمر بنو عبد الرحمن آبن الحكم ، ويوسف ، وسليمان ، ويحيى بنو يحيى بن الحكم .

ليلة ولد فيها خليفة ، ومات فيها خليفة ، وولى فيها خليفة ، وهى ليلة السبت لأربع بقيت من ربيع الأول سنة سبعين ومائة ، ولد فيها المأمون ، ومات فيها الهادى ، واستخلف فيها الرشيد ، ولا يعهد مثل ذلك فى زمن من الأزمان .

خليفتان أحدهما آبن الآخر بين قبريهما بُعْد كبير ، وهما الرشيد والمأمون ، قبر الرشيد بطُوس وقبر المأمون بطَرَسُوس .

---

(١) المعدود أولاد إخوة وسقط الإخوة من قلم الناسخ

خليفة ركب البَريد ، وهو موسىٰ الهـادى ، مات أبوه المهدىّ وهو غائب على جُرْجان ، فكتب إليه الرشيد بالخبر والبيعة ووجه إليه الخاتم والبُرْدة والقضيب فركب البريد وأتى إلىٰ بغداد بعد ثلاثة عشر يوما من موت المهدىّ ، ولا يعرف خليفة ركب البريد غيره .

خليفتان آسم كل منهما جعفر قتل كل منهما فى يوم الأربعاء وهما المتوكل والمقتدر .

خليفة وَلِىَ الخلافة ستين سنة متوالية ، وهو المستنصر بالله الفاطمىّ خليفة مصر علىٰ أن الثعالبىّ فى "لطائف المعارف" قال آستقرت ولاية معاوية بن أبى سفيان أربعين سنة عشرون منها إمارة وعشرون منها خلافة .

خليفة كانت خلافته يوما أو بعض يوم ، هو عبـد الله بن المعتز ، بويع بعد خلع المقتدر ، فلمـا كان من الغد جاء به غلمـان المقتدر وغوغاء العامة فهرب وآختفىٰ ثم ظفر به .

أربعة إخوة ولى كل منهم الخلافة . وهم الوليد . وسليمان . ويزيد . وهشام أولاد عبد الملك بن مروان .

لم يل الخلافة من أبوه حىّ سوىٰ أبى بكر الصـديق والطائع لله وكلاهمـا آسمه أبو بكر .

لم يل الخلافة من أبواه هاشميّان سوىٰ الحسن بن علىّ من فاطمة ومحمد الأمين آبن الرشيد من زبيدة .

لم يل الخلافة من آسمه العباس سوى أمير المؤمنين المستعين بالله أبى الفضـل العباس بن المتوكل علىٰ الله محمد خليفة العصر . مع كثرة هذا الأسم فى أولاد الخلفاء العباسـيين وكونه آسم جدهم الأكبر . قلت وقد جرى أمير المؤمنين المستعين

المشار إليــه أن تسميته العباس كانت برؤيا رآها الشـيخ بدر الدين الهسي بمكة المشرفة ، رأىٰ العباس بن عبد المطلب رضى الله عنــه فى النوم ، وهو يقول له قل لولدى محمد ، (يعنى المتوكل علىٰ الله) إذا ولد له ولد يسميه العباس .

وسـياتى ذكر ذلك فى الكلام علىٰ العهد الذى أنشأه قبل ولايتــه الخلافة بنحو ثمان سنين آمتحانا للخاطر فى حملة العهود فى المقالة الخامسة .

(أعجوبة) قال الصولى الناس يَرَوْن أن كل سادس يقوم بأمر الدِّين مند أوّل الإسلام لا بد أن يخلع ، النبى صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلىّ ، والحسن خلع . ثم معــاوية ، ويزيد ، ومعاوية ، ومروان ، وعبد الملك ، وعبد الله آبن الزبير خلع . ثم الوليد بن عبد الملك ، وسليمان بن عبد الملك ، وعمر بن عبد العزيز ، ويزيد ، وهشام ، والوليد بن يزيد خلع . ثم كان منهم يزيد بن الوليد ، وابراهيم بن الوليد ، ومروان بن محمد وهو آخرهم ولم يكن من بعده من بنى أمية من يتم العدد بهم ستة فألغى .

ثم كانت الدولة العباسية فكان السفَّاح ، والمنصور ، والمهدىّ ، والهادى ، والرشيد ، والأمين خلع . ثم المأمون ، والمعتصم ، والواثق ، والمتوكل ، والمنتصر ، والمستعين خلع . ثم المعتز ، والمهتدى ، والمعتمد ، والمعتضد ، والمكتفي ، والمقتدر خلع فى فتنة المعتز . ثم ردّ إلىٰ الخلافة ثم قتل ، ولم يعتد بخلافة آبن المعتز لخلعه فى يومه . قال صاحب "رأس مال النديم" والثعالبى فى "لطائف المعارف" ثم القاهر ، ثم الراضى ، ثم المتقى ، ثم المستكفى ، ثم المطيع ، ثم الطائع خلع . قال الصلاح الصفدى ثم القادر ، والقائم ، والمقتدى ، والمستظهر ، والمسترشد ، والراشد ، خلع . ثم المقتفى ، والمستنجد ، والمستضىء ، والناصر ، والظاهر ، والمستعصم خلع وقتل أيام هولاكو عند آستيلائه علىٰ بغداد .

قلت هذا غلط فاحش من الصلاح الصفدىّ لا يليق بمثله فانه أسـقط قبل المستعصم المستنصر وهو السادس .

وقد ذكر الشيخ شمس الدين ابن ساتة فى تاريخ الخلفاء أنهم لما بايعوا المستنصر المذكور خلعوه ثم أعادوه فرارا من التطير بخلع السادس ، وحينئـــذ فيكون من بعد المستنصر المستعصمُ المذكور ثم المستنصر أحمد، الذى أتى به الظاهر بيبرس وتوجه إلىٰ الديار المصرية، ثم الحاكم أحمـــد، ثم ابنه المستكفى سليمان ، ثم ابنه المستعصم أحمد، ثم الواثق، إبراهيم خلع . ثم المعتضد أبو بكر بن المستكفى، ثم ابنه المتوكل، ثم المعتصم زكريا ، ثم الواثق عمر، ثم المستعين أبو الفضـــل العباس خليفة العصرّ أدام الله أيامه وهو الخامس والله تعالىٰ أعلم بمن يكون السادس وما يكون من أمره .

قال الصلاح الصفدى وكذلك العُبَيْديُّون المعروفون بالفاطميين كان منهم بالمغرب عبد الله المهدىّ، والقائم بأمر الله، والمنصور، والمعزّ بانى القاهرة بالمغرب ثم بمصر والعزيز، والحاكم فقتلته أخته . ثم الظاهر ،والمستنصر، والمستعلى ،والآمر، والحافظ، والظافر خلع وقتل، ثم الفائز، والعاضد وهو آخرهم . قال وكذلك بنو أيوب فى ملك مصر أولهم صلاح الدين، ثم ولده العزيز، وأخوه الأفضل بن صلاح الدين، والعادل الكبير أخو صلاح الدين ، والكامل ولده، والعادل الصغير خلع . ثم كان منهم الصالح نجم الدّين أيوب، ثم المعظم توران شاه، ثم أم خليل شجرة الدّر، ثم الأشرف موسىٰ وهو السابع ولم يكن منهم من يكمل الستة . قال وكذلك دولة الأتراك ملوك مصر أولهم المعز أيبك، وابنه المنصور، والمظفر قطز، والظاهر بيبرس، وابنه السعيد بَرَكة، وأخوه العادل سلامش خلع ، وملك السلطان الملك المنصور قلاوون .

قلت ثم ابنه الأشرف خليل، ثم المعظَّم بيدرا ولم يعتد به لخلعه من يومه كما لم يعتد بابن المعتز فى الخلفاء، ثم الناصر محمد بن قلاوون، ثم العادل كتبغا، ثم المنصور لاجين، ثم المظفر بيبرس الجاشنكير خلع، ثم المنصور أبو بكر بن الناصر محمد، ثم الأشرف كجك ابن الناصر محمد، ثم الناصر أحمد بن الناصر محمد، ثم الصالح إسماعيل بن الناصر محمد،

ثم الكامل شعبان بن الناصر محمد ، ثم المظفر حاجى بن الناصر محمد خلع ، ثم الناصر حسن بن الناصر محمد ، ثم الصالح صالح بن الناصر محمد ، ثم المنصور محمد بن المظفر حاجى ، ثم الأشرف شعبان بن حسين بن الناصر محمد ، ثم ٱبنه المنصور على ، ثم الصالح حاجى بن الأشرف شعبان خلع ، ثم الظاهر برقوق ، ثم الناصر فرج سلطان العصر وهو الثانى والله أعلم بمن يكون السادس .

غرائب تتعلق بالملوك

ملك مُلِّك وهو فى بطن أمه ، وهو سابور ذو الأكتاف أحد ملوك الفرس ، مات أبوه وهو حمل ولم يكن له ولد سواه ، فعقَدوا التاج علىٰ رأس أمه علىٰ أن يكون من فى بطنها هو الملك كائنا من كان ، فلما وضعته ملّكوه .

ثلاثة من ملوك فارس ٱبن وأب وجدّ ٱسمهم واحد ، وهم بهرام بن بهرام بن بهرام ، ومثلهم من ملوك غسان من العرب الحارث بن الحارث بن الحارث . قال الثعالبىّ وهذا التناسق لايقع إلا فى الأكابر والرؤساء وقد جاء من هذا النمط فى سادات الإسلام الحسن بن الحسن بن الحسن السبط .

ملكان إسلاميان أوّل ٱسم كل واحد منهما عين قتل كل واحد منهما ثلاثة ملوك أوّل ٱسم كل واحد منهم عين ، أحدهما عبد الملك بن مرْوان قتــل عمرَو بن سعيد وعبدَ الله بن الزبير وعبدَ الرحمن بن محمد بن الأشعث . والثانى أبو جعفر المنصور ٱسمه عبد الله قتــل أبا مسلم الخراسانى وٱسمه عبد الرحمن وعمه عبد الرحمن بن على وعبد الجبار بن عبد الرحمن والى خراسان .

قال الثعالبىّ أربعة فى الإسلام قتل كلُّ واحد منهم أكثر من ألف ألف رجل ، وهم الحجاج بن يوسف ، وأبو مسلم الخراسانى ، وبابك ، والبرقعى .

قلت وقد وقع لتيمور كور كان المعروف بتمرلـــك صاحب ما وراء النهر على رأس الثمانمائة من الهجرة ما هو أكثر من ذلك، فإنه قد فتح من الهـــند إلى الخليج القسطنطيني، وقتل من كل إقليم من الخلق ما لا يحصى حتى كان يبني بالرءوس في كل مدينة يفتتحها منارا .

غرائب تتعلق بسَرَاة الناس

ثلاثة بنو أعمام في زمن واحد، كل منهم سيد جليل، لم يصلحُ للإمامة أو الرياسة ثم كان لكل منهم ابن اسمه محمد كذلك . وهم عليّ بن عبد الله بن عباس وابنه محمد وعليّ بن الحســين بن عليّ بن أبي طـالـب وابنه محمد، وعليّ بنُ عبد الله بن جعفر ابن أبي طالب وابنه محمد . قال الجاحظ وهذا من غرائب ما يتفق في العالَم، فإن هذا أمر لم يشاركهم فيه أحد .

أب وابن تقارب ما بينهما من العمر تقاربا شديدا وهما عمرو بن العـاص وابنه عبد الله كان بينهما في السن ثلاث عشرة سنة . قال الثعالبي ولا يعهد مثل ذلك .

أخوان تباعد ما بينهما في السن تباعدا شديدا وهما موسى بن عبيده الرَّبَذي[1] المحدّث وأخوه عبد الله كان بينهما في السن مائة سنة ولم نعرف مثل ذلك في غيرهما .

أربعة إخوة كل واحد منهم أسنُّ من الآخر بعشر سنين . وهم أولاد أبي طالب كان طالب أسنَّ من عَقِيل بعشر سنين، وعَقِيل أسنَّ من جعفر بعشر سنين، وجعفر أسنَّ من أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب بعشر سنين .

ثلاثة إخوة ولدوا في سنة واحدة وقتلوا في يوم واحد وسن كل واحد منهم اثنتان وأربعون سنة، وهم مَزْيد، وزياد، ومدرك أولاد المهلّب بن أبي صُفْرة . وهذه من غرائب النوادر .

(1) في الأصل الربذي وهو [illegible]

رحل مكث عشر سبين لا يولَد له إلا رحل ولا يموت له إلا أنثى، وهو المهلّب آس أبى صُفْرة فى عير أولاده الثلاثة المدكورين .

أربعة رحال فى الإسلام لم يمت كل منهم حتّٰى رأىٰ من ولده وولد ولده وولد ولده أكثَرَ من مائة فيما قاله الثعالبيّ وعيره ، وهم أنس س مالك حادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحليفة س براء السعدىّ ، وعبد الرحمن س عمر الليثى ، وجعفر س سليمان الهاشمى، ومنهم من يدكر بدله أبا نكرة مولى النبى صلى الله عليه وسلم .

حمسة إحوة تباعدت قبورهم أشدّ تباعد، وهم سو العباس س عبد المطلب قبر عبد الله بالطائف، وقبر عبيد الله بالمدينة، وقبر مَعَبْد بافريقيَةَ، وقبر الفصل بالشام، وقبر قُثَم بسمَرْقَند .

قاص قصى فى الإسلام حمسا وسبعين سنه وهو شريح س الحارث الكِنْدىّ آستقصاه عمر علىٰ الكوفة فبقى بها حلافة عمر وما بعدها إلىٰ تمام المدة المدكورة لم يتعطل منها سوىٰ ثلاث سنين آمتنع فيها من القصاء فى فتنة آس الربير .

أوصاف جماعة من المشاهير

"من كان من الحلفاء أَصْلَعَ" قال الثعالبيّ كان الصَّلَع فى عمر ، وعثمان، وعلىّ، ومروان س الحكم، وعمر س عبد العزيز، قال ثم آنقطعَ الصلع من الحلفاء .

"من كان فى عاية الطول" ، كان عمر س الحطاب رصى الله عنه كأنّه راكب والناس يمشُون لطوله ، وكان عدِىّ س حاتم إدا ركب تكاد رجلاه تحط فى الأرص، وكدلك جَرِير س عبد الله البَجَلىّ ، وكان قُسُّ س ساعدة فى نهاية الطول والجَسَامة ، وكان عبد الله بْن زياد إدا رءاه الرائى وهو ماشٍ ، طن أنه راكب لطوله ، وكان علىّ س عبد الله بن عباس فى عايةٍ من الطُّول، وكان أبوه عبد الله أطولَ منه، وجدّه

العباس أطولَ من أبيه، ويقال إن جبلة بن الأيهم الغسّانيّ كان طوله اثنَيْ عشر شبرا .

"من كان فى غاية القصر" قال الثعالبىّ كان عبدُ الله بن مسعود رضى الله عنه شديدَ القِصَر يكاد الجُلُوس يواروبه من قصره، وكان إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف قصيرا دَحْداحا، وكان الحُطَيئة الشاعر مُفْرط القصر، ولذلك لُقِّب بالحُطَيئة، وكان ذو الرُّمَّة الشاعر قصيرا جدّا، ورأيت فى بعض التواريخ أن كُثَيِّر عَزَّة كان طوله ثلاثة أشبار، وكان العباس بن الحسن فى غاية من القِصر وفيه قيل

لا تَنظُرَنَّ إلىٰ العبَّاسِ مِنْ قِصَرٍ ۞ وآنظُرْ إلىٰ الفضْلِ والمجْدِ الذى شادَا
إنَّ النُّجومَ نُجُومَ الجوِّ أصغَرُها ۞ فى العَيْنِ أبعَدُها فى الجوّ إصْعادا

"من عُرف بالدهاء من العرب" مُعاوية بن أبى سفيان، زياد ابن أبيه، عمرو بن العاص، المُغيرة بن شُعْبة، قَيْس بن سَعْد بن عُبَادة، عبدُ الله بن بُدَيل الخُزاعى .

"من نُسِب منهم إلىٰ الحُمْق" عامر بن كُرَيز، معاوية بن مَرْوان بن الحكم، بَكَّار آبن عبد الملك بن مروان، العاص بن هشام، عبد الله بن معاوية بن أبى سفيان، سهل بن عمرو وأخوه سُهَيل، العاص بن سعيد بن العاص .

"المؤلفة قلوبهم فى أوّل الإسلام" قال الثعالبىّ هم من قريش أبو سفيان آبنُ حرب، وسُهَيل بن عمرو، وحُوَيطب بن عبد العُزّى، وهَبَّار بن الأسود، والحارثُ بن هشام، وحكيم بن حِزام، وصَفْوان بن أُميَّة، وأُسيد بن جارية . ومن فزارة عُيَيْنة بن حِصْن . ومن تميم الأقرع بن حابس . ومن بنى سُليم العبَّاس بن مِرْداس . ومن ثَقِيف العَلاء بن الحارث .

"من أُصيبت عينه" أبو سفيان بن حرب، ذهبت عينه يوم الطائف ثم عمِى بعد ذلك . الأشعث بن قيس، ذهبت عينه يوم اليَرْمُوك . المغيرة بن شُعْبة كذلك

الأشتر النخعى، جرير بن عبد الله البجلى، عدى بن حاتم، عتبة بن أبى سفيان، المختار ابن أبى عبيد، الأحنف بن قيس، المهلب بن أبى صفرة، طاهر بن الحسين، عمرو ابن الليث الصفار.

"من شملت عيناه من الخلفاء والملوك" أما من الخلفاء فالقاهر، والمتقى، والمكتفى، وأما من الملوك فهرمز بن أنو شروان أحد الملوك الأكاسرة، صمصام الدولة بن بويه، منصور بن نوح بن منصور السامانى.

"من كان مكفوف البصر من أشرف الناس" زهرة بن كلاب بن كعب، عبد المطلب بن هاشم، العباس بن عبد المطلب، الحكم بن العاص، أبو سفيان بن حرب، الحارث بن العباس بن عبد المطلب، مطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف، أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بن المغيرة، عتبة بن مسعود الهذلى، عبد الله بن عبيد الله بن عتبة، أبو أحمد بن جحش بن مسعود الأسدى، جابر بن عبد الله الأنصارى، عبد الله بن أرقم، البراء بن عازب، حسان ابن ثابت، أبو أسيد الساعدى، قتادة بن دعامة، دريد بن الصمة الجشمى، عكرمة ابن نوفل الزهرى، الفاكه بن المغيرة المخزومى، خديمة بن حازم النهشلى، أبو العباس الشاعر، على بن زيد بن جدعان، المغيرة بن مقسم الضبى، الترمذى الكبير الحافظ الفقيه، منصور الشاعر المصرى، ابن سيده اللغوى، أبو العلاء المعرى، بشار بن برد، أبو البقاء العكبرى، أبو العيناء هشام بن معاوية الضرير النحوى الكوفى، أبو القاسم السهيلى صاحب الروض الأنف، أبو القاسم الشاطبى، الصرصرى الشاعر، أبو الحسن على بن عبد الغنى الحصرى، أبو عبد الله بن خلصه المغربى النحوى، أبو عبد الله بن الخياط.

أصحاب العاهات من الملوك

من ملوك اليونان الإسكندر، كان أحنف . ومن ملوك الفرس أبو شروان كان أعور، يزدجرد كان أعرج . ومن ملوك العرب جذيمة الوضاح، كان أبرص، النعمان ابن المنذر، كان أحمر العينين والشعر . ومن الخلفاء عبد الملك بن مروان أبخر، يزيد ابن عبد الملك أفقم، هشام بن عبد الملك أحول، مروان الحمار أشقر أزرق، موسى الهادي شفته العليا متقلصة، حتى كان أبوه المهدي قد رتب له خادما يلازمه متى غفل وفتح فاه قال موسى أطبق، إبراهيم بن المهدي كان أسود سمينا يلقب بالتنين .

ومن أشراف قريش وغيرهم أبو طالب أعرج . وأبو جهل أحول، أبو لهب كذلك، وكذلك زياد، وعدي بن زيد . الأحنف بن قيس، أحنف، متراكب الأسنان، صعل الرأس، مائل الذقن . والربيع بن زياد أبرص . وكذلك الحارث بن حلزة، وأيمن بن خريم، والحسن بن قحطبة، وكان عبيدة السلماني أصم، وكذلك ابن سيرين والكميت الشاعر، والمرقش الأكبر الشاعر أجدع .

أصحاب النوادر

ابن أبي عتيق، أشعب الطمع، أبو العصن جحا، أبو العبر، أبو العنبس، ابن الجصاص مزبد المدني .

أجواد الإسلام

عبيد الله بن عباس بن عبد المطلب، عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، سعيد ابن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية، عبد الله بن عامر بن كريز، حمزة بن عبد الله بن الزبير بن العوام، عمر[1] بن عبيد الله بن معمر التيمي، خالد بن عبد الله

(١) في العقد الفريد اسم الجواد عبد الله بن ...

ابن خالد بن أسد بن العاص ، قيس بن سعد بن عُبَادة الأنصارى ، عَتَّاب بن أبى وَرْقاء الحنظلىّ ، أسماء بن خارجة بن حِصن بن بدر الفَزَارىّ ، عبد الله بن أبى بكرة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الطَّلَحات المعروفون بالجُود

طلحة الفَيَّاض — وهو طلحة بن عبيد الله أحدُ العشرة ، وطلحة الجُود — وهو طلحة بن عمر بن عبيد الله بن معْمَر التيمى ، وطلحة الدراهم — وهو طلحة بن عبد الله ابن عبد الرحمن بن أبى بكر الصدّيق ، وطلحة الخير — وهو طلحة بن الحسن بن علىّ ابن أبى طالب ، وطَلْحة الندى — وهو طلحة بن عبد الله بن عوف الزُّهْرى ، وطَلْحة الطَّلَحات — وهو طلحة بن عبد الله بن خَلَف الخُزَاعىّ .

أزواد الركب ثلاثة من قريش وهم مسافر[1] بن أبى عمرو بن أُمَيَّة ، وزمعة[1] ابن الأسود بن المطلب بن عبد العُزّى بن قُصَىّ ، والمغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم سُمُّوا بذلك لأنهم لم يتزود معهم أحد فى سفر قطّ لجُودهم .

من اشتهر عند أهل الأثر بلقبه

غَسِيل الملائكة . وهو حنظلة بن أبى عامر الأنصارى أصِيبَ يوم أُحُد فأخبر النبى صلى الله عليه وسلم أن الملائكة غَسَّلته . قتيل الجن ، هو سعد بن عُبَادة ، بال فى جُحْر فقتلته الجن . مُصَافِح الملائكة ، هو عِمْران بن حُصَيْن . حَمِىّ الدَّبْر ، هو عاصم بن ثابت بن أبى الأفلح ، حمَتْه النحل إلى أن كان الليل . ذو الشَّهادتين هو خُزَيمة بن ثابت الأنصارى ، شهد لرسول الله صلى الله عليه وسلم بقضاء دينِ اليهودىّ حين أخبر النبىُّ صلى الله عليه وسلم أنه وفّاه ، اعتمادا على خبر النبى صلى الله عليه

(١) فى الأصل ... [illegible] وربيعة وهو تحريف من الناسخ والصحيح من القاموس وشرحه

وسـلم، فجعل صلى الله عليه وسـلم شهادته شهادتين . ذو العَين، هو قتادة بن النعمان، أصيبت عينه يوم أحد فردّها رسول الله صلىّ الله عليه وسلم . ذو اليدين هو عُمَيْر بن عَبْد عمرو الخزاعي، كان يعمل بيـديه معا . ذو العِمامة، هو أبو أُحَيْحة سعيدُ بن العاص بن أُميَّة، كان إذا لبس عمامته لم يلبَسْ قرشيٌّ عمامته حتّى ينزِعها . ذو الثُّدَيَّة، كانت إحدى يديه مُخْدَجة كالثدي، كان رأسَ الخوارج ذو الثَّفِنَات، كان يقال ذلك لعليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب، ولعليّ بن عبد الله بن عباس لما على أعضاء السَّجدات منهما من شبه ثَفِنات البعير . ذو السَّيفين، هو أبو الهيثم ابن التَّيِّهان، سمى بذلك لتقلُّده فى الحرب سيفين . سَيْف الله، هو خالد بن الوليد . أسـدُ الله، هو حمزة بن عبد المطلب . ذات النِّطاقين، هى أسمـاءُ بنتُ أبى بكر، سميت بذلك لأنها شَقَّت نِطاقها للسُّفرة فى الليلة التى هاجر النبى صلى الله عليه وسـلم هو وأبوها إلى المدينة . عُرْوة الصَّعَاليك، هو عُرْوة بن الوَرْد، كان إذا شَكا إليه أحد أعطاه فرسا ورُمْحا وقال له إن لم تستغنِ بذلك فلا أغناك الله . سُلَيْك[1] المَقَانب، هو سُـلَيك بن سُـلَكة، كان أعدى الناس حتّى إن الفرس لا يُدْرِكه . طُفَيل الأعراس، رجل من غَطَفان، وقيل هو من مَوَالى عُثْمان بن عفّان رضى الله عنه، كان يتتبع الأعراس فيأتيها من غير دَعْوة وإليه تنسب الطُّفَيليَّة . أشجُّ بنى أميه هو عمر بن عبد العزيز . حمار بنى العبَّاس هو هارون الرشيد لأنه أغزى ابنه القاسم الرومَ فقتل منهم خمسين ألفا، وأخذ منهم خمسة آلاف دابّة بالسُّروج واللُّجُم المفضَّضة، وأغزى عليَّ بن عيسى بن ماهان بلادَ التُّرك فقتل منهم أربعين ألفا، وغزا هو بنفسه بلاد الروم ففتح هِرَقْلَة، وأخذ الجزية من ملك الروم . بنات طارق، هنّ بنات العلاء بن طارق بن أميه بن عبد شمس، سمّين بخدّهن، يضرب بهن المثل

---

(1) فى الأصل سلسل باللام وهو تصحيف [illegible]

فى الحسن والشرف . بنات الحارث ، هنّ بنات الحارث بن هشام ، يُضرب بهنّ المثل فى الحُسْن وعلوّ المهر . .

من كان فردا فى زمانه بحيث يضرب به المثل فى أمثاله

كان الإسكندر ، فى طَوَفان الأرض ، وكسرىٰ أنُوشَرْوان ، فى العدل ، وزرقاءُ اليمـامة ، فى حِدّة النظر ، وحاتم الطائىّ ، فى الكرم ، وكعبُ بنُ مامةَ ، فى الإيثار ، وارسطاطاليس ، فى الحكمة ، وبقراط ، فى الطب ، وقُسّ بن ساعدة ، فى الفَصاحة ، وسَحْبان وائل ، فى البلاغة ، وعمرو بن الأهتم ، فى البيان ، وباقل ، فى العِىّ ، وأبو بكر الصدّيق رضى الله عنه ، فى معرفة الأنساب ، وعمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فى قوة الهَيْبة ، وعثمان بن عفان رضى الله عنه ، فى التِّـلاوة ، وعلىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، فى القَضاء ، ومعاوية ، فى كثرة الاحتمال ، وأبو عبيدة بن الجرّاح ، فى الأمانة ، وأبو ذرّ ، فى صدق اللّهْجة ، وأبىّ بن كعب ، فى القرءان ، وزيدُ بن ثابت ، فى الفرائض ، وابنُ عباس ، فى تفسير القرءان ، وعمْرو بن العاص ، فى الدَّهاء ، وأبو موسىٰ الأشعرىّ ، فى سَلامة البـاطن ، والحسن البصرىّ ، فى الوعظ والتذكير ، ووهْب بن منّبه ، فى القصَص ، وابن سيرينَ ، فى تعبير الرؤيا ، ونافع ، فى القراءة ، وأبو حنيفة ، فى القياس فى الفقه ، وابن إسحاق ، فى المغازى ، ومقاتل ، فى التأويل ، والكلبىّ ، فى قصَص القرءان ، وابن الكلبىّ الصغير ، فى النسب ، وأبو الحسن المدائنى ، فى الأخبار ، ومحمد بن جرير الطبرىّ ، فى عُلوم الأثر ، والخليل بن أحمد ، فى العَرُوض ، وفُضَيل بن عياض ، فى العبادة ، ومالك بن أنس ، فى العلم ، والشافعىّ ، فى فقه الحديث ، وأبو عبيدة ، فى الغَريب ، وعلىّ ابن المدينى ، فى عِلل الحديث ، ويحيىٰ بن مَعين ، فى رجال الحديث ، وأحمد بن حنبل ، فى السنة ، والبخارى ، فى نقد الصحيح ، والجنيد ، فى التصوّف ، ومحمد بن نصر المروزىّ ،

فى الاختلاف، وأبو علىّ الجُبّائى، فى الاعتزال، وأبو الحسن الأشعرىّ، فى علم الكلام، وأبو القاسم الطبرانى، فى عَوالى الحديث، وعبدُ الرزاق، فى ارتحال الناس إليه، وابن مَنْده، فى سعة الرحلة، وأبو بكر الخطيب، فى سُرْعة القراءة، وابن حزم، فى مَذهب الظاهر، وسيبويه، فى النحو، وأبو الحسن البكرى السيرى، فى الكذب، و إياسُ بن معاوية، فى الذكاء والتفرّس، وعبدالحميد، فى الكتابة والوفاء، وأبو مسلم الخُراسانىّ، فى علُوّ الهمة والحزم، و إسحاق الموصلىّ النـديم، فى الغِناء، وأبو الفرج الأصفَهانى صاحب الأغانى، فى المحاضرة، وأبو معشر، فى النُّجوم، والرازى، فى الطّب، وعَمّار بن حمزة، فى التِّيه، والفضل بن يحيىٰ، فى الجُود، وجعفرُ بن يحيىٰ، فى التوقيع، وابن زيدُونَ، فى سَعَة العبارة، وابن القِرِّية، فى البلاغة، والجاحظ، فى الأدب والبيان، والحريرىُّ، فى المقامات، والبديع الهَمَذانى، فى الحفظ، وأبو نُوَاس، فى المُجُون والخَلاعة، وابن حَجّاج الشاعر، فى سُخْف الألفاظ، والمتنبى، فى الحِكَم والأمثال شعرا، والزمخشرىّ، فى تَعاطِى العربية، والنَّسفى، فى الجَدَل، وجَرير الشاعر، فى الهجاء الخبيث، وحَمّاد الراوية، فى شعر العرب، والأحنف بن قيس، فى الحِلْم، والمأمون، فى حُبّ العفو، والوليد، فى شُرْب الخمر، وعطاء السُّلَمىّ، فى الخوف من الله تعالىٰ، وابن البوّاب، فى الكتابة، والقاضى الفاضل، فى الترسُّل، والعماد الكاتب، فى الجِناس، وأشعبُ، فى الطمع، وأبو نصر الفارابىّ، فى معرفة كلام القدماء ونَقْله وتفسيره، وحُنَين بن إسحاق، فى ترجمة اليونانى إلىٰ العربى، وابن سينا، فى الفلسفة وعلوم الأوائل، والإمام فخر الدِّين الرازى، فى الاطّلاع علىٰ العلوم، والجاحظ فى سَعَة العبارة، والسيف الآمِدىّ، فى التحقيق، والنصير الطُّوسى، فى معرفة المجسطى، وابن الهيثم، فى الرياضى ونجم الدين الكاتبى، فى المنطق، وابن الأعرابى، فى الاطلاع علىٰ اللغة، وأبو العيناء، فى الأجوبة المسكتة، ومزيد، فى النخل، والقاضى أحمد بن أبى دواد، فى المروءة

وحُسْن التقاصى، وآبن المعتز، فى التشبيه، وآبن الرُّومى، فى التطيُّر، والصولى فى الشِّطْرنج، والعرانى، فى الجمع بين المعقول والمنقول، وأبو الوليد بن رُشْد، فى تلخيص كتب الأقدمين الفلسفية والطبية، ومحيى الدين بن عربى، فى علوم التصوّف، وجابر ابن حيان فى علم الكيمياء .

غرائب آتفاق

اتفاقية جليلة — وُلِد النبى صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين، وبُعِث يوم الاثنين، وهاجر يوم الاثنين، وتُوفِّى يوم الاثنين .

اتفاقيــة أخرى — قَتَل عبدُ الله بن زياد الحســينَ بنَ علىّ عليهما الســلام يوم عاشوراء، وقتله الله على يد إبراهيم بن الأشتر فى يوم عاشوراء .

أخرى — قال عبد الملك بن عمير الليثىّ رأيت فى قصر الإمارة بالكوفة رأس الحسين بن علىّ بين يدى عبــد الله بن زياد على تُرْس، ثم رأيت فيه رأس عبــد الله آبن زياد بين يدى المختار بن أبى عُبيد، ثم رأيت فيه رأس المختار بين يدى مُصْعَب آبن الزبير، ثم رأيت فيه رأس مُصْعَب بين يدى عبــد الملك بن مروان . قال فحدّثت بهذا عبد الملك بن مروان فتطير منه ففارق مكانه .

أخرى - قال الصولى حدّثنى الحسين بن يحيى الكاتب أنه لمــا وَلِى المعتز لم تمض مدّة لطيفة حتى أحضر الناس وأَخْرِج المؤيد(١) وقيل آشهدوا أنه دُعِىَ فأجاب، وليس به أثر . ثم مضت مدّةُ شهر فأحضر الناس وأُخْرِج المستعين وقال إن منيته أتت عليه . وها هو لا أثر به فآشهدوا ، ثم خُلِــع المعتز، وآستخلف المهتدى ، ولم يمض إلا مُديْده حتى أُخرج المعــتز ميتا وقال اشهدوا ، أنه قد مات حتف أنفه

(١) ب —

ولاأثر به، ثم لم تكمل السنة حتّى ٱستُخْلِف المعتمد فأُخْرِج المهتدى ميتا وقال اشهدوا أنه قد مات حَتْفَ أنفه من جراحته، فتعجب الناس من تلاحُقِهم فى مدّة يسيرة .

عِبْرة — مات المكتفى بالله عن مائةِ ألف ألف دينار، ولمـا غُسِّل لم توجد مِجْمَرة يبخر فيها إلا مجمرةٌ من خَزَف أحمرَ، وكان فيما خلف ألوف من مجامر الذهب والفضة . قال أحمد بن أبى دواد لقد شددت لحي المأمون، والمعتصم، والواثق، بعد موتهم فلم أجد خرقة أشدّ بها لَحْيَيْ واحد منهم إلا ما أحرقه من الدراريع التى تكون علىّ .

لطيفة — فى سنة ثلاث وثمانين ومائتين أمر المعتضد بردّ فاضل سِهام المواريث على ذوى الأرحام، وأبطل ديوانَ المواريث، وكتب بذلك إلى الآفاق .

لطيفة — فى سـنة أربع وثمـانين ومائتين أخبر المنجمون بغَرَق أكثر الأقاليم بسبب كثرة الأمطار وزيادة الأنهار فتحفّظ النـاس من ذلك فقَلَّت الأمطار حتى ٱسْتَسْقَوْا ببغداد مرّات .

غريبة — ذكر ٱبن سينا فى المقالة الأولى من كتابه الشفاء أنه نزل بجُرْجان صاعقةٌ من الهواء فنشبت فى الأرض، ثم نبت نَبْوة الكُرة وسمع الناس لذلك صوتا عظيما هائلا فحفَروا عليها فإذا هى قطعة من حديد تقديرمائة وخمسين منّا، وهى أجزاء جاوَرْشيَّة صغارٌ مسـتديرة، التصق بعضها ببعض، فكتب محمود بن سبكتكين، صاحب خراسان بانفاذه إليه أو قطعة منـه فتعذر نقله لثقله فحاولوا كسر قطعة منه فلم تعمل فيه الآلات، فعولج كسره فقطع منه قطعة لطيفة، وحملت إليه فرام أن يُطْبَع منها سيفا فتعذر عليه .

لطيفة أخرى — فى سـنة إحدى عشرة وخمسمائة جاء سـيل عظيم فغرّق مدينة سِنْجار من بلاد الجزيرة، وهدم المنازل، وأغرق خلقا كثيرا . ومن غريب ما حكي

أن السيل حمل مَهْدا فيه صبىّ صغير فتعلق المهد بشجرة زيتون ، وغاص الماء ، وبقى المهد معلّقا بالشجرة فسلم الصغير .

أُعجوبة — فى سنة ستين وأربعمائة كان بمصر وفَلَسْطِين زَلْزلة عظيمة ، طلع فيها الماء من رءوس الآبار ، وزال البحر عن الساحل مسيرة يوم ، فنزل الناس إلىٰ أرض البحر يلتقطون ما انكشف البحر عنه مما فى أرضه فرجع الماء عليهم فأهلك منهم خلقا كثيرا .

ثم فى سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة وقع ببلاد الشام زلزلة عظيمة خربت شيزر ، وحماة ، وحمص ، وحِصْن الأكراد ، وطرابُلُس وأنطاكِيَة ، وغيرها من البلاد التى حولها ، ووقعت الأسواق والقلاع حتّى تداركها نور الدين الشهيد رحمه الله بالعمارة .

فائدة — فى سنة اثنتين وخمسمائة قلع المقتفى الخليفةُ باب الكعبة ، وعمل عوضه بابا مصَفَّحا بالفضة المُذْهَبَة ، وعمل لنفسه من الباب الأوّل تابوتا ليُدْفَن فيه .

نادرة — فى سنة خمس وستين وستمائة وقع ثلجٌ عظيم بالشام فكسر الأشجار وقطع الطرق لا سيما بعُكّراء وما حولها .

أخرىٰ — فى سنة سبعين وسبعمائة ظهر بالشام جراد عظيم لم يُسمع بمثله ، وامتدّ من مكة إلىٰ الشام . وعظم بحَوْرانَ حتّى أكل الأشجار ، والأخشاب ، وأبواب الدور ، وما وصل إليه من الأمتعة والقُماش ، وسُدّت أعين الماء خوفا من أن يفسدها ، وكان من شأنه بعجلون أنه امتلأت منه المدينة وغُلّقت الأسواق ، وطُلّقت أبواب الدكاكين والطاقات . وسدّت الأبواب وحصروا لصلاة الجمعة فملأ عليهم الجامع ، وترامىٰ علىٰ الخطيب علىٰ المنبر حتّى شغله عن الخطبة ، وكذلك حيّر الناس حتّى خرجوا من الجامع يخوضون فيه خوضا إلىٰ الركب ، وأنتنت لكثرة ما قتل منه حتّى صار أهل البلد يشمّون القِطران ليغطّى رائحته ﴿وما يعلم جنود ربك إلّا هو﴾ .

أخرىٰ — فى سنة آثنتين وسبعين وسبعمائة رأىٰ أهل الشام فى السماء بعد مَغيب الشَّفَق حُمْرةً عظيمة من جهة الشمال ، ثم آشتدّت الحمرةُ حتّى صارت كالنار الموقدَة وانتشرت فى السماء حتّى كاد يغطى ثلثها ، وعم بلاد الشام حتّى كان بدِمَشْــق ، وبَعْلَبَكّ وحلَب ، وقاقُونَ ، والرملة ، والقُدْس ، وطرابُلُس ، حتّى خاف جميع أهل هذه البلاد علىٰ أنفسهم الهلاكَ ، وضَرَعوا إلىٰ الله تعالىٰ ، وآبتهلوا إليه ، فكشف الله عنهم بعد نصف الليل .

قلت — وقد رأيت مثل هذه الآية العظيمة بمصر فى سنة آثنتى عشرة وثمانمائة وهو أنه ظهرت حمرة عظيمة من جهة الغرب فوق حمرة النار ، وجاء من وراء تلك الحمرة برق ساطع ، فصار كلما لمع البرق داخل تلك الحمرة يخال الناظر أنها نار لا محالة حتّى داخلنى منه أنه عذاب قد صُبَّ علىٰ الناس ، ثم آنقشع بعد العشاء بقليل فلذلك لم يتنبه له أهل مصر . وبالجملة فوقائع الدهر وعجائبه أكثر من أن تحصر ، ولا يحتمل هذا الموضع أكثر من هذا القدر .

وَاللَّيَالِي كَمَا عَلِمْتَ حَبَالىٰ مُقْرِبَاتٌ يَلِدْنَ كُلَّ عَجِيبِ

المقصـــد الثـانى

(فى وجه بيان آستعمال الكاتب ذلك فى خلال كلامه)

لا يخفىٰ أن الكاتب إذا عرف أحوال المتقدّمين وسِيَرَهم ، وأخبارهم ، ومَنْ بَرَع منهم ، صار عنده علم بما لعله يُسأل عنه ، وآستعدادٌ لما يرد عليه من ذكر واقعة بعينها أو يحتجّ عليه به من صورة قديمة ليكون علىٰ يقين منها ، مع ما يحتاج إلىٰ إيراده فى خلال مكاتباته ورسائله من ذكر من حَسُن الآحتجاج بذكره فى أمر من الأمور أو حالة من الحالات كما كتب به البديع الهمذانىّ إلىٰ أبى الحسين بن

فارس وقد بلغه أنه ذكر فى مجلسه فقال إن البديع قد نسىَ حق تعليمنا إياه، وعقّنا، وشمخ بأنفه عنا، والحمد لله علىٰ فساد الزمان، وتغير نوع الانسان . فكتب إليه

" نعم أطال الله بقاء الشيخ الإمام ، إنه الحَمَأُ المسنون ، وإن ظُنَّت الظنون، والناس لآدم، وإن كان العهد قد تقادم، وارتكبت الأضداد، واختلط الميلاد . والشيخ يقول فسد الزمان، أفلا يقول متىٰ كان صالحا ؟ أفى الدولة العباسية ، وقد رأينا آخرها وسمعنا أوّلها ؟ أم المدّة المروانية ، وفى أخبارها " لاتَكْسَع الشَّوْل بأغبارها ؟ " أم السنين الحربية، والسيف يُغْمَد فى الطُّلا ، والرُّمح يُرْكَز فى الكُلَا ، ومبيتُ حجر فى الفلا، والحرتان وكربلا، أم البَيْعة الهاشمية، وعلىٌّ يقول ليت العَشْرَة منكم براس ، من بنى فراس ؟ أم الأيام الأُمَوِيَّة ، والنفير إلىٰ الحجاز ، والعيون إلىٰ الأعجاز ؟ أم الإمارة العَدَوية ، وصاحبها يقول وهل بعد النُّزُول إلا النزول ؟ أم الخلافة التيمية، وصاحبها يقول طوبىٰ لمن مات فى نأنأة[1] الإسلام؟ أم علىٰ عهد الرسالة ويومَ الفتح قيل اسكُتِي يافلانة ، فقد ذهبت الأمانة ؟ أم فى الجاهلية ولبيد يقول

ذَهَبَ الذين يُعَاشُ فى أكْنَافِهِمْ ، وبَقِيتُ فى خَلْفٍ كجِلْدِ الأجْرَبِ.

أم قبل ذلك وأخو عاد يقول

بلادٌ بِهَا كُنَّا وكُنَّا نُحِبُّهَا إذ النَّاسُ ناسٌ والزَّمانُ زمانُ.

أم قبل ذلك، ويروىٰ لآدم عليه السلام

تغيَّرتِ البلادُ ومَنْ عَلَيْهَا فوَجْهُ الأرضِ مُغْبَرٌّ قَبِيحُ !

أم قبل ذلك والملائكة تقول ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ ؟ وما فَسَد الناس ، ولكن اطّرد القياس ، ولا أظلمت الأيام، إنما امتدّ الإظلام، وهل

(١) أى فى أوّل الاسلام قبل أن يقوى أنطر اللسان

يفسد الشيء إلا عن صلاح، ويمسى المرء إلا عن صباح، ولعمرى! لئن كان كرم العهد كتابا يرد وجوابا يصدر إنه لقريب المنال، وإنى على توبيخه لى لفقير إلى لقائه، شفيق على بقائه، متنسب إلى ولائه، شاكر لآلائه .

والغاية القصوى فى ذلك ما كتب به ذو الوزارتين "أبو الوليد بن زيدون" رحمه الله على لسان محبوبته ولادة بنت محمد بن عبد الرحمن الناصر إلى إنسان استمالها عنه إلى نفسه وهى :

أما بعد أيها المصاب بعقله، المورط بجهله، البين سقطه، الفاحش غلطه، العاثر فى ذيل اغتراره، الأعمى عن شمس نهاره، الساقط سقوط الذباب، على الشراب، المتهافت تهافت الفراش فى الشهاب، فإن العجب أكذب، ومعرفة المرء نفسه أصوب، وإنك راسلتنى مستهديا من صلتى ما صفرت منه أيدى أمثالك، متصديا من خلتى لما قرعت فيه أنوف أشكالك، مرسلا خليلتك مرتاده، مستعملا عشيقتك قواده، كاذبا نفسك فى أنك ستنزل عنها إلى، وتخلف بعدها على :

ولست بأول ذى همة دعته لما ليس بالنائل

ولا شك أنها قلتك إذ لم تضن بك، وملتك إذ لم تغر عليك، فإنها أعذرت فى السفارة لك، وما قصرت فى النيابة عنك، زاعمة أن المروءة لفظ أنت معناه، والإنسانية اسم أنت جسمه وهيولاه، قاطعة أنك انفردت بالجمال، واستأثرت بالكمال واستعليت فى مراتب الجلال، حتى خيلت أن يوسف عليه السلام حاسنك فغضضت منه، وأن امرأة العزيز رأتك فسلت عنه، وأن قارون أصاب بعض ما كنزت، والنطف عثر على فضل ما ركزت، وكسرى حمل غاشيتك، وقيصر رعى ماشيتك، والإسكندر قتل دارا فى طاعتك، وأردشير جاهد ملوك الطوائف لخروجهم عن جماعتك، والضحاك استدعى مسالمتك، وجذيمة الأبرش تمنى منادمتك وشيرين

قد نافست بُورانَ فيك، وبلقيس عايَرتِ الزَّبّاء عليك، وأن مالك بن نُوَيرة إنما أَردَف لك، وعُروةَ بن جعفر إنما رَحَلَ إليك، وكُلَيب بن ربيعة إنما حمى المَرْعى بعزّتك، وجَسَّاسا إنما قتله بأنفتك، ومُهَلْهِلا إنما طلب ثأره بهمَّتك، والسَّمَوْءَل إنما وفى عن عهدك، والأحنفَ إنما احتبى فى بُردك، وحاتما إنما جاد بوَفْرك، ولقى الأضياف ببِشْرك، وزيد بن مُهَلْهِل إنما ركب بفَحديك، والسُّلَيْك بن السُّلَكة إنما عدا على رحليك، وعامرَ بن مالك إنما لاعب الأسِنَّة بيديك، وقيسَ بن زُهَيْر إنما استعان بدَهائك، وإياس بن معاوية إنما استضاء بمصباح ذَكائك، وسَحْبان وائل إنما تكلم بلسانك، وعمرو بن الأهتم إنما سَحَر ببيانك. وأن الصلح بين بكر وتغلب تمّ برسالتك، والحَمالاتِ فى دماء عَبْس وذُبيانَ أُسْنِدتْ إلى كفَالتك، وأن احتيال هَرِم لعامر وعلقمةَ حتّى رضيا كان عن إشارتك، وجوابه لعُمرَ، وقد سأله عن أيهما كان ينفّر وقع بعد مَشُورتك، وأن الحجاج تقلد وِلاية العراق بجدّك، وقُتيبةَ فتح ما وراء النهر بسَعْدك. والمهلَّب أوهن شَوْكَةَ الأزارقة بأيْدك، وأفسد ذات بينهم بكيدك، وأن هرمس أعطى بليبوس ما أخذ منك، وأفلاطون أورد على أرسطاطاليس ما حدّث عنك، وبطليموس سوّى الإصطرلاب بتدبيرك، وصوّر الكُرَة على تقديرك، وأبقراط علم العلل والأمراض بلطف حسّك، وجالينوس عرف طبائع الحشائش بدِقّة حَدْسك، وكلاهما قلّدك فى العلاج، وسألك عن المزاج، واستوصفك تركيب الأعضاء، واستشارك فى الداء والدواء، وأنك نهجت لأبى معشر طريق القضاء، وأظهرت جابر بن حَيّان على سر الكيمياء. وأعطيت النظَّام أصلا أدرك به الحقائق، وجعلت للكندى رسما استخرج به الدقائق، وأن صناعة الألحان اختراعك، وتأليف الأنقار توليدك وابتداعك، وأن عبد الحميد بن يحيى بارِى أقلامك، وسهل بن هارون مدوّن كلامك، وعمرو بن بحر مستمليك، ومالك بن أنس مُسْتفتيك، وأنك الذى

أقام البراهين ، ووضع القوانين ، وحدّ الماهيّه ، وبين الكيفية والكميه ، ونظر في الجوهر والعرض ، وميز الصحة من المرض ، وحلّ المعمّى ، وفصل بين الاسم والمسمّى ، وصرّف وقسّم ، وعدّل وقوّم ، ووصف الأسماء والأفعال ، وبوّب الظّرف والحال ، وبنى وأعرب ، ونفى وتعجب ، ووصل وقطع ، وثنّى وجمع ، وأظهر وأضمر ، وابتدأ وأخبر ، واستفهم وأهمل ، وقيد وأرسل ، وأسند وبحث ، ونظر وتصفّح الأديان ، ورجّح بين مذهبى مانى وغيلان ، وأشار بذبح الجعد ، وقتل بشّار بن برد ، وأنك لو شئت خرقت العادات ، وخالفت المعهودات ، فأحلت البحار عذبه ، وأعدت السّلام رطبه ، ونقلت غدًا فصار أمسا ، وزدت فى العناصر فكانت خمسا ، وأنك المقول فيك "كلّ الصّيد فى جوف الفرا" ، والمقول فيك

لَيْس على اللهِ بمستنْكَرٍ * أن يَجْمَعَ العالمَ فى واحِدِ

والمعنىُّ بقول أبى تمام

فَلَوْ صَوَّرْتَ نَفْسَكَ لم تَزِدْها * على ما فِيكَ مِنْ كَرَمِ الطِّبَاعِ

والمرادُ بقول أبى الطيِّب

ذُكِرَ الأَنامُ لَنا فَكانَ قَصيدةً * كنتَ البَديعَ الفَرْدَ مِنْ أَبْياتِها

فكذَبَتْ فى غير مَكْذِم ، واستسمنتْ ذا ورَم ، ونفختْ فى غير ضَرَم ، ولم تجد لرمح مَهَزًّا ، ولا لشَفْرة مَحَزًّا ، بل رضيتْ من الغنيمة بالإياب ، وتمنت الرجوع بخفّى حنين ، لأنى قلت لها

لقدْ ذَلَّ مَنْ بالَتْ عليه الثَّعالِبُ

وأنشدت

عَلَى أنَّها الأيَّامُ قدْ صِرْنَ كُلُّها عجائبَ حتى لَيْسَ فيها عجائبُ

ونخرتْ وكفرتْ ، وعبّستْ وبَسرتْ ، وأبدأتْ وأعادتْ ، وأبرقتْ وأرعدتْ ،

وهَمَمتُ ولم أفعل، وكِدتُ وليتني، ولولا أن للجوار ذِمَّة، وللضِّيافة حُرْمة، لكان الجواب في قَذَال الدِّمُسْتُق، والنعل حاضرة إن عادت العَقْرب، والعُقُوبة ممكنة إن أصرّ المُذنب، وهَبْها لم تلاحِظك بعينٍ كليلة عن عيوبك مِلْؤُها حبيبُها وحَسَنٌ فيها من تودّ، وكانت إنما حلَّتك بحلاك، ووسمَتْك بسيماك، ولم تُعِرْك شهادة، ولا تكلّفتْ لك زيادة، بل صدَقت سِنَّ بكرها فيما ذكرتْه عنك، ووضعتِ الهِنَاءَ مواضع النَّقْب فيما نسبَته إليك، ولم تكن كاذبة فيما أثنت به عليك، فالمُعَيْدِيّ تسمعُ به خير من أن تراه، هجينُ القَذال، أرْعَن السِّبال، طويل العُنق والعِلاوة، مُفرِط الحُمْق والغَباوة، جافي الطبع، سيِّئ الإجابة والسمع، بغيض الهيئة، سخيف الذّهاب والجَيْئة، ظاهر الوَسواس، مُنتن الأنفاس، كثير المعايب، مشهور المثالب، كلامك تمتمة، وحديثك غمغمة، وبيانك فَهْفَهة، وضحكُك قَهْقهة، ومشيك هرولة، وغِناك مسألة، ودينك زندقة، وعلمك مخرقة

مَسَاوٍ لو قُسِمْنَ على الغَوَانِي ۞ لَمَا أُمْهِرْنَ إلَّا بالطَّلاقِ

حتّى إن باقلًا موصوفٌ بالبلاغة إذا قُرِن بك، وهَبَنَّقَة مستحقٌّ لاسم العقل إذا أُضيف إليك، وأما عَشَبان[1] محمود منه سَدَاد العقل إذا نسب إليك، وطُوَيس مأثور عنه يُمْن الطائر إذا قِيس عليك، فوُجودك عدم، والاغتباط بك ندم، والخيبة منك ظَفَر، والجنة معك سَقَر، كيف رأيت لُؤْمك لكرمي كِفاء! وضَعتك لشرفي وفاء، وأنّى جهلت أن الأشياء إنما تنجذب إلى أشكالها، والطيرَ إنما تقع على آلافها، وهلّا علمت أن الشرق والغرب لا يجتمعان، وشَعرت أن نارَي المؤمن والكافر لا تتراءيان، وقلت الخبيثُ والطيّب لا يستويان، وتمثلت

۞ عَمْرَكَ اللهَ كَيْف يلتقيان ۞

---

(١) هكذا عند د س فقط في بعض شروح الرسالة

ودكرت أنى عِلْق لا يُباع ممن راد، وطائر لا يصيده من أراد، وعَرَض لا يصيبه إلا من أجاد، فما أحسـَبُك إلا قد كنت تهيأت للتهنيه، وترشّحت للترفيـه، لولا أن خُرْج العجاء خُسَار، للقيتَ ما لَقِىَ من الكواعب يَسَار، فما هم إلا بدُون ما همَمْت به، ولا تعرّض إلا لأيسرَ مما تعرّضت له، أين ٱدّعاؤك روايةَ الأشعار، وتعاطيك حفظَ السِّيَر والأخبار، أما ثاب لك قول الشاعر

سُو دارِم أكفاؤهم آلُ مِسْمَع ۔ وتُنْكَح فى أكفائها الحَبَطات

وهلّا عَشَّيْت ولم تَغْتَرّ، وما أمَّنك أن تكون وافد البَرَاجِم، أو ترجعَ بصحيفة المتلَمِّس، أو أفعلَ بك ما فعله عَقِيل بن عُلَّفَة[1] بالجُهَنِىّ الذى جاء خاطبا، فدهن آسته بزيت وأدناه من قرية النمل، ومتى كَثُر تلاقينا، واتَّصل ترائينا، فيدعُوَنّى إليك ما دعا ابنةَ الخُسّ إلىٰ عبدها من طُول السَّـواد، وقُرب الوِسَاد، وهل فَقَدتُ الأراقِمَ فأنكِحَ فى جَنْب، أو عصَلَى هَمّام بن مُرّه، فأقول زوجٌ من عُود، خير من قُعود، ولعمرى لو بلغت هـذا المبلغ لارتفعت عن هذه الخطّة، وما رضيت بهذه الخُطَّة، فالنارولا العار، والمَنِيَّة ولا الدَّنِيَّة، والحُرّة تجوعُ ولا تأكل بثَدْيَيْها

فكيف وفى أسماء قَوْمِى مَنْكَح ۔ وفتيانِ هِزّانَ الطِّوالِ الغَرَانِقه

ما كنت لأتخطّى المِسْكَ إلىٰ الرَّماد، ولا أمتطِى الثَّوْر دونَ الجَوَاد، وإنما يتيمَّم من لا يجد ماء، ويرعىٰ الهَشِيم، من عَدِم الجَمِيم، ويركب الصَّعْب من لا ذَلُول له، ولعلك إنما غرّك من عُلمتْ صَبْوتى إليه، وشهرتْ مساعَفتى له من أقمار العصْر، ورياحين المِصْر، الذين هم الكواكب عُلُوَّ هِمَم، والرياض طِيبَ شِيَم.

* مَنْ تَلْقَ مِنْهُمْ تَقُلْ لاقيْتُ سيِّدَهُمْ

(١) فى الاصل علمه وهو تصحيف انظر اداه ح ل ف ى ... و ...

فحّ قِدْح ليس منها، ما أنت وهم؟ وأين تقع منهم؟ وهل أنت إلا واو عَمْرو فيهم؟ وكالوَشيظة فى العظم بينهم، وإن كنت إنما بلغتَ قَعْر تابوتك، وتجافيت لقَميصك عن بعض قُوتك، وعَطّرت أردانَك، وجَرّرت هِمْيانك، واختلْتَ فى مِشْيتك، وحذفت فُضُول لِحيتك، وأصلحت شارِبَك، ومطّطت حاجِبَك، ورقّقت خطَّ عذارك، واستأنفت عَقْد إزارك، رجاءَ الاكتنان فيهم، وطمعاً فى الاعتداد منهم فظننت عَجْزا، وأخطأت اسْتُك الحُفْرة. والله لو كساك محرِّقٌ البُرْدين، وحلّتك مارِيَةُ بالقُرْطين، وقلّدك عمرو الصَّمْصامة، وحَمَلك الحارث على النَّعامة، ما شككتُ فيك، ولا تكلمتَ بملء فيك، ولا سترتْ اباك، ولا كنت إلا ذاك. وهبك سامَيْتَهم فى ذِرْوة المجد والحسَب، وجاريتهم فى غاية الظَّرف والأدب، ألستَ تأوى إلىٰ بيت قعيدته لَكَاع، إذ كلهم عَزَب خالى الذراع، وأين من أنفرد به ممن لا عَلَق إلا على الأقلّ الأخَسّ منه، وكم بين من يعتمدنى بالقوّة الظاهرة، والشهوة الوافرة، والنفس المصروفة إلىّ، واللذة الموقوفة علىّ، وبين آخر قد نزحَتْ بئره، ونضب غديره، وذهب نَشاطه، ولم يبق إلا ضُرَاطه. وهل كان يجتمع لى فيك إلا الحشَفُ وسُوء الكِيلة، ويقترن علىّ بك إلا الغُدّة والموت فى بيت سلولية

تعالى اللهُ ياسلمَ بنَ عَمْرٍو * أذلَّ الحِرْصُ أعناقَ الرِّجالِ

ما كان أخلقك بأن تُقدِّر بذَرْعك، وترْبَع بذلك على ظَلْعك، ولا تكون براقِشَ الدالّةَ على أهلها، وعنز السُّوء المستثيرة لحَتْفها، فما أراك إلا قد سَقَط العَشاءُ بك على سِرْحان، وبك لا بظَبْى أعْفر، قد أعذرت إن أغنيت شيًّا، وأسمعتُ لو ناديتُ حيًّا، وقرعتُ عَصا العِتاب، وحذّرت سوء العِقاب.

إنّ العصا قُرعَتْ لِذى الحِلْم * والشىء تحقره وقد يَنْمى

فإن بادرْت بالنّدامة، ورجعت على نفسك بالملامة، كنت قد اشتريت العافية لك بالعافية منك، وإن قلت جَعْجَعة ولا طِحْن، ورُبَّ صَلَفٍ تحت الراعدة، وأنشدت.

لا يُؤنسنَّكَ من مُخَدَّرة * قولٌ تُغَلِّظه وإن جَرَحا

فعُدتَ لمـا نَهيتُ عنه، وراجعتَ ما آستعفيتُ منه، بعثتَ من يُزْعجك إلىٰ الخَضْراء دفعا، ويستحِثُّك نحوها وَكْزا وصَفْعا، فإذا صرتَ إليها عمِلَتْ أكُفُّ الأكّارين بك، وتسلط نَواطيرُها عليك فمن قَرْعة مُفْوجَّة تقوم فى قَفَاك، ومن نَخْلة منتنة تُرْمىٰ بها تحت خِصَاك، ذلك بما قدَّمَتْ يَدَاك، لِكَىْ تَذُوقَ وَبالَ أمْرِكَ، وترىٰ ميزان قَدْرك

فَمَنْ جَهِلَتْ نَفْسُه قَدْرَهُ * رأىٰ غيرُه منه ما لا يرىٰ

فلولا المعرفةُ بالتاريخ، والإحاطةُ بالوقائع والسِّيَر، والأقاصيص، والأمثال السائرة فى معنىٰ ذلك، لمـا تأتى للناثر الاقتدار علىٰ سبك هذه الوقائع، والتلويح بمقتضَياتها.

النوع السابع عشر

(المعرفة بخزائن الكتب، وأنواع العلوم، والكتب المصنفة فيها وأسمـاء الرجال المبرِّزين فى فنونها، وفيه مقصدان)

المقصـــد الأوّل

(فى ذكر خزائن الكتب المشهورة)

قد كان للخُلَفاء والملوك فى القديم بها مزيد آهتمام، وكمال آعتناء، حتى حصّلوا منها علىٰ العَدَد الجَمّ، وحصلوا علىٰ الخزائن الجليلة. ويقال إن أعظم خزائن الكُتُب فى الإسلام ثلاثُ خزائن

إحداها — خزانة الخلفاء العباسيين ببغداد، فكان فيها من الكتب ما لا يُحصىٰ كثرةً، ولا يقوّم عَلَيْه نفاسـة، ولم تزل علىٰ ذلك إلىٰ أن دَهَمت التتر بغداد، وقتل ملكهم هولاكو المستعصِمَ آخرَ خلفائهم ببغداد، فذهبت خزانة الكُتُب فيما ذهب، وذهبت معالمها، وأعفيت آثارها.

الثانية — خزانة الخلفاء الفاطميين بمصر، وكانت من أعظم الخزائن، وأكثرها جمعا للكتب النفيسة من جميع العلوم على ما سيأتي ذكره في الكلام على ترتيب مملكة الديار المصرية في المقالة الثانية. ولم تزل على ذلك إلى أن انقرضت دولتهم بموت العاضد آخر خلفائهم، واستيلاء السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب على المملكة بعدهم، فاشترى القاضي الفاضل أكثر كتب هذه الخزانة، ووقفها بمدرسته الفاضلية بدرب ملوخيا بالقاهرة، فبقيت فيها إلى أن استولت عليها الأيدي فلم يبق منها إلا القليل .

الثالثة — خزانة خلفاء بني أُمَيَّة بالأندلس، وكانت من أجلّ خزائن الكتب أيضا. ولم تزل إلى انقراض دولتهم باستيلاء ملوك الطوائف على الأندلس، فذهبت كتبها كلَّ مَذْهَب .

أما الآن فقد قلَّت عناية الملوك بخزائن الكتب، اكتفاء بخزائن كُتُب المدارس التي ٱبتَنَوْها من حيث إنها بذلك أمسّ .

واعلم أن الكتب المصنّفة أكثرُ من أن تُحصىٰ، وأجل من أن تُحْصَر، لا سيما الكتب المصنفة في المِلَّة الإسلامية فإنها لم يصنَّفْ مثلُها في ملة من الملل، ولا قام بنظيرها أمة من الأمم، إلا أن منها كتبا مشهورة قد توفرت الدواعي على نقلها، والإكثار من نسخها، وطارت سُمْعتها في الآفاق ورُغِب في ٱقتنائها .

المقصد الثاني

(في ذكر العلوم المتداولة بين العلماء، والمشهور من الكتب المصنّفة فيها ومؤلفيها
ويرجع المقصد فيها إلى سبعة أصول، يتفرّع عنها أربعة وخمسون علما)

الأصل الأوّل

(علم الأدب، وفيه عشرة علوم)

الأوّل علم اللغة — من الكتب المختصرة فيه المنتخَب، والمجرَّد لكُرَاع، وأدب الكاتب لابن قتيبة، وفقه اللغة للثعالبي، والفصيح لثعلب، وكفاية المتحفظ

لابن الأجدابيّ، والألفية لابن أصبع. ومن المتوسطة فيه المُجمَل لابن فارس، وديوان الأدب للفارابي، وإصلاح المنطق لابن السكيت. ومن المبسوطة الجامع للأزهري والعباب الزاخر للصاغانيّ، والصحاح للجوهري. قال في إرشاد القاصد ولا أنفعَ ولا أجمعَ من المحكم لابن سيده.

الثاني علم التصريف — من الكتب المختصرة فيه التصريف الملوكي لابن جني والتعريف لابن مالك. ومن المتوسطة تصريف ابن الحاجب، وهو من أحسن الكتب الموضوعة فيه وأجمعها. ومن المبسوطة فيه الممتع لابن عُصْفور، وشروح تصريف ابن الحاجب وغيره.

الثالث علم النحو — من الكتب المختصرة فيه الكافية لابن الحاجب، والدرّة الألفية لابن معطي، والخُلاصة لابن مالك. ومن المتوسطة المفصَّل للزمخشري والمقرّب لابن عصفور، والكافية الشافية لابن مالك، وتسهيل الفوائد له وهو الجامع على شدّة اختصاره. ومن المبسوطة كتاب سيبويه وشروحه، وشرح ابن قاسم على الألفية، وشرحه على التسهيل، وشرح شهاب الدين السمين عليه. وأوسع الكل شرح الشيخ أثير الدين أبي حَيَّان على التسهيل.

الرابع علم المعاني — من الكتب المفردة فيه مصنَّف تميثم الحرني[1]، وهو عزيز الوجود.

الخامس علم البيان — من الكتب المفردة به كتاب نهاية الإعجاز للإمام فخر الدين الرازي، والجامع الكبير لابن الأثير الجزري.

السادس علم البديع — من الكتب المفردة له مختصرة فيه زَهْر الربيع للطرزي. ومن المتوسطة فيه البديع لابن معني. وشرح البديعية للصفيّ الحلّيّ. ومن المبسوطة كتاب التحبير لابن أبي الأصبع.

(١) هكذا بهذا الرسم في الأصل وهو تحريف.

(تنبيه) ومن الكتب المشتملة على علوم المعانى والبيان والبديع روض الأزهار لابن مالك ، والإيضاح لابن مالك ، وأعظمها شهرة بالديار المصرية تلخيص المفتاح لقاضى القضاة جلال الدين القزوينى وعليه عدّة شروح . منها شرح الخلخالى ، وشرح الشيخ أكمل الدين ، وشرح الشيخ بهاء الدين السبكى ، وهو من أجل شروحه ، والمعوّل عليه منها شرح الشيخ سعد الدين التفتازانى .

السابع علم العروض — من الكتب المختصرة فيه عَرُوض ابن مالك ، ولابن الحاجب فيه لاميّة كافية ، اعتنى الناس بشرحها ، وممن شرحها الشيخ جمال الدين ابن واصل ، والشيخ جمال الدين الأسنوىّ . وللساوى لاميّة صاهى فيها لامية ابن الحاجب ، وللإمام القزوينى عليها شرح حسن ، وللأيكى فيه مختصر بديع ، وللجوهرىّ فيه مختصر . ومن المتوسطة فيه عَرُوض ابن القَطَّاع ، وعَرُوض ابن الخطيب التبريزى . ومن المبسوطة كتاب الأمين المحلى ، وعروض الأستاذ أبى الحسن العروضى المعروف بأستاذ المقتدر . وقد نظم فيه صاحبنا شعبان الآثارى محتسب مصر ألفيةً فائقة سماها "هداية الضّايل إلى علم الخليل" جمع فيها فأوعى .

الثامن علم القوافى — من الكتب المختصرة فيها قوافى الأيكى . ومن المتوسطة قوافى ابن القَطَّاع ، ومن المبسوطة قوافى ابن سيده .

التاسع علم قوانين الخط — فى أصول الخط ألفية لشعبان الآثارى ، ولابن الحسين كتاب فى قلم الثلث ، ولابن الشيخ عز الدين بن عبد السلام مصنّف فى قلم النسخ ، وفى صناعة الهجاء المختصة بالقرءان الرائية للشاطبى ، وفى خلال كتب النحو الجامعة كالتسهيل وغيره جملة من الهجاء ، وقد أودعت فى هذا الكتاب ما فيه كفاية من ذلك .

العاشر قوانين القراءة — فيه كتاب التنبيه لأبى عَمْرو الدانى .

الأصل الثـانى

(العلوم الشرعية، وفيه تسـعة علوم)

الأوّل علم النواميس المتعلقُ بالنبوّات — وفيـه كتاب لأرسطاطاليس، وكتاب لافلاطن، وأكثر مسائله فى "كتاب المدينة الفاضلة" لأبى نصر الفارابى، وفى آخر الطوالع والمصباح[1] للبيضاوى مسائلُ من ذلك .

الثانى علم القراءات — من الكتب المختصرة فيه التيسير لأبى عمرو الدانى، ونظمه الشاطبىّ فى قصيدته التى وسمها حرز الأمانى، فأغنتْ عما سواها من كتب القراءات واعتنى الناس بشرحها، ولابن مالك داليَّة بديعة فى علم القراءات لكنها لم تشتهر . ومن الكتب المبسوطة فيه كتاب الروضة فى القراءات، وشروح الشاطبية كالفاسى وغيره .

الثالث علم التفسير — من الكتب المختصرة فيه زاد المَسير لابن الجوزىّ، والوجيز للواحدىّ، والنهر لأبى حيان . ومن المتوسطة فيـه الوسـيط للواحدىّ والكشاف للزّمخشرىّ، ومعالم التنزيل للبغوىّ . ومن المبسوطة البسـيط للواحدىّ، وتفسـير القرطبىّ، وتفسير الامام فخر الدين، والبحر المحيط لأبى حيان .

واعلم أن كل واحد من المفسرين قد غلب عليه فنّ من الفنون يميل إليه فى تفسيره، فالثّيماثىُّ[2] تغلبُ عليه القصص، وابن عطيه تغلب عليه العربية . وابن عطية تغلبُ عليه أحكام الفقه، والزجاج تغلب عليه المعانى وغير ذلك .

الرابع علم رواية الحـديث — أضبطُ الكتب المصنفة فيه وأصحُّها رواية صحيحُ البخارىّ، وصحيح مسـلم رضى الله عنهما . ويتلوهما بقيةُ كتب السنن المشهورة ، كسنن أبى داود، والترمذى، والنَّسائى . وابن ماجه . والدارقطنى . والمسنَدات المشهورة كمسنَد أحمد، وابن أبى شيبة، والبزار ونحوها .

(١) هو كتاب للبيضاوى فى علم الكلام (٢) [illegible] نسبة [illegible] وكنيته [illegible] بأبى محمد عبدالله الا أن المتقدّم دمشقىّ والمتأخر [illegible] كذا يوجد [illegible]

ومن كتب السِّير السيرة لابن هشام ، وزهر الخمائل لابن سيد الناس . ومن الكتب المبسوطة المشتملة على متون الأحاديث دون الرُّواة جامع الأصول لابن الأثير. ومن المتوسطة الجمع فى ذلك الجمعُ بين الصحيحين للحُمَيْدىّ ، ومختصر جامع الأصول لمصنفه [1] . ومن المختصرة فيما يتعلق بالأحكام ، الإلمام بأحاديث الأحكام ، للشيخ تقىّ الدين بن دقيق العيد ، وعمدة الأحكام للحافظ عبد الغنى المقدسىّ .

ومما يتعلق بالترغيب والترهيب رياض الصالحين للنووىّ . ومما يتعلق بالأدعية كتاب الأذكار له ، وسلاح المؤمن لابن الامام . إلى غير ذلك من أنواع المصنَّفات المختلفة المقاصد مما لا يُحصى كثرةً .

الخامس علم دراية الحديث — من الكتب الموصلة للدخول فى ذلك علوم الحديث لابن الصلاح ، وتقريب التيسير للنووىّ ، وعلوم الحديث للحاكم ، والكفاية للخطيب أبى بكر ، وفى أول جامع الأصول المقدّم ذكره فى كتب رواية الحديث قطعةٌ من ذلك . ومن الكتب المبسوطة فى أسماء الرجال الكمال . ومن الكتب المبسوطة فى معانى الحديث شرح البخارى لابن بطال ، وشرحه لابن التين المغربى ، وشرحه لمغلطاى ، وشرحه للكرمانى ، وشرحه لشيخنا سراج الدين بن الملقن ، وشرح مسلم للقاضى عياض ، وشرحه للشيخ محيى الدين النووى ، وشرح سنن أبى داود للخطابى ، وشرح العمدة للشيخ تقى الدين بن دقيق العيد ، وشرحها للشيخ تاج الدِّين الفاكهانى .

ومن الكتب فى غريب الحديث كتاب الغريبين للهروى ، والنهاية لأبى السَّعَادات ابن الأثير ، وغير ذلك من سائر الأنواع .

السادس علم أصول الدين — من الكتب المختصرة فيه الطَّوالع للقاضى ناصر الدين البيضاوى ، والمصباح له ، وقواعد العقائد للخواجا نصير الدين الطُّوسى ، وكتاب الأربعين

(١) أى ابن الأثير الجزرى .

للقاضي جمال الدين بن واصل. ومن المتوسطة المحصل للإمام فخر الدين، والصحائف للسمرقندي، وشرح الطوالع للسيد العبْري، وشرحها للشيخ عز الدين الأَصْفَهاني.

السابع علم أصول الفقه — من الكتب المختصرة فيه مختصر ابن الحاجب، ومنهاج البيضاوي، والتنقيح للقرافي، والقواعد لابن الساعاتي. ومن المتوسطة فيه التحصيل للأرموي. ومن المبسوطة فيه الإحكام للآمدي، والمحصول للإمام فخر الدين، وشروح مختصر ابن الحاجب كشرح القطب الشيرازي، وشرح المسيلي، وشرح الشيخ شمس الدين الأَصْفَهاني، وأتقن شرح عليه للعضد، وكشرح منهاج البيضاوي لابن المطهر، وشرحه للشيخ جمال الدين الأسنوي، وغير ذلك، وكشرح التنقيح لمصنفه.

الثامن علم الجدل — من الكتب المختصرة فيه المُغْني للأَبْهَري، والفُصُول للنسفي والخُلاصة للمراغي، والمَعُونة لأبي إسحاق الشيرازي. ومن المتوسطة فيه النفائس للعميدي، والوسائل للأرموي. ومن المبسوطة تهذيب النكت للأَبْهَري.

التاسع علم الفقه — من كتب الشافعية المختصَرة مختصر المزني، ومختصر البُوَيْطي والوجيز للغزالي، والتنبيه لأبي إسحاق الشيرازي، والمحرَّر للرافعي، والمنهاج للنووي والحاوي الصغير لعبد الغفار القَزْويني، والعجَب العجاب، وجامع المختصرات، ومختصر الجوامع للشيخ كمال الدين السيناني. ومن المتوسطة المهذب لأبي إسحاق الشيرازي، والوسيط للغزالي، والشرح الصغير للرافعي، والروضة للنووي، والجواهر للقَمُولي، وأجمعُها على اختصارٍ المتقن للشيخ كمال الدين السيناني. ومن المبسوطة الأمُّ للامام الشافعي، والحاوي للماوردي، والبحر للرُّوياني، والنهاية لإمام الحرمين، والبسيط للغزالي، والشامل لابن الصباغ، والتتمة للمتولي، والعدة لأبي المكارم الرُّوياني، والشرح الكبير على الوجيز للرافعي، وشرح المهذب للنووي انتهى فيه إلى

أثناء الربا ، ولو كمل لأغنىٰ عن حَلّ كتب المذهب، والكفاية فى شرح التنبيه لابن الرِّفْعة ، والمطلب فى شرح الوسيط له ، والبحر المحيط فى شرح الوسيط للقَمُولى .
ومن محاسنها المُهِمَّات علىٰ الرافعى، والروضة للشيخ جمال الدين الأسنوى .

ومن كتب الحنفية المختصرة البداية، والنافع، والكنز، ومجمع البحرين ، ومختار الفتوى . ومن المتوسطة الهداية . ومن المبسوطة المحيط، والمبسوط ، والتحرير والجامع الكبير وغير ذلك .

ومن كتب المالكية المختصرة التلقين للقاضى عبد الوهاب ، ومختصر ابن الجَلَّاب ، ومختصر ابن الحاجب . ومن نفيس المختصرات فيها مختصر الشيخ خليل المالكى ، حذا فيه قريبا من حذو جامع المختصرات . ومن المتوسطة التهذيب للبرادعى ، والجواهر لابن شاس ، ونظم الدرّ للشارِمْسَاحِىّ . ومن المبسوطة النوادر لابن أبى زيد ، والبيان والتحصيل ، وكتاب ابن يونس ، وشرح التلقين للمازَرى ، وليس بكامل ، والذخيرة للقَرَافى .

ومن كتب الحنابلة المختصرة مختصر الخِرَقى ، والهداية الصغرى لابن رَزِين . ومن المتوسطة المُقْنِع ، والكافى . ومن المبسوطة المغنى لابن قُدَامة .

ومن كتب الخلاف فى المذاهب الأربعة الاختلافُ والجمع لابن هبيرة الحنبلى . ومن المشتمل علىٰ مذاهب السلف الإشراف لابن المنذر .

الأصـل الثـالث

(العـلم الطبيعى ، وفيه اثنا عشر علما)

الأول علم الطب — من الكتب المختصرة فيه الموجَز لابن النفيس ، والفصول لأبقراط . ومن المتوسطة المختار لابن هُبل ، والمائة للمسيحى ، والشافى لابن القف . ومن المبسوطة كامل الصناعة المعروف بالملكى ، والقانون للرئيس أبى علىّ بن سينا

وهو الذى أحرج الطب من التلفيق إلىٰ التهـذيب والترتيب ، وهو أجمـع الكتب وأبلغها لفظا وأحسنها تصنيفا .

الثانى علم البيطرة — من الكتب المصنفة فيه كتاب حنين بن اسحاق .

الثالث علم البيزرة — من الكتب المصنفة فيه كتاب القانون الواضح وفى كتاب العلاجين لابن العوام جملة كافية من البيطرة والبيزرة .

الرابع علم الفِراسة — من الكتب المصنفة فيه كتاب أرسطاطاليس وكتاب الفراسة للامام فخر الدين الرازى، ولفيلمن فيه كتاب مختص بالتفرّس فى النساء .

الخامس علم تعبير الرؤيا — من الكتب المختصرة فيه فوائد الفرائد لابن الدقّاق، وتعبير الحسلى المرتب على حروف المعجم . ومن المتوسطة فيه شرح البدر المنير للحسلى . ومن المبسوطة فيه تأليف أبى سهيل المسيحى، والبشرى فى شرح كتاب الكرمانى .

السادس علم أحكام النجوم — من الكتب المختصرة فيه مجمل الأصول لكوشيار، والجامع الصغير لمحيي الدين المغربى . ومن المتوسطة كتاب التاريخ والمغنى لابن هبنتا . ومن المبسوطة مجموع ابن سريج . ومن الكتبُ المفردة بعض أجزائه الأدوار لأبى معْشَر، والإرشاد لأبى الريحان البيرونى، والمواليد لخصيبى، والتحاويل للسجزى، والمسائل للقيصرانى، ودرج الفلك لسكلوشا . ومن المدخل إليه مدخل القبيصى، والتفهيم للبيرونى مدخل إلىٰ هذا الفن، وفيه ما يحتاج إليه من الرياض أيضا .

السابع علم السحر، وعلم الحرف والأوفاق — ومن كتب السحر المعتبرة فى بعض طرائقه السر المكتوم المنسوب للامام فخر الدين، وكتاب الجمهرة للجوار زمى، وكتاب طيمارس لارسطاطاليس، وفى غاية الحكم للمجريطى فصول كافيه فى بعض طرقه أيضا .

ومن كتب علم الحرف كتاب لطائف الإشارات للبونى ، وشمس المعـارف له ، وهو عزيز الوجود، وفى النسخ المعتبره من اللمعه النورانيه للبونى قطعة كافية منه .

الثامن علم الطِّلَّسْمات — فى كتاب طمتاما الذى نقله ابن وحشية عن النبط أُنْمُوذج لعمل الطِّلَّسْمات ومدخل إلىٰ علمها، وفى غاية الحكيم للمجريطى قواعد هذا العلم . قال فى إرشاد القاصد إلا أنه ضنّ بالتعليم كل الضن، ولأبى يعقوب السكاسكى فيه كتاب جليل القدر .

التاسع علم السيميا — رأيت فيه كتبا مجهولة المصنِّفين .

العاشر علم الكيميا — من الكتب المطوّلة فيه كتب جابر بن حَيَّان . قال فى إرشاد القاصد وأمثل كتب الإسلاميين فى ذلك التذكرة لابن كمونه ، ورُتْبة الحكيم للمجريطى، وشرح الفصول لعون بن المنذر . ومن النظم الرائق فيه نظم الشذورى .

الحادى عشر علم الفلاحة — من الكتب المختصرة فيه الفِلاحة المصرية . ومن المبسوطة فيه الفلاحة النبطية، ترجمة أبى بكر بن وحشية .

الثانى عشر علم ضرب الرمل — من الكتب المصنفة فيه تجارب العرب، وفى مثلثات ابن محقق[1] حصر صوره .

تنبيه — لارسطاطاليس ثمانية كتب فى الطبيعى يختص كل كتاب منها بجزء جردها ابن سينا فى مختصر ترجمه بالمقتضبات ، ولخصها أبو الوليد بن رشد تلخيصا مفيدا، والمتأخرون جمعوا فى غالب كتبهم بينه وبين الالهى فى التصنيف كما فى الطوالع والمصباح للبيضاوى .

الأصـل الرابع

(علم الهندسة، وفيه عشرة علوم)

الأوّل علم عقود الأبنية — من الكتب المصنفة فيه مصنف لابن الهيثم ، ومصنف للكرجى .

---

(١) فى كشف الظنون محقوق

الثانى علم المناظر — من الكتب المختصرة فيه كتاب اقليدس . ومن المتوسطة كتاب على بن عيسى الوزير . ومن المبسوطة كتاب ابن الهيثم .

الثالث علم المَرَايا المُحرِقة — من الكتب المصنفة فيه كتاب لابن الهيثم .

الرابع علم مراكز الأثقــال — من الكتب المعتبرة فيــه كتاب ابن الهيثم ، وفيه كتاب لأبى سهل الكوهى .

الخامس علم المســاحة — من الكتب المختصرة فيــه كتاب ابن محلى الموصلى . ومن المتوسطة كتاب ابن المختار . ومن المبسوطة ، كتاب ارشميدس .

السادس علم إنباط الميــاه — للكرخى فيه مختصر جليل ، وفى جلال الفلاحة النبطية لابن وحشية مهمات هذا العلم .

السابع علم جرّ الأثقال — فيه كتاب لفيلن .

الثامن علم البنكامات — فيه كتاب لارشميدس عمدة فى بابه .

التاسع علم الآلات الحربية — فيه كتاب لبنى موسى بن شاكر .

العاشر علم الآلات الروحانية — أشهر كتبه الكتاب المعروف بحيل بنى موسى ، وفيه كتاب مختصر لفيلن ، وكتاب مبسوط للبديع الجزرى .

الأصل الخامس

(علم الهيئة ، وفيه خمســـة علوم)

الأوّل علم الزيجات — قال فى إرشاد القاصد أقرب الزيجات عهدا بالرصــد الزيج العــلائى . قال وأهل مصر فى زماننا إنمــا يقيمون دفتر السنة من زيج لفقوه من عدّة أزياج واقبوه بالمصطلح ، وأتم الزيجات فى زماننا الذى نحن فيه زيج الشيخ علاء الدين بن الشاطر الدمشقى ، وهو عزيز الوجود لم ينتشر ولم تكثر نسخه بعد .

الثاني علم المواقيت — من الكتب المختصرة فيه نفائس اليواقيت في علم المواقيت . ومن المبسوطة جامع المبادئ والغايات لأبي علي المراكشي .

الثالث علم كيفية الأرصاد — من الكتب المعتبرة فيه كتاب الأرصاد لابن الهيثم، وكتاب الآلات العجيبة للخازني يشتمل عليه .

الرابع علم تسطيح الكرة — من الكتب القديمة فيه كتاب تسطيح الكرة لبطليموس . ومن الكتب المحدثة فيه الكامل للفرغاني، والاستيعاب للبيروني ، وآلات التقويم للمراكشي .

الخامس علم الآلات الظلية — فيه عدة مصنفات ، ولإبراهيم بن سنان الحراني فيه كتاب مبرهن .

الأصل السادس

(علم العدد المعروف بالارثماطيقي، وفيه خمسة علوم)

الأول علم الحساب المفتوح — من الكتب المختصرة فيه مختصر ابن مجلي الموصلي ومختصر ابن فلوس المارديني، ومختصر السموءل بن يحيى المغربي . ومن المتوسطة الكافي للكرجي . ومن المبسوطة الكامل لأبي القاسم بن السمح .

الثاني علم حساب التخت والميل — من الكتب المصنفة فيه على طريق الهندي كتب معدة، ومن الكتب المصنفة فيه على طريق الغبار كتاب الحصار، وكتاب المدخل وغيرهما .

الثالث علم الجبر والمقابلة — من الكتب المختصرة فيه نصاب الجبر لابن فلوس الماريني، والمفيد لابن مجلي الموصلي . ومن المتوسطة فيه كتاب المظفر الطوسي . ومن المبسوطة جامع الأصول لابن المجلي ، والكامل لأبي شجاع بن أسلم .

الرابع علم حساب الخطأين — وفيه من الكتب الجامعة كتاب لزين الدين المغربي

الخامس علم حساب الدور والوصايا — ومن الكتب المصنفة فيه كتاب لأفضل الدين الخونجي .

الأصل السابع

(العلوم العملية، وفيه ثلاثة علوم)

الأول علم السياسة — ومن الكتب المصنفة فيه كتاب السياسة لارسطاطاليس الذي ألفه للاسكندر، وكتاب المدينة الفاضلة لأبي نصر الفارابي، وللشيخ تقي الدين ابن تيمية كتاب حسن في السياسة الشرعية .

الثـاني علم الأخلاق — ومن الكتب المختصرة فيـه ، كتاب للشـيخ أبي علي ابن سينا . ومن المتوسطة كتاب الفوز لأبي علي بن مسكويه . ومن المبسوطة كتاب للامام فخر الدين الرازي .

الثالث علم تدبير المنزل — ويحصل الانتفاع فيهـا بالاطلاع على السير الفاضلة المحمودة للملوك وغيرهم، ولا أنفع من السيرة السوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام .

وإذا عرف الكاتب هذه العلوم والفنون وما صنف فيهـا من الكتب ، أمكنه التصرف فيها في كتابه بذكر علم نبيل لمساواته أو التفضيل عليه، وذكر كتاب مصنف في ذلك حيث تدعو الحاجة إلى ذكره كما وقع لي في تقريظ مولانا قاضي القضاة شيخ الإسلام جلال الدين عبد الرحمن، ابن سيدنا شيخ الإســلام أبي حفص عمر البلقيني الكناني الشافعي "إن تكلم في الفقه فكأنمـا بلسان الشافعي تكلم ، والربيع عنه يروي ، والمزني منه يتعلم ، أو خاض في أصول الفقه قال الغزالي هذا هو الإمام باتفاق ، وقطع السـيف الآمدي بأنه المقدم في هذا الفن على الإطلاق ، أو جرى في التفســير قال الواحدي هذا هو العالم الأوحد، وأعطاه ابن عطية صفقة يده بأن مثله في التفسير لا يوجد ، واعترف له صاحب الكشاف بالكشف عن الغوامض، وقال الإمام فخر الدين هـــذه مفاتيح الغيب وأسرار التنزيل فارتفع الخــلاف واندفع المعارض، أو أخذ في القراءات والرسم أزرى بأبي عمرو الداني، وغدا شأو الشاطبي

فى الرائية وتقدّمه فى حرر الأمانى ، أو تحدّث فى الحديث شهد له السفيانان بعلو الرتبة فى الروايه ، وآعترف له آبن معين فى التحرير(١) والتقدّم فى الدرايه ، وهتف الخطيب البغدادىّ بذكره على المنابر ، وقال آبن الصلاح لمثل هذه الفوائد تتعين الرحلة ، وفى تحصيلها تنفد المحابر ، أو أبدىٰ فى أصول الدين نظرا تعلق منه أبو الحسن الأشعرىّ بأوفىٰ زمام ، وسدّ باب الكلام علىٰ المعتزلة حتّى يقول عمرو بن عُبَيْد وواصل بن عطاء ليتنا لم نفتح بابا فى الكلام ، أو دقق النظر فى المنطق بهر الأَبْهَرِىَّ فى مناظرته ، وكتب الكاشى وثيقة علىٰ نفسه بالعجز عن مقاومته ، أو ألمّ بالجَدَل رمىٰ الأرموىُّ نفَسه بين يديه ، وجعل العميدىُّ عمدتَه فى آداب البحث عليه ، أو بسط فى اللغة لسانه آعترف له آبن سيده بالسياده ، وأقرّ بالعجز لديه الجوهرى وجلس آبن فارس بين يديه مجلس الآستفاده ، أونحا إلىٰ النحو والتصريف أربىٰ فيه علىٰ سيبويه ، وصرف الكسائىّ له عزمه فسار من البعد إليه ، أووضع أنموذجا فى علوم البلاغة ، وقف عنده الجرجانى ، ولم يتعدّ حدَّه آبنُ أبى الأصبع ولم يجاور وضعَه الرُّمَّانى ، أو روىٰ أشعار العرب ، أزرى بالأصمعىّ فى حفظه ، وفاق أبا عُبَيدة فى كثرة روايته وغزير لفظه ، أو تعرض للعَرُوض والقَوافى استحقهما علىٰ الخليل ، وقال الأخفش عنه أخذت المتدارَك وآعترف الجوهرىّ بأنه ليس له فى هذا الفن مثيل ، أو أصّل فى الطب أصلا ، قال آبن سينا هذا هو القانون المعتبر فى الأُصُول ، وأقسم الرازى محيي الموتىٰ إن بقراط لو سمعه لما صنّف الفصول ، أو جنح إلىٰ غيره من العلوم الطبيعيه فكأنما طبع عليه ، أو جذبه بزمام فانقاد ذلك العلم إليه ، أوسلك فى علوم الهندسه طريقا لقال اقليدس هذا هو الخط المستقيم ، وأعرض آبن الهيثم عن حل الشكوك وولّى وهو كظيم ، وحمد المؤتمن بن هود عدم إكمال

---

(١) لعله بالنثر .

كتابه الاستكمل، وقال عرفت بذلك نفسى وفوق كل ذى علم عليم، أو عرّج على علوم الهيئــة لاعترف أبو الريحان البيرونى أنه الأُعْجُوبة النادرة، وقال ابن أفلح هذا العالم قطب هــذه الدائرة، أو صرف إلى علم الحساب نظره لقــال السموءل ابن يحيى، لقد أحيا هذا العزّ الدارس، وأبحاث عن هذا العلم غَيَاهبه حتّى لم يبق غَمَةٌ لعامهٍ ولا غُمَّة على ممــارس

وقد وجَدْت مكانَ القولِ ذا سَعَةٍ   فإن وجَدْتَ لساناً قائلا فقُلِ

وسوف أورد هذه الرسالة فى موضعها من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى، وكذلك يجرى القول فيما يكتب به من إجازات أهل العلوم ونحوها فى كل علم، وقد تقــدّم ذكر شىء ممــا يجرى هذا المجرى فى الكلام على النحو ونحوه .

تمّ الجــــزء الأوّل

ويليه الجزء الثانى، أوّله "النوع الثامن عشر- المعرفة بالأحكام السلطانية"

(المطبعة المصرية ١١ ١٩٢٢ ١)

فهرست الجزء الأوّل من كتاب صبح الأعشى

صحيفة

المقالة الأولى